

# الاعجاز القرآني

كتاب في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

إعداد: د. محمد صالح المنجد

دار  
الكتاب  
والعلم  
1421 هـ



# الجامع الأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

## الجزء التاسع

عظيم

برائے داس العلوم مجلد بیہ سیار کوٹ

از

برادر محمد امین وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ حال قسطنطنیہ

قصر مقام الحین الوطنی

محمد ۱۴۰۳ ھ ہجری

اعاد طبعہ

دار احیاء التراث العربی

بیروت - لبنان

۱۹۶۶



## بيان

تم تحقيق هذا الجزء من تفسير القرطبي وهو التاسع على الأصول  
الآتية :

- |       |             |  |
|-------|-------------|--|
| ( ١ ) | نسخة رقم ٩٥ | تفسير المرموز إليها بحرف ا               |
| ( ٢ ) | » » ١       | » حلیم المرموز إليها بحرف ح              |
| ( ٣ ) | » » ٢٥٨     | » بالمكتبة الأزهرية المرموز إليها بحرف ز |
| ( ٤ ) | » » ٢٧٦     | » تفسير المرموز إليها بحرف ع             |
| ( ٥ ) | » » ٩٣      | » » » » ك                                |
| ( ٦ ) | » » ٩٢      | » » » » و                                |
| ( ٧ ) | » » ٣٠٧     | » » » » ی                                |

وقد وصفت هذه النسخ جميعها في مقدمة الجزء الثالث ( الطبعة الثانية )

حققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش



## فهرس الجزء التاسع



## فهرس الجزء التاسع

### تفسير سورة هود

صفحة

- القول بمكيتها . الترغيب في تلاوتها يوم الجمعة . الأحاديث الواردة في أنها شيت  
النبي صلى الله عليه وسلم وتأويل ذلك . أقوال النحويين في تنوين لفظ « هود »  
وعدم تنوينه إذا جعل أسما للسورة ... ١ ...  
تفسير قوله تعالى : « أَلَمْ نَكْتُبْ أَكْثَرُ آيَاتِهِ ... » الآيات . بيان معنى لإحكام  
الآيات وتفصيلها . ما قيل في عطف التوبة على الاستغفار . الاستغفار  
بلا إقلاع توبة الكذابين . معنى المناع الحسن . الأقوال في الأجل المسمى ... ٢ ...  
تفسير قوله تعالى : « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ... » الآية . سبب  
نزولها . الفراءات في « يثنون » ومعناها ... ٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... » الآية ...  
معنى « على » في الآية . ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص ، أوهى عامة .  
وجه نظم الآية بما قبلها . معنى الدابة . حقيقة الرزق . لا يجوز أن يكون  
الرزق بمعنى الملك . قصة الأشعرين لما هاجروا وقدموا على النبي صلى الله  
عليه وسلم وقد نفذ زادهم . الأقوال في المستقر والمستودع ... ٦ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... » الآية ...  
بيان أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . الآثار في بدء الخلق ... ٨ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَاتَّخَذْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ إِلَى الْأُمَّةِ مَعْدُودَةً لِيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ... »  
الآية . معنى الأمة هنا وأصلها . الأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ... ٩ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِ  
كُفُورٌ ... » الآيات ... ١٠ ...  
تفسير قوله تعالى : « فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكَ بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ ... » الآيات . سبب  
النزول . من قال : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلِكٌ » هو عبد الله  
ابن أبي أمية المخزومي ... ١١ ...

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ... »  
الآية . فيه مسائل : هل « كان » هنا زائدة ، أو هي في موضع جزم بالشرط .
- ١٣ ... .. اختلاف العلماء في تأويل الآية ... .. تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ... » الآية ...  
إشارة الآية إلى النخيد في النار . تأويلها إذا أريد بها المؤمن . اقتضاؤها
- ١٥ ... .. الوعيد بسبب الإيمان ... .. تفسير قوله تعالى : « أفن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ... » الآية ...
- ١٦ ... .. أقوال العلماء في الذي على بينة والشاهد ... .. تفسير قوله تعالى : « ومن أظلم ممن آفترى على الله كذبا ... » الآيات . الكلام  
على الأشهاد ... ..
- ١٨ ... .. تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم ... » الآيات . أقوال العلماء  
في إعراب « لا جرم » ومعناها ... ..
- ٢٠ ... .. تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك  
أصحاب الجنة ... » الآيات . بيان معنى الإخبات وأصله . الحكمة في ذكر
- ٢١ ... .. قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم ... .. تفسير قوله تعالى : « فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثنا ... »  
الآية . فيه مسائل : بيان معنى « الملا » . مفرد « أرذل » و « رذل » أو « أرذل » .  
معنى الرذل في اللغة والمراد به هنا . اختلاف العلماء في تعيين السفلة . السكك
- ٢٢ ... .. من السفلة أم لا ... ..
- ٢٥ ... .. تفسير قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ... » الآيات ...
- ٢٧ ... .. تفسير قوله تعالى : « قالوا يا نوح قد جادلنا فأكثر جدلنا ... » الآيات ...
- ٢٩ ... .. تفسير قوله تعالى : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ... » الآيات ...  
تفسير قوله تعالى : « و يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ... » الآيات ...
- ٣٠ ... .. قصة السفينة ... ..
- ٣٦ ... .. تفسير قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ... » الآيات ...

صفحة

- تفسير قوله تعالى : «ونادى نوح ربه فقال رب إن أبى من أهلك...» الآيات ...  
فيه مسائل : بيان استحلال نداء نوح عليه السلام لأبيه . هل كانت خيانة  
أمراته له في الفراش ، أو في إخبار قومها بفران التنور . في الآية تسلية للخلق  
في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . فيها دليل على أن الآمن من الأهل لغة  
وشرعا . فيها دليل على أن الولد للفراش على القول بأن الولد كان أبى أمراته ... ٤٥
- تفسير قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله  
غيره ... » الآيات . عاد أسم رجل آتسبوا إليه . كان قوم هود أهل بساتين  
وزروع وعمارة . كانت مساكنهم الرمال ... ٤٩
- تفسير قوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله مالكم من  
إله غيره ... » الآية . فيه مسائل : اختلاف الفراء في صرف ثمود وعدم  
صرفه . بيان معنى الاستعمار هنا . المعانى في كلمة استعمل . العمرى وحكمها  
عند الفقهاء ... ٥٥
- تفسير قوله تعالى : « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا... » الآيات ... ٥٨
- تفسير قوله تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام... »  
الآيات . في قوله تعالى : « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » مسائل : الكلام على  
الضيافة . الجهور على أن المراد بضحك سارة هو الضحك المعروف لا الحيف .  
التسمية في أول الطعام والخمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ... ٦٢
- تفسير قوله تعالى : « قالت يا ويلتنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ... » الآية ...  
فيه مسئلتان : أصل « يا ويلتنا » ودلالاتها ... ٦٩
- تفسير قوله تعالى : « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل  
البيت ... » الآية . فيه مسائل : إنكار الملائكة على سارة تعجبها من أمر الله .  
في الآية دليل لأكثر العلماء على أن الذبيح إسماعيل . فيها دليل على أن زوجة  
الرجل من أهل البيت . فيها دليل على أن منتهى السلام وبركاته ... ٧٠
- تفسير قوله تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم  
لوط ... » الآيات . ما قيل في مجادلة إبراهيم عليه السلام للرسول ... ٧٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ... » الآيات . قصة لوط عليه السلام . هل بناته كفن من صلبه ، أو المراد بهن جملة النساء ، أو كان الكلام مدافعة . ليس ألف « أظهر » للتفضيل ... ... ٧٣
- تفسير قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم أعبدوا الله مالمكم من إله غيره ... » الآيات . مدين بنو مدين ، أو أنه أسم مدينةهم نسبوا إليها . قوم شعيب عليه السلام كانوا يقطعون الدراهم والدنانير أيضا . قاطع الدراهم والدنانير ترد شهادته ويعاقب ... ... ٨٤
- تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ... » الآيات ... ٩٣
- تفسير قوله تعالى : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ... » الآيات . اختلاف العلماء في تأويل : « مادامت السموات والأرض » . اختلافهم في استثناء : « إلا ماشاء ربك » على عشرة أقوال ... ... ٩٤
- تفسير قوله تعالى : « وإن كلالنا ليوفينهم ربك أعمالهم ... » الآية . اختلاف الفراء في قراءة « وإن كلالنا » ... ... ١٠٤
- تفسير قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ... » الآية . فيه مسائل : حقيقة الركون والمراد به هنا . القراءة في « تركنوا » . دلالة الآية على هجران أهل الكفر والمعاصي . محبتهم عن ضرورة مباحة ... ... ١٠٧
- تفسير قوله تعالى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ... » الآية . فيه مسائل : المراد بالصلاة هنا المفروضة . الرد على من زعم من الصوفية أن المراد بها استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا . اختلاف العلماء في المراد بطرفي النهار . الحسنات ها هنا هي الصلوات الخمس أو هي عامة . سبب نزول الآية رجل من الأنصار خلا بأمرأة فقبلها . دلت الآية على أن القبلة الحرام لا يجب فيها الحدة . الصلاة ذكرت في القرآن مجللة وبينها النبي صلى الله عليه وسلم ... ١٠٨
- تفسير قوله تعالى : « وأصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ... » الآيات ... ١١٣
- تفسير قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ... » الآيات ١١٤
- تفسير قوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... » الآيات ١١٦



### تفسير سورة يوسف عليه السلام

منحة

- تفسير قوله تعالى : « آتاك آيات الكتاب المبين ... » الآيات . السورة مكية كلها
- أو إلا أربع آيات منها . سبب نزول السورة ... .. ١١٨
- تفسير قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص ... » الآية . اختلاف
- العلماء في تسمية هذه السور بأحسن القصص ... .. ١١٩
- تفسير قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا ... الآية .
- ذكر أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ... .. ١٢٠
- تفسير قوله تعالى : « قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك
- كيذا ... » الآية . فيه مسائل : الكلام على الرؤيا ... .. ١٢٢
- تفسير قوله تعالى : « وكذلك يجتديك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ... » الآية .
- معنى الإجتباء وأصله . كان تفسير رؤيا يوسف عليه السلام بعد أربعين سنة
- تفسير قوله تعالى : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ... » الآيات .
- السائلون عن قصة يوسف هم اليهود بالمدينة . أسماء إخوة يوسف وعددهم .
- اختلافهم في القائل يقتل يوسف أو طهره ... .. ١٢٩
- تفسير قوله تعالى : « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب ينتقطه
- بعض السيارة ... » الآية . فيه مسائل : الاختلاف في القائل بطرح يوسف
- في الجب . تدبير إخوة يوسف يدل على أنهم لم يكونوا أنبياء . معنى الالتقاط
- والكلام على اللقطة والضوال ... .. ١٣١
- تفسير قوله تعالى : « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ... » الآيات ... ١٣٨
- تفسير قوله تعالى : « قال اني ليحزنني أن تذهبوا به ... » الآيات ... ١٤٠
- تفسير قوله تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ... » الآية ... ١٤١
- تفسير قوله تعالى : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون . » فيه مشئتان : بيان سبب
- مجيئهم ليلا ، ووقع الخبر عند يعقوب عليه السلام . في الآية دليل على أن بكاء
- المـرء لا يدل على صدق مقاله ... .. ١٤٤

- صفحة
- تفسير قوله تعالى : « قالوا يا ايانا انا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله  
الذئب ... » الآية . فيه مسائل : الكلام على المسابقة . مسابقة النبي صلى الله  
عليه وسلم لأبي بكر وعمر ... ١٤٥
- تفسير قوله تعالى : « وجاءوا على قميصه بدم كذب ... » الآية . فيه مسائل : الدم الكذب  
كان دم سخلة أو جدى ذبحوه . استدلال يعقوب عليه السلام بإسلامة القميص  
على كذبهم . استدلال الفقهاء بهذه الآية على إعمال الأمارات في مسائل من الفقه ١٤٩
- تفسير قوله تعالى : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ... » الآية ... ١٥٢
- تفسير قوله تعالى : « وشروه بخم نخس دراهم معدودة ... » الآية . فيه مسائل :  
اختلاف العلماء في معنى « بنخس » هنا . أصل النخذين الوزن . اختلاف  
العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أو لا . في الآية دليل على جواز شراء  
الشيء الخطير بالثمن اليسير ... ١٥٤
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذي اشتراه من مصر لأمرأته أكرمي مثواه ... » الآية ١٥٧
- تفسير قوله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ... » الآية ... ١٦١
- تفسير قوله تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » الآيات ... ١٦٢
- تفسير قوله تعالى : « وأستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ... » الآية .  
فيه مسئلتان : في الآية دليل على القياس والعمل بالعرف ... ١٧٠
- تفسير قوله تعالى : « قال هي راودتني عن نفسي .. » الآيات . فيه مسائل :  
الاختلاف في الشاهد . إذا كان الشاهد طفلا فلا يكون فيه دلالة على العمل  
بالأمارات . قول محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل ... ١٧٢
- تفسير قوله تعالى : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ... »  
الآيات ... ١٧٥
- تفسير قوله تعالى : « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ... » الآيات ... ١٨٤
- تفسير قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ... » الآية .  
فيه مسائل : بيان علامات براءة يوسف . مقدار المدة التي أقامها في السجن .  
حكم ما إذا أكره الرجل على الزنى ... ١٨٦

صفحة

- تفسير قوله تعالى : «ودخل معه السجن فتيان...» الآيات . مواساة يوسف لأهل السجن . قصة الخباز والساق ... .. ١٨٨
- تفسير قوله تعالى : «يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار...» الآيات ... .. ١٩٢
- تفسير قوله تعالى : «يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه نجرا...» الآية . فيه مسألان : تأويل رؤيا الساق والخباز . من كذب في رؤياه ففسرها له العابر أيلزمها حكمها تفسير قوله تعالى : «وقال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك ...» الآية . فيه مسائل : الظن هنا بمعنى اليقين ، أو هو على بابہ . النهي عن دعاء السيد بالرب ، والمملوك بالعبد . الأقوال في تفسير البضع . في الآية دليل على جواز التعاقب بالأسباب ... .. ١٩٤
- تفسير قوله تعالى : «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف...» الآية ١٩٨
- تفسير قوله تعالى : «قالوا أضغاث أحلام...» الآية ... .. ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى : «وقال الذي نجا منهما وأدكر بعد أمة أنا أنبيؤكم بتأويله...» الآيات ٢٠١
- تفسير قوله تعالى : قال تزرعون سبع سنين دأبا ... الآية . الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية... .. ٢٠٢
- تفسير قوله تعالى : «ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد...» الآية . الآية أصل في صحة رؤيا الكافر ... .. ٢٠٤
- تفسير قوله تعالى : «وقال الملك آئتوني به أستخلصه لنفسي...» الآية ... ٢١٠
- تفسير قوله تعالى : «قال أجمعاني على خزان الأرض ...» الآية . فيه مسائل : بيان تقليد يوسف الإمارة وتزويجه زليخا . في الآية ما يديح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر . وفيها دليل على جواز أن يخاطب الإنسان عملا يكون له أهلا ... .. ٢١٢
- تفسير قوله تعالى : «وكذلك مكأ ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء...» الآيات ٢١٧
- تفسير قوله تعالى : «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم...» الآيات ... ٢٢٠
- تفسير قوله تعالى : «قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله...» الآية . الآية أصل في جواز الجملة بالعين والثبقة بالنفس ... .. ٢٢٥

- صفحة  
تفسير قوله تعالى : « وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد ... » الآية . فيه مسائل :  
٢٣٥ ...  
تفسير قوله تعالى : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ... » الآيات ...  
٢٣٨ ...  
تفسير قوله تعالى : « قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ... » الآيات . فيه مسائل :  
الكلام على الجعل والكفالة ...  
٢٣١ ...  
تفسير قوله تعالى : « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ... » الآيات ...  
٢٣٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... » الآية . فيها دليل على جواز  
التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف الشريعة . للرجل أن يتصرف  
في ماله قبل حلول الحول إذا لم ينو الفرار من الصدقة ...  
٢٣٥ ...  
تفسير قوله تعالى : « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ... » الآيات ...  
٢٣٨ ...  
تفسير قوله تعالى : « أرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن أنبئك سرق ... » الآية .  
تضمنت الآية جواز الشهادة . الكلام على الشهادات ...  
٢٤٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ... » الآية .  
فيها دليل على أن للإنسان أن يرفع التهمة عن نفسه إن كان على حق ...  
٢٤٥ ...  
تفسير قوله تعالى : « قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ... » الآية .  
الواجب على المسلم أن يتلقى المصائب بالصبر الجميل ...  
٢٤٦ ...  
تفسير قوله تعالى : « رتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ... » الآية . الالتفات  
في الصلاة نقص فيها . أجوبة العلماء عن معنى شدة حزن يعقوب عليه السلام  
٢٤٧ ...  
تفسير قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ... » الآيات ...  
٢٤٩ ...  
تفسير قوله تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهنا الضر ... » الآية .  
فيها دليل على جواز الشكوى عند الضر . وفيها دليل على أن أجرة الكيال  
والوزان على البائع ...  
٢٥٢ ...  
تفسير قوله تعالى : « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ... » الآيات ...  
٢٥٥ ...  
تفسير قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش ونحروا له سجدا ... » الآية . السجود كان  
أخفاء وقد نسخ في شرعنا ، حكم الإشارة بالإصبع في السلام . الترغيب في المصالح  
٢٦٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ... » الآيات  
٢٦٩ ...



## سورة الرعد

صفحة

- ٢٧٨ ... تفسير قوله تعالى : « الْمَرَّ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ ... آيَاتِ ... »
- ٢٨٠ ... تفسير قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ... » آيَاتِ
- ... تفسير قوله تعالى : « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ ... »
- ... آيَاتِ . آخْتِلَافُ الْفُقَهَاءِ فِي حَيْضِ الْحَامِلِ . الْحَامِلُ تَضَعُ حَمْلَهَا لِأَقْلٍ مِنْ
- ٢٨٥ ... تسعة أشهر وأكثر . آخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي أَكْثَرِ الْحَمْلِ ...
- ٢٩١ ... تفسير قوله تعالى : « لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ... » الآية ...
- ... تفسير قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ... » آيَاتِ . بَيَانُ
- ٢٩٥ ... سَبَبُ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ » ...
- ... تفسير قوله تعالى : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ
- ٣٠٠ ... بِشَيْءٍ ... » آيَاتِ ...
- ٣٠٣ ... تفسير قوله تعالى : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ... » الآية ...
- ٣٠٤ ... تفسير قوله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ... » آيَاتِ ...
- ... تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ أَنْ يَرْحِمَ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » فِيهِ مَسْئَلَتَانِ :
- ٣٠٧ ... هَلِ الْمِيثَاقُ هُنَا عَامٌ أَوْ خَاصٌّ . التَّوَكُّلُ لَا يَنَافِي الْأَخْذَ فِي الْأَسْبَابِ ...
- ٣٠٩ ... تفسير قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ... » آيَاتِ ...
- ... تفسير قوله تعالى : « كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ... » الآية .
- ٣١٧ ... سَبَبُ نَزُولِهَا ...
- ٣١٨ ... تفسير قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ... » الآية . سَبَبُ نَزُولِهَا ...
- ٣٢١ ... تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرِيسَلٍ مِنْ قَبْلِكَ ... » آيَاتِ ...
- ٣٢٥ ... تفسير قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ... » آيَاتِ ...
- ... تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهَا أَزْوَاجًا وَذَرِيَّةً ... »
- ٣٢٧ ... الآية ، سَبَبُ نَزُولِهَا . هَذِهِ الْآيَةُ تَحْضُ عَلَى النِّكَاحِ ...
- ٣٢٩ ... تفسير قوله تعالى : « يَحْوَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَشَبُثُ ... » آيَاتِ ...

## تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

صفحة	تفسير قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... » الآيات ...	٣٣٨
٣٤١	تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... » الآيات ...	٣٤١
٣٤٦	تفسير قوله تعالى : « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... » الآيات	٣٤٦
٣٤٨	تفسير قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِيهَا مَلْئِكًا ... » الآيات ...	٣٤٨
٣٤٩	تفسير قوله تعالى : « وَأَسْتَفْتِحُكُمْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ... » الآيات . ما حكى من تغاؤل الوليد بن يزيد وتمزيقه المصحف ...	٣٤٩
٣٥٣	تفسير قوله تعالى : « مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كِرَامًا شَتَّتَتْ بِهِ الرِّيحُ ... » الآيات	٣٥٣
٣٥٨	تفسير قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... » الآيات	٣٥٨
٣٦٢	تفسير قوله تعالى : « يَثْبُتَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ... » الآية ...	٣٦٢
٣٦٤	تفسير قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا ... » الآيات بيان سبب نزولها	٣٦٤
٣٦٥	تفسير قوله تعالى : « قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ... » الآية ...	٣٦٥
٣٦٦	تفسير قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ... » الآيات ...	٣٦٦
٣٦٨	تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ ... » الآية . فيه مسائل : قصة خروج إبراهيم عليه السلام بالسيدة هاجر وبأبنائها من الشام ، ووضعهما عند البيت الحرام . لا يجوز لأحد أن يتعلق بالآية في طرح أولاده بأرض مضطربة . تضمنت الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ...	٣٦٨
٣٧٤	تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَى وَمَا تَعْلَنُ ... » الآيات ...	٣٧٤
٣٧٦	تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ... » الآيات ...	٣٧٦
٣٧٨	تفسير قوله تعالى : « وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ... » الآيات ...	٣٧٨
٣٨٢	تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ... » الآيات ...	٣٨٢

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : « وَأَقِيمِ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ » . وأسند أبو محمد الداريم في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آقروا سورة هود يوم الجمعة » . وروى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شئت ! قال : « شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يساءلون وإذا الشمس كورت » . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روى شيء من هذا مراسلا . وأخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في « نوادر الأصول » : حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحق عن أبي جحيفة قال : قالوا يا رسول الله نراك قد شئت ! قال : « شيتني هود وأخواتها » . قال أبو عبد الله : فالفرع يورث الشيب وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد ، وتحت كل شعرة منبغ ، ومنه يعرق ، فإذا انتشف الفزع رطوبته يلمت المنبايع فيبس الشعر ويبض ؛ كما ترى الزرع الأخضر يسقاه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فأبيض ؛ وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته وليس جلده ، فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأحوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماءها ذلك الوعيد والحوال الذي جاء به ؛ فمنه تشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » <sup>(١)</sup> وإنما شابوا من الفزع . وأما سورة « هود » فلما ذكر الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فاهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولخطاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأما أخواتها فما أشبهها من السور ؛ مثل « الحاقة » و « مآل سائل » و « إذا الشمس كورت »

(١) راجع ص ١٠٩ من هذا الجزء . وفي رواية عن ابن عباس أنها مكية كلها وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة . (٢) في ر : خوف . (٣) راجع ج ١٩ ص ٤٨ . (٤) في ع و : تطف .

و «الفارقة» ، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطاناً وبطشة فذهل منه النفوس، وتُسبب منه الرعوس . [قلت] وقد قيل : إن الذي شيب النبي صلى الله عليه وسلم من سورة «هود» قوله : «فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» <sup>(۱)</sup> على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامى فقرأت عليه سورة «هود» فلما ختمتها قال : «يا يزيد هذه القراءة فإني البكاء» . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة ؛ لأنك لو سميت امرأة يزيد لم تصريف ؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هود بالتنوين على أنه اسم للسورة ؛ وكذا إن سمي امرأة يزيد ؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هود وأنت تريد سورة هود ؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلو لا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : **الَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ** <sup>(۲)</sup> **أُحْكِمْتَ أَيْتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتَ مِنْ لَدُنْ** <sup>(۳)</sup> **حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ ۝ وَأَن أَسْتَغْفِرَ لَكُمْ رَبُّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْتَبِعْكُمْ مَّتَلْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَىٰ اللَّهٍ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝**

قوله تعالى : (الآل) . تقدم القول فيه . (كُتِبَ) بمعنى هذا كتاب . (أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ) في موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ما قيل في معنى «أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ» قول قتادة ؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ؛ أي نظمت نظماً محكمة لا يلحقها تناقض ولا خلل . وقال ابن عباس : أي لم يسخنها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى ؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ . وقد تقدم القول فيه .

(۳) رابع ج ۸ ص ۳۰۴

(۲) رابع ص ۱۰۷ من هذا الجزء .

(۱) من ع .

(۴) رابع ج ۴ ص ۱۰



وقد يقع اسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعاماً زيداً أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العالصة : « أَحَكَّتْ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى . ( ثُمَّ فَصَّلَتْ ) بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكها الله من الباطل ، ثم فصلها بالحلال والحرام . مجاهد : أحكمت جملة ، ثم بيّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها . وقيل : جمعت في اللوح المحفوظ ، ثم فصلت في التزليل . وقيل : « فَصَّلَتْ » أنزلت نَجْمًا نَجْمًا لَتُدَبَّرَ . وقرأ عكرمة « فَصَّلَتْ » مخففاً أى حَكَّتْ بالحق . ( لَدُنْ ) أى من عند . ( حَكِيمٌ ) أى محكم للأمر . ( خَيْرٌ ) بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ( أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ) قال الكسائي والفراء : أى بالآية أى أحكمت ثم فصلت بالآية . قال الزجاج : للآية أى أحكمت ثم فصلت لثلاث تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ( إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ) أى من الله . ( نَذِيرٌ ) أى مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ( وَبَشِيرٌ ) بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولاً وآخرأى لا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير ، أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ( وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ ) عطف على الأول . ( ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ) أى أرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفراء : « ثم » هنا بمعنى الواو أى وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : استغفروهم من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقد تقدم هذا المعنى فى « آل عمران » مستوفى . وفى « البقرة » (٢٦) عند قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ، فالمغفرة أول فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروهم من الصفات ، وتوبوا إليه من الكثر . ( يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا )

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يتمتعك بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلك بالعذاب كما فعل بن أهلك قبلكم . وقيل : يتمتعكم بعمركم ؛ وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع الله بك ومتّع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق . وقيل : هو القناعة بالموجود ، وترك الحزن على المفقود . ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل : هو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمر مخوف ، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرْهَها ، والأقول أظهر ؛ لقوله في هذه السورة : «وَيَأْقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ» وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والفساد والجيف والكلاب . ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى يؤت كل ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كلّ من فضلت حسنته على سيئاته «فَضْلُهُ» أى الجنة ، وهى فضل الله ؛ فالكفاية فى قوله : «فَضْلُهُ» ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقول بلسانه ، أو عمل يعمل به يده أو رجله ، أو ما تنطق به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا فَلَنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و «تَوَلَّوْا» يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولّوا فقل لهم إني أخاف عليكم . ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التامين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فلننى أخاف عليكم .

قوله تعالى : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى بعد الموت . ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٠﴾

(١) راجع ص ٥٠ فابعد من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ » أى يطوونها على عداوة المسلمين فقيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشَّعْناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حُلُو الكلام حُلُو المنطق ، يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ » شَكًّا وَاَمْتِراء . وقال الحسن : يشنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرَّ بالنبي صلى الله عليه وسلم تَتَّى صدره وظهره ، وطاقاً رأسه وغطى وجهه ، لكيلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شداد فالحاء فى « مِنْهُ » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا قلنا أبوابنا ، وأستغشينا ثيابنا ، وتَّيَبنا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوماً من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكُونَ بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبين الله تعالى أن التَّنَسُّك ما أَشْتَمَلت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ تَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ » قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفَضُّون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ » بغير نون بعد الواو ، فى وزن تنطوى ؛ ومعنى « تَتَّبِعُونَ » والقراءتين الآخرين متقارب ؛ لأنها لا تَتَّبِعُونَ حتى يَتَّبِعُوا . وقيل : كان بعضهم يخفى على بعض يسأوه فى الطَّعْن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهوا أن ذلك يخفى على الله تعالى . « لَيَسْتَخِفُّوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله .

(١) فى الأصل : « تَتَّبِعُونَ » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخاف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبري عن محمد بن عباد ، فلذا صَوَّبناه عنهما ؛ وأما رواية « تَتَّبِعُونَ » المذكورة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن عيينة ، وبعضه ما فى (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « أَلَا إِنَّهُمْ تَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... الخ ، وهى العبارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تنج . راجع روح المعاني والبحر وتفسير ابن عطية .

﴿ أَلَا حِينَ يَنْتَفِشُونَ بِيَابِهِمْ ﴾ أى يُفْطِنُونَ رُؤُوسَهُمْ بِبَيَابِهِمْ . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَتَّى ظَهَرَ ، وَاسْتَفْشَى ثَوْبَهُ ، وَاضْمَرَ فِي نَفْسِهِ هَمَّهُ .

قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ « ما » نفي و « مِنْ » زائدة و « دَابَّةٍ » في موضع رفع ، التقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » « على » بمعنى « مِنْ » ، أى من الله رزقها ، يدل عليه قول مجاهد : كل ما جاءها من رزق فمن الله . وقيل : « على الله » أى فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدم بيان هذا المعنى في « النساء » <sup>(١)</sup> وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص ؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرْزَق . وقيل : هى عامة [ فى كل دابة ] : وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها ، ووجه النظم بما قبل : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع ، وأنه لا يُفْضَلُ عن تربسته ، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم ؟ ! والدابة كل حيوان يدب . والرزق حقيقته ما يتغذى به الحي ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرْزَق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ؛ وهكذا الأطفال تُرْزَق اللبن ولا يقال : إن اللبن الذى فى الثدي ملك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ <sup>(٢)</sup> » وليس لنا فى السماء ملك ؛ ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدم فى « البقرة » <sup>(٣)</sup> هذا المعنى والحمد لله . وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الترحى يأتينا بالطحين ، والذى شدق الأشداق هو خالق الأرزاق .

(٢) راجع ج ١٧ ص ٤١

(٣) من ع .

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٣

(٤) راجع ج ١ ص ١٧٧ فابعد .



وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقبل له : الله ينزل لك دنانير ودرهم من السماء ؟ فقال : كأن ماله إلا السماء ! يا هذا الأرض له والسماء له ؛ فإن لم يؤتى رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخاف الفقرَ والله رازقي \* ورازقُ هذا الخلق في العسر والبسر  
تَكْفَلُ بالأرزاقِ للخلق كُلِّهِمْ \* وللصَّبِّ في البِداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر الترمذی الحكيم في « نوارد الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أرمَلُوا<sup>(١)</sup> من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أنا كم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أننا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : أذهب بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإننا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : « ما أرسلت إليكم طعاما » فأخبروه أنهم أرسلوا أصحابهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك شيء رزقكموه الله » .

(١) أرمَلوا من الزاد ؛ أي قد زادم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قبل للفقر الترب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث ناوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فندفن ؛ قاله مَقْسَمٌ عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مُسْتَقَرَّهَا » أيام حياتها . « وَمُسْتَوْدَعَهَا » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : « مُسْتَقَرَّهَا » فى الزحيم ، « وَمُسْتَوْدَعَهَا » فى الصلب . وقيل : « يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » فى الجنة أو فى النار . « وَمُسْتَوْدَعَهَا » فى القبر ؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسَنَتْ مُسْتَقَرُّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرُّا وَمُقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْدُوَكُ أَتَىكَ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدم فى «الأعراف» بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى ؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا ، ثم خلق الريح فجعل الماء على منها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شئ كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وروى البخارى عن عمران بن حصين . قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : « آقبلووا البشرى يا بنى تميم » قالوا : بَشَرْتَنَا فَأَعْطِنَا [ مرتين ] فدخل ناس من أهل اليمن فقال : « آقبلووا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يبق لها بنو تميم » قالوا : قِيلَنا ، جئنا لتفقه فى الدين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(١) راجع ج ١٣ ص ٧٢ و ص ٨٢ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢١٨ فافهم .

(٣) الزيادة عن صحيح البخارى . (٤) فى ع : فسألك عن هذا الدين رسألك عن أول هذا الأمر .

في الذِّكْر كُلِّ شَيْءٍ، ثم أناني رجل فقال : يا عمران أدرك نافتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطعُ دونها السَّرَابُ ، وأيمُ الله لو دِدْتُ أنها قد ذهبت ولم أقم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق ذلك لِيَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْإِعْتِبَارِ وَالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى كَمَالِ قَدْرَتِهِ وَعَلَى الْبَعثِ . وقال قتادة : معنى «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [أَيُّكُمْ] <sup>(١)</sup> أتمّ عقلا . وقال الحسن وسفيان الثوري : أَيْكُمْ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا . وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال : إنا نائم قم فتعبّد ، فقال : يارُوح الله قد تعبّدْتُ ، فقال : «وَيْمَ تَعَبَّدْتُ ؟» قال : قد تركت الدنيا لأهلها ، قال : تَمَّ فَقَدْ فَتَّ الْعَابِدِينَ . الضَّحَاكُ : أَيْكُمْ أَكْثَرُ شُكْرًا . مقاتل : أَيْكُمْ أَتْقَى اللَّهَ . ابن عباس : أَيْكُمْ أَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» قال : «أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَقْلاً وَأَوْعَى عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَأَسْرَعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ» بَجَمْعِ الْأَفْوِيلِ كُلِّهَا ، وَسَيَأْتِي فِي «الْكُتُفِ» هَذَا أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وقد تقدّم معنى الْإِبْتِلَاءِ . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أي دللت يا محمد على الْبَعثِ . ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكر ذلك لِلْمُشْرِكِينَ لِقَالُوا : هذا سحر . وكسرت «إِنْ» لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الْفَتْحَ . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فُتِحَتِ اللَّامُ لِأَنَّهُ فَعْلٌ مُتَقَدِّمٌ لِاضْمِرٍ فِيهِ ، وَبَعْدَهُ «لَيَقُولَنَّ» لِأَن فِيهِ ضَمِيرًا . وَ﴿ سِحْرٌ ﴾ أي غرور باطل ، لِبَطْلَانِ السِّحْرِ عِنْدَهُمْ . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَاءُ «إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ» كِتَابَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْهِسُونَ <sup>(٢)</sup> إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ الْإِلَامُ فِي «لَيْن» لِلْقِسْمِ ، وَالْجَوَابُ «لَيَقُولَنَّ» . ومعنى «إِلَى أُمَّةٍ» إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَحِينَ مَعْلُومٍ ، فَالْأَمَّةُ هُنَا الْمُدَّةُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَجَهْوَرُ الْمُفَسِّرِينَ . وَأَصْلُ الْأَمَّةِ الْجَمَاعَةُ ؛ فَعَبَّرَ عَنْ

الحين والسنين بالآئمة لأن الآئمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ، والمعنى إلى مجيء آئمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى انقراض آئمة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد انقراضها من يؤمن . والآئمة أسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالآئمة تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ <sup>(۱)</sup> » . والآئمة أيضا اتباع الأنبياء عليهم السلام . والآئمة الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا <sup>(۲)</sup> » . والآئمة الدين والملة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ <sup>(۳)</sup> » . والآئمة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ <sup>(۴)</sup> » وكذلك قوله تعالى : « وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ <sup>(۵)</sup> » والآئمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأئمة أى القامة . والآئمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشْرِكُهُ فيه أحد ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يُبْعَثُ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ أُمَّةً وَحْدَهُ <sup>(۶)</sup> » . والآئمة الأم ؛ يقال : هذه آئمة زيد ، معنى أم زيد ، (لَيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ) يعنى العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكديبا للعذاب لتأخر عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ؛ أى ما الذى يحبس عنا ، (أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقيل جبريل المستنزلين على ما يأتى . (وَحَاقَ بِهِمْ) أى نزل وأحاط . (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَمِزُونَ) أى جزاء ما كانوا به يستمزنون ، والمضاف محذوف .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَعَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّمَا لَيْسَ كَقُورٍ <sup>(۷)</sup> وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ <sup>(۸)</sup> ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ <sup>(۹)</sup>

قوله تعالى : ( وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ) الإنسان أسم شائع للجنس فى جميع الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلة . وقيل : فى عبد الله بن

(۱) راجع ج ۱۳ ص ۲۶۷ (۲) راجع ج ۱۰ ص ۱۹۷ و ص ۶۲ (۳) راجع ج ۱۶ ص ۷۴ (۴) راجع ص ۲۰۱ من هذا الجزء . (۵) بيت زيد أمة لأنه كان نبيا من أديان المشركين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته . (۶) فى ع : جامع .

أَبِي أُمَيَّةَ الْخَزَزِيُّ . «رَحْمَةً» أَيْ نِعْمَةً . (ثُمَّ تَزَعَّنَاهَا مِنْهُ) أَيْ سَلَبْنَاهَا إِيَّاهَا . (إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ) أَيْ يَأْسُ مِنَ الرَّحْمَةِ . (كَفُورٌ) لِلنِّعَمِ جَاهِدُهَا ، قَالَ أَبُو الْأَعْرَابِيِّ . الْحَاسُ : «لَيُؤُوسٌ» مِنْ يَأْسٍ يَأْسٌ ، وَحِكْمِي سَبَوِيهِ يَأْسٌ يَأْسٌ عَلَى فِعْلٍ يَفْعِلُ ، وَنَفْطِيرُهُ حَسِبَ يَحْسِبُ وَيَنْعِمُ يَنْعِمُ ، وَيَأْسُ يَنْعَسُ ؛ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : يَأْسُ يَنْعَسُ ؛ وَلَا يَعْرِفُ فِي الْكَلَامِ [الْعَرَبِيِّ] إِلَّا هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ الْأَحْرَفَ مِنَ السَّالِمِ جَاءَتْ عَلَى فِعْلٍ يَفْعِلُ ؛ وَفِي وَاحِدٍ مِنْهَا آخْتِلَافٌ . وَهُوَ يَأْسُ وَ «يُؤُوسُ» عَلَى التَّكْثِيرِ كَفُخُورٍ لِلْبَالِغَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَيْنِ أَذْقَنَاهُ نِعْمَاءً) أَيْ صَحَّةَ وَرِخَاءَ وَمَسْعَةً فِي الرِّزْقِ . (بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ) أَيْ بَعْدَ ضَرٍّْ وَفَقْرٍ وَشِدَّةٍ . (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) أَيْ الْخَطَايَا الَّتِي تَسُوهُ صَاحِبُهَا مِنَ الضَّرِّ وَالْفَقْرِ . (إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ) أَيْ يَفْرَحُ وَيَفْخَرُ بِمَا نَالَهُ مِنَ السَّعَةِ وَيَنْبَغِي شُكْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يُقَالُ : رَجُلٌ فَاحِرٌ إِذَا افْتَخَرَ — وَفُخُورٌ لِلْبَالِغَةِ — قَالَ يَعْقُوبُ الْقَارِي : وَقَرَأَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ «لَفَرِحَ» بِضَمِّ الرَّاءِ كَمَا يُقَالُ : رَجُلٌ فَطَنٌ وَحَدَرٌ وَنَدَسٌ . وَيُجُوزُ فِي كُلِّمَا اللَّفْظَيْنِ الْإِسْكَانُ لِقُلِّ الضَّمَّةِ وَالْكَسْرِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ ، مَدَحَهُمُ بِالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ . وَهُوَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ . قَالَ الْأَخْفَشُ : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ ؛ أَيْ لَكِنِ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَالَتِي النِّعْمَةِ وَالْمِحْنَةِ . وَقَالَ الْفَرَاءُ : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ «وَلَيْنِ أَذْقَنَاهُ» أَيْ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِمَعْنَى النَّاسِ ، وَالنَّاسُ يُشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ ؛ فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَصِلٌ وَهُوَ حَسَنٌ . (أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْعِرُونَ) أَبْتَدَأَ وَخَبَرَ . (وَأَجْرٌ) مَعْطُوفٌ . (كَبِيرٌ) صِفَةٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِمَّا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشِيرٍ سَوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

(١) كَذَا فِي الْأَوَّلِ . وَلَمَّا الصَّوَابُ : يَأْسُ يَبِيسُ : بِالْمُوحَدَةِ بَعْدَ الْيَاءِ . وَهُوَ الْحَرْفُ الرَّابِعُ .  
(٢) مِنْ ع . (٣) فِي ع : اللَّفْظَيْنِ .



قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَانَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى فلما كان لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تنوهم أنهم يزبلونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا : « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » هم أن يدع سب آلهتهم فنزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سألك ؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ ؛ كقوله : « بَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيل : معنى الكلام النفى مع استبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتينا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لآتيناك ، فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سب آلهتهم ؛ فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقُّ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تَارِكًا » و « صَدْرُكَ » مرفوع به ، والهاء فى « به » تعود على « ما » أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : « ضَاقُّ » ولم يقل ضيق لبشا كل « تَارِكًا » الذى قبله ؛ ولأن الضائق عارض ، والضيق أزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، [ أولئلا يقولوا ] كقوله : « بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا » أى لئلا تضلوا . أو لأن يقولوا . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ بصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومي ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدم فى « يونس » أى قد أزحت عايتهم وإشكالم فى نبوتك بهذا القرآن ، وتجيبتهم به ؛ فإن قالوا : افتريته — أى اخترقته — فلانوا بمشله مفترى بزعمهم . ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من الكهنة والأعوان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(۱) راجع ج ۶ ص ۲۴۲ (۲) من ر . (۳) راجع ج ۶ ص ۲۸ فايد . (۴) راجع ج ۸ ص ۲۴۴

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى فى المعارضة ولم تنهيا لم فقد قامت عليهم الحججة ؛ إذ هم اللسن البلاء ، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ ﴾ وأعلموا صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَأَنْ أَعْلَمُوا ﴾ ﴿ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأَتُوا » وبعده . « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » ولم يقل لك ؛ فقيل : هو على تحويل المخاطبة من الأفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيا ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لَكَ » وفى « فَأَعْلَمُوا » للجمع ؛ أى فليعلم الجميع « أَلَمَّْا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ » ؛ قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لَكَ » وفى « فَأَعْلَمُوا » للمشركين ؛ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تنهيات لكم المعارضة « فَأَعْلَمُوا أَلَمَّْا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ » . وقيل : الضمير فى « لَكَ » للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفى « فَأَعْلَمُوا » للمشركين .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كانت زائدة ، ولهذا جزم بالجوَاب فقال : ﴿ نُوفٍ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوفٍ إِلَيْهِمْ » أى من يكن يريد ؛ والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :  
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ يَلْقَاهَا      وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ الْمَاءِ بُسْلِمٌ  
وآخلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلوة رَحِمَ أو صدقة نكافته بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

(١) فى ع : المخاطب . (٢) قال فى البحر : ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط « يريد » وكان يكون مجزوما .

له في الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى في «براهة»<sup>(۱)</sup> مستوفى . وقيل : المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا يُجَلَّ له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : «إنما الأعمال بالنيات» فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده ، وبحكم ضميره ، وهذا أمر متفق عليه في الأئم بين كل ملة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء : «صُتِمْتُمْ وصَلَّيْتُمْ وتَصَدَّقْتُمْ وجَاهَدْتُمْ وقرَأْتُمْ ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال : «إِنَّ هَؤُلَاءِ أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ» . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديداً وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا» وقرأ الآيتين ، خرجه مسلم [في صحيحه] بمعناه والترمذى أيضا . وقيل : الآية عامة في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران ، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُقِيَ ثوابها ؛ فإن كان مسلماً مخلصاً وُقِيَ في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافراً وُقِيَ في الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وُقِيَها ، أى وُقِيَ أجر الغزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : «إنما الأعمال بالنيات» . وتدل هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وتدل على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان في معناه . الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التي في «الشورى» «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا» الآية . وكذلك «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا» قسدها وفسرها التي في «سبحان» «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» إلى قوله : «مَحْظُورًا» فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

(۱) راجع ج ۸ ص ۱۶۱ (۲) مع ر . (۳) راجع ج ۱۶ ص ۱۸

(۴) راجع ج ۴ ص ۲۲۶ ف بعد . (۵) راجع ج ۱۰ ص ۲۳۰ ف بعد .

في قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » .  
والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الإطلاق والتقييد ، ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » <sup>(١)</sup> فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائماً على كل حال ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ » . <sup>(٢)</sup> والنسخ في الأخبار لا يجوز ، لاستحالة تبدل الواجبات العقلية ، ولا استحالة الكذب على الله تعالى ، فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور في الأصول ؛ ويأتي في « النحل » <sup>(٣)</sup> بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) إشارة إلى التخليد ، والمؤمن لا يُتَخَلَّدُ ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِعَوْنِ غَيْرٍ مَادُونَ ذَلِكَ » <sup>(٤)</sup> الآية . فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان ؛ وفي الحديث [ الماضي ] <sup>(٥)</sup> يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في « النساء » <sup>(٤)</sup> ويأتي في آخر « الكهف » <sup>(٦)</sup> . (وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ابتداء وخبر ؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء ؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أي وباطل عمله . وفي حرف أبي وعبد الله « وَبِاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أي وكانوا يعملون باطلا .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ (٢) راجع ج ٦ ص ٤٢٢ (٣) راجع ج ١٠ ص ١٢٧

(٤) راجع ج ٥ ص ٢٤٥ و ٤٢٢ (٥) في الأصل (الماضي) وهو تحريف ، والمراد بالحديث

الماضي حديث أبي هريرة المتقدم في عمل المرائي " صتم وصليتم ... " (٦) راجع ج ١١ ص ٦٩

قوله تعالى : أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ  
وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن  
يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ  
مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ابتداء والخبر محذوف ؛ أى أفن كان على  
بينة من ربه فى اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى من الفضل ما يبين به كغيره من يريد  
الحياة الدنيا وزينتها ؟ ! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال ابن زيد :  
إن الذى على بينة هو من أتبع النبي محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ من الله ،  
وهو النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ » النبي صلى  
الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أى أفن كان معه بيان  
من الله ، ومعجزة كالقرآن ، ومعنى شاهد بكبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة  
بضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُسلمه . والهاء فى « ربه » تعود عليه ، وقوله :  
« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » . وروى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعي .  
والهاء فى « منه » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل .  
وقال مجاهد : الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويسدده . وقال الحسن البصري وقتادة :  
الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت  
الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
وقيل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛  
وروى عن على أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال  
له رجل : أى شئ نزل فيك ؟ فقال على : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ » . وقيل : الشاهد  
صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخاطبه ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى



النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاهاء على هذا ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قول آبر زید وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل ، فاهاء في « منه » للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ واهاء في « منه » لله عز وجل . وقيل : البينة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكِبَ في دماغه وأشرق صدره بنوره . (وَمِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل الإنجيل . (كَتَابُ مُوسَى) رفع بالابتداء ، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى «يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوي عن الكلبي ؛ يكون معطوفا على الهاء في « يَتْلُوهُ » والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام ، وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريل كتاب موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . (إِمَامًا) نصب على الحال . (وَرَحْمَةً) معطوف . (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) إشارة إلى بنى إسرائيل ، أى يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاها القشيري . واهاء في « به » يجوز أن تكون للقرآن ، ويجوز أن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم . (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ) أى بالقرآن أو بالنبي عليه السلام . (مِنَ الْأَحْزَابِ) يعنى من الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكذا قال سعيد بن جبیر : « الْأَحْزَابِ » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحزون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . (فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) أى هو من أهل النار ؛ وأنشد حسان :

أوردتموها حياض الموت ضاحية \* فالنار موعدها والموت لاقها

(۱) راجع ۷ ص ۲۹۷ .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي صلى الله عليه وسلم : "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى [ثم يموت] ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبي : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القرل الحق الكائن ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذباً ، فأضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أنه لا شريكاً وولداً ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعائنا عند الله . ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أى يحاسبهم على أفعالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى الملائكة الحفظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن «الأشهاد» فقال : الملائكة . الضحاک : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : « فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنساقون فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى بعده ومنظله وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض نعتا للظالمين ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ أى هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى ؛ أى هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أعاد لفظ «هم» تأكيداً .

قوله تعالى : أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى فائتين من عذاب الله . وقال ابن عباس : لم يعجزوا أن أمر الأرض فتخسف بهم . ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى أنصاراً ، و«من» زائدة . وقيل : «ما» بمعنى الذى تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لاهم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ «ما» في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزئته ما فعل وبما فعل ؛ فيحذون الباء مرة ويثبتونها أخرى ؛ وأنشد سيويه :<sup>(١)</sup>

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فافعل ما أَمَرْتُ بِهِ • فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

ويجوز أن تكون «ما» ظرفاً ، والمعنى : يضاعف لهم أبداً ، أى وقت استطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطعي ذلك أبداً . ويجوز أن تكون «ما» نافية لا موضع لها ؛ إذ الكلام قد تم قبلها ، والوقوف على العذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الزبيدي . أراد (بالخير) لحذف ووصل الفعل ونصب . والنسب : المال الثابت كالضباع ونحوها . وقيل : للنسب جميع المال ؛ فيكون عطفه على الأزل مبالغة وتأكيذاً . (شواهد سيويه) .

يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سماعاً ينفقون به ، ولا أن يبصروا إبصاراً مهتداً ، قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع ؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفتقروا<sup>(۱)</sup> عنه . قال النحاس : وهذا معروف في كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلاً عليه .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴿٢١﴾ **لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ إِلَّا خَسِرُونَ** ﴿٢٢﴾  
قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ أى ضاع عنهم افتراءهم وتلف .

قوله تعالى : ﴿ **لَا جَرَمَ** ﴾ للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « **لَا جَرَمَ** » بمعنى حق ، فـ « **لَا** » و « **جَرَمَ** » عندهما كلمة واحدة ، و « **أَنْ** » عندهما في موضع رفع ؛ وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد ؛ حكاه النحاس . قال المهدوي : وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة ، وهو قول الفراء أيضاً ؛ ذكره الثعلبي . وقال الزجاج : « **لَا** » هاهنا نفي وهو رد لقولهم : إن الأصنام تنفعهم ؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك ، وجرم بمعنى كسب ؛ أى كسب ذلك أفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، و « **أَنْ** » منصوبة بجرم ، كما نقول كَسَبَ جفائوك زيداً غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

نَصَبْنَا رَأْسَهُ فِي جُدْعٍ تَحْلِيلٍ<sup>(۲)</sup> • بِمَا جَرَمَتْ يَدَاهُ وَمَا أَعْتَدِينَا

أى بما كسبت . وقال الكسائي : معنى « **لَا جَرَمَ** » لا صد ولا منع عن أنهم . وقيل : المعنى لا قطع قاطع ، فحذف الفاعل حين كثراستعماله ؛ والجَرَمُ القطع ؛ وقد جَرَمَ النخل وأجرمته أى صرّمه فهو جارِمٌ ، وقومٌ جَرَمٌ وجرامٌ وهذا زمن الجرام والجرام ، وجرمت صوف الشاة أى جززته ، وقد جرمت منه أى أخذت منه ؛ مثل جالمت الشيء جالمتاً أى قطعت ،

(۱) فع : بهموا . (۲) فع رد رى : فى رأس جلع .

وَجَلَّتِ الْجُزُورُ أَجْلِبُهَا جَلَمًا إِذَا أَخَذَتْ مَا عَلَى عِظَامِهَا مِنَ اللَّحْمِ، وَأَخَذَتْ الشَّيْءَ بِجَهْمَتِهِ — ساكنة اللام — إِذَا أَخَذْتَهُ أَجْمَعُ، وهذه جَلَمَةُ الْجُزُورِ — بالتجريك — أى لجمها أجمع؛ قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أَنَّ ذا جَرَمَ، قال: وناس من قَزَاةٍ يقولون: لا جَرَّ أَنَّهُمْ بغير ميم. وحكى الفراء<sup>(١)</sup> فيه لغتين آخرين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال: وناس من العرب يقولون: لا جَرُمَ بضم الجيم.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** «الذين» اسم «إن» و«آمَنُوا» صيغة، أى صدقوا. **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾** عطف على الصلة. قال ابن عباس: أَخْبَتُوا أَنَابُوا. مجاهد: أطاعوا. قتادة: خضعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبَتِ وهو الأرض المستوية الواسعة: فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإجابة إلى الله عز وجل المستمرة ذلك على استواء. «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا لِمَخْبَاتِهِمْ إلى ربهم. **﴿أُولَٰئِكَ﴾** خبر «إِنَّ».

قوله تعالى: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: **﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾** ابتداء، والخبر **﴿كَالْأَعْمَى﴾** وما بعده. قال الأخفش: أى كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى<sup>(٢)</sup>] والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: **﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾** فردّ إلى الفريقين وهما أشنان؛

(١) في ع: فيها.

(٢) الزيادة عن النحاس.



روى معناه عن قتادة وغيره . قال الضحاك : الأعمى والأصم مثل الكافر ، والسميع والبصير مثل المؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصم والسميع . ﴿مَثَلًا﴾ منصوب على التمييز . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في الوصفين وتنتظرون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾  
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم . ﴿إِنِّي﴾ أى فقال : إني ؛ لأن في الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أَنِّي» بفتح الهمزة؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه ؛ كما قال : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم قال : «نَحْنُ بِهَا بِقُوَّةٍ» . ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ﴾ أى أتركوا الأصنام فلا تبهودوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ ﴿إِنِّي﴾ بالكسر جعله معترضاً في الكلام ، والمبنى أرسلناه ألا تعبدوا [إلا الله] . ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ﴾ .

قوله تعالى : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَدُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَدُّكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَيْدِي أَلْرَّأْي وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الملاء الرؤساء ؛ أى هم مايتون بما يقولون . وقد تقدم هذا في «البقرة» وغيرها . ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ (١) في ع ، ر ، ي : على التفسير . (٢) قال ابن عطية : روى هذا خبر ، وإنما هي حكاية غاطبة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى غاطبة ، ولو كان الكلام أن أقدم أربحوه لصح ذلك . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٨٠ . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٤٣ .

أى آدياً . (مِثْلًا) نصب على الحال . و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة بقدر فيه التنوين ؛ كما قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

\* يَا رَبِّ مِثْلِكَ فِي النِّسَاءِ غَيْرِيَّة \*

الثانية — قوله تعالى : ( وَمَا تَرَاكَ آتِيَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَرْجِعُوا بِكَ كَسَادًا ) أرادوا جمع أردل وأردل جمع ردل ؛ مثل كَلْبٍ وَأَكْلَبٍ وَأَكْلَابٍ . وقيل : والأردال جمع الأردل ، كَسَادًا جمع الأسود من الحيات . والرذل النذل ؛ أرادوا آتبعك أخسأؤنا وسَقَطْنَا وسفلنا . قال الزجاج : نسبهم إلى الحياكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة . قال النحاس : الأردال هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفي الحديث ” إنهم كانوا حاككةً وتَجَامِين “ . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبي الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والمهينات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهم الدنيا لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا لإسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأردال هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيان : أشراف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وضعوبة الأنفكاك عنها ، والأئفة من الأقياد للغير ، والفقير خيٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والأقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيا .

الثالثة — أختلف العلماء في تعيين السفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السفلة هم الذين يَتَقَلَّسُونَ <sup>(٢)</sup> ، ويأتون أبواب القضاة والسلطين يطلبون الشهادات .

(١) هو أبو عجين النقي وتما البيت :

\* بِيضَاءُ قَدْ مَتَعَهَا بِطَلَاقِ \*

الفرية : المفترة بين العيش . ومتعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها .  
(٢) التقليل : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف الهور .

وقل ثعلب عن ابن الأعرابي : السَّفَلَةُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِدِينِهِمْ ؛ قِيلَ لَهُ : فَمَنْ سَفَلَةُ السَّفَلَةِ ؟ قَالَ : الَّذِي يُصْلِحُ دُنْيَا غَيْرِهِ بِفُسَادِ دِينِهِ . وَسُئِلَ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ عَنِ السَّفَلَةِ فَقَالَ : الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا ؛ وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يَعْرِفُوا . وَقِيلَ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ السَّفَلَةُ ؟ قَالَ : الَّذِي يَسْبُ الصَّحَابَةَ . وَرَوَى عَنْ أَبِي عُبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : الْأَرْدَلُونَ الْحَاكِمَةُ وَالْحَجَّامُونَ . يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ : الدَّبَّاعُ وَالنَّكَّاسُ إِذَا كَانَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ .

الرابعة — إِذَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ لِرَوْحِهَا : يَا سَفَلَةَ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ مِنْهُمْ فَأَنْتِ طَالِقٌ ؛ خَفِيَ النِّقَاشُ أَنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى التِّرْمِذِيِّ فَقَالَ : إِنْ أَمْرَأَتِي قَالَتْ لِي يَا سَفَلَةَ ، فَقُلْتُ : إِنْ كُنْتُ سَفَلَةَ فَأَنْتِ طَالِقٌ ؛ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : مَا صَنَعْتِكُ ؟ قَالَ : سَمَاكَ ؛ قَالَ : سَفَلَةُ وَاللَّهِ ، سَفَلَةُ وَاللَّهِ [ (۲) ] .

قلت : وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق ، وكذلك على قول مالك ، وابن الأعرابي لا يلزم شيء .

قوله تعالى : ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ . أى ظاهر الرأى ، وباطنهم على خلاف ذلك . يقال : بدا يبدو إذا ظهر ؛ كما قال :

• فالיום حين يَدُونُ لِلنَّظَارِ •

ويقال للبرية بادية لظهورها . وبدا لى أن أفعل كذا ، أى ظهر لى رأى غير الأول . وقال الأزهري : معناه فيما يبدو لنا من الرأى . ويجوز أن يكون « بَادِيَ الرَّأْيِ » من بدا يبدأ وحذف الهمة . وحقق أبو عمرو والهزة فقرا : « بَادِيَ الرَّأْيِ » أى أول الرأى ؛ أى أتبعوك حين أتبدءوا ينظرون ، ولو أمتعوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز . وانتصب على حذف « فى » كما قال عز وجل : « وَآخَرًا مُوسَى قَوْمَهُ » . ﴿ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى فى أتباعه ؛ وهذا جحد منهم لنبوته صلى الله عليه وسلم . ﴿ بَلْ نَقُفُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه .

(۱) كذا فى ع ، والذي فى غيره بالإنفراد . (۲) من ي . راجع ج ۷ ص ۲۹۴ .

(۴) فى ع رى : ۴ .

قوله تعالى : قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ وَيَنْقُومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُ قَوْمًا نَجْهَلُونَ ۝ وَيَنْقُومِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ءَاتِي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝

قوله تعالى : ( قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ) أى على يقين ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدم في « الأنعام » هذا المعنى . ( وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ) أى نبوة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : بالإيمان والإسلام . ( فَعَمَّيتْ عَلَيْكُمْ ) أى عَمَّيتْ عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَمَّيتُ عن كذا ، وعَمِيَ على كذا أى لم أفهمه . والمعنى : فَعَمَّيتْ الرحمة ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعَمَى إنما يُعَمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت في القلنسوة رأسى ، ودخل الخلف في رجل . وقرأها الأعمش وحمة والكسائي « فَعَمَّيتْ » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسم فاعله ؛ أى فعماها الله عليكم ؛ وكذا في قراءة أبي « فعماها » ذكرها المسوردي . ( أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) قيل : شهادة لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ؛ أى أنزلتم قبولها ، وأوجبها عليكم ؟ ! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أى لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام

بهذا القول أن يرده عليهم . وحكى الكسائي والفراء « أَنْزَلْنَاهُ مُكْثَوَهَا » بإسكان الميم الأولى تخفيفاً وقد أجاز مثل هذا سيبويه ، وأنشد<sup>(۱)</sup> :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْتُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ • إِنَّمَا مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير القرآن] أنزل بكها يجرى المضمر مجرى المظهر ؛ كما تقول : أنزلكم ذلك . ( وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ) أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها . قال قتادة : والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعالى : ( وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ) أى على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به [ أجزأ أى ] ( مَالًا ) فيثقل عليكم . ( إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ) أى نوابي في تبليغ الرسالة . ( وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ) سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء ، حسب ما تقدم « في الأنعام » بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ( وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ) يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بقاء الله عز وجل ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصاص ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصصوني عند الله ، فبجائزهم على إيمانهم ، ويجازى من طردهم . ( وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ) في استردالكم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : ( وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ) قال الفراء : أى يمنعنى من عذابه . ( إِنْ طَرَدْتُهُمْ ) أى لأجل إيمانهم . ( أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ) أدغمت الناء في الذال . ويجوز حذفها فتقول : تَذَكَّرُونَ .

قوله تعالى : ( وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ) أخبر بشذله وتواضعه لله عز وجل ، وأنه لا يدعى مالىس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشاء .

(۱) البيت لامرئ القيس ، والشاهد فيه تسكين اليا . من قوله ( أشرب ) في حال الرفع والوصل . احتجب الإثم واستغفبه استغفله . والواو الهمزة على النون ولم يدع له . يقول : حلت لي الخمر فلا آمن بشربها إذ قد وفيت بظنري فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثار أبيه . (۲) الزيادة عن النحاس . (۳) من ع روى . (۴) راجع ج ۶ ص ۴۳۱ وما بعدها . (۵) قراءة نافع .



من عبادہ؛ وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل. ﴿وَلَا أَقُولُ لِي مَلَكٌ﴾<sup>(١)</sup> أي لا أقول إن منزلي عند الناس منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، وأتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة»<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذف الهاء والميم لطول الاسم. والذال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تَزْدَرِي، ولكن التاء تبدل بعد الزاي دالاً؛ لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها. ويقال: أَزْرَيْتُ عليه إذا عَيْبْتَهُ. وَزَرَيْتُ عليه إذا حَقَرْتَهُ. وَأَشْدُ الْفَرَاءِ:

يُبَاعِذُهُ الصَّدِيقُ وَتَزْدَرِيهِ \* حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ليس لاحتماركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدم ذكره. و«إِذَا» ملغاة؛ لأنها متوسطة.

قوله تعالى: قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَلَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) أي خاصمتنا فاكثرت خصومتنا وبالغت فيها. والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجدال

وهو شدة القتل ؛ ويقال للصقر أيضا أُجْدَل لشدته في الطير ؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»<sup>(۱)</sup>  
 بأشبع من هذا . وقسرا ابن عباس « فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا » ذكره النحاس . والجَدَل في الدين  
 مجود ؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، فمن قَبِلَهُ انجح وأفلح ، ومن رَدَّهُ  
 خاب وخسر . وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم ، وصاحبه  
 في الدارين ملوم . ﴿ فَأَتَيْنَا مِمَّا تَعْدُونَ ﴾ أي من العذاب . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾  
 في قولك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أي إن أراد إهلاككم عَذْبَكُمْ .  
 ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائنين . وقيل : بغالبين بكثرتم ، لأنهم أعجبوا بذلك ؛ كانوا  
 مأمورا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَفْعَلُكُمْ نَصِيحِي ﴾ أي إبلاغي وأجتهادي في إيمانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ  
 أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحا ؛ وقد تقدم في « براءة » معنى النصيحة لغة .  
 ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي يضلكم . وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة  
 والقدرية ومن وافقهما ؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصي ، ولا يكفر  
 الكافر ، ولا يغوى الغاوى ؛ وأنه يفعل ذلك ، والله لا يريد ذلك ؛ فرد الله عليهم بقوله :  
 ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ . وقد مضى هذا المعنى في « الفاتحة » وغيرها . وقد أكذبوا<sup>(۲)</sup>  
 شيخهم اللعين إبليس على ما بيناه في « الأعراف » في إغواء الله تعالى إياه حيث قال :  
 « فَمَا أَغْوَيْتَنِي »<sup>(۱)</sup> ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »  
 فاضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إذ هو الهادى والمضل ؛ سبحانه عما يقول  
 الجاحدون والظالمون علوا كبيرا . وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم ؛ لأن الإضلال يقضى  
 إلى الهلاك . الطبري : « يُغْوِيَكُمْ » يهلككم بمذابيه ؛ حكى عن طي : أصبح فلان غاويا  
 أي مريضا ، وأغويته أهلكته ؛ ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »<sup>(۳)</sup> « هُوَ رَبُّكُمْ » نال به الإغواء ،  
 وإليه الهداية . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

(۱) راجع ج ۷ ص ۷۷ و ص ۱۷۴ .

(۲) راجع ج ۱ ص ۱۴۹ و ج ۴ ص ۲۰ .

(۳) راجع ج ۸ ص ۲۲۶ فابعد .

(۴) راجع ج ۱۱ ص ۱۲۵ .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . أفتري أفعل ؛ أى أخلق القرآن من قبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال ابن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر ؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وأفعلته ، يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى عقاب إبراهيم ، وإن كنت محققا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصدر أجرم ؛ وهو أقراف السيئة . وقيل [المعنى] : أى جزاء جرمى وكسبى . وجرم وأجرم بمعنى ؛ عن النحاس وغيره . قال :

طَرِيدٌ عَشِيرَةٌ وَرَهِيْبٌ جُرْمٌ \* بِمَا جَرَمْتَ يَدِي وَجَنَىٰ لِسَانِي

ومن قرأ « أجرامى » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جرم ؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَافْ غِيظَنَا فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسم فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بـ « أنه » . و « آمَنَ » فى موضع نصب بـ « يؤمن » ومعنى الكلام الإيأس من إيمانهم ، وأستدامة كفرهم ، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » <sup>(١)</sup> الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حل أبنه على كتفه ، فلما رأى الصبي نوحا قال لأبيه : أعطني حجرا ؛ فاعطاه حجرا ، ورمى به نوحا عليه السلام فادماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ

(١) من عوى . البيت للهريدان السعدى أحد لصوص بنى سعد . (اللسان) .

(٢) راجع ج ١٨ ص ٣١٢ .

إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ . ( فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ) أى فلا تَغْتَمِّ بهلاكهم حتى تكون  
بأنساب أى حزينا . والبؤس الحزن ؛ ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أو حميم رُزِئته • فلم ابتئس والرُزء فيه جليل

يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شئ يكرهه . والابتأس حزن فى استكانة .

قوله تعالى : ( وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ) أى أعمل السفينة لتركبها أنت  
ومن آمن معك . « بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الزبيع بن أنس : بحفظنا  
إياك حفظ من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا والمعنى واحد ؛ فعبر  
عن الرؤية بالأعين ؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير ؛  
كما قال تعالى : « فَنِعِمَّ الْقَادِرُونَ » (١) « فَنِعِمَّ الْمَاهِدُونَ » (٢) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » . وقد يرجع  
معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين ؛ كما قال : « وَلِتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي » وذلك كله  
عبارة عن الإدراك والإحاطة ، وهو سبحانه متره عن الحواس والتشبيه والتكييف ؛ لارب غيره .  
وقيل : المعنى « بِأَعْيُنِنَا » أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك ؛  
فيكون الجمع على هذا التكثير على بابهِ . وقيل : « بِأَعْيُنِنَا » أى بعلما ؛ قاله مقاتل :  
وقال الضحاك وسفيان : « بِأَعْيُنِنَا » بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على  
صنعها . « وَوَحْيِنَا » أى على ما أوحينا إليك من صنعها . ( وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا  
وَأَنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ) أى لا تطلب إمامهم فإنى مفرقهم .

قوله تعالى : وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا  
مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٢٨) فَسَوْفَ  
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٢٩) حَتَّى إِذَا  
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْوِيرُ قُلْنَا لَمَلِكٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ  
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٠)

(١) راجع ج ١٩ ص ١٧٥ . (٢) راجع ج ١٧ ص ٥٢ . (٣) راجع ج ١١ ص ١٩٥ .

قوله تعالى : ﴿ وَبَصَّعُ الْفُلْكَ ﴾ أى وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يفرس الشجر ويقطعها ويبسها ، ومائة سنة يعملها . وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال : بلغنى أن قوم نوح ملّوا الأرض ، حتى ملّوا السهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن يزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء ؛ فمكث نوح يفرس الشجر مائة عام لعمل السفينة ، ثم جمعها ببسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما أراه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لما استنقذ الله سبحانه وتعالى من الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه . « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بتجار ، قال : « بلى فإن ذلك بعينى » فأخذ القدوم بفعله بيده ، وجعلت يده لا تخطئ ، ففعلوا يمترون به ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبي صارا تجارا ؛ فعملها في أربعين سنة .

وحكى التعلبي وأبو نصر الفسيري عن ابن عباس قال : أخذ نوح السفينة في سنتين . زاد التعلبي : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن أصنعها كخوج الطائر . وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدي : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلمه كيف يصنعها . وأختلفوا في طولها وعرضها ؛ فعن ابن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعا ؛ وكانت من خشب الساج . وكذا قال الكلبي وقتادة وعكرمة كان طولها ثلثمائة ذراع ، والذراع إلى المنكب . قاله سلمان الفارسي . وقال الحسن البصري : إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وحكاها التعلبي في كتاب العرائس . وروى علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يتحدث عنها ، فأنطق بهم حتى آتتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب ، قال أندرون ما هذا ؟



قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [ هذا كعب<sup>(۱)</sup> حام بن نوح ] قال فضرب الكتيب بمصاه  
وَقَالَ : قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يَنْفُضُ التُّرَابَ مِنْ رَأْسِهِ ، وَقَدْ شَابَ<sup>(۲)</sup> ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى :  
أَهْكَذَا هَلَكْتَ ؟ قَالَ : لَا بَلْ مِتُّ وَأَنَا شَابٌ ، وَلَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا السَّاعَةُ مِنْ تَمَّ شَيْءٌ . قَالَ :  
أَخْبِرْنَا عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ ؟ قَالَ : كَانَ طُولُهَا أَلْفُ ذِرَاعٍ وَمِائَتِي ذِرَاعٍ ، وَعَرْضُهَا سِتِّمِائَةُ ذِرَاعٍ ،  
وَكَانَتْ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ ، طَبَقَةٌ فِيهَا الدُّوَابُّ وَالْوَحْشُ ، وَطَبَقَةٌ فِيهَا الْإِنْسُ ، وَطَبَقَةٌ فِيهَا الطَّيْرُ .  
وَذَكَرَ بَاقِيَ الْخَبَرِ عَلَى مَا بَاتَى ذَكَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ<sup>(۳)</sup> : فِيمَا حَكَاهُ النَّقَاشُ : وَدَخَلَ  
الْمَاءُ فِيهَا أَرْبَعَةَ أَذْرَعٍ ، وَكَانَ لَهَا ثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ ، بَابٌ فِيهِ السَّبَاعُ وَالطَّيْرُ ، وَبَابٌ فِيهِ الْوَحْشُ ،  
وَبَابٌ فِيهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ . آيَنَ عَبَّاسٌ جَمَلُهَا ثَلَاثَ بَطُونٍ ، الْبَطْنُ الْأَسْفَلُ لِلْوَحْشِ وَالسَّبَاعِ  
وَالدُّوَابِّ ، وَالْأَوْسَطُ لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَرَكِبَ هُوَ فِي الْبَطْنِ الْأَعْلَى ، وَحَمَلَ مَعَهُ جَسَدَ آدَمَ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتَرِضًا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، ثُمَّ دَفَنَهُ بَعْدُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ؛ وَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَهُمْ  
فِي الْكَوْكُلِ<sup>(۴)</sup> . وَقِيلَ : جَاءَتِ الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ لِدُخُولِ السَّفِينَةِ فَقَالَ نُوحٌ : لَا أَحْمَلُكُمْ ؛  
لَأَنْكُمَا سَبَبُ الضَّرَرِ وَالْبَلَاءِ ، فَقَالَتَا : أَحْمَلْنَا فَتَحْنُ نَضْمُنُ لَكَ أَلَّا نَضُرَّ أَحَدًا ذَكَرَكَ ؛ فَمِنْ قَرَأَ  
حِينَ يَخَافُ مَعْرَتَهُمَا « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ »<sup>(۵)</sup> لَمْ تَضُرَّهُ ؛ ذَكَرَهُ الْقَشِيرِيُّ وَغَيْرُهُ . وَذَكَرَ  
الْحَافِظُ بْنُ عَسَاكَرٍ فِي التَّوَارِيخِ لَهُ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ قَالَ حِينَ يَمْسِي صَلَّى اللَّهُ عَلَى نُوحٍ وَعَلَى نُوحٍ السَّلَامَ لَمْ تَلِدْهُ عَقْرَبٌ  
تِلْكَ اللَّيْلَةَ “ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَكَلَّمَا ) ظَرْفٌ . ( مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ يَتَفَرَّوْنَ مِنْهُ ) .  
قَالَ الْأَخْفَشُ وَالْكَسَائِيُّ يُقَالُ : يَتَفَرَّغُ بِهِ وَمِنْهُ . وَفِي يَتَفَرَّتْ مِنْهُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا — أَنَّهُمْ  
كَانُوا يَرُونَهُ بَيْنَ سَفِينَتَيْهِ فِي الْبَرِّ ، فَيَدْفَعُونَ بِهِ وَيَسْتَهْزِئُونَ وَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ صَرْتَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ  
نِجَارًا . الثَّانِي — لَمَّا رَأَوْهُ بَيْنَ السَّفِينَتَيْنِ وَلَمْ يَشَاهِدُوا قَبْلُهَا سَفِينَةً بَنَيْتَ قَالُوا : يَا نُوحُ

(۱) كَذَا فِي الطَّبَرِيِّ وَالِدُ الْمَشْرِقِ وَالْكَشَافُ ، وَفِي الْأَصْلِ ( قَبْرُ سَامِ بْنِ نُوحٍ ) . (۲) فِي ع : عَم .  
(۳) فِي ع وَى : شَاخ . (۴) جَاءَ فِي الْبَحْرِ : وَاسْتَخَفُّوا فِي هَيْبَتِهَا مِنْ التَّرْبِيعِ وَالطُّولِ ، وَفِي مَقْدَارِ مَدَّةِ  
عَمَلِهَا ، وَفِي الْمَكَانِ الَّتِي عَمِلَتْ فِيهِ ، وَمَقْدَارِ طَوْلِهَا وَعَرْضِهَا عَلَى أَفْوَالٍ مُتَنَارِضَةٍ لَمْ يَصْغُرْ مِنْهَا شَيْءٌ .  
وَنَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْمُبَاحَثَ لَا تَنْجِبُنِي ، لِأَنَّهَا أُمُورٌ لَا حَاجَةَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا الْبَيِّنَةِ ، وَلَا يَتِمُّ بِمَعْرِفَتِهَا  
قَائِدَةُ أَصْلًا . (۵) الْكُوْكُلُ : مُزْنَرُ السَّفِينَةِ وَفِيهِ يَكُونُ الْمَلَايِحُونَ وَنَتَائِجُهُمْ . وَقِيلَ : هُوَ السَّكَّانُ .  
(۶) رَاجِعٌ ج ۱۵ ص ۹۰ .

ما تصنع؟ قال : أبغى بيتا يمشى على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه ؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان. (قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا) أى من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . (قَلِيلًا تَسْخَرُ مِنْكُمْ) غداً عند الغرق . والمراد بالسخرية هنا الاستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ( فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ) تهديد ، و « مَنْ » متصلة بـ « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » و « تعلمون » هنا من باب التعديدية إلى مفعول ؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مَنْ » استفهامية ؛ أى أينما يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء و « يَأْتِيهِ » الخبر ، و « يُخْزِيهِ » صفة لـ « عَذَابٌ » . وحكى الكسائى : أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سو تعلمون ؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفْ تعلمون ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ) أى يجب عليه وينزل به . (عَذَابٌ مُقِيمٌ) أى دائم ، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ( حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ) اختلف في التنور على أقوال سبعة : الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت ومن معك . الثانى — أنه تنور الخبز الذى يخبز فيه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان خؤاء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فأركب أنت وأصحابك . وأنبأ الله الماء من التنور ، فعلمت به أمرا أنه فقالت : يأنوح فار الماء من التنور ؛ فقال : جاء وعد ربى حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس . الثالث — أنه

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سر يكون غخذفوا اللام ، وسأ يكون غخذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الحقة ، وسف يكون غخذفوا العين .

موضع اجتاع الماء في السفينة ؛ عن الحسن أيضا . الرابع — أنه طلوع الفجر ، ونور الصباح ؛ من قولهم : نور الفجر تنويرا ؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الخامس — أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علي بن أبي طالب أيضا ؛ وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية التنور بالكوفة . وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور على يمين الدخايل مما يلي كندة . وكان فوران الماء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورهم وجاش بماء \* صار فوق الجبال حتى علاها

السادس — أنه أعلى الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع — أنه العين التي بالجزيرة « عين الورد » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له : « عين وردة » وقال ابن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمنقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض ؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة . والقوران الغليان . والتنور أسم أعجمي عربيته العرب ، وهو على بناء فَعْل ؛ لأن أصل بنائه تنر ، وليس في كلام العرب نون قبل راء . وقيل : معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العذاب ؛ كقولهم : حيي الوطيس إذا اشتدت الحرب . والوطيس التنور . ويقال : فارت قدر القوم إذا اشتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركتم قدركم لا شيء فيها \* وقدر القوم حامية تفور

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اخْلِفْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يعني ذكرنا وإنا ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان . وقرا حفص : « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » بتونين « كل » أي من كل شيء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد : [ شيء ] معه آخر لا يستغنى عنه . ويقال للثنين : هما زوجان . في كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نيل إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حامي ، وعليه زوجا

(۲) قلت : رود زره : ملأه ، رز ز : دق ؛ والسنز حركة :

(۳) من ع .

(۱) راجع ج ۱۷ ص ۱۳۱ .

شراسة الخلق ، وشر طبعه ؛ غايه .

قيود؛ قال الله تعالى : « **وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى** » <sup>(١)</sup> . ويقال للمرأة هي زوج الرجل ، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين ، والصنفين ، وكل ضرب يدعى زوجا ؛ قال الله تعالى : « **وَأَنبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** » <sup>(٢)</sup> أي من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكل زوج من الديباج يلبسه \* أبو قدامة محبوبو بذلك معا

أراد كل ضرب ولون . و « **مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ** » في موضع نصب بـ « **أَحْلَ** » . « **أَنْثَيْنِ** » تأكيد . « **وَأَهْلَكَ** » أي وأحمل أهلك . « **إِلَّا مَنْ سَبَقَ** » . « **مَنْ** » في موضع نصب بالاستثناء . « **عَلَيْهِ الْقَوْلُ** » منهم أي بالهلاك ؛ وهو آتبه كنعان وأمراؤه وأئله كانوا كافرين . « **وَمَنْ آمَنَ** » قال الضحاك وابن جريج : أي أحمل من آمن بي ، أي من صدقك ؛ فـ « **مَنْ** » في موضع نصب بـ « **أَحْلَ** » . « **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** » قال ابن عباس رضي الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بني سام وحام ويافث ، وثلاث كائن له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية النمايين بناحية الموصل . وورد في الخبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت ، وبنيه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام أمراته في السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته بغاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعرا أولاده أذانهم ، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنيه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « **قَلِيلٌ** » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة في دخول « **إلا** » و « **ما** » لأنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ، فإذا جئت بما وإلا ، أوجب لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

(١) راجع ج ١٧ ص ١١٦ وج ١٢ ص ١٤ . (٢) الكفة (بالفتح) : امرأة الابن أو الأخ .

قوله تعالى : وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ سَعَاوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا﴾ أمر بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلو على ظهر الشيء . ويقال : ركبته الدين . وفي الكلام حذف ؛ أي أركبوا الماء في السفينة . وقيل : المعنى أركبوها . و «في» للتأكيد كقوله تعالى : «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ» وقائدة «في» أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها . قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودي عشر خلون من المحرم ؛ فذلك ستة أشهر ؛ وقاله قتادة وزاد ؛ وهو يوم عاشوراء ؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه ، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطبري في هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب في السفينة أول يوم من رجب ، وصام الشهر أجمع ، وجرى بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أرسى على الجودي ، فصامه نوح ومن معه . وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطاف به سبعا ، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق ، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجودي فاستوت عليه .

قوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيها إلا من شذ ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ؛ فجراها ومرساها في موضع رفع



بالاتِّداء ؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب ، ويكون التقدير : بسم الله وقت إجرائها  
ثم حذف وقت ، وأقيم « مجراها » مقامه . وقرأ الأعمش وحزمة والكسائي : « بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيَا »  
بفتح الميم و « مُرْسَاهَا » بضم الميم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب  
« بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا » بفتح الميم فيهما ؛ على المصدر من جَرَتْ تَجْرَى جَرِيًا وَتَجْرَى ،  
وَرَسَتْ رُسُومًا وَمَرَسَى إِذَا ثَبَتَ . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبو رجاء  
الطَّارِدِي : « بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيَا وَمَرْسِيهَا » نعت لله عز وجل في موضع جر . ويجوز أن يكون  
في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أي هو مُجْرِيهَا وَمَرْسِيهَا . ويجوز النصب على الحال . وقال  
الضحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مرساها  
رست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كرز عن الحسين بن علي عن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال : « أَمَّا نَأْتِي مِنَ الْغُرُقِ إِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » <sup>(١)</sup> « بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيَا وَمَرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وفي هذه  
الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيناه في البسملة ، والحمد لله . <sup>(٢)</sup> (إِنَّ رَبِّي  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) أي لأهل السفينة . وروى عن ابن عباس قال : لما كثرت الأرواث والأفذار  
أوحى الله إلى نوح آغمر ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح :  
لو غمرت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فأر وفارة فلما وقعا أقبلا على السفينة وجالها  
تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على جبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن أمسح  
جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سنوران فأكلا الفترة . ولما حمل الأسد في السفينة قال :  
يارب من أين أطلعته ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحصى ؛ فهو الدهر مجوم . قال ابن عباس :  
وأول ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزة ، وآخر ما حمل حمل الحمام ؛ قال : وتلق  
إبليس بذنبه ، ويده قد دخلتا في السفينة ، ورجلاه خارجة بعد ، فجعل الحمار يضطرب

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٧٧ . (٢) في ع رو : على ما . (٣) راجع ج ١ ص ٩٧ .

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : أدخل وملك ! فجعل يضطرب ، فقال : أدخل وملك ! وإن كان معك الشيطان ، كلمة زأت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل . ثم إن نوحا رآه يغنى في السفينة ، فقال له : يا لعين ما أدخلك بيتي ؟ ! قال : أنت أذنت لي ، فذكر له ، فقال له : قم فانرج . قال : مالك بد في أن تحملني معك ، فكان فيا يزعمون في ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان ، واحدة مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر . أبى عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ، فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ، فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه ، على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الموح جمع موجه ، وهي ما أرتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهي في موضع خفض نعت للوح . وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ ﴾ قبل : كان كافرا واسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه : « ونادى نوح ابنه » بحذف الواو من « ابنه » في اللفظ ، وأنشد :

• لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ •

فأما « وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ » فقراءة شاذة ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها يجوز على أنه يريد « ابنها » لحذف الألف كما تقول : « ابنه » فتعذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ، لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ أي من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن ابنه كان كافرا ، وأنه

(١) البيت للشماخ ، والشاهد في (كانه) حذف الواو ضرورة . ونسائه :

• إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَبِيرَ •

بصرف حار وحش هائجا يطلب وسيفته ، وهي أنشاء التي يضدها ويجمعها ، من وسقت الشيء أي جمعه . (شواهد سيبويه) . (٢) كذا في الشواهد ، وبديل عليه ما يأتي عن أبي حاتم ، وأما رسم ابنه بالواو طيس بشاذ .

ظن أنه مؤمن ؛ ولذلك قال له : ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ وسبأني . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق ؛ وقبل رؤية اليأس ، بل كان في أول ما فار التنور ، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم : « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » بفتح الياء ، والباقون بكسر ها . وأصل « يا بنى » أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير ، وياء الفعل ، وياء الإضافة ؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل ، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة ، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين ، أولسكونها وسكون الراء في هذا الموضع ؛ وهذا أصل قراءة من كسر الياء ، وهو أيضا أصل قراءة من فتح ؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف ، أولسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة ؛ قال أبو حاتم : يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف ؛ قال النحاس : رأيت علي بن سليمان بذهب إلى أن هذا لا يجوز ؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق ؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين ، والكسر من جهتين ؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفا ؛ قال الله عز وجل إخبارا : « يَا وَيْلَتَا <sup>(١)</sup> » وكما قال الشاعر :

\* فَيَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهِ الْمُتَحَمِّلِ \*

فيريد يا بنَيَّاه ، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين ، كما تقول : جاءني عبدا الله في التنذية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف ؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَاوِي ﴾ أى أرجع وأنضم . ﴿ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أى يمتنعني ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ فلا أغرق . ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى لا مانع ؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار . وأنتصب « عاصم » على التبرئة . ويجوز « لا عاصم اليوم » تكون لا بمعنى ليس . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون في موضع رفع ، على أن عاصما بمعنى معصوم ، مثل : « مَاءٌ دَاقِقٌ <sup>(٢)</sup> » أى مدقوق ؛ فالاستثناء على هذا متصل ؛ قال الشاعر :

(١) راجع ص ٦٩ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٤ .

بطي، الفيض رخيم الكلا \* م أمسى فؤادي به قانتا

أى مفتونا . وقال آخر :<sup>(١)</sup>

دج المكارم لا تمض لبغيتها \* وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أى المطعوم المكسو . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون « من » في موضع رفع ؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ؛ أى إلا الله . وهذا اختيار الطبري . ويحسن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من باب ، ولا « إلا » بمعنى « لكن » . ( وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ) . يعنى بين نوح وأبنته . ( فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ ) . قيل : إنه كان راجعا على فرس قد بطر بنفسه ، وأعجب بها ؛ فلما رأى الماء جاء قال : يا أبت فار التنور ، فقال له أبوه : « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » . فاستتم المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه ، وحبل بينه وبين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصن فيه من الماء ، فلما فار التنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل ، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك . وقيل : إن الجبل الذى أوى إليه « طور سيناء » .

قوله تعالى : ( وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءُ أَقْلِي ) . هذا مجاز لأنها موات . وقيل : جعل فيها ما تميز به . والذى قال إنه مجاز قال : لوقُشَّ كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها ، وبلاغة رصيفها ، واشتمال المعاني فيها . وفى الأثر : إن الله تعالى لا يخلئ الأرض من مطر في عام أو عامين ، وأنه ما نزل من السماء ماء قط إلا يحفظ ملك موكل به إلا ما كان من ماء الطوفان ؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملك . وذلك قوله تعالى : « إِنَّا نَسَّا طَغَى الْمَاءِ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » . بغرت بهم السفينة إلى أن تنهى الأمر ؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك ، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ويبلغ مثل حميد يحمده ؛ لغتان حكاهما الكسائي والفراء . والبالوعة

(١) البيت للطائي بهجاء الزرقان . (٢) في ع : أغلقه . (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٦٢ .

الموضع الذى يشرب الماء . قال ابن العربى : التقي الماءان على أمر قد قدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء ؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ » وقيل : ميز الله بين الماءين ، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته ، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : « وَغِيضَ الْمَاءِ » أى نقص ؛ يقال : غاض الشيء وغيضته أنا ؛ كما يقال : نقص بنفسه ونقصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم الغين . (٢) وقضى الأمر أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعظم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الفرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان ، كما هلك الطير والسباع ، ولم يكن الفرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير ، بل ماتوا بأجلهم . وحكى أنه لما كثرت الماء فى السكك خشيت أم صبي عليه ؛ وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء استوت على الجبل ؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بأبنها حتى ذهب بها الماء ؛ فلورحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي .

قوله تعالى : « وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى هلاكهم . الجودى جبل يقرب الموصل ؛ استوت عليه فى العاشر من المحرم يوم عاشوراء ؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكر الله تعالى ؛ وقد تقدم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترمى على واحد منها فتطاولت ، وبقى الجودى لم يتطاول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه ؛ وبقيت عليه أعوادها . وفى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة » . وقال مجاهد : تشاخت الجبال وتطاولت لئلا يتألفها

(١) فيع : فابلعته . (٢) فى المصباح : غاض : نضب أى ذهب فى الأرض . (٣) أى باثام الكسرة الضم .



الغرق؛ فعلا الماء فوقها نسة عشر ذراعا، ونظامن الجودى، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ودرست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودى اسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد ابن عمرو بن نفيل<sup>(١)</sup> .

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا يَعُودُ لَهُ \* وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودَى وَالْحَمْدُ

ويقال : إن الجودى من جبال الجنة ؛ فلهذا آستوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر : الجودى بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

مسألة : لما تواضع الجودى وخضع عز، ولما أرتفع غيره واستعلى ذل، وهذه سنة الله في خلقه، يرفع من تخشع، ويضع من ترفع، ولقد أحسن القائل :

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابَ تَخَشُّعًا \* مِمَّا إِلَيْكَ فِعْزُهَا فِي ذُلِّهَا

وفي صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسمى العَضْبَاءُ ؛ وكانت لا تُسَبِّحُ ؛ فجاء أعرابي على قعود له نسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين ؛ وقالوا : سُبِّحَتِ الْعَضْبَاءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه “ . وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ما نقصت صدقةً من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله “ . وقال صلى الله عليه وسلم : ” إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يغنى أحد على أحد ولا يفتخر أحد على أحد “ . أخرجه البخارى .

مسئلة : نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ بن عساکر في التاريخ له عن الحسن : أن نوحاً أوّل رسول بعثه الله إلى [ أهل ] الأرض ؛ فذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا فِتْنَيْنِ عَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المعاصي، وكثرت الجبابرة وعُتُوا عُتُوًّا كَبِيرًا، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، وكان صبوراً حليماً، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدَّ مما لقي نوح، فكانوا يدخلون عليه

(١) شبه اللسان لأمية بن أبي الصلت (في سبعم الياقوت) : هو زيد بن عمرو ؛ وقيل : لوردة بن نوفل .  
وفي ع : الجند . تكدم جمع خادم، ولعله الأشبه . (٢) من ع . (٣) راجع ج ١٣ ص ٣٢٢ .

فيخفقونه حتى يترك وَيَقِيدًا ، ويضربونه في المجالس ويطرد ، وكان لا يدعوه على من يصنع به بل يدعوه ويقول : « رَبِّ أَغْفِرْ لِقَوِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرار منه ، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه ، فذلك قوله تعالى : « وَإِنِّي كَلَّمَاِ دَعَوْتُهُمْ لِيَنصَحِينَ لَغَفِيراً لَّهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعَسُوا قُبُورَهُمْ » . وقال مجاهد وعبيد بن عمير : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : « رَبِّ أَغْفِرْ لِقَوِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وقال ابن عباس : إن نوحاً كان يضرب ثم يُلف في ليد فليق في بيته يرون أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوه ، حتى إذا بئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه آية وهو يتوكأ على عصا ، فقال : يا بُنَيَّ أَنْظِرْ هَذَا الشَّيْخَ لَا يَغْزُكَ ، قال : يا أبت أمكنني من العصا ، [فأمكنه] فأخذ العصا ثم قال : صعدني في الأرض فوسعه ، نثني إليه بالعصا فضر به فشجه شجرة مَوْصِيَّة في رأسه ، وسالت الدماء ، فقال نوح : « رَبِّ قَدْ تَرَى مَا يَفْعَلُ بِي عِبَادُكَ فَإِنْ يَكْ لَكَ فِي عِبَادِكَ خَيْرِيَّة فَاهْدِهِمْ وَإِنْ يَكْ غَيْرَ ذَلِكَ فَصَبِّرْني إِلَى أَنْ تَحْكُمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن به ، قال : « وَأَوْحَى إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » ؛ أي لا تحزن عليهم . « وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ يَا عِيسَى وَوَحَيْنَا » قال : يارب وأمرن الخشب ؟ قال : أغرس الشجر . قال : فغرس الساج عشرين سنة ، وكف عن الدعاء ، وكفوا عن الاستهزاء ، وكانوا يسخرون منه ؛ فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها : فقال : يارب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : أجعله على ثلاثة صور ، رأسه كراس الديك ، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير ، وذنبه كذنب الديك ؛ وأجعلها مطبقة وأجعل لها أبواباً في جنبها ، وشدها بدُسُر ، يعني مسامير الحديد . وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة ، وجعلت يده لا تخطئ . قال ابن عباس : كانت دار نوح عليه السلام دمشق ، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام ، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأول ، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني ، وأطبق عليهما ،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلاً وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم ، وجعل الدّر معه في الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدواب .

قال الزهرى : إن الله عز وجل بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين اثنين ؛ من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل فخرهم ، بفعل يضرب بيديه على الزوجين فنقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده في ذنبا ؛ فن تم انكسر ذنبا فصار معقوفاً وبدا حيّاؤها . ومضت النعجة حتى دخلت ففسح على ذنبا فستر حيّاؤها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحاً حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من الهدهد زوجين ، فمات الهدهد في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكاناً ، فلم يجد طيناً ولا تراباً ، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه ، فذلك الريش الناقى في قفا الهدهد موضع القبر ؛ فلذلك نثأت أقبية الهدهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة " . وذكر صاحب كتاب « العروس » وغيره : أن نوحاً عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدجاج : أنا ؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مغمومة بنحائي لا تطيرى أبداً ، أنت ينفع بك أمتي ؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوق عليا فاحتبس فلغنه ، ولذلك يقتل في [الحل] والحرّم ودعا عليه بالخوف ؛ فلذلك لا يألّف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجد قراراً فوقعت على شجرة بأرض سبأ<sup>(٢)</sup> فحملت ورقة زيتونة ، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بعد ذلك فطارحت حتى وقعت بوادي الحرم ، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة ، وكانت طبيعتها حراء ، فاختضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشراى منك أن تهب لي الطوق في عنقي ، والخضاب في رجلي ، وأسكن الحرم ففسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحمرة في رجلها ، ودعا لها ولذريتها بالبركة . وذكر العلبي أنه بعث

(١) من ر .

(٢) كذا في ر ، وفي د و ج : سبأ .

بعد الغراب التدرج<sup>(١)</sup> وكان من جنس الدجاج ؛ وقال : إياك أن تعتذر ، فأصاب الخضره والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ) أى دعاه . ( فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ) أى من أهل الذين وعدتهم أن تحميمهم من الفرق ؛ ففى الكلام حذف . ( وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ) يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه أبنيه لقوله : « وَأَهْلِكَ » وترك قوله : « إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » فلما كان عنده من أهله قال : « رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » يدل على ذلك قوله : « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان أبنه يُسمّر الكفر و يظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال أبنيك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك استحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان ابن أمراته ؛ دليله قراءة على « وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهَا » . ( وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ) ابتداء وخبر . أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالفرق .

(١) التدرج كبحر : طائر يفرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس ، ( حياة الحيوان ) .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [١] أى ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم ، قاله سعيد بن جبیر . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ، فهو على حذف مضاف ، وهذا يدل على أن حكم الانفاق في الدين أقوى من [حكم] النسب . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة وبعقوب والكسائي : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب ، واختاره أبو عبيد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى أبنتك ذو عمل غير صالح لحذف المضاف ، قاله الزجاج وغيره . قال : ﴿ ٢ ﴾

تَرْتَعُ مَا رَمَعْتُ حَتَّى إِذَا ادَّكُرْتُ \* فَأَنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

أى ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد . ويجوز أن تكون الماء للسؤال ، أى إن سؤالك إياي أن أنجيهم عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن أبنته . وكان لغير رشدة ، وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان أبنته ، قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي » فقال : لم يقل مني ، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن أمراة من زوج آخر ، فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : « إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي » « وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَتَهُ » ولا يختلف أهل الكتابين أنه أبنته ، فقال الحسن : ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرأ : « نَفَّائَتَاهُمَا » (٣) . وقال ابن جريج : ناداه وهو يحسب أنه أبنته ، وكان ولد على فراشه ، وكانت أمراة خاتنه فيه ، ولهذا قال : « نَفَّائَتَاهُمَا » . وقال ابن عباس : ما بنت أمراة نبي قط ، وأنه كان أبنته لصلبه . وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبیر وميمون بن مهران وغيرهم ، وأنه كان أبنته لصلبه . وقيل لسعيد بن جبیر يقول نوح : « إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي » أكان من أهله ؟ أكان أبنته ؟ فسبح الله طويلا ثم قال : لا إله إلا الله ! يحدث الله حمدا صلى الله عليه وسلم أنه أبنته ، وتقول إنه ليس أبنته ! نعم كان أبنته ، ولكن كان مخالفا في النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ، وهذا

(١) من ع . (٢) البيت لنفسه . نصف ناقة ذهب عنها ولدها ؟ وهو من قصيدة ترن بها أخاها حمرا .

(٣) راجع ج ١٨ ص ٢٠١ .



هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به ، وإن قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ليس مما ينفي عنه أنه آبنه . وقوله : « نَخَّاتَاهُمَا » يعنى في الدين لا في الفراش ، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فتى ؟ قال : إذا فار التنور ، فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التنور ، فهذه خيانتها . وخیانته الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سياتى إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كسبا ، كما في الخبر ” أولادكم من كسبكم “ . ذكره القشيري .

الثالثة — في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه ، قال : فعلم مالك أنه قد فهمه الناس ؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الآبن من الأهل لغة وشرعا ، ومن أهل البيت ؛ فمن وصى لأهله دخل في ذلك آبنه ، ومن تضمنه منزله ، وهو في عياله . وقال تعالى في آية أخرى : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَحْنَاهُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » <sup>(١)</sup> فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعة — ودلت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما : أن الولد للفراش ؛ ولذلك قال نوح ما قال أخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر في كتاب « التمهيد » . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” الولد للفراش وللعاهر الحجر “ يريد الخيبة . وقيل : الرجم بالحجارة . وقرأ عروة بن الزبير . « وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَاهَا » يريد ابن أمراته ، وهى تفسير القراءة المتقدمة عنه ، وعن علي رضي الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة ، فلا تترك المتفق عليها لها . والله أعلم .

(١) راجع ج ١٥ ص ٨٩ .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿إِنِّي أُعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أنهاك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ؛ أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : «يَعِظُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُوذُوا لِنُفْسِهِ أَبَدًا» (١) أى يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفلك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ؛ فـ ﴿قَالَ﴾ نوح : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ (الآية) (٢) وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكل الله نذاله وتواضعه . ﴿وَلَا تَقْرُلِي﴾ ما فرط من السؤال . ﴿وَتَرْحَنِي﴾ أى بالتوبة . ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى أعمالا . فقال : «يَا نُوحُ أَهَيْطُ بِسَلَامٍ مِنَّا» .

قوله تعالى : قِيلَ يَنْتُحُ أَهَيْطُ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٨) قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ أَهَيْطُ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ (١) أى قالت [له] الملائكة ، أو قال الله تعالى له : أهيط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ؛ فقد ابتلعت الماء وجفت . «بِسَلَامٍ مِنَّا» أى بسلامة وأمن . وقيل : بحجة . ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أى نعم ثابتة ؛ مشتق من برك الجبل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، بجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ؛ على قول قتادة وغيره ، حسب ما تقدم ؛ وفي التنزيل «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» (٢) ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل في قوله : ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كل كانوا يوم القيامة ؛ روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم ستمتعهم . وقيل : «مين» للتبويض ، وتكون لبيان الجنس . «وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ» ارتفع «وَأُمَمٌ» على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء في غير القراءة وأما ، وتقديره : ونمت أمما . وأعيدت «على» مع (١) راجع ج ١٢ ص ٢٠٥ (٢) من ع و ر (٣) راجع ج ١٥ ص ٨٩

« أُمِّ » لأنه معطوف على الكاف من « عَلَيْكَ » وهى ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدّم في « النساء <sup>(١)</sup> » بيان هذا مستوفى في قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » بالخفض . والباء في قوله : « بِسَلَامٍ » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها في موضع الحال ؛ أى أهبط مسلماً عليك . و « مِنَّا » في موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات . « وَعَلَى أُمِّ » متعلق بما تعلق به « عَلَيْكَ » ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » في قوله : « يَمُنُّ مَعَكَ » متعلق بمحذوف ؛ لأنه في موضع جر نعت للأُمِّ . و « مَعَكَ » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن استقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ( تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ) أى تلك الأنباء ، وفي موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبا والقصص من أنباء ما غاب عنك . ( نُوحِيهَا إِلَيْكَ ) أى لنقف عليها . ( مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ) أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ، والمجوس الآن ينكرون . ( مِنْ قَبْلِ هَذَا ) خبر أى مجهولة عندك وعند قومك . ( فَاصْبِرْ ) على مشاق الرسالة وإذابة القوم كما صبر نوح <sup>(٢)</sup> . وقيل : أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان [ فإنه ] على الجملة . « فَاصْبِرْ » أى أصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على [ أذى ] قومه . ( إِنَّ الْعَاقِبَةَ ) في الدنيا بالظفر ، وفي الآخرة بالفوز . ( لِلْمُتَّقِينَ ) عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَاعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

(١) من و .

(٢) من ك .

(١) راجع ج ٥ ص ٢ فابعد .

رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْعًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِيلُ بِهَا الْحَقَّ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَأْتِيهِ الرُّسُلُ وَأَتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَعْنَةِ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أي وأرسلنا ، فهو معطوف على « أُرْسِلْنَا نُوحًا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما نقول : يا أختائهم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم ؛ وقد تقدم هذا في « الأعراف » (١) وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شذاد ولقمان المذكوران في قوله تعالى : « إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » . وعاد آدم (٢)

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٥ ف ١٥٠

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٤٤

رجل ثم استمر على قوم أننسبو إليه . ( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ) بالخفض على اللفظ ، و « غيره » بالرفع على الموضع ، و « غيره » بالنصب على الاستثناء . ( وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتَرُونَ ) أى ما أنتم فى اتخاذكم إلها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : ( يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ) تقدم معناه . والفطرة ابتداء الخلق . ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل . قوله تعالى : ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ) تقدم فى أول السورة . ( يُرْسِلِ السَّمَاءَ ) جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ( عَلَيْكُمْ مَذَرَارًا ) نصب على الحال ، وفيه معنى التكثير ؛ أى يرسل السماء المطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً والعرب تحذف الهاء فى مفعال على النسب ، وأكثر ما يأتى مفعال من أفعل ، وقد جاء هاهنا من فعل ؛ لأنه من دزرت السماء تَدِر وتَدِر فهى مذرار . وكان قوم هود — أعنى عاداً — أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدم فى « الأعراف » . ( وَيَزِدُّكُمْ ) عطف على يرسل . ( قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ) قال مجاهد : شدة على شدتكم . الضحاك : خصباً إلى خصبتكم . على بن عيسى : عزاً على عزكم . عكرمة : ولداً إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر [ وأعقم الأرحام ] ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد ؛ فقال لهم هود : إن أنتم أحبى الله بلادكم ورزقكم المال والولد ؛ فلك القوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم . ( وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ) أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ( قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ) أى حجة واضحة . ( وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ) إصراراً منهم على الكفر .

قوله تعالى : ( إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَآكَ ) أى أصابك . ( بَعْضُ آلِهَتِنَا ) أى أصنامنا . ( بُسُوهُ ) أى يجنون لسبك إياها ، عن ابن عباس وغيره . يقال : عراه الأمر وأعراه إذا ألم به . ومنه « وَأَطِيعُوا الْقَانِيعَ وَالْمُعْتَرَّ » . ( قَالَ إِنِّى أَنشِئُ اللَّهَ ) أى على نفسى . ( وَأَشْهَدُوا )



أى واشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير، أى لنعرفوا ﴿أَتَى بَرَىٰ  
مِمَّا تُشِيرُونَ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أى أنتم وأولادكم  
فى عداوتى وضرى . ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾ أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل  
على كمال الثقة بنصر الله تعالى . وهو من أعلام النبوة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه :  
« فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا » . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش . وقال نوح صلى الله  
عليه وسلم : « فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أى رضيت بحكمه، ووثقت بنصره .  
﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أى نفس أذب على الأرض؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ  
بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أى فلا تصلون إلى ضرى . وكل ما فيه  
روح يقال له دابّ ودابّة، والهاء للبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليها . وقال  
الفتي : فاهرها ؛ لأن من أخذت ناصيته فقد قهرته . وقال الضحاك : يحبسها ثم يبيتها؛  
والمعنى متقارب . والناصية فُصْاص الشعر فى مقدم الرأس . وَنَصَوْتُ الرجل أَنْصَوهُ نَصَوًا  
أى مددت ناصيته . قال ابن جرير : إنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك  
إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع؛ فيقولون . ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أى إنه مطيع  
له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه المثلّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا  
بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذى الحكيم فى «نواذر الأصول»  
قوله تعالى : «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» وجهه عندنا أن الله تعالى قدر مقادير أعمال  
العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن  
يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيتهم فذلك النور أخذ بنواصيتهم ، يحريم  
إلى أعمالهم المفتردة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض  
بنحسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بنحسين ألف سنة » . ولهذا

قويت الرسل وضاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال ، فأوفهم حظا من الملاحظة أقواهم في العزم ، ولذلك ما قوى هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سُمِّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير ، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرته ، ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حيا في جهته بين عينيه ، فسُمِّي ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدر ، فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبي جهل فقال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ <sup>(١)</sup> » يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة ؛ فعلى سبيل ما تأولوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . [ والله أعلم ] . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصراط في اللغة المنهج الواضح ؛ والمعنى أن الله جلّ شأنه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خال في تديده ، ولا تفاوت في خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ في موضع جزم ؛ فلذلك حذف منه النون ، والأصل تتولوا ، لحذف التاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بينت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم ويحذونه ويعبدونه . « وَيَسْتَخْلِفُ » مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع ؛ أو معطوف على ما يجب فيها بعد الفاء من قوله : « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ » . وروى عن حفص عن عاصم « وَيَسْتَخْلِفُ » بالجرم حلا على موضع الفاء وما بعدها ؛ مثل : « وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ أي بتوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ أي لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٢٤ . (٢) من ع . (٣) بالياء وسكون الراء قراءة . راجع ج ٧ ص ٣٣٤ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ تَجِبْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رِئْحَةً مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى ، وإن كانت له أعمال صالحة . وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " لن يُنجى أحداً منكم عمله " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ! قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه " . وقيل : معنى « رِئْحَةً مِنَّا » بأن بنينا لهم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَتَجِبْنَا لَهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله فى « الذاريات » وغيرها وسيأتى . قال القشيري أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبي آمنه إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه ؛ نعم ! لا يبعد أن يقتل الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين ، وتحريصا للمؤمنين ، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به . قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائي أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعلها أسما للقبيلة . ﴿ تَجِدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده ؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ؛ وإنما جمع هاهنا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لمجددوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى اتبع سقراطهم رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعنود والعائد والمعانيد المعارض بالخلاف ، ومنه قيل للعرق الذى ينفجر بالدم عائد . وقال الرازي :

\* إِنِّي كَيْدٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَا \*<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى ألحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . أى وآتبعوا يوم القيامة مثل ذلك ؛ فالتمام على قوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

(٣) فى : بنفاد .

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٢٧ .

(١) راجع ج ١٧ ص ٥٥٠ .

\* إذا رحلت فاجعلون وسطا \*

(٤) صدر البيت :

رَبِّهِمْ ﴿ قَالَ الْفَرَزَاءُ : أَيْ كَفَرُوا نِعْمَةً رَبِّهِمْ ۚ قَالَ : وَيُقَالُ كَفَرْتَهُ وَكَفَرْتَ بِهِ ، مِثْلُ شُكْرَتِهِ وَشُكْرَتْ لَهُ . ( أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمٌ هُوَ ) أَيْ لَا زَالُوا مُبْعِدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَابْعُدِ الْهَالِكِ . وَابْعُدِ التَّبَاعِدَ مِنَ الْخَلِيرِ . يُقَالُ : بُعِدَ يَبْعُدُ بُعْدًا إِذَا تَأَخَّرَ وَتَبَاعَدَ . وَيَبْعُدُ يَبْعُدُ بُعْدًا إِذَا هَلَكَ ۚ قَالَ : لَا يَبْعُدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ \* سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ <sup>(١)</sup>

وقال النابغة :

فَلَا تَبْعُدُنْ إِنِّ الْمَنِيَّةَ مَنَلْ \* وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلْ

قوله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦٦﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَإِلَىٰ ثَمُودَ ) أَيْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ ( أَخَاهُمْ ) أَيْ فِي النِّسْبِ . ( صَالِحًا ) . وقرأ يحيى بن وثاب « وَإِلَىٰ ثَمُودِ » بالنونين في كل القرآن ؛ وكذلك روى عن الحسن . وأختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع . وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف ؛ إذ كان الأغلب عليه التانيث . قال النحاس : الذي قال أبو عبيدة — رحمه الله — من أن الغالب عليه التانيث كلام مردود ؛ لأن ثمودا يقال له حتى ؛ ويقال له قبيلة ، وليس الغالب عليه القبيلة ، بل الأمر على ضد ما قال عند سيبويه . والأجود عند سيبويه فيما لم يقل فيه بنو فلان الصرف ؛ نحو قريش ونقيف وما أشبههما ، وكذلك ثمود ، والعادة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل ، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتانيث جيد بالغ حسن . وأنشد سيبويه في التانيث :

عَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً \* وَكَفَىٰ قَرِيشَ الْمُعْضَلَاتِ وَسَادَهَا

(١) تقدّم شرح البيت في هامش ج ٦ ص ١٤

(٢) البيت لعدى بن الرقاع مدح الوليد بن عبد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حلا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحى ، وغلب ذلك عليها . ( شواهد سيبويه ) .

الثانية — قوله تعالى : ( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ) تقدم .  
 ( هُوَ أَتَشَأْكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ ) أى ابتداء خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض  
 على ما تقدم فى « البقرة <sup>(١)</sup> » و « الأنعام <sup>(٢)</sup> » وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز  
 إدغام الهاء من « غيره » فى الهاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج .  
 ( وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ) أى جعلكم عُمَارَهَا وسكَّانَهَا . قال مجاهد : ومعنى « أَسْتَعْمَرَكُمْ » أَعْمَرَكُمْ  
 من قوله : أَعْمَرَ فُلَانٌ فُلَانًا داره ؛ فهى له تُعْمَرُ . وقال قَتَادَةُ : أَسْكَنْكُمْ فِيهَا ؛ وعلى هذين  
 القولين تكون أَسْتَفْعَلَ بمعنى أَفْعَلَ ؛ مثل أَسْتَجَابَ بمعنى أَجَابَ . وقال الضَّحَّاك : أطال  
 أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثمانية إلى ألف . أبى عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم :  
 أَمَرَكُمْ بِعَمَارَةٍ ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى أَلْهَمَكُمْ  
 عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثة — قال أبى العري قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العماره ،  
 والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب ؛ قال القاضى أبو بكر : نأتى كلمة استعمل فى لسان  
 العرب على معان منها ؛ أَسْتَفْعَلَ بمعنى طلب الفعل كقوله : أَسْتَحْمَلْتُهُ أى طلبت منه حملانا ؛  
 وبمعنى اعتقد ، كقولهم : استسلمات هذا الأمر اعتقدته سهلا ، أو وجدته سهلا ،  
 وأستعظمته أى اعتقدته عظيما ووجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت ، كقولهم : أستجدته  
 أى أصبته جيذا ؛ ومنها بمعنى فَعَلَ ؛ كقوله : فَرَّ فى المكان وأستقر ؛ وقالوا وقوله :  
 « يَسْتَمِزُّونَ » و « يَسْتَسْخِرُونَ » منه ؛ فقوله تعالى : « أَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » خلقكم لعمارها ،  
 لا على معنى استجدته وأستسلمته ؛ أى أصبته جيذا سهلا ، وهذا يستحيل فى الخلق ، فيرجع  
 إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال : إنه طلب  
 من الله تعالى لعمارها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال : أنه أَسْتَدْعَى

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٨٧ فابعد .

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ فابعد .

(٣) فى ر : وجدته .



عمارتها فإنه جاء بلفظ أستفعل ، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا ، وطالب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [ رغبة <sup>(١)</sup> ] .

قلت : لم يذكر استفعل بمعنى أفعل ، مثل قوله : استوفد بمعنى أوفد ، وقد ذكرناه <sup>(٢)</sup> وهى :  
الرابعة — ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول فى « البقرة »  
فى السكنى والرقي . وأما العمرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تملك  
لنافع الرقة حياة المُعمر مدة عمره ؛ فإن لم يذكر عقبا ثبات المعمر رجعت إلى الذى أعطها  
أو لورثته ؛ هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قسيط والليث بن سعد ، وهو مشهور مذهب  
مالك ، وأحد أقوال الشافعى ، وقد تقدّم فى « البقرة » حجة هذا القول . الثانى — أنها تملك  
الرقة ومنافعها وهى هبة مبتولة <sup>(٣)</sup> ؛ وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأصحابهما والثورى والحسن  
ابن حنبل وأحمد بن حنبل وآبن شُربة وأبى عبيد ؛ قالوا : من أعمار رجلا شيئا فهو له  
حياته ، وبعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبته ، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل ؛ لأن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرى جائزة » و « العمرى لمن وهبت له » . الثالث —  
إن قال عُمرَكَ ولم يذكر العقب كان كالقول الأول ؛ وإن قال لعقبك كان كالقول الثانى ؛  
وبه قال الزهرى وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبى ذئب ، وقد روى عن مالك ؛  
وهو ظاهر قوله فى الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعمر ؛ إذا انقرض  
عقب المُعمر ؛ إن كان المُعمر حيا ، وإلا فإلى من كان حيا من ورثته ، وأولى الناس  
بميراثه . ولا يملك المُعمر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقة شئ من الأشياء ، وإنما يملك  
بلفظ العُمرى المنفعة دون الرقة . وقد قال مالك فى الحبس أيضا : إذا حبس على رجل  
وعقبه أنه لا يرجع إليه . وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه ، وكذلك العُمرى  
قياسا ، وهو ظاهر الموطأ . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) راجع ج ١ ص ٢١٢ رص ٢٩٩

(٣) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب ، من بطله ، قطعه وأبانه .

عليه وسلم قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْمَرَ رَجُلًا عُمِرَى لَهُ وَلَعِيقَهُ فَقَالَ قَدْ أُعْطِيَتْكُمَا وَعِيقُكَ مَا بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ فَلَمَّا لَمْ يُعْطِهَا وَأَنَّهُ لَا تَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أُعْطِيَ عَطَاءَ وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ » . وعنه قال : إِنْ الْعُمَرَى الَّتِي أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ : هِيَ لَكَ وَعِيقُكَ ، فَأَمَّا إِذَا قَالَ : هِيَ لَكَ مَا عِشْتَ فَلَمَّا تَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِهَا ، قَالَ مَعْمَرٌ : وَبِذَلِكَ كَانَ الزَّهْرِيُّ يَقِفُ .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثاني ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَأَسْتَعْمِرْكُمْ » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجليل والثناء الحسن ، وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لها حياة وموت . وقد يقال : إِنْ الثَّناء الحسن يجرى مجرى العقب . وفي التنزيل : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ » (۱) أى ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » (۲) وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ لِهَيْئِهِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » (۳) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى سلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ﴾ أى أرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى في « البقرة » عند قوله : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي ﴾ القول فيه .

قوله تعالى : قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿۳۷﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿۳۸﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

(۲) راجع ج ۱۵ ص ۸۹ و ص ۱۱۲ .

(۱) راجع ج ۱۳ ص ۱۱۲ .

(۳) راجع ج ۲ ص ۳۰۸ فاهمه .

بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَذَابٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٥٨﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٥٩﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ كُفْرًا كُفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بَعْدَ لِمُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أى كنا نرجو أن تكون

فينا سيِّدا قبل هذا؛ أى قبل دعوتك النبوة . وقيل : كان صالح يعيب آفاتهم ويشنّوها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجائنا منك . ﴿أَتَنْهَانَا﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿أَنْ نَعْبُدَ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿مَا يَعْبدُ آبَاؤُنَا﴾ فإن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿وَأَنَّا لَنُنَى شَكَّ﴾ وفى سورة «إبراهيم» «وَأَنَّا» والأصل وَأَنبَا فاستنقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿يَمَّا تَدْعُونَا﴾ الخطاب لصالح ، وفى سورة «إبراهيم» «تَدْعُونَا» لأن الخطاب للرسول [صلوات الله وسلامه عليهم] ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ من أربته فأننا أربيه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهذلى :

كُنْتُ إِذَا أُرْبِيهِ مِنْ غَيْبٍ \* يَسْمُ عَطْفِي وَيَسْبُرُ نَوِي

\* كَأَنَّمَا أُرْبِيهِ رَبِّيبٌ \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدم معناه فى قول نوح . ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ﴾ استفهام معناه التفتى ، أى لا ينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أى تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفراء .

(۱) راجع ص ۳۴۴ من هذا الجزء . (۲) من ع .

(۳) هو خالد بن زهير الهذلى كما فى اللسان ؛ ومصدر البيت الأول :

\* يا قوم مالى وأنا ذؤيب \*

(۴) (هن نوبى) : يجذبه إليه .

والتخيير لهم لا له صلى الله عليه وسلم ؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تريدوننى باحتجاجكم بدين آباءكم غير بصيرة بخسارتكم ؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ نصب على الحال ، والعامِل معنى الإشارة أو التنبيه فى « هَذِهِ » . وإنما قيل : نافاة لله ؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكائبة<sup>(١)</sup> ، فلما خرجت النافاة — على ما طلبوا — قال لهم [ نبي الله ] صالح : « هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ » . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فَذَرُوهَا » لأنه أمر . ولا يقال : وَذَرْ ولا وَادِرْ إلا شاذًا . ولانحويين فيه قولان ؛ قال سيبويه : استغفوا عنه بترك . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فعل بمنعها لا واو فيه ألغوه ؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تَأْكُلْ » على الحال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا ﴾ جزم بالنهى . ﴿ يُسْأَرْ ﴾ قال الفراء : بعقر . ﴿ فَبَاخَذَكُمْ ﴾ جواب النهى . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عقربها .

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوْهَا ﴾ إنما عقربها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدم الكلام فى عقربها فى « الأعراف » . ويأتى أيضا . ﴿ فَقَالَ تَمَتُّعُوا ﴾ أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عز وجل قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم ، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يجمع كل واحد منكم فى داره ومسكنه ؛ كقوله : « يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشئ ؛ فعقرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام ؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدم فى « الأعراف » فاصفرت ألوانهم فى اليوم الأول ، ثم أحمرت فى الثانى ، ثم أسودت فى الثالث ، وهلكوا فى الرابع ؛ وقد تقدم فى « الأعراف » .

(١) كذا فى د والطبرى ، وفى التاج : كائبة : كرامة . وفى ك : الكائبة . (٢) من ع .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٠ فابدها . (٤) راجع ج ١٢ ص ١١ و ص ٣٣٠ ج ١٥

الثانية — استدلت علماءنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافرين إذا لم يجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة . وقد تقدم في « النساء »<sup>(١)</sup> ما للعلماء في هذا .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه . قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا . ﴿ نَحْنُ بَنَاتُ صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَةٌ مِّنَّا ﴾ تقدم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي ونجبتهم من خزي يومئذ ؛ أي من فضيحتهم وذلكه . وقيل : الواو زائدة ؛ أي نجبتهم من خزي يومئذ . ولا يجوز زيارتها عند سيئويه وأهل البصرة ، وعند الكوفيين يجوز زيارتها مع « لما » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكسائي : « يَوْمِئِذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم : حدثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ « وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » أدغم الياء في الياء ، وأضاف ، وكسر الميم في « يومئذ » . قال النحاس : الذي يرويه التحويون — مثل سيئويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا — الإخفاء ؛ فأما الإدغام فلا يجوز ، لأنه يلتقي سا كان ، ولا يجوز كسر الزاي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ أي في اليوم الرابع صبح بهم فأتوا ؛ ودكر لأن الصيحة والصياح واحد . قيل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ، وصوت كل شيء في الأرض ، فتقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » وقال في « الأعراف » « فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ » وقد تقدم بيانه هناك . وفي التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتكم الأمر بغتة ؟ ! قالوا : فما نضع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعددهم ، وكانوا فيما يقال آتني عشر ألف قبيلة ، في كل قبيلة آتني عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفجاج ، زعموا يلاقون العذاب ؛ فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يذهبهم بحزها ،



فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم ، وتدلّت ألسنتهم على صدورهم من العطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوّز<sup>(۱)</sup> من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء ، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره ، فما زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيباً لهم إلى أن غربت الشمس ؛ فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ أي ساقطين على وجوههم ، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جئمت . ﴿ أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَدْ آتَيْتَ أَنْ جَاءَ يُعْجِلُ حَنِيدٌ ﴾ ﴿ ٧٠ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾ ﴿ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ﴿ ٧٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام <sup>(۱)</sup> لحاً ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكانوا مروا بإبراهيم ، فظنهم أضيافاً . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، قاله ابن عباس . الضحّاك : كانوا تسعة . السّدى : أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسن الوجوه ، ذوو وضاعة وجمال بارع . « بِالْبُشْرَى » قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عزّ وجلّ ، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه ؛ كما تقول : قالوا خيراً . وهذا اختيار الطبري . وأما قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ ۖ فَاثَلَاثَةً ۚ » <sup>(۲)</sup> فالثلاثة اسم غير [قول] مقول . ولو رفعاً جميعاً (۱) ذع : يبور . (۲) أي لازق النسب منه . (۳) راجع ج ۱۰ ص ۳۸۲ . (۴) من ع .

أو نصباً جميعاً « قالوا سلاماً قال سلام » جاز في العربية . وقيل : انتصب على المصدر . وقيل : « قالوا سلاماً » أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »<sup>(١)</sup> أي صواباً ؛ فسلاماً معنى قولهم لا لفظه ؛ قال معناه آتت العربى وأختاره . قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبراً عن الملائكة : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ »<sup>(٢)</sup> « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » . وقيل : دَعَا لَهُ ؛ والمعنى سَأَلَتْ سَلَامًا . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ في رفعه وجهان : أحدهما — على إضمار مبتدأ أي هو سلام ، وأمرى سلام . والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية ؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذف من لاهم في قولك اللهم . وقرئ « سَلِمٌ » قال الفراء : السَلَمُ والسلام بمعنى ؛ مثل الحِلِّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يُعْجِلُ حَيْنَذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :<sup>(٤)</sup>

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حتى ، قاله <sup>(٥)</sup>كعباءة النخوين ، بحكاية ابن العربي . التقدير : فما لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع نصب بسقوط حرف الجر ؛ التقدير : فما لبث عن أن جاء ؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل ، فلما حذف حرف الجر بقى « أن » في محل نصب . وفي « لبث » ضمير اسم إبراهيم . و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذى ، وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أى فالذى لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيد . و ﴿ حَيْنَذٍ ﴾ مشى . وقيل : هو المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار . يقال : حنذت الشاة أحندها حنذاً أى شويتها ، وجعلت فوقها حجارة تُحمَّاة لتضججها فهمى حنيد . وحنذت الفرس أحندَه حنذاً ، وهو أن تحضره شوطاً أو شوطين ثم تظاهر عليه الحلال في الشمس ليعرق ، فهو محنوذ وحنيد ؛ فإن لم يعرق قيل : كَبَا . وحنذ موضع قريب

(١) راجع ج ١٣ ص ٦٧ . (٢) راجع ص ٣١٢ من هذا الجزء . (٣) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فابعد . (٤) كذا في الأصل والمسائل المذكورة من آية ٧٠ و ٧١ أيضاً لا في هذه الآية بحسب . (٥) في ع : أكثر .

من المدينة . وقيل : الحنيذ السميظ . ابن عباس وغيره : حنيذ نضيح . وحنيذ بمعنى محنود؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانية - في هذه الآية من أدب الضيف أن يُعجل قراءه ، فيقدم الموجود المبسر في الحال ، ثم يتبعه بغيره إن كان له حجة ، ولا يتكلف ما يضربه . والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أول من أضاف على ما تقدم في « البقرة »<sup>(۲)</sup> وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة ثلاثة أيام وجازئته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة » . والجازئة العطية والصلة التي أصلها على التدب . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وإكرام الجار لبس بواجب إجماعاً ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « ليلة الضيف حق » إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليه كفاية ، والله الموفق للهداية . قال ابن العربي : وقد قال قوم : إن وجوب الضيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف ؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ، وذكر حديث أبي سعيد الخدري - نرجه الأئمة ، وفيه : « فاستضيفناهم فأبوا أن يضيفونا فلُدغ سيد ذلك الحى » الحديث . وقال : هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً للآم النبي صلى الله عليه وسلم القوم الذين أبوا ، ولَبَّينَ لهم ذلك .

الثالثة - اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحُون : إنما الضيافة على أهل القرى ، وأما الحضر فالفندق ينزل فيه المسافرين [حكى اللغتين صاحب العين وغيره] . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المدر » . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أحمى

(۱) وحنيذ موضع قريب من مكة أيضاً . (۲) راجع ج ۲ ص ۹۸ . (۳) من رء ، فليأمل .

عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما أنذر به، ونسب إلى وضعه؛  
قاله أبو عمر بن عبد البر. قال ابن العربي: الضيافة حقيقة فرض على الكفاية، ومن الناس  
من قال: إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة  
والأقوات؛ ولا شك أن الضيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريبا فهي فريضة.

الرابعة — قال ابن العربي قال بعض علمائنا: كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها  
الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن في موضع القطع، وبالقياص في موضع النقل؛ من  
أين علم أنه قليل؟ بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل  
وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم؛ وعجل لثلاثة عظيم؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرائي؟!  
هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه.

الخامسة — السنة إذا قُدم للضيف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل؛ فإن كرامة  
الضيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما قبضوا أيديهم نكروهم  
إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه.  
وروى أنهم كانوا يَنْكُتُونَ بِقَدَاحٍ<sup>(١)</sup> كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما  
رأى ذلك منهم ﴿تَكَرَّهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أضمر. وقيل: أحس؛ والوجوس  
الدخول؛ قال الشاعر:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَجِبُ بِهِ \* فأوجس القلبُ من قرطاسه جَرَعاً

«خِيفَةً» خوفاً؛ أي فزعا. وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً؛ فقالت الملائكة  
﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

السادسة — من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم  
لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومساورة<sup>(٢)</sup> لا بتحديد النظر. روى أن أعرابيا أكل مع

(٢) ع: أو مساورة.

(١) قداح (جمع قح بالكسر) اللحم قبل أن ينصل ويراش.

سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرجي شجرة فقال له: أزل الشجرة عن لقمته؛ فقال له: أنتظر إلى نظر من يرى الشجرة في لقمتي؟! والله لا أكلت معك.

قلت: وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرجي خرج من عنده وهو يقول:

وَلَسَوْتُ خَيْرٌ مِنْ [زيارة<sup>(١)</sup>] باخل • يُلاحِظُ أطرافَ الأَكِيلِ على عَمْدٍ

السابعة - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: أنكرهم؛ تقول: نكرتك [وأنكرتك] واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر<sup>(٢)</sup>:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَتْ الذِّى نَكِرْتُ • مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَامَ

بجمع بين اللغتين. ويقال: نكرت لما تراه بعينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ ابتداء وخبر، أى قائمة بحيث ترى الملائكة.

فيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق: قائمة تصلى. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ وَهُوَ قَائِدٌ».

التاسعة - قوله تعالى: ﴿فَضَحِكْتُ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت

آيسة؛ تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العرسَ عند طُهورِها • وأهجرُها يوماً إذا نكحَ ضاحِكًا

وقال آخر:

وَضَحِكُ الأَرَانِيبِ فَوْقَ الصَّفَا • كَشَلِّ دَمِ الجُوفِ يَوْمَ اللَّفَا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم: ضحكت الكافورة - وهى قشرة الطلعة - إذا انشقت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجب؛ قال أبو ذؤيب:

(١) كذا في عدى وفي العقد الفريد، وفى ك: ضيافة. (٢) من أودعوك ورو. (٣) البيت للأعشى.



بجاء بمزج لم ير الناس مثله \* هو الضحك إلا أنه عمل النحل<sup>(١)</sup>

وقال مقاتل: ضحك من خوف إبراهيم، ورعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل. قال: وليس الضحك الحيف في اللغة بمستقيم. وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمع من ثقة؛ وإنما هو تكاية. وروى أن الملائكة مسحت العجل، فقسام من موضعه فلحق بأمه، فضحكت سارة عند ذلك فبشروها بإسحق. ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله: «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ» أى قائمة في خدمتهم. ويقال: «قَائِمَةٌ» لرؤع إبراهيم «فَضَحَكَتْ» لقولهم: «لَا تَخَفْ» سرورا بالأمن. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، المعنى: فبشروها بإسحق فضحكت، أى ضحكت سرورا بالولد، وقد هيرمت؛ والله أعلم أى ذلك كان. قال النحاس فيه أقوال: أحسنها — أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رُسُلُ [الله] <sup>(٢)</sup>، فرح بذلك، فضحكت امرأته سرورا بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فطم لوطا إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرت به فضحكت؛ قال النحاس: وهذا إن صح إنسانه فهو حسن. والضحك أن يكشف الأسنان. ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول: رأيت فلانا ضاحكا؛ أى مشرقا. وأثبت على روضة تضحك؛ أى مشرقة. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَبْعَثُ السَّحَابَ فَيُضْحِكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ». جعل أنجلاءه عن البرق ضحكا؛ وهذا كلام مستعار. وروى عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي. «فَضَحَكَتْ» بفتح الحاء؛ قال المهدوي: وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف. وضحك بضم ح وفتح ح وضم ح وفتح ح [أربع لغات] <sup>(٣)</sup> والضحكة المرة الواحدة، ومنه قول كثير: غَلَقْتُ لَضَحِكِيهِ رِقَابُ الْمَالِ \* <sup>(٣)</sup>

قاله الجوهرى :

(١) وفسر الضحك هنا بالعلل أو التهدد. راجع اللسان مادة (ضحك) . (٢) من ع .

(٣) صدر البيت : \* غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا \*

العاشرة — روى مسلم عن سهل بن مسعد قال : دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عُرسه ، فكانت أمراته يومئذ خادمهم وهى العروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنقعت له تمرات من الليل في تور ، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخارى وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال في العُرس وخدمتهم بالنفس » . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عُرسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخدمهن<sup>(٢)</sup> لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحادية عشرة — ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدم العجل قالوا : لا تأكل طعاما إلا بجن ، فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله في أوله وتحمده في آخره » فقال جبريل لأصحابه : بحق اتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما بَسَّرَ الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسداً وهيئة أن يسرّ لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلف إبراهيم عليه السلام الضيافة [ حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى بخفاة<sup>(٣)</sup> ] .

الثانية عشرة — ودلّ هذا على أن النسبة في أول الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه ، فلقى يوماً رجلاً ، فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمّ الله ، قال الرجل لا أدري ما الله ؟ فقال له : فانخرج عن طعامي ، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له : يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فرعاً يمزّز رداءه ، وقال : أرجع ، فقال : لا أرجع حتى تحبّرنى لم تردّني لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : هذا رب كريم ، آمنت ؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً .

(١) التور : إنا نشرب فيه العرب ، وقد يشوّهه ، ويصنع من صفراء حجارة .

(٢) في ع : يستخدمها . (٣) الزيادة عن ابن العرب . (٤) في ع : منتها .

الثالثة عشرة - قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ لما ولد لإبراهيم بإسماعيل من هاجر تمت سارة أن يكون لها ابن، وأيسر لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيا وولد نبيا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ قرأ حمزة وعبد الله ابن عامر «يعقوب» بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوب . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذى يعمل فى « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحاق يعقوب . ويجوز أن يرتفع بالابتداء ، ويكون فى موضع الحال ؛ أى بشروها بإسحاق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب . وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» فى موضع جر على معنى : وبشرناها من وراء إسحاق يعقوب . قال الفراء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أول من أمس وأمس عمرو كان قبيحا [خبينا] ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور ، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَوَيْلَ لِيَءَالِدٍ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا  
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾  
فيه مستلثان :

الأولى - قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلىتى ؛ فأبدل من الياء ألف ، لأنها أخف من الياء والكسرة ؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفف على أفواه النساء إذا طرا عليهن ما يعجب منهن ؛ وعجبت من ولادتها [ومن] كون بعلمها شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿أَلِدٍ﴾ استفهام معناه التعجب .  
﴿وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أى شيخه . ولقد عجزت تعجز عجزا وتعجزت تعجزا ؛ أى طمنت فى السن .

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) . (٢) كذا فى أوله وع وروى . (٣) من ع .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم ؛ عظمت عجيزتها نُجْزَا ونُجْزَا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين سنة <sup>(۱)</sup> . وقيل غير هذا .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة . « وَهَذَا بَعْلِي » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفي قراءة ابن مسعود وأبى : « وهذا بعل شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم ؛ فزيد بدل من هذا ؛ وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين ؛ وحكى سيبويه : هذا حالو حامض . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة . وقيل : إنما عرضت بقولها : « وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » أى عن ترك غشيانه لها . وماتة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم . ﴿ إِنَّ هَذَا لَتَنِيءٌ حَبِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمونى به لشي عجب .

قوله تعالى : قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لما قالت : « وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » وتعجبت ، أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله ، أى من قضائه وقدره ، أى لا عجب من أن يرزقها الله الولد ، وهو إسحاق . وبهذه الآية استدلل كثير من العلماء على أن الذبيح إسماعيل ، وأنه أسن من إسحاق ؛ لأنها بشرت بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتى الكلام في هذا ؛ وبيانه في « الصافات » <sup>(۲)</sup> إن شاء الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وحكى سيبويه «عليكم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخباراً أنشرف؛ لأن ذلك يقتضى حصول الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصول الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت. وكونه دعاء إنما يقتضى أنه أمر يُترجى ولم يتحصل بعد. ونصب ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه. وقيل: على النداء.

الثالثة — هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ ممن قال الله فيهم: «وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً» وسيأتى.

الرابعة — ودلت الآية أيضاً على أن منتهى السلام «وَبَرَكَاتُهُ» كما أخبر الله عن صالحى عباده «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ». والبركة النمو والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة. وروى مالك عن وهب بن كيسان أبى نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال ابن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — من هذا؟ فقالوا اليماني الذى يغشاك، فعترفوه إياه، فقال: إن السلام انتهى إلى البركة. وروى عن على رضى الله عنه أنه قال: دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى عصابة من أصحابه، فقالت: السلام عليكم؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشرة لك». قال: ودخلت الثانية؛ فقلت: السلام عليكم ورحمة الله فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك». فدخلت الثالثة فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت فى السلام سواء». ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أى محمود ماجد. وقد بينهما فى «الأسماء الحسنى».



قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا  
 فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمُ أَعْرَضَ  
 عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾  
 قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا  
 إذا خاف ؛ قال النابغة :

فارتاع من صَوْتِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ \* طَوَعَ الشَّوَابِيتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ

﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بالصحى وبعقوب . وقال قتادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب  
 إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا ، وأضافه إلى نفسه ، لأنهم نزلوا  
 بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة ؛ وذلك أنهم لما قالوا :  
 « إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » <sup>(١)</sup> قال لهم : أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتاكمونهم ؟  
 قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا قال : فعشرون ؟  
 قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة — أو خمسة شك حميد — قالوا : لا . قال قتادة :  
 نحوا منه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل  
 إن إبراهيم قال : أرايتم إن كان فيها رجل مسلم أتاكمونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عند  
 ذلك : « إِنَّ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ » .  
 وقال عبد الرحمن بن سُمرة : كانوا أربع مائة ألف . آبن جريج . وكانت في قري قوم لوط  
 أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائي أن « يجادلنا » في موضع « جادلنا » .  
 قال النحاس : لما كان جواب « لما » يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل مكانه ؛  
 كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل بفعل الماضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن  
 يكون « يجادلنا » في موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا ؛ وهذا قول الفراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخسوف الذى أدركه ، والبرد  
 الذى أصابه ميت سوء ، وميته على ذلك الحال يسر أعداءه . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٤١ فابعد .

أَوَّلُهُ مُنِيبٌ ﴿١١﴾ تَقْدِمُ فِي « بَرَاءةٍ » مَعْنَى « لَأَوَّلُهُ حَلِيمٌ » . وَالْمُنِيبُ الرَّاجِعُ ، يُقَالُ : أَنَابَ إِذَا رَجَعَ . وَإِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ رَاجِعًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا . وَقِيلَ : الْأَوَّلُ الْمُنَاوِزُ أَسْفَلَ عَلَى مَا قَدْ فَاتَ قَوْمَ لُوطَ مِنَ الْإِيمَانِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أَيْ دَعْ عَنْكَ الْجِدَالَ فِي قَوْمِ لُوطَ . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ عَذَابُهُ لَهُمْ . ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أَيْ نَازِلٌ بِهِمْ . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُدٍ ﴾ أَيْ غَيْرُ مُصْرُوفٍ عَنْهُمْ وَلَا مَدْفُوعٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿١٢﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿١٤﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿١٥﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَى بَنَاتِهَا وَأَمْرَتُنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ ﴿١٧﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيِّئًا بِهِمْ ) لَمَّا خَرَجَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَقَرْيَةِ لُوطَ أَرْبَعَةُ فَرَاسِخَ بَصُرَتْ بَنَاتُ لُوطَ — وَهُمَا اسْتَقْيَانِ — بِالْمَلَائِكَةِ

ورأنا هيئة حسنة ، فقالنا : ما شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا نريد هذه القرية قالنا : فإن أهلها أصحاب الفواحش ، فقالوا : أيها من يضيفنا ؟ قالنا : نعم ! هذا الشيخ وأشارنا إلى لوط ، فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم . (يَسَىٰ يَهُيمُ) أى ساءه يجيئهم ، يقال : ساء يسوء فهو لازم ، وساءه يسوء فهو متعد أيضا ، وإن شئت ضمنت السين ، لأن أصلها الضم ، والأصل سُويَّ بهم من السوء ، قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء ، وإن خففت الهجزة ألفت حركتها على الياء فقلت : «يَسَىٰ يَهُيمُ» مخففا ، ولغة شاذة بالشديد . (وَصَاقَ يَهُيمُ ذَرْعًا) أى ضاق صدره بجيئهم وكرهه . وقيل : ضاق وسعه وطاقته . وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذَرْعًا على قدر سعة خَطْوِهِ ، فإذا حُمِلَ على أكثر من طَوْقِهِ ضاق عن ذلك ، وضعف ومدّ عنقه ، فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوُسْع . وقيل : هو من ذَرَعَه النَّيَّ أى ظله ، أى ضاق عن حبسه المكروه في نفسه ، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جهالم ، وما يعلم من فسق قومه . (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) أى شديد في الشر . وقال الشاعر :

وإِنَّكَ إِلَّا تُرِضَ بَكَرَ بْنَ وائِلٍ \* يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبٌ

وقال آخر :

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَمِصُّ الْإِبْطَالَ \* عَصَبَ الْقَيْسِ السَّلَمِ الطَّوَالَا

وبال : عَصِيبٌ وَعَصَبٌ عَلَى التَّكْثِيرِ ، أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب ؛ أى عصب بالشر عصابة ، ومنه قيل : عَصَبَةٌ وَعِصَابَةٌ أى مجتمعوا الكلمة ، أى مجتمعون في أفعلمهم . وَعَصَبَةُ الرَّجُلِ الْمُجْتَمِعُونَ مَعَهُ فِي النَّسَبِ ، وَتَعَصَّبَ لِفُلَانٍ صَرَتْ كَعَصْبَتِهِ ، وَرَجُلٌ مَعَصُوبٌ ، أى مجتمع الخلق .

قوله تعالى : (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) في موضع الحال . «يُهْرَعُونَ» أى يسرعون . قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة ؛ يقال : أَهْرَعَ الرَّجُلُ إِهْرَاعًا أَيْ أَسْرَعَ فِي رَعْدَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ حُمًى ، وَهُوَ مُهْرَعٌ ، قَالَ مُهْلِلٌ :

(١) في مفردات الرافعي : ومعصوب الخلق أى مدبج الخلقة .

بخاءوا يهرعون وهم أسارى \* تقودهم على رغيم الأنوف

وقال آخر :

\* بمجالات نحوه مہارح \*

وهذا مثل : أولع فلان بالأمر ، وأرعد زيد ، وزهى فلان . وتبىء ولا تدبعل  
إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرع أى أهرعه حرصه ؛ وعلى هذا « يهرعون » أى يستحثون  
عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أهرع الرجل أى أهرع ؛ على لفظ ما لم يسم  
فاعله . قال ابن القوطية : هرع الإنسان هرعاً ، وأهرع : يسبق واستعجل . وقال  
الهروى يقال : هرع الرجل وأهرع أى استحث . قال ابن عباس وقتادة والسدي :  
« يهرعون » يهرولون . الضحالك : يسمعون . ابن عينة : كأنهم يدفعون . وقال ثمر بن عذبة :  
هو مشى بين الهرولة والجرى . وقال الحسن : مشى بين مشيين ، والمعنى متقارب . وكان  
سبب إسرارهم ما روى أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وحيثهم ،  
خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤى مثلهم  
جمالاً ، وكذا وكذا ؛ حينئذ جاءوا يهرعون إليه . ويدكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط  
وجدوا لوطاً في حرث له . وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم ؛ فسألوها الدلالة  
على من يضيفهم ، ورأت هيئتهم نخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت  
إلى أبيها فأخبرته بفرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ؛ فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل  
هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض — وقد كان الله  
عز وجل قال للملائكة لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط  
هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة  
أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلُ ﴾ أى ومن قبل مجئ الرسل . وقيل : من قبل لوط .  
﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى كانت عاداتهم إتيان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا

أضیافه قام الیهم لوط مدافعا، وقال : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِی ﴾ ابتداء وخبر . وقد اختلف فی قوله : « هَؤُلَاءِ بَنَاتِی » فقيل : كان له ثلاث بنات من صلبه . وقيل : بنتان ؛ زینا وزعوراء ؛<sup>(۱)</sup> فقيل : كان لهم سیدان مطاعان أراد أن یزوجهما آبنتيه . وقيل : ندهم فی هذه الحالة إلى النکاح ، وكانت سنتهم جواز نکاح الکافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فی أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله علیه وسلم بنتا له من عتبة بن أبی لهب ، والأخرى من أبی العاص بن الربیع قبل الوحی، وكانا کافرين . وقالت فرقة — منهم مجاهد وسعيد بن جبیر — اشار بقوله : « بَنَاتِی » إلى النساء جملة ؛ إذ نجي القوم أب لهم ؛ ويقوى هذا أن فی قراءة ابن مسعود . « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبُ لَهِمْ » . وقالت طائفة : إنما كان الکلام مدافعة ولم یرد إمضاء ؛ روى هذا القول عن أبی عبیده ؛ كما یقال لمن یبغی عن أكل مال الغير : الخنزیر أحل لك من هذا . وقال عکرمه : لم یعرض علیهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لیتصرفوا .

قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى أزواجکون ؛ فهو أطهر لکم مما یریدون ، أى أحل . والتطهر التزّه عما لا یحل . وقال ابن عباس : کان رؤسائهم خطبوا بناته فلم یحبهم ، وأراد ذلك الیوم أن یفدى أضیافه بناته . وليس ألف « أطهر » للتفضیل حتى یتوهم أن فی نکاح [ الرجال ]<sup>(۲)</sup> طهارة ، بل هو کقولک : الله أكبر وأعلى وأجل ، وإن لم یکن تفضیلا ؛ وهذا جائز شائع فی کلام العرب ، ولم یکابر الله تعالى أحد حتى یكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفیان بن حرب یوم أحد : <sup>(۳)</sup> <sup>(۴)</sup> <sup>(۵)</sup> <sup>(۶)</sup> <sup>(۷)</sup> <sup>(۸)</sup> <sup>(۹)</sup> <sup>(۱۰)</sup> <sup>(۱۱)</sup> <sup>(۱۲)</sup> <sup>(۱۳)</sup> <sup>(۱۴)</sup> <sup>(۱۵)</sup> <sup>(۱۶)</sup> <sup>(۱۷)</sup> <sup>(۱۸)</sup> <sup>(۱۹)</sup> <sup>(۲۰)</sup> <sup>(۲۱)</sup> <sup>(۲۲)</sup> <sup>(۲۳)</sup> <sup>(۲۴)</sup> <sup>(۲۵)</sup> <sup>(۲۶)</sup> <sup>(۲۷)</sup> <sup>(۲۸)</sup> <sup>(۲۹)</sup> <sup>(۳۰)</sup> <sup>(۳۱)</sup> <sup>(۳۲)</sup> <sup>(۳۳)</sup> <sup>(۳۴)</sup> <sup>(۳۵)</sup> <sup>(۳۶)</sup> <sup>(۳۷)</sup> <sup>(۳۸)</sup> <sup>(۳۹)</sup> <sup>(۴۰)</sup> <sup>(۴۱)</sup> <sup>(۴۲)</sup> <sup>(۴۳)</sup> <sup>(۴۴)</sup> <sup>(۴۵)</sup> <sup>(۴۶)</sup> <sup>(۴۷)</sup> <sup>(۴۸)</sup> <sup>(۴۹)</sup> <sup>(۵۰)</sup> <sup>(۵۱)</sup> <sup>(۵۲)</sup> <sup>(۵۳)</sup> <sup>(۵۴)</sup> <sup>(۵۵)</sup> <sup>(۵۶)</sup> <sup>(۵۷)</sup> <sup>(۵۸)</sup> <sup>(۵۹)</sup> <sup>(۶۰)</sup> <sup>(۶۱)</sup> <sup>(۶۲)</sup> <sup>(۶۳)</sup> <sup>(۶۴)</sup> <sup>(۶۵)</sup> <sup>(۶۶)</sup> <sup>(۶۷)</sup> <sup>(۶۸)</sup> <sup>(۶۹)</sup> <sup>(۷۰)</sup> <sup>(۷۱)</sup> <sup>(۷۲)</sup> <sup>(۷۳)</sup> <sup>(۷۴)</sup> <sup>(۷۵)</sup> <sup>(۷۶)</sup> <sup>(۷۷)</sup> <sup>(۷۸)</sup> <sup>(۷۹)</sup> <sup>(۸۰)</sup> <sup>(۸۱)</sup> <sup>(۸۲)</sup> <sup>(۸۳)</sup> <sup>(۸۴)</sup> <sup>(۸۵)</sup> <sup>(۸۶)</sup> <sup>(۸۷)</sup> <sup>(۸۸)</sup> <sup>(۸۹)</sup> <sup>(۹۰)</sup> <sup>(۹۱)</sup> <sup>(۹۲)</sup> <sup>(۹۳)</sup> <sup>(۹۴)</sup> <sup>(۹۵)</sup> <sup>(۹۶)</sup> <sup>(۹۷)</sup> <sup>(۹۸)</sup> <sup>(۹۹)</sup> <sup>(۱۰۰)</sup> <sup>(۱۰۱)</sup> <sup>(۱۰۲)</sup> <sup>(۱۰۳)</sup> <sup>(۱۰۴)</sup> <sup>(۱۰۵)</sup> <sup>(۱۰۶)</sup> <sup>(۱۰۷)</sup> <sup>(۱۰۸)</sup> <sup>(۱۰۹)</sup> <sup>(۱۱۰)</sup> <sup>(۱۱۱)</sup> <sup>(۱۱۲)</sup> <sup>(۱۱۳)</sup> <sup>(۱۱۴)</sup> <sup>(۱۱۵)</sup> <sup>(۱۱۶)</sup> <sup>(۱۱۷)</sup> <sup>(۱۱۸)</sup> <sup>(۱۱۹)</sup> <sup>(۱۲۰)</sup> <sup>(۱۲۱)</sup> <sup>(۱۲۲)</sup> <sup>(۱۲۳)</sup> <sup>(۱۲۴)</sup> <sup>(۱۲۵)</sup> <sup>(۱۲۶)</sup> <sup>(۱۲۷)</sup> <sup>(۱۲۸)</sup> <sup>(۱۲۹)</sup> <sup>(۱۳۰)</sup> <sup>(۱۳۱)</sup> <sup>(۱۳۲)</sup> <sup>(۱۳۳)</sup> <sup>(۱۳۴)</sup> <sup>(۱۳۵)</sup> <sup>(۱۳۶)</sup> <sup>(۱۳۷)</sup> <sup>(۱۳۸)</sup> <sup>(۱۳۹)</sup> <sup>(۱۴۰)</sup> <sup>(۱۴۱)</sup> <sup>(۱۴۲)</sup> <sup>(۱۴۳)</sup> <sup>(۱۴۴)</sup> <sup>(۱۴۵)</sup> <sup>(۱۴۶)</sup> <sup>(۱۴۷)</sup> <sup>(۱۴۸)</sup> <sup>(۱۴۹)</sup> <sup>(۱۵۰)</sup> <sup>(۱۵۱)</sup> <sup>(۱۵۲)</sup> <sup>(۱۵۳)</sup> <sup>(۱۵۴)</sup> <sup>(۱۵۵)</sup> <sup>(۱۵۶)</sup> <sup>(۱۵۷)</sup> <sup>(۱۵۸)</sup> <sup>(۱۵۹)</sup> <sup>(۱۶۰)</sup> <sup>(۱۶۱)</sup> <sup>(۱۶۲)</sup> <sup>(۱۶۳)</sup> <sup>(۱۶۴)</sup> <sup>(۱۶۵)</sup> <sup>(۱۶۶)</sup> <sup>(۱۶۷)</sup> <sup>(۱۶۸)</sup> <sup>(۱۶۹)</sup> <sup>(۱۷۰)</sup> <sup>(۱۷۱)</sup> <sup>(۱۷۲)</sup> <sup>(۱۷۳)</sup> <sup>(۱۷۴)</sup> <sup>(۱۷۵)</sup> <sup>(۱۷۶)</sup> <sup>(۱۷۷)</sup> <sup>(۱۷۸)</sup> <sup>(۱۷۹)</sup> <sup>(۱۸۰)</sup> <sup>(۱۸۱)</sup> <sup>(۱۸۲)</sup> <sup>(۱۸۳)</sup> <sup>(۱۸۴)</sup> <sup>(۱۸۵)</sup> <sup>(۱۸۶)</sup> <sup>(۱۸۷)</sup> <sup>(۱۸۸)</sup> <sup>(۱۸۹)</sup> <sup>(۱۹۰)</sup> <sup>(۱۹۱)</sup> <sup>(۱۹۲)</sup> <sup>(۱۹۳)</sup> <sup>(۱۹۴)</sup> <sup>(۱۹۵)</sup> <sup>(۱۹۶)</sup> <sup>(۱۹۷)</sup> <sup>(۱۹۸)</sup> <sup>(۱۹۹)</sup> <sup>(۲۰۰)</sup> <sup>(۲۰۱)</sup> <sup>(۲۰۲)</sup> <sup>(۲۰۳)</sup> <sup>(۲۰۴)</sup> <sup>(۲۰۵)</sup> <sup>(۲۰۶)</sup> <sup>(۲۰۷)</sup> <sup>(۲۰۸)</sup> <sup>(۲۰۹)</sup> <sup>(۲۱۰)</sup> <sup>(۲۱۱)</sup> <sup>(۲۱۲)</sup> <sup>(۲۱۳)</sup> <sup>(۲۱۴)</sup> <sup>(۲۱۵)</sup> <sup>(۲۱۶)</sup> <sup>(۲۱۷)</sup> <sup>(۲۱۸)</sup> <sup>(۲۱۹)</sup> <sup>(۲۲۰)</sup> <sup>(۲۲۱)</sup> <sup>(۲۲۲)</sup> <sup>(۲۲۳)</sup> <sup>(۲۲۴)</sup> <sup>(۲۲۵)</sup> <sup>(۲۲۶)</sup> <sup>(۲۲۷)</sup> <sup>(۲۲۸)</sup> <sup>(۲۲۹)</sup> <sup>(۲۳۰)</sup> <sup>(۲۳۱)</sup> <sup>(۲۳۲)</sup> <sup>(۲۳۳)</sup> <sup>(۲۳۴)</sup> <sup>(۲۳۵)</sup> <sup>(۲۳۶)</sup> <sup>(۲۳۷)</sup> <sup>(۲۳۸)</sup> <sup>(۲۳۹)</sup> <sup>(۲۴۰)</sup> <sup>(۲۴۱)</sup> <sup>(۲۴۲)</sup> <sup>(۲۴۳)</sup> <sup>(۲۴۴)</sup> <sup>(۲۴۵)</sup> <sup>(۲۴۶)</sup> <sup>(۲۴۷)</sup> <sup>(۲۴۸)</sup> <sup>(۲۴۹)</sup> <sup>(۲۵۰)</sup> <sup>(۲۵۱)</sup> <sup>(۲۵۲)</sup> <sup>(۲۵۳)</sup> <sup>(۲۵۴)</sup> <sup>(۲۵۵)</sup> <sup>(۲۵۶)</sup> <sup>(۲۵۷)</sup> <sup>(۲۵۸)</sup> <sup>(۲۵۹)</sup> <sup>(۲۶۰)</sup> <sup>(۲۶۱)</sup> <sup>(۲۶۲)</sup> <sup>(۲۶۳)</sup> <sup>(۲۶۴)</sup> <sup>(۲۶۵)</sup> <sup>(۲۶۶)</sup> <sup>(۲۶۷)</sup> <sup>(۲۶۸)</sup> <sup>(۲۶۹)</sup> <sup>(۲۷۰)</sup> <sup>(۲۷۱)</sup> <sup>(۲۷۲)</sup> <sup>(۲۷۳)</sup> <sup>(۲۷۴)</sup> <sup>(۲۷۵)</sup> <sup>(۲۷۶)</sup> <sup>(۲۷۷)</sup> <sup>(۲۷۸)</sup> <sup>(۲۷۹)</sup> <sup>(۲۸۰)</sup> <sup>(۲۸۱)</sup> <sup>(۲۸۲)</sup> <sup>(۲۸۳)</sup> <sup>(۲۸۴)</sup> <sup>(۲۸۵)</sup> <sup>(۲۸۶)</sup> <sup>(۲۸۷)</sup> <sup>(۲۸۸)</sup> <sup>(۲۸۹)</sup> <sup>(۲۹۰)</sup> <sup>(۲۹۱)</sup> <sup>(۲۹۲)</sup> <sup>(۲۹۳)</sup> <sup>(۲۹۴)</sup> <sup>(۲۹۵)</sup> <sup>(۲۹۶)</sup> <sup>(۲۹۷)</sup> <sup>(۲۹۸)</sup> <sup>(۲۹۹)</sup> <sup>(۳۰۰)</sup> <sup>(۳۰۱)</sup> <sup>(۳۰۲)</sup> <sup>(۳۰۳)</sup> <sup>(۳۰۴)</sup> <sup>(۳۰۵)</sup> <sup>(۳۰۶)</sup> <sup>(۳۰۷)</sup> <sup>(۳۰۸)</sup> <sup>(۳۰۹)</sup> <sup>(۳۱۰)</sup> <sup>(۳۱۱)</sup> <sup>(۳۱۲)</sup> <sup>(۳۱۳)</sup> <sup>(۳۱۴)</sup> <sup>(۳۱۵)</sup> <sup>(۳۱۶)</sup> <sup>(۳۱۷)</sup> <sup>(۳۱۸)</sup> <sup>(۳۱۹)</sup> <sup>(۳۲۰)</sup> <sup>(۳۲۱)</sup> <sup>(۳۲۲)</sup> <sup>(۳۲۳)</sup> <sup>(۳۲۴)</sup> <sup>(۳۲۵)</sup> <sup>(۳۲۶)</sup> <sup>(۳۲۷)</sup> <sup>(۳۲۸)</sup> <sup>(۳۲۹)</sup> <sup>(۳۳۰)</sup> <sup>(۳۳۱)</sup> <sup>(۳۳۲)</sup> <sup>(۳۳۳)</sup> <sup>(۳۳۴)</sup> <sup>(۳۳۵)</sup> <sup>(۳۳۶)</sup> <sup>(۳۳۷)</sup> <sup>(۳۳۸)</sup> <sup>(۳۳۹)</sup> <sup>(۳۴۰)</sup> <sup>(۳۴۱)</sup> <sup>(۳۴۲)</sup> <sup>(۳۴۳)</sup> <sup>(۳۴۴)</sup> <sup>(۳۴۵)</sup> <sup>(۳۴۶)</sup> <sup>(۳۴۷)</sup> <sup>(۳۴۸)</sup> <sup>(۳۴۹)</sup> <sup>(۳۵۰)</sup> <sup>(۳۵۱)</sup> <sup>(۳۵۲)</sup> <sup>(۳۵۳)</sup> <sup>(۳۵۴)</sup> <sup>(۳۵۵)</sup> <sup>(۳۵۶)</sup> <sup>(۳۵۷)</sup> <sup>(۳۵۸)</sup> <sup>(۳۵۹)</sup> <sup>(۳۶۰)</sup> <sup>(۳۶۱)</sup> <sup>(۳۶۲)</sup> <sup>(۳۶۳)</sup> <sup>(۳۶۴)</sup> <sup>(۳۶۵)</sup> <sup>(۳۶۶)</sup> <sup>(۳۶۷)</sup> <sup>(۳۶۸)</sup> <sup>(۳۶۹)</sup> <sup>(۳۷۰)</sup> <sup>(۳۷۱)</sup> <sup>(۳۷۲)</sup> <sup>(۳۷۳)</sup> <sup>(۳۷۴)</sup> <sup>(۳۷۵)</sup> <sup>(۳۷۶)</sup> <sup>(۳۷۷)</sup> <sup>(۳۷۸)</sup> <sup>(۳۷۹)</sup> <sup>(۳۸۰)</sup> <sup>(۳۸۱)</sup> <sup>(۳۸۲)</sup> <sup>(۳۸۳)</sup> <sup>(۳۸۴)</sup> <sup>(۳۸۵)</sup> <sup>(۳۸۶)</sup> <sup>(۳۸۷)</sup> <sup>(۳۸۸)</sup> <sup>(۳۸۹)</sup> <sup>(۳۹۰)</sup> <sup>(۳۹۱)</sup> <sup>(۳۹۲)</sup> <sup>(۳۹۳)</sup> <sup>(۳۹۴)</sup> <sup>(۳۹۵)</sup> <sup>(۳۹۶)</sup> <sup>(۳۹۷)</sup> <sup>(۳۹۸)</sup> <sup>(۳۹۹)</sup> <sup>(۴۰۰)</sup> <sup>(۴۰۱)</sup> <sup>(۴۰۲)</sup> <sup>(۴۰۳)</sup> <sup>(۴۰۴)</sup> <sup>(۴۰۵)</sup> <sup>(۴۰۶)</sup> <sup>(۴۰۷)</sup> <sup>(۴۰۸)</sup> <sup>(۴۰۹)</sup> <sup>(۴۱۰)</sup> <sup>(۴۱۱)</sup> <sup>(۴۱۲)</sup> <sup>(۴۱۳)</sup> <sup>(۴۱۴)</sup> <sup>(۴۱۵)</sup> <sup>(۴۱۶)</sup> <sup>(۴۱۷)</sup> <sup>(۴۱۸)</sup> <sup>(۴۱۹)</sup> <sup>(۴۲۰)</sup> <sup>(۴۲۱)</sup> <sup>(۴۲۲)</sup> <sup>(۴۲۳)</sup> <sup>(۴۲۴)</sup> <sup>(۴۲۵)</sup> <sup>(۴۲۶)</sup> <sup>(۴۲۷)</sup> <sup>(۴۲۸)</sup> <sup>(۴۲۹)</sup> <sup>(۴۳۰)</sup> <sup>(۴۳۱)</sup> <sup>(۴۳۲)</sup> <sup>(۴۳۳)</sup> <sup>(۴۳۴)</sup> <sup>(۴۳۵)</sup> <sup>(۴۳۶)</sup> <sup>(۴۳۷)</sup> <sup>(۴۳۸)</sup> <sup>(۴۳۹)</sup> <sup>(۴۴۰)</sup> <sup>(۴۴۱)</sup> <sup>(۴۴۲)</sup> <sup>(۴۴۳)</sup> <sup>(۴۴۴)</sup> <sup>(۴۴۵)</sup> <sup>(۴۴۶)</sup> <sup>(۴۴۷)</sup> <sup>(۴۴۸)</sup> <sup>(۴۴۹)</sup> <sup>(۴۵۰)</sup> <sup>(۴۵۱)</sup> <sup>(۴۵۲)</sup> <sup>(۴۵۳)</sup> <sup>(۴۵۴)</sup> <sup>(۴۵۵)</sup> <sup>(۴۵۶)</sup> <sup>(۴۵۷)</sup> <sup>(۴۵۸)</sup> <sup>(۴۵۹)</sup> <sup>(۴۶۰)</sup> <sup>(۴۶۱)</sup> <sup>(۴۶۲)</sup> <sup>(۴۶۳)</sup> <sup>(۴۶۴)</sup> <sup>(۴۶۵)</sup> <sup>(۴۶۶)</sup> <sup>(۴۶۷)</sup> <sup>(۴۶۸)</sup> <sup>(۴۶۹)</sup> <sup>(۴۷۰)</sup> <sup>(۴۷۱)</sup> <sup>(۴۷۲)</sup> <sup>(۴۷۳)</sup> <sup>(۴۷۴)</sup> <sup>(۴۷۵)</sup> <sup>(۴۷۶)</sup> <sup>(۴۷۷)</sup> <sup>(۴۷۸)</sup> <sup>(۴۷۹)</sup> <sup>(۴۸۰)</sup> <sup>(۴۸۱)</sup> <sup>(۴۸۲)</sup> <sup>(۴۸۳)</sup> <sup>(۴۸۴)</sup> <sup>(۴۸۵)</sup> <sup>(۴۸۶)</sup> <sup>(۴۸۷)</sup> <sup>(۴۸۸)</sup> <sup>(۴۸۹)</sup> <sup>(۴۹۰)</sup> <sup>(۴۹۱)</sup> <sup>(۴۹۲)</sup> <sup>(۴۹۳)</sup> <sup>(۴۹۴)</sup> <sup>(۴۹۵)</sup> <sup>(۴۹۶)</sup> <sup>(۴۹۷)</sup> <sup>(۴۹۸)</sup> <sup>(۴۹۹)</sup> <sup>(۵۰۰)</sup> <sup>(۵۰۱)</sup> <sup>(۵۰۲)</sup> <sup>(۵۰۳)</sup> <sup>(۵۰۴)</sup> <sup>(۵۰۵)</sup> <sup>(۵۰۶)</sup> <sup>(۵۰۷)</sup> <sup>(۵۰۸)</sup> <sup>(۵۰۹)</sup> <sup>(۵۱۰)</sup> <sup>(۵۱۱)</sup> <sup>(۵۱۲)</sup> <sup>(۵۱۳)</sup> <sup>(۵۱۴)</sup> <sup>(۵۱۵)</sup> <sup>(۵۱۶)</sup> <sup>(۵۱۷)</sup> <sup>(۵۱۸)</sup> <sup>(۵۱۹)</sup> <sup>(۵۲۰)</sup> <sup>(۵۲۱)</sup> <sup>(۵۲۲)</sup> <sup>(۵۲۳)</sup> <sup>(۵۲۴)</sup> <sup>(۵۲۵)</sup> <sup>(۵۲۶)</sup> <sup>(۵۲۷)</sup> <sup>(۵۲۸)</sup> <sup>(۵۲۹)</sup> <sup>(۵۳۰)</sup> <sup>(۵۳۱)</sup> <sup>(۵۳۲)</sup> <sup>(۵۳۳)</sup> <sup>(۵۳۴)</sup> <sup>(۵۳۵)</sup> <sup>(۵۳۶)</sup> <sup>(۵۳۷)</sup> <sup>(۵۳۸)</sup> <sup>(۵۳۹)</sup> <sup>(۵۴۰)</sup> <sup>(۵۴۱)</sup> <sup>(۵۴۲)</sup> <sup>(۵۴۳)</sup> <sup>(۵۴۴)</sup> <sup>(۵۴۵)</sup> <sup>(۵۴۶)</sup> <sup>(۵۴۷)</sup> <sup>(۵۴۸)</sup> <sup>(۵۴۹)</sup> <sup>(۵۵۰)</sup> <sup>(۵۵۱)</sup> <sup>(۵۵۲)</sup> <sup>(۵۵۳)</sup> <sup>(۵۵۴)</sup> <sup>(۵۵۵)</sup> <sup>(۵۵۶)</sup> <sup>(۵۵۷)</sup> <sup>(۵۵۸)</sup> <sup>(۵۵۹)</sup> <sup>(۵۶۰)</sup> <sup>(۵۶۱)</sup> <sup>(۵۶۲)</sup> <sup>(۵۶۳)</sup> <sup>(۵۶۴)</sup> <sup>(۵۶۵)</sup> <sup>(۵۶۶)</sup> <sup>(۵۶۷)</sup> <sup>(۵۶۸)</sup> <sup>(۵۶۹)</sup> <sup>(۵۷۰)</sup> <sup>(۵۷۱)</sup> <sup>(۵۷۲)</sup> <sup>(۵۷۳)</sup> <sup>(۵۷۴)</sup> <sup>(۵۷۵)</sup> <sup>(۵۷۶)</sup> <sup>(۵۷۷)</sup> <sup>(۵۷۸)</sup> <sup>(۵۷۹)</sup> <sup>(۵۸۰)</sup> <sup>(۵۸۱)</sup> <sup>(۵۸۲)</sup> <sup>(۵۸۳)</sup> <sup>(۵۸۴)</sup> <sup>(۵۸۵)</sup> <sup>(۵۸۶)</sup> <sup>(۵۸۷)</sup> <sup>(۵۸۸)</sup> <sup>(۵۸۹)</sup> <sup>(۵۹۰)</sup> <sup>(۵۹۱)</sup> <sup>(۵۹۲)</sup> <sup>(۵۹۳)</sup> <sup>(۵۹۴)</sup> <sup>(۵۹۵)</sup> <sup>(۵۹۶)</sup> <sup>(۵۹۷)</sup> <sup>(۵۹۸)</sup> <sup>(۵۹۹)</sup> <sup>(۶۰۰)</sup> <sup>(۶۰۱)</sup> <sup>(۶۰۲)</sup> <sup>(۶۰۳)</sup> <sup>(۶۰۴)</sup> <sup>(۶۰۵)</sup> <sup>(۶۰۶)</sup> <sup>(۶۰۷)</sup> <sup>(۶۰۸)</sup> <sup>(۶۰۹)</sup> <sup>(۶۱۰)</sup> <sup>(۶۱۱)</sup> <sup>(۶۱۲)</sup> <sup>(۶۱۳)</sup> <sup>(۶۱۴)</sup> <sup>(۶۱۵)</sup> <sup>(۶۱۶)</sup> <sup>(۶۱۷)</sup> <sup>(۶۱۸)</sup> <sup>(۶۱۹)</sup> <sup>(۶۲۰)</sup> <sup>(۶۲۱)</sup> <sup>(۶۲۲)</sup> <sup>(۶۲۳)</sup> <sup>(۶۲۴)</sup> <sup>(۶۲۵)</sup> <sup>(۶۲۶)</sup> <sup>(۶۲۷)</sup> <sup>(۶۲۸)</sup> <sup>(۶۲۹)</sup> <sup>(۶۳۰)</sup> <sup>(۶۳۱)</sup> <sup>(۶۳۲)</sup> <sup>(۶۳۳)</sup> <sup>(۶۳۴)</sup> <sup>(۶۳۵)</sup> <sup>(۶۳۶)</sup> <sup>(۶۳۷)</sup> <sup>(۶۳۸)</sup> <sup>(۶۳۹)</sup> <sup>(۶۴۰)</sup> <sup>(۶۴۱)</sup> <sup>(۶۴۲)</sup> <sup>(۶۴۳)</sup> <sup>(۶۴۴)</sup> <sup>(۶۴۵)</sup> <sup>(۶۴۶)</sup> <sup>(۶۴۷)</sup> <sup>(۶۴۸)</sup> <sup>(۶۴۹)</sup> <sup>(۶۵۰)</sup> <sup>(۶۵۱)</sup> <sup>(۶۵۲)</sup> <sup>(۶۵۳)</sup> <sup>(۶۵۴)</sup> <sup>(۶۵۵)</sup> <sup>(۶۵۶)</sup> <sup>(۶۵۷)</sup> <sup>(۶۵۸)</sup> <sup>(۶۵۹)</sup> <sup>(۶۶۰)</sup> <sup>(۶۶۱)</sup> <sup>(۶۶۲)</sup> <sup>(۶۶۳)</sup> <sup>(۶۶۴)</sup> <sup>(۶۶۵)</sup> <sup>(۶۶۶)</sup> <sup>(۶۶۷)</sup> <sup>(۶۶۸)</sup> <sup>(۶۶۹)</sup> <sup>(۶۷۰)</sup> <sup>(۶۷۱)</sup> <sup>(۶۷۲)</sup> <sup>(۶۷۳)</sup> <sup>(۶۷۴)</sup> <sup>(۶۷۵)</sup> <sup>(۶۷۶)</sup> <sup>(۶۷۷)</sup> <sup>(۶۷۸)</sup> <sup>(۶۷۹)</sup> <sup>(۶۸۰)</sup> <sup>(۶۸۱)</sup> <sup>(۶۸۲)</sup> <sup>(۶۸۳)</sup> <sup>(۶۸۴)</sup> <sup>(۶۸۵)</sup> <sup>(۶۸۶)</sup> <sup>(۶۸۷)</sup> <sup>(۶۸۸)</sup> <sup>(۶۸۹)</sup> <sup>(۶۹۰)</sup> <sup>(۶۹۱)</sup> <sup>(۶۹۲)</sup> <sup>(۶۹۳)</sup> <sup>(۶۹۴)</sup> <sup>(۶۹۵)</sup> <sup>(۶۹۶)</sup> <sup>(۶۹۷)</sup> <sup>(۶۹۸)</sup> <sup>(۶۹۹)</sup> <sup>(۷۰۰)</sup> <sup>(۷۰۱)</sup> <sup>(۷۰۲)</sup> <sup>(۷۰۳)</sup> <sup>(۷۰۴)</sup> <sup>(۷۰۵)</sup> <sup>(۷۰۶)</sup> <sup>(۷۰۷)</sup> <sup>(۷۰۸)</sup> <sup>(۷۰۹)</sup> <sup>(۷۱۰)</sup> <sup>(۷۱۱)</sup> <sup>(۷۱۲)</sup> <sup>(۷۱۳)</sup> <sup>(۷۱۴)</sup> <sup>(۷۱۵)</sup> <sup>(۷۱۶)</sup> <sup>(۷۱۷)</sup> <sup>(۷۱۸)</sup> <sup>(۷۱۹)</sup> <sup>(۷۲۰)</sup> <sup>(۷۲۱)</sup> <sup>(۷۲۲)</sup> <sup>(۷۲۳)</sup> <sup>(۷۲۴)</sup> <sup>(۷۲۵)</sup> <sup>(۷۲۶)</sup> <sup>(۷۲۷)</sup> <sup>(۷۲۸)</sup> <sup>(۷۲۹)</sup> <sup>(۷۳۰)</sup> <sup>(۷۳۱)</sup> <sup>(۷۳۲)</sup> <sup>(۷۳۳)</sup> <sup>(۷۳۴)</sup> <sup>(۷۳۵)</sup> <sup>(۷۳۶)</sup> <sup>(۷۳۷)</sup> <sup>(۷۳۸)</sup> <sup>(۷۳۹)</sup> <sup>(۷۴۰)</sup> <sup>(۷۴۱)</sup> <sup>(۷۴۲)</sup> <sup>(۷۴۳)</sup> <sup>(۷۴۴)</sup> <sup>(۷۴۵)</sup> <sup>(۷۴۶)</sup> <sup>(۷۴۷)</sup> <sup>(۷۴۸)</sup> <sup>(۷۴۹)</sup> <sup>(۷۵۰)</sup> <sup>(۷۵۱)</sup> <sup>(۷۵۲)</sup> <sup>(۷۵۳)</sup> <sup>(۷۵۴)</sup> <sup>(۷۵۵)</sup> <sup>(۷۵۶)</sup> <sup>(۷۵۷)</sup> <sup>(۷۵۸)</sup> <sup>(۷۵۹)</sup> <sup>(۷۶۰)</sup> <sup>(۷۶۱)</sup> <sup>(۷۶۲)</sup> <sup>(۷۶۳)</sup> <sup>(۷۶۴)</sup> <sup>(۷۶۵)</sup> <sup>(۷۶۶)</sup> <sup>(۷۶۷)</sup> <sup>(۷۶۸)</sup> <sup>(۷۶۹)</sup> <sup>(۷۷۰)</sup> <sup>(۷۷۱)</sup> <sup>(۷۷۲)</sup> <sup>(۷۷۳)</sup> <sup>(۷۷۴)</sup> <sup>(۷۷۵)</sup> <sup>(۷۷۶)</sup> <sup>(۷۷۷)</sup> <sup>(۷۷۸)</sup> <sup>(۷۷۹)</sup> <sup>(۷۸۰)</sup> <sup>(۷۸۱)</sup> <sup>(۷۸۲)</sup> <sup>(۷۸۳)</sup> <sup>(۷۸۴)</sup> <sup>(۷۸۵)</sup> <sup>(۷۸۶)</sup> <sup>(۷۸۷)</sup> <sup>(۷۸۸)</sup> <sup>(۷۸۹)</sup> <sup>(۷۹۰)</sup> <sup>(۷۹۱)</sup> <sup>(۷۹۲)</sup> <sup>(۷۹۳)</sup> <sup>(۷۹۴)</sup> <sup>(۷۹۵)</sup> <sup>(۷۹۶)</sup> <sup>(۷۹۷)</sup> <sup>(۷۹۸)</sup> <sup>(۷۹۹)</sup> <sup>(۸۰۰)</sup> <sup>(۸۰۱)</sup> <sup>(۸۰۲)</sup> <sup>(۸۰۳)</sup> <sup>(۸۰۴)</sup> <sup>(۸۰۵)</sup> <sup>(۸۰۶)</sup> <sup>(۸۰۷)</sup> <sup>(۸۰۸)</sup> <sup>(۸۰۹)</sup> <sup>(۸۱۰)</sup> <sup>(۸۱۱)</sup> <sup>(۸۱۲)</sup> <sup>(۸۱۳)</sup> <sup>(۸۱۴)</sup> <sup>(۸۱۵)</sup> <sup>(۸۱۶)</sup> <sup>(۸۱۷)</sup> <sup>(۸۱۸)</sup> <sup>(۸۱۹)</sup> <sup>(۸۲۰)</sup> <sup>(۸۲۱)</sup> <sup>(۸۲۲)</sup> <sup>(۸۲۳)</sup> <sup>(۸۲۴)</sup> <sup>(۸۲۵)</sup> <sup>(۸۲۶)</sup> <sup>(۸۲۷)</sup> <sup>(۸۲۸)</sup> <sup>(۸۲۹)</sup> <sup>(۸۳۰)</sup> <sup>(۸۳۱)</sup> <sup>(۸۳۲)</sup> <sup>(۸۳۳)</sup> <sup>(۸۳۴)</sup> <sup>(۸۳۵)</sup> <sup>(۸۳۶)</sup> <sup>(۸۳۷)</sup> <sup>(۸۳۸)</sup> <sup>(۸۳۹)</sup> <sup>(۸۴۰)</sup> <sup>(۸۴۱)</sup> <sup>(۸۴۲)</sup> <sup>(۸۴۳)</sup> <sup>(۸۴۴)</sup> <sup>(۸۴۵)</sup> <sup>(۸۴۶)</sup> <sup>(۸۴۷)</sup> <sup>(۸۴۸)</sup> <sup>(۸۴۹)</sup> <sup>(۸۵۰)</sup> <sup>(۸۵۱)</sup> <sup>(۸۵۲)</sup> <sup>(۸۵۳)</sup> <sup>(۸۵۴)</sup> <sup>(۸۵۵)</sup> <sup>(۸۵۶)</sup> <sup>(۸۵۷)</sup> <sup>(۸۵۸)</sup> <sup>(۸۵۹)</sup> <sup>(۸۶۰)</sup> <sup>(۸۶۱)</sup> <sup>(۸۶۲)</sup> <sup>(۸۶۳)</sup> <sup>(۸۶۴)</sup> <sup>(۸۶۵)</sup> <sup>(۸۶۶)</sup> <sup>(۸۶۷)</sup> <sup>(۸۶۸)</sup> <sup>(۸۶۹)</sup> <sup>(۸۷۰)</sup> <sup>(۸۷۱)</sup> <sup>(۸۷۲)</sup> <sup>(۸۷۳)</sup> <sup>(۸۷۴)</sup> <sup>(۸۷۵)</sup> <sup>(۸۷۶)</sup> <sup>(۸۷۷)</sup> <sup>(۸۷۸)</sup> <sup>(۸۷۹)</sup> <sup>(۸۸۰)</sup> <sup>(۸۸۱)</sup> <sup>(۸۸۲)</sup> <sup>(۸۸۳)</sup> <sup>(۸۸۴)</sup> <sup>(۸۸۵)</sup> <sup>(۸۸۶)</sup> <sup>(۸۸۷)</sup> <sup>(۸۸۸)</sup> <sup>(۸۸۹)</sup> <sup>(۸۹۰)</sup> <sup>(۸۹۱)</sup> <sup>(۸۹۲)</sup> <sup>(۸۹۳)</sup> <sup>(۸۹۴)</sup> <sup>(۸۹۵)</sup> <sup>(۸۹۶)</sup> <sup>(۸۹۷)</sup> <sup>(۸۹۸)</sup> <sup>(۸۹۹)</sup> <sup>(۹۰۰)</sup> <sup>(۹۰۱)</sup> <sup>(۹۰۲)</sup> <sup>(۹۰۳)</sup> <sup>(۹۰۴)</sup> <sup>(۹۰۵)</sup> <sup>(۹۰۶)</sup> <sup>(۹۰۷)</sup> <sup>(۹۰۸)</sup> <sup>(۹۰۹)</sup> <sup>(۹۱۰)</sup> <sup>(۹۱۱)</sup> <sup>(۹۱۲)</sup> <sup>(۹۱۳)</sup> <sup>(۹۱۴)</sup> <sup>(۹۱۵)</sup> <sup>(۹۱۶)</sup> <sup>(۹۱۷)</sup> <sup>(۹۱۸)</sup> <sup>(۹۱۹)</sup> <sup>(۹۲۰)</sup> <sup>(۹۲۱)</sup> <sup>(۹۲۲)</sup> <sup>(۹۲۳)</sup> <sup>(۹۲۴)</sup> <sup>(۹۲۵)</sup> <sup>(۹۲۶)</sup> <sup>(۹۲۷)</sup> <sup>(۹۲۸)</sup> <sup>(۹۲۹)</sup> <sup>(۹۳۰)</sup> <sup>(۹۳۱)</sup> <sup>(۹۳۲)</sup> <sup>(۹۳۳)</sup> <sup>(۹۳۴)</sup> <sup>(۹۳۵)</sup> <sup>(۹۳۶)</sup> <sup>(۹۳۷)</sup> <sup>(۹۳۸)</sup> <sup>(۹۳۹)</sup> <sup>(۹۴۰)</sup> <sup>(۹۴۱)</sup> <sup>(۹۴۲)</sup> <sup>(۹۴۳)</sup> <sup>(۹۴۴)</sup> <sup>(۹۴۵)</sup> <sup>(۹۴۶)</sup> <sup>(۹۴۷)</sup> <sup>(۹۴۸)</sup> <sup>(۹۴۹)</sup> <sup>(۹۵۰)</sup> <sup>(۹۵۱)</sup> <sup>(۹۵۲)</sup> <sup>(۹۵۳)</sup> <sup>(۹۵۴)</sup> <sup>(۹۵۵)</sup> <sup>(۹۵۶)</sup> <sup>(۹۵۷)</sup> <sup>(۹۵۸)</sup> <sup>(۹۵۹)</sup> <sup>(۹۶۰)</sup> <sup>(۹۶۱)</sup> <sup>(۹۶۲)</sup> <sup>(۹۶۳)</sup> <sup>(۹۶۴)</sup> <sup>(۹۶۵)</sup> <sup>(۹۶۶)</sup> <sup>(۹۶۷)</sup> <sup>(۹۶۸)</sup> <sup>(۹۶۹)</sup> <sup>(۹۷۰)</sup> <sup>(۹۷۱)</sup> <sup>(۹۷۲)</sup> <sup>(۹۷۳)</sup> <sup>(۹۷۴)</sup> <sup>(۹۷۵)</sup> <sup>(۹۷۶)</sup> <sup>(۹۷۷)</sup> <sup>(۹۷۸)</sup> <sup>(۹۷۹)</sup> <sup>(۹۸۰)</sup> <sup>(۹۸۱)</sup> <sup>(۹۸۲)</sup> <sup>(۹۸۳)</sup> <sup>(۹۸۴)</sup> <sup>(۹۸۵)</sup> <sup>(۹۸۶)</sup> <sup>(۹۸۷)</sup> <sup>(۹۸۸)</sup> <sup>(۹۸۹)</sup> <sup>(۹۹۰)</sup> <sup>(۹۹۱)</sup> <sup>(۹۹۲)</</sup>



قال الزجاج : وبدل بها على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : بدل بها على أن الخبر معرفة أو ما فارها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي صَيْغِي ﴾ أي لا تنهينوني ولا تذلونني . ومنه قول حسان :

أخراك ربي يا عَتَبَ بْنَ مَالِك \* ولقائك قبل الموت إحدى الصَّوَاعِقِ  
مددت يميناً للنبي تَعْمُداً \* ودميت فاهُ قُطْعَتْ بِالْبَوَارِقِ  
ويجوز أن يكون من الخزاية ، وهو الحياء ، والنجل ؛ قال ذو الرمة :

خزاية<sup>(١)</sup> أدركته بعد جولته \* من جانب الحبل مخلوطا بها الغضب

وقال آخر :

من البيض لا تخزي إذا الريح الصقت \* بها مرطها أو زابل الحبل جسدتها  
وضيف يقع للثنين والجمع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ؛ قال الشاعر :

لا تعدمي الدهر شغار الجازر \* للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ؛ والأول أكثر كقولك : رجال صوم وفطر وزور . ونحزى الرجل خزاية ؛ أي استحيا مثل ذل وهان . ونحزى خزيا إذا افتضح ؛ يخزى فيهما جميعا . ثم وبجهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وقيل : « رشيد » أي ذو رشد . أو بمعنى راشد أو مرشد ، أي صالح أو مصلح . ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الترشد ؛ والرشد والرشاد الهدى والاستقامة . ويجوز أي يكون بمعنى المرشد ؛ كالحكيم ؛ بمعنى المحكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردهن ، وكانت سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحمل له أبدا ؛ فذلك قوله تعالى :

(١) خزاية أي من الخزاية . والحبل هو جبل الرمل . والكلام في وصف نور وحشي تطارده الكلاب . وقوله : حتى إذا دوت في الأرض راجعه \* كبر ولو شاء نجى نفسه الحرب يعني أن النور أنف من الحرب فرجع إلى الكلاب .

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ » وبعد ألا تكون هذه الخاصية . فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هن قصدا ، ولا لنا عادة نطلب ذلك . ﴿ وَأِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، حتى لو وجد عوناً على دهم ؛ فقال على جهة التفعيل والاستكانة : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ » أى أنصارا وأعوانا . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أَنْ » في موضع رفع بفعل مضمر ، تقديره : لو أنفق أو وقع . وهذا يطرد في « أَنْ » التابعة لـ « لَوْ » . وجواب « لَوْ » محذوف ؛ أى لرددت أهل الفساد ، وحلت بينهم وبين ما يريدون . ﴿ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أى ألبأ وأنضوى . وقرئ « أَوْ آوَى » بالنصب عطفاً على « قُوَّةٌ » كأنه قال : « لو أن لي بكم قُوَّةٌ » أو إيواء إلى ركن شديد ؛ أى وأن آوى ، فهو منصوب بإضمار « أَنْ » . ومراد لوط بالركن العشيرة ، والمنعة بالكثرة . وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى ؛ فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركك لشديد . وفي البخارى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد » الحديث ؛ وقد تقدم في « البقرة » <sup>(١)</sup> . ونخرجه الترمذى وزاد « ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه » . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة ؛ حديث حسن . وروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه ، وهموا بكسر الباب وهو بمسكه ، قالت له الرسل : تنح عن الباب ؛ فتنحى وانفتح الباب ؛ فضرهم جبريل يحنأحه فطمس أعينهم ، وهموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط باباً والملائكة معه في الدار ، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يعالجون تسور الجدار ، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكره والنصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن ركك لشديد ، وأنهم آتيتهم عذاب غير مردود ،

(١) راجع ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٢) راجع ج ١٧ ص ١٤٣ .

وإنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فضر بهم جبريل بجناحه على ما تقدم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين مَنْ بَعْدَ مَنْ قُرْبَ مِنْ ذَلِكَ التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا آهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أسخَر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فاعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وأضطرابه ومدافته عرفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول ، فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم خفت . ﴿ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ ﴾ أى بمكروه ﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فأسر » بوصل الألف وقطعها ؛ لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَأْسُرُ <sup>(١)</sup> » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى <sup>(٢)</sup> » وقال النابغة : بجمع بين اللغتين : أسرت عليه من الجوزاء سارية <sup>(٣)</sup> \* تُزجى الشمال عليه جامد البرد وقال آخر :

حَى النَّصِيرَةِ رَبَّةَ الْخُدَيْرِ \* أسرت إليك ولم تكن تسرى

وقد قيل : « فأسر » بالقطع إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه \* قضى عملا والمرء ما عاش عامل  
وقال عبد الله بن رباح :

عند الصباج يتحد القوم السرى \* وتجلى عنهم غيابات الكرى

﴿ يقطع من الليل ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل . الضحاك : ببقية من الليل . قتادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . ابن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هد من الليل . وقيل : هزيع

(١) راجع ج ٢ ص ٤٢ . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٣) ويرى (سرت) . يقول : إن السعابة سرت في الجوزاء ؛ فذلك شبهها بالجوزاء .

من الليل . وكلها متقاربة ؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر<sup>(۱)</sup> :

وَنَاحِيَةِ تَوَحُّ بِقَطْعِ لَيْلٍ • عَلَى رَجُلٍ بِقَارِعَةِ الصَّعِيدِ

فإن قيل : السرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى « بقطع من الليل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ » جاز أن يكون أوله . ( وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ ) أى لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ( إِلَّا أَمْرًا نَكُ ) بالنصب ؛ وهى القراءة الواضحة البينة المعنى ؛ أى فأسر وأهلك إلا أمرأتك . وكذا فى قراءة ابن مسعود « فأسر وأهلك إلا أمرأتك » فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْغَائِرِينَ<sup>(۲)</sup> » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وابن كثير : « إِلَّا أَمْرَانُكُ » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتا ؛ لأن المعنى يصير — إذا أبدلت وجزمت — أن المرأة أبيع لها الكلتفات ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالة ومحلله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للخطاب ؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقيم أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : أنهم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذلك النهى للوط ولفظه لغيره ؛ كأنه قال : أنهم لا يلتفت منهم أحد إلا أمرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وإن لوطا نرج بها ، ونهى من معه عن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لما سمعت هذه العذاب التفت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . ( إِنَّهُ مُصِيبٌ )

(۲) راجع ج ۱ ص ۲۴۱

(۱) هو مالك ابن سنانة .

أى من العذاب . والكلابة فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ، أى فإن الأمر والشأن والنصبة . ﴿ مُصِيبُهُمَا أَصَابُهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . استعجلهم بالعذاب لغضبه على قومه ؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر « أليس الصُّبْحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لهم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأمارته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت أبناؤه فلا يهولتكم ما ترى . فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم . قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم — وهى القرية العظمى — وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وفتم<sup>(١)</sup> ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حرهم وصياح ديكهم ، لم تنكفى لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالمحجارة . مقاتل : أهلك أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم ؛ وقد تقدم فى « الأعراف »<sup>(٢)</sup> . وفى التفسير : أمطرتنا فى العذاب ، ومطرتنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت : حكاه الهروى . واختلف فى « السَّجِّيلِ » فقال النحاس : السجّيل الشديد الكثير ؛ وسجّيل واللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة : السجّيل الشديد ؛ وأنشد<sup>(٣)</sup> :

\* ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينًا \*

(١) وفى ع وزوك : قامورا و دادوما وضعوه ، وفى ضبط هذه القرى اختلاف . (٢) فى : يكتشف .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ (٤) كذا فى ١ ، وفى زوك وروى : (البغوى) .

(٥) سياتى البيت بتمامه فى ص ٨٣ .



قال النحاس : ورد عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟ ! قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم ، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبي عبيدة يرد من جهة أخرى ؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا ؛ لأنه لا يقال : حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن القراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِبت ، أصلها سَنَجٌ وجِلٌ . ويقال : سَنَكٌ ويَكَلٌ ؛ بالكاف موضع الجسيم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسمًا واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشددت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلب . وقال الضحاك : يعنى الآجر . وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر ؛ وعنه أن سجيلا أسم السماء الدنيا ؛ ذكره المهدوي ؛ وحكاه الثعلبي عن أبي العالية ؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « متضود » . وعن عكرمة : أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال في السماء ، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ » . وقيل : هو مما سجّل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم ؛ فهو فى معنى سجين ؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ . يَكْتُبُ مَرْقُومٌ » . قاله الزجاج وأختره . وقيل : هو فعيل من أَسَجَلْتُهُ أى أرسلته ؛ فكأنها مرسلّة عليهم . وقيل : هو من أَسَجَلْتُهُ إِذَا أُعْطِيَتْهُ ؛ فكأنه عذاب أُعْطُوهُ ؛ قال :

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَا جِدًّا • يَمْسُلُ الدَّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(۱) راجع ج ۱۷ ص ۴۷ . (۲) راجع ج ۱۲ ص ۲۸۹ . (۳) راجع ج ۱۹ ص ۲۵۴ .

(۴) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب . وأصل المساجلة . أن يستقن سابقان فيخرج كل واحد منهما في سبيله (دله) مثل ما يخرج الأترقأهما نكل فقد غلب ؛ ففرضته العرب مثلا لقفاوة . والكرب : الحبل الذى يشد على الدلو بعد المتين وهو الحبل الأول .

وقال أهل المعاني : السَّجِيل والسَّجِين الشَّدِيد من الحَجَر والضَّرْب ؛ قال ابن مَقْبِل :

وَرَجَلُهُ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً \* ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سِتِيْنًا<sup>(١)</sup>

(مَنْضُودٌ) قال ابن عباس : متتابع . وقال قتادة : نُضِد بعضها فوق بعض . وقال الزَّيْبَع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عِكْرَمَة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب . يقال : نُضِدَت المتاع واللَّيْن إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو مَنْضُودٌ وَنَضِيدٌ وَنَضْدٌ ؛ قال :

\* وَرَفَعْتَهُ إِلَى السَّجَجَيْنِ فَالْنَضِيدِ \*

وقال أبو بكر الهُدُثِيُّ : مُعَدَّ ؛ أى هو ما أعدّه الله لأعدائه الظَّالِمَة . (مُسَوِّمَةٌ) أى معلّمة ، من السِّمَاءِ وهى العلامة ؛ أى كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر أسم من رُمى به ، وكانت لا تشاء كل حجارة الأرض . وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحجرة وسواد فى بياض ، فذلك تسويةها . وقال كعب : كانت معلّمة بلباض وحجرة ، وقال الشاعر :

غلامٌ رماه الله بالحسين يا فعّا \* له سِجِيَاءٌ لَا تَسْقُ عَلَى الْبَصَرِ

و «مُسَوِّمَةٌ» من نعت حجارة . و «مَنْضُودٌ» من نعت «سَجِيل» . وفى قوله : (عِنْدَ رَبِّكَ) دليل على أنها ليست من حجارة الأرض ؛ قاله الحسن . (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) يعنى قوم لوط ؛ أى لم تكن تحطّطهم . وقال مجاهد : يُرْهِب قريشا ؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمى قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعِكْرَمَة : يعنى ظالمى هذه الأمة ؛ والله ما أجاز الله منها ظالما بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال ونسأهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) وروى فى اللسان : (يضربون البيض عن عرض) .

(٢) البيت لأسيد بن عطاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ وبعده :

كأنت الثريا علقت فوق نحره \* وفى جبهه الشعرى وفى وجهه القمر

وقوله : (له سِجِيَاءٌ لَا تَسْقُ عَلَى الْبَصَرِ) أى يفرح به من يراه .

بِيعِيدَ . وفى رواية عنه عليه السلام " لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ريك " . وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببيعيد ؛ وهى بين الشام والمدينة . وجاء « ببيعيد » مذكراً على معنى يمكن ببيعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . الثانى — أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجاً عنها .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَنْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا آلَئِمِّكَآلَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيتُمْ بِخَبِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ۝ وَيَنْقُومَ أَوْفُوا آلَئِمِّكَآلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝ قَالُوا يَشُعَيْبُ أَصْلُوكُ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝ قَالَ يَنْقُومَ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنتَهُكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ وَيَنْقُومَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِن رَّبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝ قَالُوا يَشُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا ۖ تَمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ

وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ ارْهَطِيْ اَعْرُ عَلَيْكُمْ مِنْ اَللّٰهِ  
وَاَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَآءَ كُرْ ظَهْرِيَّا اِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَتَقَوْمِ  
اَعْمَلُوا عَلٰى مَكَانَتِكُمْ اِنِّىْ عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَّاتِيْهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهِ  
وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَاَزْتَقَبُوا اِنِّىْ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ اَمْرُنَا نَجَّيْنَا  
شُعَيْبًا وَّالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَاَخَذَتِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا الصَّيْحَةَ  
فَاَصْبَحُوا فِيْ دِيَارِهِمْ جِثْمِيْنَ ﴿٩٤﴾ كَاَنَّهُمْ يَغْنَوْنَ فِيْهَا اَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِيْنِ  
كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدِيْنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم  
شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فقيل : مدين  
والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر . الثانى — أنه أسم مدينتهم ، فنسبوا  
إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه أسم مدينة ، وقد تقدم فى «الأعراف» <sup>(١)</sup> هذا  
المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ تقدم . ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ  
وَالْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكل  
زائد ، واستوفوا بغاية ما يقدرُونَ <sup>(٢)</sup> [عليه] وظلموا ؛ وإن جاءهم مشتري للطعام باعوه بكل ناقص ،  
وشححوه له بغاية ما يقدرُونَ ، فأصروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نهيا عن التطفيف .  
﴿ إِنِّىٓ أَرَاكُمْ تُخَيَّرُ ﴾ أى فى سعة من الرزق ، وكثرة من النعم . وقال الحسن : كان سعرهم  
رخيصا . ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك  
اليوم بالإحاطة بهم ، فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك :  
يوم شديد ؛ أى شديد حره . واختلف فى ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

وقيل : عذاب الاستئصال في الدنيا . وقيل : غلاء السعير؛ روى معناه عن ابن عباس .  
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان  
إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء “ . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَأْقُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن  
التطفيف تأكيداً . والإيفاء الإتمام . « بالقسط » أى بالعدل والحق ، والمقصود أن يصل  
كل ذى نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيال والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال  
والميزان ؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود ، وكذا الصنجات . ﴿ وَلَا تَجْحَسُوا  
الْأَنَاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً . ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾  
بين أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض ، وقد مضى في « الأعراف »  
زيادة لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر  
بركة ، وأحد عاقبة مما يتقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم ؛ قال معناه الطبري  
 وغيره . وقال مجاهد : « بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ » يريد طاعته . وقال الزبيعي : وصية الله . وقال  
القرطبي : مراقبة الله . ابن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال  
ابن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا  
إن كانوا مؤمنين . وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالفهم فخطبهم بهذا .  
﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى رقيب أرقبكم عند كلكم ووزنكم ؛ أى لا يمكنني شهود كل  
معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتنبأ لى أن أحفظكم من إزالة  
نعم الله عليكم بمعاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَّاتُكَ ﴾ وقرئ « أَصَلَّاتُكَ » من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ  
تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ « أن » في موضع نصب ؛ قال الكسائي : موضعها خفض على إضمار الباء .



وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة ، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ فلما أمرهم ونهاهم عبّروه بما رأوه يستمرّ عليه من كثرة الصلاة ، واستهزؤا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سفيان عن الأعمش ، أى قراءة تأمرك ؛ ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن : لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة . ﴿ أَوَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ زعم الفراء أن التقدير : أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء . وقرأ السلمي والضحّاك بن قيس « أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء » بالناء في الفعلين ، والمعنى : ما نشاء أنت يا شعيب . وقال النحاس : « أو أن » على هذه القراءة معطوفة على « أن » الأولى . وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان مما نهاهم عنه حذف الدراهم . وقيل : معنى . « أَوَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخل فلم تمنعنا منه ؟ ! ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك ؛ ومثله في صفة أبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » أى عند نفسك بزعمك . وقيل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة . ومنه قولهم للخبثي : أبو البضاء ، ولأبيض أبو الجحون ؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عيينة : العرب تصف الشيء بضده للتطير والتفاؤل ؛ كما قيل للدّغ سَلِيم ، وللغلاة مَفَازة . وقيل : هو تعريض أرادوا به السب ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدل ما قبله على صحته ، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ! ويدل عليه . « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم ، وبعده أيضا ما يدل عليه . « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى أفلا أنهاركم عن الضلال ؟ ! وهذا كله يدل على أنهم قالوه على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبهه هذا المعنى قول اليهود من بنى قُرَيْظَةَ للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القردة »<sup>(٤)</sup> فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

(١) حذف الشيء . نطعم من أطعناه . (٢) راجع ج ١٦ ص ١٥١ . (٣) الجحون هنا الأسود .

(٤) في : القردة والخنازير . وقد مضى في ج ٦ ص ٢٣٦ أنه أيضا من قول المسلمين لهم .

مسئلة - قال أهل التفسير : كان مما ينهاهم عنه ، وعذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم ؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القراضه ، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدا ، وعلى المقرضة وزنا ، وكانوا يخشون في الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم ، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم وغيرهما ؛ وكسرهما ذنب عظيم . وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس ؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها ، وظهرت فائدتها ، وإذا كسرت صارت سيلة ، وبطلت منها الفائدة ؛ فأضر ذلك بالناس ؛ ولذلك حرم . وقد قيل في تناويل قوله تعالى : « وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ <sup>(۱)</sup> » أنهم كانوا يكسرون الدراهم ؛ قاله زيد بن أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتناويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي .

مسئلة : قال أصبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زيد بن الحارث العتيق : من كسرهما لم تقبل شهادته ، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر ، وليس هذا بموضع عذر ؛ قال ابن العربي : أما قوله : لم تقبل شهادته فلا أنه أتى كبيرة ، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر ؛ وأما قوله : لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلا أنه أمر بين لا يخفى على أحد ، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه ، أو خفي وجه الصدق فيه ، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك .

مسئلة : إذا كان هذا معصية وفساد ترد به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرة ابن المسيب برجل قد جلد فقال : ما هذا ؟ قال رجل : يقطع الدنانير والدراهم ؛ قال ابن المسيب : هذا من الفساد في الأرض ؛ ولم ينكر جلده ؛ ونحوه عن سفيان . وقال أبو عبد الرحمن النجيب : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل [ يقطع الدراهم <sup>(۲)</sup> ] وقد شهد عليه فضربه وحلقه ، وأمر فطيف به ، وأمره أن يقول : هذا جزء من يقطع <sup>(۳)</sup> (۱) راجع ج ۱ ص ۲۱۵ - (۲) في ع : بالمدينة ، وفي ر : أمير المؤمنين . (۳) ن ع وزوك ووروي .

الدرهم ؛ ثم أمر أن يُردَّ إليه ؛ فقال : إنه لم يمتنع أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدمت في ذلك قبل اليوم ، وقد تقدمت في ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم [ بين الناس ]<sup>(١)</sup> أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدرهم غير كسرهما ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الحِرْز أصلا في القِطْع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهبطها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حِرْز لها ، وحِرْز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدرهم . وقد قال علماءنا المالكية : إن الدنانير والدرهم خواتم الله عليها اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتم الله كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أذنب ، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قال ابن العربي : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرهما ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليت الحكم ، إلا أني كنت محفوفا بالجهال ، فلم أجبن بسبب المقال للفسدة الضلال فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله احتسابا لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ تقدم . ﴿ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أى واسعا حاللا ، وكان شبيب عليه السلام كثير المسال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ، وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ، أى أفلا أنهاركم عن الضلال ! وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيعة من ربي » أتبع الضلال ؟ وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيعة من ربي » أنا مروني بالعصيان في البخس والتطيف ، وقد أغنانى الله [ عنه ]<sup>(١)</sup> . ﴿ وَمَا أَرِيدُ أَن أُخَالِفَكُمْ ﴾ في موضع نصب بـ « أريد » . ﴿ إِلَىٰ مَا أَنهَاجُكُمْ عَنْهُ ﴾ أى ليس أنهاركم عن شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِن أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) منع روى . (٢) منع وفى زوروى : أحب . (٣) فى : أنا مروني .

مَا اسْتَطَعْتُ ﴿۱﴾ اى ما اريد الا فعل الصلاح ؛ اى أن تصلحوا دنياكم بالعدل ، وآخرتم بالعبادة ، وقال : « مَا اسْتَطَعْتُ » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية ، اى إن اريد الا الإصلاح جهدى واستطاعى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ اى رشى والتوفيق الرشد . ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اى اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ اى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوايب . وقيل : إله أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء ، ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِي ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ، اى لا يخلتكم معاداتى على ترك الإيمان فبصيكم ما أصاب الكفار [ قبلكم <sup>(۱)</sup> ] ، قاله الحسن وقتادة . وقيل : لا يكسبنكم شقاقى إصابتكم العذاب ، كما أصاب من كان قبلكم ، قاله الزجاج . وقد تقدم معنى « يجرمكم » فى « المائدة <sup>(۲)</sup> » و « الشقاق » فى « البقرة <sup>(۳)</sup> » وهو هنا بمعنى العداوة ، قاله السدى ، ومنه قول الأخطل :

أَلَا مَنِ مَبْلَغٌ عَنِّي رَسُولًا • فكيف جَدُّمَ طَعَمَ الشَّقَاقِ

وقال الحسن [ البصرى ] : إضرارى . وقال قتادة : فراقى . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد ، اى بمكان بعيد ، فلذلك وحد البعيد . قال الكسائى : اى دورهم فى دوركم . قوله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم . ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه ، وقد بينهما فى كتاب « الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى » . قال الجوهري : وَدِدْتُ الرجل أوده إذا أحببته ، والودود المحب ، والود والود والود والمودة المحبة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعبيا قال : " ذاك خطيب الأنبياء " .

(۱) من ع وروى .

(۲) راجع ج ۶ ص ۴۴ وما بعدها .

(۳) راجع ج ۲ ص ۱۴۳ .

(۴) الرسول هنا بمعنى الرسالة . وفى الهيران : مبلغ قيسا .

(۵) من ع .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أي ما نفهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه ؛ يقال : فقه يفقه إذا فهم فقهها ؛ وحكى الكسائي : فقه فقهها وفقهها إذا صار فقهيا . <sup>(١)</sup> ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثوري ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيفا ؛ أي قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أي قد كف عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علي بن عيسى . وقال السدي : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . و « ضعيفا » نصب على الحال . ﴿ وَأَوَّلًا رَهْطًا ﴾ رفع بالابتداء ، ورهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الزاهطاء لجحر اليربوع ؛ لأنه يتوق به ويحبا فيه ولده . ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قتلناك بالزجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لَرَجَمْنَاكَ » لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدي :

تَرَا جَمْنَا بِمَرِّ الْقَوْلِ حَتَّى \* نصير كأننا فرسًا رَهَاطِ

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيرٍ ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا منفع .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ « أَرَهْطِي » رفع بالابتداء ، والمعنى أرهط في قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم . ﴿ وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِي ﴾ أي أتخذكم ما جئكم به من أمر الله ظهوريا ؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنع من قتلى مخافة قومي ؛

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقه يفقه إذا فهم فقهها وقها وحكى الكسائي : فقهها ، وفقه فقهها إذا صار فقهيا . (٢) ليس شعيب الرسول عليه السلام ضريرا لأن هذا الوصف يناقض العصمة مما يقدح وإنما شعيب الضرير هو صاحب موسى وليس بني وبنهما ثلاثمائة سنة .



قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا • ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدم هذا المعنى • ﴿بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة: رَفَدْتُهُ أَرَفَدْتُهُ رَفْدًا؛ أى أعتته وأعطيته • وأسم العطية الرَّفْد؛ أى بئس العطاء والإعانة • والرفد أيضا القدر الضخم؛ قاله الجوهري، والتقدير: بئس الرفد يرفد المرفود • وذكر الماوردى: أن الرفد يفتح بفتح الراء القدر، والرفد بكسرهما ما فى القدر من الشراب؛ حكى ذلك عن الأصمعى؛ فكأنه ذم بذلك ما يسقونه فى النار • وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الفرق النار؛ قاله الكلبي •

قوله تعالى: ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالَهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١١٣﴾ وَمَا نُؤْتِرْهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي آخِرَتِهِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ ﴿١١٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ ﴾ « ذَٰلِكَ » رفع على إضمار مبتدأ ، أى الأمر ذاك . وإن شئت بالابتداء ، والمعنى : ذاك النبا المتقدم من أنباء القرى نقصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويًا على عروشه ، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر ، والحصيد الخراب ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ، يعنى محصودا كالزرع إذا حصده ، قال الشاعر :

والناس في قَسَمِ المنيّة بينهم \* كالزّرع منه قائمٌ وَحَصِيدٌ

وقال آخر :<sup>(١)</sup>

إنما نحن مثلُ خامةٍ زرعٍ \* فتى يأتى يأتٍ مُحَصِّدُهُ

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود ، وجمعه حصدى وحصاد مثل مرضى ومراض ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل فتيل وقيل . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه ، وقد تقدّم فى « البقرة » مستوفى . ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف ، أى التى كانوا يعبدون ؛ أى يدعون . ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسير ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيد :

فلقد بليتُ وكلُّ صاحبٍ جدّةٍ \* ليلٍ يعودُ وذاكُمُ التّتبِيبُ

والنّبات الهلاك والخمران ، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام ، لحذف المضاف ؛ أى كانت عبادتهم إياها قد خسرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم المجحدى وطلحة بن مصرف « وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ » وعن المجحدى أيضا « وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ » كالجاعة « إِذْ أَخَذَ

(١) البيت للطرماح كما فى اللسان . (١) راجع ج ١ ص ٣٠٩ وما بعدها .

الْقَرْىَ . قال المهدوى من قرأ : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدم من الأمم؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذ من الأمم المهلكة إذا أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذا لم يمتضى ؛ أى حين أخذ القرى ؛ وإذا لمستقبل ( وَهِيَ ظَالِمَةٌ ) أى وأهلها ظالمون ؛ فحذف المضاف مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » . ( إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفي صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ) أى لعبرة وموعظة . ( لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ) . ( ذَلِكَ يَوْمٌ ) ، ابتداء وخبر . ( بِمَجْمُوعٍ ) من نعمته . ( لَهُ النَّاسُ ) أسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون ؛ فإن قدرت ارتفاع « الناس » بالابتداء ، وانقلب « بِمَجْمُوعٍ لَهُ » فلأنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ، أى يحشرون لذلك اليوم . ( وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ) أى يشهده البر والفاجر ، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين اليمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ( وَمَا تُؤَخِّرُهُ ) أى ما تؤخر ذلك اليوم . ( إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ) أى لأجل سبق به قضاؤنا ، وهو معدود عندنا . ( يَوْمَ يَأْتِي ) وقرئ « يَوْمَ يَأْتِ » لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدري ذكركه القشيري . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج ، وحذفها في الوقف ؛ وروى أن أبا وابن مسعود قرأ « يَوْمَ يَأْتِي » بالياء في الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمة « يَوْمَ يَأْتِ » بغير ياء في الوقف والوصل ، قال أبو جعفر النحاس : الوجه في هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء ، لأن جماعة من النحو بين قالوا : لا تحذف الياء ، ولا يحزم الشيء بغير جازم ؛ فاما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائي ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالحزوم ، فحذف الياء ، كما

تُحذف الضمة . وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بمجتبئ  
إحداهما— أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضى الله عنه بغير ياء .  
والحجة الأخرى— أنه حكى أنها لغة هذَلِيَّةٌ تقول : ما أدرى قال النحاس : أما حجتُه بمصحف  
عثمان رضى الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء ؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت  
عن مصحف عثمان رضى الله عنه فقيل لي دَهَبٌ ؛ وأما حجتُه بقولهم : « ما أدر » فلا حجة  
فيه ؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء ، وذكروا علته ، وأنه لا يقاس عليه .  
وأنشد القراء في حذف الياء .

كَفَّاكَ كَفَّ مَا تُبْلِقُ دَرَهْمًا \* جَوْدًا وَأُخْرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدَّمَآ

أى تعطى . وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدري ، فتحذف الياء وتجترى  
بالكسرة ، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود في النحو إثبات  
الياء ؛ قال : والذي أراه أتباع المصحف وإجماع القراء ؛ لأن القراءة سنة ؛ وقد جاء مثله في كلام  
العرب . ﴿ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم ؛ حذف إحدى التاءين تخفيفا . وفيه  
إضمار ؛ أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالمؤذن فيه من حسن الكلام ؛ لأنهم ملجئون إلى ترك  
القيح . وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل : إن لهم في الموقف وقتا يمنعون  
فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين . فيقول لم  
قال : « لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ <sup>(١)</sup> » .  
وقال في موضع من ذكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ <sup>(٢)</sup> » . وقال : « يَوْمَ  
تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَادِلًا عَنْ نَفْسِهَا <sup>(٣)</sup> » . وقال : « وَفَقَّوهُمْ <sup>(٤)</sup> إِنَّهُمْ مُّسْتَوْفُونَ <sup>(٥)</sup> » . وقال : « فَيَوْمَئِذٍ  
لَّا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ <sup>(٦)</sup> » . والجواب ما ذكرناه ، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم  
وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛  
فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا ؛ وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن

(١) راجع ج ١٩ ص ١٦٤ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٧٣ فابعد في الأصول « يتلادون » وليس  
في المعنى المراد هنا . (٣) راجع ج ١٠ ص ١٩٣ . (٤) راجع ج ١٧ ص ١٧٣ .

النجمة : ما تكلمت بشيء ، وما نطقت بشيء ، فمسي من يتكلم بلا حجة فيه له غير منكم . وقال :  
قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف في بعضها يمتعون من الكلام ، وفي بعضها  
يطلق لهم الكلام ؛ فهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ( تَمْنَهُمْ شَيْءٌ رَمِيدٌ ) أى  
من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكرهم في قوله : « يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ » . والشق  
الذى كتبت عليه الشفاوة ، والسعيد الذى كتبت عليه السعادة ؛ قال لبيد :

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ أَخَذَ بِنَصِيْبِهِ \* وَمِنْهُمْ شَيْءٌ بِالْمَعْبِشَةِ قَانِعٌ

وروى الترمذى عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هذه الآية ( تَمْنَهُمْ شَيْءٌ  
رَمِيدٌ ) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت ؛ يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شيء ،  
قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « بل على شيء قد فرغ منه وجرى به الأقدام  
يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له » . قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه  
إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدم في « الأعراف » .

قوله تعالى : ( فَأَمَّا الَّذِينَ شُقُوا ) ابتداء . ( فَبَيْنَ النَّارِ ) في موضع الخبر ، وكذا ( لَهُمْ  
فِيهَا زَوْفِرٌ وَشَبِيقٌ ) قال أبو العالية : الزفير من الصدر ، والشبيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضد  
ذلك . وقال الزجاج : الزفير من شدة الأنين ، والشبيق من الأنين المرتفع جدا ؛ قال : وزعم  
أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في التهيؤ ، والشبيق  
بمنزلة [ آخر ] صوت الحمار في التهيؤ . وقال ابن عباس رضى الله عنه عكسه ؛ قال : الزفير  
الصوت الشديد ، والشبيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثل أول  
نهيق الحمار ، والشبيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر :

حَشْرَجَ فِي الْجُوفِ تَحِيلاً أَوْ شَبَقَ \* حَتَّى يُقَالَ تَاهَقَ وَمَا تَهَقَّ

وقيل : الزفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غمما فيخرج بالنفس ، والشبيق رد النفس  
وقيل : الزفير ترديد النفس من شدة الحزن ؛ مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدة ؛

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٤ . (٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة معاطلها :

وَقَاتَمَ الْأَعْمَاقُ خَاوِي الْمَخْرَقِ \* مَشَبَهَ الْأَيْلَامِ لِمَاعِ الْخَفَقِ

(٣) في : ع ؛ في الصدر ، والسجيل : الصوت الذى يدرورى صدر الحمار .



والشهباق النفس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم : جبيل شاقق ؛ أى ملو<sup>(١)</sup>بل . والرفير والشهباق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « مَا دَامَتِ » فى موضع نصب على الظرف ؛ أى دوام السموات والأرض ؛ والتقدير : وقت ذلك . واختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك ، والأرض ما استقر عليه قدمك ؛ وفى التزييل : « وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَسَاءُ » . وقيل : أراد به الساء والأرض الملهودين فى الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيتك ما جنَّ ليلٌ ، أو سال سيلٌ ، وما اختلف الليل والنهار ، وما تاح الخمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ؛ فافهمهم الله تخليدهم الكثرة بذلك . وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض فى الآخرة تردان إلى النور الذى أخذنا منه ؛ فهما دائماً أبداً فى نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبِّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأولى — أنه استثناء من قوله : « فَبَقِيَ النَّارِ » كآنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبى سعيد الخدري وجابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « مَا طَابَ لَكُمْ<sup>(٢)</sup> » . وعن أبى نضرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية » . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للمعصية من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا » عاماً فى الكفرة والمعصية ، ويكون الاستثناء من « خَالِدِينَ » ؛ قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدخل ناس (١) قال فى النهاية : شاقق مال . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٧٤ . (٣) راجع ج ٥ ص ١٢ .

جہنم حتی إذا صاروا كاللحمۃ<sup>(۱)</sup> أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون " وقد تقدم هذا المعنى في « النساء » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزفير والشهيق ؛ أى لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكره ، وما لم يذكره . حكاه ابن الأنبارى . الرابع — قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفتنهم ، ثم يجدد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له في الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس — أن « إِلَّا » بمعنى « سوى » كما تقول في الكلام : مامعى رجل إلا زيد ، ولى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك<sup>(۲)</sup> . قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها . كما تقول في الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ، ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة ، قال : ولأهل المعانى قولان آخران ، فأحد القولين : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من مقدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللحاسبة ، وقدر مكثهم في الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ، أى خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه ، وهو قوله سبحانه : « يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ فَيْرَ الْأَرْضِ<sup>(۳)</sup> » تخلق الله سبحانه الأديمين وعاملهم ، واشترى منهم أنفسهم .

(۱) اللحم : الزماد والقم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حمة . (۲) راجع ج ۵ ص ۳۳۲

(۳) وعبارة البحر : ل عندك ألفا درهم إلا الألف التى كنت أسفنتك بمعنى سوى تلك الألف .

(۴) يلاحظ أنه لم يذكر المصنف السابغ ولعله هو هذا . (۵) راجع ص ۳۸۲ من هذا الجزء .

وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب بربقته يخلد في النار بمقدار دوام السموات والأرض؛ فإنما دامتا للمعاملة؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في شئنة الله؛ قال الله تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحق الأحديّة، فمن لقيه موحدًا لأحدثه بقى في داره أبدًا، ومن لقيه مشركًا بأحدثه إلهًا بقى في السجن أبدًا؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» من زيادة المدة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدًا. وقد قيل: إن «إلا» بمعنى الواو، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السموات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا» (٢) أى ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر: (٣)

وكل أخ مفارقة أخوه \* لعمري أبوك إلا الفرقدان

أى والفرقدان. وقال أبو محمد مكي: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون «إلا» بمعنى الواو، وقد مضى في «البقرة» (٢) بيانه. وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» (٤) أى كما قد سلف، وهو — التاسع، العاشر — وهو أن قوله تعالى: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي تدب الشرع إلى استعماله في كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى: «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ» (١) فهو استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى: «عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ» ونحوه عن أبي عبيد قال: تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود

(١) راجع ج ١٦ ص ١٤٧ و ٢٨٩. (٢) راجع ج ٢ ص ١٢٨. (٣) البيت لعمرو ابن معدى كرب. وقيل: هو لخضر بن عامر. ويجوز أن تكون «إلا» هنا بمعنى غير. قال سيبويه: كأنه قال وكل أخ غير الفرقدنين مفارقة أخوه، فقد نبت «كلا» بها. (٤) راجع ج ٥ ص ١٠٣.

الفریقین فی الدارین ؛ فوق لفظ الاستثناء ، والمزمیة قد تقدمت فی المخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالیٰ : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم بدخلونه حتّیٰ فلم یوجب الاستثناء فی الموضعین خیاراً ؛ إذ المشیئة قد تقدمت بالمزمیة فی المخلود فی الدارین والدخول فی المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفراء . وقول — حادی عشر — وهو أن الأشقیاء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقیاء لا غیرهم ، والاستثناء فی الموضعین راجع إليهم ؛ وبیانه أن « ما » بمعنى « من » استثنی الله عز وجل من الداخلین فی النار المخلدین فیها الذین ینخرجون منها من أمة محمد صلی الله علیه وسلم بما معهم من الإیمان ، واستثنی من الداخلین فی الجنة المخلدین فیها الذین یدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم ینخرجون منها إلی الجنة . وهم الذین وقع علیهم الاستثناء الثانی ؛ كأنه قال تعالیٰ : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَمْ يَمُوتُوا فِيهَا زَوَافِرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » ألا یخلده فیها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلی الله علیه وسلم بایمانهم وبشفاعة محمد صلی الله علیه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار یسمون الأشقیاء ، وبدخولهم الجنة یسمون السعداء ؛ كما روى الضحاك عن ابن عباس إذ قال : الذین سَعدوا شَقُّوا بدخول النار ثم سَعدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعشى وحفص وحزرة والکسائی « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعدُوا » بضم السین . وقال أبو عمرو : والدلیل علی أنه سَعدوا أن الأول شَقُّوا ولم یقل أشَقُّوا . قال النحاس : ورأيت علی بن سلیمان یتعجب من قراءة الکسائی « سَعدوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا الحنا لا یجوز ؛ لأنه إنما یقال : سَعد فلان وأسعد الله ، وأسعد مثل أمرض ؛ وإنما احتج الکسائی بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه یقال : مکان مسعود فيه ، ثم یحذف فيه ویسمی به . قال المهدوی : ومن ضم السین من « سَعدوا » فهو محول علی قولهم : مسعود وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا یقال : سَعد الله ، إنما یقال : أسعد الله . وقال الثعلبی : « سَعدوا » بضم السین أى رزقوا السعادة ؛ یقال : سَعد وأسَعد بمعنى واحد وقرأ الباقون « سَعدوا » بفتح

السین قیاسا علی « شَمْرًا » واختاره أبو عبید وأبو حاتم . وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشقاوة ؛ تقول : منه سَعِدَ الرجل بالکسر فهو سعيد ، مثل سَلِمَ فهو سليم ، وسُعد فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه : مُسعد ، كأنهم استغنوا عنه بمسعود . وقال الفشیری : أبو نصر عبد الرحیم : وقد ورد سَعَدَ الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعد ؛ فهذا يقوى قول الکوفيين . وقال سیبويه : لا يقال سَعِدَ فلان کما لا يقال شُئَ فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى . (عطاء غير مجذوذ) أى غیر مقطوع ؛ من جَدَّ يَجِدُّه أى قطعه ؛ قال النابغة :

تَجَدُّ السُّلُوقِ المضاعف تسجّه \* وتَوْفُدُ بالصَّفَّاحِ نارَ الحَبَّاحِ (١)

قوله تعالى : ( فَلَا تَكُ ) جزم بالنهى ؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال . ( فِي مَرِيَةٍ ) أى فى شك . ( مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ) من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم . ( وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحَتِهِمْ غَيْرَ مُنْكَوِّصِينَ ) فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبتهم من الرزق ؛ قاله أبو العالیه . الثانى — نصيبتهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد . الثالث — ما وعدوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) قوله تعالى : ( وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ) الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لفضى بينهم أجملهم بأن يشيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل : المراد بين المختلفين فى كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدق [ به ] ومكذب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فىك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن

(١) البيت للناطقة الذبباني يصف فيه السيوف . ويروى ( تقد — ويوقدن ) . والسُّلُوق : الدرع المنسوب إلى سُلُوق ؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسج حلقين . والصفاح : الحجارة العراض . والحباب : ذباب له شعاع بالليل ، وقيل : نار الحباب ما اقتدح من شر النار فى الهواء يتصادم بحجرين . (٢) من أرووى .



سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ( وَإِنَّهُمْ لَنَبَىٰ شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ )  
 إن حملت على قوم موسى ؛ أى لنبى شك من كلاب موسى فهم فى شك من القرآن .  
 قوله تعالى : وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ( وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ ) أى إن كلاً من الأمم التى عددها  
 يرون جزء أعمالهم ؛ فكذلك قومك يا محمد . واختلف القراء فى قراءة ( وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا ) فقرأ  
 أهل الحرمين - نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم - « وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا » بالتخفيف ، على أنها  
 « إن » المخففة من الثقلية معاملة ؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه ، قال سيبويه : حدثنا  
 من أنق به أنه سمع العرب تقول : إن زيدا لمنطقٌ ؛ وأنشد قول الشاعر :  
 \* كَأَنَّ ظِيْبَةً تَنْطُو إِلَى وَارِقِ السَّلْمِ \*  
 أراد كأنها ظبيبة تخفف ونصب ما بعدها ؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إن » المشددة

مع إعمالها ، وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أذكرى على أى شئ قرئ « وَإِنَّ كُلاًّ » ! وزعم  
 الفراء أنه نصب « كلاً » فى قراءة من خفف بقوله : « لَيُؤْفِقُنَّهُمْ » أى وإن ليؤفقهم كلاً ؛  
 وأنكر ذلك جميع النحويين ، وقالوا : هذا من كبير الغلط ؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربته .  
 وشدد الباقون « إن » ونصبوا بها « كلاً » على أصلها . وقرأ عاصم وحزرة وآبن عاصم « لَمَّا »  
 بالتشديد . وخففها الباقون على معنى : وإن كلاً ليؤفقهم ، جعلوا « ما » صلة . وقيل :  
 دخلت لفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ « ما » .  
 وقال الزجاج : لام « لَمَّا » لام « إن » و « ما » زائدة مؤكدة ؛ تقول : إن زيدا لمنطقٌ ؛ فإن

(١) هو : آبن صريم البشكري ؛ وصدر البيت :

\* ويوما توافينا بوجه مقسم \*

يجوز نصب الظبية بكان تشبيها بالفعل إذا حذف وعمل ، والمخبر بحذف لعلم الدامع . ويجوز جر الظبية على تقدير :  
 كظبية ، وإن زائدة مؤكدة .

(٢) قال الطبري : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين أحما قبلها .

تقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقولك : إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وقوله : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا<sup>(١)</sup>» . واللام في «ليوفينهم» هي التي يُتلقى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشددة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ «ما» و «ما» زائدة مؤكدة ، وقال الفراء : «ما» بمعنى «من» كقوله : «وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئُ<sup>(٢)</sup>» أى وإن كلا لمن ليوفينهم ، واللام في «ليوفينهم» للقسم ، وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن «ما» عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى «من» . وقيل : ليست بزيادة ، بل هي اسم دخل عليها لام التأکید ، وهي خبر «إن» و «ليوفينهم» جواب القسم ، التقدير : وإن كلا خلق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : «ما» بمعنى «من» كقوله : «فَأَنْكِحُوا<sup>(٣)</sup> مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» أى من ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدد «ما» وقرأ «وَإِنْ كَلَّا لَمَّا» بالتشديد فيها — وهو حزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن ؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقال : إن زيدا إلا لأضربته ، ولا لمأ لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال هو وأبو على الفارسي : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللتحويين في ذلك أقوال : الأول — أن أصلها «لمن ما» فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميات لحذفت الوسطى فصارت «لما» و «ما» على هذا القول بمعنى «من» تقديره : وإن كلا لمن الذين ؛ كقولهم : وَإِنِّي لَمَّا أَصْبَرُ الْأَمْرَ وَجْهَهُ \* إذا هو آتيا بالسبيل مَصَادِرُهُ

وزيف الزجاج هذا القول ، وقال : «من» اسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثاني — أن الأصل لمن ما ، لحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات ، والتقدير : وإن كَلَّا لَمِنْ خَلْقٍ ليوفينهم . وقيل : «لما» مصدر «لَمْ» وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف ؛ فهي على هذا كقوله : «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا» أى جامعا للمال الماء كقول ؛ فالتقدير على هذا : وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمَّا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومن . وقد قرأ الزهرى «لَمَّا» بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٥ . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٢٥ ، ص ١٢ . (٣) راجع ج ٢ ص ٦٢ .

أن «لما» بمعنى «إلا» حكى أهل اللغة : سألتك بالله لما فعلت ؛ بمعنى إلا فعلت ؛  
ومثله قوله تعالى : «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ<sup>(۱)</sup>» أى إلا عليها ؛ فمعنى الآية : ما كل  
واحد منهم إلا ليوفيقهم ؛ قال القشيري : وزيف الزجاج هذا القول بأنه لا نفى لقوله :  
«وإن كلاً لما» حتى تقدّر «إلا» ولا يقال : ذهب الناس لما زيد . الرابع -  
قال أبو عثمان المازني : الأصل وإن كلاً لما بتخفيف «لما» ثم نقلت كقولها :  
لقد خشيْتُ أَنْ أرى جَدِّياً \* في عامِنَا ذَا بَعْدَ مَا أَخَصَّبَا<sup>(۲)</sup>

وقال أبو إسحاق الزجاج : هذا خطأ ! إنما يخفف المنقل ، ولا ينقل المخفف . الخامس -  
قال أبو عبيد القاسم بن سلام : يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَعْتُ الشيءَ ألمه لما إذا  
جمعه ، ثم بنى منه فعلى ، كما قرئ «فَمُ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى<sup>(۳)</sup>» بغير تنوين وبتنوين . فالألف  
على هذا للتأنيث ، وتعال على هذا القول لأصحاب الإمامة ؛ قال أبو إسحاق : القول الذى  
لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة ، وتكون بمعنى «ما» مثل : «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ  
لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ» وكذا أيضاً تشدد على أصلها ، وتكون بمعنى «ما» و«لما» بمعنى «إلا»  
حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين ؛ وأن «لما» يستعمل بمعنى «إلا» قلت :  
هذا القول [الذى] ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره ؛ وقد تقدم مثله وتضعيف  
الزجاج له ، إلا أن ذلك القول صوابه «إِنْ» فيه نافية ، وهنا مخففة من الثقيلة فافتقرا وبقيت  
قراءتان ؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أُبَيٍّ : «وإنَّ كُلَّ إِلَّا لِيُؤْفِقَهُنَّ<sup>(۴)</sup>» وروى عن الأعمش  
«وإنَّ كُلَّ لَمَّا» بتخفيف «إن» ورفع «كل» وبتشديد «لما» . قال النحاس : وهذه  
القراءات المخالفة للسواد تكون فيها «إِنْ» بمعنى «ما» لا غير ، وتكون على التفسير ؛ لأنه  
لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . (إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ) تهديد ووعيد .

(۱) راجع ج ۲۰ ص ۳۰ . (۲) البيت لرؤية . (۳) راجع ج ۱۲ ص ۱۲۴ . (۴) من روى .  
(۵) من أوجه روى . (۶) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويراً لعبارة القرطبي ، ومذيلة بكلمة .  
(حاشية) : (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول «إن» فيه نافية والقول المتقدم «إن»  
فيه مخففة من الثقيلة فافتقرا) . (۷) فى : وإن كلاً إلا ليوفيقهم . وفى الشواذ : وإن كل يفتح الكاف  
وتخفيف اللام لما .

قوله تعالى : فَاسْتَغْفِرْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا  
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْفِرْ كَمَا أَمَرْتَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولزمه . وقيل :  
له والمراد أمته ؛ قاله السدي . وقيل : « استغفر » أطاب الإقامة على الدين من الله وأسأله  
ذلك . فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : استغفر الله أطلب الغفران [ منه ] . والاستقامة  
الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ؛ فاستقم على آمنتنا أمر الله .  
وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام  
قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ! قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » . وروى الدارمي  
أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني !  
فقال : نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تتبدع . ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ أى استقم  
أنت وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده من اتبعه من أمته . قال ابن عباس  
ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ، ولذلك  
قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : « شيبني هود وأخواتها » .  
وقد تقدم في أول السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السمرى  
يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! روى عنك أنك قلت :  
« شيبني هود » . فقال : « نعم » فقلت له : ما الذى شيبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك  
الأمم ! فقال : « لا ولكن قوله : فاستقم كما أمرت » . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ نهى عن الطغيان  
والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » . وقيل : أى لا تتجبروا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصرون ﴿١١٣﴾

(١) من ١ . (٢) في الأصل (الشنوي) وصوب عن (الدر المنثور) .

(٣) راجع ج ١٨ ص ٢٦٢ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : « سناه لا تؤدوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم ، وكله متقارب . وقال ابن زيد : الركون هنا الإِدْهَانُ (١) وذلك ألا يتكر عليهم كفرهم . »

الثانية — قرأ الجمهور : « تَرْكُنُوا » بفتح الكاف ؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وقاتدة وغيرهما : « تَرْكُنُوا » بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَنَ يَرْكُنُ مثل مَعَ يَمْنَعُ (٢) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية (٣) . وقد تقدم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن موادة ؛ وقد قال حكيم (٤) :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه • فكلُّ قرينٍ بالمُقَارِنِ يَتَّبِعِدِي (٥)  
فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتقية فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة » . وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أي تحرقكم . بخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على معاصيهم وموافقتهم في أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَوَّلِ لَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَ لِمَنْ يَذْهَبَ إِلَى أَسْمَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلَّذِينَ (٦)

(١) الإِدْهَانُ : المصانعة . (٢) والآية من باب توبيخ . (٣) راجع ج ٦ ص ١٢ ، وج ٥ ص ٤١٧ ، و ص ٢١٧ . (٤) مسرطمة بن العبد . (٥) راجع ج ٤ ص ٥٧ . (٦) في : أغراضهم وموافقتهم .



فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَقَ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثمانية الإيمان ، وإليها يفزع في النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة <sup>(١)</sup> .  
وقل شيوخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفسا ؛ قال ابن العربي : وهذا ضعيف ، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجبا لا نفلا ، فإن الأوقات معلومة ، وأوقات التوافل المرغّب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها النذب على البذل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ طَرَقَ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ابن عطية . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ابن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطرف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضحاك . وقيل : الطرفان الظهر والعصر . والزلف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى المساوردي أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقصه القول الذي قبله . ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ابن العربي : والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس ركوة <sup>(٢)</sup> ، وحاد عن البرجاس غلوة <sup>(٣)</sup> ؛ قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ، ولم يجمع معه على ذلك أحد .

(١) (حزبه) : نزل به مهم ، أو أصابه غم .  
(٢) كذا في ع و و . والذي في ابن العربي : لم يتناول ذلك لا واجبا لأنها خمس صلوات ولا نفلا .  
(٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) .  
(٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس أو نحوه موله .  
والغلوة : قدر رمية بهم .

قلت : هذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ، وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدل على صحة ما قاله الطبري في الصبح ، وتبقى عليه المغرب والرد عليه فيه ما تقدم . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلْفًا مِنْ الْبَيْلِ ﴾ أى في زُلْفٍ من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن الفقعار وابن أبي إسحاق وغيرهما « وَزُلْفًا » بضم اللام جمع زَلِيف ؛ لأنه قد نطق بزلف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلْفَة » لغة ؛ كبسرة وبسر ، في لغة من ضم السين . وقرأ ابن محيصن « وَزُلْفًا » من الليل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفَة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرة ودرة وبر . وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضا « زُلْفَى » مثل قُرْبَى . وقرأ الباقر « وَزُلْفًا » بفتح اللام كعُرْفَة وغُرْف . قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات ، واحدها زُلْفَة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بلف الليل صلاة العتمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدم . وقال الأخفش : يعنى صلاة الليل ولم يعين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين [رضى الله عنهم أجمعين] <sup>(١)</sup> إلى أن الحسنات ها هنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما أجنبَت الكبائر » .

قلت : سبب النزول بمضد قول الجمهور ؛ نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليسر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ؛ خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيا دون الفرج . روى (١) من ك .

الترمذی عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني عابحت أمراًة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقض في ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك ؛ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وانطلق الرجل وأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فدعاه ، فقال عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِي كَرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ » فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « [ لا ] بل للناس كافة » . قال الترمذی :

حديث حسن صحيح . وخرج أيضاً عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة فبسه حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فترت : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : « بلى . ولكن عمل بها من أمتي » . قال الترمذی : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليسر قال : أتتني امرأة تتباع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا ، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : آسرت على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : آسرت على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : « أَخْلَقْتَ غَارِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا ؟ » حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِي كَرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا » . قال أبو اليسر : فأتيته فقراها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يا رسول الله ! ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له : « أشهدت معنا

(١) الزيادة عن الترمذی .

(٢) الذي في صحيح الترمذی (صحيح) بدل (غريب) .

الصلاة؟ قال نعم؛ قال: «أذهب فلانها كفارة لما فعلت». وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلى عليه هذه الآية قال له: «قم فصل أربع ركعات». والله أعلم. وخرج الترمذی الحکیم فی «نوادير الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثه لذنب قديم»، «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا».

الخامسة — دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام والأس الحرام لا يجب فيهما الحد، وقد يستدل به على أن لا حد ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا في ثوب واحد، وهو اختيار ابن المنذر؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتي ما للعلماء في هذا في «النور» إن شاء الله تعالى.

السادسة — ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال: «اقِمِ الصَّلَاةَ» الآية. وقال: «اقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ» الآية. وقال: «قَسِّبَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ»<sup>(١)</sup>. وقال: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»<sup>(٢)</sup>. وقال: «أَرَكُمُوا وَأَسْجُدُوا»<sup>(٣)</sup>. وقال: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ»<sup>(٤)</sup>. وقال: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا»<sup>(٥)</sup> على ما تقدم. وقال: «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا»<sup>(٦)</sup> أى بقرائكته؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه، وأحال على نبيه في بيانه؛ فقال جل ذكره: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»<sup>(٧)</sup> فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسجودات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح [ الصلاة ] إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخارى: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُوهُنَّ أَصْلَى». ونقل ذلك عنه الكفاة عن الكفاة، على ما هو معلوم، ولم

(١) راجع ج ١٢ ص ١٦١ و ٩٨ . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٠٣ و ٣٤٣ و ١٠٨ .

(٣) راجع ج ١٤ ص ١٤ . (٤) راجع ج ١١ ص ٢٦٠ . (٥) راجع ج ٣ ص ٢١٣ .

(٦) راجع ج ٧ ص ٣٥٣ . (٧) من ادع .

يَمْتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَيَّنَّ جَمِيعَ مَا بِالنَّاسِ الْحَاجَّةَ إِلَيْهِ ؛ فَبُكِّلَ الدِّينُ ، وَأُوْضِحَ السَّبِيلُ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

قوله تعالى : ( ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا ) أى القرآن موعظة وتوبة لمن اعترض وتذكرة ؛ وخص الذين كرهوا بالذكر لأنهم المستفعدون بالذكرى . والذكرى مصدر جاء بألف التانيث .

قوله تعالى : وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٣) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٤)

قوله تعالى : ( وَأَصْبِرْ ) أى على الصلاة ؛ كقوله : « وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا » . وقيل : المعنى وأصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . ( فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ) يعنى المصلين .

قوله تعالى : ( فَلَوْلَا كَانَ ) أى فهلا كان . ( مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ) أى من الأمم التى قبلكم . ( أُولُوا بَقِيَّةً ) أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . ( يَنْهَوْنَ ) قومهم . ( عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ ) لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ؛ وهذا توبيخ للكفار . وقيل : لولا هاهنا للنبي ؛ أى ما كان من قبلكم ؛ كقوله : « فَلَوْلَا كَانَتْ قُوَّةٌ أَمَرْتُ » أى ما كانت . ( إِلَّا قَلِيلًا ) استثناء منقطع ؛ أى لكن قليلا . ( مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ) نهوا عن الفساد فى الأرض . قيل : هم قوم يونس ؛ لقوله : « إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ » . وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . ( وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى أشركوا وعصوا . ( مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ) أى من الاشتغال بالمال والذلات ، وإيثار ذلك على الآخرة . ( وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ) .

(١) راجع ج ٦ ص ٦١ . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٦٣ . (٣) راجع ج ٨ ص ٣٨٣ .



قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَادِقُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٣﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَلَّا لَئِنْ جَهَنَّمَ مِّنَ الْخَنِتَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصَادِقُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعامل الحقوق ؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب بنحس المكيال والميزان ، وقوم لوط بالواط ، ونزل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب . وفي صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده “ . وقد تقدم . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهم ، أى ما أهلك قوما إلا بعد إغذار وإندار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو بظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال سعيد بن جبير : على ملة الإسلام وحدها . وقال الضحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أى على أديان شتى ؛ قاله مجاهد وقتادة . ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع ؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلfin فى الرزق ، فهذا

غنى - وهذا فقير . «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» بالقناعة؛ قاله الحسن . «وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ» قال الحسن ومقاتل وعطاء [وبن] : الإشارة للاختلاف ؛ أى وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ولرحمته خلقهم ؛ وإنما قال : «وَلَدَلِكْ» ولم يقل وانتك ، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر ؛ وأيضاً فإن تأنيث الرحمة غير حقيقى ، فحملت على معنى الفضل . وقيل : الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار به «بذلك» إلى شيئين متضادين ؛ كقوله تعالى : «لَا فَاِرِضْ وَلَا يَكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ»<sup>(١)</sup> ولم يقل بين ذينك ولا تينك ، وقال : «وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسِرُّوْا وَلَمْ يَنفَرُوْا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا»<sup>(٢)</sup> وقال : «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا»<sup>(٣)</sup> وكذلك قوله : «قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَيُذِلِّكَ فَيُلْقِرْحُوا»<sup>(٤)</sup> وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى ؛ لأنه يعم ، أى وليا ذكر خلقهم ؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب ؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال : خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير ؛ أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف ، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضا قال : خلقهم فريقين ، فريقا رحمه وفريقا لا رحمه . قال المهدوى : وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير ؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، وتمت كلمة ربك لأملأت جهنم من الجنة والناس أجمعين ؛ ولذلك خلقهم . وقيل : هو متعلق بقوله : «ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ» والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلقهم . وقيل : هو متعلق بقوله : «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» أى للسعادة والشقاوة خلقهم .

قوله تعالى : «وَمَتَّ كَلِمَةً رَبُّكَ» معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقدر في آله ؛ وتام الكلمة امتناعها عن قبول التغير والتبديل . «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» «من» لبيان الجنس ؛ أى من جنس الجنة وجنس الناس . «أجمعين» تأكيد ؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه [صلى الله عليه وسلم] أنه يملأ جهنم بقوله : «واكمل واحدة منكما ملؤها» . نرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(١) من ع ، ا ، و ، ي . (٢) راجع ج ١ ص ٤٤٨ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٧٢ .  
(٤) راجع ج ١٠ ص ٣٤٣ . (٥) راجع ج ٨ ص ٣٥٣ . (٦) من ع .

قوله تعالى : **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ** ﴾ « **كُلًّا** » نصب بـ « **نقص** » معناه وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك . وقال الأخفش : « **كُلًّا** » حال مقدمة ، كقولك : **كُلًّا** ضربت القسم . ﴿ **مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ** ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿ **مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ أى على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نريدك به تثبيتاً وبقينا . وقال ابن عباس : ما نشد به قلبك . وقال ابن جريج : نصب به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعاني : **نُطِيبُ** ، والمعنى متغارب . و « **ما** » بدل من « **كُلًّا** » المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما ثبت به فؤادك . ﴿ **وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ** ﴾ أى فى هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخص هذه السورة لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصها بالذكر تأكيداً وإن كان الحق فى كل القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا ، يريد النبوة . ﴿ **وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشرىف لهذه السورة ؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة <sup>(١)</sup> والذكر ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التخصيص . « **وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** » أى يتذكرون ما نزل بن هلك فيتوبون ؛ وخص المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : **وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ** ﴿١٢٣﴾ **وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** ﴿١٢٤﴾ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿١٢٥﴾

(١) فى : الموعظة .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد .  
﴿ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر ، وقد تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما بخذف لدلالة  
المعنى . وقال ابن عباس : خزانة السموات والأرض . وقال الضحاك : جميع ما غاب عن  
العباد فيهما . وقال الباقر : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وظلوعه  
من الأرض . وقال أبو على الفارسي : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى علم ما غاب  
فيهما ، أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً ، لأنه حذف حرف الجر ، تقول :  
غبت فى الأرض وغبت ببلد كذا . ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أى يوم القيامة ، إذ ليس  
للمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص « يُرْجَعُ » بضم الياء وفتح الجيم ، أى يُرد .  
﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى ألجأ إليه وثق به . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى  
كلاً بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالناء على المخاطبة . الباقر بياء على الخبر .  
قال الأخفش سعيده : « يعملون » إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، قال :  
بعضهم وقال : « تعملون » بالناء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم  
« وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة « هود »  
من قسوله : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة . تمت سورة « هود »  
ويتلوها سورة « يوسف » عليه السلام .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة ، وسيأتي . وقال سعد ابن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا فنزل : « نَحْنُ نُقْصُصُ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا فنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ <sup>(۱)</sup> » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكرزها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بالفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرزها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكثر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : **الْأَرْسِلْنَاكَ آيَاتُنَا لِنَكْتَبَ بِالْمُبِينِ** ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿الْأَرْ﴾ تقدم القول فيه ، والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : «الْأَرْ» اسم السورة ؛ أي هذه السورة المسماة «الْأَرْ» ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني [بالكتاب المبين] القرآن المبين ؛ أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهُداه وبركته . وقيل : أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوراة .

قوله تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ، نصب «قرآنًا» على الحال ؛ أي مجوعا ، و«عربيا» نعت لقوله «قرآنًا» . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد وجلا صالحا ، و«عربيا» على الحال ،

(۳) من ع .

(۲) راجع ج ۱ ص ۱۵۴ فابعد .

(۱) راجع ج ۱ ص ۲۴۸ .



أى يُقرأ بالفتح يا معشر العرب . أَعْرَبَ بَيْنَ ، ومنه ” الشَّيْبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا “ .  
 (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أى لى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بأن  
 مع « لعل » تشبيها بمعنى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ، كما قال الشاعر <sup>(١)</sup> :  
 \* يَا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَا كَا \*

وقيل : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتكنوا على رجاء من تدبره ، فيعود معنى الشك إليهم لا إلى  
 الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أَتَزَانَهُ » أى أنزلنا خبر يوسف ، قال  
 النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ، لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم أتشغل آل يعقوب من  
 الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأُنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ،  
 وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يُقرأ  
 كتابا [ فقط ] <sup>(٢)</sup> ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .  
 قوله تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ  
 هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْعَظِيمِينَ <sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ) ابتداء وخبر . ( أَحْسَنَ الْقَصَصِ ) بمعنى المصدر ،  
 والتقدير : قصصنا أحسن القصص . وأصل القصص نابع الشيء ، ومنه قوله تعالى :  
 « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه » <sup>(٤)</sup> أى تتبع أثره ، فالقاص يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى  
 القصص لا إلى القصة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيد السبابة له . وقيل :  
 القصص ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال : الله رجأنا ، أى مرجؤنا فالمعنى  
 على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ( بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ) أى يوحينا . « بما » مع الفعل  
 بمنزلة المصدر . ( هَذَا الْقُرْآنَ ) نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف  
 بيان . وأجاز الفراء الحذف ، قال : على التكرير ، وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

(١) الرجز للعجاج ، ومصدر البيت .

\* تقول بنى قد أنى أنا كَا \*

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٥٤ .

(٣) من ع .

وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ؛ كان سائلا سألته عن الوحي فقيل له : هو [هذا] (۱)  
القرآن . ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ أي من الغافلين عما عرفناكم .

مسئلة — وأختلف العلماء لم تُسميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر  
الأنفاسيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه  
القصة؛ وبيانه قوله في آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » (۲) . وقيل :  
سمّاها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم  
— بعد الإلتقاء بهم — عن ذكر ما عايطوه ، وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال :  
« لَا تَزِيلُ بَعْثُكُمْ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين،  
والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال  
والنساء وجنهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقهاء والسيرة وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشره  
وتدبير المعاش، وحمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب  
والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أَحْسَنَ » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعاني : إنما  
كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ أنظر إلى يوسف وأبيه  
وإخوته، وأمراة العزيز؛ قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر  
الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ

كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (۳)

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إِذْ » في موضع نصب على الظرف؛ أي آذ كر لم حين  
قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرا طلحة بن مُصَرِّف « يُوسُف » بالهمز وكسر  
السين . وحكى أبو زيد « يُوسَف » بالهمز وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمي؛ وقيل :  
هو عربي . وسئل أبو الحسن الأقطع — وكان حكما — عن « يوسف » فقال : الأسف في اللغة

(۲) راجع ص ۲۷۷ ر ص ۲۵۵ من هذا الجزء .

(۱) من ع ۱ .

الحزن؛ والأصيف العبد، وقد اجتمعوا في يوسف؛ فذلك سمي يوسف. (لَا يُبَيِّنُ بِأَيِّتٍ) بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأثب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال: رجل نُكَّحَ وَهْرَاةٌ؛ قال النحاس: إذا قلت «يَا أَيَّتُ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها — أن قولك: «يَا أَبُ» يؤدَّى عن معنى «يَا أَبِي»؛ وأنه لا يقال: «يَا أَبُت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: «يَا أُتِي» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يَا أَيَّتُ» فكسر دُت على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ وكيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يَا أُتِي»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يَا أَبُت» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يَا أُتِي» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يَا أَبُتَا» لحذف الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء «يَا أَبُت» بضم التاء. (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) ليس بين التحوين اختلاف أنه يقال: جاءني أحد عشر، ورأيت ومررت بأحد عشر، وكذلك ثلاثة عشر وتسعة عشر وما بينهما؛ جعلوا الأسمين أسماء واحدا وأعرهوهما بأخف الحركات. قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحارث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: «الحرثان<sup>(١)</sup> والطارق والذبال وقابس والمصباح والضروح وذو الكنفات وذو الفرع والقلبيق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له». قال ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قتادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قدمات، وكانت خالته تحت

(١) في حاشية الجبل: جريان — بفتح الجيم وكسر الراء. وتشديد التحتية منقول من اسم طوق القميص. وقابس مقبض النار وعمودان ثنية عمود والقلبيق نجم منفرد والمصباح ما يطلع قبل الفجر والفرع بقاء. ورا. مهمله ساكنة وعين: نجم عند الدلو. ووثاب بتشديد المثلثة سريع الحركة وذو الكنفين ثنية كنف نجم كبير. وهذه نجوم غير مرصودة. (٢) كذا في «عقد الجمان» للبيهي، وفي الأصل «الطبع». (٣) وفي الجبل: الصروح.

أبيه . ﴿ رَأَيْتُمْ ﴾ توكيد . وقال : « رَأَيْتُمْ لِي سَاجِدِينَ » بغناء مذكرا ؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عن يعقل . وقد تقدم هذا المعنى في قوله : « وَرَأَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ <sup>(١)</sup> » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾  
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أى يبتالوا فى هلاكك ؛ لأن تأويلها ظاهر ؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانية - الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له " . وقال : " أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا " . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى " من سبعين جزءا من النبوة " . وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما " جزءا من أربعين جزءا من النبوة " . ومن حديث ابن عمر " جزء من تسعة وأربعين جزءا " . ومن حديث العباس " جزء من خمسين جزءا من النبوة " . ومن حديث أنس " من ستة وعشرين " وعن عبادة بن الصامت " من أربعة وأربعين من النبوة " . والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين ، أما سائرهما فمن أحاديث الشيوع ؛ قاله ابن بطال . قال أبو عبد الله المازرى : والأكثر والأصح عند أهل الحديث " من ستة وأربعين " . قال الطبرى : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فأما قوله :  
 ”إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة“ فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل  
 مسلم رآها في منامه على أى أحواله كان؛ وأما قوله : ”إنها من أربعين — أو — ستة  
 وأربعين“ فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق — رضى الله عنه —  
 أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السبرات<sup>(١)</sup>، والصبر في الله على المكرهات،  
 وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة — إن شاء الله — جزء من أربعين جزءا من  
 النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزئين؛ ما بين الأربعين  
 إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر  
 ابن عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى  
 اختلاف متضاد متدافع — والله أعلم — لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض  
 من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المنين، وحسن  
 اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيها وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛  
 فمن خلصت نيته في عبادة ربه وبقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة  
 أقرب : كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾<sup>(٢)</sup>  
 قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض  
 وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأسفأقي عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : ”جزء من ستة  
 وأربعين جزءا من النبوة“ فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة ثلاثة  
 وعشرين عاما — فيما رواه عكرمة وعمر بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما —  
 فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛  
 وإلى هذا القول أشار المسازرى في كتابه «المعلم» واختاره القونوى في تفسيره من سورة  
 «يونس» عند قوله تعالى : ﴿ هَلْهُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . وهو فاسد من وجهين :

(١) السبرات (جمع صبرة) يسكون الباء : شدة البرد . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧٨ .

(٣) كذا في الأصول وموابه : الصفاقسى . (٤) في ع : الغزنوى . (٥) راجع ج ٨ ص ٥٨ .



أحدهما — مارواه أبو سَلَمَةَ عن ابن عباس وعائشة بأن مدة الوحي كانت عشرين سنة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ، وهو قول عمرو والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه، وهي رواية ربعة وأبي غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث<sup>(١)</sup> بطل ذلك التأويل —  
الثاني : أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام : ”إنه لم يبق من مِشَرَات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم“ الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة؛ قال صلى الله عليه وسلم : ”الرؤيا من الله والحلم من الشيطان“ وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بدع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة .

الرابعة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخَلِّط أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين في السجن ، ورؤيا بَحْتَصْر، التي فسرهما دانيال في ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة، عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري «باب رؤيا أهل السجن» — فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة؛ وقد تقدم في «الأنعام»<sup>(٢)</sup> أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على التدوير والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلب : إنما ترجم البخاري

(٢) رابع ج ٧ ص ٣ فا بعدها .

(١) في عري : هذا الخلاف .

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة.

الخامسة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلُم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا ثلاثة منها أهوئيل الشيطان يُجزيَن ابن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة". قال قلت: سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السادسة — قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام، رؤيا على وزن فُعِلَ كالتسقى والبشرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلّة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرأى علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن الله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة؛ وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره: "رأيت سوداء نائمة الرأس تخرج من المدينة إلى مهبلة فأولتها الحمى".

(١) ع حيز. (٢) أي امرأة سوداء، كما في رواية النسائي.

(٣) المهبلة: هي الجففة، ميقات أهل الشام.

و” رأيت سبني قد آتقطع صدره وبقرا فاولتهما رجل من أهل بيتي يُقتل والبقر نفر من أصحابي يُقتلون“. و” رأيت أنى أدخلت يدى فى درج حصينة فاولتها المدينة“۔ و” رأيت فى يدى سوارين فاولتهما كذايين يَنفِرُجان بعدى“، إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولا [فأولا<sup>(۱)</sup>]، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكير؛ وقد رأى النائم فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة — إن قيل : إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه ، والصغير لا حكم لفعله ، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه : « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ » ؟ والجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه ، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقى فى البقطة ، وإذا أخبر عما رأى صدق ، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام ؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض ؛ روى أن يوسف عليه السلام كان آبن اثنتى عشرة سنة .

الثامنة — هذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ؛ روى أبو رزين العُقَيْلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة“ . و”الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يتحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا“ أخرجه الترمذى وقال فيه : حديث حسن صحيح ؛ وأبو رزين أسمه لَقِيْط بن عامر . وقيل لمالك : أيعبر الرؤيا كل أحد ؟ فقال : أيا النبوة بلعب ؟ وقال مالك : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ؛ قيل : فهل يعبرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما نأولت عليه ؟ فقال : لا ! ثم قال : الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

التاسعة — وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يتحدث المسلم أخاه المسلم من يخافه عليه ، ولا يكون داخل فى معنى الغيبة ؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذر يوسف أن

(۱) من دوروى . (۲) فى : الرجل .

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيما أيضا مايدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على [إنجاح] <sup>(١)</sup> حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود". وفيما أيضا دلائل واضحة على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يؤدّ أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدلّ أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص الرؤيا <sup>(٢)</sup> عليهم خوف أن تفعل بذلك صدورهم، فعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري- لأبن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردّه القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي- وعن عقوب الآباء، وتعرض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله، ولا آلتفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا استحيل في العقل زلة نبي-، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الجائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصفات على ما تقدم وبأى.

العاشرة - روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات" قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة" وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منسدة من قبل الله تعالى لا تسر رائها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعدّ لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأويلها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدلّ على محنته فكتب إليه بذلك ليستعدّ لذلك، وقد تقدّم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» <sup>(٣)</sup> أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاري- مخرجه على الأغلب، والله أعلم.

(١) الزيادة عن «الجامع الصغير» . (٢) في ع: نص . (٣) راجع ج ٨ ص ٤٥٨ .

الحادية عشرة — روى البخارى عن أبى سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتعرضنى حتى سمعت أبا قتادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتعرض حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرّات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره “ . قال علماؤنا : بفعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ، ألا ترى قول أبى قتادة : إني كنت لأرى الرؤيا حتى أنقل على من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه “ . وفى حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل “ . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحول ، والصلاة زيادة ، فعلى الراى أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه ، وإذا تغمض تغل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هى أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ الْإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ) الكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف فى قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و « ما » كافة . وقيل : « وَكَذَلِكَ » أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوة . والاجتناء اختيار معالى الأمور للجنى ، وأصله من جَبَيْتُ



الشيء أى حصلته ، ومنه جبيت الماء فى الحوض ؛ قاله النحاس . وهذا شأن من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعدد فيما عدده عليه من النعم التى أناه الله تعالى ، من التكمين فى الأرض ، وتعليم تاويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك فى تاويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعنى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ؛ فإنه لم يالحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصديق رضى الله عنه من أعبّر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا . وقد قيل فى تاويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك ؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَعْمَاهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قِبلِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخلة ، وإنجائه من النار . ﴿ وَإِيتَى ﴾ بالنبوة . وقيل : من الذبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : « وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ » أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوة ؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى فعله بك .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ﴿٧٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينًا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ اهل مكة « آية » على التوحيد ؛ واختار أبو عبيد « آيات » على الجمع ؛ قال : لأنها خير كثير . قال النحاس : و « آية » هنا قراءة حسنة ؛ أى لقد كان للذين سألوا عن خبر (١) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل وهو الحق وسبأ فى « والصفات » أيضا ، وفى ع : والقدا من الذبيح .

يوسف آية فيما خبروا به، لأنهم سألو النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج أبنته إلى مصر، فبكى عليه حتى عمى؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولأن يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجه اليهود<sup>(۱)</sup> إليهم من المدينة يسألونه عن هذا — وأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيَات » موعظة؛ وقيل : عبرة . وروى أنها في بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أى عجب . قال الثعلبي في تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ وقال ابن زيد : كانوا أنبياء، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة؛ وقد تقدم رد هذا القول . قال الله تعالى : ﴿ أَفَدَّكَانَ فِي يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأستأوهم : روئيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويشجر، وأهم ليا بنت لئان، وهى بنت خال يعقوب، وولد له من امرأتين أربعة نفر؛ دان ونفثالى وجاد وأشر؛ ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلا . قال السهيلي : وأُم يعقوب اسمها رفا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب . وقيل : في اسم الأمنين ليا وثلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده؛ لقول الله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . وقد تقدم الرد على ما قاله ابن زيد، والحمد لله . قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ ﴾ « يوسف » رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهى التى يتلقى بها القسم؛ أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا ﴾ خبره، ولا يثنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتأسروا في كيد . ﴿ وَتَحَنَّنَ غَضَبُهُ ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

(۱) من عوزك دى . (۲) فاع آية . بالوحيد وهو المطابق للتفسير . (۳) راجع جده ص ۱۱۶ .

والرهط . ( إِنَّ أَبَانَا إِنِّي ضَلَّالٌ مُبِينٌ ) لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ؛ بل أرادوا لنى ذهاب عن وجه التدبير ، فى إىشار آئين على عشرة مع آستوائهم فى الأنتساب إلهه . وقيل : لنى خطأ بين بإىثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : ( أَقْبِلُوا يُوسُفَ ) فى الكلام حذف ؛ أى قال قائل منهم : « أَقْبِلُوا يُوسُفَ » لىكون أحسم لمادة الأمر . ( أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا ) أى فى أرض ، فأسقط الخافض وأنتصب الأرض ؛ وأنشد سيبويه فىما حذف منه « فى » :

لَدَنٍّ بَهَزَ الْكَفَّ بِعَيْلٍ مَّتْنُهُ \* فِىهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّمَابُ<sup>(١)</sup>

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير ؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين ، أحدهما بحرف ، فإذا حذفت الحرف تعدى الفعل إليه . والقاتل قيل : هو شمعون ، قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأحبار ؛ دان . وقال مقاتل : روبيل ؛ والله أعلم . والمعنى أرضاً تبعده عن أبيه ؛ فلا بد من هذا الإصمار لأنه كان عند أبيه فى أرض<sup>(٢)</sup> . ( يَحُلْ ) جزم لأنه جواب الأمر ؛ معناه : يخلص ويصفو . ( لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ ) فىقبل عليكم بكايته . ( وَتَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ ) أى من بعد الذنب ، وقيل : من بعد يوسف . ( قَوْمًا صَالِحِينَ ) أى تائبين ؛ أى تحدثوا توبة بعد ذلك فىقبلها الله منكم ؛ وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة ، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صَالِحِينَ » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير آثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٢٠﴾

(١) البيت لساعدة بن جثية وقد وصف فيه رجالين المسز ؛ فشبّه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزّه بمسلان الطلّب فى سيرة ؛ والمسلان : سير سريع فى اضطراب . واللذان : الناعم اللين . وروى : لذ ؛ أى مسئلة عند الهرطلبه . (شواهد سيبويه) . (٢) فى ع : أرضه .

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ ﴾ (۱) الفائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب ؛ قاله ابن عباس . وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته ، وهو الذى قال : « فَنَ أَرْحَ الْأَرْضَ » [الآية] (۱). وقيل : شمعون . ﴿ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « في غيابة الجب » . وقرأ أهل المدينة « في غيَابَاتِ الجُبِّ » وأخار أبو عبيد النوحيد ؛ لأنه على موضع واحد ألفوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضيق في اللغة ؛ « وغيابات » على الجمع يجوز [ من وجهين ] (۲) : حكى سيديويه سير عليه عشيَّانَتِ وأصيلانَتِ ، يريد عشيَّة وأصيلاً ، فجعل كل وقت منها عشيَّة وأصيلاً ؛ فكذا جعل كل موضع مأْيُغِب غَيَابَةً . [ والآخر — أن يكون في الجب غيابات ( جماعة ) . ويقال : غاب يغيب ] (۳) غَيَاً وَغَيَابَةً وَغَيَابًا ، كما قال الشاعر :

أَلَا قَالِبَتَا شَهْرَيْنِ أَوْ نَصَفَ نَالِثٍ \* أَنَا ذَا كُنَّا قَدْ غَيَّبْتَنِي غَيَابًا

قال المروى : والغَيَابَةُ شبه جَلْفٍ أو طاق في البئر فوق الماء ، يغيب الشيء عن العين . وقال ابن عَرَبٍ : كل شيء غيب عنك شيئاً فهو غَيَابَةٌ . قلت : ومنه قيل للقبر غَيَابَةٌ ؛ قال الشاعر :

فَإِن أَنَا يَوْمًا غَيَّبْتَنِي غَيَابَتِي \* فَسَيَرُوا بِسَيْرِي فِي الْعِشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

والجب الرَّكْبَةُ التي لم تَطْوُ ، فإذا طُوِيَتْ فهي بئر ؛ قال الأعشى :

لئن كُنْتُ فِي جَبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً \* وَرُقِيتْ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ (۴)

وسميت جباً لأنها قُطِعَتْ في الأرض قُطْعًا ، وجمع الجب حَبِيَّةٌ وحِجَابٌ وأجَابٌ ؛ وجمع بين الغيابة والجلب لأنه أراد ألفوه في موضع مظلم . من الجب حتى لا يلاحظه نظر الناظرين . قيل :

(۱) من ع . (۲) الزيادة عن النحاس . (۳) الجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف . (۴) بده كما في الهيران :

ليست درجك القبول حتى تهمره \* وتسلم أنى عنك لست بجرم

وتشرق بالقبول الذى قد أذعته \* كما شرقت صدر الفتاة من الدم

هو بئر بيت المقدس، وقيل : هو بالأردن؛ قاله وهب بن منبه . مقاتل : وهو على ثلاثة فرائخ من منزل يعقوب .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ (١) جزم على جواب الأمر . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْتَقِطُهُ » بالتاء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السَّيَّارَةِ سَيَّارَةٌ ؛ وقال سيويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد (١)  
وتَشَرَّقَ بالقولِ الَّذِي قد أَدَّعَتْهُ \* كما شَرِقتْ صَدْرُ القَنَاةِ من الدَّمِ  
وقال آخر :

أَرَى مَرَّ السَّنَنِ أَخَذَنَ مِنِّي \* كَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ مِنَ الْهَلَالِ (٢)

ولم يقل شَرِقت ولا أخذت . والسَّيَّارَةُ الجمع الذي يسرون في الطريق للسفر ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السَّيَّارَةِ يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجها في التدير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يَأْذَنَ لهم أبوهم ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة - وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاء ولا آخراء ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زَلَّةٌ نَجِيَّةٌ ، فكانت هذه زَلَّةٌ منهم ، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكثر على ما قدمناه . وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة - قال ابن وهب قال مالك : طُرح يوسف في الحب وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه ، يعني أنه كان صغيرا ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ »

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيباني ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة ، فيقول له : يعود عليك مكروه ما أذعت عني من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالنقص بالطعام .

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرهما) وسرره : أسر ليلة منه .



فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قال : ولا يُلْقِطُ إِلَّا الصَّغِيرَ ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ » وذلك [ أمر ]<sup>(١)</sup> يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أُرْسِلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامسة — الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللَّقِيطُ واللَّقْطَةُ ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلَّت عليه الآية والسُّنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يفتنسه . وقد اختلف العلماء في اللَّقِيطِ ؛ فقيل : أصله الحرَّة لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن عليٍّ أنه قضى بأن اللَّقِيطَ حرٌّ ، وتلا « وَشَرَّوهُ بِشَيْنٍ يَجْحَسُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن عليٍّ وجماعة . وقال إبراهيم النخعي : إن نوى رقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حرٌّ . وقال مالك في موطنه : الأمر عندنا في المنبذ أنه حرٌّ ، وأن ولاء الجماعة المسلمين ، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعي ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وإنما الولاء لمن أعتق » قال : فنفي الولاء عن غير المعتق . واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللَّقِيطَ لا يؤول إلى أحد ، ولا يرثه أحد بالولاء . وتنازع أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللَّقِيطُ يؤول من شاء ، فمن ولّاه فهو يرثه ويعقل عنه ؛ وعند أبي حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقل عنه الذي ولّاه ، فإن عقل عنه جنائياً لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبداً . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن عليٍّ رضي الله عنه : المنبذ حرٌّ ، فإن أحب أن يؤول إلى الذي التقطه والاه ، وإن أحب أن يؤول إلى غيره والاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حرٌّ . قال ابن العربي : إنما كان أصل اللَّقِيط الحرَّة لغلبة الأحرار على العبيد ، قضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذاً بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم : يُحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زنى اليهود فهو يهودى ، وإن وجد عليه زنى النصارى فهو نصراني ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

(١) من عرك دوى .

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغليباً لحكم الإسلام الذي يعملو ولا يُعْلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبداً ، لأنني أجعله مسلماً على كل حال ، كما أجعله حراً على كل حال . وأختلف الفقهاء في المنبوذ تدلُّ البينة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها في ذلك . وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر : هو حرٌّ ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البينة في أنه عبد . وقال ابن القاسم : تقبل البينة في ذلك ؛ وهو قول الشافعي والكرخي .

السادسة — قال مالك في القيط : إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البينة أنه أبسه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرده متعمداً ، وإن لم يكن طرده ولكنه ضلَّ منه فلا شيء على الأب ، والملتقط متطوِّع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوِّع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعي : كلُّ من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعي : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال . فإن لم يكن فيه قولان : أحدهما — يستقرض له في ذمته . والثاني — يقسِّط على المسلمين من غير عوض .

السابعة — وأما اللفظة والضوَال فقد اختلف العلماء في حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللفظة والضوَال سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي ، وأذكر قول أبي عبيد القاسم بن سلام — أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان واللقطة في غير الحيوان — وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإفك للمسلمين : ” إن أقمكم ضلَّت قِلادتها “ فأطلق ذلك على القِلادة .

الثامنة — أجمع العلماء على أن اللفظة ما لم تكن تافها يسيراً أو شيئاً لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولاً كاملاً ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقُّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمَّته فإن ذلك له ، وإن تصدَّق بها فصاحبها غير بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها ، فأى ذلك خير كان

(١) فزع وكروى : تنبذ . (٢) كذا في الأصول . (٣) في ع : الضري .

ذلك له بإجماع ؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة ، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالة الغنم المخوف عليها له أكلها .

التاسعة — وأختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها ؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلاً . وقال في الشاة : ” لك أولأخيك أو للذئب ” يحضه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضع أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ؛ وهذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله . وقال المزني عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أميناً عليها ؛ قال : وسواء قليل اللقطة وكثيرها .

العاشرة — روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : ” أعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فأنك بها ” قال : فضالة الغنم يا رسول الله ؟ قال : ” لك أولأخيك أو للذئب ” قال : فضالة الإبل ؟ قال : ” مالك ولها معها يسقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلفاها ربها ” . وفي حديث أبي قال : ” أحفظ عددها ووعاءها ووكاءها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها ” ففى هذا الحديث زيادة العدد ؛ خرج مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عفاص اللقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلتها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دُفعت له ؛ قال ابن القاسم : يُجبر على دفعها ؛ فإن جاء مستحق يستحقها بيينة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئاً ، وهل يُخلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثاني لأبن القاسم ، ولا نلزمه بيينة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بيينة أنها له ؛ وهو بخلاف نص الحديث ؛

(١) العفاص : الرعاء الذى يكون به النفقة ، جلداً كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذى يشد به الرعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كلبه ، وبالحذا عفاها ، فهى تقوى بأخفافها على السير ورورود الماء والشجر .

ولو كانت البيّنة شرطاً في الدفع لما كان لذكر الغفص والوكاء والعدّد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال ؛ ولما جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة — نصّ الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماءنا في البقر هل تلتحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير ، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط ، وقال أشهب وآبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول ابن القاسم أصح ؛ لقوله عليه السلام : ” احفظ على أخيك المؤمن ضالّته “ .

الثانية عشرة — واختلف العلماء في النفقة على الضّوال ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدّوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحقّ به كالرهن . وقال الشافعي : إذا أنفق على الضّوال من أخذها فهو متطوع ؛ حكاة عنه التزييع . وقال المزني عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت ديناً ، وما ادّعى قيل منه إذا كان مثله قصداً . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع ، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها ، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة — ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللّقطة بعد التعريف : ” فاستمتع بها “ أو ” فشأنك بها “ أو ” فهي لك “ أو ” فاستنفقها “ أو ” ثم كلّها “ أو ” فهو مال الله يؤتيه من يشاء “ على ما في صحيح مسلم وغيره ، ما يدلّ على التملك ، وسقوط الضمان عن الملتقط إذا جاء ربه ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” فإن لم تعريف<sup>(١)</sup>

(١) (إن لم تعرف) : أي لم تعرف صاحبها .





وكذا بُكْرَة . « تَرْتَعُ وَتَلْعَبُ » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة . « تَرْتَعُ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة . « يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ » بالياء وإسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَعَ الإنسان والبعير إذا أَكَلَا كَيْفَ شَاءَ ؛ والمعنى : تنسج في الخصب ؛ وكل مخضب راتع ؛ قال :

\* فارعى فزارُهُ لا هَتَاكَ المَرْتَعُ \*

وقال آخر :<sup>(١)</sup>

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتُ حَتَّى إِذَا أَذْكَرْتُ \* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وقال آخر :<sup>(٢)</sup>

أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي \* وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَائَةِ الرِّثَاعَا

أى الراتعة لكثرة المعرى . وروى مَعْمَرُ عَنْ قَتَادَةَ « ترتع » تسمى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إِنَّا نَذْهَبُنَا نَسْتَيْقُ » لأن المعنى : نَسْتَبِقُ فِي الْعَدُوِّ إِلَى غَايَةِ بَعِينِهَا ؛ وكذا « يرتع » بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . و « يرتع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك ؛ ويترجّل ؛ فترتع ، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَيْبِيُّ « ترتع » تتحارس وتتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ؛ من قولك : رعاك الله ؛ أى حفظك . « وتلعب » من اللعب وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا « وتلعب » وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضد الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « وتلعب » . ومنه قوله عليه السلام : « فَهَلَّا يَكُرُّ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ » .<sup>(٣)</sup>

(١) البيت للنساء من قصيدة ترضى بها أباها صغرا . ومعنى : ( ترتع ) ترمى . نصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها ، فكما غفلت عنه رمت ، فإذا أدركته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ، فضربتها مثلا لفقدها أباها صغرا .

(٢) هو القطامى . (٣) الخطاب للباشرين عبد الله ، وذكر ملا على عن الطيبي : أن الملاعبة عبارة عن الألفة النامة ، فإن اليب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر . ويرى : نداعها وتداعبك . والبدعابة المبالغة .

وقرأ مجاهد وقادة : « بُرِّعَ » على معنى يُرِّعَ مطبته، لحذف المفعول ؛ « وَيَلَبُّ » بالرفع على الاستثناء ؛ والمعنى : هو ممن يلب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافُظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجالة . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكفاهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم لاضراراً به .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَحْسِرُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) في موضع رفع ، أى ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف ، فذلك خافه عليه ، قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكان يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتواری يوسف فيها ثلاثة أيام ، فكانت العشرة إخوته ، لما تماثلوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه في الأرض هو مقامه في الحب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ؛ تخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكفى عنهم بالذئب مساة لهم ، قال ابن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ما خافهم عليه ، ولو خافهم لما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى . والذئب مأخوذ من تَذَاءَبَتِ الرِّيحُ إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

(١) (برع) من أروع ، والذي في تفسير ابن عطية والأوسى وأبي حيان عن مجاهد وقادة هو (بالنون) وجرم (لعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقادة «برع» بضم النون وكسر التاء ، و «لعب» بالنون والجرم) .  
(٢) في ع : البرارى . ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري ، وقال الأصمعي : إن تذابعت مشتق من الذئب ، لأن الذئب يفعل به عدوه ، وتغيب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامة قليل يخالف للقياس .

لأنه يبيح من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الدَّيْبُ » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة تخففها صارت ياء . ( وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ) أى مشغولون بالرعى .

قوله تعالى : ( قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الدَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ) أى جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . ( إِنَّا إِذَا نَلَّحِيسُرُونَ ) أى فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أحيانا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « نَلَّحِيسُرُونَ » جاهلون بحقه . وقيل : لعاجزون . قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ ) « أَنَّ » فى موضع نصب ؛ أى على أن يجعلوه فى غيابة الجب . قبل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظته ، وسأله إلى روبييل وقال : ياروبييل ! إنه صغير ، وتعلم بائى شفقى عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فأسقه ، وإن أعيا فأحمله ثم عجّل برده إلى . قال : فأخذوا يحملونه على أكافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يسيرهم ميلا ثم رجع ، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبييل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى على ، وأقرب الأخوة إلى ، فارحمى وأرحم ضعفى » فطمه لطمه شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعمل أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتملق بأخيه يهوذا وقال : يا أنى ! أرحم ضعفى وعجزى وحدائى سنى ، وأرحم قلب أبىك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناهيتهم وصيته ونقضتم عهده ؛ ففرق قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمت حيا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبي إلى أبيه ، ونعاهذه

(١) أعيا الرجل فى المشى : كَلَّ .

ألا يحدث والده بشئ مما جرى أبداً ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك  
المكانة عند يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فها هنا هذا  
الجبّ الموحيش القفر ، الذى هو مأوى الحيات والحوام فالقوه فيه ، فإن أصيب بشئ من ذلك  
فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه ، وإن انفلت على أيدي سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو  
المراد ؛ فجمع رأيهم على ذلك ؛ فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ  
فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ ﴾ وجواب « لسا » محذوف ؛ أى فلما ذهبوا به واجمعوا على طرحه في الجب  
عظمت فتنتهم . وقيل : جواب « لسا » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل :  
التقدير فلما ذهبوا به من عند أبيهم واجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها ، هذا  
على مذهب البصريين ؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب . « أوحينا » والواو مقحمة ، والواو  
عندهم تزد مع لسا وحتى ؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا <sup>(١)</sup> » أى فتحت ،  
وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ <sup>(٢)</sup> » أى فار . قال امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَالتَّحْيَى <sup>(٣)</sup> .

أى التحي ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ نَادَيْنَاهُ . وَفِي قَوْلِهِ :  
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته في ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة :  
أعطاه الله النبوة وهو في الجبّ على حجر مرتفع عن الماء . وقال الكلبي : ألقى في الجبّ وهو  
ابن ثمانى عشرة سنة ، فما كان صغيراً ؛ ومن قال كان صغيراً فلا يبعد في العقل أن يتنبا الصغير  
ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ <sup>(٤)</sup> » . وقيل : كان  
منما ، والأقول أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَتَنْبِتْنَهُمْ بِأَرْضِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم  
ويؤنبهم على ما صنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه في الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيراً له  
بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ؛ فعلى هذا [ يكون ] الوحى قبل إلقائه

(١) الصحيح أن الراوى في هذه الآية ليس زائدا وإنما هو محال مع تقديره ذلك لإفادة أن أهل الجنة هيا الله  
لم ما يزيد سرورهم بخلاف أهل النار فتحت لهم عند حضورهم زيادة في حشرتهم . راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ و ١٠٤

(٢) راجع ج ٩ ص ٣٠ . (٣) تمام البيت . بنا بطن غيب ذى قفاف مفقود .

(٥) من ع .

(٤) راجع ج ١٠ ص ١٣٣ .

في الحبّ إنذارا له . ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره ما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيعرفهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . وبما ذكر من قصته إذ ألقى في الحبّ — ما ذكره السدي وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر ، تعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه وزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردّوا على قيصي أنوارى به في هذا الحبّ ، فإن متّ كان كفتي ، وإن عشت أوارى به عورتى ؛ فقالوا : أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إني لم أر شيئا ، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألغوه بإرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحبلى إرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عسدي ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعده على الصخرة سالما . وكان ذلك الحبّ مأوى الهواء ؛ فقام على الصخرة وجعل يبكي ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛ فأرادوا أن يرسخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين ألقى في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما ألقى في الحبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتي ، قالوا : وما هي ؟ قال : إذا اجتمعتم كلّمكم فأنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتي ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غربيا فاذكروا غربتي ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابي ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

(١) فع : أنوارى به وأستر عورتى .



يُكَنُّ، ثُمَّ عَلِمَهُ فَقَالَ : قُلِ اللَّهُمَّ يَا مُؤْنِسَ كُلِّ غَرِيبٍ، وَيَا صَاحِبَ كُلِّ وَحِيدٍ، وَيَا مُجَابِ  
 كُلِّ خَائِفٍ، وَيَا كَاشِفَ كُلِّ كَرْبَةٍ، وَيَا عَالِمَ كُلِّ نَجْوَى، وَيَا مُنْتَهَى كُلِّ شَكْوَى، وَيَا حَاضِرَ  
 كُلِّ مَلَأٍ، يَا حَيَّ يَا قَيُّوْمُ ! أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْذِفَ رَجَاءَكَ فِي قَلْبِي، حَتَّى لَا يَكُونَ لِي هَمٌّ وَلَا شُغْلٌ  
 غَيْرُكَ، وَأَنْ تَجْعَلَ لِي مِنْ أَمْرِي فَرْجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ :  
 اٰمَنَّا ! نَسْمَعُ صَوْتًا وَدَعَاءًا، الصَّوْتُ صَوْتُ صَبِيٍّ، وَالدَّعَاءُ دَعَاءُ نَبِيٍّ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ :  
 نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يُوسُفَ وَهُوَ فِي الْجَبِّ فَقَالَ لَهُ : أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا أَنْتَ  
 قَاتِلْتَنِ عَجَلِ اللَّهِ لَكَ خُرُوجُكَ مِنْ هَذَا الْجَبِّ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ! فَقَالَ لَهُ : قُلْ يَا صَانِعَ كُلِّ  
 مَصْنُوعٍ، وَيَا جَابِرَ كُلِّ كَسِيرٍ، وَيَا شَاهِدَ كُلِّ نَجْوَى، وَيَا حَاضِرَ كُلِّ مَلَأٍ، وَيَا مُفْتَزِحَ كُلِّ  
 كَرْبَةٍ، وَيَا صَاحِبَ كُلِّ غَرِيبٍ، وَيَا مُؤْنِسَ كُلِّ وَحِيدٍ، أَبْقِنِي بِالْفَرْجِ وَالرَّجَاءِ، وَأَقْذِفْ رَجَاءَكَ  
 فِي قَلْبِي حَتَّى لَا أَرْجُو أَحَدًا سِوَاكَ، فَفَرَدَّهَا يُوسُفُ فِي لَيْلَتِهِ مَرَارًا، فَانْتَرَجَهُ اللَّهُ فِي صَبِيحَةِ  
 يَوْمِهِ ذَلِكَ مِنَ الْجَبِّ .

قوله تعالى : وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١١٦﴾

فيه مستثلاث :

الأولى - قوله تعالى : ( وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً ) أى ليلا ، وهو ظرف يكون في موضع  
 الحال ، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة  
 بالليل ، فإن الحياء في العيين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلاجج في الاعتذار ؛ فروى أن  
 يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى في الغم شيء ؟ قالوا : لا . قال :  
 فآين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قبضه ؟ على  
 ما يأتي بيانه [ إن شاء الله ] . وقال السدي وابن حبان : إنه لما قالوا أكله الذئب خرمغشيا  
 عليه ، فافاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده  
 على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس ، ولم يتحرك له عرق ؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من  
 ديان يوم الدين ! ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يبق يعقوب إلا يبرد السحر ، فافاق ورأسه  
 (١) منع .

في حجر روبيل ؟ فقال : يا روبيل ! ألم آتتك على ولدي ؟ ألم أعهد إليك عهداً ؟ فقال : يا أبت ! كُفَّ عني بكاءك أخبرك ؟ فكفَّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ » .

الثانية - قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إِذَا أَشْبَكَتْ دُمُوعٌ فِي حُدُودِ \* تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

قوله تعالى : قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٢٧﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « نَسْتَقِيقُ » نفعل ، من المسابقة . وقيل : أى نَتَضِلُّ ؛ وكذا في قراءة عبد الله « إِنَّا ذَهَبْنَا نَتَضِلُّ » وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج . وقال الأزهري : النَّضَالُ فِي السَّهَامِ ، وَالرَّهَانُ فِي الْخَيْلِ ، وَالْمُسَابَقَةُ تَجْمَعُهُمَا . قال القشيري أبو نصر : « نَسْتَقِيقُ » أى في الزمى ، أو على الفرس ؛ أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو ، لأنه الآلة في قتال العدو ، ودفع الذنب عن الأغنام . وقال السدي وابن حبان : « نَسْتَقِيقُ » نشد جرياً لئلا أسبق . قال ابن العربي : المسابقة شريعة في الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ؛ وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبجيلة ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها ؛ فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ؛ فقال لها : « هذه بتلك » .

قلت : وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً رجعوا من ذي قرد إلى المدينة فسبقه سلمة ؛  
خرجه مسلم .

(١) ذي قرد : موضع قريب من المدينة أغاروا فيه على لقاح رسول الله عليه الصلاة والسلام فغزاهم .

الثانية — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التي قد أُخْبِرَتْ [من الحَقِيَاءِ<sup>(١)</sup>] وكان أمدها ثِيْبَةً<sup>(٢)</sup> الوداع، وسابق بين الخليل التي لم تُضْمَرْ من الثِيْبَةِ إلى مسجد بني زُرَيْق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها، وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني — أن تكون الخليل متساوية الأحوال. الثالث — ألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد وغاية واحدة. والليل التي يجب أن تُضْمَرَ ويسابق عليها، وتقام هذه السُنّة فيها هي الخليل المعتدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة — وأما المسابقة بالنصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فزلنا متزلا فينا من يصلح خيابه، ومنا من يَنْضِل، وذكر الحديث. وخرّج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا سَبَقَ<sup>(٣)</sup> إلا في نَصْل أو خُف أو حافر». وثبت ذكر النصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي، وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العَضْبَاء لا تُسَبَق — قال حميد: أولا تكاد تُسَبَق — بقاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

الرابعة — أجمع المسلمون على أن السَبَق لا يجوز على وجه الزهان إلا في الخلف والحافر والنصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَبَق فيها قار. وقد زاد أبو البختري

- (١) تضمير الخليل: هو أن يظا هر عليها باللفظ حتى تسمن، ثم لا تعلق إلا قونا الخلف. وقيل: نشد عليها سردها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهاها ويشند لها، ويكون ذلك لنزول أو سباق.
- (١) الزيادة عن (موطأ مالك) — والحَقِيَاء (بالد و بقصر): موضع بالمدينة بينه وبين ثِيْبَةِ الوداع ستة أميال أرسبية.
- (٢) الثِيْبَةُ في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثِيْبَةُ الوداع مثمرة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زُرَيْق ميل.
- (٣) «لا سَبَق»: هو بفتح الباء، ما يجعل للسابق على سبقه من المال؛ وبالسكون مصدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يجعل أحد المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة. (٤) في قوله: «اللباء».

القاضي في حديث الخفّ والحافر والتّصل « أو جناح » وهي لفظة وضعها للرشيد ، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سَبَقَ إلا في الخيل والرمي ، لأنه قوّة على أهل الحرب ؛ قال : وسَبَقَ الخيل أحبّ إلينا من سَبَقِ الرمي . وظاهر الحديث يسوّى بين السَّبَقِ على النُّجُبِ والسَّبَقِ على الخيل . وقد منع بعض العلماء الزّهان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها . وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تُؤوّل قوله <sup>(١)</sup> ؛ لأنّ حمله على العموم [ في كل شيء ] <sup>(١)</sup> يؤدّي إلى إجازة القمار ، وهو محزم بانفراق .

الخامسة — لا يجوز السَّبَقُ في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم ، كما ذكرنا ، وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَقُ فيه إلا بغاية معلومة ورشّ معلوم ، ونوع من الإصابة ؛ مشروط خَسَقًا أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سَبَقُ يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوعاً فيجعل للسابق شيئاً معلوماً ؛ فمن سبق أخذه . وسَبَقُ يخرج أحدهم المتسابقين دون صاحبه ، فإن سبقه صاحبه أخذه ، وإن سبق هو صاحبه أخذه ؛ وحسن أن يفضيه في الوجه الذي أخرجه له ، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسَّبَقُ الثالث — اختاف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرج صاحبه ، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه ؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخل بينهما محلاً لا يأمن أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحلّ أحرز السَّبَقَين جميعاً وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه ، ولا شيء للمحلّ فيه ، ولا شيء عليه . وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو علي بن خيران — من أصحاب الشافعي — : وحكم الفرس المحلّ أن يكون مجهولاً جريه ؛ وسمى محلاً لأنه يحلّل السَّبَقَ للمتسابقين أوّلُهُ . وأتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّ واشتراط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قمار ، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

(١) في عرك وروى : تؤول عليه . (٢) غسق السهم وشرق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها .

(٣) في ع : السبق

عليه وسلم قال : ” من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يامن أن يسبق فليس يقار ومن أدخله وهو يامن أن يسبق فهو قار “ . وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال : ليس يرهان الخيل بامن إذا دخل فيها محلل ، فإن سبق أخذ السبق ، وإن سبق لم يكن عليه شيء ؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم . واختلف في ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلل في الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة — ولا يعمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتمل ؛ ولو ركبها أربابها كان أولى ؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السبق أن يسبق بالهادى أو بعضه ، أو بالكفّل أو بعضه . والسبق من الرماة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى أبو بكر وثلاث عمر ؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعنى أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصّلوان موضع العجز . قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عند ثيابنا وأقمشتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وأخاف أن يأكله الذئب » أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا ؛ قاله المبرد وآبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ في قولنا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر له منهم من قوة التهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما أتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقنا ، ولاهتمنا في هذه القضية ، لشدة محبتك في يوسف ؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما .

(١) الهادى : المتى تقدمه ؛ والبع (هواد) .



قوله تعالى : وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِهِ يَدِيمُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ  
 أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾  
 قوله تعالى : ( وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ يَدِيمُ كَذِبٌ ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَدِيمُ كَذِبٌ » قال مجاهد : كان دم نخلة أو جمذى ذبحوه .  
 وقال قتادة : كان دم طيبة ؛ أى جاءوا على قَيْصِهِ بدم مكذوب فيه ، فوصف الدم بالمصدر ،  
 فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » والفاعل والمفعول قد يسميان  
 بالمصدر ، يقال : هذا ضَرْبُ الأمير ، أى مضروب به ؛ وماء سَكَبَ أى مسكوب ، وماء غُور  
 أى غائر ، ورجل عَدَلَ أى عادل .

وقرأ الحسن وعاشية : « يَدِيمُ كَذِبٌ » بالذال غير المعجمة ، أى بدم طرى ؛ يقال  
 للدم الطرى الكذب . وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشعبي . والكذب أيضا البياض الذى يخرج  
 فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر  
 من جهة اختلاف اللونين .

الثانية — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم  
 قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنْيَبِ (٢) ؛ إذ لا يمكن أفتراس  
 الذئب ليوسف وهو لا لبس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه  
 السلام القميص فلم يجد فيه نرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا  
 الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن  
 سِمَاك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم نخلة . وروى سفيان عن سِمَاك  
 عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق  
 القميص . وحكى الماوردى أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ،  
 وحين قُدَّ قَيْصِهِ من دبر ، وحين أُلْقِيَ على وجه أبيه فارتدت بصيرا .

(١) ف : أو نحوه . (٢) ف : التخريق .

قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قد ،  
وغير القميص الذي أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذي قد هو الذي أتى به فارتد  
بصيرا ، على ما يأتي بيانه آخر السورة . إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص  
قتلوه؛ فاختلف قولهم ، فأتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله  
لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ؛ وتزعمون أن اللصوص  
قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وما أنت  
بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » عن الحسن وغيره ؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمنا .

الثالثة — استدلت الفقهاء بهذه الآية في أعمال الأمارات في مسائل من الفقه  
كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدلت على كذبهم بصحة القميص ؛  
وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فارتجح منها قضي  
بجانب الترجيح ، وهي قوة التهمة ؛ ولا خلاف بالحكم بها ، قاله ابن العربي .  
قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً قَصِيرًا جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى أن يعقوب لما قالوا له : « فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ » قال لهم : ألم يترك الذئب  
له عضوا فتأتوني به أستانس به ؟ ! ألم يترك لي<sup>(١)</sup> ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بل ! هذا قميصه  
ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » فبكى يعقوب عند ذلك  
وقال لبنيه : أروني قميصه ، فأروه فشموه وقبله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا ،  
فقال : والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالיום ذنبا أحكم منه ؛ أكل أبي واختلسه من  
قميصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم  
كالغضب بما كيا حزينا وقال : يا معشر ولدي ! دلوني على ولدي ؛ فإن كان حيا رددته إلى ،  
وإن كان ميتا كفته ودفنته ، فقبل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أين كيف يكذبنا  
في مقاتلتنا ! تعالوا نخرجه من الحب ونقطعه عضوا عضوا ، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

(١) ف : ع : له .

في مقالنا ويقطع يأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعنا من هذا فاعالوا نصطد له ذنباً ، قال : فاصطادوا ذنباً ولطخوه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذنب الذي يحل بأغنامتنا ويفترسها ، ولعله الذي أبلغنا بأخينا لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتَبَصَّصَ له الذنب ، فأقبل يدنو<sup>(١)</sup> [منه] ويعقوب يقول له : آدن آدن ، حتى ألقى خذه بخذه فقال له يعقوب : أيها الذنب ! لم بلغتني بولدي وأورثتني حزنا طويلا ؟ ثم قال اللهم أنطقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والذي أصطفاك نبيا ما أكلت لحمه ، ولا مزقت جلده ، ولا نتفت شعرة من شعراته ، والله ! ما لي بولدك عهد ، وإنما أنا ذنب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقد ، فلا أدري أحي هو أم ميت ، فاصطادني أولادك وأوثقوني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، والله ! لا أقت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أنيتم بالحجة على أنفسكم ؛ هذا ذنب بهم خرج يتبع ذمام أخيه ، وأنتم ضيعتم أحاكم ، وقد علمت أن الذنب برئ مما جئتم به . ( بَلْ سَوَّاتْ ) أى زينت . ( لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ) غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) وهى :

الثانية — قال الزجاج : أى فشأنى والذي أعتقد صبر جميل . وقال قُطْرُب : أى فصبرى صبر جميل . وقيل : أى فصبر جميل أولى بى ؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف . ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال : " هو الذى لا شكوى معه " . وسيأتى له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال : وكذا قرأ الأشهب العقيلي ، قال وكذا في مصحف أنس وأبي صالح . قال المبرد : « فصبر جميل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل ؛ قال : وإنما النصب على المصدر ، أى فلأصبرن صبرا جميلا ؛ قال :

(٢) في ذلك ور : بفعده .

(١) منع وكوى .

شَكَاَ إِلَى جَمَلٍ طَوَّلَ السَّرَى • صَبْرًا جَمِيلًا فَكَلَانًا مُبْتَلًى<sup>(۱)</sup>

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى • وقيل : المعنى لا أعاشركم على كتابة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفى هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم • وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقه ؛ فقبل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحران ؛ فأوحى الله إليه أنشكرونى يا يعقوب ؟ ! قال : يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفرلى • (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ) ابتداء وخبر • (عَلَى مَا تَصِفُونَ) أى على احتمال ما تصفون من الكذب •

الثالثة — قال ابن أبى رفاعه : ينبغي لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبى ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكَّا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنا ؛ ثم قالوا له : « إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَيْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » فلم يصب •

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْلَاهُ قَالَ يُبَشِّرَنَّ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعةٍ<sup>(۲)</sup> وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) أى رفقة مازة يسرون من الشام إلى مصر فأخطلوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب ، وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للزراعة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحا فغذب حين أتى فيه يوسف • (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) فذكر هل المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » • والوارد الذى يرد الماء يستق للقوم ؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دعر ،<sup>(۳)</sup>

(۱) ويرى (صبر جميل) فى البيت ، ويحمل على إضمار مبتدأ أرخبر • ويرى (صبرا جميل) على نداء الجمل •

(۲) راجع ص ۲۴۴ من هذا الجزء • (۳) دعر : هو بالذال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس •

من العرب العاربة . ﴿ فَأَدَّتْ دَوَّهَ ﴾ أى أرسله ؛ يقال : أدى دلوه إذا أرسلها يملأها ، ودلأها أى أخرجها : عن الأصمعي وغيره . ودلا — من ذات الواو — بدلوا دلوها ، أى جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما نقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ، اتباعا للمستقبل . وجمع دلو في أقل العدد أدلى فإذا كثرت قلت : دلى ودلى ؛ فقلت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : ” فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شطر الحسن “ . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، ضخ العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، نحيف البطن ، صغير السرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كشمس النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجلال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دعر قال : « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » . هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبى إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجوز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما — اسم الغلام ، والثاني -- [معناه] يا أيها البشرى هذا حبيبي وأوانك . قال قتادة والسدي : لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدي : نادى رجلا اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتى بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عقبة بن أبى معيط ، وبعده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أُتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية



ابن خلف ۛ قاله النحاس . والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ۛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما نقول : يا عجب ! أى يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ۛ وهذا مذهب سيبويه ، وكذا قال السهيلي . وقيل : هو كما نقول : واسروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار : وهذا أصح ۛ لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ۛ وعلى هذا يكون « بُشِّرَآى » فى موضع نصب ، لأنه نداء مضاف ۛ ومعنى النداء هاهنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى ۛ وعلى قول السدى يكون فى موضع رفع كما نقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصيبا كقولك : يا رجلا ، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم يتون « بُشِّرَى » لأنه لا ينصرف . (وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً) الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ۛ فما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل : عن الوارد وأصحابه . « بِضَاعَةً » نصب على الحال . قال مجاهد : أسره مالك بن دُعْرٍ وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الشام أو أدل هذا الماء إلى مصر ۛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة . وقال ابن عباس : أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الحب ۛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أقيم ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تقول لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك ۛ فقال : أنا أقولكم بالعبودية ، فاقبلتم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لإخوتك بالعبودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك ۛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكنتم يوسف شانه مخافة أن يقتله إخوته ۛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هو تربى فى مجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأذب بأدابنا ۛ فقال : ما تقول يا غلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى مجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ۛ فقال مالك : إن يمتنوه منى اشتريته منك ۛ فباعوه منه ۛ فذلك :

قوله تعالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ

الزَّاهِدِينَ ﴿٢٢﴾

(٢) فى ع : اشتريته منهم . أى على الاطلاق .

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٢ .

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَشَرَّوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى اشتريت ، وشريت بمعنى بعت لغة ، قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي \* مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهُ

أى بعت . وقال آخر :

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتْ الْعَيْنُ عَبْرَةً \* وَفِي الصَّدْرِ حُرَازٌ مِنَ اللُّؤْمِ حَامِرٌ <sup>(٢)</sup>

﴿ يَتَخَنُّ بِحَيْسٍ ﴾ أى نقص ؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بجن مبخوس ، أى منقوص . ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلق وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الحب فأخبر إخوته بخأوه و باعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعزفون الخبر ، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بَحْسٍ » ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدى وابن عطاء : « بَحْسٍ » حرام . وقال ابن العربى : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلق وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا ؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطوا عنه ثمنًا وإن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدى وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشعبي : قليل . وقال ابن حبان : زُف . وعن ابن عباس وأبن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ وقاله قتادة والسدى . وقال أبو العالية

(١) هو يزيد بن مغرغ الحميرى ، و (برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشياخ ، قاله في رجل باع قومه من رجل . وسامز : عامر ، وقيل : أى مض محرق . ويرى : من الوجد . (اللسان) .  
(٣) فى ع و ك و د : وقالوا . (٤) فى ع و ك و دى : وافئة كاملة .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما ، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمن ؛ وقاله مجاهد .  
وقال عكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « نجس » من نعت  
« ثمن » . ( دراهم ) على البديل والتفسير له . ويقال : دراهم على أنه جمع درهم ، وقد  
يكون اسما للجمع عند سبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مذ الكسرة فصارت ياء ، وليس  
هذا مثل مذ المقصور ؛ لأن مذ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره . وأنشد  
التحويون :

تَنَسَّى يَدَاها الحَصَى في كُلِّ هاجِرَةٍ \* نَفَى الدَّرَاهِمَ تَنَقُّدُ الصَّبَارِيفِ<sup>(١)</sup>  
(مَعْدُودَةٍ) نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم عدلا وزنا بوزن . وقيل :  
هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون  
ما [ كان ] دون الأوقية ، وهي أربعون درهما .

الثانية — قال القاضي ابن العربي : وأصل التقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم :  
" لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى " .  
والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها العد<sup>(٢)</sup> تخفيفا عن  
الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لحاز بيع بعضها ببعض  
عدلا إذا لم يكن بها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك  
كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدم .

الثالثة — وأختلف العلماء في الدراهم والدنانير هل نتمين أم لا ؟ وقد اختلفت  
الرواية في ذلك عن مالك : فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتمين ، وهو الظاهر من قول  
مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب ابن القاسم إلى أنها نتمين ، وحكى عن الثوري ؛ وبه  
قال الشافعي . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا نتمين فإذا قال : بتلك هذه الدنانير بهذه

(١) البيت للفردق ؛ وصف ناقة سريعة السير في الجوارح ، فتنبه خروج الحمى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم  
عن الأصابع إذا نفذت . (٢) في عوى : بوزن . (٣) من عوى : عوى .  
(٤) في عوى : عوى .

الدرهم تعلقت الدنيا بذمة صاحبها، والدرهم بذمة صاحبها؛ ولو تعينت ثم تافت لم يتعلق بذمتها شيء، وبطل المقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعة — روى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في القيسط أنه حر، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل : السبارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غيبطا، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله، ولا عند السبارة لقول الأخوة إنه عبد أبي منا — والزهد قلة الرغبة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى .

السادسة — في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازما؛ ولهذا قال مالك : لو باع ذرة ذات خطر عظيم ب درهم ثم قال لم أعلم أنها ذرة وحسبتها تخشبة<sup>(١)</sup> لزمه البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أي في حسنه؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواعي نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزله عند الله تعالى . وحكى سيويه والكسائي : زهدت وزهدت بكسر الماء وفتحها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَرُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(١) المخشبة : خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ؛ إذ لم يكن ذلك عقداً ، مثل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ »<sup>(۱)</sup> . وقيل : إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء ، بخفى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضحاك : هذا الذي اشتراه ملك مصر ، ولقبه العزيز . السهيلي : وأسمه قطاير . وقال ابن إسحاق : إطفير بن رويح اشتراه لامرأته راعيل ؛ ذكره المسوردي . وقيل : كان اسمها زليخاء . وكان الله أنبي محبة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ؛ ذكره القشيري . وقد ذكر الفوائن في أسمها التعلبي وغيره . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطير وزير ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان ، وهو رجل من العالقة . وقيل : هو فرعون موسى ؛ نقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعين سنة . وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتي في « غافر »<sup>(۲)</sup> . وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسف على خزان الملك ؛ واشترى يوسف من مالك بن دعر بعشرين دينارا ، وزاده حلة ونملين . وقيل : اشتراه من أهل الزففة . وقيل : تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئاً وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فابتاعه قطاير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبه . وقال وهب أيضاً وغيره : ولما اشترى مالك بن دعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً : « هذا ما اشترى مالك بن دعر من بني يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً ، وقد شرطوا له أنه أبقي ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيداً مسلسلاً ، وأعطاهم على ذلك عهد الله . قال : فودعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذلقوني ، رحمكم الله وإن لم ترحموني ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عبيطاً لشدة هذا التوديع ، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء ، مقيداً مكبلاً مسلسلاً ، فتر على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمه — وقد كان وكل به أسود يحرسه ففعل الأسود — فالتى يوسف نفسه على قبر أمه فجعل يتخوَّع

(۱) راجع ج ۱ ص ۲۱ . (۲) راجع ج ۱ ص ۱۵ ص ۳۱۲ . (۳) الدم البسيط : الطرى .



ويعتق القبر ويضطرب ويقول : يا أماء ! أرفعي رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولاً فترقوا بني وبين والدي ، فأسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين ، فتفقدته الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره ، فإذا هو بياض على قبر ، فأمله فإذا هو إباء ، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضرباً وجيعاً ، فقال له : لا تفعل ! والله ما هربت ولا أبقث وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودعها ، ولن أرجع إلى ما تكهون ، فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء ، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ، فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آباءي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني ، فضيحت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غصص صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها ؟ قال : تثبت يا جبريل ، فإن الله حليم لا يعجل ، فاضرب الأرض بجناحه فأطلمت ، وارتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً ، فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثاً ؟ — فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قط مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه ، ولا أشك أنه دعا علينا ، فقال له : ما أردت إلا هلاكاً ! آيتنا به ، فأتاه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمتك بغفاءنا ما رأيت ، فإن كنت تقنع فاقنع ممن شئت ، وإن كنت تعفو فهو الظن بك ، قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني ، فانجلت الغبرة ، وظهرت الشمس ، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل التاجر يزوره بالهدايا والعشي ويكرمه ، حتى وصل إلى مصر فاعتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جماله ، ودخل به البلد نهرا فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطيفير وزير الملك ، قاله آبن عباس على ما تقدم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض ، فلك بعده قابوس وكان كافرا ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فآبى . ( أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ) أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ، وهو

ماخوذ من نوى بالمكان أى أقام به ؛ وقد تقدم فى « آل عمران »<sup>(۱)</sup> وغيره . (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ . (أَوْ تَخْذُهُ وَلَدًا) قال ابن عباس : كان حصورًا لا يولد له ، وكذا قال ابن أسحق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف قال « أَوْ تَخْذُهُ وَلَدًا » وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تناقض ؟ قيل له : يمتقه ثم يتخذه ولداً بالتبني ؛ وكان التبنى فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام ، على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب »<sup>(۲)</sup> . إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة ثلاثة ؛ العزيز حين نفزس فى يوسف فقال : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ تَخْذُهُ وَلَدًا » ، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى « أَسْتَأْجِرُهُ إِنْ خَيْرَ مِنْ أَسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ » ، وأبو بكر حين استخاف عمر . قال ابن العسرى : عجبا للفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر »<sup>(۳)</sup> وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن الصديق إنما ولى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها ، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى « القصص »<sup>(۴)</sup> . وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الحب فكذلك مكنا له ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . (وَلِنَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : « وَبِعَلِّمَكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » . وقيل : المعنى مكناه لنوحى إليه بكلام مناء ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أى لا يغلب الله شيء ، بل هو الغالب على أمر

(۱) راجع ج ۴ ص ۲۳۳ .

(۲) راجع ج ۱۴ ص ۱۱۸ فا بعد بهد و ص ۱۸۸ فا بعد .

(۳) راجع ج ۱۰ ص ۴۲ فا بعد .

(۴) راجع ج ۱۳ ص ۲۷۱ .

نفسه فيما يريد أن يقول له : كُنْ قَيِّمُونَ . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أي الله غالب على أمر يوسف يذره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيدٌ كائد . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطالعون على غيبه . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطْلَع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء في هذه الآية : « وَاللَّهِ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا وسجدا بين يديه ، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وأفكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة ، فقال : « يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ » ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين ، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة ، وقالوا لأبيهم : « إِنَّا نَكُنَّا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقهقهة [فغلب أمر الله] فلم يخدع ، وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً » ثم آحطوا في أن تزول محبة من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه ، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن آتدرته بالكلام غلبته ، فغلب أمر الله حتى قال العزيز : « أَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » ، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساق فغلب أمر الله ففسى الساق ، وليث يوسف في السجن يضع سنين . قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ (١) « أَشُدُّ » عند سبويه جمع ، واحده شِدَّة . وقال الكسائي : واحده شُدٌّ كما قال الشاعر :

عَهْدِي بِهِ شِدَّةُ النَّهَارِ كَأَمَّا \* خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظِيمِ

(١) من ع ولد ووروى . (٢) هو عشرة العبي . وشدة النهار : أي أشده ، ببنى أعلاه . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، وروى : « اللبن » . والعظم عصارة شجر أو نبت يصعب به ، أو الوصمة ، وهي شجرة وزنها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون التفصيص بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشدُّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ابن انس : الأشدُّ بلوغ الحلم ؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و «الأنعام» مستوفى . ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحكم ، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أى وآتيناه علما بالحكم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحكم النبوة ، والعلم علم الدين ؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال : أوتى النبوة صبيا قال : لما بلغ أشده زدها فهما وعلمها . ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به عهد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض .

قوله تعالى : وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَشَٰوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَيَّرَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ قوله تعالى : ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يواقعها ، وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرود والرّاد طلب الكلاء ؛ وقيل : هى من رويد ؛ يقال : فلات يمشى رويدا ، أى برفق ؛ فالمرادة الرفق فى الطلب ؛ يقال

(٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ فابعد .

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤ فابعد .

في الرجل : راودها عن نفسها ، وفي المرأة راودته عن نفسه . والزود الثاني ؛ يقال : أرودني أمهلي . ﴿ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ غلق للكثير ، ولا يقال : غلق الباب ؛ وأغلق يقع للكثير والقليل ؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء :

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها \* حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعت إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ ﴾ أى هلم وأقبل وتعال ؛ ولا مصدر له ولا نصريف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجل ما فيها وأصحها إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وإيل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتُ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هَيْتُ لك » فقال : إنما أقرأ كما علمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنما أقرأ كما علمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبيرة والحسن وبجاهد وعكرمة ؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحزمة والكسائي . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا في القرآن ؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هلم وتعال . وقرأ ابن أبي إسحق النحوي « قَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وابن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهاء وضم التاء ؛ قال طرفة :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما \* قال داغ من العشرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فهبن مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثاب « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وابن عباس وبجاهد وعكرمة : « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ابن عامر وأهل الشام : « وَقَالَتْ هَيْتُ » بكسر الهاء وبالهزمة وبفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هَيْتُ لَكَ » بفتح التاء لالتقاء الساكنين ، لأنه صوت نحومة وصمة يجب ألا يعرب ،



والفتح خفيف؛ لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف؛ ومن كسر التاء فلأنما كسرهما لأن الأصل الكسر؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية؛ أى قالت: دعائى لك، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم؛ مثل حيثُ وبعدُ. وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ. والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِىءُ، مثل جاء يهيم؛ فيكون المعنى فى «هَيْتَ» أى حسنت هيتك، ويكون «لَكَ» من كلام آخر؛ كما نقول: لَكَ أعنى. ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأت لك؛ وكذلك من قرأ «هَيْتُ لَكَ». وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة — مُعَمَّرُ بْنُ الْمُثَنَّى: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ يكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو: باطل؛ جعلها من تهيأت! أذهب فاستمريض العرب حتى تنتهى إلى الذين هل تعرف أحدا يقول هذا؟! وقال الكسائى أيضا: لم تُحَكَّ «هَيْتُ» عن العرب. قال عكرمة: «هَيْتُ لَكَ» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت، وهى قراءة غير مرضية، لأنها لم تسمع فى العربية. قال النحاس: وهى جيدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرَّجُلِ يَهَاءُ وَيَبِيءُ هَيْأَةً فَهَاءُ يَهِيءُ، مثل جاء يهيم. وهَيْتُ مثل جئت. وكسر الهاء فى «هَيْت» لفظة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها. قال الزجاج: أجود القراءات «هَيْتُ» بفتح الهاء والتاء؛ قال طرفة:

ليس قسوى بالأبعدين إذا ما \* قال داغ من العشرة هَيْتُ  
بفتح الهاء والتاء.

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا  
إلى العراق وأهلِهِ \* سَلَّمَ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن: «هَيْت» كلمة بالسرمانية تدعوه إلى نفسها. وقال السدى: معناها بالقبطية هلم لك. قال أبو عبيد: كان الكسائى يقول: هى لفظة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعال؛ قال أبو عبيد: فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها (١) فى: النبغة.

لغتهم؛ وبه قال عكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوها بها إلى نفسها، وهي كلمة حَتَّ وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهري : يقال هَوَّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قد رَأَيْتُ أَنَّ الْكَرَى أَسْكَنًا \* لو كَانَتْ مَعْنِيًا بِهَا لَهَيْتَا

أى صاح؛ وقال آخر :

\* يَحْدُو بِهَا كُلُّ فِتْنٍ هَيَاتِ \*

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أى أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتنى إليه ؛ وهو مصدر، أى أعوذ بالله معاذاً ؛ فيحذف المفعول وينصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى أسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول : مررت بزيد مروّراً وعمرو أياً كبرورى بعمرو . ﴿ إِنَّهُ رَبِّى ﴾ أى هو سيّدى أكرمنى فلا أخونه ؛ قاله مجاهد وأبن إسحق والسدى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولانى بلطفه، فلا أركب ما حرّمه . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرّحم مسوّرى ربّى ؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شئ، يَسَلُّ مِنِّى قَبْرِى ؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظر إلى ربّى . قالت : يا يوسف ! أرفع بصرك فأنظر فى وجهى ، قال : إني أخاف العمى فى آخرى . قالت يا يوسف ! أدنو منك وتباعد منى ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربّى . قالت : يا يوسف ! القَيْطُونَ <sup>(١)</sup> [فرشته لك] فأدخل معى، قال : القَيْطُونَ لا يسترنى من ربّى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتى، قال : إذا يذهب من الجنة نصيبى ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها ؛ إلى أن هم بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمْلُنَ إلى يوسف مِثْلَ شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هبة النبوة ؛ فشغلت هيبتة كل من رآه عن حسنه . واختلف العلماء فى همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القَيْطُونَ : المتهدج ، أجمعى ، وقيل : بلفظ أهل مصر والبربر . (٢) منى .

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما هم ؛ وهذا لوجوب المعصية للأنبياء ؛ قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَنْصُرُ عَنْهُ الشُّرُوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذا في الكلام تقديم وتأخير ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه هم بها . قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله : « وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا » الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لم هم بها . وقال أحمد بن يحيى : أى همت زليخاء بالمعصية وكانت مصرة ، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به ؛ بين المهمتين فرق ، ذكر هذين القولين الهروى فى كتابه . قال جميل :

هَمَمْتُ بِهِمْ مِنْ بُيُوتِنَا لَوْ بَدَأَ • شَفِيتُ غَلِيلَاتِ الْهَوَى مِنْ قُوَادِيَا

آخر :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي • تَرَكْتُ عَلَى عَثَانِ تَبْكِي حَلَالَهُ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم . وقيل : هم بها تمنى زوجيتها . وقيل : هم بها أى بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها . وقيل : إن هم يوسف كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من أمراته ؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم ، فيما ذكر القشيري أبو نصر ، وأبن الأنبارى والنحاس والماوردى وغيرهم . قال ابن عباس : حلّ الهيمان وجلس منها مجلس الخائن ، وعنه : استلقت على قفاها وقعد بين رجلها يتزع ثيابه . وقال سعيد بن جبير : أطلق نكة سراويله . وقال مجاهد : حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين ، وجلس منها مجلس الرجل من أمراته . قال ابن عباس : ولما قال : « ذَلِكَ لَعَلَّمَنِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟! فقال عند ذلك : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » . قالوا : والاكتفاف في مثل هذه الحالة دال على الإخلاص ، وأعظم للثواب .

(۲) هذا هو الاثنى بالمعصوم دون سواء من المعاني .

(۱) ف : رأى البرهان برهان .

(۳) الهيمان شهاد السراويل .

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى اليكفل حسب ما يأتي بيانه في «ص»<sup>(١)</sup>  
 إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى  
 ما هم به ؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ»<sup>(٢)</sup> وجوابه لم يُتَنافَسُوا ؛ قال ابن عطية : روى  
 هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً  
 للذين يروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه  
 القرب من الذنب ، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفقرة إلى أن جلس بين  
 رجل زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال  
 أبو عبيد القاسم بن سلام : وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها ، وهم أعلم بالله  
 وبتأويل كتابه ، وأشد تعظيماً للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله  
 عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيهم بها ؛ ولكنه ذكرها ليلا تبتسوا من التوبة . قال الغزنوى :  
 مع أن لذة الأنبياء حكمة ؛ زيادة الوجل ، وشدة الحياء بالخل ، والتخلى عن عجب العمل ،  
 والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أمة رجاء أهل الزلل . قال القشيري - أبو نصر :  
 وقال قوم جرى من يوسف هم ، وكان ذلك [الهم]<sup>(٣)</sup> حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ؛  
 وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء  
 البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب  
 لا يؤخذ بما همس في النفس ؛ والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزماً مصمماً .

قلت : هذا قول حسن ؛ ومن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به في هذه  
 الآية إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان  
 كذلك فهو مؤمن قد أوتى حكماً وعلماً ، ويموز عليه الهم الذى هو إرادة الشئ دون مواقفته  
 وأن يستصحب الخاطر الردى على ما في ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت  
 فلا يميز عليه عندى إلا الهم الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شئ ، مما ذكر من حل تكته

(١) راجع ج ١٥ ص ٢١٨ ر ج ١١ ص ٣٢٧ (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٧٣ (٣) مع ذلك و .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة . وما روى من أنه قيل له : « تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من [ هذا <sup>(۱)</sup> ] التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون الهِم الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق، إذ لا قدرة للكف على دفعه؛ ويكون قوله : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » — إن كان من قول يوسف — أى من هذا الهِم، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » على ما تقدم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرض لأمرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفز منها؛ حكمة خص بها، وعملاً بمقتضى ما علمه الله . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال أرقبوه فإن عملها فأكتبوها له بنينا وإن تركها فأكتبوها له حسنة إنما تركها من جرأ » . وقال عليه السلام مخبراً عن ربه : « إذا هم عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة » فإن كان ما بهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به » وقد تقدم . قال ابن العربي : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، — وأى إمام — يعرف بآبن عطاء ! تكلم يوما على يوسف وأخبره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذا يوسف هم وماتم ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثم . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وانظر إلى فطنة العاقل في سؤاله ،

(۱) من ع . (۲) من جرى : أى من أجل ، وفي نسخة من صحيح مسلم « من جرى » .



وجواب العالم في اختصاره واستيفائه ؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تقرر عصمته وبرأته ببناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَبُ بْنُ عُمَانَ : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتافته امرأة فسامنته نفسها فامتنع عليها وذكرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك ؛ فخرج وتركها ، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذي هممتُ ، وأنت سليمان الذي لم تهتم ؟ ! فإن هذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال ؛ ولو قدرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو ؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصجبة لخيف عليه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [ « أن » في موضع رفع أى لولا رؤية برهان ربه ] <sup>(١)</sup> والجواب محذوف لعلم السامع ؛ أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور في القرآن ؛ فروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكّال بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستحي من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا في سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » <sup>(٢)</sup> . وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » <sup>(٣)</sup> وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودي يا يوسف ! أنت مكتوب في [ ديوان ] <sup>(٤)</sup> الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أنامله يتوعده فسكن ، وخرجت شهيوته من أنامله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبيرة وروى الأعمش عن مجاهد قال : حل سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له :

(١) من ع ، ك . (٢) في ع وك : على . (٣) راجع ج ١٠ ص ٢٥٣ .  
(٤) في ع : ومن . (٥) راجع ج ١٩ ص ٢٤٥ . (٦) من ع .

يا يوسف ! فوالى هاربا . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبیر قال : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، وتقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وأمتنع عن المعصية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كَذَلِكَ » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر آتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أى أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الشئ القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وآبن عامر « المخلصين » بكسر اللام ؛ وتاويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقر بن فتح اللام ، وتاويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلصا في طاعة الله تعالى ، مستخلصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْقِيَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ .

فيه مستثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ قالت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعاني ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا ، هى لرتقه إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج . « وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خلفه ؛ قبضت في أعلي قبضة فتخزق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السبق إلى الشيء ، ومنه السباق . والقَدَّ القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ، قال النابغة <sup>(١)</sup> :

تَقَدَّ السُّلُوكُ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ \* وَتَوَقَّدَ الصُّفَا ح نَارَ الْحَبَا حِبِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرَضًا . وقال المفضل بن حرب : قرأت في مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عَطَّ مِنْ دُبُرٍ » أى شُق . قال يعقوب : العَطَّ الشَّقُّ في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من « أَسَبَقًا » في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ، كما يقال : جاءني عبد الله في التثنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبد الله بإثبات الألف بغير همز ، يجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأول حرف مد ولين . ومنهم من يقول : عبد الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانية — في الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قد القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر انفرد به المسالكية في كتبهم ، وذلك أن القميص إذا جُذِبَ من خلف تَمَزَّقَ من تلك الجهة ، وإذا جُذِبَ من قدام تَمَزَّقَ من تلك الجهة ، وهذا <sup>(٢)</sup> هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَالْفَيَّا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أى وجدا العزيز عند الباب ، وعُنِيَ بالسيد الزوج ، والقبط يسمون الزوج سييدا . يقال : ألقاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجهها للحيالة وكادت <sup>(٣)</sup> ﴿ فَقَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أى زنى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابَ اللَّهِ ﴾ تقول : يضرب ضربا وجيعا . و « مَا جَزَاءُ » ابتداء ، وخبره « أَنْ يُسَجَّنَ » . « أَوْ عَذَابُ » عطف على موضع « أَنْ يُسَجَّنَ » لأن المعنى : إلا السجن . ويموز أو عذابا أيما بمعنى : أو يعذب عذابا أيما ؛ قاله الكسائي .

(١) يصف السيوف ، وقد تقدم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) في ع ر ك : في . (٣) كذا العبارة في الأصول وفي « البحر المحيط » ، ولم تقف على مادة (وارط

روالط ولاط) بمعنى (ألنى) في معاجم اللغة . (٤) من الكيد .

قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا  
 إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾  
 وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾  
 فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ  
 عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ  
 مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ( قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة في حبه — لأن من شان  
 المحب إتيان المحبوب — قال : « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها  
 وكذبا عليه . قال نُوفُ الشامي وغيره : كَانُ يوسف عليه السلام لم يَبَيِّنْ عن كشف القضية ،  
 فلما بَغَتْ به غضب فقال الحق .

الثانية — ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ) لأنهما لما تعارضا في القول أحتاج الملك إلى  
 شاهد ليعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ؛ لأنه  
 حكم منه وليس بشهادة . وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول — أنه طفل  
 في المهد تكلم ؛ قال السهيلي : وهو الصحيح ؛ للحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ،  
 وهو قوله : ” لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ “ وذكر فيهم شاهد يوسف . وقال القشيري  
 أبو نصر : قيل [ فيه ] : كان صبيا في المهد في الدار وهو ابن خالتها ؛ وروى سعيد بن جبیر  
 عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” تَكَلَّمْ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صَفَارٌ “ فذكر منهم  
 شاهد يوسف ؛ فهذا قول . الثاني — أن الشاهد قد القميص ؛ رواه ابن أبي نجيب  
 عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللفظ ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛  
 ( ١ ) ق : ع : الحسن . ( ٢ ) من ع .

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات ، وذلك كثير في أشعارها وكلامها ؛ ومن أحلام قول بعضهم : قال الحائط للوند لم تَسْقُني ؟ قال له : سَل من يَدُقني . إلا أن قول الله تعالى بعد « مِنْ أَهْلِهَا » يبطل أن يكون القميص . الثالث — أنه خَلَق من خلق الله تعالى ليس بلأنسي ولا بجني ؛ قاله مجاهد أيضا ، وهذا يردده قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِهَا » . الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت الأستبدار والخلابة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا بدري أيبكا كان قدام صاحبه ؛ فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف ؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدي . قال السدي : كان ابن عمها ؛ وروى عن ابن عباس ، وهو الصحيح في الباب ، والله أعلم . وروى عن ابن عباس — رواه [ عنه ] إسماعيل عن سيماء عن عكرمة — قال : كان رجلا ذا لحية . وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : كان من خاصة الملك . وقال عكرمة : لم يكن بصبي ، ولكن كان رجلا حكيما . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : كان رجلا . قال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك لحاء بهذه الدلالة ؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة ؛ وليس هذا بخالف للحديث ” تكلم أربعة وهم صفار “ منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صفيرا ليس بشيخ ؛ وفي هذا دليل آخر وهو : أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي .

قلت : قد روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأبن جبير وهلال بن يساف والضحاك أنه كان صبيا في المهدي ؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى

(١) في ع : سيماء .

(٢) من ع وى .

(٣) هو بالكسر وقد يفتح .



استدلال بالفتح بـ، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم. وسياق من تكلم في المهدي من الصبيان في سورة « البروج »<sup>(١)</sup> إن شاء الله.

الثالثة — إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلاً صغيراً فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأوامار كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلاً فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتعة بقاء قوم فادعوها، وأبست لهم بئنة فإن السلطان يتسلم لهم في ذلك؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم. وقال محمد في مناع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجل فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَبِيضُهُ قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل، لأن حروف الشرط ترد الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أي إن يعلم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم. «قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ» نفخ عن «كان» بالفعل الماضي؛ كما قال زهير:

«كان طوى كشفاً على مُسْتَكِنَةٍ • فلا هو أبدأها ولم يتقدم<sup>(٢)</sup>

وقرأ يحيى بن يعمر وأبن أبي إسحق «مِنْ قُبُلٍ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرٍ» قال الزجاج: يعملهما غابتين كقبْل وبعْد، كأنه قال: مِنْ قُبُلِهِ وَمِنْ دُبُرِهِ، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له. ويجوز «مِنْ قُبُلٍ» «ومن دُبُرٍ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه. وروى محبوب عن أبي عمرو «مِنْ قُبُلٍ» «ومن دُبُرٍ» مخففاً مجروران.

(٢) التلوم: التنظر للأمر ترديه.

(١) راجع ١٩ ص ٢٨٧

(٣) الكشح: الجنب، ويقال: ملوى كشحته حل كذا إذا أضمره. والمستكة: الحقد. ويرى: (دلم بجمعهم).

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُورٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها : « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدّم في « الأنفال » . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عَظِيمٌ » لعظم فتنتهن وأحتيالن في التخلص من ورطتهن . وقال مقاتل عن يحيى ابن أبي كثير عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ » وقال : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أى يا يوسف ، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأحد وأكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وَأَنْتِ ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا بما قبلك . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فقلب المذكر والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل : « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » (٣) « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِئِينَ » (٤) . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفري زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكنا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثانى — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وعفا عنها . (٥)

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَىٰ عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِّيْهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِعًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) راجع ج ٧ ص ٣٨٦ . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٨٠ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٢٠٧ .

(٤) راجع ج ١٨ ص ٢٠٤ . (٥) في ع و ك وى : حلم .

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٦١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوْدْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرُرٍ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ويقال : « نِسوة » بضم النون، وهي قراءة الأعمش والمفضل والسلمي، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة ، وقال نسوة ، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب ؛ وذلك أن القصة آنتشرت في أهل مصر فتحدث النساء . قيل : امرأة ساقى العزيز ، وأمرأة خبازه ، وأمرأة صاحب دوابه ، وأمرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب ؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ الفتي في كلام العرب الشاب ، والمرأة فتاة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه في شغافها ؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل تحت شغافها . وقال الحسن : الشَّغَفُ باطن القلب . السدى وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه ، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب ؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب ، والمعنى : وصل حبه إلى شغافها فغلب عليه ؛ قال النابغة :

وقد حال هم دون ذلك داخل \* دخول الشغاف بتبغيه الأصابع <sup>(٦٢)</sup>

وقد قيل : إن الشغاف داء ؛ وأنشد الأصمعي للرازي :

\* يتبعها وهي له شغاف \*

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن عبيد بن الحسن « شَغَفَهَا » بالعين غير معجمة ؛ قال ابن الأعرابي : معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهري : وشغفه الحب أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُغِفَ بكذا فهو مشغوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَغَفَهَا » قال : يظنها حباً . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب ؛

(١) في رواية : أبو عبيدة .

(٢) بنو أسابع المطيني ؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل في القواد ، حتى أصابه منه داء .

لأن شَافَ الجبال . أعاليها ؛ وقد شَغِفَ بذلك شُغفاً بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت امرئ القيس :

لَتَقْتَلَنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فؤَادَهَا \* كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوءَةُ<sup>(٢)</sup> الرَّجُلَ الطَّالِي<sup>(١)</sup>

قال : فشبهت لوعة الحبَّ وجَواه بذلك . ورُوي عن الشَّعْبِي أنه قال : الشَّغَفَ بالغين المعجمة حُبَّ ، والشَّغَفَ بالغين غير المعجمة جنونٌ . قال النحاس : وحكى « قد شَغَفَهَا » بكسر الغين ، ولا يعرف في كلام العرب إلا « شَغَفَهَا » بفتح الغين ، وكذا « شَغَفَهَا » أى تركها مشغوفة . وقال سعيد بن أبى عَرُوبَةَ عن الحسن : الشَّغَافَ حجاب القلب ، والشَّغَافَ سويداء القلب ، فلو واصل الحبَّ إلى الشَّغَاف لَمَاتَ ؛ وقال الحسن : ويقال إن الشَّغَافَ الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حُبَّه بقلها كاصقوك الجلدة بالقلب<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قتادة : « فَنَاهَا » وهو فتنى زوجها ، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك ، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال مقاتل عن أبى عثمان التَّهْدِي عن سلمان الفارسي قال : إن امرأة العزيز استوهبت زوجها يوسف فوهبه لها ، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتأخذ ولدًا ؛ قال : هو لك ؛ فربته حتى أَفْقَعَ وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتزير وتدعوه من وجه اللطف فعضمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بفيتن إياهما ، واحتياهن فى ذمها . وقيل : لأنها أطلعتن واستأمنتن فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكراً . وقوله : ﴿ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه ؛ فقال مجاهد عن ابن عباس : إن امرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعاماً فادع هؤلاء النسوة ؛ فقال لها : افعل ؛ فاتخذت طعاماً ، ثم تجددت لهن البيوت ؛ تجددت أى زينت ؛ والتجد ما يُجَدُّ

(١) فى والطبرى : أنقطنى . وهو الأشيء .  
(٢) المهنوءة : المطلبة بالفطران ، وإذا هنى البعير بالفطران يجد له لذة مع حرقه ، كحرقه الحوى مع لذته .  
(٣) فى ع رو : الكبد . وليس بصحيح .

به البيت من المتاع أى يُزِين، والجمع نُجُود عن أبى عبيد<sup>(١)</sup>، والتجديد التزيين؛ وأرسلت إليهن أن يحضرن طعامها، ولا تختلف منكن امرأة من سميت. قال وهب بن منبه: لئن كنّ أربعين امرأة بخن على كره منهن، وقد قال فيهن أمية بن أبى الصلت:

حتى إذا جئننا قسرا \* ومهدت لهن أنضادا وكبابا<sup>(٢)</sup>

ويروى: أنماطا. قال وهب بن منبه<sup>(٣)</sup>: بخن وأخذن مجالسهن. (وَأَعَدَّتْ لهن مَسَكًا) أى هيأت لهن مجالس يتكئن عليها. قال ابن جبير: فى كل مجلس جَم فيه عسل وأُتْرَج وسكّين حاد. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير «مَسَكًا» مخففا غير مهموز، والمُسْك هو الأُتْرَج بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد. روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المُسْك منقلا [هو] الطعام، والمُسْك مخففا [هو] الأُتْرَج؛ وقال الشاعر:

تَشْرَبُ الإِثْمُ بالصَّوْاجِ جَهَارًا \* وَتَرَى الْمُثُكَّ بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا

وقد تقول أزدُ شُوءَ الأُتْرَجَةِ المُثُكَّةِ قال الجوهري: المُثُك ما تُبقيه الخاتنة. وأصل المُثُك الزُّمَامُورِد<sup>(٤)</sup>. والمُسْكَاء من النساء التى لم تُخَفِّض<sup>(٥)</sup>. قال الفراء: حدثني شيخ من نفات أهل البصرة أن المُثُك مخففا الزُّمَامُورِد. وقال بعضهم: إنه الأُتْرَج؛ حكاه الأخفش. ابن زيد:

أُتْرَجًا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر:

فَظُنُّنَا بِنَعْمَةٍ وَأَتَسَكَّأْنَا \* وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةِ

أى أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: «وَأَعَدَّتْ» من العناد؛ وهو كل ما جعلته عُدَّةً لشيء. «مَسَكًا» أصح ما قيل فيه ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: مجلسا، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام مسكًا، مثل: «وَأَسَالِلُ الْقَرْيَةِ»؛ ودل على

(١) كذا فى الأصول: ولعل الصواب أبو عبيدة كما يؤخذ من اللسان. (٢) كذا البيت فى الأصول.

(٣) من ع. (٤) الزمأورد: الرقاق الملقوف بالحلم وغيره، أو هو شئ. شبه الأُتْرَج.

(٥) خفض الجارية: ختنها، وكذا العصى، والعرف أن الخفض لجارية خاصة والختان للعصى. (٦) هو جيل ابن معمر، والقلل جمع قلعة، والقلعة الحب العظيم. وقيل: الجرة الكبيرة. وقيل: الكوز الصغير. وقيل: غير ذلك.



هذا الحذف «وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا» لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقَطَّع بالسكاكين ؛ كذا قال في كتاب «إعراب القرآن» له . وقال في كتاب «معاني القرآن» <sup>(١)</sup> [ له ] : وروى معمر عن قتادة قال : «المتكأ» الطعام . وقيل : «المتكأ» كل ما أنكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صححت بذلك . وحكى الفُتَيْيُّ أنه يقال : أنكأنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل في «متكأ» «مونكأ» ، ومثله مُتَزَّن ومُتَعَّد ؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكتأت ، ويقال : أنكأ يتسكى أنكأه . (كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا) مفعولان ؛ وحكى الكسائي والفراء أن السكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعِيثٌ فِي السَّنَامِ غَدَاةٌ قُرَّةٌ \* بِسَكِّينٍ مُّوَنَّةٍ النَّصَابِ <sup>(٢)</sup>

الجوهري : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يُرَى نَاحِصًا فِيمَا بَدَأَ إِذَا خَلَا \* فَذَلِكَ سَكِّينٌ عَلَى الْحَاقِ حَادِقُ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : (وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ) بضم التاء لانتفاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تنقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل : إنها قالت لمن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك آدع لي إيلا فآدع يوسف ؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شدة ميثره ، وحسره عن ذراعيه ؛ فقالت لخادم : آدع لي إيلا ؛ أى آدع لي الرب ؛ وإيل بالعبرانية الرب ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يحيى ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما أتحدرا قالت لمن : أقطعن مامعكن . (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ؛ قاله وهب بن منبه . سعيد بن جبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن فاة فدهشن فيه ، وتحيرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن

(١) مع . (٢) حيث في السنام بالسكين أثر .

أنهن يقطعن الأُترج، وأختلف في معنى «أَكْبَرُهُ» فروى جَوَيْر عن الضحاك عن ابن عباس :  
 أعظمته وهَبْنَه ؛ وعنه أيضا أَمْنَيْنِ وَأَمْذَيْنِ مِنَ الدَّهْشِ ؛ وقال الشاعر :

إذا ما راينَ الفجَلِ من فوق قَارِيةِ \* صَهْلَيْنِ وَأَكْبَرَيْنِ الْمَسْنَى الْمَدْفَقَاً<sup>(٢)</sup>

وقال ابن سمان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أَمْذَيْنِ عَشَقَا ؛ وهب بن مُنبه : عشقته  
 حتى مات منهن عشرة في ذلك المجلس دَهْشَا وَحِيَةً وَوَجْدَاً بِيُوسُفَ . وقيل : معناه حُضْنُ  
 من الدَّهْشِ ؛ قاله قتادة ومقاتل والسُّدِّيُّ ؛ قال الشاعر :

ناتى النساءَ على أطهارهنَّ ولا \* نأتى النساءَ إذا أَكْبَرْنَ لِإِكْبَارَا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك في كلام العرب ، ولكنه يجوز أن يَكُنْ حُضْنُ  
 من شدة إعظامهن له ، وقد تفزع المرأة تنسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال  
 أَكْبَرَنه ، ولا يقال حُضْنَه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ؛ وأجاب الأزهري فقال : يجوز  
 أَكْبَرَت بمعنى حاضت ؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيْزِ الصغر إلى الكبر ؛  
 قال : والهاء في «أَكْبَرُهُ» يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ؛ وهذا مَرِيفٌ ، لأن  
 هاء الوقف تنسقط في الوصل ، وأمثل منه قول ابن الأنباري : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل ،  
 أى أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا ، بمعنى حُضْنُ حَيْضًا . وعلى قول ابن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف ؛  
 أى أعظمهن يوسف وأجللته .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل : خَدَشْنَهَا .  
 وروى ابن أبي نجيح [عن مجاهد] قال : حَزًّا بِالسَّكَيْنِ ، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس  
 قطعاً تَبَيَّنَ منه اليد ، إنما هو خَدَشٌ وَحَزٌّ ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خَدَشَ الإنسان  
 يده صاحبه قطع يده . وقال عكرمة : «أَيْدِيَهُنَّ» أَكْبَاهُهُنَّ ، وفيه بُعْدٌ . وقيل : أَنَامَلُوهُنَّ ؛  
 أى ما وجدن أَلَمًا في القطع والجرح ، أى لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطع يشير إلى الكثرة ،  
 فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عددهن .

(١) في هامش ع : معنى «أَكْبَرُهُ» أى عظمه ودعش من حسه . (٢) القارة : الجبل الصغير  
 المنقطع عن الجبال ، وقيل : الصخرة العظيمة ، وقيل غير ذلك . (٣) قال ابن عطية وقوله : «أَكْبَرُهُ» معناه  
 أعظمه واستولن جماله هذا قول الجمهور . وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أبيه عن جده : معناه حُضْنُ وَأَشَدُّ  
 نأتى النساء على أطهارهن ولا \* نأتى النساء إذا أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا  
 قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف ومعناه منكور والبيت مصنوع غثقي ؛ لذلك قال الطبري وغيره من المحققين :  
 ليس عبد الصمد من رواية المرحم رحمه الله . من هامش ع . (٤) من عرك .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . وروى الأصمعي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء . « وَقُلْنَا حَاشًا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل ، ومن حذفها جعل اللام في « لله » عوضا منها . وفيها أربع لغات ؛ يقال : حَاشَاكَ وَحَاشَا لَكَ وَحَاشَ لَكَ وَحَاشَا لَكَ . ويقال : حَاشَا زَيْدٌ وَحَاشَا زَيْدًا ؛ قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد ابن يزيد يقول : النصب أولى ؛ لأنه قد صح أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه ؛ وقد قال النابغة :

\* وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ <sup>(١)</sup>

وقال بعضهم : حَاشَ حرف ، وأَحَاشِي فعل . ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها . وحكى أبو زيد عن أعرابي : اللهم آغفر لي ولن يَسْمَعْ ، حاشا الشيطان وأنا الأصمعي ؛ فنصب بها . وقرأ الحسن « وَقُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ » بإسكان الشين ، وعنه أيضا « حاش الإله » . ابن مسعود وأبي : « حَاشَ اللَّهُ » بغير لام ، ومنه قول الشاعر <sup>(٢)</sup> :

حَاشَا ابْنِ قُوبَاءَ لِمَا بِهِ \* صَدَّانَا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتَمِ <sup>(٣)</sup>

قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية ، والحشَا بمعنى الناحية ، تقول : كنت في حشَا فلان أى في ناحيته ؛ فقولك : حاشا لزيد أى تَحَيُّ زَيْدٌ من هذا وتباعده عنه ، والاستثناء إخراج وتحيية عن جملة المذكورين . وقال أبو علي : هو فاعل من المحاشاة ؛ أى حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما قُورِفَ به ، أو من أن يكون بشرا ؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جر عند سيبويه ، وعلى ما قال المبرد وأبو علي فعل .

قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ قال الخليل وسيبويه : « ما » بمنزلة ليس ؛ تقول : ليس زيد قائما ، و « ما هذا بشرا » و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ <sup>(٤)</sup> » . وقال الكوفيون : لما حذف الباء

(١) صدر البيت :

\* وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يَشْبَهُهُ \*

وهو من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه . (٢) في ع و ك و و : سمع . (٣) كلام متور .

(٤) هو سيرة بن عمرو الأسدي ، وقيل : هو لجميع الأسدي ، واسمه منقذ بن الطاح . والملاحاة : اللوم . وفي ع :

ابن مردان . كذا في إحدى روايتي اللسان : أبي مروان . وفي ك و ي : ثروان .

(٥) راجع ج ١٧ ص ٢٧٢ .

نصبت؛ وشرح هذا — فإي قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فوضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذف الباء نصبت لتدلّ على محلها، قال : وهذا قول الفراء، قال : ولم تعمل « ما » شيئا؛ فالزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمر؛ لأن المعنى كالقمر ! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الخفض من لكاف؛ لأن الكاف تكون أسماء . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفراء أجاز نصّا ما بمنطلق زيد، وأنشد :

أَمَّا وَاللَّهِ أَن لَوْ كُنْتُ حُرًّا • وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَبْدُ

ومنع نصّا النصب؛ ولا نعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيد، وما إليك بقاصد عمرو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيد منطلق بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا :

أَتَيْمًا تَجْعَلُونِ إِلَى نَيْدَا • وَمَا تَمِّ لِيذَى حَسَبٍ يَدِيدَا

النَّد والتَّديد والتَّديدة المِثْل والتَّظِير . وحكى الكسائي أنها لغة تامة وتجد . وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين : قال أبو إسحق : وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفي مصحف حفصة رضى الله عنها « مَا هَذَا بِبَشَرٍ » ذكره الفَرَزْدِيُّ . قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر : وذكرت النسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو في صورة ملك؛ وقال الله تعالى : « أَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » والجمع بين الآيتين أن قولن : « حَاقَ اللَّهُ » تبرئة ليوسف عما رمت به امرأة العزيز من المراءدة، أى بعد يوسف عن هذا وقولن : « لله » أى لخوفه، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى : أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعل هذا لانتقاض . وقيل : المراد تزيينه عن مشابة البشر في الصورة، لغرض جماله . وقوله : « لله » تأكيد لهذا المعنى؛ فعل هذا المعنى قالت النسوة ذلك غنا منهن أن صورة الملك أحسن، وما يلفهن قوله (١) في ع : أجازا أيضا . (٢) في ع : إن يوسف أحسن صورة من البشر . (٣) راجع ج ٢٠ ص ١١٢ .

تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » فإنه من كتابنا . وقد ظن بعض الضمعة أن هذا القول لو كان ظنا باطلاً منهن لوجب على الله أن يرد عليهن ، ويبين كذبهن ، وهذا باطل ؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه ؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان ، وفي الحسن كأنه ملك ، أى لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة ؛ فهو بناء على ظن في أن صورة الملك أحسن ، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم .

(إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ) أى ما هذا إلا ملك ؛ وقال الشاعر :

فَلَسْتُ لِأَنْثَى وَلَكِنْ لِمَلَكٍ \* تَنْزَلُ مِنْ جِوِّ السَّيَاءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن : « مَا هَذَا بِشَرٍّ » بكسر الباء والشين ، أى ما هذا عبداً مُشْتَرًى ، أى ما يبنى لمثل هذا أن يباع ، فوضع المصدر موضع اسم المفعول ، كما قال : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ » أى مصيده ، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بجن ، أى مثله لا يجن ولا يقوم ؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشتري به : كقولك : ما هذا بأف إذا نقيت قول القائل : هذا بأف . فالباء على هذا متعلقة بمخدوف هو الخبر ، كأنه قال : ما هذا مقدراً بشراء . وقراءة العامة أشبه ؛ لأن بعده « إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولأن مثل « بِشَرٍّ » يكتب في المصحف بالياء .

قوله تعالى : (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) لما رأت آفتانهم بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : « لُمْتُنِّي فِيهِ » أى بحبه ، و « ذَلِكَ » بمعنى « هذا » وهو اختيار الطبري . وقيل : الهاء للحب ، و « ذَلِكَ » على بابه ، والمعنى : ذلكن الحب الذى لمتنى فيه ، أى حب هذا هو ذلك الحب . واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقوت وقالت : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) أى أمتنع ؛

(١) هو رجل من عبد القيس جاهل ، يمدح بعض الملوك ، قيل : هو النعمان ، وقال ابن السرياني : هو لائق وجرة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله مالك بنقديم الهذلي ؛ من الألوكة ، وهى الرسالة ، ثم قلبت وقدمت اللام فقبل : ملك ، ثم زكت همزة لكثرة الاستعمال فقبل : ملك ، فلما جمعو رددوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضاً . (اللسان) . (٢) راجع ج ٦ ص ٣١٧ . (٣) فى ٥ : وأعلم أنها لما أظهرت مدحها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت : ولقد راودتني عن نفسه فاستعصم .



وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية . وقيل : « آستعصم » أى آستعصى ، والمعنى واحد . ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجِنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحض منهن ، وهتكت جِلْبَابَ الْحَيَاءِ ، ووعدت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لَوْماً ولا مقالا خلافاً أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . ﴿ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِغِينَ ﴾ أى الأذلاء . وخط المصحف « وليكونا » بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد ، ونون التأكيد تنقل وتخفف والوقف على قوله : « لَيُصْجِنَنَّ » بالنون لأنها مثقلة ، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها مخففة ، وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلاً وزيداً وعمراً ، ومثله قوله : « لَنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف ، كقول الأعشى :

• وَلَا تَعْبِدُ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا •

أى أراد فاعبدوا ، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٦﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى دخول السجن ، لحذف المضاف ؛ قاله الزجاج والنحاس . « أَحَبُّ إِلَيَّ » أى أسهل على وأهون من الوقوع فى المعصية ؛ لا أن دخول السجن مما يُحِبُّ على التحقيق . وحكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوصى الله إليه « يا يوسف ! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إلى ، ولو قلت العافية أحب إلى لعوفيت » . وحكى أبو حاتم أن عثمان ابن عفان رضى الله عنه قرأ : « السَّجْنُ » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة ابن أبى إسحق

(٢) راجع ج ٢٠ ص ١٢٥ .

• وهذا الصب المنسوب لا تنسكه •

(١) ف : ع : حجاب

(٣) صدر البيت :

وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب ؛ وهو مصدر تَجَنَّبْتَنَّا . ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ) أى كيد النسوان . وقيل : كيد النسوة اللاتي رأينه ؟ فإنهن أمرنه بمطاعة امرأة العزيز ، وقيل له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طابت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله فى حقها ، وتأمره بمساعدتها ، فلهذا يجب ؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! أقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ؛ فقال : يارب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة ؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب ، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الاحتيال والاجتهاد ؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها ؛ قال عمر بن لُحَا :

تَرَأَتْ كَيْ تَكِيدُكَ أُمُّ بَشِيرٍ \* وَكَيْدٌ بِالنَّبْرِجِ مَا تَكِيدُ

( أَصْبُ إِلَيْنِ ) جواب الشرط ، أى أَمِلْ إِلَيْنِ ؛ من صبا يصبو — إذا مال وأشتاق — صُبُوا وَصَبُوا ؛ قال :

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي \* وَهِنْدٌ مِثْلُهَا يُصْبِي

أى إن لم تلطف بى فى اجتناب المعصية وقعت فيها . ( وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم ، أو ممن يعمل عمل الجاهل ؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله ؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ( فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ) لَمَّا قَالَ . « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ » تعريض للدعاء ، وكأنه قال : اللهم أصرف عني كيدهن ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . « كَيْدَهُنَّ » قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية قبل ؛ والعموم أولى .

قوله تعالى : ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنَّهُمْ

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ ) أى ظهر للعزير وأهل مشورته « مِنْ بَعْدِ أَنْ رَأَوُا آيَاتٍ » أى علامات براءة يوسف — مِنْ قَدْ الْقَمِيصِ مِنْ دَبْرٍ، وشهادة الشاهد، وَحَزَّ الْأَيْدَى، وقلة صبره عن لقاء يوسف — أَنْ يَسْجُنُوهُ كَمَا نَا لِلْقِصَّةِ إِلَّا تَشْبَعُ فِي الْعَامَةِ، وَلِغَلْوَلُولَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا . وقيل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : ألبأها انجمل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أَنْ رَضِيتَ بِالْحِجَابِ مَكَانَ خَوْفِ الذَّهَابِ ، لتشتفى إذا مُنِعْتَ مِنْ نَظَرِهِ ؛ قال :

وَمَا صَبَابُهُ مُشْتَاكِ عَلَى أَمَلٍ • مِنْ اللَّفَاءِ كَمُشْتَاكِ بَلَا أَمَلٍ

أو كادته رجاء أَنْ يَمَلَّ حَبْسَهُ فَيَبْذُلَ نَفْسَهُ .

الثانية — قوله تعالى : ( لِيَسْجُنَّهُمْ ) « لِيَسْجُنَّهُمْ » فى موضع الفاعل ؛ أى ظهر لهم أَنْ يَسْجُنُوهُ ؛ هذا قول سيبويه . قال المبرد : وهذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دَلَّ عليه « بَدَأَ » وهو مصدر ؛ أى بدأ لهم بَدَأَهُ ؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه ؛ كما قال الشاعر :

وَحَقٌّ لِمَنْ أَبُو مُوسَى أَبُوهُ • يُوقِّفُهُ الَّذِى نَصَبَ الْجَبَالَ

أى وحق الحق ، فحذف . وقيل : المعنى ثم بدأ لهم رأى لم يكونوا يعرفونه ؛ ونحو هذا لأن فى الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول ؛ أى قالوا : لیسجننه ، واللام جواب ليمين مضمر ؛ قاله الفراء ، وهو فعل مذكر لا فعل مؤنث ؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكانت لیسجنناته ؛

ويبدل على هذا قوله «لَهُمْ» ولم يقل لهنّ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر؛  
قاله أبو عليّ. وقال السديّ: كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه  
شهرّها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في «لَهُمْ» لملك.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى مدّة غير معلومة؛ قاله كثير من  
المفسرين. وقال ابن عباس: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جبّير:  
إلى ستة أشهر. وحكى اليكّا أنه عني ثلاثة عشر شهرا. عكرمة: تسع سنين. الكلبي: خمس  
سنين. مقاتل: [سبع<sup>(١)</sup>]. وقد مضى في «البقرة»<sup>(٢)</sup> النقول في الحين وما يرتبط به من  
الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة. و«حتى» بمعنى إلى؛ كقوله:  
«حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ»<sup>(٣)</sup>. وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف صلى الله عليه وسلم من همّة المرأة.  
وكان العزيز - وإن عرف براءة يوسف - أطاع المرأة في سجن يوسف. قال ابن عباس:  
عثر يوسف ثلاث عثرات: حين همّ بها فسيجن، وحين قال للفتى: «أَدْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» فلبث  
في السجن بضع سنين، وحين قال لإخوته: «إِنكُمْ لَسَارِقُونَ» فقالوا: «إِن يَسْرِقْ فَقَدْ  
سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ».

الرابعة - أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام،  
وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جازله  
إجماعا. فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه  
يسقط عنه إثم الزنى وحده. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحد، وهو ضعيف؛  
فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاين؛ فإنه من أعظم الحرج  
في الدين. «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»<sup>(٤)</sup>، وسيأتى بيان هذا في «التحل» إن شاء الله.  
وصبر يوسف، وأستعاذ به من الكيد، فاستجاب له على ما تقدّم.

(١) من ع. وفي روح المعاني والفخر الرازي عن مقاتل آخى عشر سنة. (٢) راجع ج ١ ص ٣٢١.  
فابعد. (٣) راجع ج ٢٠ ص ١٣٤. (٤) ن. ع. (٥) راجع ج ١٢ ص ٩٩.  
(٦) راجع ج ١٠ ص ١٨٢ فابعد.

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أُرْسِي  
أَغَصْرُ نَحْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أُرْسِي أَجْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ  
الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِثْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا  
طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَيَّ  
رِزْقِي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٧﴾  
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ  
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ( وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ ) « فتیان » ثنية فتى ؛ وهو من ذوات الباء ،  
وقولهم : الْفَتُو شَاذٌ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقبداً على حمار ، وطيف  
به « هذا جزء من يعصى سيده » وهو يقول : هذا أيسر من مَقَطَّعَاتِ النَّيْرَانِ ،  
وسرايل القِطْرَانِ ، وشراب الحميم ، وأكل الزَّقُومِ . فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه  
قوماً قد انقطع رجائهم ، واشتد بلاؤهم ، فجعل يقول لهم : أصبروا وأبشروا تؤجروا ؛  
فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال :  
أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقال  
أبن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني ، وأنا أريد أن تسجنه ،  
فسجنه في السجن ؛ فكان يُعْزَى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوى فيه الجريح ،  
و يصل الليل كله ، ويبكى حتى تبكى معه جُدْر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ،  
واستأنس به أهل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يحلِسَ (١) في السجن

(١) في ركوبى : الفتوة شاذة . (٢) مقطعات النيران : هي على نحو قوله تعالى : « طعلت لم نياب  
من تارة أى غطيت وسويت وغطت لبوساً لهم . (٣) هذا دليل الوضع لأن الذبيح قطعاً إسماعيل عليه السلام .

(٤) في ع : بحسبى .



مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال [له]: يا يوسف! لقد أحبتك حباً لم أحب شيئاً حبك، فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبنى أبى ففعل بى إخوانى ما فعلوه، وأحبتنى سيدتى فتزل بى ما ترى، فكان فى حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمرَ فيهم قُلُوه، فدسّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمّاه جميعاً، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَيَّانَ» وقد قيل: إن الخباز وضع السم فى الطعام، فلما حضر الطعام قال الساقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخباز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: أشرب! فشرّب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ، فأبى، فخرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقياً فى السجن تلك المدة مع يوسف. وأسم الساقى منجا، والآخى مجلت، ذكره الثعلبى عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخى سرهم، الأول بالشين المعجمة، والآخى بالسين المهملة. وقال الطبرى: الذى رأى أنه يعصر نحرهما هو نبو، قال السببى: وذكر اسم الآخى ولم أفيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبيدين، والعبد يسمى فتى، صغيراً كان أو كبيراً، ذكره المساوردى. وقال القشبرى: ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم، ولهذا قال: «تَرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى كان اسماً للخدم وإن لم يكن مملوكاً. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَأِىٓ أَغِصْرُ نَمْرَآءَ» أى عنباً، كان يوسف قال لأهل السجن: لى أعبر الأحلام، فقال أحد القتين لصاحبه: تعال حتى نجرب هذا العبد العبرانى، فسألاه من غير أن يكون رأياً شيئاً، قاله ابن مسعود. وحكى الطبرى: أنهما سألاه عن علمه فقال: لى أعبر الرؤيا، فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رؤياها وسألاه عنها، ولذلك صدق تأويلها. وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: «أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثاً . وقيل : إنها كانت رؤيا كذب سألها عنها تجريباً ، وهذا قول ابن مسعود  
والسدي . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذباً ، والآخر صادقاً ، قاله أبو مجلز . وروى  
الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تحلّم كاذباً كلّف يوم القيامة  
أن يعقّد بين شيعرتين [ ولن يعقّد بينهما ] " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .  
وعن عليّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب في حُلْمه كلّف يوم القيامة عقْد شعيْرة " .  
قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ، فقال لهما يوسف :  
مالي أراكما مكروبين ؟ قالا : ياسيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ، قال : فقصّا عليّ ، فقصّا عليه ؛  
قالا : نبينا يتأويل ما رأينا ، وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا متام . ( إنا نراك من المحسنين )  
فإحسانه ، أنه كان يعود المرضى ويدأوهم ، ويُعزّي الحزاني ، قال الضحاك : كان إذا مرض  
الرجل من أهل السجون قام به ، وإذا ضاق وسّع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له .  
وقيل : « من المحسنين » أى العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحق :  
« من المحسنين » لنا إن فسرته ، كما يقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فما رأيتما ؟  
قال الخباز : رأيت كائى اختبرت في ثلاثة تنابر ، وجعلته في ثلاث سلال ، فوضعت على رأسى  
بغاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كائى أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ،  
فحصرتن في ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى ، فذلك قوله : « إني  
أرأى أعصرُ نحرًا » أى عنباً ، بلغة عُمان ، قاله الضحاك . وقرأ ابن مسعود : « إني أرأى  
أعصرُ عنبًا » . وقال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له :  
ما معك ؟ قال : نحر . وقيل : معنى . « أعصرُ نحرًا » أى عنب نحر ، لحذف المضاف .  
ويقال : نحرّة ونحر ونحور ، مثل تمرّة وتمر ونحور . « قال » لهما يوسف : ( لا يأتينكما طعام

(۱) الزيادة من صحيح الترمذي ، قال شارحه : لما تبته نظرى ظهر لى أن الخبر بما لم يرفعه من الكلام مفدا  
باطلا لم يشمر به . أى لم يبله ، فقلل له : اعقد بين شيعرتين ولا ينقده له ذلك أبداً ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن  
منها شئ . تكون العقوبة من جنس المعصية .

تُرْزَقَانِهِ) بمعنى لا يبيحكما غدا طعام من منزلكما (إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ) لتعلمنا أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : أفعل ! فبيحكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف . وبين أن الله خُصَّ بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتىكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتتسعدوا ، ولهذا لم يعبر لها حتى دعاها إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاها إلى الإسلام ليستعدها . وقيل : إن يوسف كره أن يعبر لها ما سألته لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالها ، وأخذ في غيره فقال : « لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ » في النوم « إِلَّا نَبَأْتُكُمَا » بتفسيره في اليقظة ، قاله السُّدِّي ، فقال له : هذا من فعل العَرَّافِينَ والكهنة ، فقال لها يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علمنيه ربى ، إني لا أخبركما به تكهنا وتخيا ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ابن جريج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمعنى : لا يأتىكما طعام ترزقانه في اليقظة ، فعلى هذا « تُرْزَقَانِهِ » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعبسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاها بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : ( وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ) لأنهم أنبياء على الحق . ( مَا كَانُوا ) أى ما ينبغي . ( لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ) « مِنْ » للتاكيد ، كقولك : ما جأنى من أحد . وقوله تعالى : ( ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ) إشارة إلى عصمته من الزنى . ( وَعَلَى النَّاسِ ) أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وَعَلَى النَّاسِ » إذ جعلنا الرسل إليهم . ( وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ) على نعمة التوحيد والإيمان .

(١) منى . وفى أحد الروايع : ليستعدها . (٢) كذا فى ع . وفى أحد الروايع : نعمة بالتوحيد .

قوله تعالى : يَصْحَجِي السَّجْنَ ءَازْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ  
الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ  
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا  
إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (يَصْحَجِي السَّجْنَ) أى يماكنى السجن؛ وذكر الصحبة اطول مقامها  
فيه . كقولك : أصحاب الجنة، وأصحاب النار . (أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) أى فى الصغر والكبر  
والوسط ، أو متفرقون فى العدد . (خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) وقيل : الخطاب لهما ولأهل  
السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دُون الله تعالى ، فقال ذلك إلزاما للحجة ؛ أى  
آلهة شتى لا تنضر ولا تنفع . «خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الذى فُهر كل شئ . نظيره : «الله خير  
أَمَّا يُشْرِكُونَ» . وقيل : أشار بالفرق إلى أنه لو تعدد الإله لتفرقوا فى الإرادة ولعلا بعضهم  
على بعض ، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ) بين عجز الأصنام وضعفها فقال :  
«مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ» أى من دُون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها . (سَمَّيْتُمُوهَا) من تلقاء  
أنفسكم . وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية  
شئ ، إلا الاسم ؛ لأنها جمادات . وقال : «مَا تَعْبُدُونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه  
قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . (إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ) لحذف  
المفعول الثانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهة من عند أنفسكم . (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) ذلك  
فى كتاب . قال سعيد بن جبیر : (مِنْ سُلْطَانٍ) أى من حجة . (إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) الذى  
هو خالق الكل . (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) . (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) . أى التسويم .  
(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

قوله تعالى : يَصْصِجُ السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ نَحْرًا<sup>ص</sup>  
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ  
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : (أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ نَحْرًا) أى قال للساقي : إنك تُرَدُّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأما أنت فتُدعى إلى ثلاثة أيام فمصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ، قال : رأيت أو لم تر (فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) . وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد ، كما قال الشاعر :<sup>(١)</sup>

سَقَى قَوْمِي بَنِي جَعْدٍ وَأَسْقَى \* ثُمَيْرًا وَالْقِبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاء ناوله فشرب ، أو صب الماء في حلقه ومعنى أسقاء جعل له سقيا ، قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا » .

الثانية — قال علماؤنا : إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي ، وتعبير النبي حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته ، فإن قيل : فقد روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيت كأنى أعشبت ثم أجذبت ثم أعشبت ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ، فقال الرجل : ما رأيت شيئا ، فقال له عمر : قد قضى لك ما قضى لصاحب يوسف ، قلنا : ليست لأحد بعد عمر ، لأن عمر كان محدثا<sup>(٢)</sup> ، وكان إذا ظن ظنا كان<sup>(٣)</sup> [

(١) هو لبيد ، ومجد : ابنة تميم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٥٨ . (٣) محدث : أوهام ، أو باق في روعه الشيء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (التسلطاني) . والمحدث : الذى يجدته الملك أيضا . أى يلقى في نفسه .

(٤) ن وع وك وروى .



وإذا تكلم به وقع، على ما ورد في أخباره؛ وهي كثيرة؛ منها — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنًا فكان كما ظن؛ خرجه البخاري . ومنها — أنه سأل رجلًا عن اسمه فقال له فيه أسماء النار كلها، فقال له : أدرك أهلك فقد احترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ . وسياق لهذا مزيد بيان في سورة «الحجر» <sup>(۱)</sup> إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ) «ظن» هنا بمعنى أيقن، في قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين؛ قال : إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًا ورك يخلق ما يشاء؛ والأزول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيتين في تعبير الرؤيا كان عن وحى، وإنما يكون ظنًا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانية — قوله تعالى : (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) أى سيدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب؛ قال الأعشى :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً \* وَإِذَا تُنَوِّشِدُ فِي الْمَهَارِقِ انْقَسَدَا <sup>(۲)</sup>

أى أذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَسْقَى رَبِّكَ أَطْعَمَ رَبِّكَ وَضَيَّ رَبِّكَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلَيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي وَلَيَقُلْ قَتَايَ قَتَايَ غَلَامِي " . وفي القرآن : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » « إِلَى

(۱) راجع ج ۱ ص ۱۲ .

(۲) ويرد : (يناشد بالمهازيق) يقول : إذا نوشد

رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أى صاحبى ؛ يعنى العزيز . ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربه ربه ، فهو رَبٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام : «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ» «وَلْيَقُلْ» من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى ؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم ؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّهَا» أى مالكتها وسيدها ؛ وهذا موافق للقرآن فى إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهى فى هذا الباب ألا تتخذ هذه الأسماء عادة فترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين : أحدهما — أن العبودية بالحقيقة إنما هى لله تعالى ؛ ففى قول الواحد من الناس لملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز . والثانى — أن المملوك يدخله من ذلك شيء فى استصغار به تلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة . وقال ابن شعبان فى «الزاهى» : «لَا يَقُلُ السَّيِّدُ عَبْدًا وَأُمْتًا وَلَا يَقُلُ الْمَمْلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبَّتِي» وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم «لَا يَقُلُ الْعَبْدُ رَبِّي وَلْيَقُلْ سَيِّدِي» لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق ؛ وأختلف فى السيد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الرب ، فيحصل الفرق . وقال ابن العربى : يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير فى «فَأَنسَاهُ» فيه قولان : أحدهما — أنه عائد إلى يوسف عليه السلام ، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك — حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك — «أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بخلق ؛ فعوقب باللبث . قال عبد العزيز بن عمير الكندى : دخل جبريل على يوسف النبى عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف ، فقال : يا أخا المنذرين ! مالى أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر [ابن الطاهرين] ! يقرئك

السلام رب العالمين ويقول : أما استحييت إذ استغثت بالآدميين ؟ ! وعزّرتي ! لا لبثتك في السجن بضع سنين ، فقال : يا جبريل ! أهو عني راض ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالي الساعة . وروى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول بصره ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فمن أخرجك من الحب ؟ قال : الله تعالى قال : فمن عصّك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بخلق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يارب كلمة زلت مني ! أسألك يا إله إبراهيم وإسماعيل والشيخ يعقوب عليهم السلام أن<sup>(١)</sup> ترحمي ، فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال : «أذكرني عند ربك» ما لبث في السجن بضع سنين". وقال ابن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما «أذكرني عند ربك» ولو ذكر يوسف ربه لخلصه . وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لولا كلمة يوسف — يعني قوله : «أذكرني عند ربك» — ما لبث في السجن ما لبث" قال : ثم يبكي الحسن ويقول : نحن ننزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الماء تعود على الناجي ، فهو الناسي ؛ أي أنسى الشيطان الساق أن يذكر يوسف لربه ، أي لسيدته ، وفيه حذف ، أي أنساه الشيطان ذكره لربه ، وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ؛ إذ الناسي غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ، ردّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ فَندَلَّ عَلَى أَن النَّاسِي [هو] السَّاقِي لَا يُوسِفُ» مع قوله تعالى : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطة ؟ ! قيل : أما

(١) فاستغثت . (٢) في ع رى : إلّا رحمتي . (٣) من ع . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٨٠

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسي آدم فنسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿ فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بضع وبضع بفتح الباء وكسرهما، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهروي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "أذهب فزائد في الخطر". وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال المارودي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطِرْب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أفاويل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جرير وقتادة وهوب بن منبه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة

(١) كذا في عرك. وهو الذي عليه اللسان. وفي أرى: ابن زيد. (٢) الخطر (بالتحريك): الزهن والحظ والحديث في شأن مراعاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أذهب فزائد في الخطر ومادد في الأجل"، وكان ذلك قبل تحريم الزهان. وراجع صحيح الترمذي في تفسير أول سورة الروم.

سنة ، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن نحسا وبضعا . وأشتقاقه من بضعت الشيء أى قطعته ، فهو قطعة من العدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِسَ سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب بن منبه : حبس يوسف في السجن سبع سنين ، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين ، وعذب يُحْتَنَصَرُ بالمسخ سبع سنين . وقال عبد الله بن راشد البصري عن سعيد بن أبي عروبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة .

الخامسة - في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا فإن الأمور بيد مُسَبِّهَا ، ولكنه جعلها سلسلة ، وركَّب بعضها على بعض ، فتجربتها سنة ، والتعويل على المنتهى يقين . والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر ، وهذا بين فتأملوه .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا أَلْمَلَاءُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ) لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه ، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك ، وممكن لك في الأرض ، يذل لك ملوكها ، ويطيعك جبارتها ، ومعطيك الكلمة العليا على إخوانك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك ، وهي كيت وكيت ، وتأويلها كذا وكذا ، فالتفت في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج ، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدة ، وجعلها آخرًا بشرى ورحمة ، وذلك أن الملك الأكبر الرِّبَّان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهريابيس سبع بقراتٍ سِمَانٍ ، في أثرهن سبع عِجَافٍ - أى مهازبل - وقد أقبلت العِجَاف على السِّمَانِ فأخذنَ بِأَذَانِهِنَّ فَأَكَلْنَهُنَّ ، إلا القرنين ، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل



عليهن سبع بابسات فأكلتهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شيء وهن بابسات، وكذلك البقر كن عجافا فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السماء، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشرف قومه، فقال: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتَوْنِي فِي رُؤْيَايَ» فقص عليهم، فقال القوم: «أَضَعْتُ أَحْلَامَ» قال ابن جريج قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة. وقال الهروي: قوله تعالى: «أَضَعْتُ أَحْلَامَ» أي أخلاط أحلام. والضغث في اللغة الحزمة من الشيء، كالبقل والكلا وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك ببيئة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: «سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ» حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث «سِمَانٍ» من نعت البقرات، ويجوز في غير القرآن سبع بقرات سيمانا، نعت للسبع، وكذا خضرًا، قال الفراء: ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا»<sup>(١)</sup>. وقد مضى في سورة «البقرة» اشتقاقها ومعناها. وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: المبعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهي سني رخاء، وإن كانت عجافا كانت شدادا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فتنة مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر «يشبه بعضها بعضا». وفي خبر آخر في الفتن «كأنها صياصي البقر»<sup>(٢)</sup> يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفُرا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شذبة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهاها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، ويزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخدام والغلة والسنة، لما يكون فيها من الولد والغلة والنبات. (يَا أَكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ) من عَجَفَ يَعْجَفُ، على وزن عَظُمَ يَعْظُمُ، وروى عَجَفَ يَعْجَفُ على وزن حَمِدَ يَحْمَدُ.

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٠٨. (٢) راجع ج ١ ص ٢١٦. (٣) ع: اشتقاق البقرة.

(٤) ع: وو: سني رخاء. (٥) صياصي البقر: قرونها.

قوله تعالى : ﴿بِأَيِّهَا الْمَلَأَ أَقْوُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ جمع الرؤيا رُؤى : أى أخبروني بحكم هذه الرؤيا . ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فعنى عَبَرَتِ النهر، بلغت شاطئه، فغابره، الرؤيا يعبر بها يؤول إليه أمرها . واللام في « للرؤيا » للتبيين، أى إن كنتم تعبرون ، ثم بين فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَلِيلِينَ ﴿١١﴾

فيه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ قال الفراء : ويجوز «أضغاث أحلام» قال النحاس : النصب بعيد، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل، إنما هى أضغاث أحلام، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغْث، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغْث، قال الشاعر :

\* كَضِغْثِ حُلْمٍ غُرٍّ مِنْهُ حَالِمُهُ \*

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِيِينَ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نَفَّسُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عِلْمَ مَا لَا تَأْوِيلَ لَهُ ، لَا أَنْهُمْ نَفَّسُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عِلْمَ التَّأْوِيلِ . وَقِيلَ : نَفَّسُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عِلْمَ التَّعْبِيرِ . وَالْأَضْغَاثُ عَلَى هَذَا الْجَمَاعَاتِ مِنَ الرُّؤْيَا الَّتِي مِنْهَا صَحِيحَةٌ وَمِنْهَا بَاطِلَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ السَّاقِ : «أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» فَعَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ عَجَزُوا عَنِ التَّأْوِيلِ ، لَا أَنَّهُمْ أَدْعَوْا لَا تَأْوِيلَ لَهَا . وَقِيلَ : لِنَهْمُ لَمْ يَقْصِدُوا تَفْسِيرَهَا ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مَحْوَهَا مِنْ صَدْرِ الْمَلِكِ حَتَّى لَا تَشْغَلَ بَالَهُ ، وَعَلَى هَذَا أَيْضًا فَعَنَدَهُمْ عِلْمٌ . وَ «الْأَحْلَامُ» جَمْعُ حُلْمٍ ، وَالْحُلْمُ بِالضَّمِّ مَا يَرَاهُ النَّاسُ ، تَقُولُ مِنْهُ : حَلَمْتُ بِالْفَتْحِ وَأَحْتَلَمُ ، وَتَقُولُ : حَلَمْتُ بِكَذَا وَحَلَمْتَهُ ، قَالَ :

حَلَمْتُهَا وَبَنُو رُقَيْدَةَ دُونَهَا \* لَا يَبْعَدَنَّ خَيَالُهَا الْمُحْتَلَمُ

أصله الأناة، ومنه الحُلْمُ ضد الطُّبُش، فقليل لما يرى في النوم حُلْمٌ لَأَنَ النَّوْمَ حَالُهُ أُنَاةٌ وَسُكُونٌ وَدَمَةٌ (١) في عوى : يجيز . (٢) رفيدة : أبوس من العرب ، يقال لم الرفيدات ، كما يقال لآل هيرة الهيرات . اللسان .

الثانية - في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تعبر ، لأن القوم قالوا : « أَصْغَاثُ أَحْلَامٍ » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسرها على سبيل الجذب والحصب ، فكان كما عبر ؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٥٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلَّكَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا ) يعني ساقى الملك . « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين ، عن ابن عباس وغيره ، ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ابن دُورٍ<sup>(٢)</sup> : والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال - والله أعلم - : وادكر بعد حين أمة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد ، وفى المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمة ؛ وفى الحديث : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » .

قوله تعالى : ( وَادَّكَرَ ) أى تذكر حاجة يوسف ، وهى قوله : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » . وقرأ ابن عباس - فيما روى عَفَّان عن هَمَّام عن قَتَادَةَ عن عِكْرَمَةَ عنه - « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعِكْرَمَةَ والضَّحَّاك « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِيتُ وَكَنتُ لَا أُنْسَى حَدِيثًا \* كَذَلِكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالْعُقُولِ

وعن شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضَّبْعِي : « بعد أمة » بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأمة ، وهما لغتان ، ومعناهما النسيان ؛ ويقال : أمة يأمه أمها إذا نسى ؛ فعلى هذا

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء . (٢) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

« وَأَذَرَ بَعْدَ امَّةٍ » ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل امَّةٌ ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري "امَّة" بمعنى أفرز وأعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرأ الأشهب العُقيل — « بَعْدَ امَّةٍ » أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقاءه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى يسببه حيس هو والخباز ؛ فقلوه : « وَأَذَرَ » أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل أذَرَ أَذَرَ أَذَرَ ، والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجوز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجهر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار أذَرَ ، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿ إِنَّا أَنبَتُكُم بِتَابِلِهِ ﴾ أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن « إِنَّا أَنبَتُكُم بِتَابِلِهِ » وقال : كيف ينبتهم الملع ؟ ! قال النحاس : ومعنى « أَنبَتُكُم » صحيح حسن ؛ أى أنا أخبركم إذا سَأَلْتُ . ﴿ فَأَرْسَلُونِ ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿ يُوسُفُ ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿ الصَّدِيقُ ﴾ أى الكثير الصدق . ﴿ أَفَتِنَا ﴾ أى فأسلوه ، بجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ ﴾ أى إلى الملك وأصحابه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ التعبير ، أو « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا قَدْ حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾  
فيه مستلثات :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له ، فقال : السبع من البقرات السَّيَّانِ والسَّيَّالَاتِ الخضر سبع سنين مخضبات ؛ وأما البقرات السَّيَّالَاتِ

(١) ق : ع ؛ أمه ورواه : ذاهب العقل . والذي في السنان : أمه الرجل فهو مأموه وهو الذى ليس عقله معه .

(٢) الملع : الكافر من الميم .

والسبيلات اليابسات فسيح سنين مجديات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ﴾ أى متواليه متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تَزْرَعُونَ » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ، أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب « دَابًّا » بتحريك الهمزة ، وكذا روى حفص عن عاصم ؛ وهما لغتان ، وفيه قولان ، قول أبى حاتم : إنه من دَبَّ . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا دَابَّ . والقول الآخر — إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء ، قال : وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقله جائز إذا كان ثانيه همزة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو خاء ، أو ضاء ، وأصله العادة ؛ قال :<sup>(٢)</sup>

\* كَذَلِكَ مِنْ أُمِّ الْخَوَيْرِثِ قَبْلَهَا \*

وقد مضى فى « آل عمران » القول فيه . ﴿ مَّا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ قيل : لئلا يتسوس<sup>(٤)</sup> ، وليكون أبقي ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى أستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون معنى : « تَزْرَعُونَ » أى أزرعوا .

الثانية — هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شئ من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يَفُوتُ شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

(١) اللتان « دابا » بتحريك الهمزة و « دابا » بكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو أمر القيس ؛ وتام البيت : \* وجازت أم الرباب بأسل \*

(٣) راجع ج ٤ ص ٢٢ فابعد . (٤) كذا فى اربع وكوى .



قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ  
 لَهُنَّ إِلَّا قَالِيلاً مِمَّا تُخْصِنُونَ ﴿٤٨﴾  
 فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : ( سَبْعٌ شِدَادٌ ) يعنى السنين المحديات . ( يَأْكُنَّ ) مجاز ،  
 والمعنى يأكل أهلها . ( مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ) أى ما اذخرتم لأجلهن ، ونحوه قول القائل :  
 نهارك يا مغرور سهو وغفلة \* وَلَيْكَ نَوْمٌ وَالرِّدَى لَكَ لَازِمٌ

والنهار لا يسهو ، والليل لا ينام ، وإنما يسهى فى النهار ، ويُنَام فى الليل . وحكى زيد  
 ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الأثنين فيقربه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ،  
 حتى إذا كان يوم قربه له فأكله كله ، فقال يوسف : هذا أول يوم من السبع الشداد .  
 ( إِلَّا قَالِيلاً ) نصب على الاستثناء . ( مِمَّا تُخْصِنُونَ ) أى مما تحبسون لترعوا ، لأن  
 فى استبقاء البذر تخمين الأقوات . وقال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : « تُخْصِنُونَ »  
 تذخرون ، والمعنى واحد ، وهو يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .<sup>(١)</sup>

الثانية - هذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر ، وأنها تخرج على حسب ما رأى ،  
 لا سيما إذا تعلق بمؤمن ، فكيف إذا كانت آية لنبى ، ومعجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفى  
 للتبليغ ، وحجة للواسطة بين الله - جل جلاله - و [ بين ] عباده .<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ  
 وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ) هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن  
 فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذى آناه الله . قال قتادة : زاده الله علم سنة لم يسألوه

(١) هذا فيه نظر إن كان المراد الغلاء ، لما روى عنه عليه الصلاة والسلام " من احتكر حكرة يريد أن يبل بها  
 على المسلمين فهو خاطئ . وقد برئت منه ذمة الله ورسوله " رواه أحمد والحاكم من أبى هريرة فى روايات فى النهى عن  
 الاحتكار . (٢) من ع .

عنها إظهارا لفضله ، وإعلاما لمكانه من العلم وبمعرفة . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث ؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه ، والأسم الغوث والغوث والغوث ، واستغاثني فلان فآغثته ، والأسم الغياث ؛ وغاث الله البلادَ يَغِيثُهَا غِيَا ، وَغِيَّتْ الأرضُ تُغَاثُ غِيَاً ، فهي أرض مَغِيثَةٌ ومَغِيوَةٌ ؛ بمعنى « يُغَاثُ النَّاسُ » يَمْطُرُونَ . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والذَّهْنَ ؛ ذكره البخاري . وروى حجاج عن ابن جريح قال : يعصرون العنب نمرًا والسمسم دُهْنًا ، والزيتون زيتًا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدل ذلك على كثرة النبات . وقيل : « يَعْصِرُونَ » أى يَجْبُونَ ؛ وهو من العَصْرَةِ ، وهي المَنَجَاة . قال أبو عبيدة : والعَصْرُ بالتحريك المَلْجَا والمَنَجَاةُ ، وكذلك العَصْرَةُ ؛ قال أبو زيد <sup>(١)</sup> :

صَادِيًا يَسْتَعِيْثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَةَ الْمَنَجُوْدِ

وَالْمَنَجُوْدُ الْغَرِجُ . واعتصرتُ بفلان وتَعَصَّرْتُ أى التَّجَاتُ إليه . قال أبو الغوث : « يَعْصِرُونَ » يَسْتَعِيْلُونَ ؛ وهو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقد رأيت عيسى « تَعْصِرُونَ » بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : يَمْطُرُونَ ؛ من قول [ الله ] : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا » <sup>(٢)</sup> وكذلك معنى « تَعْصِرُونَ » بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعالى : وَقَالَ أَمْلِكُ آتُونِي بِهِ <sup>ط</sup> فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسِوةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَّ <sup>ج</sup> إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَلَشَ اللَّهُ مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ آتَيْنِ الْحَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾

(١) قاله في رثاء ابن أخته وكان مات عطشا في طريق مكة . (٢) من ع . (٣) راجع ج ١٩ ص ١٦٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَوْنِي بِهِ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك ، فقال : آتئونى به . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال : ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة . ﴿ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فابى أن يخرج إلا أن تصح براءته <sup>(۱)</sup> [ عند ] الملك مما قُذِفَ به ، وأنه حبس بلا جرم . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ ابن الكريم ] يوسف بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم — قال — ولو لبثت في السجن ما لبثت ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — ” فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ “ — قال — ورحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد <sup>(۲)</sup> [ إذ قال “ لَوْ أَنَّ لِي يَكُم قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ” ] فما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه “ . وروى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له “ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي “ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ” يرحم الله أنى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعى ولم أتمس العُسر “ . وروى نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، في كتاب التفسير من صحيح البخارى ، وليس لأبى القاسم في الديوان غيره . وفي رواية الطبري ” يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعا أنَّ كان حليما ذا أناة “ . وقال صلى الله عليه وسلم : ” لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب <sup>(۳)</sup> “ . قال أبى عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا ، وطلبا لبراءة الساحة ، وذلك أنه

(۱) الزيادة عن صحيح الترمذى .

(۲) من ع . وفى ادركوى : فلك .

(۳) الحديث في تفسير الطبري يختلف في اللفظ عما هنا .

(۴) كذا فى ع دكوى .

— فيما روى — خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذي راود امرأة مولاه ، فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، وحينئذ يخرج للإحطاء والمنزلة ، فلهذا قال للرسول : أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصود يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصى عن ذنبي ، وينظر في أمري هل سيجنت بحق أو بظلم ، ونكبت عن امرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لذيّام الملك العزيز له . فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأي ، له جهة أيضا من الجودة ، يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك ، وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأخزم من الأمور ، وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة ، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخزجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام آمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ، فالحالة التي ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ، وذلك حُسن عشرة وأدب ، وفي الكلام محذوف ، أي فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز . وكان قد مات العزيز . فدعاهن فـ ﴿ يَقَالُ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي ما شأنكن . ﴿ إِذْ رَاوَدَتْهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها ، على ما تقدم ، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهن . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي زنى . ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما رأت إقرارهن ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقوت

هي أيضا، وكان ذلك اطلاقا من الله بـ يوسف . و « حَصَّصَ الْحَقُّ » أى تبيين وظاهر ؛  
وأصله حَصَّصَ ، فتبيل : حَصَّصَ ؛ كما قال : كُبِّكُوا في كبيوا ، وكفكف في كفكف ؛  
قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصَّصَ استئصال الشيء ؛ يقال : حصَّ شعره إذا استأصله جزأ ؛  
قال أبو القيس بن الأسات :

فَدَحَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي مِمَّا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجِاجٍ<sup>(١)</sup>

وسنة حصاء أى جرداء لا خير فيها ، قال جرير :

يَأْوِي إِلَيْكُمْ بَلَا مَنٌ وَلَا تَحْمَدُ مَنْ سَاقَهُ السَّنَةُ الْحَصَاءُ وَالذَّيْبُ

كأنه أراد أن يقول : والضعيع ، وهى السنة المجسدة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل التافيه ؛  
فمعنى « حَصَّصَ الْحَقُّ » أى ألقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :  
أَلَا مُبْلِغٌ عَنِّي خِدَاشًا فَإِنَّهُ كَذُوبٌ إِذَا مَا حَصَّصَ الْحَقُّ ظَالِمٌ

وقيل : هو مشتق من الحِصَّة ؛ فالمعنى : بانت حِصَّةُ الحق من حِصَّةِ الباطل . وقال مجاهد  
وقَتَادَةَ : وأصله مأخوذ من قولهم ؛ حصَّ شعره إذا استأصل قطعه ؛ ومنه الحِصَّةُ من الأرض<sup>(٢)</sup>  
إذا قطعت منها . والحِصَّةُ حصص بالكسر التراب والمجاعة ؛ ذكره الجوهري . ﴿ أَنَا رَاوُدُّهُ عَنْ  
نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها — وإن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق  
لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى  
ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفسا ظنًّا ، ولا يخالطها شك .  
وشدّدت النون في « حَطَبُكُنَّ » و « رَاوُدُّنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر .

قوله تعالى : ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي  
كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنِّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ  
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾

(١) البيضة : الخوردة ؛ والتهجاء : التومة الخفيفة . (٢) ف : بانه . (٣) ف : في .



قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ ﴾ اختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « أَلَا نَحْصَحَّصَ الْحَقُّ » أى أقررت بالصدق ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت<sup>(٢)</sup> عن الخيانة ، ثم قالت : « وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي » بل أنا راودته وعلى هذا هى كانت مقزة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف : ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « لِيَعْلَمَ » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعد ؛ قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أخن سيدى بالغيب ؛ فقال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولأحين حَلَّتْ الإِزَارُ ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي » الآية . وقال السدى : إنما قالت له امرأة العزيز ولأحين حَلَّتْ سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القشيري : فالظاهر أن قوله : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حل الإزار والسراويل ، وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدمناه من القول المختار فى قوله : « وَهَمَّ بِهَا » . قال أبو بكر الأنباري : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ؛

(١) من ع . (٢) فى ع : نرجت .

لأنه متصل بقولها : « أَنَا رَأَوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون  
الحلم عن يوسف عليه السلام ، فمن جنى على قولهم قال : من قوله : « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى  
قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل ببعضه ببعض ، ولا يكون فيه وقف تام على  
حقيقة ؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ  
أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » لأن تركية  
النفس مذمومة ؛ قال الله تعالى : « فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء » . وقيل :  
هو من قول العزيز ؛ أى وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف . ( إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ السُّوءِ )  
أى مشبهة له . ( إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ) في موضع نصب بالاستثناء ؛ و « ما » بمعنى من ؛  
أى إلا من رحم ربي بعصمه ؛ و « ما » بمعنى من كثير ؛ قال الله تعالى : « قَانِكُحُوا مَا طَابَ  
لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمانة  
بالسوء ؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تقولون في صاحب لكم إن  
أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسومتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أهتموه وأعريتموه  
وأجتموه أفضى بكم إلى خير غاية » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض .  
قال : « فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم » .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ استَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ  
قَالَ إِنَّكَ أَلِيمٌ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ استَخْلَصَهُ لِنَفْسِي ) لما ثبت الملك براءته مما نسب  
إليه ؛ وتحقق في القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده ، ويتيقن حسن  
خلاله قال : « أَتُؤْتِنِي بِهِ استَخْلَصَهُ لِنَفْسِي » فانظر إلى قول الملك أولا — حين تحقق علمه —  
« أَتُؤْتِنِي بِهِ » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « أَتُؤْتِنِي بِهِ استَخْلَصَهُ لِنَفْسِي »  
وروي عن وهب بن منبه قال : لما دعى يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربي من خلقه ،

(۱) مع ۰ (۲) راجع ج ۱۷ ص ۱۱۰ . (۳) راجع ج ۵ ص ۲۴۶ فابعد ص ۱۲ . (۴) في ع و د رى : قال ثانيا .

عزَّ جاره وجلَّ شأؤه ولا إلهَ غيره . ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرَّ له ساجداً ؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال . « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ » . « قَالَ » له يوسف : « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ لِلْخَزَائِنِ » « عَلِيمٌ » . « بوجوه تصرفاتها . وقيل : حافظ للحساب ، عليم بالألسن . وفي الخبر : ” يرحم الله أحمى يوسف لو لم يقل آجعتني على خزان الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أنر ذلك سنة “ . وقيل : إنما تأخر تملكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله . وقد قيل في هذه القصة : إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره ، ثم سلم على الملك بالعربية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هذا لسان عمِّي إسماعيل ، ثم دعا [ له ] <sup>(١)</sup> بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلمنا [ تكلم الملك <sup>(٢)</sup> ] بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ، فأعجب الملك أمره ، وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ؛ ثم أجلسه على سريره وقال : أحب أن أسمع منك رؤيائي ، قال يوسف : نعم أيها الملك ! رأيت سبع بقرات سمانٍ شُهْباً غُرّاً حسناً ، كشف لك عنهن النبل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافها لبناً ؛ فبينما أنت تنظر إليهن وتتعجب من حسنهن إذ نَضَبَ النبل فغار ماؤه ، وبدأ أسفه <sup>(٣)</sup> ، فخرج من حَمَّته ووحلّه سبع بقرات يحاف شُعْتْ غُبٍ مقلّصات البطون ، ليس لهنّ ضرور ولا أخلاف ، لهنّ أنياب وأضرار ، وأكف كأ كف الكلاب ونراطيم نكراطيم السباع ، فاختلطن بالسمان فافترسنهنّ أفتراس السباع ، فاكلن لحومهنّ ، ومزقن جلودهنّ ، وحططن عظامهنّ ، ومشمشن مخنّهنّ ؛ فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل ! ثم لم يظهر منهنّ سِمَرٌ ولا زيادة بعد أكلهنّ ! إذا بسبع سنابل خضر طاريات ناعمات ممتلئات حبا وماء ، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد ، عروقهنّ في الثرى والمساء ، فبينما أنت تقول في نفسك : أى شيء هذا ؟ ! هؤلاء خضر مثمرات ، وهؤلاء سود يابسات ، والمنبت واحد ، وأصولهنّ

(١) من عوى . (٢) من ع . (٣) تشخب : تسيل . (٤) في عوى : يسه .

في الماء، إذ هبَّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضضر المشرمت، فاشتعلت  
فيهن النار فأحرقتهن، فصرن سودا مغبرات، فاشتبهت مذعورا أيها الملك، فقال الملك :  
والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجا بأعجب مما سمعتُ منك ! فما ترى في رؤيا  
أيها الصديق؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة؛  
فإنك لو زرعت على حجر أو مَدْر لنبت، وأظهر الله فيه النماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه  
وسدله تبني له المخازن العظام، فيكون القصب والسنبُل طلقاً للدواب، وجه للناس، وتأمّر  
الناس فيرفعون من طعامهم إلى أمراءك الخمس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعت لأهل مصر  
ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يبتاعون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجمع  
لأحد قبلك، فقال الملك : ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً  
ما أطافوا، ولم يكونوا فيه أمناء، فقال يوسف عليه السلام [ عند ذلك ] : « أَجْعَلْنِي عَلَى  
خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أي على خزائن أرضك، وهي جمع خزانة، ودخلت الألف واللام عوضاً  
من الإضافة، كقول النابغة :

لَمْ شَيْئَةً لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ \* مِنَ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ غَيْرَ كَوَادِبِ

قوله تعالى : ﴿ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي ﴾ جزم لأنه جواب الأمر، وهذا يدل على أن قوله :  
« ذَلِكَ لَعَلَّ آتَى لَمْ أَخَذْهُ بِالْغَيْبِ » جرى في السجن . ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال  
في مجلس آخر : « أَتُونِي بِهِ » تأكيداً « اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي » أي أجمله خالصاً لنفسي،  
أنقض إليه أمر مملكتي، فذهبوا بخاءوا به، ودل على هذا ﴿ فَلَبَّ كَلِمَهُ ﴾ أي كلم الملك  
يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف، فـ ﴿ قَالَ ﴾ الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ  
أَمِينٌ ﴾ أي متمكن نافذ القول، « أَمِينٌ » لا تخاف غدراً .

قوله تعالى : قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿ ٥٥ ﴾

(١) ق: فاترى في هذه الرؤيا . (٢) ق: ع: العلى . (٣) كذا في ع وي: وك: هو بيت  
كبير يجمع فيه طعام السلطان . وهي مخازن الحبوب اليوم . وفي أ: د: أمرائك . (٤) ون: ع وي .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض ؛ أما سمعت إلى قوله : « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى على حفظها ، نخذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِظْتُ ﴾ لما وُلِّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره . وفي التفسير : إني حاسب كاتب ؛ وأنه أول من كتب في القراطيس . وقيل : « حَفِظْتُ » لتقدير الأوقات « عَلِيمٌ » بسنن المجاعات . قال جوبير عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أنحى يوسف لو لم يقل أجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخر ذلك عنه سنة " . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سال الإمارة دعاه الملك فتوجه وردّاه بسيفه ، ووضع له سريرا من ذهب ، مكلّلا بالدر والياقوت ، وضرب عليه حلّة من إستبرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْفَقَةً<sup>(١)</sup> ، ثم أمره أن يخرج ، فخرج متوجا ، لونه كالنلج ، ووجهه كالقمر ؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، بخلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلم سلطانه كلّ إليه ، وهلك قطفير تلك الليالي ، فزوّج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدن ؟ ! فقالت : أيها الصديق لا تلمني ؛ فإنني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله من الحسن ففلبتني نفسي . فوجدتها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إسماعيل بن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبه : إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتي الإخوة ، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن ، وذهب مالها وعمى بصورها بكاء على يوسف ، فصارت تتكفّف الناس ؛ ففهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها ،

(١) رداء بسيفه . قلده به .

(٢) المرفقة (بالكسر) : المتكافئة .



وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زُهاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرضت له لعله يسفك بشئ ؛ ثم قيل لها : لا تفعل ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخلق حبيبي منك ، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه ، [ قامت <sup>(١)</sup> ] فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ، فقالت : أنا التي كنت أخدلك على صدور قديمي ، وأرجل جُمتك يدي ، وتربيت في بيتي ، وأكرمت مثواك ، لكن فوط مافرط من جهلي وعُتوي فذقت وبال أمرى ، فذهب مالي ، وتضعض ركني ، وطال ذني ، وعيى بصري ، وبعد ما كنت مغبولة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفف الناس ، فمنهم من يرحمني ، ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجددين مما كان في نفسك من حبك لي شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بخذا غيرها ، لكن ناولني صدر سوطك ، فناولها فوضعت على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنتِ أيمًا تزوجناك ، وإن كنتِ ذات بعل أغنيانا ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك ! لم يُردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزى أفريدني اليوم وأنا أعجز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقاتلتها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له ، فقال لها : ألم يبلغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا وما فيها ؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيئت ، ثم رُفَّت إليه ، فقام يوسف يصلي ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها ، فرد الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراما ليوسف عليه السلام لما عَفَّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هي عذراء ، فسألها ، فقالت : يا نبي الله إن زوجي كان عينا لا يأتي النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ؛ قال : فعاشا في خَفَض عيش ، في كل يوم يحدِّد الله لها خيرا ، وولدت له ولدين ، إفرائيم ومنشا . وفيما روى

(١) من ع ، ك ، ي . (٢) في ع : أهدك على صدور قديمي . (٣) خفض ميش : في سعة راحة .

أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لها : ما شأنك لا تحببيني كما كنت في أول مرة؟ فقالت <sup>(١)</sup> [له]: لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء..

الثانية — قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وبغوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم. قال الماوردي: فإن كان المولى ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما — جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقسه بفعله لا بفعل غيره. الثاني — أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم، وتركيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما — أن فرعون يوسف كان صالحاً، وإما الطاغى فرعون موسى. الثاني — أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزال عنه التبعة فيه. قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها — ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليته من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني — ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليته من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجهتد فيما لا يستحق. والقسم الثالث — ما يجوز أن يتولاه لأهله، والاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضين، وتوسطاً بين مجبورين جاز، وإن كان إزام إجبار لم يجوز.

الثالثة — ودلت الآية أيضاً على جواز أن يخاطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً، فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سُمرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

”يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُتِبَ اليها وإن أُعطيها عن غير مسألة أعنت عليها“ . وعن أبي بردة قال قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعرين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك، فقال: ”ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس —“ قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أظلمت على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواك تحت شفته وقد قلصت، فقال: ”لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراد“ وذكر الحديث؛ نرجه مسلم أيضا وغيره؛ فالجواب: أولا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولّاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ بقوله عليه السلام لعبد الرحمن: ”لا تسأل الإمارة“ [وأبضا<sup>(۲)</sup> فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله عليه السلام: ”وكل إليها“ ومن أباحا لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فتر منها، ثم إن أبطل بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: ”أعين عليها“ . الثاني — أنه لم يقل: إني حبيب كريم، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ”الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم]<sup>(۳)</sup> يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم“ ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: »إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ« فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستغنى

(۱) قلصت: أقبضت وأكثرت.

(۲) من ع .

(۳) من ع وى .

من قوله تعالى : « فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع — أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم . [ الرابعة ] <sup>(١)</sup> ودأت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما آتزن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تركية ومراءاة ، وأومزة الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ) أى ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبه إلى قلب الملك ، وإيجائه من السجن مكانه فى الأرض ؛ [ أى ] أقدرناه على ما يريد . وقال الطبرى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على إجازة الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ » <sup>(٢)</sup> وحديث أبى سعيد الخدرى فى عامل خير ، والذى آذاه من التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مردود على ما باتى . يقال : مكَّاه ومكَّاهه ، قال الله تعالى : « مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْسِكْكُمْ » <sup>(٣)</sup> . قال الطبرى : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الریان يوسف على عمل إطفير وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : مأسكه بعد سنة

(١) من ع ، ك ، ي . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢١٢ . (٣) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خير ، فجاءه بجنين ، وهو نوع جيد من أنواع التمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل تمر خير هكذا » فقال : لا والله بأرسول الله ، إنا لأخذ الصاع من هذا بأصابع بالثلاثة ، فقال : « لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم اباع بالدراهم جنينا » . ( البخارى ) . (٤) راجع ج ٦ ص ٢٩١ .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” لو أن يوسف قال إني حفيظ  
عليك إن شاء الله لملك في وقته “ . ثم مات إطفير فزوجه إطفير راعيل ، فدخل بها  
يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إفرائيم ومنشا ، أبني يوسف ، ومن زعم أنها زليخاء  
قال : لم يتزوجها يوسف ، وأنها لما رآته في موكب بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذي جعل الملوك  
عبيدا بالمعصية ، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمها إليه ، فكانت من عياله  
حتى ماتت عنده ، ولم يتزوجها ؛ ذكره الماوردي ؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب ، وذكره  
التعلي ؛ قاله أعلم . ولما فُوض الملك أمر مصر إلى يوسف تَلَطَّف بالناس ، وجعل يدعوهم  
إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحببه الرجال والنساء ، قال وهب والسدي  
وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم  
أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت الغلة أمر بها بجمعها ، ثم بنى لها الأهرام ، فجمعت  
فيها في تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك ، حتى إذا  
انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجذبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ؛  
فإن الله سَلَطَ عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان :  
إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت  
عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا  
وبعض إلى الغاية ، فأجتمعت هاتان علامتان في عهد يوسف ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان  
يتنادون الجوع الجوع ! ! يا كلون ولا يشبعون ، وانتبه الملك ، ينادى الجوع الجوع ! !  
قال : فدعا له يوسف فأبراه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها ؛  
معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرا فيضيع البذر ولا يطلع شيء . وجاءت تلك السنون بهول  
عظيم لا يوصف ؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه  
الجوع في نصف الليل ، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا  
أوان القحط ؛ فلما دخلت أول سنة من سني القحط هلك فيها كل شيء . أعدوه في السنين



الخبيصة ، فجعل أهل مصر يتعاون الطعام من يوسف ، فباعهم أول سنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ، و باعهم في السنة الثانية بالحنى والجواهر ، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شئ ، و باعهم في السنة الثالثة بالمواشى والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، و باعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ، و باعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع ، حتى ملكها كلها ، و باعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعا و باعهم في السنة السابعة برفاقهم ، حتى لم يبق [ في السنة السابعة ] بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ، فقال الناس : والله ما رأينا ملكا أجلا ولا أعظم من هذا ، فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صنع ربى فيما خَوَّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ، وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض ممالكك ، وخَوَّل من خَوَّلك ، فقال يوسف عليه السلام : إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء ، وإني أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستن بسنتى . و يروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : اتجوع ويبدك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ، وأمر يوسف طباطب الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ، فن تم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار .

قوله تعالى : ﴿ يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا ، والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال ابن عباس وهب : يعنى الصابرين ، لصبره في الحب ، وفي الرق ، وفي السجن ، وصبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة . وقال المساوردى : وأختلف فيما أوتي به يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه . الثانى — أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله في الآخرة .

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى مانعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيتاه فى الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع، وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متق، وأنشدوا:

أَمَا فى رسول الله يوسف أُسْوَةٌ • لثلك محبوباً على الظلم والإفك  
أقام حَبِيلَ الصَّبْرِ فى الحبس بُرْهَةً • قَالَ به الصَّبْرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مَضْبِيقِ الخوفِ مُنْصَعُ الأَمْنِ • وأول مفروج به آخر الحزنِ  
فلا تَيْسَسْنَ فلقه مَلَكٌ يوسُفًا • نِزَانَتَه بعد الخلاصِ من السَّجْنِ

وأنشد بعضهم :

إِذَا الحَادِثَاتُ بَلَغَتْ التَّهْيَ • وَكَادَتْ تَدُوبُ هُنَّ المَهْجَ  
وحلَّ البلاءِ وَقَلَّ العَزَاءُ • فعند التَّنَاهَى يكونُ الفَرْجُ

والشعر فى هذا المعنى كثير .

قوله تعالى : وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أى جاءوا إلى مصر لما أصابهم الفحط ليمتاروا؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز . قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس الفحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده لئيرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق، لبيته وقربه ورحمته ورافته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس [لنّاس<sup>(١)</sup>] عند البيع بنفسه، فيعطيه من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقاً<sup>(٢)</sup> . ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَّفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لأنهم خَلَفُوهُ صبياً ، ولم يتوهوا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من الملكة ، مع طول المدة ؛ وهى أربعون سنة . وقيل : أنكروهم لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر : وقيل : رأوه لابس حرير ، وفى عنقه طوق ذهب ، وعلى رأسه تاج ، وقد تزيّأ بزيّ فرعون مصر ؛ ويوسف

(١) من عرك وروى .

(٢) الوسق ستون صاعاً ؛ والأصل فى الوسق الحمل .

راهم على ما كان عهدهم في الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه . وقيل :  
أذكروه لأمر خارق امتحانا امتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ  
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ  
فَلَا يَكِلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿١٢﴾  
قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ يقال : جَهَّزْتُ القوم تجهيزاً أى تكلفت لهم  
بجهازهم للسفر ، وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج ، وجوز بعض الكوفيين  
الجهاز بكسر الجيم ، والجهاز في هذه الآية الطعام الذى آتاروه من عنده . قال السدى :  
وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيراً ، وهم عشرة ، فقالوا ليوسف : إن لنا أخاً تخاف  
عنا ، وبعيره معنا ، فسألهم لم تخاف ؟ فقالوا : لحب أبيه إياه ، وذكروا له أنه كان له أخ  
أكبر منه نخرج إلى البرية فهلك ، فقال لهم : أردت أن أرى أحاكم هذا الذى ذكركم ،  
لأعلم وجه عجة أبيكم إياه ، وأعلم صدقكم ، وروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة ، حتى يأتوا  
بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال [يوسف <sup>(١)</sup>] للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ،  
وزيكم مخالف لزيتنا ، فلعلمكم جواسيس ، فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس ، بل نحن  
بنو أب واحد ، فهو شيخ صدق ، قال : فكم عدتكم ؟ قالوا : كنا اثني عشر فذهب أخ  
لنا إلى البرية فهلك فيها ، قال : فإين الآخر ؟ قالوا : عند أبينا ، قال : فن يعلم صدقكم ؟  
قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرفناك أنسابنا ، فبأى شئ تسمن نفسك إلينا ؟ فقال  
يوسف : ﴿ أَتَأْتُونِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ، فانا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ  
أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ » أى أتمه ولا أبخسه ، وأزيدكم حل بعير لأخيكم « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ  
فَلَا يَكِلَ لَكُمْ عِنْدِي » توعدهم ألا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أنه رخص  
لهم في السعر فصار زيادة في الكيل . والثاني — أنه كال لهم بمكيل واف . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ  
(١) منع وكوى .

الْمُتَرَلِّينَ ﴿۱﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين ، لأنه أحسن ضيافتهم ؛ قاله مجاهد .  
الثاني — وهو محتمل ؛ أي خير من نزاهة عليه من المأمونين ؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ من النزل وهو الطعام ، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَلَّ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد ،  
لأنه قد وقَّاهم كيِّلهم في هذه الحال . ﴿ وَلَا تَقْرُبُونِ ﴾ أي لا أتزلكم عندي منزلة القريب ،  
ولم يرد أنهم يبعدون منه ولا يعودون إليه ؛ لأنه على العود حَتَمٌ . قال السُّدِّي : وطلب منهم  
رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتب شمعون عنده ؛ قال الكلبي : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم  
الجبأجلهم قولاً ، وأحسنهم رأياً . و « تَقْرُبُونِ » في موضع جزم بالنهي ، فلذلك حذف  
سنة [ النون وحذفت ] الباء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبراً لكان « تَقْرُبُونِ » بفتح النون .  
قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَتَرَأُودُ عَنْهُ آيَاتُهُ ﴾ أي سنطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا .  
﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامون المجيء به ، وعملون في ذلك .

مسئلة — إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟  
قبل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك  
بتلاي يعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فاتبع أمره فيه . الثاني — يجوز أن يكون أراد بذلك  
أن يئبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث — لتتضاعف المصرة ليعقوب  
برجوع ولديه عليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لئلا كان منه  
إليه ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ  
يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم ؛ وهي اختيار  
أبي حاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفَتْيَانِهِ » وهو اختيار أبي عبيد ؛ وقال :  
(١) في الأصول : يبدوا ، يعودوا . ولم يظهر وجه لحذف النون . (٢) من ع وك و ر .

هو في مصحف عبد الله كذلك . قال الثعلبي : وهما لغتان جيدتان ؛ مثل الصبيان والصبية قال النحاس : « لِفَتْيَانِهِ » مخالف للسواد الأعظم ؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون ، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضاً فإن فتية أشبه من فتيان ؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرجال أشبهه . وكان هؤلاء الفتية يسوون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالهم . ويجوز أن يكونوا أحراراً ، وكانوا أعواناً له ، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام . وقيل : كانت دراهم ودنانير . وقال ابن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر ، ويسمى رحلاً ؛ قال ابن الأنباري : يقال للوعاء رحل ، وللبيت رحل . وقال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لجواز ألا تسلم في الطريق . وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك ؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه . قيل : ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام . وقيل : استفتح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام . وقيل : ليروا فضله ، ويرغبوا في الرجوع إليه .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئِيعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَئِيعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ لأنه قال لهم : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » وأخبروه بما كان من أمرهم ولاكرامهم إياه ، وأن شعمون مرتين حتى يعلم صدق قولهم . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ ﴾ أى قالوا عند ذلك :

(١) ف : أجراء أو كانوا . وهو الحق . (٢) ف : عرك . بن .



« فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ » والأصل نَكَالٌ، فحذفت الضمة من اللام للجزم، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم « نَكْتَلُ » بالنون وقرأ سائر الكوفيين « يَكَلُ » بالياء؛ والأقول اختيار أبي عبيد، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يَكَلُ، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده. قال النحاس: وهذا لا يلزم، لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين؛ أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يَكَلُ معنا؛ فيكون للجمع، أو يكون التقدير على غير التقدير والتأخير؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع، لقوله: « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا يَكِلُ لَكُمْ عِنْدِي ». ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) من أن يناله سوء.

قوله تعالى: ( قَالَ حَلَّ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ) أى قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه! ( قَالَ خَيْرٌ حَفِظًا ) نصب على البيان، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال. وقال الزجاج: على البيان؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم؛ ومعنى الآية: حفظ الله له خير من حفظكم إياه. قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب: « قَالَ خَيْرٌ حَافِظًا » قال الله تعالى: وعزني وجلالي لأردن عليك أبنيك كليهما بعد ما توكلت عليّ.

قوله تعالى: ( وَلَمْ تَقْعُزُوا مَتَاعَهُمْ ) الآية ليس فيها معنى يشكل ( مَا تَبْنِي ) « ما » استفهام في موضع نصب؛ والمعنى: أى شئ نطلب وراء هذا؟! وقى لنا الكيل، ورد علينا الثمن؛ أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم. وقيل: هى نافية؛ أى لا نبني منك دراهم ولا بضاعة، بل تكفيتنا بضاعتنا هذه التى ردت إلينا. وروى عن علقمة « يَدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء؛ لأن الأصل رِدَّتْ؛ فلما أدم قلبت حركة الدال على الراء. وقوله: ( وَتَحْيُرْ أَهْلُنَا ) أى نجلب لهم الطعام؛ قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مَائِرًا فَكُنْتُ حَوْلًا • مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَن تَبْنِي

وقرأ السلمي بضم النون، أى نعينهم على الميرة. ( وَزَرَدَادُ كُلِّ بَعِيرٍ ذَلِكَ كُلُّ بَعِيرٍ ) أى جبل بعير لبنيامين.

قوله تعالى : قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٣﴾

فيه مستثان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أى تعطونى . ﴿ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ ﴾ أى عهدا يوثق به . قال السدى : حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يُسلمونه ، واللام فى ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد : إلا أن تهلكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تغلبوا عليه . قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ للملف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالثبوت والعدل .

الثانية — هذه الآية أصل فى جواز الحَمَالَةِ بالعين والوثيقة بالنفس ، وقد اختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المنحمل به مالا . وقد ضعف الشافعى الحَمَالَةَ بالوجه فى المال ؛ وله قول كقول مالك . وقال عثمان البنى : إذا تكفل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يمس به لزمه الدية وأرض الجراح ، وكانت له فى مال الجانى ، إذا لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الحَمَالَةِ بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حد أو تعزير ، على ما يأتى بيانه :

قوله تعالى : وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْكُرْتُمْ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٤﴾

(١) الحَمَالَةُ : الكفالة .

فيه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخروج خشى عليهم العین ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العین لكونهم أحد عشر رجلا رجُل واحد ؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبَسْطَة ؛ قاله ابن عباس والضحاك وقادة وغيرهم .

الثانية — إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العین ، والعین حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن العین لتدخل القبر والجل القدر “ . وفي تمؤده عليه السلام : ” أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة “ ما يدل على ذلك . وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخِرَاز فترع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كالיום ولا جلد عذراء ! فوَعَّك سهل مكانه واشتدَّ وعك ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وعك ، وأنه غير راضٍ معك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت<sup>(۱)</sup> إن العین حق تَوَضَّأَ له “ فتوضَّأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ في رواية ” أغتسل “ فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجله وداخل إزاره في قدح ثم صبَّ عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشَمَين ؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها ففسلت له ؛ ففى هذين الحديثين أن العین حق ، وأنها تقتل كما قال [النبي<sup>(۲)</sup>] صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا قول علماء الأئمة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم عجوجون بالنسبة وإجماع علماء هذه الأئمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود ؛ فكم من رجل

(۱) الخِرَاز : ماء بالمدية . (۲) برك : قال برك الله فيه ؛ وهذا القول سلا . تأثر العین وسبب ما بها .

(۳) في ع : مع الناس . (۴) من ع .

أدخلته العين القبر ، وكَم من جمل ظهير أدخلته القدر ، لكن ذلك بمشئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> » . قال الأصمعي : رأيت رجلا عَمُوا سمع بقرة تحلب فأعجبه تخفها فقال : أَيْتَنَ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكا جميعا ، المورى بها والمورى عنها . قال الأصمعي . وسمعت يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخج من عيني .

الثالثة — واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك ، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : « ألا بَرَكْتَ » فدل على أن العين لا تنضر ولا تعدو إذا بَرَكَ العائن ، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبرِّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة — العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاعتسال ، ويُجبر على ذلك إن أباه ؛ لأن الأمر على الوجوب ، لاسميا هذا ؛ فإنه قد يخاف على آلمعين الهلاك ، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سميا إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .

الخامسة — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفى ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به ؛ ومن قال : يحبس ويؤمر بلزوم بيته . فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة — روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال : دُخِلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابي جعفر بن أبي طالب فقال لحاضتهما : « مالي أراهما ضَارِعِينَ <sup>(٢)</sup> » فقالت حاضتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمتعنا أن نَسْتَرْقِي لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) راجع ٢٠٥ ص ٥٥٥ . (٢) في ع و ك وى : هنا . (٣) الضارع : النعيف الضاوى الجسم .

لو سبق شيء القدر سبقته العين . وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت  
عُميس الخثعمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح ، وفيه أن الرقي  
مما يُستدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه ، أى تضعفه وتغله ؛ وذلك بقضاء  
الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

السابعة — أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة العائى بالاعتسال للبعين ،  
وأمر هنا بالاسترقاء ؛ قال علماؤنا : إنما يسترق من العين إذا لم يعرف العائى ؛ وأما إذا عرف  
الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى من شيء أحذرته عليكم ؛  
أى لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أى الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾  
أى اعتمدت ووثقت . ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي  
عَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ  
لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِنَتْهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا  
عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ  
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبرُ إِنَّكُمْ لَسَدْرُقُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أى من أبواب شئ . ﴿ مَا كَانَ  
يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من  
الأول . ﴿ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أى خاطر خطر بقلبه ؛ وهو وصيته أن يتفزعوا ،  
قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم



فيبطش بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال: ولا معنى للعين هاهنا. ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني يعقوب. ﴿لَدُوِّ عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أى بأمر دينه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه. وقيل: «لَدُوِّ عِلْمٍ» أى عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمى بما هو بسببه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال قتادة: ضمه إليه، وأنزله معه. وقيل: أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقى أخوه منفرداً فضمه إليه وقال: أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرّاً من إخوته: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أى لا تحزن ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له: لا تردني إليهم، فقال: قد علمت اغتنام يعقوب بي فيزداد غمه، فأبي بنيامين الخروج؛ فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجهل بك: فقال: لا أبالي! فدس الصاع في رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصه بذلك. والتجهيز التسريح وتجهيز الأمر؛ ومنه جهّز على الجرح أى قتله، ونجّز أمره. والسقاية الصواع شئ واحد؛ إناؤه رأسان في وسطه مقيض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شئ يشرب به فهو صواع؛ وأنشد:

\* تَشْرَبُ الْخَمْرَ بِالصَّوَاعِ جَهَّاراً \*

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان صواع الملك شئ من فضة يشبه المكوك، من فضة مرصع بالجواهر، يعجل على الرأس؛

وكان للهباس واحد في الجاهلية ، وسأله نافع<sup>(١)</sup> بن الأزرق ما الصواع ؟ قال : الإناء ؛ قال فيه الأعشى :

لَه دَرَمَكْ فِي رَأْسِهِ وَمَشَارِبُ \* وَقَدَرُو طَبَآخُ وَصَاعٌ وَدَيْسَقُ<sup>(٢)</sup>

وقال عكرمة : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ؛ وبه كمال طعامهم . مبالغة في إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزة الطعام . والصاع يذكر ويؤثت ؛ فمن أنثته قال : أَصُوعُ ؛ مثل أدور ، ومن ذكره قال أَصَوَاعُ ؛ مثل أنواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطَّرِجَمَالَةُ بلفظة جدير . وفيه قراءات : « صَوَاعُ » قراءة العامة ؛ و « صُوعُ » بالعين المعجمة ، وهي قراءة يحيى بن يعمر ؛ قال : وكان إناء أصيغ من ذهب . « وَصُوعُ » بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا . « وَصُوعُ » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبي . « وَصِيَّاعُ » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهي قراءة أبي هريرة .

قوله تعالى : ( ثُمَّ أَذْنٌ مُؤَدِّنٌ أَبَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ) أى نادى مناد وأعلم . « وَأَذَنٌ » للتكثير ؛ فكانه نادى مرارا « أَبَيْتُهَا الْعِيرُ » . والعير ما أمتير عليه من الجير والإبل والبغال . قال مجاهد : كان عيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير ، كقولهم : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » ويا خيل الله أركبي : أى يا أصحاب خيل الله ، وسيأتي . وهنا اعتراضان : الأول — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، وواقفه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى أخوته وهم برآء وهو — الثاني — فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أولا تراه لما فقدته قال : « يَا أَسَفًا عَلَى يَوْسُفَ » ولم يعترض على بنيامين ؛ ولعل يوسف إنما واقفه على القعود بوحى ؛ فلا اعتراض . وأما نسبة

(١) كذا في أروع ركوى . ولله الأشيء ؛ وفى ر : مالك . (٢) الدبى : عنوان من فضة . والبيت من قصيدة يمدح بها الخلق مظلما .

أرقت وما هذا السهاد المورق \* وما بي من سقم وما بي عثق  
(٣) ف : أبى جعفر . والذى في شواذ ابن خالوية : صواع سعيد بن جبير . بنين معجمة . وابن عطية .

يوسف المارقة إلى إخوانه فالجواب : أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فالفقه في الحب ، ثم باعوه ؛ فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر — وهو أنه أراد أيّتها العير حال السراق ؛ والمعنى : إن شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر — وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع في رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أى أو إنكم لسارقون ؟ كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ <sup>(١)</sup> » أى أو تلك نعمة تمنها على ؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف صلى الله عليه وسلم الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَاَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَقْذِرُ صَوَاعَ الْمَلَكَ وَلَئِنْ جَاءَ بِهِ خِمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ بِهِ خِمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ . البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين . وقيل : إنه الحمار ، وهى لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد وأخبره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ » . والزعيم والكفيل والخيل والضمين والقبيل سواء والزعيم الرئيس . قال <sup>(٢)</sup> :

وَلَيْتَ زَعِيمٌ إِنْ رَجَعْتُ مُمْلِكًا \* بَسِيرٌ تَرَى مِنْهُ الْفُرَاقِ أَرْوَرًا  
وقالت لبلب الأخيلى تَرَى أَخَاها :

وَحُخِرَ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَحَالُهُ \* يَوْمَ الْلِقَاءِ مِنَ الْحِيَاءِ سَقِيًا

(١) راجع ج ١٣ ص ٩٣ . (٢) هو أمرؤ القيس . والفراق : سبع يصبح بين يدي الأسد كأنه ينذر الناس به ؛ وهو فارسي معرب . والأزور : المسائل في شق ؛ أى إن ملكنى قبصر فإنى أسير سيرا شديدا يميل منه الفراق من شدة بجانب . (٣) كذا في الأصل ولعله ترفى نوبة . وفي صفته بحرق القميص أقوال : الأول — أن ذلك إشارة إلى جذب الفتاة له . الثانى — أنه يؤثر بجذبه ثيابه فيكسوها ويكنى بمعاوزها . الثالث — أنه غليظ المنكأ ، وإذا كان كذلك أصرع الحرق إلى قبسه . الرابع — أنه كثير الغزوات متصل في الأسفار ، فقبسه منخرق لذلك .

حَسْبِيَ إِذَا رَفَعَ اللَّوَاءَ رَأَيْتُهُ \* [تَحْتَ اللَّوَاءِ] عَلَى الْخَبِيسِ زَعِيماً

الثانية — إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمن المجهول لا يصح ؟  
قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالْوَسْق ؛ فصح ضمانه ، غير أنه [كان] بدل  
مالٍ للسارق ، ولا يحل للسارق ذلك ، فلعله كان يصح في شرعهم أو كان هذا جعالة ، وبذل  
مال لمن [كان] يفتش ويطلب .

الثالثة — قال بعض العلماء : في هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد  
أجيز للضرورة ؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة مالا يجوز في غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فعل  
كذا فله كذا صح . وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه ؛  
بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائزة  
التي يجوز لأحدهما فسخه ؛ إلا أن المجهول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده ، إذا رضى  
بإسقاط حقه ، وليس للجامل أن يفسخه إذا شرع المجهول له في العمل . ولا يشترط في عقد  
الجُعْل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : « وَلَمَّا جَاءَ بِهِ جُمْلُ بَعِيرٍ » وبهذا كله  
قال الشافعي .

الرابعة — متى قال الإنسان ، من جاء بعبدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا  
جاء به ؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : « من جاء بآبق فله أربعون درهما » ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان  
أو غير عقد . قال ابن خُوَزِمَنَدَادَ ولهذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه  
أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .  
قلت : وبخالفنا في هذا كله الشافعي .

(۱) كذا في « أمال القائل » و « الشعر والشعراء » و « الحاشية » . وفي الأصول : يوم المباح .

(۲) من ع .

الخامسة — الدليل الثاني — جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام ، قال علماؤنا : إذا قال الرجل تتكفل أو تكفأت أو ضمنت أو واثنا حميل لك أو زعيم أو كفيل أو ضامن أو قبييل ، أو هو لك عندي أو على- أو إلى- أو قبل فذلك كله حتمالة لازمة ، وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ، هل يلزمه ضمان المال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعي : إذا تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال ؛ والمحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطالب بمال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأت به فكأنه فوته عليه ، وعززه منه ؛ فذلك لزمه المال . واحتج الطحاوي للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول [ به <sup>(١)</sup> ] فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة — واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب ؛ لأن التبديية بالذي عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء . وقال ابن أبي ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالا تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ واحتج ببراءة الميت من الدين بضمين أبي قتادة <sup>(٢)</sup> ، وبنحوه قال أبو ثور .

(١) من عرى . (٢) الحديث : روى سلمة بن الأكوع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بمجانزة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم ، قال : "هل ترك شيئا" قالوا : لا ، قال : "هلوا على صاحبكم" قال أبو قتادة : صلى الله عليه وسلم قال "دينه" ، فصل عليه .



السابعة - الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتاً مستقراً ، فلا تصح الحالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ، لأن العبد إن عجز رقباً وأتفست الكتابة ، وأما كل حق لا يقوم به أحد من أحد كالحقوق فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره .

وشد أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص ، وقالوا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتي حاضرة كفله ثلاثة أيام ، وأخرج لهم الطحاوي بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحض الصحابة .

قوله تعالى : **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** ﴿٧٦﴾ **قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ** ﴿٧٧﴾ **إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ** ﴿٧٨﴾ **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ** ﴿٧٩﴾ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴿٨٠﴾ قوله تعالى : **( قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ )** يروى أنهم كانوا لا يزلون على أحد ظالماً ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواههم الأيكة لئلا تعيث في زروع الناس . ثم قال : **( وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ )** يروى أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم ، أي فمن رد ما وجد فكيف يكون سارقاً ؟ !

قوله تعالى : **( قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ )** المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم ؟ فأجاب إخوة يوسف : **( جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ )** أي يُستعبد ويُسرق . «جَزَاؤُهُ» مبتدأ ، و«مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ» خبره ، والتقدير : جزاؤه استعباد من وجد في رحله ؛ فهو كناية عن الاستعباد ، وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القبط فهوذا جزاؤه . **( كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ )** أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسترقوا ، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يسترب نفسه ؛

(١) في ع : يجب .

لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضمني ما أخذ ، قاله الحسن والسدي وغيرهما .

مسئلة - قد تقدم في سورة « المائدة » أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من الفرائع ، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعالى : **قَبْدًا يَأْوِعِيهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( **قَبْدًا يَأْوِعِيهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ** ) إنما بدأ يوسف برحالم لنفي التهمة والريبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرهما ، لغتان ؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . ( **ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ** ) يعنى بنيامين ؛ أى استخرج السقاية أو الصواع عند من يؤث ، وقال : « وَلَمَّا جَاءَ بِهِ » فذكر ، فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم ، وظنوا الظنون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لي بمن وضعه في متاعى . ويروى أنهم قالوا له : يا بنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله ؛ قالوا : فمن جعل الصواع في رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة في رحالك . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك ؛ وظاهر كلام قادة وغيره أن المستغفر كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع حتى فرغ منهم ، وأنه انتهى إلى رحل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئاً ، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى نفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذن سرقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى ؛ ويقوى ذلك قوله تعالى : « **كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ** » .

(١) راجع ٦٦ ص ١٦٢ . (٢) في ع : ويقال .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِبُيُوتٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . القُتَيْبِيُّ : دَبَرْنَا .

ابن الأثير : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادَتْ وَكَدَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ \* لَوْ عَادَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا مَا قَدَّمَ

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، ونحوت التحليل .

الثانية — أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع

والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأطل الساعي أنه لا يحل

له التحيل ولا نقصان ، ولا أن يفرق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق . وقال مالك :

إذا قُوتٌ <sup>(١)</sup> من ماله شيئاً ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند

الحول ، أخذاً منه بقوله عليه السلام : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » . وقال أبو حنيفة : إن نوى

بتفريقه <sup>(٢)</sup> الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضره ؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول ،

ولا يتوجه إليه معنى قوله : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » إلا حينئذ . قال ابن العربي : سمعت أبا بكر

محمد بن الوليد الفهري وغيره يقول : كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي

الدامقاني صاحب عشرات آلاف [ دينار <sup>(٣)</sup> ] من المال ، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه

فقال لهم : كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وهذا مال لأحتاجة فهو لكم ، ثم يخرجهم فيحمله

الرجال على أعناقهم إلى دور بنيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما

أملنا حياتك ، وأما المال فأى رغبة لنا فيه مادمت حياً ؛ أنت ومالك لنا ، نفذه إليك ،

ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه ، فيرده إلى موضعه ؛ يريد بتبديل الملك إسقاط

الزكاة هل رأى أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرق ؛ وهذا خطب عظيم

وقد صنف البخاري رضي الله عنه في جامع كتاباً مقصوداً فقال : « كتاب الحيل » .

(١) في : فرق . (٢) في : بنحوه . (٣) من عدى .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وآلا يفترق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك ، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة ؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نائر الرأس . الحديث ؛ وفي آخره : « أفلح إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » . وقال بعض الناس : في عشرين ومائة بعير حقتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهما أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون كثر أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زببتان ويقول أنا كنتك » الحديث ، قال المهلب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفرقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : « أفلح إن صدق » أن من رام أن ينقض شيئا من فرائض الله بحيلة يخطأها أنه لا يفلح ، ولا يقوم بذلك عذره عند الله ؛ وما أجازاه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الحسب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط ، والله حسيبه ؛ وهو كن فز من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، واستعمل سفرا لا يحتاج إليه ، رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين<sup>(١)</sup> ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل ، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الثالثة — قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ » . دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وهم عظيم ؛ وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » قبل فيه : كما مكّا ليوسف ملك نفسه عن امرأة العزيز مكّا له ملك الأرض عن العزيز ، أو مثله ما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعموى : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ<sup>(٢)</sup> » وهذا ليس

(١) فع رى : بأى وجه منها . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢١٢ .

حيلة، إنما هو حل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشفيعي : ومثله حديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بجمير جنيب ، الحديث ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا ويتاع جنيبا من الذي باع منه الجمع أو من غيره . وقالت المالكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جنيبا يجمع ، والدراهم ربا ؛ كما قال ابن عباس : جريرة بجريرة والدراهم ربا .

قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى سلطانه ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عاداته ، أى يظلم بلا حجة . مجاهد : في حكمه ؛ وهو استرقاق السراق . ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله تعلقة وعذرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل ، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ شَاءَ ﴾ أى بالعلم والإيمان . وقرئ « ترفع درجات من شاء » بمعنى : ترفع من شاء درجات ؛ وقد مضى في « الأنعام » وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال : كما عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذي علم عليم ؛ فقال ابن عباس : بئس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّبِعُهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَهُ أَبُو شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِينُ ﴿٧٩﴾

(۱) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة ، وليس مرغوبا فيه . (۲) كذا في الأصل وفي « أحكام القرآن لابن العربي » ولعل العبارة كما في ع : حرية بالمهلة . (۳) راجع ج ۷ ص ۳۰ فابدها .



قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ المعنى : أى أقتدى بأخيه ، ولو أقتدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليعروا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقدس جذبته عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشا كل فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمه يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها منطقة إسحق لسنها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالنسب ، وهذا مما نُسِخ حكمه بشرعنا ، وكان من سرق استعبد . وكانت عمه يوسف حصنته وأحبته حباً شديداً ؛ فلما ترعرع وشب قال لها يعقوب : سلمى يوسف إلى ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ؛ فولعت به ، وأشفقت من فراقه ؛ فقالت له : دعه عندى أياماً أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق ، خزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسحق ، فانظروا من أحدها ومن أصابها ؛ فالتست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ؛ فأمسكنه حتى مات ؛ فبذلك عبره إخوته فى قولهم : ﴿ إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ . ومن هاهنا تعلم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جبیر : إنما أمرته أن يسرق صتماً كان لجدته أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييراً للذكر ؛ فرموه بالسرقة وعيروها ، وقاله قتادة . وفى كتاب الزجاج : أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العوفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق نجباء فعيروه بذلك . وقيل : إنه كان يسرق من طعام المائدة للساكنين ؛ حكاه ابن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ ﴾ أى أسره فى نفسه قولهم : « إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » قاله ابن شجرة وآبن عيسى . وقيل : إنه أسره فى نفسه قوله : ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانٍ ﴾ ثم جهر فقال : ﴿ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

[قاله ابن عباس ، اى اتم شر مكانا من نسبتوه الى هذه السرقة . ومعنى قوله « واقه أعلم بما تصفون<sup>(۱)</sup> » [ اى الله أعلم أن ما قلتم كذب ، وإن كانت لله رضا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا تَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بعزل الأول أو موته . وقولهم : « إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا » اى كبير القدر ، ولم يريدوا كبر السن ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « تَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ » اى عبداً بدلاً ؛ وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حريستى بدل من قد أحكت السنة عندهم رقه ؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : أقفنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكك مبالغ فى استزاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « تَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ » حقيقة ؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حر ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الجمالة ؛ اى أخذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ؛ ويعرف يعقوب جلية الأمر ؛ فنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الجمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، غير لازمة إذا أبى الطالب ؛ وأما الجمالة فى مثل هذا على أن يلزم الجليل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، فلا يجوز إجماعاً . وفى « الواضحة » : إن الجمالة فى الوجه فقط فى [ جميع<sup>(۲)</sup> ] الحدود جائزة ، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . وأختلف فيها عن الشافعى ؛ فتره ضعفها ، ومرة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا ؛ وهذا تأويل آبن إسحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَنَّنَا تَخَذَ ﴾ فى موضع نصب ؛ اى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ « نأخذ » . ﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ اى معاذ الله أن نأخذ البرىء بالمجرم ، ونخالف ما تعاقدا عليه . ﴿ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ ﴾ اى أن نأخذ غيره .

(۱) ن.ع . (۲) هو تظهير . (۳) قد مضى أنهم ليسوا بأنبياء على الصحيح . (۴) ن.ع .

قوله تعالى : فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ ابْنِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ ) أى يَسُوا ، مثل نَجِبَ وَاسْتَعَجَب ، وَخَسِرَ وَاسْتَسَخِرَ . ( خَلَصُوا ) أى انفردوا وليس هو معهم . ( نَجِيًّا ) نصب على الحال من المضمر فى « خَلَصُوا » وهو واحد يؤدى عن جمع ، كما فى هذه الآية ، ويقع على الواحد كقوله تعالى : « وَفَرَّطْنَا نَجِيًّا » <sup>(١)</sup> وجمعه نَجِيَّة ، قال الشاعر : <sup>(٢)</sup>

إِنِّ إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَتَجِيَّةً \* وَأَضْطَرَبَ الْقَوْمُ أَضْطِرَابَ الْأَرَشِيَّةِ  
هَنَّاكَ أَوْصِيَنِي وَلَا تُوصِي بِيَهْ ■

وقرأ ابن كثير : « اسْتَيْسَسُوا » « وَلَا تَاسَسُوا » « إِنَّهُ لَا يَاسِسُ » « أَفَلَمْ يَاسِسْ » بألف من غير همز على القلب ، قدّمت الهمزة وأنثرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفاً لأنها ساكنة قبلها فتحة ، والأصل قراءة الجماعة ، لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء - يأسا - والإيأس ليس بمصدر أَيْسَ ، بل هو مصدر أُسِّتُهُ أَوْسًا وَإِيَامًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيْسٌ وَيُسٌّ لفتان ، أى فلما يَسُوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عَرَضَ لهم . والنَجَى فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ( قَالَ كَبِيرُهُمْ ) قال قتادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السن . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبي : يهودا ، وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لاوى ، وهو أبو الأنبياء . ( أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ )

(١) راجع ج ١١ ص ١١٣ . (٢) هو صبح بن وثيل اليربوعي يصف قوما أتبعهم السير والسفر ففرقوا على ركايبهم واضطربوا عليها ، وشدّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه . وقيل : إنما ضرب به مثلا لنزول الأمر المهم . والأوشبة الحبال التى يسنق بها ، والمراد أنه ثابت الجأش . و( أَوْصِيَنِي وَلَا تُوصِي ) بالياء لأنه يخاطب مؤنثا .

مَوْتًا مِّنَ اللَّهِ) أى عهدا من الله فى حفظ ابنه، وردّه إليه . (وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) «ما» فى محل نصب عطفا على «أَنْ» والمعنى : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف ؛ ذكره النحاس وغيره . و«مِنْ» فى قوله : «وَمِنْ قَبْلُ» متعلقة بـ«تَعْلَمُوا» . ويجوز أن تكون «ما» زائدة ؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «مِنْ قَبْلُ» و«فِي يُوسُفَ» بالفعل وهو «فَرَّطْتُمْ» . ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرًا ، و«مِنْ قَبْلُ» متعلقا بفعل مضمر ؛ التقدير : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل ؛ فالفعل مضمر فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به «مِنْ قَبْلُ» . (فَلَنَ أَرْجِ الْأَرْضَ) أى أزمها، ولا أريج مقيم فيها ؛ يقال : بَرِحَ بَرَّاحًا وَبُرُوحًا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتًا . (حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي) بالرجوع فإنى أستحي منه . (أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي) بالمر مع أبى فامضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وأخذ أبى، أو أعجز فانصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لَسَأُتَنِّى بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» ومن حارب وعجز فقد أحبط به ؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرد وجهه مائة ألف ؛ يقوم شعره فى صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لإخوته — وكان أشدهم غضبا — : إما أن تكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر ؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملك ومن معه ؛ قالوا : بل أكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر ؛ فبعث واحدا من إخوته فعدوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق ؛ فأخذ كل واحد منهم سوقا ؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخلّ معنا أخانا لأصبحن صبيحة لا تبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت مافى بطنها ؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب ؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا واشتد غضبه، وأنتفجت شعراته وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب ؛ كان إذا غضب، أقشع جلد، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تفطر من كل شعرة قطرة دم ؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهتدم البنيان ، وإن صاح صبيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

(٢) قُبِيت : نارت بقوة .

(١) فى : أى من الأرض .

والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه يد من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكل كَلَمَ ولدا له صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كفتي يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه<sup>(١)</sup> وألقى السيف فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضرتي منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فإين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه؛ قال: فأرجع فردّها، أو ألقيها في البحر، ولا تحدثن حدّثا؛ فوالذي آخذ إبراهيم خليلًا! لقد مسني كُف من نسل يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدهم بطشا، فقال: يا معشر العبرانيين! أنظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فرمّكه برجله فدحا به من خلف الجدار—الرُّكْل الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد رمّكه برمّكه؛ قاله الجوهري—ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه [بلجته]<sup>(٢)</sup>، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصواعه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أنذرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أنلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! أستر علينا ستر الله عليك، وأمن علينا من الله عليك؛ ففقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الحب، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛ ولم تنوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتُم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين. لايتونى بالحدادين أقطع

(١) في: غيظه.

(٢) في: دى: بلجته وفي: ر: بلجته.



أيديهم وأرجلهم ، فنضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حي لنكونن طوع يده ، وتوابا يطأ علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : أخرجوا عني ! قد خليت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجلعتكم نكالا .

قوله تعالى : **أَرْجِعُوهُ إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَرْجِعُوهُ إِلَىٰ أَبِيكُمْ** ﴾ قاله الذي قال : « **فَلَنُأَرِّجَ الْأَرْضَ** » . ﴿ **فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ** ﴾ وقرا ابن عباس والضحاك وأبو رزين « **إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ** » . النحاس : وحديثي محمد بن أحمد بن عمر قال حدثنا ابن شاذان قال حدثنا أحمد بن أبي سريج البغدادي قال : سمعت الكسائي يقرأ : « **يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ** » بضم السين وتشديد الزاء مكسورة ؛ على ما لم يُسم فاعله ؛ أي تُسب إلى السرقة ورُمى بها ؛ مثل خوثته وفسقته ولجوثته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « **سَرَقَ** » يحتمل معنيين : أحدهما - علم منه السرقة ، والآخر - أنهم بالسرقة . قال الجوهري : والسرقة والسرقة بكسر الزاء فيهما هو أسمى الشيء المسروق ، والمصدر سرقة يسرق سرقا بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا** » .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « **وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا** » يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا ، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما تعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : **دَسْ هَذَا فِي رَحْلِ مَنْ دَسْ بَضَاعَتَكُمْ فِي رَحَالِكُمْ** ، قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسرق إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله ابن زيد . ﴿ **وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** ﴾ أي لم تعلم وقت أخذناه منك أنه يسرق فلا تأخذه . وقال مجاهد وقطادة : ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان ، كما في « غاية النباية » .

نعلم أن آبنك يُسرق ويصير أمرنا إلى هذا ، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطبق . وقال آبن عباس : يعنون أنه سرق ليلا وهم نيام ، والغيب هو الليل بلغة حمير ، وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه . وقيل : ما دام بمراى متا لم يجر خَلّ ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته . وقيل معناه : قد أخذت السرقة من رَحله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سرقوه ولم يسرق .

الثانية — تضمّنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ، فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن عِلِمَ ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل في الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة ؛ وكذلك الشهادة على الخطّ — إذا تيقن أنه خطّه أو خطّ فلان — صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِدْ المشهود عليه ؛ قال الله تعالى : « إِنْ لَمْ يَكُنْ شَهِيدٌ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشَّهَدَاءِ خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَها » وقد مضى في « البقرة » <sup>(٢)</sup> .

الثالثة — اختلف قول مالك في شهادة المروء وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعتة يقول كذا فإن استوعب القول شهد في أحد قوليّه ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهداه . والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب ؛ وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه [ قد ] <sup>(٣)</sup> حصل المطلوب ، وتعين عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهاداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهاداء إذا كتمها [ والله أعلم ] .

الرابعة — إذا ادّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت ؛ لأنه ادّعى باطلا فأكذبه العيان ظاهرا .

قوله تعالى : وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا <sup>(٤)</sup> وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ

(١) راجع ١٦ ص ١٢٢ . (٢) راجع ٣ ص ٢٩٩ . (٣) من ع . (٤) من كرى .

فيه مستلثات :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾ حَقَّقُوا بِهَا شهادتهم عنده ، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم . فقولهم : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » أى أهلها ، والخُذِفُ ؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزَلُوا بِهَا وَأَمْتَارُوا مِنْهَا . وقيل المعنى : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » وإن كانت جمادا ، فانت نبي الله ، وهو ينطق الجماد لك ، وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار ، قال سيبويه : ولا يجوز كَلَّمْ هِنْدًا وَأَنْتَ تَرِيدُ غَلَامَ هِنْدَ ؛ لأن هذا يُسْكَلُ . والقول في العير كالقول في القرية سواء . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا .

الثانية — في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يُظَنُّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد مُتَكَلِّمٌ ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرَّا وهو قد خرج مع صَفيَّةَ يَقْلِبُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ : « عَلَى رُسُلِكَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُجَيٍّ » فقالا : سبحان الله ! وكَبُرَ عَلَيْهِمَا ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكَا شَيْئًا » رواه البخاري ومسلم .

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَمَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٧﴾

فيه مستلثات :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زَيَّنَتْ . ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ أن آجَى سَرَقَ وما سَرَقَ ، وإنما ذلك لأمر يريده الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأن صبر جميل ؛ أو صبر جميل أولى بي ، على ما تقدم أول السورة .

(٢) كذا في الأصول . ولعل الوارد زائدة فيكون

(١) في : أنت نبي الله ينطق الجماد لك .

بصر خبر أن . (٣) يقلبها ؛ يردّها .

الثانية - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لحجبه عليه وهو العليم الحكيم، ويقندى [بني الله] يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : ما من جرعتين يتجزعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجزعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجزعها العبد بحلم وعفو . وقال ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى : « قَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء ابن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ بَتَّ لَمْ يَصْبِرْ » . وقد تقدم في « البقرة » أن الصبر عند أول الصدمة ، وثواب من ذكر مصيبته وأسترجع وإن تقادم عهدا . وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أعطى على يوسف أجر مائة شهيد ، وكذلك من أحسب من هذه الأمة في مصيبته فله [ مثل ] أجر يعقوب عليه السلام .

قوله تعالى : ( عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ) لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وإنما غاب عنه خبره ، لأن يوسف حمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئاً ، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس ، ثم حبس ، فلما تمكن أحتال في أن يعلم أبوه خبره ، ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك فلا يدعوا الرسول يصل إليه . وقال : « بهم » لأنهم ثلاثة ؛ يوسف وأخوه ، والمتخلف من أجل أخيه ، وهو القائل : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » . ( إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ) بحالى . ( الْحَكِيمُ ) فيما يقضى .

قوله تعالى : وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَاقُ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِصْرَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٦﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ) أى أعرض عنهم ؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين ستام حزنه ، وبلغ جهده ، وجدد الله مصيبته له في يوسف فقال : ( يَا أَسَاقَا

(١) من ع . وفى : بأبوب ، بدل يعقوب . وهو من أغلاط النسخ .

(٢) راجع ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٥ . (٣) من ع وكوى .

عَلَى يُوسُفَ ﴿ وَنَسِيَ أَبْنَهُ بَنِيَامِينَ فَلَمْ يَذْكُرْهُ ۚ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَ يَعْقُوبَ مَا فِي كِتَابِنَا مِنَ الْأَسْتِرْجَاعِ ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ لَمَا قَالَ : « بَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ » . قَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ : وَالْمَعْنَى يَا حَزَنَاهُ ! وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّمَّحَاكُ : يَا جَزَعَاهُ ! ۚ قَالَ كُثَيْبٌ :

فِيَا أَسْفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَنْصَرَفُهُ      وَلِلنَّفْسِ لِمَا سَلَّيْتُ فَتَسَلَّيْتُ

والأسف شدة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعال يا أسف فإنه من أوقاتك . وقال الزجاج : الأصل يا أسني ، فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ قيل : لم يبصرهما ست سنين ، وأنه عَمِيَ ، قاله مقاتل . وقيل : قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ، وإنما أبيضت عيناه من البكاء ، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : « مِنَ الْحُزَنِ » . وقيل : إن يعقوب كان يصلي ، ويوسف ناما معترضا بين يديه ، فغطّ في نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غطّ ثانية فالتفت إليه ، ثم غطّ ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغيطه ، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته : « أَنْظَرُوا إِلَى صَفِيٍّ وَأَبْنِ خَلِيلِي قَائِمًا فِي مَنَاجَاتِي يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِي ، وَعِزَّتِي وَجَلَّالِي ! لَا تُزَعِّقِ الْخَدَقَيْنِ اللَّتَيْنِ التَفَتَ بَهُمَا ، وَلَا تَفَرِّقْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِنَ التَفَتَ إِلَيْهِ ثَمَانِينَ سَنَةً ۚ لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ مَنْ قَامَ بَيْنَ يَدَيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ مِرَاقَبَةٌ نَظْرِي » .

الثانية — هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة — وإن لم يُبطل — يدل على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " . وسيأتي ما للعلماء في هذا في أول سورة « المؤمنون » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب — صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا — فالعلماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها — أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم خاف على دينه ، فاشتد حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرا ، فقدم على ذلك . والجواب الثالث — وهو أئمتنا — هو أن

(١) في روى : واحزنه .



الحزن ليس محذور، وإنما المحذور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسطخ الرب". وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبتثه ومنه كَظُمَ الغبط وهو إخفاؤه ؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ؛ قال الله تعالى : «إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ»<sup>(١)</sup> أى مملوء كرا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ، وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم ؛ قال الشاعر :

فَإِنْ أَكْكَ كَظِيمًا لِمَصَابٍ شَامِسٍ \* فَإِنِ الْيَوْمَ مُنْطَلِقٌ لِّسَانِي

وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهب عيناه من الحزن «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله : «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال : فهو كيد ؛ يقول : يعلم أن يوسف حى ، وأنه لا يدرى أين هو ؛ فهو كيد من ذلك . قال الجوهري : الكد الحزن المكتوم ؛ تقول منه كيد الرجل فهو كيد وكيد . النحاس . يقال فلان كظيم وكاظم ؛ أى حزين لا يشكو حزنه ؛ قال الشاعر :

فَحَصَصْتُ قَوًى وَأَحْتَسَبْتُ قِتَامُ \* وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ الْمَنَابِي كُظُمُ

قوله تعالى : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى قال له ولده : «تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ» قال الكسائي : فَتَاتُ وَفَتِنْتُ أَفْعَلَ ذَلِكَ أى مازلت . وزعم الفراء أن «لا» مضمرة أى لا فتنا ، وأنشد :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا \* وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

(١) راجع ١٨٦ ص ٢٥٣ . (٢) البيت لامرئ القيس و«يمين» بالرفع على الابتداء وإضمار الخبر والتقدير : يمين الله لازمني ؛ وبالنصب على إضمار فعل ، وهو كثير في كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبه بغفوة الرقاب ، وأمرته بالانصراف ، فقال لها هذا ، وأراد : لأبرح غفوت «لا» والأوصال (جمع وصل) وهى المقاصل .

أى لا أبرح؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضم  
فى القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ؛ ولو كان واجبا لكان باللام والنون ؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم  
علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ؛ يقال : ما زال يفعل كذا ، وما قى . وَفَتَاً فهما لغتان ،  
ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر<sup>(۱)</sup> :

فَا فَنَتُّ حَتَّى كَأَنَّ غُبَارَهَا \* سُرَادِقُ يَوْمِ ذِي رِيَّاحٍ تُرْفَعُ

أى ما برحت ففتنا تبرح . وقال ابن عباس : تزال . (حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا) أى نالفا .  
وقال ابن عباس وبجاهد : دفنا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سَرَى هَمَّى فَأَمْرَضَنِي \* وَقَدْ مَا زَادَنِي مَرَضًا  
كَذَاكَ الْحُبُّ قَبْلَ الْيَوْمِ \* مِمَّا بُورِثَ الْحَرَصَا

وقال قتادة : هيرما . الضحك : بالياء دأثرا . محمد بن إسحق : فاسدا لاعتقل لك . الفراء :  
الحارص الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحرص . ابن زيد : الحرص الذى قد رد إلى أرذل العمر .  
الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرج : ذاتبا من ألم . وقال الأخفش : ذاهبا .  
ابن الأنبارى : هالكا ، وكلها متقاربة . وأصل الحرص الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن  
أو العشق أو الهرم ، عن أبى عبيدة وغيره ؛ وقال العري :  
لَمَنِ أَمْرُؤُجٍّ بِي حُبٍّ فَأَحْرَضَنِي \* حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَفَنِي السَّقَمُ

قال النحاس : يقال حرص حرصا وحرص حروضا وحروضة إذا بلى وسقم ، ورجل  
حارص وحرص ، إلا أن حرصا لا يبنى ولا يجمع ، ومثله قَيْنَ وَحَرِيَّ لا يثنان ولا يجمعان .  
التعلبي : ومن العرب من يقول حارص للذكر ، والمؤنثة حارضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ فتى  
وجمع وأنت . ويقال : حرص يحرض حراصة فهو حريض وحرص . ويقال : رجل محرض ،  
ويؤشد :

طَلَبَتْهُ الْخَلِيلُ يَوْمًا كَامِلًا \* وَلَوْ أَلْفَتْهُ لَأَصْحَى مُحْرَصًا

(۱) ق : مع . سوجيا . (۲) هو اوس بن جبرائيل بن الجاهل . (۳) الضمير محمدا .

وقال أمرؤ القيس :

أَرَى الْمَرْءَ ذَا الْأَذْوَادِ يُصْبِحُ مُحْرَضًا \* كَلِحَارِضٍ يَسْكُرُ فِي الذِّبَارِ مَرِيضًا<sup>(١)</sup>

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه ألم إذا أسقمه ، ورجل حارص أى أحق . وقرأ أنس : «حُرَضًا» بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأشتان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحَرَضُ والحَرُضُ الأَشْتَانُ . ﴿أَوْ تَكُونَنَّ مِنَ الْهَآلِكِينَ﴾ أى الميتين ، وهو قول الجميع ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البَث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفها ، وهو من بثنه أى فزقته ، فسميت المصيبة بَثًّا مجازاً ، قال ذوالرئمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَجُلٍ لَيْسَ نَاقِصِي \* فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَحْاطِبِي<sup>(٢)</sup>  
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مَا أَثْبُهُ \* تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَأْبِيهِ

وقال ابن عباس : «بَثِّي» همى . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . ﴿وَحَرَّزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأبجده . قاله ابن عباس . فتادة : إنى أعلم من إحسان الله تعالى إلى ما يوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب للملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكد هذا رجاءه . وقال السدى : أعلم أن يوسف حى ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وحُلقه وقوله أحسست نفس يعقوب أنه ولده فطعم ، وقال : لعله يوسف . [وقال : لا يكون في الأرض صديق إلا نبى . وقيل : أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون<sup>(٣)</sup>]

قوله تعالى : يَلْبِسُنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْخُصُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض ، والفتا . بعد ذلك فلا نفع كثرة ماله ، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه أدهوله بالسقى . (٣) من روى .

قوله تعالى : ( يَا بَنِي آدَمُ أَهْبُوا فَحَسِّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ) هذا يدل على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإنطاق الله تعالى الذنب كما في أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه ؛ وعواظهم . والتحسس طلب الشيء بالحواس ؛ فهو تفعل من الحس ، أى أذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وأحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه . ويروى أن ملك الموت قال له : أطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة ، وأحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها . ( وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ) أى لا تقتطعوا من فوج الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فوج الله ، والكافر يقنط فى الشدة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . ( إِنَّهُ لَا يَتَّبِعُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ) دليل على أن القنوط من الكبار ، وهو اليأس ، وسيأتى فى « الزمر » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُسْرُ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٢٢٦﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ) أى المتعجب . ( مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُسْرُ ) هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، أى نفرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وَأَهْلَنَّا الْفُسْرُ » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبسدى حاله إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ؛ ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكى على سبيل التسخط ؛ والصبر والتجمل فى التوايب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ؛ وأحسن الكلام

في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إِنَّمَا أَشْكُو بَدْحًا وَحَرْبًا  
إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على  
عباده ؛ فاما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السَّفَه ، إلا أن يكون على وجه البت والتسلي ؛  
كما قال ابن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبَنَّ بِأَدَمُ أَقَى ضَارِعَ \* لِنَكْبَةٍ تَعْرِفُنِي عَرَقَ الْمُدَى  
مَا رَسَتْ مِنْ لَوْهَوَاتِ الْأَفْلَاحِ مِنْ \* جَوَانِبِ الْجَوْ عَلَيْهِ مَا شَكَأ  
لَكُنْهَا نَفْسُهُ مَصْدُورٌ إِذَا \* جَاشَ لُغَامٌ مِنْ نَوَاحِيهَا عَمَّا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ؛  
نقول : أبضعت الشيء وأستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفي المثل : تَسْتَبْضِعُ التَّمْرَ  
إِلَى هَجْرٍ .<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿ مُزَجَّاةٌ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإجزاء السُّوق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى :  
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَيِّئًا » والمعنى أنها بضاعة ندفع ؛ ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب :  
البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . اختلفت في تعيينها هنا ؛ ف قيل : كانت قَدِيدًا وحيسا ؛ ذكره<sup>(٦)</sup>  
الواقدي عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقَ الْفَرَّاءُ وَالْحِيَالُ ؛ روى عن  
أبن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة  
الخطراء والصَّنُوبَر وهو البُطْم ، حَبٌ شَجَرٍ بِالشَّامِ ، يُوْكَلُ وَيَعَصَّرُ الزَّيْتُ مِنْهُ لِعَمَلِ الصَّابُونِ ،  
قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدرهم لا تَنَفَّقُ فِي الطَّعَامِ ، وَتَنَفَّقُ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ ؛ فقالوا : خذها منا  
بحسب جِوَادٍ تَنَفَّقُ فِي الطَّعَامِ . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ابن عباس أيضا . وقيل : ليس  
عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال  
والأدم ؛ وعنه : كانت سَوِيْقًا مُتَخَلَا . والله أعلم .

(١) من ع . (٢) الزبد ؛ وهو ما يلقى البعير من فِهْ ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه  
ينفض رأسه ومشفره . (٣) هجر : مدينة بالبحرين . (٤) راجع ج ١٢ ص ٢٨٧ .  
(٥) من ع وى . (٦) كذا في الأصول وفي البحر : قد يد وحش .



قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون كما تباع بالدرهم الجياد لانتقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جريح : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى تفضل علينا بما بين سعر الجياد والريشة . قاله سعيد بن جبير والسدى والحسن : لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » بالزيادة على حقنا ؛ قاله سفيان بن عيينة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريح : المعنى « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » برء أخينا إلينا . وقال ابن شجرة : « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » تجوز عنا ؛ وأستشهد بقول الشاعر :

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا أَبْنَ عَفَّانَ وَأَحْسِبْ « وَأَصْرَ عَلَيْنَا الْأَشْعَرَى لِيَالِيَا

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ) يعنى فى الآخرة ؛ يقال : هذا من معاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظاً يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجهم بالتأويل ؛ قاله النقاش فى الحديث : « إن فى المعاريض (۲) لمنذوحة عن الكذب » .

الثانية — أستدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيل على البائع ؛ قال ابن القاسم وآبن نافع قال مالك : قالوا ليوسف « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوزن والعذاد وغيرهم ، لأن الرجل إذا باع عذة معلومة من طعامه ، وأوجب المقد عليه ، وجب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه ، إلا أن يبيع منه شيئاً — صبرة (۳) أو مالا حق توفية فيه — نخل [ ما ] بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

(۱) فى : يابن حسان . (۲) المعارض : جمع معارض ، من التريض وهو خلاف التصريح من القول .

(۳) الصبرة : الطعام المنجم كالكموة . (۴) من ع .

الثالثة - وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضا ؛ لأن المبتاع الدافع لدرامه يقول : إنها طيبة ، فانت الذى تدعى الرداء فأَنْظِرْ لنفسك ؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه ، وكذلك لا يجب على الذى [يجب<sup>(١)</sup>] عليه القصاص ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه ، إلا أن يمكن من ذلك طائعا ؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده ، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه ، فأجر القطار على المقتص . وقال الشافعى فى المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعة - يكره للرجل أن يقول فى دعائه : اللهم تصدق علىّ ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يتبغى الثواب ، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ فيه ؛ وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدق علىّ ؛ فقال الحسن : يا هذا ! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يتبغى الثواب ؛ أما سمعت قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » قل : اللهم أعطنى وتفضل علىّ .

قوله تعالى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَأَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ أَذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ يَأْتِ بِصَبْرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ ، وهو الذى قال الله : « تَنبِئْتُهُمْ بِأَمْرِ يَوْمٍ هَذَا » الآية . (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) دليل على أنهم

(١) منع وورى . (٢) أى تصديق قول الله ، كافى تفسير الغفر روى : قال الرب .

(٣) منع .

كانوا سفارا في وقت اخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ وبدل على أنه حسنت حالهم الآن؛ أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: «وَأِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا، لأنهم كبروا ولم ينهروا أباهم بما فعلوا حياة وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تقول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: (قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَتَّيُّبُوسُفُ) لما دخلوا عليه فقالوا: «مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ» نخضمو له وتواضعوا ريق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَتَيْنَكَ لَأَتَّيُّبُوسُفُ» قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف تبسم فشبهوه بيوسف واستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ» الآية، ثم تبسم يوسف—وكان إذا تبسم كان ثيابه اللؤلؤ المنظوم—فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: «أَتَيْنَكَ لَأَتَّيُّبُوسُفُ». وعن ابن عباس أيضا: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان يعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ» رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: «أَتَيْنَكَ لَأَتَّيُّبُوسُفُ». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ أبنته، وفي الكتاب: من يعقوب صنيّ الله أبن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر—أما بعد—فإنّا أهمل بيت بلاء ويحمن، ابتلى الله جدّي إبراهيم بخروذ وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبيح، ثم ابتلاني بولد كان لي أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفّ بصرى من البكاء، وإنى لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب آرتعدت مفاصله، واقتشع جلده، وأرنخى عينيه بالبكاء، وعيّل صبره فباح بالسرّ. وقرأ ابن كثير: «إِنَّكَ» على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ». (قَالَ أَنَا يُّوسُفُ) أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة. (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) أى بالنجاة والملك. (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي. (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) أى الصابرين في بلائه، الفاعلين بطاعته. وقرأ ابن كثير: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ» بإثبات الباء، والقراءة بها جائزة على أن تجعل

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل «يَتَّقِي» فى الصلاة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». وقد يجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يتق» فى موضع جزم و«من» للشرط، وثبتت الياء، وتعمل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل، كما قال :

ثم نادى إِذَا دَخَلْتَ دِمَشْقًا \* يَا يَزِيدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ  
وقال آخر :

ألم يأتِكَ والأنبياءُ تنبئ \* بما لَأَقْتُ لَبُؤُونََ بنى زيادٍ  
وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء فى «إِنَّهُ» كناية عن الحديث، والجملة الخبرية.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خففت الثانية، ولا يجوز تحقيقتها، وآسم الفاعل مؤثر، والمصدر إثارة. ويقال : أثرتُ الترابَ إثارةً فأنما مؤثر؛ وهو أيضا على أَفْعَلَ ثم أُعِلَّ، والأصل أَثِيرُ نقلت حركة الياء على الناء، فانقابت الياء ألفا، ثم حذفت لانتفاء الساكنين. وَأَثَرْتُ الحديث على قَعَلْتُ فأنما أَثَرْتُ والمعنى : لقد فضلك الله علينا، وأختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خطيئ يَحْطَأُ إذا أتى الخطيئة، وفى ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لأن عباس : كيف قالوا «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمدوا لذلك؟ قال : وإن تعمدوا لذلك، فما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تحطى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشهمة والمعصية.

قوله تعالى : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف — وكان حليما موقفا — : « لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » وتم الكلام . ومعنى « اليوم » : الوقت . والتتريب التعمير والتوبيخ ، أى لا تعير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم ، قاله سفيان الثوري وغيره ؛ ومنه قوله عليه السلام : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُتْرَبَ عليها » أى لا يعيرها ؛ وقال بشر :

فَعَفَوْتُ عَنْهُمْ عَفْوً غَيْرَ مُتْرِبٍ \* وتركهم لعقاب يوم سمرم

(١) كذا فى الأصل وإعراب القرآن للنحاس . ويلاحظ أن عين الفعل وارد لا ياء ، وعليه فالأصل أنور ، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلت ألفا ، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بضمير متحرك — لانتفاء الساكنين .

وقال الأصمى : تَرَبُّتٌ عليه وَعَرَبْتُ عليه بمعنى إذا قُبِعَتْ عليه نعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بينى وبينكم من الحرمة ، وحق الإخوة ، ولكم عندى العفو والصفح ؛ وأصل التريب الإفساد ، وهى لغة أهل الخجاز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعض أدنى الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناس بالبيت فقال : « الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم قال : « ماذا تظنون يا معشر قريش » قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قَدَّرْتُ ، قال : « وأنا أقول كما قال أنى يوسف » « لَا تَرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ » فقال عمر رضى الله عنه : فَيَضُتُ عَرَفًا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أنى قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولى . ( يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ) مستقبل فيه معنى الدعاء ؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على « عَلَيْكُمْ » والآنول هو المستعمل ؛ فإن فى الوقف على « عَلَيْكُمْ » والابتداء بـ « الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » جَزَمَ بالمغفرة فى اليوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهذا بين . وقال عطاء الخراسانى : طلب الخواشع من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لَا تَرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » وقال يعقوب : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى » .

(۱) قوله تعالى : ( أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ) نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فأما قول الشاعر :

تَدْعُو هَوَازِينَ وَالْقَمِيصُ مُفَاضَةٌ \* فوق النِّطَاقِ تُشَدُّ بِالْأُزْدَارِ

فتقديره : [ والقميص ] دِرْعُ مُفَاضَةٌ . قاله النحاس . وقال ابن السدى عن أبيه عن مجاهد : قال لم يوسف : « أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أُمِّى يَأْتِ بِصَبْرٍ » قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدُّ على يعقوب بهمه ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرر الجنة ، وكان كساه إسمحق ، وكان إسمحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصْبَةٍ من فضة وعلقه فى عُنْقِ يوسف ، لِمَا كَانَ يَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ

(۱) هو جرير . (۲) الزيادة من النحاس .



العين ، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، و [إن] ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبْتَلٍ إِلَّا عَوَى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره ، وكان الذي حمل قميصه يهوذا ، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنه ، وأنا الذي أحمله الآن لأسره ، وليعود إليه بصره ، فخلعه ، وحكاه السدي . ( وَأَتَوْنِي بِأَحْلِيكُمْ أَجْمَعِينَ ) لنتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قد من دبره ، لمسلم يعقوب أنه عَصِمَ من الزنى ، والقول الأول أصح ، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صل الله عليه وسلم ؛ ذكره القشيري والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا سْتَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ( وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ) أى خرجت منطلقا من مصر إلى الشام ، يقال : فَصَلَ فُصُولًا ، وَفَصَلَتْهُ فَصَلًا ، فهو لازم ومتعد . ( قَالَ أَبُوهُمْ ) أى قال لمن حضر من قرابته من لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ( إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ) . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه ، فقال لمن بقى : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » . قال ابن عباس : هاجت ريح فغفلت ريح قميص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال ؛

وعنه أيضا مسيرة شهر . وقال مالك [بن أنس] رضي الله عنه : إنما أوصل ربحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبت ريح فصفت القميص فراحت روايح الجنة في الدنيا واتصلت ببعقوب ، فوجد ريح الجنة فلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : « إِنِّي لَأَجِدُ » أى أشم ؛ فهو وجود بحاسة الشم . (لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ) قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسَفِّهَونَ ؛ ومنه قول النابغة :  
إِلَّا مُسْلِيَانِ إِذْ قَالَ الْمَلِيكُ لَهُ \* قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَأَحْدِثْهَا عَنِ الْفَنَدِ (۲)  
أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جبير والضحاك : لولا أن تكذبون . والفند للكذب . وقد أفند إفتادا كذب ؛ ومنه قول الشاعر :

هل في أنفسخار الكريم من أَوْدِ \* أَمْ هل لِقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُفَبِّحُونَ ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتفنيد التفتيح ، قال الشاعر :  
يا صاحبي دعا لومي وتفنيدى \* فليس ما فات من أمرى بمردود  
وقال ابن الأعرابي : « لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ » لولا أن تُضَعِّفُوا رأيي ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأى من كبر . وقول رابع : تُضَلَّلُونَ ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى . وقال الحسن وقتادة ومجاهد أيضا : تُرْمَوْنَ ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى ؛ يقال : فَنَدَه تفنيدا إذا أعجزه ، كما قال :

\* أهلكنى باللوم والتفنيد \*

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأى ، كما قال النابغة :

\* ... فَأَحْدِثْهَا عَنِ الْفَنَدِ \*

أى أمتعها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يا عاذلى دَعَا الْمَلَامَ وَأَقْصِرَا \* طَالَ الْمَسْوَى وَأَطْلَيْتَا التَّنْفِيدَا

(۱) من وري . (۲) صفقت الريح الشئ . وصفته إذا قلبته يمينا وشمالا وردته .

(۳) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه \* ولا أحاشى من الأنعام من أحد

ويرى : فأردها . وأحدها : أحدها . والفند أيضا الخطأ في الرأى . والظلم أيضا . (۴) أود : موج .

ويقال : أَفْنَدَ فَلَانًا الدَّهْرُ إِذَا أَفْسَدَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ مُقْبِلٍ :

دَجَّ الدَّهْرُ يَفْعَلُ مَا أَرَادَ فَإِنَّهُ \* إِذَا كَلَّفَ الْإِفْنَادَ بِالنَّاسِ أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَإِنِّي ضَالٌّكَ الْقَدِيمِ ﴾ أى لنى ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لنى خطئك الماضى من حب يوسف لا تنساه . وقال سعيد ابن جبير : لنى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قتادة وسفيان : لنى محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بقى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرباته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغاراً ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرُ أَفْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى على عينيه . ﴿ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا ﴾ «أَنْ» زائدة ، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخًا بِالْدَمِ ؛ قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص التُّرَّةِ فدعونى أذهب إليه بقميص الفُرَّةِ . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أى دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يُشِيْبه به ؛ فقال : والله ما أصبْتُ عندنا شيئاً ، وما خبزنا شيئاً منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ، وأفضل العطايا والذخائر . ودلت هذه الآية على جواز البذل والهيّات عند البشائر . وفى الباب حديث كعب بن مالك — الطويل — وفيه : « فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشّرنى نزعْتُ ثوبى فكسوتهما إياه بشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدّم بكالهِ فى قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا<sup>(١)</sup> ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا أرتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع ج ٨ ص ٢٨٢ فابعد .

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والتّرح . ومن هذا الباب جواز حِذَاقَةِ الصبيان ، وإطعام الطعام فيها ، وقد نحر عمر بعد [ حفظه ] سورة « البقرة » جُرُوراً . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذكرهم قوله : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ في الكلام حذف ، التفسير : فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ؛ وهذا يدل على أن الذي قال له : « تَاللَّهِ إِنَّكَ لَنَبِيِّ ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده ؛ فإنهم كانوا غُيَّياً ، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق . والله أعلم . وإِنَّمَا سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له ؛ فإنه يجب عليه أن يتَحَلَّلَ له ويغبره بالمُظْلِمَةِ وقدرها ؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدرٌ وبَالٌ ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضة أو شيء فليحللها منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » قال المهلب فقوله صلى الله عليه وسلم : « أخذ منه بقدر مظلمته » يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشاراً إليها مبينة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ قال ابن عباس : أئخر دعاءه إلى السحر . وقال المثنى بن الصباح عن طاوس قال : سحر ليلسة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفي دعاء الحفيظ — من كتاب الترمذي — عن ابن عباس أنه قال : بينا نحن عند رسول الله

(۲) من ۱ ، ع ،

(۱) حلق اللام القرآن : مهر فيه . ف ع : جواز الفرح بمذاق الصبيان .

ك ، ر ، ي . (۳) ف ع وك : منه . (۴) مظلة (بكسر اللام) وحكى نسخها .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبي طالب - رضى الله عنه - فقال : - بأبي أنت وأُمِّي -  
 تَقَلَّتْ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ صَدْرِي ، مَا أَجِدُنِي أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
 ” أَفَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ وَيَنْفَعُ بِهِنَّ مَنْ عَلمَتْهُ وَيُثَبِّتَ مَا تَعَلَّمَ فِي صَدْرِكَ “  
 قَالَ : أَجَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَعَلِمَنِي ، قَالَ : ” إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثَلَاثِ  
 اللَّيْلِ الْآخِرِ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ وَالِدَعَاءِ فِيهَا مُسْتَجَابٌ وَقَدْ قَالَ أَنَسِي يَعْقُوبُ لَبْنِيهِ « سَوْفَ  
 أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » يَقُولُ حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ “ وَذَكَرَ الْحَدِيثُ . وَقَالَ أَيُّوبُ بْنُ أَبِي تَيْمَةَ  
 السَّخَّيَّانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » فِي اللَّيَالِي الْبَيْضِ ، فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ ،  
 وَالرَّابِعَةِ عَشْرَةِ ، وَالْخَامِسَةِ عَشْرَةِ فَإِنَّ الدَّعَاءَ فِيهَا مُسْتَجَابٌ . وَعَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : « سَوْفَ  
 أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » أَيْ أَسْأَلُ يَوْسُفَ إِنْ عَفَا عَنْكُمْ أَسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ رَبِّي ، وَذَكَرَ سُيُدُ بْنُ دَاوُدَ  
 قَالَ : حَدَّثَنَا هَشِيمٌ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مَحَارِبِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ :  
 كُنْتُ أَتَى الْمَسْجِدَ فِي السَّحَرِ فَأَمُرُ بِدَارِ أَبِي مَسْعُودٍ فَأَتِيهِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي  
 فَاطَعْتُ ، وَدَعَوْتَنِي فَأَجَبْتَ ، وَهَذَا سَحَرٌ فَأَغْفِرْ لِي ، فَلَقِيْتُ أَبَانَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ : كَلِمَاتٍ أَسْأَلُكَ  
 تَقُولُهُنَّ فِي السَّحَرِ ؟ فَقَالَ : إِنْ يَعْقُوبُ أَخْبَرَنِيهِ إِلَى السَّحَرِ يَقُولُهُ : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أَيْ قَصْرًا كَانَ لَهُ هُنَاكَ . ﴿ أَوَى إِلَيْهِ أَبُو يُوْسُفَ ﴾  
 قِيلَ : إِنْ يَوْسُفَ بَعَثَ مَعَ الْبَشِيرِ مَائَتِي رَاحِلَةً وَجَهَازًا ، وَسَأَلَ يَعْقُوبَ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ  
 جَمِيعًا ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أَوَى إِلَيْهِ أَبُو يُوْسُفَ ، أَيْ ضَمَّ ، وَيَعْنِي بِأَبُو يُوْسُفَ أَبَاهُ وَخَالَتهُ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ  
 قَدْ مَاتَتْ فِي وَلَادَةِ أَخِيهِ بَنِيَامِينَ . وَقِيلَ : أَحْيَا اللَّهُ [ لَهُ ] أُمُّهُ تَحْقِيقًا لِلرُّؤْيَا حَتَّى سَجَدَتْ لَهُ ،  
 قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْبَقَرَةِ » أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لَبْنِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَأَمَّنَا بِهِ .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَيْ سَوْفَ اسْتَغْفَرَ لَكُمْ  
 رَبِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ : وَهَذَا مِنْ تَقْدِيمِ الْقُرْآنِ وَتَأْخِيرِهِ ، قَالَ النُّحَاسُ : يَذْهَبُ ابْنُ جَرِيرٍ إِلَى أَنَّهُمْ  
 قَدْ دَخَلُوا مِصْرَ فَكَيْفَ يَقُولُ : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ »  
 تَبَرُّكًا وَجَزْمًا . « آمَنِينَ » مِنَ الْقَحْطِ ، أَوْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَكَانُوا لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا بِجُوزَاهُ .



قوله تعالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَئِ  
هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي  
إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ  
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال قتادة : يريد السرير، وقد تقدمت  
تحامله ؛ وقد بُعِبَ بالعرش عن الملك والمالك نفسه ؛ ومنه قول النابغة الذبباني :

• عُرُوشٌ تَفَانُوا بَعْدَ عَرٍّْ وَأَمْنَةٍ •

وقد تقدم <sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » الهاء في « خَرُّوا لَهُ » قيل : إنها تعود على الله  
تعالى ؛ المعنى : وخرّوا شكرًا لله سجداً ؛ ويوسف كالقيلة لتحقيق رؤياه، وروى عن الحسن ؛  
قال النقاش : وهذا خطأ ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : « رَأَوْهُمُ  
سَاجِدِينَ » . وكان تحتهم أن يسجد الوضع للشريف ، والصغير للكبير ؛ سجد يعقوب وخالته  
وإخوته ليوسف عليه السلام ، فاقشعرت جلده وقال : « هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » وكان بين  
رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسي : وعبد الله بن شداد :  
أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شداد : وذلك آخر ما تبطل الرؤيا . وقال قتادة : خمس  
وثلاثون سنة . وقال السدي وسعيد بن جبيرة وعكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجرير  
أبن قرقذ وفُضَيْل بن عياض : ثمانون سنة . وقال وهب بن منبه : أُلقي يوسف في الحب وهو  
أبن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد أن التقى بآبائه ثلاثاً وعشرين

سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة . وولد ليوسف من امرأة العزيز لإفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربع مائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانية — قال سعيد بن جبيرة عن قتادة عن الحسن — في قوله : « وَتَحَرَّوْا لَهُ سُجُودًا » — قال : لم يكن سجودا ، لكنه سنة كانت فيهم ، يؤمنون برءوسهم إيماء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثوري والضحاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان آتخاء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والآتخاء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الآتخاء . وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لآعبادة ؛ قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هذا الآتخاء والتكفي الذى نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا ألتقوا أنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثية مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء . نكبوا عن الستين ، وأعرضوا عن الستين . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أئني بعضنا إلى بعض إذا ألتقينا ؟ قال : « لا » ؛ قلنا : أئني بعضنا بعضا ؟ قال « لا » . قلنا : أفيصالح بعضنا بعضا ؟ قال « نعم » . خرجه أبو عمر في « التمهيد » فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم وخيركم » — يعنى سعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم ليتزله عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه ، فإن أترفيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجزعه على ذلك ؛

نقوله صلى الله عليه وسلم : ” من سره أن يمثَّل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار “ .  
وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثة — فإن قيل : فما نقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بعد  
عنك ، لتعين له به وقت السلام ، فإن كان دائماً فلا ، وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛  
لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” من تشبه بغيرنا فليس منا “ . وقال :  
” لا تُسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأَكْف والتَّصارى بالإشارة “ . وإذا  
سَلَّم فإنه لا يَحْتَج ، ولا أن يُقْبَل مع السَّلام يده ، ولأن الاختنا على معنى التواضع لا ينبغي  
إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيماً  
منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند  
رؤوس أكاسرتهم “ فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صاغ النبي صلى الله عليه وسلم جمفر  
ابن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : ” تصافحوا يذهب  
الغِل “ وروى غالب التَّمَار عن الشعبي <sup>(١)</sup> أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا  
تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تمانقوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى  
ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ، وذهب إلى هذا مُنَحْنُون وغيره من أصحابنا ؛  
وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ ؛  
وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك  
المصافحة لأنه لم يرها أصراً عاماً في الدين ، ولا موقولاً نقل السلام ؛ ولو كانت منه لاسْتَوَى معه .  
قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والذَّاب عليها والمحافظة ؛ وهو  
ما رواه البراء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقلت : يا رسول  
الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : ” نحن أحق بالمصافحة منهم ما من  
مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما “ .

(١) في أربع وكرى : الرابعة . وبلاحظ أن المسائل ثلاث . (٢) في ع ، و ، ي : ستة .

قوله تعالى : ﴿ وَفَدَّ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من السَّبْتِ استعمالاً للكرم ، لئلا يُدْكَرَ إخوته صنيعهم بعد عفوهم [ عنهم ] بقوله : « لَا تَتْرِبَ عَلَيْهِمْ » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الْحَقَائِقِ وَقَتِ الصَّغَرِ وَوَدَّ قَوْلَ صَاحِبِ دَلِّ عَلَيْهِ الْكَتَابِ . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنُ حَبٌّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان في الحبِّ بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع اللصوص والعصاة ، وفي الحبِّ مع الله تعالى ؛ وأيضاً فإن المِلَّةَ في التَّجَاةِ مِنَ السِّجْنِ كَانَتْ أَكْبَرَ ، لأنه دخله بسبب أَمْرِ هَمٍّ به ؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان التَّكْرِبُ فِيهِ أَكْثَرُ ، وقال فيه أيضاً : « أَذْ كُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » فعوقب فيه . ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبَرِيَّةٍ ؛ وقيل : كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَمِيلُ بقوله :

وَأَتَيْتِ الَّتِي حَبَّبْتَ شَقْبًا إِلَى بَدَا \* إِلَى وَأَوْطَانِي بِلَادُ سِوَاهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا الْقَوْمُ بَدَّوْا إِذَا اتَّوَا بَدَا ، كما يقال : غَارُوا غَوْرًا أَيْ اتَّوَا الْغَوْرَ ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدَا ؛ ذكره القشيري ، وحكاه الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَنِي وَيْنَ إِنْخَوَى ﴾ بِلِقَاعِ الْحَسَدِ ؛ قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي ؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكراً منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى رقيق بعباده . وقال الخطابي : اللطيف هو البر بعباده الذى يُلَطِّفُ بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ؛ كقوله : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قتادة ، لطف بيوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارق أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون — وأسمه الريان — أن يأذن له في تلقى أبيه يعقوب ، وأخبره

(١) من وع . (٢) شغب : موضع بين المدينة والشام . و(بدا) يروى منونا وغيره منون .

(٣) راجع ١٦٦ ص ١٦ .

بقدمه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ، فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم ، وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشي متكئا على يديه ، ففطر يعقوب إلى الخليل والناس والعساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليلدأه بالسلام ففزع من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ، فابتدأ يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يا مذهب الأحرار ، وبكى وبكى معه يوسف ، فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لما رأى أباه من الحزن ، قال ابن عباس : فالبكاء أربعة ، بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاء رياء . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذي أقر عيني بعد الهموم والأحزان ، ودخل مصر في اثنين وعشرين من أهل بيته ، فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ، وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وأمرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف [ (۱) ] وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خثيم : دخلوها وهم أثنان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : [ بن منبه ] دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وأمرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سوى الذرية والمهرى والزمنى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل ، ثم آنصرف إلى مصر . قال سعيد بن جبير : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عيصو ، فدفنوا في قبر واحد ، فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، من فعل ذلك منهم ، وولد يعقوب وعيصو في بطن واحد ، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعاً وأربعين سنة .

(۱) أى منه يعقوب عليه السلام لأن القادم يسل ، فإله المينى في « عقد الجان » . وقال الأتوسى : ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه . (۲) من ع . (۳) في ع و كوى : تسما . والمشهور ما ذكر .



قوله تعالى : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ  
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ( رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) قال قتادة :  
لم يمتن الموت أحدٌ ، نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ؛ حين تكلمت عليه النعم وجمع له  
الشمّل اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل . وقيل : إن يوسف لم يمتن الموت ، وإنما تمتى  
الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أجل توفّي مسلماً ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن  
عبد الله التستري : لا يمتن الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفتر  
من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محب للقاء الله عز وجل . وثبت في الصحيح عن أنس قال  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لَا يَمْتَنُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لُحْظَرُ نَزَلَ بِهِ فَإِنْ كَانَ لَا بَدَ مَمْتِنًا  
فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَخْبِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي ” رواه مسلم . وفيه  
عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لَا يَمْتَنُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ <sup>(١)</sup>  
مَنْ قَبِيلَ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنْهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ أَتَقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنْهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عَمَلُهُ إِلَّا خَيْرًا ” .  
وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمتى الموت وانخروج من الدنيا وقطع  
العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزاً في شرعه ؛ أمّا أنه يجوز تمتى الموت  
والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .  
و« مِنْ » من قوله : « مِنَ الْمُلْكِ » للتبويض ، وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ »  
لأن مُلْكَ مصر ما كان كل الملوك ، وعلم التعبير ما كان كل العلوم . وقيل : « مِنْ » للجنس  
كقوله : « فَأَجْتَنِبُوا الرَّجَسَ مِنَ الْأَوْتَانِ <sup>(٢)</sup> » . وقيل : للتأكيد . أى آتيتني الملك وعلمتني  
تأويل الأحاديث .

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفي من حيث إنه بمعنى النهي . وقال ابن جرير : فيه إيماء إلى أن الأول نهى  
على بابه ، ويكون قد جمع بين لفتى حذف حرف العلة وإثباته .  
(٢) راجع به ١٢ ص ٥٤ .

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنداء ، وهو ربّ ، وهو نداء مضاف ، والتقدير : يا ربّ ! ويجوز أن يكون نداء ثانياً . والفاطر الخالق ، فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ، ولا مثال سبق ، وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ، عند قوله : « يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وزدناه بياناً فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . ﴿ أَنْتَ وَلِيِّى ﴾ أى ناصرى ومتولى أمري فى الدنيا والآخرة . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهراً طيباً صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودُفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك لما مات تشاحّ الناس عليه ؛ كلّ يحب أن يدفن فى محلّتهم ، لما يرجون من بركتهم ، واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال ، فراؤا أن يدفنوه فى النبل من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمطر عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شرعاً ففعلوا ؛ فلما خرج موسى بنى إسرائيل أخرجه من النيل : ونقل تابوته بعد أربعين سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : ألقى يوسف فى الحبّ وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ فى قول ابن تيمية . قال الزهرى : وولد لإفرائيم — بن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون ، وهو قتي موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونباها الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نبيا ، وهو الذى آفنتج أريحا ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، واستوفقت له الشمس حسب ما تقدّم فى « المائدة » . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران . وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى نرق

(۲) راجع ج ۶ ص ۱۳۰ فابعد .

(۱) راجع ج ۲ ص ۸۶ فابعد .

السفينة، وقتل الغلام، وبني الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ، وكان ابن عباس ينكر ذلك، والحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيا بينهما شعيب، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَمَا تَسْلُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾**

قوله تعالى: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ** (أنباء الغيب) خبر ثان. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «ذَلِكَ» بمعنى الذي، «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبره؛ أي الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا عهد من أمر يوسف من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أي نعلمك بوحى هذا إليك. **﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾** أي مع إخوة يوسف **﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾** في اللقاء يوسف في الحب. **﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** أي بيوسف في لقائه في الحب. وقيل: «يَمْكُرُونَ» يعقبون حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم؛ أي ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فنزلت الآية تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حرص يحرس، مثل: ضرب يضرب. وفي لغة ضعيفة حرص يحرس مثل حد يحمد. والحرص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى: **﴿وَمَا تَسْلُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾** «من» صلة؛ أي ما تسألهم جعلاً. **﴿إِنْ هُوَ﴾** أي ما هو؛ يعني القرآن والوحى. **﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾** أي عظة وتذكرة **﴿لِلْعَالَمِينَ﴾**.

(١) قال الراغب في مفردات القرآن: الحرص فرط الشره وفرط الإراادة.

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٥٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسبويه : هي « أى » دخل عليها كاف التشبيه وبنيت معها ، فصار في الكلام معنى تَمْ ، وقد مضى في « آل عمران » القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية « السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » في « البقرة » . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأثم السالفة ؛ أى هم غافلون معرضون عن تأملها . وقرأ عكرمة وعمر بن فائد « وَالْأَرْضِ » رفعا ابتداء ، وخبره . ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ . وقرأ السدى « وَالْأَرْضِ » نصباً بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن مسعود : « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت في قوم أفتوا بالله خالفهم وخالفوا الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشعبي وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ثم يصفونه بغير صفته ويعملون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا : أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان ، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنبارى . وقال ابن عباس : نزلت في ثابطة مشركى العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبهة ، آمنوا بمجلا وأشركوا

(۲) راجع ج ۲ ص ۱۹۲ فابعد .

(۱) راجع ۴ ص ۲۲۸ فابعد .

(۳) راجع ج ۱۶ ص ۱۲۳ .

مُقَصِّلًا . وقيل : نزلت في المنافقين ؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه ؛ ذكره الماوردي عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا في الدعاء ؛ وذلك أن الكفار يَدْعُونَ رَبَّهُمْ في الرِّخَاءِ ، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء ؛ بيانه : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا إِنِجْنِيهِ » الآية . وفي آية أخرى : « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ دَعَا عَرِيضَ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة ، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا ، ولولا الكلب لدخل علينا الآن ، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : وقد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدُّخَانِ ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَانُ في سِنَى الْقَحْطِ قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك لِعَمَانِهِمْ ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّا نَكْفُرُ بِإِلَهِكُمْ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء ؛ فيكون معنى : « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى إلا وهم عائدون [ إلى الشرك ] ، والله أعلم .

قوله تعالى : « أَقَامُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ » قال ابن عباس : مجللة . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم ؛ نظيره . « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقية تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصَّوَاعِقُ والقَوَارِعُ . « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ » يعنى القيامة . « بَقْتَةٍ » نصب على الحال ؛ وأصله المصدر . وقال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة ؛ وهو قولهم : وقع أمر بقنة وبخاة ؛ قال النحاس : ومعنى . « بَقْتَةٍ » إصابة من حيث لم يتوقع . « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » وهو تأكيد . وقوله : « بَقْتَةٍ » قال ابن عباس : تصيح الصبيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم ، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتي .

(٢) راجع ج ٨ ص ١٥ ص ٢٧٣ و ٣٨ .

(٤) من ع ، وفي ع : أصابهم .

(٦) راجع ج ٨ ص ١٣ .

(١) راجع ج ٨ ص ٢٢٥ و ٣١٧ .

(٣) راجع ج ١٦ ص ١٢٢ .

(٥) مجللة : غائبة التعليل .



قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى قل يا محمد هذه طريقى وسبيلى ومنهاجى ؛  
 قاله ابن زيد . وقال التزييع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد ؛ أى الذى أنا عليه  
 وأدعوا إليه يؤدى إلى الجنة . ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أى على يقين وحق ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا .  
 ﴿ أَنَا ﴾ توكيد . ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ عطف على المضمر . ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى قل يا محمد :  
 « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
 أَهْلِ الْقُرَىٰ ۖ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ  
 مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥٠﴾ حَتَّىٰ  
 إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَنَلَّثُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى  
 مَنْ نَشَاءُ ۚ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ هذا رد على  
 الفائلين : « لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » أى أرسلنا رجلا ليس فيهم امرأة ولا جنى ولا ملك ؛ وهذا  
 رد ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فى النساء أربع نبيات حواء وآسية  
 وأُم موسى ومريم » . وقد تقدم فى « آل عمران » شئ من هذا . « مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » يريد المدائن ؛  
 ولم يبعث الله نبياً من أهل البادية لغلبة الخفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار  
 أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ، ولا من  
 النساء ، ولا من الجن . وقال قتادة : « مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » أى من أهل الأمصار ؛ لأنهم  
 أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً ؛ وإنما قالوا آدمياً  
 تموزاً ؛ من قوله : « يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجَنِّ » والله أعلم .

(۲) راجع ج ۶ ص ۳۹۳ .

(۱) وقراءة نافع والجمهور : يوحى . بالياء . للجمهور .

(۴) راجع ج ۱۹ ص ۸ فابعد .

(۳) راجع ج ۴ ص ۸۲ فابعد . راجع ج ۶ ص ۲۵۱ .

قوله تعالى : ﴿ أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، وبارحة الأولى ، قال الشاعر :

ولو أقوت عليك ديار عُبَيْس \* عرفت الدلَّ عِرْفَانِ الْيَمِينِ

أى عرفانا يقينا ، واحتج الكسائي بقولهم : صلاة الأولى ، واحتج الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ، لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به ، والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى ثمناء : عند صلاة الفريضة الأولى ، وإنما سميت الأولى لأنها أول ما صلى حين فرضت الصلاة ، وأول ما أظهر ، فذلك قيل لها أيضا الظاهر . والتقدير : ولدار الحال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ، والمراد بهذه الدار الجنة ، أى هي خير للثقلين . وقرئ : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » . وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقر بن بلياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ (٢) وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أمهم بالعذاب . ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ (٣) أى يسسوا من إيمان قومهم . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ بالتشديد أى أيقنوا أن قومهم كذبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذبوهم ، لأن القوم كذبوا ، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا أنهم يكذبونهم ، أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك ، فيكون « وَظَنُّوا » على بابه في هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وآبن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العطاردي وعاصم وحزرة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف « كُذِّبُوا » بالتخفيف ، أى ظن القوم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

(١) وفي رواية : « فإنك لو حلت ديار عيس » ، فعرك وى : عرفت الدار .

(٢) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء . (٣) من عرك وى : الجمل عن القرطبي . وفي أرك وى : بالمعاقب .

ولم يصدّقوا. وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم. وفي رواية عن ابن عباس: ظنّ الرسل أن الله أخلف ما وعدهم. وقيل: لم تصح هذه الرواية؛ لأنه لا يظنّ بالرسل هذا الظنّ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النصر؛ فكيف قال: ﴿لَرَجَاءُكُمْ نَصْرُنَا﴾؟! قال الفُشَيْرِيُّ أبو نصر: ولا يبعد إن صحّت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل<sup>(۱)</sup> هذا من غير أن يتحقّقوه في نفوسهم؛ وفي الخبر: "إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تعمل به". ويجوز أن يقال: قروا من ذلك الظنّ؛ كقولك: بلغت المنزل، أى قربت منه. وذكر الثعلبيّ والنحاس عن ابن عباس قال: كانوا بشراً فصّعّفوا من طول البلاء، ونسوا وظنّوا أنّهم أخلفوا؛ ثم تلا: «حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ». وقال الترمذى الحكيم: وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر، لا من تهمة لوعده الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدّثاً ينقضّ ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت [عليهم] المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه. وقال المهدوى عن ابن عباس: ظنّت الرسل أنهم قد أخلفوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» الآية. والقراءة الأولى أولى. وقرأ مجاهد وحيد - «قَدْ كَذَّبُوا» بفتح الكاف والذال مخففاً، على معنى: وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ في تأخير العذاب. ويجوز أن يكون المعنى: و[لما] أبقن الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا. وفي البخارى عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ» قال قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظنّ؟ قالت: أجل! لعمري! لقد استيقنوا بذلك؛ فقلت لها: «وَلَطَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا» قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بريها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربههم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيسس الرسل]

(۱) من ع. وهو الصواب، وفي غيرها البشر.

(۲) الزيادة من صحيح البخارى.

(۳) راجع ج ۳ ص ۳۳ فابده، وص ۲۷۲.

ممن كذبهم من قومهم ، وظنّت الرسل أن أتباعهم [قد] كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك .  
 وفي قوله تعالى : « جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » قولان : أحدهما — جاء الرسل نصر الله قاله مجاهد .  
 الثاني — جاء قومهم عذاب الله قاله ابن عباس . (فَتَنَجَّى مِنْ نَشْأَةٍ) قيل : الأنبياء ومن آمن  
 معهم . وروى عن عاصم « فَنَجَّى مِنْ نَشْأَةٍ » بنون واحدة مفتوحة الياء ، و « مَنْ » في موضع  
 رفع ، اسم ما لم يسم فاعله ، واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان ، وسائر  
 مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ابن مُحَيِّص « فَنَجَا » فعل ماض ، و « مَنْ » في موضع  
 رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقي نصباً على المفعول . (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا) أى عذابنا .  
 (عَنِ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ) أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أوفى قصص  
 الأمم . (عِبْرَةٌ) أى فكرة وتذكرة وعظة . (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) أى العقول . وقال محمد بن إسحاق  
 عن الزهري عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعاً  
 وأربعين سنة ، وتوفى أخوه عيسو معه فى يوم واحد ، وقبرا فى قبر واحد ؛ فذلك قوله :  
 « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » إلى آخر السورة . (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى)  
 أى ما كان القرآن حديثاً يُفْتَرَى ، أو ما كانت هذه القصة حديثاً يُفْتَرَى . (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ  
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى [ولكن كان تصديق ، ويجوز الرفع بمعنى لكن هو تصديق الذى بين  
 يديه أى ] ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل من زعم  
 أنه القرآن . (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع  
 والأحكام . (وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

(١) من ع . (٢) قراءة نافع وكذا باقى السبعة بنونين ما عدا عاصم كما يأتى .

(٤) من ع . وك .

(١) من ع .

(٢) بنى فى الرسم .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلنا بمكة ؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [ إلى آخرهما ] .

قوله تعالى : **الْحَمْرُ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴿١﴾

قوله تعالى : ( **المر تلك آيات الكتاب** ) تقدم القول فيها . ( **والذي أنزل إليك** ) يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك . ( **من ربك الحق** ) لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، وأعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . **« وَالَّذِي »** في موضع رفع عطفا على « **آيَاتُ** » أو على الابتداء ، و **« الْحَقُّ »** خبره ؛ ويجوز أن يكون موضعه جرا على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ، وارتفاع **« الحق »** على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : **« وَهُمْ يَعْلَمُونَ »** . **الْحَقُّ** <sup>(٢)</sup> يعني ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت **« الذي »** خفضا نعتا للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أنا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق ؛ ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القرم وآبن الهمام وليت الكتبية في المزدحم  
يريد : إلى الملك ألقرم بن الهمام ، ليت الكتبية . ( **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ) .

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) راجع ج ٢ ص ١٦٢ فابعد . (٣) القرم ( بفتح القاف ) : السبد ، والكتبية : الجيش ، والمزدحم : محل الازدحام .



قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَنَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزله قادر على الكمال ؛ فانظروا في مصنوعاتہ انعرفوا كمال قدرته ؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفي قوله : « **بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثاني — لها عمد ، وليكن لا نزاد ؛ قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف ؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التي يمسك بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ؛ ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هي توحيد المؤمنين . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ؛ ذكره الفريزى . والعمد جمع عمود ؛ قال النابغة :

وَحَيْسَ الْجَنِّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ  
يَذْنُونَ تَذْمُرَ بِالصُّفَاحِ وَالْعَمَدِ<sup>(١)</sup>

﴿ **ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ **وَنَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** ﴾ أى دللهم بالمنافع خلقه ومصالح عبادہ ؛ وكل مخلوق مُدْتَلٌّ لِّخَالِقِ . ﴿ **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ أى إلى وقت معلوم ؛ وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التى عندها تُكْوَرُ الشمس ، ويُحَسَفُ القمر ، وتتكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يماوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلنكه في شهر ، والشمس في سنة . ﴿ **يُدِيرُ الْأَمْرَ** ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ **يُفَصِّلُ الْآيَاتِ** ﴾ أى يُبَيِّنُهَا ؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ؛ ولهذا قال : ﴿ **لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ .

(١) وبرى : وخبر الجن . وخيس : ذلل ؛ وتذمر : يذم بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصفايح جارة عراض رفاق . وعمد : جمع عمود . (٢) راجع ج ٧ ص ٢١٩ .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا  
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ( وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ) لما بين آيات السموات بين آيات الأرض ؛  
أى بسط الأرض طولا وعرضا . ( وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ) أى جبالا ثوابت ؛ واحدا راسية ؛  
لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة :  
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُرَّةً \* تَرَسُّوْا إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطْلُعُ<sup>(١)</sup>  
وقال جميل :

أُحِبُّهَا وَالَّذِي أَرَسَى قَوَاعِدَهُ \* حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطَلْنَا  
وقال ابن عباس وعطاء : أول جبل وضع على الأرض أبو قبيس .<sup>(٢)</sup>

مسئلة — فى هذه الآية رذ على من زعم أن الأرض كالكرة ، ورذ على من زعم أن  
الأرض تهوى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الراوندى أن تحت الأرض جسما صغارا كالريج الصاعدة ؛  
وهى منحدره فاعتدل الهاوى والصعادي فى الحرم والقوة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض  
مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه  
المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون  
فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ( وَأَنْهَارًا ) أى مياه جارية فى الأرض ، فيها  
منافع الخلق . ( وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ) بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة :  
الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهذا خلاف

(١) قبل البيت :

ومررت أن منبئى إن نأتى \* لا يجنى منها القرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النص . وقيل : معنى « زَوْجَيْنِ » نوعان ، كالحُلُو والحامض ، والرطب واليابس ، والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ) أى دلالات وعلامات ( لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) .

قوله تعالى : وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنَاوٍ وَغَيْرُ صِنَاوٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ) في الكلام حذف ؛ المعنى : وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « سَرَّابِلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » والمعنى : وتقيكم البرد ، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثانية — قوله تعالى : « مُتَجَاوِرَاتٌ » أى قُرَى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تفتاوت في الثمار والتمر ؛ فيكون البعض حُلُوًا ، والبعض حامضًا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغير والكبير واللون والمطعم ، وإن أنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلَّ عن معرفته ؛ فإنه نبّه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف . وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين الإقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سيخة مع تجاورهما ؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جلَّ وعزَّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠٩ فابعد ،

الثالثة - ذهب الكفرة - نعيم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع ، وأدعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار ، وقد أفتروا بحدوثها ، وأنكروا محدثها ، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة : يحدث الثمار لا من صانع ، وأثبتوا للأعراض قاعلا ، والدليل على أن الحادث لا يبد له من محدث أنه يحدث في وقت ، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر ؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه ؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل تخصيص خصصه به ، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده ؛ وأستيفاء هذا في علم الكلام .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ فقرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر الهمزة ، على التقدير : وجعل فيها جنت ، فهو محمول على قوله : « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات ، ومن جنت . الباقون : « جَنَّاتٌ » بالرفع على تقدير : وبينهما جنت . ﴿ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُونٌ وَغَيْرُ صُنُونٍ ﴾ بالرفع . ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفًا على الجنت ؛ أى على تقدير : وفي الأرض زرع ونخيل . وخفضها الباقون تسمًا على الأعناب ؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنت ؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كُلِّ » حسب ما تقدم في « وجنت » . وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما « صُنُونٌ » بضم الصاد ، الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان ؛ وهما جمع صنو ، وهى النخلات والنخاتان ، يجمعن أصل واحد ، وتشتعب منه رءوس فتصير نخيلا ؛ نظيرها قنوان ، واحدها قنو . وروى أبو إسحاق عن البراء قال : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المنفرد ، النحاس : وكذلك هو فى اللغة ؛ يقال لالنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان . والصنو المثل ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « عم الرجل صنو أبيه » . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع ، ولا بالإعراب ؛ فتحرب نون الجمع ، وتكسر نون التثنية ؛ قال الشاعر :

العلم والحلم خُلَّتَا كَرَم • لارء زَيْنٌ إِذَا هُمَا أَجْتَمَعَا

صُنُونٍ لَا يُسْتَمُّ حُسْنُهُمَا • إِلَّا يَجْمَعُ ذَا وَذَلِكَ مَعَا

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بن آدم وخبيثهم . أبوهم واحد ؛ قاله النحاس والبخاري . وقرأ عاصم وابن عامر : « يُسْقَى » بالياء ، أى يُسْقَى ذلك كله . وقرأ الباقر بالناء ، لقوله : « جَنَّاتٌ » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ؛ قال أبو عمرو : والثاني أحسن ؛ لقوله : ﴿ وَنَفَضْلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ ﴾ ولم يقل بفضه . وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما « وَيَفْضَلُ » بالياء ردأ على قوله : « يُدَبَّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَضَّلُ » و « يُغْنَى » الباقر بالنون على معنى : ونحن بفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضي الله عنه : « الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة » ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الْأُكْلِ » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض <sup>(١)</sup> والفارسي <sup>(٢)</sup> والدقل . وروى مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى : « وَنَفَضْلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ » قال : « الفارسي والدقل والحلو والحامض » ذكره التعلبي . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لبنى آدم ، أصلاهم واحد ، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

الناس كالنبت والنبت ألوان \* منها شجر الصنديل والكافور والبان

\* ومنها شجر ينضج طول الدهر قطران \*

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لملاحظات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لِمَنِ خَلَقْنَا جَدِيدَ أَوَّلَتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوَّلَتِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوَّلَتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

(١) الثمر الفارسي : نوع جيد نسبة إلى فارس .

(٢) الدقل : ردى . الثمر .



قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجب ، ولا يجوز عليه <sup>(١)</sup> العجب ؛ لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون . وفي حل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والسموات المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب ؛ ونظم الآية بدل على الأول والثانى ؛ فقول : ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أى أنبث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَأَنْتَ لَنَى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقوى « إِنَّا » . و﴿ الْأَعْلَافُ ﴾ جمع غل ، وهو طوق تشده اليد إلى العنق ، أى يغلقون يوم القيامة ؛ بدليل قوله : ﴿ إِذِ الْأَعْلَافُ فِي أَغْثَاهِمُ ﴾ <sup>(٢)</sup> إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم بطلبون العذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِمَاً مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى قبل الإيمان الذى يربى به الأمان والهدى . و﴿ الْمَثَلَاتُ ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مثلة . وروى عن الأعمش أنه قرأ « الْمَثَلَاتُ » بضم الميم وإسكان الشاء ؛ وهذا جمع مثلة ، ويجوز

(١) فى - الجمل عن القرطبي : العجب تغير النفس بما تخفى أسبابه وذلك فى حق الله تعالى محال .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ .

(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٣٢ .

« المثلثات » تبدل من الضمة فتحة لنقلها ، وقيل : يؤتى بالفتحة عوضاً من الهاء . وروى عن الأعمش أنه قرأ « المثلثات » بفتح الميم وإاء مكان الناء ؛ فهذا جمع مثلة ، ثم حذف الضمة لنقلها ؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحدة مثلة ، نحو صدقة [وَصَدَقَةٌ] ، وتميم تضم الناء والميم جميعاً ، واحدها على لغتهم ، مثلة ، بضم الميم وحزم الناء ؛ مثل : غُرْفَةٌ وَغُرْفَاتٌ ؛ والفعل منه مَثَلْتُ بِهِ أَمَثَلُ مَثَلًا ، بفتح الميم وسكون الناء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوْ مُّغْفِرَةٍ ﴾ أى لدو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال ابن عباس : أرجى آية في كتاب الله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوْ مُّغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا أصرّوا على الكفر . وروى حماد بن سامة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال : لما نزلت : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَدُوْ مُّغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله ورحمته وتجاوزة لما هنا أحدٌ عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لا تكمل كل أحد » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . لما أقرّحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ أى مُعَلِّمٌ . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبي يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادي الله ؛ أى عليك الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُنْتَعَالِ ﴿١٩﴾  
فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أى من ذكر وأنثى ، صبيح وقبيح ، صالح وطالح ؛ وقد تقدم في سورة « الأنعام » أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث . وفيه " لا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله " . وأختلف العلماء فى تأويل قوله : ﴿ وَمَا تَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فقال قتادة : المعنى ما تنقص قبل النسعة الأشهر ، وما تزداد فوق التسعة ؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت امرأة فى حملها كان ذلك نقصاناً فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماماً لها نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان إصبع أو غيرها ، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض انقطاع دم الحيض . « وَمَا تَزْدَادُ » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبى وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ، وأنها كانت تنفى النساء الحوامل إذا حُضْنَ أن يتركن الصلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليها ، قصار كالإجماع ؛ قاله ابن القصار . وذكر أن رجلاً تنازعا ولداً ، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة ، فألحقه القافة بهما ، فملا عمر بالدره ، وسأل نسوة من قريش فقال : أنظرن ما شأن هذا الولد؟ فقلن : إن الأول خلا بها وخلاها ، لحاضت على الحمل ، فظننت أن عذتها انقضت ؛ فدخل بها الثانى ، فانتعش الولد بماء الثانى ؛ فقال عمر : الله أكبر ! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ، ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع ، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض ، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صح استبراء الأمة بحيض ؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر . (١) فى الطبعة الأولى : قاله ابن عباس قال ابن القصار . وليست عبارة الأصول كذلك لهذا حذفها .

الرابعة — وهذه السنة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة ؛ ولذلك قد روى في المذهب عن بعض أصحاب مالك ، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزادتها ؛ حكاه ابن عطية .

الخامسة — وأختلف العلماء في أكثر الحمل ؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المِغزَل ؛ ذكره الدارقطني . وقالت جميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد ، وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين ؛ وروى عن مالك في إحدى روايته ، والمشهور عنه خمس سنين ؛ وروى عنه لا حد له ، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهي الرواية الثالثة عنه . وعن الزهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ؛ والشافعي : مدة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . ودาวود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد ، والرد إلى ما عُرِف من أمر النساء وبالله التوفيق . روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المِغزَل ، فقال : سبحان الله ! مَنْ يقول هذا ؟ ! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان ، تحمل وتضع في أربع سنين ، امرأة صدق ، وزوجها رجل صدق ؛ حمت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره <sup>(١)</sup> عن المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين ، وكانت تسمى حامله الفيل . وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! أدع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجها عنها الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها <sup>(٢)</sup> [بها] غلاما ، فإنك تَمَحُّو ماتشاء وتُنْثِيْت ، وعندك

(١) من أ . وفي ر : ابن المبارك .

أُمّ الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك أمرأتك، فذهب الرجل، فما حطَّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْدٌ قَطَطٌ<sup>(١)</sup>، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعَتْ سراره، ورُوى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن أمرأتى سنتين بخفت وهى حبل، فشاور عمر الناس في رجمها، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل، فأتى نضع، فتركها حتى نضع، فوضعت غلاما قد خرجت شيتاه، فمرف الرجل الشبيه فقال : ابنى ورب الكعبة !، فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحّاك : وضعتى أُمى وقد حمات بى في بطنها سنتين، فولدتى وقد خرجت ستنى. ويذكر عن مالك أنه حل به في بطن أُمه سنتين، وقيل : ثلاث سنين. ويقال : إن محمد بن عجلان مكث في بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حماد ابن سلمة : إنما سمى هيرم بن حيان هيرما لأنه بقى في بطن أُمه أربع سنين. وذكر الغزّوى أن الضحّاك وُلِدَ لسنتين، وقد طلعت سنّته فسعى ضحّاكا. عباد بن العوام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمز به طير فقال : كش.

السادسة — قال ابن خُوَيْرِ مَنَدَاد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره ماخوذ من طريق الاجتهاد، لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم فى شىء منه إلا بقدر ما أظهره لنا، ووُجِدَ ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا، ولما وجدنا أمرأة قد حملت أربع سنين ونحس سنين حكى بذلك، والنفاس والحيض لما لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعتا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهن<sup>(٢)</sup>.

السابعة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر، وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكى، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قَطَطٌ : شديد الجمودة . (٢) سرر الصبي : ما نقطه القابلة .

(٣) قال محققه : ورد فى الحديث أقل الحيض وأكثره، وروى الطبرانى عن أبي أمامة عه سئل الله عليه وسلم "أقل الحيض ثلاث وأكثره عشرة" ورواه الربيع بن حبيب فى مسنده عن أنس .



في الرِّحْمِ الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتعزك ويضطرب، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زحل، فيُبْقِلُهُ بِرَّدهُ؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم! ما بال المرجع بعد تمام الدَّور يكون إلى زحل دون غيره؟ الله أخبركم بهذا أم على الله تغفرون؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود النذير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة!

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار» قدر خروج الولد من بطن أمه، وقَدَّرَ مكانه في بطنها إلى خروجه. وقال قتادة: في الرزق والأجل. والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم. قات: هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهده. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبه سبحانه على أنفراد بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وما هم عليه، ولم يقدح ذلك في الممدوح؛ فإن العادة يجوز أن تكسارها، والعلم لا يجوز تبديله. و﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شيء بقدرة وقهره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَتِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ إمرار القول: ما حدث به المرء نفسه، والجر ما حدث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرته الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و « مِنْكُمْ » يحتمل أن يكون وصفاً « سواء »  
التقدير : يَرْمِيَنَّ أَمْرَ وَجْهٍ مِنْ جَهَرٍ سواء منكم ؛ ويجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى :  
يستوى منكم، كقولك : مررت بزبد . ويجوز أن يكون على تقدير : يرمي من أمر منكم  
وجهر من جهر منكم . ويجوز أن يكون التقدير : ذو سواء منكم من أمر القول ومن جهر  
به، كما تقول : عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل . وقيل : « سواء » أي مستوي، فلا يحتاج إلى  
تقدير حذف مضاف . ( وَمَنْ هُوَ مُسْتَخِفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ) أي يستوي في علم الله  
المرء والجهر ، والظاهر في الطرقات ، والمستخفي في الظلمات . وقال الأخفش وقُطِرْبُ :  
المستخفي بالليل الظاهر ؛ ومنه خَفِيتُ الشيءَ وأَخْفَيْتُهُ أي أَظْهَرْتُهُ ؛ وأَخْفَيْتُ الشيءَ أي  
أَسْتَجَرْتُهُ ؛ ومنه قيل لِلنَّبَاشِ : الْخَنْفَى . وقال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَذْنَابِهِنَّ كَأَمْسَا • خَفَاهُنَّ وَدَّقَ مِنْ عَيْشِي مُجَابِ

والسارب المتواري، أي الداخِل سَرَبًا ؛ ومنه قولهم : أَسْرَبَ الوحشي إذا دخل في مكانه .  
وقال ابن عباس : « مُسْتَخِفٌّ » مستتر ، « وَسَارِبٌ » ظاهر . مجاهد : « مُسْتَخِفٌّ »  
بالمعاصي ، « وَسَارِبٌ » ظاهر . وقيل : معنى « سَارِبٌ » ذاهب ؛ [ قال ] الكسائي :  
سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَبًا وَسُرُوبًا إذا ذهب ؛ وقال الشاعر :

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ خَلْقِهِمْ • وَتَحْنُ خَلْعًا قَيْدُهُ فَهُوَ سَارِبٌ (٤)

أي ذاهب . وقال أبو رجا : السارب الذاهب على وجهه في الأرض ؛ قال الشاعر :

• أَنَّى سَرَبْتِ وَكَيْتَ غَيْرَ سُرُوبٍ •

وقال الفتي : « سَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أي منصرف في حوائجه بسرعة ؛ من قولهم : أَسْرَبَ

الماء . وقال الأصمعي : حَلَّ سَرَبُهُ أي طريقه .

(١) أَتَقَى (جمع تقى) : وهو سرب في الأرض إلى موضع آخر ، واستعاره امرؤ القيس بحسرة الفرة  
والودق : المطر . وغيت مجلب : مصوت ، وبرى مجلب (بالحاء) . (٢) من أَرَادَ و (٣) هو الأحنس  
ابن قهاب التلي و يريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على التقله ، وحسبوا لحظهم عن أن يتقدم  
فنتبه إلههم يخوف أن يغار عليها ، ونحن أعزاء خلعتنا قيد لحظنا لذهب حيث شاء . (٤) هو نيس بن الخثيم ،  
ونعام البيت :

• ونغرب الأحلام غير قريب •

قوله تعالى : لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)

قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ﴾ أى الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقَّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبَةٌ ؛ يقال : مَلَكَ مُعَقِّبٌ ، وملائكة مُعَقِّبَةٌ ، ثم مُعَقَّبَاتٌ جمع الجمع . وقرأ بعضهم — « لَهُ مَعَاقِبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » . ومعاقب جمع مُعَقِّبٌ ؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة . وقيل : أثبت لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نَسَابَةٍ وعَلَامَةٍ وراوية ؛ قاله الجوهري وغيره . والتعقب العود بعد البدء ، قال الله تعالى : « وَتِلْكَ أُمُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا » (١) أى لم يرجع ؛ وفى الحديث : « مُعَقَّبَاتٌ لَا تَجِبُ قَاتِلَهُنَّ — أَوْ — فَاعِلُهُنَّ » فذكر التسيب والتجديد والتكبير . قال أبو الهيثم : سُمِّيَتْ « مُعَقَّبَاتٌ » لأنهن عادت مرة بعد مرة ، فَعِلٌ من عَمِلَ عَمَلًا ثم عاد إليه فقد عَقِبَ . والمُعَقَّبَاتُ من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا أنصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أى المستخفي بالليل والسارب بالنهار . ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في [هذا] الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والموام والأشياء المضرة ؛ لطفًا منه به ، فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه ؛ قاله ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى على فقال : احترس فإن ناسا من مُرَاد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

(١) قال الزنجبى : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كقطع ومطاعم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذف الواو . من الجمع وعرضت الياء عنها ؛ قال الألويسي : ولعله الأظهر . « روح المعاني » . (٢) راجع ج ١٣ ص ١٦٠ . (٣) الحديث في الدعاء وهو بتمامه في « صحيح مسلم » : « مُعَقَّبَاتٌ لَا تَجِبُ قَاتِلَهُنَّ دَرَكٌ كُلُّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلَاثُونَ تِلَاوَةً وَثَلَاثُونَ تَجِيدَةً وَأَرْبَعُ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً » . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة . (٤) من أرو ورو . (٥) مراد (بالضم) وآخوه دال مهملة) ؛ فقيلة من قبائل العرب سميت بأسمائها .

رجل مكن يحفظانه مالم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلِيًّا بينه وبين قَدَرِ الله، وإن الأجل حصن حصينه، وعلى هذا، «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أى بأمر الله وبإذنه، و«مِنْ» بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وقيل: «مِنْ» بمعنى «عن»، أى يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول، أى حفظهم عن أمر الله لامن عند أنفسهم، وهذا قول الحسن، يقول: كسوته عن عُرَى ومن عُرَى، ومنه قوله عز وجل: «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» (۱) أى عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تتحل به عقوبة، لأن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النعمة، وتزل عنهم الحفظة المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجن، قال كعب: لولا أن الله وكلَّ بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعكم ومشرِّبكم وعوراتكم لتخطفنكم الجن. وملائكة العذاب من أمر الله، وخصمهم بأن قال: «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» لأنهم غير معاصين، كما قال: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (۲) أى ليس مما تشاهدونه أتم. وقال التزاء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه، وهو مروى عن مجاهد وأبن جريج والنخعي، وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال ابن جريج: إن المعنى يحفظون عليه عمله، لحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أفعاله وأفعاله. ويموز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الهاء في «له» الله عز وجل، كما ذكرنا، ويموز أن تكون للاستخفي، فهذا قول. وقيل: «لَهُ مَعَقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» يعنى به النبي صلى الله عليه وسلم، أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه، وقد جرى ذكر الرسول في قوله: «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَمَآ أَنتَ مُنْذِرٌ» أى سواء منكم من أمر القول ومن جهربه في أنه لا يضتر النبي صلى الله عليه وسلم، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام، ويموز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل، لأنه قد قال: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أى يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه. وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ؛ وكذلك قال الضحاك : هو السلطان المتحرس من أمر الله ، المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل نفيًا محذوفًا ، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال المهدي : ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسر القول ومن جهر به فله حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي ، ويحفظونه من أن يتجمع فيه وعظ ؛ قال القشيري : وهذا لا يمنع الرب من الإهمال إلى أن يحق العذاب ؛ وهو إذا غيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة ؛ فكأنه الذي يحل العقوبة بنفسه ؛ فقلوه : « يحفظونه من أمر الله » أى من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته ؛ قال الماوردي : ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله : « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما — يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني — يحفظونه من الحق والهوام المؤذية ، ما لم يأت قدر ؛ — قاله أبو أمامة وكعب الأحمار — فإذا جاء المقدور خلوا عنه ؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج ؛ وروى عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، وأحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو بن ابن عباس قرا — « معقبات من بين يديه ورفاء من خلفه [من أمر الله] يحفظونه » فهذا قديين المعنى . وقال كاتبة العدوي : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبدكم معه من ملك ؟ قال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات وأخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثا قال نعم آكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الحديث في ابن عطية : « يتعاقب فيكم ملائكة » والبحث في رواية القرطبي سنداً ومنا في العسقلاني

ج ٢ ص ٢٨ • (٢) الزيادة من تفسير الطبري .



فبئس القرين هو ما أفل مراقبته لله عز وجل وأقل استجياؤه منا يقول الله تعالى «مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (۱) وَمَلَكَانٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» [وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِكَ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ] وَمَلَكَانٌ عَلَى شَفَتَيْكَ وَلَيْسَ يَحْفَظَانِ فَإِذَا تَوَاصَعْتَ لَّهُ رُفَعَتْ وَإِذَا تَجَبَّرْتَ عَلَى اللَّهِ فَصَمَكَ (۲) وَمَلَكَانٌ عَلَى شَفَتَيْكَ وَلَيْسَ يَحْفَظَانِ عَابِكَ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى مَجْدِ وَآلِهِ وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَى فِكَ لَا يَدْعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فِي فِكَ وَمَلَكَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ فَهَؤُلَاءِ عَشْرَةٌ أَمْلَاكَ عَلَى كُلِّ آدَمِي يَتَدَاوَلُونَ مَلَائِكَةً اللَّيْلَ عَلَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ لَأَنْ مَلَائِكَةَ اللَّيْلِ لَبَسُوا مَلَائِكَةَ النَّهَارِ فَهَؤُلَاءِ عَشْرُونَ مَلَكًا عَلَى كُلِّ آدَمِي وَإِبْلِيسَ مَعَ آدَمَ بِالنَّهَارِ وَلِوَلَدَهُ بِاللَّيْلِ . ذكره الثعالبي . قال الحسن : المَعْقَبَاتُ أَرْبَعَةُ أَمْلَاكَ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ . وَاخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ : أَنَّ الْمَعْقَبَاتِ الْمَوَاقِبَ بَيْنَ أُيْدِي الْأَمْرَاءِ وَخَلْفَهُمْ ؛ وَالْهَاءُ فِي «لَهُ» لَمْ يَكُنْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَقَالَ الْعَلَمَاءُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ أَوَامِرَهُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا — قَضَى حُلُولَهُ وَوُقُوعَهُ بِصَاحِبِهِ ؛ فَذَلِكَ لَا يَدْفَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَغْيِرُهُ . وَالْآخَرُ — قَضَى بَحْيِهِ وَلَمْ يَقْضِ حُلُولَهُ وَوُقُوعَهُ ؛ بَلْ قَضَى صَرْفَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِدَعَاءِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَفَظِ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُقُومُ حَتَّى يُغْيَرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما يقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب ؛ كما غير الله بالمتهمين يوم أُحُد بسبب تغيير الزمّة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة ؛ فليس معنى الآية أنه ليس يتزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم — وَقَدْ سُئِلَ أَنَّهُ لَوْ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ — «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ انْخَبَثَ» (۳) . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا﴾ أي هلاكًا وعذابًا، ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ . وقيل : إِذَا أَرَادَ بِهِمْ بَلَاءً مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ فَلَا مَرَدَ لِبَلَاءِهِ . وقيل : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا أَعْمَى

(۲) الزيادة من تفسير الطبري وغيره .

(۱) راجع ج ۱۷ ص ۱۱ .

(۳) المراد بالغيب الفسق والفجور .

أبصارهم حتى يخناروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبعث أحدهم عن حنفة بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴾ أى ماجأ ؛ وهو معنى قول السدى . وقيل : من ناصر يمنعه من عذابه ؛ وقال الشاعر :

\* ما فى السماء سوى الرحمن من وآل \*

وآل وولى كقادر وقدير .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٢٢﴾ وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ وَهُوَ شَدِيدُ آمِحَالٍ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى بالمطر . « والسحاب » جمع ، والواحدة سحابة ، وسحب وسحاب فى الجمع أيضا . ﴿ وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى فى « البقرة » القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهلل والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذَى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخصب ؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا فى غيته المزبل للخط . « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » قال مجاهد : أى بالماء . « وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يسبغ الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد مادكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى . « مِنْ خِيفَتِهِ » من خيفة الله ؛ قاله الطبرى وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

(١) راجع ج ١ ص ٢١٦ فابعد . (٢) راجع ج ٥ ص ٣٧٢ .

خائفون من الله ليس تكحوف ابن آدم ؛ لا يعرف واحد منهم على يمينه ومن على يساره ،  
لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب ؛ وعنه قال : الزعد ملك يسوق السحاب ، وإن بغار  
الماء لنفى نقرة إبهامه ، وأنه موكّل بالسحاب يصرفه حيث يؤمر ، وأنه يسبح الله ؛ فإذا سبح  
الزعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح ، فعندها ينزل القطر ، وعنه أيضا كان إذا سمع  
صوت الزعد قال : سبحان الذي سبّحت له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه  
أنه كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي يسبح الزعد بحمده والملائكة من خيفته ،  
ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملك جالس على كرسي بين السماء  
والأرض ، وعن يمينه سبعون ألف ملك ، وعن يساره مثل ذلك ؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح  
سبح الجميع من خوف الله ، وإذا أقبل على يساره وسبح سبح الجميع من خوف الله .  
(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب  
ومجاهد : نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني ! من أي شيء ربك ،  
أمن أولئك أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقتة . وقيل : نزلت في بعض كفار العرب ؛  
قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نقرأ يدعونه إلى  
الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن ربّ عبد ما هو ، ويمّ هو ، أين فضة أم من  
حديد أم نحاس ؟ فاستعظم القوم مقاتله ؛ فقال : أُجيبُ عبادي إلى ربّ لا يعرفه ! فبعث  
النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبينا التفرّينازعونه ويدعونه  
إذا أرفعت صحابة فكانت فوق رؤوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة ، فأحرقت الكافر  
وهم جلوس ؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فقالوا : أحرقت صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي  
صلى الله عليه وسلم . « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » . ذكره الثعلبي عن الحسن ؛  
والقشيري بمعناه عن أنس ، وسياق . وقيل : نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخى ليّيد بن  
ربيعة ، وفي عامر بن الطفيل ؛ قال ابن عباس : أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة

العامر، إن يربدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلوا المسجد، فاستشرف الناس جمال عامر وكان أعور، وكان من أجل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هذا يارسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك؛ فقال: "دَعْنِي فَإِنْ يَرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَهْدِهِ" فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ فقال: "لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين". قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: "إيس ذاك إنني إنما ذاك إلى الله يجعله حيث يشاء". قال: أفتجعلني على الوبر وأنت على المَدَر؟ قال: "لا". قال: فما تجعل لي؟ قال: "أجعل لك أعنة الخيل تغزوا عليها في سبيل الله". قال: أو ليس لي أعنة الخيل اليوم؟ قم معي أكلبك؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عامر أوما إلى أَرَبْد: إذا رأيته أكلبه فدر من خلفه وأضر به بالسيف؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه؛ فاخترط أَرَبْد من سيفه شبرا ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَلِّه، ويَلَسَتْ يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائِفٍ صاحج فأحرقته، ووتى عامر هاربا وقال: يا محمد! دعوت ربك على أَرَبْد حتى قتلتها؛ والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا، وفتيانا مُرْدا؛ فقال عليه السلام: "يَمْنَعُكَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةٍ" يعني الأوس والخزرج؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلُولِيَّة؛ وأصبح وهو يقول: والله لئن أَصْحَرْتُ لِي مُجَدٌّ وصاحبه — يريد ملك الموت — لأنفذهما برحى؛ فأرسل الله مَلَكًا فطمحه بجناحه فأذراه في التراب؛ ونجرت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة في الوقت؛ فعاد إلى بيت السَّلُولِيَّة وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموت في بيت سَلُولِيَّة؛ ثم ركب على فرسه فسات على ظهره. ورأى كَيْبِد بن ربيعة أخاه أَرَبْد فقال:

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيتَ أَرَبْدَ إِذْ قُدُّ \* نَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبْدِ  
أَخْشَى عَلَى أَرَبْدِ الْحَتُوفِ وَلَا \* أَرْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ  
بِقَعْنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْفَا \* رِسَ يَسُومُ الْكَرِيمَةَ النَّجْدِ<sup>(٤)</sup>

(١) أصح الرجل: إذا خرج إلى الصحراء.

(٢) أذراه: قلته ورى به.

(٣) كبَد: شدة وعناء.

(٤) التجد: السريع الإجابة.

وفيه قال :

إِنَّ الزَّيْبَةَ لَا رَازِيَةَ مِثْلَهَا • فَيُفْدَانُ كُلُّ أَحَدٍ كَضْوَاءِ الْكَوْكَبِ  
يَا أَرْبَدَ الْحَبِيرِ الْكَرِيمِ جُدُودُهُ • أَوْدَتْني أَمِيثِي بِقَرْيُنِ<sup>(١)</sup> أَعْصَبُ

وَأَسْلَمَ لِبَيْدٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ •

مسئلة — روى أَبَانُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” لَا تَأْخُذْ الصَّاعِقَةُ ذَاكِرًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ “ . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : ” سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى<sup>(٢)</sup> ديبته “ . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد ، فقلنا فعوفينا ، ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بردة قد أصابت أنفه فأنرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال بردة أصابت أنفي فأنرت ، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد ، فقلنا فعوفينا ، فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة »<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ (١) معنى جدال اليهودى حين سأل عن الله تعالى : من أى شيء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جريج : جدال أربد فيما هم به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون ، « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » حالا ، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوهم إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله : أخبرني عن إلهك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

(١) قرن أعصب : مكسور . (٢) في العبارة سقط والذي في تفسير البغوي : عن ابن عباس : من سمع صوت الرعد فقال : الحديث ثم قال : فإن أصابته صاعقة فعلى ديبته . محققه . (٣) البرد (بالضرب) : حب النمام . (٤) راجع ج ١ ص ٢١٦ فابعد .



فاستعظم ذلك ؛ فرجع إليه فأعلمه ؛ فقال : ” أرجع إليه فادعه “ فرجع إليه وقد أصابته صاعقة ، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » . ( وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ) قال ابن الأعرابي : « الْحَال » المكر ، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق . النحاس : المكر من الله إيصال المكره إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد : « وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ » أى النقمة . وقال الأزهري : « الْحَال » أى القوة والشدة . والمُحَالُّ : الشدة ؛ الميم أصلية ، وما حُلَّتْ فلاناً مُحَالّاً أى قاربه حتى يتبين أينما أشد . وقال أبو عبيد : « الْحَال » العقوبة والمكره . وقال ابن عرفة : « الْحَال » الجدال ؛ يقال : ما حَلَّ عن أمره أى جادل . وقال الفيتبي : أى شديد الكيد ؛ وأصله من الحيلة ، جعل ميمه كيم المكن ؛ وأصله من الكون ، ثم يقال : تمكنت . وقال الأزهري : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة ؛ بل هى أصلية ، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهى أصلية ؛ مثل : مهاد وملاك وميراس ، وغير ذلك من الحروف . ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يحمى بإظهار الواو مثل : مِرْوَدٌ ومَحْوَلٌ ومَحْوَرٌ ، وغيرها من الحروف ؛ وقال : وقرأ الأعرج — « وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ » بفتح الميم ؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول ؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهُرَوِيُّ ، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي ؛ وأقاريل الصحابة والتابعين بمعناها ، وهى ثمانية : أولها — شديد العداوة ، قاله ابن عباس . وثانيها — شديد الحول ، قاله ابن عباس أيضاً . وثالثها — شديد الأخذ ، قاله علي بن أبي طالب . ورابعها — شديد الحقد ، قاله ابن عباس . وخامسها — شديد القوة ، قاله مجاهد . وسادسها — شديد الغضب ، قاله وهب بن منبّه . وسابعها — شديد الهلاك ، المحل ، وهو القحط ؛ قاله الحسن أيضاً . وثامنها — شديد الحيلة ؛ قاله قتادة . وقال أبو عبيدة معمر : الْحَالُ والمحاللة المماكرة والمغالبة ؛ وأنشد للأعشى :

فَرَعَ نَبْعٌ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ النَّجَّةِ \* يَدُ كَثِيرِ النَّدَى شَدِيدِ الْحَالِ

(١) أى والياء فى ذرات الياء كالمير والمزبل . كما فى اللسان .

(٢) أى الأزهري كما فى اللسان مادة « محل » .

وقال آخر: <sup>(۱)</sup>

وَلَيْسَ بَيْنَ أَفْوَامٍ فُكْلٌ • أَعَدَّ لَهُ الشَّغَازِبَ وَالْمَحَالَا

وقال عبد المطلب :

لَاهُمُ ابْنُ الْمَرْءِ يَمُّ • نَعَّ رَحْلُهُ فَاَمْنَعُ حِلَالِكُ <sup>(۲)</sup>  
لَا يَفَاقُ صُلَيْبُهُمْ وَمَا • هُمُ عَدُوٌّ مَحَالِكُ

قوله تعالى : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى أَلْمَاءٍ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ <sup>(۱۴)</sup>

قوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أى لله دعوة الصديق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » <sup>(۲)</sup> ، قال الماوردي : وهو أشبه بسباق الآية ؛ لأنه قال : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى الأصنام والأوثان . ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا لياسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :  
فأصبحتُ فيما كان بُنْيَ وبينها • من الود مثل القابض الماء باليد

(۱) هو ذوالزئمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى . والقبس : الاختلاط . والشغازب ، قال الأصمعي : الشغزبة ضرب من الحيلة فى الصراع ؛ وهو أن يدخل الرجل بين رجل صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيداً . (۲) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاوزون ؛ يريد بهم سكان الحرم . ويرى : غدوا : الغدو أصل الغدو وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك فخذت لاه . السات . ويرى : أبدا محالك . البحر . (۳) راجع ج ۱۰ ص ۲۹۱ .

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظلمان الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه؛ قاله مجاهد . الثاني — أنه كالظلمان الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كجسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجده في كفه شيء منه . وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كن مد يده إلى البئر بغير رشاء؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجدي \* ويبرى ذو حقرت وذو طويت

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه، ومعنى «إلا كجسط» إلا كاستجابة بأسط كفيه «إلى الماء» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى : إلا كإجابة بأسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قوله : «ليبلغ فاه» متعلقة بالبسط؛ وقوله : «وما هو ببالغ» كناية عن الماء؛ أى وما الماء ببالغ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أى ما الفم ببالغ الماء. «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك . وقيل : إلا في ضلال أى يضل عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلاً؛ كما قال : «أَيُّهَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا<sup>(١)</sup>» وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً  
وَيُظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ) قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرها بالسيف . وعن قتادة أيضاً : يسجد الكافر كرها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : يعبود الكافر كرها ما فيه من الخسوع وأثر الصنعة .

وقال ابن زيد: «طَوْعًا» من دخل في الإسلام رغبة، و«كَرْهًا» من دخل فيه رهبة بالسيف .  
وقيل: «طوعًا» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و«كَرْهًا» من يكره نفسه لله تعالى؛  
فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «وَالْأَرْضِ» و«بعض من في الأرض» قال  
القشيري: وفي الآية مسلكان: أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد  
طوعًا، وبعض الكفار يسجدون إكراهًا وخوفًا للمنافقين؛ فالآية مجولة على هؤلاء، ذكره  
القرطبي. وقيل على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعًا لا يتقل عليه السجود،  
ومنهم من يتقل عليه؛ لأن الزلم التكليف مشقة، ولكنهم يتحملون المشقة لإخلاص وإيمانًا،  
إلى أن يألفوا الحق ويمرنوا عليه. والمسلك الثاني — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛  
وعلى هذا طريقان: أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعًا، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ  
به. والثاني — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعًا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر  
يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا يكفوله: «وَأَنَّ مِنْ  
شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. (وَيُظَلِّلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) <sup>(۱)</sup>  
أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وعمل من  
ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصرف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى  
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قاله ابن عباس  
وغيره. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرها وهو  
كاره. وقال ابن الأنباري: يعمل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها، كما جعل للجبال  
أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القشيري: في هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن  
يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة  
لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة  
أى مالت. و«الآصال» جمع أَصْل، والأَصْل جمع أَصِيل، وهو ما بين العصر إلى الغروب،  
ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلي:

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلِهِ • وَأَقْعَدُ فِي أَقْسَائِهِ بِالْأَصَائِلِ

و «ظَلَّاهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون آرتفع بالآتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلَّاهُمْ مُجْتَدِّ بالقدو والآصال و «بالقدو» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذي هو الآصال به .

قوله تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا نَخْلَقُهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ثم أمره أن يقول [لهم]: هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا مَنْ هو. (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) هذا يدل على اعتراضهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» معنى؛ دليله قوله: «وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أى فإذا أعتزتم فلم تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلا فقال: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرِك الذى لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَلٌ لما عبده من دون الله، والبصير مَثَلٌ الله تعالى: (أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) أى الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «يستوى» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تَأْنِيثَ «الظلمات» ليس بحقيق. الباقر بن الباقون بالناء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا نَخْلَقُهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) هذا من تمام الاحتجاج؛ أى خلق غير الله مثل



خافه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾  
 أى قل لهم يا محمد : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » ، فلزم لذلك أن يعيده كل شئ . والآية رد على  
 المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ قبل كل شئ .  
 ﴿ الْفَهَّارُ ﴾ الغاب لكل شئ ، الذى يغاب فى مراده كل مرید . قال الفسیری أبو نصر :  
 ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سألهم عن خالق السموات  
 والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحق فيه عليهم ، وبقرّب الأمر من الضرورة ؛ فإن عجز الجهاد  
 وعجز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم ، وإذا نفّرت هذا وبأن أن الصانع هو الله  
 فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبين فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لأشبهه  
 الخلق ، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ !

قوله تعالى : أَنْزَلَ مِنْ أَسْمَاءٍ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ  
 السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ  
 زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً  
 وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾  
 لِلَّذِينَ آمَنُوا أَجْرٌ لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ  
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ  
 الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْأَمْهَادِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ  
 إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِمَّا يَنْذَرُكَ أَوْ لَوْ الْأَلْبَبِ ﴿١٩﴾  
 قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾  
 ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل و يعلق بجنبات  
 الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، على ما نيته . قال مجاهد :

« فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا » قال : بقدر ملئها . وقال ابن جريج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأزهري العقيلي والحسن « بِقَدَرِهَا » بسكون الدال ، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدر لها . والأودية جمع الوادي ، وسمي واديا لخروجه وسيلانه ، فالوادي على هذا اسم للماء السائل . وقال أبو علي : « فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةً » توسع ، أى سال ماؤها لحذف ، قال : ومعنى « بِقَدَرِهَا » بقدر مياهها ، لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبْدًا رَابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق الماء ، وتم الكلام ، قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَيَمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ وهو المثلث الثاني . ﴿ آتِيَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حلية الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل ، وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا ، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يثبت في الأرض من المعادن فقد خالطه التراب ، فلما يوقد عليه ليذوب فيزايه تراب الأرض . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ قال مجاهد : جودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَاتٍ الْقَدْرُ إِذَا غَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبُ زَبْدُهَا ، وإذا جمد في أسفلها . والجفاء ما أجفاه الوادي أى رمى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُوْبَةَ يَقْرَأُ « جُفَاءً » قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَتِ الْقَدْرُ إِذَا قَذِفَتْ زَبْدَهَا ، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعت . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافي . وقيل : الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ، وهو أن المتأين ضربهما الله للحق في ثباته ، والباطل في اضطلاله ، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فلمانه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث . وقيل : المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ، فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبه القلوب بالأودية ، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ » قال : قرآنا ، « فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

(١) في زوى : يضب . بالمعجمة .

«سوق العروس»<sup>(۱)</sup> إن صَحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء، ومثل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصافي، ومثل المنشابه بالزبد. وقيل: الزبد مغايل النفس وغوايل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان نلعمها، كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجيد في الوادى باقيا، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السنية. والأخلاق الزكية؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرا حيد وابن محيصن ويحيى والأعشى وحزمة والكسائي وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاسَ» فأخبر، ولا مخاطبة ها هنا. الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام: «أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» الآية. وقوله: «فِي النَّارِ» متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاء التي في «عَلَيْهِ» التقدير: وما توقدون عليه ثابتا في النار أو كائنا. وفي قوله: «فِي النَّارِ» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي آسم ذى الحال ولا يستقيم أن يتعلق «فِي النَّارِ» بـ «يُوقِدُونَ» من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار؛ لأن الموقد عليه يكون في النار، فيصير قوله: «فِي النَّارِ» غير مفيد. وقوله: «أَتَقَاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبْدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السيل. وقيل: إن خبر «زبد» قوله: «فِي النَّارِ» الكسائي: «زَبْدٌ» ابتداء، و«مِثْلُهُ» نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو «يُوقِدُونَ». «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» أى كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بآيات. ثم قال: «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أى أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ يَحْيَى

وقد تقدم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. «الْحُسْنَى» لأنها في نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غدا. «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ»

(۱) هو: أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى، زوال مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ۷۸هـ وكتبه

«سوق العروس» في علم الفراءات. (كشف الظنون).

(۲) هو: كعب بن سعد الغنوى يرقى أخاه أبا المنوار، مصدر البت: وداع دعا ياءن يجيب إلى الندى.

أى لم ينجيوا إلى الإيمان به . ﴿لَوْ أَنَّ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى من الأموال . ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ملك لهم . ﴿لَآتَيْنَهُمْ بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة ؛ نظيره في «آل عمران» «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا<sup>(١)</sup>» ، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ» حسب ما تقدم بيانه هناك . ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال قرقد السجى<sup>(٢)</sup> قال [لى] إبراهيم النخعي : يا قرقد ! أندرى مأسوء الحساب ؟ قلت لا ! قال أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء . ﴿وَمَا وَهُمْ﴾ أى مسكنهم ومقامهم . ﴿جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هذا مثل ضربه الله للأؤمن والكافر ، وروى أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله . والمراد بالعمى عمى القلب ، والجاهل بالدين أعمى القلب . ﴿لِأَنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب ، أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهد أسم للجنس ؛ أى جميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه التى وصى بها عبده ، ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع القروض ، وتجنب جميع المعاصى . وقوله : ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الميثاق ، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه . قال قتادة : تقدم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه ، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢١ فابعد . وص ١٣١ فابعد .

(٢) منى .

(٢) الصبى : (يفتحين) نسبة إلى السبعة موضع بالبصرة .

الله على عبادته حين أخرجه من صلب أبيهم آدم . وقال القفال : هو ماركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثانية — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : ” ألا تباعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ” وكنا حديث عهد ببيعة قلنا : قد باعناك [ حتى قالها ثلاثا ] فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يا رسول الله ! إنا قد باعناك [ فلي ماذا نبايعك ؟ قال : ” أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا — وأسر كلمة خفية — قال لا تسألوا الناس شيئا “ . قال : ولقد كان بعض أولئك الثفر يسقط سوطه فما يسأل أحدا أن يتأوله إياه . قال ابن العربي : من أعظم المواقف في الذكر ألا يسأل سواه ؛ فقد كان أبو حمزة انخراساني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : رب ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعهدهم ألا يسأل أحدا شيئا ؛ قال : نخرج حاجبا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقى عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حل في قعره قال : استغيث لعل أحدا يسمعي . ثم قال : إن الذي عاهدته يراني ويسمعي ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغي سد هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدت من يراك ؟ فسكت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ؛ والخشب يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيت يدي فأفتني في مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

(۱) في ر : بيته . (۲) الزيادة من كتب الحديث .



نَهَانِي حَيَاتِي مِنْكَ أَنْ أَكْشَفَ الْهَوَى \* فَاغْنَيْتَنِي بِالْعِلْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ  
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي \* إِلَى غَائِبِي وَاللَّطْفُ يُدْرِكُ بِاللَّطْفِ  
تَرَأَيْتَ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا \* تُخَبِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنْتَ فِي كَفِّ  
أَرَانِي وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةً \* فَتُؤَسِّنِي بِاللَّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ  
وَتُحْيِي حُبِّي أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَفُّهُ \* وَذَا عَجَبٌ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَفِ

قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إيعانة على نفسه ، وذلك لا يحل ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستنجاره دليلاً ، واستكاثمه ذلك الأمر ، واستناره في الغار ، وقوله لسُرُقة : ” أَخِفْ عَنَّا “ . فالتوكل المدح لا يُنال بفعل محظور ؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه ، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتنب بها النفع ، فإذا عطّلها مَدَعِيَ للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل ، وردّاً لحكمة التواضع ؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، لأنه قد دلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبي حمزة : « بَغَاءُ أَسَدٍ فَأَنْجَرَجْنِي » فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله أنفاقاً ، وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل ، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنما ينكر فعله الذي هو كَسْبُهُ ، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٢٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَةُ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتْ عَذْنٌ يَدْخُلُونَهَا  
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ  
مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِصُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ظاهر في صلة الأرحام ، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات . ﴿ وَيَتَحَنَّنُونَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل : في قطع الرحم . وقيل : في جميع المعاصي . ﴿ وَيَتَحَفَّضُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ . سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة ، ومن نوقش الحساب عذب . وقال ابن عباس وسعيد بن جبیر : معنى . « يَبِصُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ، « وَيَتَحَنَّنُونَ رَبَّهُمْ » فيما أمرهم بوصله ، « وَيَتَحَفَّضُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » في تركه ، والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا ، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ قيل : « الَّذِينَ » مستأنف ، لأن « صَبَرُوا » ماض فلا ينعطف على « يُوفُونَ » . وقيل : هو من وصف من تقدم ، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي ، وتارة بلفظ المستقبل ، لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا ؛ ولما كان « الَّذِينَ » يتضمن الشرط [ و ] الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك ؛ ولهذا قال : « الَّذِينَ يُوفُونَ » ثم قال : « وَالَّذِينَ صَبَرُوا » ثم عطف عليه فقال : « وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ » قال ابن زيد : صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب ، والحوادث والنوائب . وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . ( وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ) أذوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها . ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعني الزكاة المفروضة ، عن ابن عباس ، وقد مضى القول في هذا في « البقرة » وغيرها . ﴿ وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ﴾ أى يدفعون بالعمل

الصالح السيي من الأعمال، قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير، سعيد بن جبير: يدفعون المنكر بالمعروف، الضحالك: يدفعون الفحش بالسلام جوبير: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القتيبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم، فالسفة السيئة، والحلم الحسنة، وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أفعال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم، ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»<sup>(١)</sup> ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: «وَأَتَيْعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحْتَهَا وَخَالِقِ النَّاسَ يَخْلُقْ حَسَنًا». قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطائع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عني بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أى لهم جنات عدن؛ فـ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بدل من «عُقْبَى» ويجوز أن تكون تفسيراً لـ «عُقْبَى الدَّارِ» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَّثَ و «جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداء محذوف. و «جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسط الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله الفُشَيْرِيُّ أبو نصر عبد الملك. وفى صحيح البخارى: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك إن صح ذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصراً يقال له عَدْنٌ، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِجْرَةٍ لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. و «عدن» مأخوذ من عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما بآيات بيانه فى سورة «الكهف» إن شاء الله تعالى. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

(١) راجع ص ١١٠ من هذا الجزء. (٢) فى: خير. (٣) المبرة (بكر الحاء المهملة وفتحها): ضروب من البرود اليمنية المخططة. (٤) راجع ج ١٠ ص ٣٩٥ فابعد.

يكون معطوفاً على « أُولَئِكَ » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في « يَدْخُلُونَهَا » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ؛ أى من كان صالحاً ، لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم بلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لاعلى وجه التبعية . قال القشيري : وفي هذا نظر ؛ لأنه لا بد من الإيمان ، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان . فلا يظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غداً تتم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والمهدايا من عند الله تكملة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم ؛ فاضمر القول ، أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ، أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ يَمَّا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ « بما » مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في « بما » متعلقة بمعنى « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » ويجوز أن تتعلق بمحذوف ، أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جبّار . وقيل : على الفقر في الدنيا ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله ؟ ” قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : ” المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُثقّ بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ” . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : ” السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء، فإذا أتى فرضة الشعب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعمة عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم بفعله، وكان عمر بعد أبي بكر بفعله، وكان عثمان بعد عمر بفعله. وقال الحسن البصري رحمه الله: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن فضول الدنيا. وقيل: «بِمَا صَبَرْتُمْ» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهم [أنهما قالاً]: إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: أنطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والحن في الدنيا. قال على بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: أدخلوا الجنة فنعمة أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أى نعم عاقبة الدار التى كنتم فيها؛ علمتم فيها ما أعقبكم هذا الذى أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا أتم، و«الدار» هى الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن النار. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ (٢٦)

(١) فرضة الشعب: فوجته. والشعب: ما انفرج بين جبلين. والشهداء كانوا بجبل أحد.

(٢) فى الأصل: «انه قال».



قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لما ذكر الموفين بعهده ،  
والمواصين لأمره ، وذكر ما لهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال  
عقدهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أى من  
الأرحام . والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى بالكفر وآرتكاب المعاصي  
﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى الطرد والإبعاد من الرحمة . ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى سوء المقلب ،  
وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحُرورية .  
قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين أنه  
تعالى الذى يسطر الرزق ويقدر فى الدنيا ، لأنها دار امتحان ، فسطر الرزق على الكافر  
لا يدل على كرامته ، والتفتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم . ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى  
يضيق ؛ ومنه . « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر  
الكفاية . ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعنى مشركى مكة ؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ،  
وجعلوا ماعدت الله ؛ وهو معطوف على « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » . وفى الآية تقديم وتأخير ؛  
التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون  
فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى فى جنبها . ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾  
أى متاع من الأمتعة ، كالقصة والسُرجة<sup>(۱)</sup> . وقال مجاهد : شئ قليل ذاهب ؛ من متاع النهار  
إذا ارتفع ، فلا بد له من زوال . أبى عباس : زاد كراد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا  
ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يتروى منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، « وَلَهُمْ  
سُوءُ الدَّارِ » ثم ابتدأ . « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع ويضيق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ  
قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٧٨﴾

(۱) راجع ج ۱۸ ص ۱۷۰ . (۲) السكرية : إناء صغير يركب فيه النوى الغالب من الادم ، وسمى فارسية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بين في مواضع أن أفتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق ، والغافل عبد الله ابن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنْ أَلِهَ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرملك الاستدلال بها بضلكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أى من رجع . والهاء في « إليه » للحق ، أو للإسلام ، أو لله عزَّ وجلَّ ، على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هى للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ، أى يهدي الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « مَنْ أُنَابَ » فهو في محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى تسكن وتسأنس بتوحيد الله فتطمئن ، قال : أى وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بالسنتهم ، قاله قتادة : وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان بن عيينة : بأمره . مقاتل : بوعده ابن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ، كما توجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه . وقيل : « يَذْكُرُ اللَّهُ » أى يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أى قلوب المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الحلف ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « يَذْكُرُ اللَّهُ » أى بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعده الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ

مَعَابٍ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبره . وقيل : معناه لهم طوبى ، فـ « طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طوبى، ويعطف عليه «وَحُسْنُ مَأْوٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب.  
 وذكر عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن عمرو بن أبى يزيد البجلي عن عُبَّة  
 ابن عبد السلمى قال: جاء أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض  
 فقال: فيها فاكهة؟ قال: «نعم شجرة تدعى طوبى» قال: يا رسول الله! أى شجرة أرضنا  
 تشبه؟ قال: «لا تشبه شيئاً من شجر أرضك أنيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على  
 ساق ويغترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عظم أصلها! قال: لو ارتفعت جذعة  
 من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر رِقْوَتُهَا هَرَمًا». وذكر الحديث، وقد كتبتناه  
 بكامله فى أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا معمر  
 عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال: فى الجنة شجرة يقال لها  
 طوبى؛ يقول الله تعالى لها: تفتقى لعبدى عما شاء؛ ففتقت له عن فرس يسرجه ولجامه  
 وهيئته كما شاء، وتفتقى عن الراحلة برحلتها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن التجائب والثياب.  
 وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبى أمامة الباهلى قال: «طوبى» شجرة  
 فى الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هى منها؛  
 وقد قيل: إن أصلها فى قصر النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل  
 أهل الجنة، كما أنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا. وقال ابن عباس: «طوبى  
 لهم» فرح لهم وقرّة عين؛ وعنه أيضاً أن «طوبى» اسم الجنة بالحشية؛ وقاله سعيد بن جبيرة  
 الربيع بن أنس: هو الإستان بلغة الهند؛ قال القسرى: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين.  
 وقال قتادة: «طوبى لهم» حسنى لهم. عكرمة: نعى لهم. إبراهيم النخعى: خير لهم؛  
 وعنه أيضاً كرامة من الله لهم. الضحاك: غبطة لهم. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛  
 لأن طوبى فعل من الطيب؛ أى العيش الطيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشئ الطيب.  
 وقال الزجاج: طوبى فعل من الطيب، وهى الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُوبَى، فصارت  
 الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسى وموؤن.

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه ، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي ؛ ذكره أبو عمر في التهيد ، ومنه نقلناه ؛ وذكره أيضا الثعلبي في تفسيره ؛ وذكر أيضا المهدي والقشيري عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبِت الحلى والحلل وإن أغصانها لتُرى من وراء سور الجنة “ ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبي . وقال ابن عباس : ” طوبى “ شجرة في الجنة أصلها في دار على ، وفي دار كل مؤمن منها عُصن . وقال أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ( طوبى لهم وحسن مآب ) قال : ” شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة “ ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : ” شجرة أصلها في دار على وفروعها في الجنة “ . فقيل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : ” أصلها في داري وفروعها في الجنة “ ثم سئلت عنها فقلت : ” أصلها في دار على وفروعها في الجنة “ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن داري ودار على غدا في الجنة واحدة في مكان واحد “ وعنه صلى الله عليه وسلم : ” هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مُدلى فيها عُصن منها “ ( وحسن مآب ) أب إذا رجع . وقيل : تقدير الكلام الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم يذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَى آلِهِمْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ) أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ( لَبِثُوا عَلَى آلِهِمْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ) يعنى القرآن . ( وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ) قال مقاتل وابن جرير : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصلح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: "أكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب التيامنة، يعنون مُسَيْلَمَةَ الْبَكْدَازِ؛ أكتب باسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: "أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن أكتب: هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: دعنا نقاتلهم؛ فقال: "لا ولكن أكتب ما يريدون" فنزلت. وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "اتَّبِعُوا الرَّحْمَنَ" <sup>(۱)</sup> قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الَّذِي أَنْكُرْتُمْ. ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وأعتمدت ووثقت. ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أى مرجعى غدا، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت، رِضًا بقضائه، وتسليًا لأمره. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر ويقول: "يا الله يارحمن" فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو للمسيح؛ فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ <sup>(۲)</sup>.

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتُنَّ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) هذا متصل بقوله: «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ». وذلك أن نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان



جاسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم؛ فقال له عبد الله : إن سرك أن تبك فسير لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع ؛ فليست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخر له الريح كما زعمت ؛ فليست بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وأخي لنا قصيا جدك ، أو من شئت أنت من مواتانا نسأله ؛ أحق ما نقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ، وليست إلهون على الله منه ؛ فانزل الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » الآية ؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكن حذف إيجازا ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قال امرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهُمْ نَفْسٌ مَوْتٌ جَمِيعَةٌ \* وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

يعنى لسان على ؛ هذا معنى قول قتادة ؛ قال : لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزجاج : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا » إلى قوله : « الْمَوْتَى » لما آمنوا ، والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . (بل لله الأمر جميعا) أى هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تلتسمونه مما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ( أَفَلَمْ يَتَّخِذِ الَّذِينَ آمَنُوا ) قال الفراء قال الكلبي : « يتنص » بمعنى يعلم ، لغة التثخع ؛ وحكاها القشيري عن ابن عباس ؛ أى أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

(١) هو نفسي بن كلاب .

(٢) راجع ج ٧ ص ٦٦ .

وَأَنَّهُ : هو لفظة هَوَازِن ؛ أى أفلَم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلَم يعلموا وَيَتَّبِعُوا ، وَأَنَّهُ في ذلك أبو عبيدة مالك بن عوف النَّصْرِي :  
 أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي \* أَلَمْ يَأْسُوا أَنِّي أَبْنُ فَارِسٍ زَهْدَمَ  
 يَأْسِرُونَنِي مِنَ الْمَيْسَرِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْبَقَرَةِ » وَيُرْوَى بِأَسْرُونَنِي مِنَ الْأَمْرِ . وَقَالَ رَبَّاحُ بْنُ عَبْدِ :

أَلَمْ يَيْتَسِ الْأَفْوَامُ أَنِّي [ أَنَا ] أَبْنُهُ \* وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَانِيَا  
 فِي كِتَابِ الرِّدِّ « أَنِي أَنَا أَبْنُهُ » وَكَذَا ذَكَرَهُ الْغَزْوِيُّ : أَلَمْ يَعْلَمْ ؛ وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا : أَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشَاهِدُوا الْآيَاتِ . وَقِيلَ : هُوَ مِنَ الْيَاسِ الْمَعْرُوفِ ؛ أَيْ أَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ إِيْمَانِ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ ، لَعَلَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ هِدَايَتَهُمْ لَهْدَاهُمْ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ تَمَنَّوْا نَزُولَ الْآيَاتِ طَمَعًا فِي إِيْمَانِ الْكَفَّارِ . وَقُرْأَ عَلَى وَابْنِ عَبَّاسٍ : « أَلَمْ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا » مِنَ الْبَيَانِ . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ الْمَكْتُوبِ « أَلَمْ يَيْتَسِ » قَالَ : أَظُنُّ السَّكَاتِ كَتَبَهَا وَهُوَ نَاعَسَ ؛ أَيْ زَادَ بَعْضُ الْحُرُوفِ حَتَّى صَارَ « يَيْتَسِ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَسَارِيُّ : رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ أَنَّهُ قَرَأَ — « أَلَمْ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آمَنُوا » وَبِهَا أَحْتَجُّ مِنْ زَعْمِ أَنَّهُ الصَّوَابُ فِي التَّلَاوَةِ ؛ وَهُوَ بَاطِلٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، لِأَنَّ مُجَاهِدًا وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ حَكَا الْحَرْفَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، عَلَى مَا هُوَ فِي الْمَصْحَفِ بِقِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو وَرَوَايَتُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ ثُمَّ إِنْ مَعْنَاهُ : أَلَمْ يَتَّبِعِ ؛ فَإِنْ كَانَ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى تَحْتَ اللَّفْظَةِ الَّتِي خَالَفُوا بِهَا الْإِجْمَاعَ فَقَرَأَتْهَا تَتَقَعَّ طَلِبًا ، وَتَأْتِي بِتَأْوِيلِهَا ، وَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ الْمَعْنَى الْآخَرَ الَّذِي الْيَاسُ فِيهِ لَيْسَ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ فَقَدْ سَقَطَ مَا أوردوا ؛

(١) ذَكَرَ فِي « لِسَانِ الْعَرَبِ » أَنَّ قَاتِلَ الْبَيْتِ هُوَ سَهْمُ بْنُ وَثِيلِ الْيَرْبُوعِيِّ ؛ وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ لَوْلَهُ جَابِرُ بْنُ سَهْمٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِيهِ : « أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمَ » وَزَهْدَمُ : فَرَسٌ سَهْمٌ . وَقَوْلُهُ : يَأْسِرُونَنِي مِنْ إِسَارِ الْجَزَرِ ؛ أَيْ يَجْزِرُونَنِي وَيَقْتَسِمُونَنِي ؛ وَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ تَدْوِقُ عَلَيْهِ سِبَاةً بِالْمَيْسَرِ بِطَاهِيُونَ عَلَى قِسْمَةِ فِدَائِهِ .

(٢) رَاجِعْ بِج ٣ ص ٥٣ .

(٣) مِنَ الْبَحْرِ الْأَبْيَحِيانِ ، وَكِتَابُ الرِّدِّ .

وَأَمَّا سَقُوطُهُ بِطَلِّ الْقُرْآنِ ، وَلِزُومِ أَصْحَابِهِ الْبُهْتَانِ . ﴿أَنْ أَوْ يَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ . «أَنْ» مخففة من الثقيلة، أى أنه لو يشاء الله ﴿لَخَدَّي النَّاسِ جَبِينًا﴾ ، وهو يردّ على القدرية وغيرهم .  
قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أى داهية تفجؤهم بكفرهم وعنوّهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قَوَارِعٌ ؛ والواصل في القرع الضرب ؛ قَالَ :

أَفْتَى تَلَادِي وَمَا جَعَمْتُ مِنْ نَسَبٍ \* قَرَعُ الْقَوَاقِيرِ أَقْوَادَ الْأَبَارِقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قبل أو من أسر أو جدد ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستترين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرائيا التي كان يُنفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ أى القارعة . ﴿قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ فى فتح مكة ؛ قوله بجاهد و قتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أى تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة بإجمد ، فتحل قريبا من دارهم ، أو تحل بهم محاصرا لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، وإفلاق خيبر ، ويأتى وعد الله بالإذن لك فى قتلهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَسْمَرْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأفيش الأسدى ، وأسمه المنيرة بن عبد الله . والبلاد : المال القديم الموروث . والنسب : الضياء والبساتين وما جده بعمله . والقوافيز (جمع قافورة) وهى أوران يشرب بها الخمر .

عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ  
فِي الْحَبِيبَةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلَ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدم معنى الاستهزاء في «البقرة» ومعنى الإملاء في «آل عمران» أى يخبر بهم، وأزرى عليهم، فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان فى علمى أنه يؤمن منهم؛ فلما حثّ القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركى قومك .

قوله تعالى : ﴿أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيام القيام الذى هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولى لأموال الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى : أنه حافظ لا ينفعل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفن هو حافظ لا ينفعل كمن ينفعل . وقيل : «أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ» أى عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :  
فلولا رجالٌ من قريشٍ أعزّة • سرقتم ثياب البيت والله قائمٌ

أى عالم؛ فأنه عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك . ﴿وَجَعَلُوا﴾ حال؛ أى أوقد جعلوا، أو عطف على «أَسْتَهْزَيْتُ» أى أستهزوا وجعلوا؛ أى تتوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعنى أصناما جعلوها آلهة . ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أى قل لهم يا عهد : «سَمُّوهُمْ» أى يبنوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أى إنما يسمون : الآلات والعُزى ومناة وهبل . «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ» «أم» استفهام توبيخ، أى أننبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدّم فى المعنى؛ لأن قوله : «سَمُّوهُمْ» معناه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين . «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أننبئون الله بباطن لا يعلمه . «أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ» يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحوالوا، وإن قالوا :

(۲) راجع ج ۴ ص ۲۸۶ فابعد .

(۱) راجع ج ۱ ص ۲۰۷ فابعد .

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم الآلات والعزى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيل : « أَمْ تُشَبِّهُونَهُ » عطف على قوله : « أَقْنُ دُونَ قَاتِمٍ » أى أقن هو قائم ، أم تشبهون الله بما لا يعلم ؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا ؛ أفنبتونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خص الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم آذعوا له شركاء في الأرض . ومعنى ( أَمْ يُظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ ) : الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قتادة : معناه يباطل من القول ، ومنه قول الشاعر :

أَعْيَرْتَنَا أَلْبَانًا وَلُحُومَهَا \* وَذَلِكَ عَارٌ يَابِنَ رِبْطَةَ ظَاهِرُ<sup>(١)</sup>

أى باطل . وقال الضحاك : يكذب من القول . ويحتمل خامسا — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : أنخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين . ( بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ) أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكربهم ؛ قيل : استدرك على هذا الوجه ، أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكربهم . وقرأ ابن عباس ومجاهد — ( بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ) مسعى الفاعل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زين للكافرين مكربهم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكافر مكرا ؛ لأن مكربهم بالرسول كان كفرا . ( وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ) أى صدّهم الله ؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقيون بالفتح ؛ أى صدّوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ »<sup>(٢)</sup> وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصُدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »<sup>(٣)</sup> . وقراءة الغم أيضا حسنة فى « زين » و « صدّوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات القدر ، وهو اختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة — « وَصُدُّوا » بكسر الصاد ؛ وكذلك . « هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على ما لم يسم فاعله ؛ وأصلها صِدِّدُوا ورددت ، فلما أدغمت الدال الأولى فى الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر . ( وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ) بخذلانه . ( فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) أى موقف ؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين

(١) كذا فى الأصول . ويبدو أن فى العبارة نقصا ، ولعل الرابع ما فى البحر : . وقيل . . أم متصلة والتقدير

أم تشبهونه بظاهر من القول لا حقيقة له .

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٥ .

(٤) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ١٦ ص ٢٨٣ .



ومن تابعهم؛ لقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ» فكذلك قوله: «وَصَدُّوا». ومعظم القراء يقدون على الدال من غير الياء؛ وكذلك «وَالِ» و «وَاقٍ»؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهايدٍ، فتحذف الياء لسكونها والنقائها مع التنوين. وقرأ «قَالَ لَهُ مِنْ هَادِي» و «وَالِي» و «وَاقِي» بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالى وواقٍ بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لانتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف؛ فردت الياء فصار هادي ووالى وواقٍ. وقال الخليل في نداء قاضٍ: يا قاضى بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمُعالي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أى للشركين الصادقين، بالفتل والسيء والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ أى أشد؛ من قولك: شق على كذا يشق. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾؛ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و «من» زائدة.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ اختلف النحاة في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: أرتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير: وفيما يسئل عليكم مَثَلُ الجنة. وقال الخليل: أرتفع بالابتداء وخبره «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ كقولك: قولى يقوم زيد؛ فقولى مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجد؛ قال الله تعالى: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» وقال: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» أى الصفة العليا؛ وأنكره أبو علي وقال: لم يسمع مَثَلٌ بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجرى مجراه في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبيهك؛ قال: ويفسد أيضا من جهة المعنى؛ لأن مثلاً

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم ؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مثل الله عز وجل لنا ما غاب عنا بما نراه والمعنى : مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأنكره أبو علي فقال : لا يخلو المثل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنة جنة ، فجعلت الجنة خبرا لم يستقم ذلك ؛ لأن الجنة لا تكون الصفة ، وكذلك أيضا شبه الجنة جنة ؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين ، وهو حادث ؛ والجنة غير حادث ؛ فلا يكون الأول الثاني . وقال الفراء : المثل متحمم للتاكيد والمعنى : الجنة التي وعده المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل ؛ كقوله : « لَيْسَ كَيْفَ شَيْءٌ » ؛ أي ليس هو كشيء . وقيل التقدير : صفة الجنة التي وعده المتقون صفة جنة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنة التي وعده المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود ؛ قاله مقاتل . « أَكُلَاهَا دَائِمًا » لا ينقطع ، وفي الخبر : « إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى » ، وقد بيناه في « التذكرة » . « وَظَلَّهَا » أي وظلها كذلك ؛ لحذف أي ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول ؛ وهذارء على التحميمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول وبغنى . « تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوَّا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَلْكَتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَكَابِدُ »

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَلْكَتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن ، كابن سلام وسلمان ، والذين جاءوا من الحبشة ؛ فاللفظ عام ، والمراد الخصوص . وقال قتادة : هم أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن ؛ وقاله مجاهد

وابن زبد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون ب نزول القرآن لتصاديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم فلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ؛ فسالوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فانزل الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » <sup>(۱)</sup> فقالت قريش : ما بال مجد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو للدين ، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن الرحمة ، يعنون مُسَيِّمَةَ الْكَذَّابِ ؛ فنزلت : « وَهُمْ يَذُكِّرُ الرَّحْمَنُ هُمْ كَافِرُونَ <sup>(۲)</sup> » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فانزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمْ يُفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ( وَمِنَ الْأَحْزَابِ ) يعني مشركي مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ( قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ) قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرا أبو خالد <sup>(۳)</sup> بالرفع على الاستئناف أى أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأنبأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ( إِلَيْهِ ادْعُوا ) أى إلى عبادته ادعو الناس . ( وَإِلَيْهِ مَآبٌ ) أى أرجع في أموري كلها . قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ

بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٢٥﴾  
قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ) أى وكما أنزلنا عليك القرآن فانك بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزل على عبد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربى ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

(۱) راجع ج ۱ ص ۲۸۷

(۲) راجع ج ۱ ص ۲۴۲

(۳) في حراوى : أبو خلد : وهو غيبة بن حماد الحكيم روى عن نافع . غاية النهاية .

من الأحكام . وقيل : أراد بالحكم العربي القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .  
 ﴿ وَإِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجيه إلى غير  
 الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾  
 يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا  
 وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ  
 كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

فيه مستثانات :

الأولى — قيل : إن اليهود عابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك  
 وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن  
 النساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ  
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما  
 التخصيص فى الوحي .

الثانية — هذه الآية تدل على الرغبة فى النكاح والحض عليه ، ونهى عن التبتل ،  
 وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛  
 قال صلى الله عليه وسلم : ” تزوجوا فإنى مكاثركم الأثم ” الحديث . وقد تقدم فى «آل عمران»<sup>(١)</sup>  
 وقال : ” من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الثانى ” . ومعنى ذلك<sup>(٢)</sup>  
 أن النكاح يعف عن الزنى ، والعفاف أحد المتصلتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 عليهما الجنة فقال : ” من وقاه الله شر أنثيين وبلغ الجنة ما بين لحبيبه وما بين رجله ” أخرجه  
 الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى يسوت أزواج النبي

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ ف ٤ . (٢) روى ابن الجوزى فى الملل ” من تزوج فقد أحرز نصف

دينه فليتق الله فى النصف الباقي ” وراجع الحديث بطريقه فى ج ٢ كشف الخفا ص ٢٣٩ فقه به .

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تَفَافُوا فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ، بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم [اليوم<sup>(۱)</sup>] فقال : ” أنتم الذين قائم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأنفكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني “ . أخرجه مسلم بمعناه ، وهذا أين . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أجاز له ذلك لَكُنْصِبًا ، وقد تقدم في « آل عمران<sup>(۲)</sup> » الحَصَّ على طلب الولد والزَّذَ على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتهيها ؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبِّي أن يخرج الله مِنِّي من يكثر به النبي صلى الله عليه وسلم التَّيِّدِينَ يوم القيامة ؛ وإني سمعته يقول : ” عليكم بالأبكار فلأنَّ أعذب أنفواها وأحسن أخلاقا وأنتق أرحاما وإني مكاثركم الأثم يوم القيامة “ . يعني بقوله : ” أنتق أرحاما “ أَقْبَلُ للولد ؛ ويقال للراءة الكثيرة الولد نائق ؛ لأنها ترمي بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَّارٍ قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وأنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال ” لا “ ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : ” تزوجوا الودود الولود فإني مكاثركم الأثم “ . صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك .

قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات — ما تقدم ذكره في هذه السورة — فانزل [الله] ذلك فيهم ؛ وظاهر الكلام حَظَرُ ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد مالا يقدر عليه . ( لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ) أى لكل امرؤ قضاء الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله الفراء

(۱) من ي . (۲) رابع ج ۴ ص ۷۲ ، وج ۶ ص ۲۶۰ فابعد . (۳) من ع .



والضحاك؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره: «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ»؛ بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدّر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذى الحكيم في «نوادير الأصول» عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال: لما آرتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجبار فى إصبغه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شئ من حُلّ الرجال، قال: فهل عليه شئ من اسمائى مكتوب أو كلامى؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ».

قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ) أى يحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به. «ويُثَبِّتُ» ما يشاء؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محوا، أى أذهبت أثره. «ويُثَبِّتُ» أى ويثبت؛ كقوله: «وَالَّذِينَ يَرَبُّونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهُوا اللَّهَ».

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «ويُثَبِّتُ» بالتخفيف، وشدد الباقون؛ وهى قراءة ابن عباس، واختار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» (١). وقال ابن عمر: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَالْمَوْتَ». وقال ابن عباس: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا أَشْيَاءَ (٢) الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالْأَجَلَ وَالرِّزْقَ وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ؛ وعنه: هما كتابان سوى أم الكتاب، يَمْحُوا اللَّهُ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ. (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) الذى لا يتغير منه شئ. قال القشبرى: وقيل السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ وَالْخُلُقُ وَالرِّزْقُ لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكم. قلت: مثل هذا لا يدرك بالرائى والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم، وهذا

(٢) راجع ج ١٤ ص ١٨٥.

(٤) فى أورد: إلا سنا.

(١) راجع ج ٧ ص ١١.

(٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء.

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبن مسعود وأبن وائل وكعب الأبحار وغيرهم ، وهو قول الكلبي . وعن أبى عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فأعني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم ، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فأعني من الأشقياء وأكتبني في السعداء ؛ فإنك تحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فأعنا وأكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية في كتاب الله لأنيأتك بها هو كائن إلى يوم القيامة . « يَحْجُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . وقال مالك ابن دينار في المرأة التي دعا لها : اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاما فإنك تحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدم في الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنَسَّأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَبْصِلْ رَحِمَهُ » . ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ » فذكره بالفظه سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما — معنوى ، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكأنه لم يم . والآخر — يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدل له ، كما قال : « يَحْجُرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . وقيل لأبن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليثق الله وليبصِلْ رَحِمَهُ » كيف يزداد في العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل الثاني (۱) الأثر : الأجل . من به لأنه يقع العمر . وأصله من أثر شبه في الأرض فإن مات لا يسبق له أثر ولا يرى لأثمه في الأرض أثره الثانية . (۲) راجع ج ۶ ص ۳۸۷ .

الثاني — بمعنى المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله، فإذا اتق العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ماشاء، وإذا عصي وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ماشاء، فيزيده في أجل البرزخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ»<sup>(١)</sup> فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار جبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحْكَمُ الله أمر السنة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضحاك: يحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس: وقال الكلبي: يحو من الرزق ويزيد فيه، ويحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب. وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير: يحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمذسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحديثنا بكر بن سهل، قال حدثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، «يحو الله ما يشاء» يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، «ويثبت» ما يشاء فلا يبدله، «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمذسوخ. وقال سعيد بن جبير أيضا: يغفر ما يشاء — يعني — من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عكرمة: يحو ما يشاء — يعني بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى]: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا»<sup>(٢)</sup> الآية. وقال

(٢) الزيادة من «البحر المحيط».

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠١.

(٢) راجع ج ١٣ ص ٧٧.

الحسن : « يَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » من جاء أجله ، « وَيُثَبِّتُ » من لم يأت أجله . وقال الحسن : يحسو الآباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُثَبِّتُ الحفظة من الذنوب ولا يُثَبِّتُ . وقال السدي : « يَحْوُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » يعني : القمر ، « وَيُثَبِّتُ » يعني : الشمس ؛ بيانه قوله : فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً <sup>(١)</sup> وقال الربيع بن أنس : هذا في الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته بخافة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وورده إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا <sup>(٢)</sup> » الآية . وقال علي بن أبي طالب يحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ <sup>(٣)</sup> » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَثْبَتْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْآنًا آخِرِينَ <sup>(٤)</sup> » فيمحو قرآنًا ، ويثبت قرآنًا . وقيل : هو الرجل يعمل الزمان الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذي يحسو ، والذي يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته في ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبي <sup>(٥)</sup> والماوردي عن ابن عباس . وقيل : يحو الله ما يشاء — يعني الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عباد في اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذي يحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من درة بيضاء ، لها دفتان من باقوتة حمراء ، لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ، يثبت ما يشاء ويحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يتقين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويحو ما يشاء » . والعقيدة أنه لا تبدل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو المحو ، والله أعلم . <sup>(٦)</sup> الغزنوي : وعندى أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدل . « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى أصل ما كتب من الآجال

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٦٥ و ص ٢٢

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧

(٤) من ى .

(٣) راجع ج ١٢ ص ١٢٠ ف ١٤

وغيرها . وقيل : أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يتبدل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبدل . وقيل : إنما يجرى في الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ؛ فقال لعلمه : كن كتابا ، ولا يتبدل في علم الله ، وعنه أنه الذكور ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ <sup>(١)</sup> » وهذا يرجع معناه إلى الأول ، وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحمار : أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق .

قوله تعالى : وَإِنْ مَا تُرِيَنَّكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تُرِيَنَّكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ) « ما » زائدة ، والتقدير : وإن ترينك بعض الذي نعدهم ، أى من العذاب لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم (أَوْ تَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ) فليس عليك إلا البلاغ ؛ أى التبليغ ؛ (وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا) يعنى أهل مكة ، (أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ) أى نقصدها . (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) اخلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » موت علمائها وصلحاتها . قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابي : الطَّرَفُ والطَّرْفُ الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناكم نقصانكم في أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز ؛ لا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى . وقال مجاهد أيضا



وقادة والحسن : هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين ؛ وروى ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضا هو نحراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها ؛ وعن مجاهد : نقصانها نحرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجراح عن طاحنة بن عُمير عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهب فقهاؤها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البر : قول عطاء في تأويل الآية حسن جدا ؛ تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكا المهدوي عن مجاهد وابن عمر ، وهذا نص القول الأول نفسه ؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد ، « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء ؛ وهذا خلاف ما آرضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس . وقال عكرمة والشَّعْبِيّ : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشَكٌ . وقال الآخر : لضاق عليك حَشٌّ تنبرز فيه . قيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أَوَلَمْ تَرَ قريش هلاك من قبلهم ، ونحراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جريح . وعن ابن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : [ نقصها ] يَجُورُ وَلَاتُهَا .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد ، يقتل أهلها وأتباعهم عنها ، وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَجْزِيكَ لَأَمْعَبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي الانتقام من الكافرين ، سريع الثواب للمؤمنين . وقيل : لا يحتاج في حسابه إلى روية قلب ، ولا عقد بئان ؛ حسب ما تقدم في « البقرة » بيانه .

(۱) الحسن : موضع قضاء الآية . (۲) بنى . (۳) راجع ج ۲ ص ۴۴ فابعد .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ( وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ) أى من قبل مشرك مكة ، مكروا بالرسول وكادوا لطم وكفروا بهم . ( فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ) أى هو مخلوق له مكر المساكين ، فلا يضرب إلا بإذنه . وقيل : فله خير المكر ، أى يجازيهم به . ( يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ) من خير وشر ، فيجازى عليه . ( وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ ) كذا قراءة نافع وآبن كثير وأبى عمرو . الباقون : « الْكُفْرُ » على الجمع . وقيل : عني [ به ] أبو جهل . ( لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ) أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أولين الثواب والعقاب في الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ) قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أى لست بنبي ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أى لما لم يأتهم بما أفتروا قالوا ذلك . ( قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ) أى قل لهم يا محمد : « كَفَى بِاللَّهِ » أى كفى الله ( شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ) بصدقي وكذبكم . ( وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ) وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — في التفسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصور ، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري والتجاني وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذي عن ابن أبي عبد الله بن سلام قال : لما أريد [ قتل ] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت في نصرتك ؛ قال : أخرج إلى الناس فاطردهم عني ، فإنك خارج خير لي من داخل ؛ ( قال ) فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان آسمى في الجاهلية فلان ، فسماي

(١) من ي . (٢) في : سفين ، ولله تحريف عن حصين .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله، فنزلت في . « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت في . « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكتابه في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبيرة « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » ؟ قال : هو عبد الله بن سلام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وآبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ! ذكره الثعلبي . وقال القشيري : وقال آبن جبيرة السورة مكية وآبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سلام ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل ؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرءون « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » ويتكبرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف ، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد النخعي أنه قرأ كذلك — « وَمَنْ عِنْدَهُ » بكسر الميم والعين والبدال « عِلْمُ الْكِتَابِ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه علي فعول على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم . « أنا مدينة العلم وعلى بابها » وهو حديث باطل ؛ النبي صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها ؛ فمنهم الباب المنفتح ، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم . وأما من قال

(۱) قيل : السورة مدنية إلا « ولأن قرأنا » الآيتين . فانه فتادة . وفيها مدني كثير كقصة بن العليل وأريد . ابن عطية .

(۲) في كشف الخفاء بحث ، قيم في هذا الحديث ج ۱ ص ۲۰۳ فساد به . وجزء ابن تيمية بأنه من وضع الشيعة .

لأنهم جميع المؤمنين فصدق ؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب ، ويدرك وجه إعجازه ، ويشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سلام فعول على حديث الترمذى ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ وبعضه من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا ؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قل النجاس : وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يمتثل أيضا ؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التى أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً ]<sup>(۱)</sup>

## تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدينتين وقيل : ثلاث ، نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » . قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ) تقدم معناه . ( لِتُخْرِجَ النَّاسَ ) أى بالكُفْرِ ، وهو القرآن ، أى بدعائك إليه . ( مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وهذا على التمثيل ؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة ؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ( بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) أى بتوفيقه وإياهم ولطفه بهم ، والباء في « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلقة بـ « تخرج » وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمنذر الهادي . ( إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ) هو كفولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنها شئ واحد ، والله هو العزيز الذى لا مثل له ولا شبيه . وقيل : « الْعَزِيزِ » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « الْعَزِيزِ » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الْحَمِيدِ » أى المحمود بكل لسان ، والمجيد فى كل مكان على كل حال . وروى يَمُتَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعبسى بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما بُيِّت محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعبسى ، وكفر الذين آمنوا بعبسى ؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردى .



قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ**  
**لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴿٢٠﴾ **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**  
**عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ**  
**بَعِيدٍ** ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى ملكا وعبدا  
 وأخترا وخلقا . وقرأ نافع وآبن عامر وغيرهما : « **اللَّهُ** » بالرفع على الابتداء « **الَّذِي** » خبره . وقيل :  
 « **الَّذِي** » صفة ، والخبر مضمرة ، أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادر على كل  
 شئ . الباقيون بالخفض نعتا للعزیز الحميد فقدم النعت على المنعوت ، كقولك : مررت  
 بالظريف زيد . وقيل : على البديل من « **الْحَمِيد** » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالمعلم  
 فلا يوصف ؛ كما لا يوصف بزيد وعمسرو ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن  
 معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير ، مجازه :  
 إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف  
 على « **الْحَمِيد** » رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف  
 على « **وَمَا فِي الْأَرْضِ** » .

قوله تعالى : ﴿ **وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ قد تقدم معنى الويل فى « **الْبَقَرَةِ** »  
 وقال الزجاج : هى كلمة تنال للعذاب والمهلكة . « **مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** » أى فى جهنم .  
 ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ أى يفتنونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . فـ « **الَّذِينَ** »  
 فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمرة ، أى هم الذين .  
 وقيل : « **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ** » مبتدأ وخبره . « **أُولَٰئِكَ** » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، واستحب

البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصَدَّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره — فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُمَّةَ الْمُضَلَّوْنَ" وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان. وقيل: «يَسْتَحِبُّونَ» أى يلتصقون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتصق إلا بطاعته دون معصيته. (وَيَقُونَهَا عَوَجًا) أى يطلبون لها زينةً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكر وتؤنث. والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائماً؛ وبفتح العين في كل ما كان قائماً، كالحائط والرُّح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران» وغيرها. (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أى ذهب عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ) أى قبلك يا محمد (إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) أى بلغتهم، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أمر دينهم؛ ووحّد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الترجمة؛ وقد قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» (١). وقال صلى الله عليه وسلم: "أُرْسِلَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهِ وَأُرْسِلَنِي اللَّهُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِهِ". وقال صلى الله عليه وسلم: "والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ". خرجه مسلم، وقد تقدّم. (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ردّ على القدرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

«لِيُبَيِّنَ» لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال . ويموز النصب في «يضل» لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا» (۱) وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْسَمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أى بحجتنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات (۲) . ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : «لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» . وقيل : «أَنْ» هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : «وَأَنْطَلِقُ أَلَمَّا مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا» (۳) أى أَمْشُوا .

قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى قل لهم قولاً يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبى بن كعب ورواه مرفوعاً ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم ، وقد تسمى النعم الأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم (۴) :

\* وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ \*

(۱) راجع ج ۱۳ ص ۲۵۲ . (۲) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاص و يده والسنين ونقص من الثرات . (۳) راجع ج ۱۵ ص ۱۵۱ . (۴) البيت من معلقته وتماهه :

\* حصينا الملك فيها أن ندينا \*

وقد يكون تسميتها غرا لعلوم على الملك وامتناعهم منه ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل في البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) في البيت قبله ، ويموز أن تجعل الواو بدلا من رب .

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل : يوقائع الله في الأمم السالفة ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى يوقائعها . قال ابن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم ؛ أى بما كان في أيام الله من النعمة<sup>(١)</sup> والمحنة ؛ وقد كانوا عبيداً مستذلين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” بنينا موسى عليه السلام في قومه يذكركم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعمائه “ وذكر حديث الخضر ؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرفق للقلوب ، المقوى لليقين ، الخالى من كل بدعة ، والمتره عن كل ضلالة وشبهة . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) أى في التذكير بأيام الله ( لآيَاتٍ ) أى دلالات . ( لِكُلِّ صَبَّارٍ ) أى كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . ( شَكُورٍ ) لنعم الله . وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أعطى شكر ، وإذا أبشئ صبر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” الإيمان نصفان نصفان صبر ونصف شكر — ثم تلا هذه الآية — « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . ونحوه عن الشعبي موقوفاً . وتواري الحسن البصري عن الججاج سبع سنين ، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمته فأمت سنته ، وسجد شكراً ، وقراً : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور ؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها ؛ كما قال : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا » وإن كان منذراً للجميع .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٥ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٦

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْخِلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾<sup>(۱)</sup> تقدم في « البقرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أي وأذكر يا مجد إذ قال ربك كذا . و « تَأَذَّنَ » وأذن بمعنى أعلم ؛ مثل أوعد وتوعَّد ؛ روي معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فَلَمْ تَشْعُرْ بِضَوْءِ الصَّبْحِ حَتَّى \* سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَ

وكان ابن مسعود يقرأ : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم إنا معي لأزيدنكم من فضلي . الحسن : لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي . ابن عباس : لئن وَحَّدْتُمْ وأطعتم لأزيدنكم من الثواب ، والمعنى متقارب في هذه الأقوال ؛ والآية نص في أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم في « البقرة » ما للعالماء في معنى الشكر . وسئل بعض الصالحاء عن الشكر لله فقال : أَلَا تَتَّقُوْهُ بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أي رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجددة منك علي . قال : يا داود الآن شكرتني . قلت : لحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للنعم ، وألا يصرفها في غير طاعته ؛ وأنشد الهادي وهو يأكل :

أَنَّا لَكَ رِزْقَهُ لَتَقُومَ فِيهِ \* بِطَاعَتِهِ وَتَشْكُرَ بَعْضُ حَقِّهِ

فلم تشكر لِنِعْمَتِهِ وَلَكِنْ \* قَوَّيْتُ عَلَى مَعَاصِيهِ بَرَزَقَهُ

فغصُّ باللقمة ، وخنقته العبوة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أي حمّدتكم حق . وقيل : تعيى ؛ وعد بالعذاب على الكفر ، كما وعد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التي في جواب الشرط من « إن » للشبهة .

(۱) راجع ج ۱ ص ۳۳۱ فابعد .

(۲) راجع ج ۲ ص ۱۷۱ فابعد .



قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا  
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٨٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ  
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُم رُّسُلُهُم  
بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ  
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ)  
أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . « الحميد » أى الم محمود .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ) النبا الخبر، والجمع  
الأنباء ؛ قال :

• أَلَمْ يَأْتِكِ وَالْأَنْبَاءُ تَنْبِي •

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وأذكر يا محمد إذ قال ربك كذا .  
وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله  
في كتابه . وقوله : (وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) أى لا يحصى عددهم إلا الله ،  
ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنسبون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأسم ،  
وإنما ينسبون البعض ، ويسكون عن نسب البعض ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه  
وسلم لما سمع النساين ينسبون إلى معد بن عدنان ثم زادوا فقال : « كذب النسابون  
إن الله يقول : « لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » . » . وقد روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا  
أحدًا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل . وقال ابن عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون

(١) القائل هو : فيس بن زهير ، تمام البيت : • بما لاقت لبون بن زياد • . وبعده :

وعبسا على القرشي ثنرى • بأدراع وأسياف حديد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذ لقيس درعا فاستاق فيس لبل الربيع لمكة وباعها لبلد الله بن جدعان -  
وهو مراده بالقرشي - بدروع وسبوف .

أبلا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ : « لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » : كذب النسايون .  
 (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى بالهجج والدلالات . (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) أى جعل  
 أولئك القوم أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاء به الرسل ؛ إذ كان فيه تسفيه  
 أحلامهم ، وشتم أصنامهم ؛ قاله ابن مسعود ، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد ، وقرأ : « عَضُوا  
 عَلَيْهِمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم  
 إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم  
 إلى أفواههم : أَنِ اسْكُتْ ، تكذيباً له ، ورداً لقوله ؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى .  
 والضميران للكفار ؛ والقول الأول أحسنها إسناداً ؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي  
 عن سفيان عن أبي إسحق عن أبي الأحوص [ عن ] عبد الله في قوله تعالى « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ  
 فِي أَفْوَاهِهِمْ » قال : عَضُوا عليها غيظاً ؛ وقال الشاعر :

لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصَرَتْ تَحْدِي \* وَدِقَّةَ عَظِيمِ سَاقٍ وَيَدِي  
 وَبُعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عَوْدِي \* عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

وقد مضى هذا المعنى في « آل عمران » مجوداً ، والحمد لله . وقال مجاهد وقائدة : ردوا على الرسل  
 قلوبهم وكذبوهم بأفواههم ؛ فالضمير الأول للرسل ، والثاني للحسن وغيره :  
 جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم ؛ فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثاني للرسل .  
 وقيل معناه : أؤمأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها  
 على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدي القوم في أفواههم .  
 وقيل : إن الأيدي هنا النعم ؛ أى ردوا نعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب ؛ ومجىء  
 الرسل بالشرائع نعم ؛ والمعنى : كذبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و« في » بمعنى الباء ؛  
 يقال : جلست في البيت والبيت ؛ وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال  
 أبو عبيدة : هو ضرب مثل ؛ أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا ؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

(١) من ي ، وهي رواية ابن عباس . وفي أحود : عضا . (٢) راجع ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) من ي . (٤) التحدد : أن يضطرب النعم من الخزال .

الجواب وسكت : قد ردّ يده في فيه وقاله الأخفش أيضا . وقال القتيبي : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى : عضوا على الأيدي حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

تَرْدُونَ فِي فِيهِ غِشَّ الْحَسُو • دِحْتِي بَعْضَ عَلَى الْأَكْفَا

يعنى أنهم يفيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفبه . وقال آخر :

قَدْ أَفْنَى أَنَامِلُهُ أَرْمَةً • فَاصْحَى بَعْضُ عَلَى الْوُطَيْفَا

وقالو : — يعنى الأئم للرسول — ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالإرسال على زعمكم ، لا أنهم أفنوا أنهم أرسلوا . ﴿ وَإِنَّا لَنَبَىٰ شَكَّ ﴾ أى فى ريب ومريبة . ﴿ بِمَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد . ﴿ مُرِيبٌ ﴾ أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكّا ؛ أى نظن أنكم تطالبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُبَغِّفَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ استفهام معناه الإنكار ؛ أى لا شك فى الله ، أى فى توحيدِهِ ، قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أى قدرة الله شك ؟ لأنهم متفقون عليه ومختلفون فيما عداها ؛ يدل عليه قوله : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدتها بعد العدم ، لينبئ على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أى إلى طاعته بالرسول والكتب . ﴿ لِيُبَغِّفَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيد : « مِنْ » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبغيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمه : عضا ؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفعول الساق .

وقيل : « من » للبدل وليست بزايدة ولا مبعوضة ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب .  
 ﴿ وَبُخِّرْهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ ﴾ أى ما  
 أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ،  
 ولستم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان  
 ﴿ فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالاً منهم ؛ فإن الرسل ماديوا  
 إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ  
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ  
 عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ  
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم .  
 ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى يتفضل عليه بالنبوة . وقيل ، بالتوفيق والحكمة  
 والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد خرج الطبري من حديث ابن عمر قال قلت لأبي ذر : يا عمر  
 أوصنى ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : « ما من يوم ولا ليلة  
 ولا ساعة إلا والله فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل  
 أن يلهمهم ذكركه » . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أى بحجة وآية . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾  
 أى بمشيئته ، وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطالبون إلا بأمره  
 وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه النفى ، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه .  
 ﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و « لَنَا » الخبر ، وما بعدها في موضع الحال ؛ التقدير : أى شئ لنا في ترك التوكل على الله . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم ، مجازة : والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا أَذِيتُمُونَا ﴾ به ، أى من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفينا ويثينا . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَاجِرَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُنَسِّكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم ؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُوْدُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ، قاله الطبري وغيره . قال ابن العربي : وهو غير مفقّر إلى هذا التقدير ؛ فإن « أو » على بابها من التخيير ؛ خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم ؛ وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده ؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سَنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا ﴾ وقد تقدم هذا المعنى في « الأعراف » وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَاجِرَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُنَسِّكَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدي يوم القيامة ؛ فاضيف المصدر إلى الفاعل . والمقام مصدر كالقيام ؛ يقال : قام قياماً ومقاماً ؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي » أى قبابي عليه ، ومراد قبيتي له ؛ قال الله تعالى : « أَقْنِمْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي » أى عذابي ، « وَخَافَ وَعِيدِ » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٠١ فابعد . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٠ . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .



قوله تعالى : **وَأَسْتَغْفِرُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾** مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُنْسِقُ مِّنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَخْرُجُ عَنْهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَاطِظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **(وَأَسْتَغْفِرُواْ)** أى وأستنصروا؛ أى أذن للرسول فى الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى فى « البقرة » . ومنه الحديث : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر . وقال ابن زيد : استفتحت الأئمة بالدعاء كما قالت قريش : « **الْأَهْمُ** إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : « **لأنهم** كذبونى فافتح بينى وبينهم فتحا » وقالت الأئمة : إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا ، عن ابن عباس أيضا ؛ نظيره « **أَتَيْنَا بِعَذَابٍ اللَّهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** » « **أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** » . **(وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)** الجبار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانِب له ، عن ابن عباس وغيره ؛ يقال : عنَد عن قومهِ أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العند ، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُعْرِضًا ؛ قال الشاعر :

إِذَا نَزَلْتُ فَاجْعَلُونِى وَسَطًا \* لِّئَلَّا يَكْبُرَ لِّى أَطِيقُ الْعُنْدَا

وقال الهـرـوى قوله تعالى : « **جَبَّارٍ عَنِيدٍ** » أى جائر عن القصد ؛ وهو العنود والعنيد والمعاند ؛ وفى حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقُ عَائِدٍ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَدَ وَبَقِيَ كالإنسان يعاند ؛ فهذا العرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلة . وقال شمر : العائد الذى لا يرقا . وقال عمر بن عبد العزيز : **أَضْمُ الْعُنُودِ** ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخاطبها إنما هو فى ناحية أبدا ؛ أراد أن هم بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كيسان : هو الشاخب بأنفه . وقيل : العنود والعنيد الذى

(١) راجع ج ٢ ص ٢٦ فابعد . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٣٤١ .

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٤٠ .

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذي يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصي . وقال قتادة : العنيد الذي أبي أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به في الآية أبو جهل ؛ ذكره المهدوي . وحكى الماوردي في كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وَاسْتَفْجُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » فزق المصحف وأثنا يقول :

أُنُوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ \* فيها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنِيدٌ

إذا ما جِئْتُ رَبَّكَ يَوْمَ حَشِيرٍ \* قُلْتُ يَا رَبُّ مَنْ قَتَلَ الْوَلِيدُ

فلم يلبث [إلا] أياما حتى قُتل شر قتلة ، وصُلب رأسه على قصره ، ثم على سور بلده .

قوله تعالى : « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ » أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه .

وراء بمعنى بعد ؛ قال النابغة :

حَافَتُ فَمِ أَتْرَكَ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً \* وليس وراء الله للمرء مذهب<sup>(٢)</sup>

أى بعد الله جل جلاله ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ،

وقوله تعالى : « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ »<sup>(٣)</sup> أى بما سواه ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد :

بِمَا بَعْدَهُ . وقيل : « مِنْ وَرَائِهِ » أى من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمَ أَنْتَ بِالْفُتَى \* لاحاضرٌ مُعِجَزٌ عَنْهُ وَلَا بَادِي

وقال آخر :

أَتَرْجُوْ بَنُو مَرْوَانَ سَمِيحِي وَطَاعَتِي \* وقوى تميم والفلاة ورائيا

وقال لبيد :

أليس ورائي إن [تَرَاحَتْ] مَنِيَّتِي<sup>(٤)</sup> \* لزومُ العصا تُحَيِّ عليها الأصابع

(١) من ر . (٢) ويرى : مهرب . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٩ . (٤) كذا في ديوانه واللسان ، وفي الأصل : « إن بلغت مَنِيَّتِي » .

یرید أُمَامَى . وفى التزیل : « كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ » أی أُمَامَهُمْ ؛ وإلی هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ فَطْرُبٌ وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من وراءك ، أی سوف یأتیک ، وأنا من وراء فلان أی فی طلبه وسأصل إلیه . وقال النحاس : فی قوله « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ » أی من أُمَامَه ، وليس من الأضداد ولكنه من توارى ؛ أی استتر . وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خاف وأمام فهو من الأضداد ، وقوله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، بفهم تَوَارَى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا تری ، حکاه ابن الأنباری وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أی من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أی مثل الأسد ، وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القرظی والربیع بن أنس : هو غسالة أهل النار وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني . وقيل : هو من ماء كرهته تصد عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدد . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أُمَامَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم فی قوله : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : « يُتَرَبَّأى إلی فِيهِ فیکرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت قُرُوءُ رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله : « وَسَقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ » (۲) ويقول الله : « وَلَئِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ نَسِ الشَّرَابِ » (۳) أخرجه الترمذی ، وقال : حديث غريب ، وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أُمَامَةَ لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بسر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أی يَحْتَسَاهُ جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبَسِّغُهُ ﴾ أی يتلمه ، يقال : جرع الماء وأجترعه وتجعره بمعنى . وساغ الشَّرَابُ فی الخلق يسوغ سوغا إذا كان سلیسا سهلا ، وأساغه الله إساغة . و « يَكَادُ » صلة ؛ أی یسِغه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » (۴) أی فعلوا بعد إبطاء ، ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ » (۵) فهذا يدل على الإساغة . وقال ابن عباس : یحیزه ولا یمربه . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ ﴾ (۶)

(۱) راجع ج ۱۱ ص ۳۴ . (۲) راجع ج ۱۶ ص ۲۳۷ . (۳) راجع ج ۱۰ ص ۳۹ .

(۴) راجع ج ۱ ص ۴۵۵ . (۵) راجع ج ۱۲ ص ۲۷ . (۶) كذا فی الأصل ؛ ولعله « لا یحیزه ولا یمربه » .

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿١﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَيْ يَأْتِيهِ أَسْبَابُ الْمَوْتِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَتَحْتِهِ وَمِنْ قُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ ، كَقَوْلِهِ : « لَمْ يَمُتْ مِنْ قُوْفِهِمْ طُلُفٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طُلُفٌ <sup>(۱)</sup> » . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ : يَأْتِيهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ ؛ لِأَنَّ الْأَمَّ الْتِي فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ جَسَدِهِ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : إِنَّهُ لَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَمَكَانٍ حَتَّى مِنْ إِبْهَامِ رَجُلَيْهِ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ : يَعْنِي الْبِلَالِيَا الَّتِي تُصِيبُ الْكَافِرَ فِي النَّارِ سَمَاهَا مَوْتًا ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَوْتِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ لَا يَبْقَى عَضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ إِلَّا وَكَلَّ بِهِ نَوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ ؛ لِمَوَاتِ سَبْعِينَ مَرَّةً لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا فِي فَرْدٍ لِحَظَةٍ ؛ إِمَّا حَيَّةً تَنْهَشُهُ ، أَوْ عَقْرَبَ تَلْسِبُهُ ، أَوْ نَارًا تَسْفَعُهُ ، أَوْ قَيْسِدَ يَرْجُلِيهِ ، أَوْ غُلًّا فِي عُنُقِهِ ، أَوْ سَاسِلَةً يَقْرَنُ بِهَا ، أَوْ تَابُوتَ يَكُونُ فِيهِ ، أَوْ زَقُومَ أَوْحَمِي ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : إِذَا دَعَا الْكَافِرُ فِي جَهَنَّمَ بِالشَّرَابِ فَرَأَاهُ مَوْتًا ، فَإِذَا دَنَا مِنْهُ مَاتَ مَوْتًا ، فَإِذَا شَرِبَ مِنْهُ مَاتَ مَوْتًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قَالَ الضَّحَّاكُ : لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : تَعَلَّقَ رُوحُهُ فِي حَنْجَرَتِهِ فَلَا تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ فَيَمُوتُ ، وَلَا تَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهَا مِنْ جَوْفِهِ فَتَنْفَعَهُ الْحَيَاةُ ؛ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وَقِيلَ : يَخْلُقُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ آلَامًا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَأَلَمِ الْمَوْتِ . وَقِيلَ : « وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » لِنُطْأُولِ شِدَائِدَ الْمَوْتِ بِهِ ، وَامْتِدَادَ سَكَرَاتِهِ عَلَيْهِ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي عَذَابِهِ .

قُلْتُ : وَيُظْهَرُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَمُوتُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « لَا يُقْضَى طَلِيمٌ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابٍ <sup>(۲)</sup> » وَبِذَلِكَ وَرَدَتْ السَّنَةُ ؛ فَاحْوَالُ الْكَافِرِ أَحْوَالُ مَنْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ دَائِمًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . (وَمِنْ وَرَائِهِ) أَيْ مِنْ أَمَامِهِ . (عَذَابٌ غَلِيظٌ) أَيْ شَدِيدٌ مُتَوَاصِلٌ الْآلَامِ مِنْ غَيْرِ فِتْنَةٍ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ : « وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أَيْ شِدَّةَ قُوَّةٍ . وَقَالَ قُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قَالَ : حَبَسَ الْأَنْفَاسَ .

(۱) راجع ج ۱۵ ص ۲۴۲ . (۲) تَلْسِبُهُ : تَلَدُّهُ ، وَتَنْفَعُهُ تَسْوِدُ وَجْهَهُ . (۳) راجع ج ۱۱ ص ۲۲۵ . (۴) راجع ج ۱۴ ص ۱۰۰ . (۵) راجع ج ۸ ص ۲۹۸ فابعد .

قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ  
الرَّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّالُّ  
الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَسْأَلُ  
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلاف النحويون في رفع «مَثَلُ»  
فقال سيبويه : أرتفع بالابتداء والخبر مضمر، التقدير : وفيما يتلى عليكم أو يقص «مَثَلُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أي كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرَّيْحُ﴾ . وقال  
الزجاج : أي مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفراء على إلغاء المثل،  
التقدير : والذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف ، التقدير :  
مثل أعمال الذين كفروا بربههم كرماد ؛ وذكر الأول عنه المهدوي، والثاني الفسيري والغفاري  
ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر ؛ فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة . ويجوز في الكلام  
جر «أعمالهم» على بدل الاشتغال من «الَّذِينَ» واتصل هذا بقوله : «وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ»  
والمعنى : أعمالهم مُحَبَّطَةٌ غير مقبولة . والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء ؛ فضرَب الله هذه الآية  
مثلا لأعمال الكفار في أنه يحرقها كما تحرق الرِّيحُ الشديدة الرماد في يوم عاصف . والعصفُ  
شدة الرِّيح ؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالمُصَوِّف  
ثلاثة أفاويل : أحدها — أن المُصَوِّف وإن كان للرِّيح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الرِّيح  
تكون فيه ، بغاز أن يقال : يوم عاصف ، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد ، والبرد والحز فيهما .  
والثاني — أن يريد «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» الرِّيح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة ، كما قال الشاعر :

\* إِذَا جَاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفٌ \*

يريد كاسف الشمس خف ؛ لأنه قد مرّ ذكره ؛ ذكرهما الهروي . والثالث — أنه من  
نعت الرِّيح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : بُحْرُ صَبَّ نَحِيْبٌ ؛ ذكره



الشماعی - والماسور دی . وقرأ ابن [ابی] اسحق وإبراهيم بن ابی بکر « فی يوم عاصف » .  
 ﴿لَا يَفْقِدُونَ﴾ یعنی الکفار . ﴿يَمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد فی الآخرة ؛ أى من ثواب  
 ما عملوا من البرّ في الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى الحسرة  
 الكبير ، وإنما جعله كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا رؤية  
 القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه ؟ . وقرأ حمزة والكسائي « خَالِقِ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بِالْحَقِّ » ليستدل بها على قدرته . ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ؛  
 أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصوه لأنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ  
 وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال .  
 ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا  
 إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا  
 لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ  
 مَحْجِسٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ  
 الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ  
 دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ  
 وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ  
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(۱) من اذود ودرى والبحر . (۲) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أنام  
 الصفة مقام الموصوف ؛ أى في يوم دج عاصف . وقراءة تافع وابن جعفر : الرياح . على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرُّوْا لِلّٰهِ جَمِيعًا ﴾ أى برّوا من قبورهم ، يعنى يوم القيامة . والبرُّوز الظهور . والبرّاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه امرأة برّزة أى تظهر للناس ؛ فعنى ، « بَرُّوْا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال ، واتصل هذا بقوله : « وَحَآبَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ » أى وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرّزوا لله جميعا لا يسترحم عنه سائر . « لِلّٰهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ الصُّعْقَاءُ ﴾ يعنى الأتباع ﴿ لِلَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوْا ﴾ وهم القادة . ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تبع مصدر أو التقدير : ذوى تبع . ويجوز أن يكون جمع تابع ، مثل حارس وحرس ، وخادم وخدم ، وراصد ورصد ، وباقر وبقر . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ ﴾ أى دافعون ﴿ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و« من » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللّٰهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هَدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هَدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أَجْرَعْنَا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الأسم ؛ يقال : حَاصٌ فلان عن كذا أى فزواغ يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا ؛ والمعنى : مالنا وجه نتعابه عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول أهل النار إذا أشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ » . وقال محمد بن كعب القرطبي : « ذُكِرْنَا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلم فلنصبر ؛ فلعن القسبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا »

(١) قال في المصباح : امرأة برّزة عفيفة تبرز للرجال وتحدث معهم وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات . اه . وامرأة برّزة بارزة المحاسن . قال الراغب : لأن رفعتها باللفة لا إن اللفة انتضت ذلك .  
(٢) بقر : شق ووسع

مَا لَنَا مِنْ مَّجْنُونٍ « أَيْ مَجْنُونٍ ، فَقَامَ إِبْلِيسُ عِنْدَ ذَلِكَ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ » يَقُولُ : لَسْتُ بِمَغْنٍ عَنْكُمْ شَيْئاً « وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ وَبِي مِنْ قَبْلُ » الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ ، وَقَدْ كَتَبْنَاهُ فِي كِتَابِ « التَّذَكُّرَةِ » بِكَالِهِ .

قوله تعالى : ( وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ) قَالَ الْحَسَنُ : يَقِفُ إِبْلِيسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَطِيباً فِي جَهَنَّمَ عَلَى مَنبَرٍ مِنْ نَارٍ يَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ جَمِيعاً . وَمَعْنَى : « لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ » أَيْ حُصِّلَ أَهْلُ الْخَنَةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ ، عَلَى مَا بَيَّنَّا فِي بَيَانِهِ فِي « مَرِيَمَ » عَلَيْهَا السَّلَامُ . ( إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ) يَعْنِي الْبَعْثَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَثَوَابَ الطَّاعِينَ وَعِقَابَ الْعَاصِينَ فَصَدَقَكُمْ وَعَدَهُ ، وَوَعَدْتُكُمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ وَلَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ فَأَخْلَفْتُكُمْ . وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ قَالَ : « يَقُولُ عِيسَى أَدْلَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فَيَأْتُونِي فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ فَيُثَوِّرُ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَمَ أَحَدٌ حَتَّى آتَى رَبِّي فَيَشْفَعُنِي وَيَجْعَلُ لِي نُورًا مِنْ شِعْرِ رَأْسِي إِلَى ظَهْرِ قَدَمِي ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا فَيَقُولُونَ مَا هُوَ غَيْرُ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَاشْفَعْ لَنَا فَإِنَّكَ أَضَلَلْتَنَا فَيُثَوِّرُ مَجْلِسَهُ مِنْ أَتْنِ رِيحٍ شَمَمَ أَحَدٌ ثُمَّ يَعْظُمُ تَحِيْبُهُمْ وَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ » الْآيَةُ . « وَعَدَ الْحَقِّ » هُوَ إِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَى نِعْمَتِهِ كَقَوْلِهِمْ : مَسْجِدَ الْجَامِعِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ قَالَ الْبَصْرِيُّونَ : وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْيَوْمِ الْحَقِّ أَوْ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْوَعْدِ الْحَقِّ فَصَدَقَكُمْ ، فَخَذَفَ الْمَصْدَرُ لِلدَّلَالَةِ الْحَالِ . ( وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ) أَيْ مِنْ حُجَّةٍ وَبَيَانٍ ؛ أَيْ مَا أَظْهَرَتْ لَكُمْ حُجَّةً عَلَى مَا وَعَدْتُكُمْ وَزَيَّنَتْ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا ، ( إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ) أَيْ أَغْوَيْتُمْ فَتَابَعْتُمُونِي . وَقِيلَ : لَمْ أَفْهَرِكُمْ عَلَى مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ . « إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ » هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيْ لَكِنْ دَعَوْتُكُمْ بِالْوَسْوَاسِ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي بِاخْتِيَارِكُمْ ، « فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » . وَقِيلَ : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » أَيْ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَمَوْضِعِ إِيْمَانِكُمْ لَكِنْ

دعواكم فاستجبتم لي، وهذا على أنه خَطَب العاصي المؤمن والكافر الجاحد، وفيه نظره لقوله : « لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ » فإنه يدل على أنه خَطَب الكفار دون العاصين الموحدين، والله أعلم . ( فَلَا تُلْمُوْنِي وَلَوْ مَوَا أَنفُسَكُمْ ) إذا جئتوني من غير حجة . ( مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ) أي بمفنيكم . ( وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ) أي بمفني . والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعونة ، والمُصْرِخ هو المفني . قال سلامة بن جندل :

كَمَا إِذَا مَا أَنَا صَارِخٌ فَذَرِعْ \* كَانَ الصَّارِخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَابِ (١)  
وقال أمية بن أبي الصلت :

وَلَا تَجْرَعُوا إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ مُصْرِخٍ \* وَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي غَاءٌ وَلَا نَصْرٌ

يقال : صَرَخ فلان أي امتثلت يَصْرُخ صَرَخًا وصرَخًا وصرخة . وأصطرخ بمعنى صَرَخ . والتصرخ تكلف الصراخ . والمُصْرِخ المُفْنِي ، والمستصرخ المستغيث ؛ تقول منه : استصرخني فأصرخته . والصَّيْرُخ صوت المستصرخ . والصَّيْرُخ أيضا الصارخ ، وهو المُفْنِي والمستغيث ، وهو من الأضداد ؛ قاله الجوهري . وقراءة العامة « يُصْرِخِي » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمة « يُصْرِخِي » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخين فذهبت النون للإضافة ، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة ، فمن نصب فلاجل التضعيف ، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل : هَوَاً وَعَصَاً ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان ، مثل : غَلَامِي وَغَلَامَتِي ، ومن كسر للقاء الساكنين حركت إلى الكسر ، لأن الياء أخت الكسرة . وقال الفراء : قراءة حمزة وهم منه ، وَقَلَّ مَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ عَنْ خَطَا . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُبُ : هذه لغة بني يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . العُشَيْرِي : والذي يعني عن هذا أن ما ثبت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو رديء ، بل هو في القرآن فصيح ، وفيه ما هو أفصح منه ، فلمل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح . ( إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي )

(١) الظنابيب (جمع) ظنوب ؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنوب أن يقرع الرجل ظنوب البعير لينتوخ له فركبه ، والمراد هنا سرعة الإجابة .  
(٢) أي من الفراء .

مِنْ قَبْلُ ۖ أَى كَفَرْتَ بِمَا كُنتَ تَدْعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى . فَتَادَةُ :  
 إِنِّي عَصَيْتُ اللَّهَ . النُّورِ : كَفَرْتَ بِطَاعَتِكَ إِنِّي فِي الدُّنْيَا . (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .  
 وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْإِمَامِيَّةِ وَمَنْ كَانَ عَلَى طَرَفِهِمْ ؛ أَنْظِرْ إِلَى قَوْلِ  
 الْمُنَبِّوعِينَ : «لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ» وَقَوْلِ إِبْلِيسَ : «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» كَيْفَ  
 اعْتَرَفُوا بِالْحَقِّ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ ؛ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : «كَلِمَاتُ اللَّهِ  
 فِيهَا قُوَّةٌ سَالَتْهُمْ خَزَنَاتُهَا» إِلَى قَوْلِهِ : «فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ» وَاعْتَرَفَهُمْ فِي دَرَكَاتِ لُغَى بِالْحَقِّ  
 لَيْسَ بِنَافِعٍ ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الْإِعْتِرَافُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : «وَأَخْرُوجُهُمْ  
 يُدْنُوهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرِينَ عَمَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» وَ«عَسَى» مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةٌ .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ) أَى فِي جَنَاتٍ لِأَن دَخَلَتْ  
 لَا يَتَعَدَى ، كَمَا لَا يَتَعَدَى نَقِيضُهُ وَهُوَ خَرَجَتْ ، وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ ؛ قَالَ الْمُهَدَوِيُّ . وَلَمَّا أَخْبَرَ  
 تَعَالَى بِحَالِ أَهْلِ النَّارِ أَخْبَرَ بِحَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَيْضًا . وَقِرَاءَةُ الْجَمَاعَةِ «أَدْخِلَ» عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ  
 مَبْنًى لِلْفِعْلِ . وَقَرَأَ الْحَسَنُ «وَأَدْخِلَ» عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ وَالْإِسْتِنَافِ . (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) أَى  
 بِأَمْرِهِ . وَقِيلَ : بِمَشِيئَتِهِ وَتَيْسِيرِهِ . وَقَالَ : «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» وَلَمْ يَقُلْ : بِإِذْنِ تَعْظِيمٍ وَتَفْخِيمٍ .  
 (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) تَقْدِيمٌ فِي «يُونُسَ» . وَالْجَدُّهُ .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ  
 طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ  
 بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢١٢ .  
 (٤) أَى مَادَتْ عَلَيْهِ عَقْدُ الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ .

(١) كَذَا فِي ع ، وَفِي أَوْجُوهٍ : ابْنُ بَجَرٍ .

(٣) راجع ج ٨ ص ٢٤١ ر ٣١٣ .



فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف ، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسر ذلك المثل فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ التمر ، لحذف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جريح : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العوفي والزيغ بن أنس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعكرمة : الشجرة النخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبهه بالنخلة في الخُذْبِ ، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالتمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إن مثل الإيمان كمثل شجرة نابتة الإيمان عروفتها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والتأذى في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرتها “ ، ويجوز أن يكون المعنى : أصل النخلة ثابت في الأرض ؛ أي عروفتها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية . وخرج الترمذی من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع فيه رطب ، فقال : ” مِثْلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفُرُوعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا “ — قال — هي النخلة ومِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجَنْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَدَارٍ — قال — هي الحنظل “ . وروى عن أنس قوله [ وقال ] : وهو أصح . وخرج الأثر فُطْنِي عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أندرون ما هي “ فوقع في نفسى أنها النخلة . قال السهيلي ولا يصح فيها ما روى عن علي بن أبي طالب أنها جورة الهند ؛ لما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر ” إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي — ثم قال — هي النخلة “ خرجه أهل الصحيح وزاد من رواية ابن القاسم وغيره ألا يحیی فإنه أسقطه من روايته . وخرجه أهل الصحيح وزاد (١) القناع : الطبق من عشب النحل يوضع فيه الطعام والفاكهة . (٢) أي قال الترمذی : والحديث المرفوع أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلته<sup>(۱)</sup> عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهى النخلة لا تسقط لها أئمة وكذا المؤمن لا تسقط له دعوة". فبين معنى الحديث والمثالة.

قلت: وذكر الغزنوي عنه عليه السلام "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالنَّخْلَةِ إِنْ صَاحِبَتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ جَالَسَتْهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ كَالنَّخْلَةِ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَنْتَفِعُ بِهِ". وقال: "كُلُّوا مِنْ عَمَّتِكُمْ" بمعنى النخلة خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا، ونمورها بامتزاج الذكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُهِبَتْ بِهِ، وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الفصوص من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يست وذهبت أصلاً؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتفاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُ الْمَالِ سَيْكَةٌ مَأْبُورَةٌ وَمُهَرَّةٌ مَأْمُورَةٌ". والإبَار اللَّقَاح وسيأتي في سورة «الحجر» بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدم. ويقال: إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فَضَّلَتْ أَطْمَعة طين فصورها بيده وغرسها في جنة عدن. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَكْرَمُوا عَمَّتَكُمْ" قالوا: ومن عمتنا بإرسول الله؟ قال: "النخلة". (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ) قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ» غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ» قال: هو شجرة [جوزة] الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبهه عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلها في أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها. وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي بيتاً بالآبعة: تَنَازَرُهَا الرُّاقُونَ مِنْ سُوءِ سَمِهَا \* تُنْطَلِقُهُ حِينًا وَحِينًا تَرُاجِعُ<sup>(۵)</sup>

(۱) أى يجب أن يرحل إليها لروايتها. (۲) السكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمهارة المأمورة الكثيرة النسل والتاج؛ أراد خير المال نتاج أو زرع. (۳) راجع ج ۱ ص ۱۵. (۴) من ي. (۵) البيت في وصف حية؛ و «تأذرها الرافون» أى أئذر بعضهم بعضاً ألا يتعرضوا لها. ومعنى: «تطلقه حينا وحينا تراجع» أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشد عليه. ويرى: «من سوء سمها» أى أنها لا تحبب الراقى لا أنها صماء؛ لقولهم: أسمع من حية.

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت ، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن ، وعمله وقوله وتسبيحه عالي مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة ، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها ، من الرطب والبُسْر والبلح والزَّهْو والتمر والطلع .<sup>(١)</sup>  
وفي رواية عن ابن عباس : إن الشجرة شجرة في الجنة تمر في كل وقت . و «مَثَلًا» مفعول به «ضَرَبَ» ، «وَكَلَمَةً» بدل منه ، والكاف في قوله : «كَشَجَرَةٍ» في موضع نصب على الحال من «كَلَمَةً» التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانية — قوله تعالى : «تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلَّ حِينٍ» لما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين ؛ ولهذا قلنا : من حلف ألا يكلم فلانا حيناً ، ولا يقول كذا حيناً إن الحين سنة . وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ»<sup>(٢)</sup> قيل في «التفسير» : أربعون عاماً . وحكى عكرمة أن رجلاً قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حرٌّ ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله ، فسألني عنها فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك ، قوله : «وَأِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»<sup>(٣)</sup> فأرى أن مُسَكِّم ما بين صِرام النخلة إلى حملها ، فكأنه أعجبه ؛ وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتبعا لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة» مستوفى والحمد لله . ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أي الأشباه ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> ويعتبرون ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ<sup>(٥)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل : الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما في حديث أنس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو : البسر الملوّن . (٢) راجع ج ١ ص ١١٩ . (٣) راجع ج ١ ص ١١٠ .

(٤) صرام النخلة : حين يقطع ثمرها . (٥) راجع ج ١ ص ٣٢١ فابعد .

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا : أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هي شجرة التمر؛  
عن ابن عباس أيضا . وقيل : النُّكَّةُ أو الطَّحْلَبَةُ . وقيل : الكُشُوثُ، وهي شجرة لا ورق  
لها ولا عروق في الأرض ؛ قال الشاعر :

• وَهُمْ كُشُوثٌ فَلَا أَصْلَ وَلَا وَرَقَ <sup>(۱)</sup> •

﴿ أَجْنُثُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ أفنعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لقيط <sup>(۲)</sup> :

هو الجلاء الذي يبحث أصلكم • فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمع

وقال المؤرج : أخذت جنتها وهي تمسها، والجنة شخص الإنسان قاعدا أو قائما . وجنة  
قلعه ، وأجنته أفتلعه من فوق الأرض ؛ أى ليس لها أصل راسخ يشرب به روقه من  
الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى من أصل في الأرض . وقيل : من ثبات ؛ فكذلك الكافر  
لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه ، وما يصمد له قول طيب ولا عمل صالح . وروى معاوية  
ابن صالح عن علي بن أبي طلحة في قوله تعالى : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً » قال : لا إله إلا الله  
« كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ » قال : المؤمن ؛ « أَصْلُهَا ثَابِتٌ » لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن ؛  
« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ » قال : الشرك ، « كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ » قال : المشرك ؛ « أَجْنُثُ مِنْ فَوْقِ  
الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المثل إلى الدعاء  
إلى الإيمان ، والدعاء إلى الشرك ؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء .

قوله تعالى : يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ <sup>(۳)</sup>

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هو  
لا إله إلا الله . وروى الدسائي عن البراء قال قال : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ

(۱) تمسها :

• ولا نسيم ولا ظل ولا نمر •

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب . رواية اللسان والناج : هو الكشوث . (۲) هو لقيط بن معمر الأبادي ،  
والبيت من قصيدة يث بها إلى قومه يجلدهم كسرى وجيشه ؛ فلم ياتفوا إلى قوله ، فظفروهم كسرى ومزموهم .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » نزلت في عذاب القبر ؛ يقال : مَنْ رَبِّكَ ؟ فيقول : رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي دِينُ مُحَمَّدٍ ، فذلك قوله : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء [ أنه ] <sup>(١)</sup> قوله ، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب السنائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم ، عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر البخاري ؛ حدثنا جعفر بن عمر ، قال حدثنا شعبة عن علقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أُنْفِذَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ آتٍ ثُمَّ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فذلك قوله « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » " . وقد بينا هذا الباب في كتاب « التذكرة » وبيننا هناك مَنْ يُفْتَنُ فِي قَبْرِهِ وَيُسْأَلُ ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمار : رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتاني في قبري مَلَكَانِ قَطَّانِ غُلِيطَانِ ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت : المثلَى يقال هذا وقد علمتُ الناس جوابك ثمانين سَنَةً ! فذهبوا وقالوا : أَكُتِبَتْ <sup>(٢)</sup> عَنْ حَرِيزِ بْنِ عَثْمَانَ ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يرفض <sup>(٣)</sup> [ علياً ] فأبغضه الله . وقيل : معنى ، « يُثَبِّتُ اللَّهُ » يَدِيمُهُمْ اللَّهُ عَلَى الْقَوْلِ الثَّابِتِ ، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحَةَ : يُثَبِّتُ اللَّهُ مَا تَأْكُلُ مِنْ حَسَنِ \* تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصْرًا

وقيل : يشتمهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القفال وجماعة : « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى في القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا ، « وَفِي الْآخِرَةِ » أى عند الحساب ؛ وحكاها الماوردي عن البراء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَامَلَةُ في القبر ، وبالأخرة المُسَامَلَةُ في القيامة ( وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ) أى عن حجتهم في قبورهم كما ضلوا في الدنيا

(١) أى قول البراء . (٢) فى : قال البراء . (٣) فى التهذيب غير هذا غير الجمع .

(٤) فى الأصول « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للؤلؤ . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان يرفض علياً .



بکفرهم فلا یلقنهم کلمۃ الحق ، فإذا سئلوا فی قبورهم قالوا : لاندري ، فيقول : لا دريت ولا تلتيت<sup>(۱)</sup> ، وعند ذلك یضرب بالمقاييع<sup>(۲)</sup> علی ما ثبت فی الأخبار ، وقد ذکرنا ذلك فی کتاب « التذکرۃ » . وقيل : یهلهم حتی یزدادوا ضلالا فی الدنیا . ﴿ وَیَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآیۃ ما روی عن النبی صلی الله علیه وسلم لما وصف مسأله منکر ونیکیر وما یکون من جواب المیت قال عمر : یا رسول الله ایکون معی عقلی ؟ قال : ” نعم “ قال : کفبت إذا ، فانزل الله عز وجل هذه الآیۃ .

قوله تعالى : اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِیْنَ بَدَلُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ کُفْرًا وَّاحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿۳۸﴾ جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهَا وَیُتْسَ الْاَقْرَارُ ﴿۳۹﴾ وَجَعَلُوا لِلّٰهِ اَنْدَادًا لِّیُضِلُّوْا عَنْ سَبِیْلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوْا فَاِنَّ مَصِیْرُكُمْ اِلَى النَّارِ ﴿۴۰﴾

قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِیْنَ بَدَلُوْا نِعْمَةَ اللّٰهِ کُفْرًا ۝ ﴾ ای جعلوا بدل نعمة الله عليهم الکفر فی نکذبتهم بحمد الله علیه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فکفروا ، والمراد مشرکوا قریش وأن الآیۃ نزلت فیهم ، عن ابن عباس وعلى وغيرهما . وقيل : نزلت فی المشرکین الذین قاتلوا النبی صلی الله علیه وسلم يوم بدر . قال أبو الطفیل : سمعت علیاً رضی الله عنه يقول : هم قریش الذین تحيروا يوم بدر . وقيل : نزلت فی الأبحرین من قریش بنی مخزوم وبنی أمیه ، فأما بنو أمیه فتمتعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فاهلکوا يوم بدر ، قاله علی بن أبی طالب وعمر ابن الخطاب رضی الله عنهما . وقول رابع : أنهم مُنصَّرة العرب جبلة بن الأیثم وأصحابه حين لطم فجعل له عمر القصاص بمنالها ، فلم یرض وأنف فأرادت مُنصرا ولحق بالروم فی جماعة من قومه ، عن ابن عباس وقتادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

(۱) قبل فی معنى « ولا تلئت » : ولا تلوت ؛ ای لا فرأت ؛ من تلا ینلو ، وقالوا تلئت بالیا . لیعاقب بها الیا .

فی دریت . (۲) المقاييع : سباط من حديد روسها معوجة .

تَنَصَّرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ \* وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا صَرَرٌ  
تَكْتَفِي مِنْهَا لِحَاجٌ وَنَحْوَةٌ \* وَبِعْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَرِ  
فِيالْبَتَى أَرَعَى الْحَاضَ بِلَدَةٍ \* وَلَمْ أَنْكَرِ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ  
وَقَالَ الْحَسَنُ : لِمَنْهَا عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ . (وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ) أَيِ أَنْزَلُوهُمْ . قَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمْ قَادَةُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ . «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» أَيِ الَّذِينَ أَنْزَلُوهُمْ . (دَارَ الْبَوَارِ)  
قِيلَ : جَهَنَّمَ ؛ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ . وَقِيلَ : يَوْمَ بَدْرٍ ؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمُجَاهِدٌ . وَالْبَوَارِ  
الْهَلَاكُ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ \* غَدَاةَ الْحَرْبِ إِذْ خِيفَ الْبَوَارِ

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) بَيْنَ أَنْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ كَمَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ، وَعَلَى هَذَا لَا يَجُوزُ الْوُقُوفُ  
عَلَى «دَارَ الْبَوَارِ» لِأَنَّ جَهَنَّمَ مَنْصُوبَةٌ عَلَى التَّرْجُمَةِ عَنْ «دَارَ الْبَوَارِ» فَلَوْ رَفَعَهَا رَافِعٌ بِإِضْمَارٍ ،  
عَلَى مَعْنَى : هِيَ جَهَنَّمَ ، أَوْ بِمَا عَادَ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «يَصْلَوْنَهَا» لِحَسَنِ الْوُقُوفِ عَلَى «دَارَ الْبَوَارِ» .  
(وَيَنْتَسِ الْقَرَارُ) أَيِ الْمُسْتَقَرِّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) أَيِ أَصْدَادًا عَبْدُهَا ؛  
وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الْبَقَرَةِ» . (لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) أَيِ عَنْ دِينِهِ . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو  
بِفَتْحِ الْبَاءِ ، وَكَذَلِكَ فِي الْجِ . (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وَمِثْلُهُ فِي «لَقَامٍ» وَ «الزَّمْرِ» وَضَمُّهَا  
الْبَاقُونَ عَلَى مَعْنَى لِيُضِلُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَأَمَّا مَنْ فَتَحَ فَعَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ هُمْ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
عَلَى الْإِضْطِرَالِ وَالضَّلَالِ ؛ فَهَذِهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ . (قُلْ تَمَتَّعُوا) وَعِيدٌ لَهُمْ ،  
وَهُوَ إِمَارَةٌ إِلَى تَقْلِيلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَاذِ الدُّنْيَا إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ . (فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ)  
أَيِ مُرَدِّكُمْ وَمَرَجْعِكُمْ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا  
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ (٢٦)

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٠ فابعدا .

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٦ ، ج ١٤ ص ١٥٦ ، ج ١٥ ص ٢٣٧ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر ، فقل لمن آمن وحقق عبوديته أن ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعنى الصلوات الخمس ، أى قل لهم أقيموا ، والأمر معه شرط مقدر ، تقول : أطع الله يدخلك الجنة ؛ أى إن أطعته يدخلك الجنة ؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : « يُقِيمُوا » مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقموا فأسقطت اللام لأن الأمر دل على الغائب بـ « نعل » . قال : ويحتمل أن يقال : « يُقِيمُوا » جواب أمر محذوف ؛ أى قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَبَيِّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعنى الزكاة ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السر ماخفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السر التطوع والعلانية الفرض ، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » مجودا عند قوله : « إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ تقدم فى « البقرة » أيضا . و « خِلَالٌ » جمع خلة كقوله وَقَالَ : قال :

• فَلَسْتُ بِمَقْلٍ إِلَّا لَلَّ وَلَا قَالِي •

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْخَرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا لَكُمْ وَخَوَّجَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِيَتَجَرَّيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ . وَخَوَّجَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿ ٢٢ ﴾ وَخَوَّجَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَخَوَّجَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿ ٢٣ ﴾ وَأَنَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقُلُومٌ كَفَّارٌ ﴿ ٢٤ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى أبدعها واختراعها على غير مثال سبق . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . ﴿ مَاءً فَأَنْخَرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرِ ﴾ أى من الشجر

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٢ فابعد وص ٢٦٦ فابعد .

(٢) قاله أمر القيس ، وصدر البيت :

• صرقت الهوى عن من خشية الردى •

ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تقدم معناه في «البقرة» .  
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ يعنى البحار العذبة لتسربوا منها وتسقوا وترعوا ، والبحار المسالحة  
 لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أى فى إصلاح  
 ما يصلحانه من النبات وغيره ، والدؤوب مرور الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل :  
 دائبين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجران إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن  
 ابن عباس . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ،  
 كما قال : «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا كُنْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أى أعطاكم من كل مسئؤل سألتموه شيئا ؛  
 مخذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وأناكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه  
 مخذف ؛ فلم نسأله شيئا ولا قرا ولا كثيرا من نعمه التى ابتدأنا بها . وهذا كما قال :  
 «سَرَّايِلَ تَقِيكُمْ الْحَسْرَ»<sup>(٢)</sup> على ما يأتى . وقيل : «من» زائدة ؛ أى أناكم كل ما سألتموه .  
 وقرا ابن عباس والضحاك وغيرهما «وَأَنَّا كُنْ مِنْ كُلِّ» بالثنتين «مَا سَأَلْتُمُوهُ» وقد رويت  
 هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس  
 والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ما سألتموه أى الذى ما سألتموه . ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾  
 أى نعم الله . ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر  
 وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ [نعم لا تحصى]<sup>(٣)</sup> وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون  
 نعمة الله بالكفر ؟ ! وهلا استعنتم بها على الطاعة ؟ ! ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ  
 جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي  
 وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦٠﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ  
 تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦١﴾

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٤ . (٢) راجع ج ١٣ ص ١٠٨ . (٣) راجع ج ١٠ ص ١٦٠ .

(٤) من أوجه وروى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة وقد مضى فى « البقرة » <sup>(۱)</sup> . ﴿ وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ أى اجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنى » بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هودعاء لمن أراد الله أن يدعوه . وقرأ الجندرى وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَّبْتُ ذلك الأمر، وأجنته وجنته إياه فتجانسه وأجنته أى تركه . وكان إبراهيم التيمى يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول « وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » كما عبدها أبى وقوى .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل للين مجازا، فإن الأصنام جمادات لا تفعل . ﴿ فَمَنْ تَعْبُدِ ﴾ فى التوحيد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهل دىنى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصر على الشرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعترفه الله أن الله لا يفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشرك .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّعْرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿۴۷﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - روى البخارى عن ابن عباس : أول ما أخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ؛ أخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبأنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد ؛ وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس

(۱) راجع ج ۲ ص ۱۱۷ فابعد . (۲) فى : لا تنقل . (۳) المنطق : التعلق وهو

أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء ، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال فلا تنزلق ذيلها



بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما حرايا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم<sup>(١)</sup> منطلقا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه لئس ولا شيء، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذا لا يضيّعنا، ثم رجعت، فأنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، أَسْتَقْبِلَ بوجهه البيت ثم دعاهم هذه الدعوات، ورفع يديه فقال: «رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» حتى بلغ «يَسْكُرُونَ» وجعلت أم إسماعيل تُرْضِعُ إسماعيل وتُشْرِبُ من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطِشَتْ وعطِشَ أبناها، وجعلت تنظر إليه يتَلَوَّى — أو قال يَتَلَبَّطُ<sup>(٢)</sup> — فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فحبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرفَ دِرعِها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي، ثم أنت المَرْوَةُ فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فذلك سعى الناس بينهم»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمع<sup>(٣)</sup> إن كان عندك غواث! فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبَحَثَ بِعَقِبِهِ — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سِقَائِها وهو ينفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم — أو قال: لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عيناً معيناً»، قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخاف الضيعة فإنها هنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله، وذكر الحديث بطوله.

(١) في رو: أنيس. (٢) يتلبط: يتسرع.

(٣) غواث: (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهي الإغاثة.

(٤) «وتقول بيدها هكذا»: هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل. (تسطلاني).

مسألة — لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضبغة أتكلا على العزيز الرحيم ، وأقصد بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقد روى أن سارة لما نارت من هاجر بمسد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فربى فيه ركب البراق هو وهاجر والطفل بخاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، وترك أبنته وأمنته هناك وركب متصرفا من يومه ، فكان ذلك كله يؤجر من الله تعالى ، فلما ولى دعا بضمين هذه الآية .

الثانية — لما أراد الله تأسيس الحال ، وتمهيد المقام ، وخط المدرع للبيت المكرم ، والبلد المحرم ، أرسل الملك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء ، وفي الصحيح : أن أبا ذر رضي الله عنه آجرا به ثلاثين بين يوم وليلة ، قال أبو ذر : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسميت حتى تكثرت عكثي ، وما أجد على كبدي تخفة جوع ، وذكر الحديث . وروى الدارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماء زمزم لما شرب له إن شربته تشنئني به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه وهي هزيمة جبريل وسقيا الله إسماعيل " . وروى أيضا عن عكرمة قال : كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء . قال ابن العربي : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحته نيته ، وسلمت طويته ، ولم يكن به مكذبا ، ولا يشربه مجربا ، فإن الله مع المتوكلين ، وهو يفضح المجربين . وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي وحديثي أبي رحمه الله قال : دخلت الطواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني ، فبغلت أعتصر حتى آذاني ، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام ، وذلك أيام الحج ، فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم فتصلعت منه ، فذهب عني إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : إن في زمزم عينا في الجنة من قبل الركن .

(٢) نسخة المطبع : رقه ومزاه .

(٤) العصر : المنع والمحبس .

(١) جمع مكنة . وهي ما انطوى وتحت من لم يكن منها .

(٣) هزيمة جبريل : أي ضربها برجله فنبع الماء .

(٥) تضلع : أكثر من الترب حتى تمدد جبهه وأضلاعه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِنْ » في قوله تعالى : « مِنْ ذُرِّيَّتِي » للتبعض أى أسكنت بعض ذريتي ، يعنى لإسماعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة ؛ أى أسكنت ذريتي .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » . وأضاف البيت لإليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محترم ، أى يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال . وقيل : محترم على الجبارة ، وأن تنتهك حرمة ، ويستخف بحقه ، قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »<sup>(٢)</sup> .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خَصَّهَا من جملة الذين لفضلها فيه ، ومكانها منه ، وهى عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد » . الحديث . واللام فى « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » لام كى ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أَسْكَنْتُ » . ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رغب إلى الله [ أن ياتمهم و ]<sup>(٣)</sup> أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة — تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » . قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيب المسلم عن عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن الزبير وجوده ، ولم يخاطب فى لفظه ولا فى معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبى خيثمة سمعت

(١) راجع ج ٢ ص ١٢٠ فابعد . راجع ج ٦ ص ٣٢٥ . (٢) منى .

يحيى بن معين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول :  
 حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه ! وسئل أبو زرعة الرازي عن حبيب المعلم فقال : بصرى ثقة .  
 قلت - وقد نخرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم الحافظ أبو حاتم محمد ابن حاتم التميمي البستي في المسند الصحيح  
 له ، فالحديث صحيح وهو الحق عند النزاع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى  
 عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير ، رواه موسى الجهنى عن نافع  
 عن ابن عمر ، وموسى الجهنى [الكوفي] ثقة ، أثنى عليه القطان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه  
 شعبة والثوري ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم  
 عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة  
 في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام  
 أفضل من مائة ألف فيما سواه " . وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة  
 الرازي ، وأخذ عنه ابن وضاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفظ فُهما  
 حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضاح ، حدثنا يوسف بن هدى عن  
 عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 " صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن  
 الصلاة فيه أفضل " . قال أبو عمر : وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من أئتم  
 رشد ، ولم تمل به عصبية . وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا  
 يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم  
 على ما في هذا الباب . وقد آتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبرز لها في كل  
 بلد إلا مكة فإنها تُصل في المسجد الحرام . وكان عمر وعلي وآبن مسعود وأبو الدرداء وجابر  
 يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ، وإلى هذا ذهب الشافعي ، وهو قول  
 عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ، ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن  
 (۱) من ي . هو موسى بن عبد الله الجهنى الكوفي . (۲) ق ي : حفظ فُهما حديثان .

آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال : يارب هذه أحب إليك أن تُعبدَ فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة ، وأختلف أهل البصرة والبلخادون في ذلك ؛ فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة .

قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب ، وقد يُعبر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤاداً قادني بصباية \* إليك على طول المدى أصبور

وقيل : جمع وفد ، والأصل أفئدة ، فقدمت الفاء وقبلت الواو ياء كما هي ، فكأنه قال : واجعل وفوداً من الناس تهوى إليهم ؛ أى تنزع ؛ يقال : هوى نحوه إذا مال ، وهوى النافذة تهوى هويّاً فهي حاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنها في هواء بر ، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « مِّنَ النَّاسِ » فهم المسلمون ؛ فقلوه : « تهوى إليهم » أى تحق إليهم ، وتحق إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تهوى إليهم » أى تهاوهم وتجلهم . ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الْخَمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه ، وأنبأ لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يجلب إليهم من الأمصار . وفي صحيح البخارى عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : « بجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل بطالع تركته فلم يجسد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يلتنى لنا ، ثم سألهم عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ؛ فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئني عايشه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشئ ؟ قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك ؛ قال : ذلك أبى وقد أمرني أن أفارقك ألحقني بأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، ودخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يلتنى لنا . قال :

(١) قال الألوصى : مضارع هوى بمعنى أحب عدى بال . (٢) أى كأنه أبصر ورأى شيئا لم يهده .



كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسمة وأثنت على الله . قال : ما طعماكم؟ قالت : اللحم . قال فما شربكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه “ . قال : فبهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم ” فَأَجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ “ سأل أن يجعل الله الناس يهويون السكينة بمكة ، فيصير بنتا حنظلا ، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جرهم . ففى البخارى — بعد قوله : وإن الله لا يضيع أهله — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرت بهم رقيقة من جرهم قائلين من طريق كذا ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائنا فقالوا : (٢) إن هذا الطائر ليؤدو على ماء ! لنعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريرين فإذا هم بالماء ، فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأتم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أئنا ندين لنا أن نزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” [فألقى] ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس “ فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شب الغلام ، ومات أم إسماعيل ، بغاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل بطالع تركته ، الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

(١) فى ر: عنها . (٢) العائف ها هو الذى يتردد على الماء ولا يمشى . (٣) الجرى : الرسول .  
(٤) ألقى أى وجد ذلك الحى الجرمى أم إسماعيل ، أو ألقى استئذان جرهم بالنزول أم إسماعيل والحال أنها تحب الأنس ، فقامر الله ، (ذلك) و (ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أى ليس يخفى عليك شئ من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أَسْكَنَا بَوَادِ غَيْرِ ذِي زَرْع . ﴿ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » قال الله : « وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أى على كبر سننى ومن أَسْرَأَتِي ؛ قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة . وإسحق وهو ابن مائة وأثنتي عشرة سنة . وقال سعيد بن جبَر : بُشِّرَ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ . « شَرُّ وَمَاةِ سَنَةٍ » . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والزام أحكامه . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى وأجعل من ذرئتي من يقيمها . ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى عبادتي كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : « الدُّعَاءُ خُجَّةُ الْعِبَادَةِ » وقد تقدم في « البقرة » . ﴿ رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله . قال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جبَر ، « رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » يعني أباه . وقيل : استغفر لهما طمعا في إيمانهما . وقيل : استغفر لهما بشرط أن يُسَلِّمَا . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد روى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لي ولوالدي وكان أبواه قد ماتا كافرين أنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسماعيل وإسحق . وكان إبراهيم النخعي يقرأ : « وَلِوَالِدَيَّ » يعني أبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يعمر ؛ ذكره المساوردي والنحاس . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « لِلْمُؤْمِنِينَ » كلهم وهو أظهر . ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٢٦ .

(٢) راجع ج ٢ ص ٣٠٩ فابعد .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ  
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ  
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ) وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى أصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله لإمبال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للظالم . ( إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ) يعنى مشركى مكة بهم لهم يؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يُؤَخِّرُهُمْ » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرا الحسن والسائى وروى عن أبي عمرو أيضا « تُؤَخِّرُهُمْ » بالنون للتعظيم . ( لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ) أى لاتنفض من هول ما تراه فى ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَصَ الرجل بصره وشَخَصَ البصر نفسه أى سَمَا وطَاح من هول ما يرى . قال ابن عباس : تَشَخَصَ أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمُضُونَ . ( مُهْطِعِينَ ) أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبيرة ، مأخوذ من أهطع يهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » (١) أى مسرعين . قال الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم \* بدجلة مهطعين إلى السماء

وقيل : المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يظرفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مُهْطِعِينَ » أى مديى النظر . وقال النحاس : والمعروف فى اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع إدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لا يرفع رأسه . ( مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ) أى رافى رؤوسهم ينظرون فى ذل . وإفناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة (٢) والفتى وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه ويقبل بصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإفناع فى الصلاة (١) راجع ج ١٧ ص ١٣٠ . (٢) الإفناع فى الصلاة أن يرفع المصل رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقع صوته إذا رفعه . وقال الحسن : وجوه الناس يؤمذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .  
وقيل : ناكسى رعوسهم ؛ قال المهدوي : ويقال أقنع إذا رفع رأسه ، وأقع إذا طأ رأسه ذلة  
وخضوعاً ، والآية محتملة الوجهين ، وقاله المبرد ، والقول الأول أعرف في اللغة ؛ قال الرازي :  
أَنْفَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا \* كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئًا أَطْمَعَا

وقال الشَّخَّاحُ يصف إبلا :

يُبَاكِزَنَّ الْعِضَاءُ بِمُتَمَعَاتٍ \* نَوَاجِدُهُنَّ كَالْحَدِيدِ الْوَقِيعِ<sup>(٢)</sup>

يعنى : برعوس مرفوعات إليها لتناولهن . ومنه قيل : مِقْنَعَةٌ لارتفاعها . ومنه قَنَعَ  
الرجل إذا رَضِيَ ؛ أى رفع رأسه عن السؤال . وقَنَعَ إذا سأل أى أتى ما يتقنع منه ؛ عن  
النحاس . وفم مُقْنَعٌ أى معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقْنَعٌ بالشديد ؛ أى عليه بيضة  
قاله الجوهري . ( لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ) أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي  
شاخصة النظر . يقال : طَرَفَ الرَّجُلُ يَطْرِفُ طَرْفًا إذا أطبق جفنه على الآخر ، فسمي النظر  
طَرْفًا لأنه به يكون . والطَّرْفُ العين . قال عنتره :

وَأَغَضَّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارِي \* حَسَنَى يُوَارِي جَارِي مَا وَاهَا

وقال بجيمل :

وَأَقْصِرْ طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامَةٍ \* لَجُمْلٍ وَلِلطَّرْفِ الَّذِي أَنَا قَاصِرُهُ

( وَأَنْثِدَّ لَهُمْ هَوَاءٌ ) أى لا تغنى شيئاً من شدة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير .  
السدي : خرجت قلوبهم من صدورهم فذهبت في حلقهم ؛ وقال مجاهد ومرة وابن زيد :  
خاوية خربة متخرقة ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذى ليس فيه شيء :  
إنما هو هَوَاءٌ ؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المحبوف الخالي ؛ ومنه قول حسان :  
أَلَا أَلْبِغُ أَبَاسُفِيَّانَ عَنِّي \* فَأَنْتَ مُحْبُوفٌ نَحْبُ هَوَاءٌ<sup>(٥)</sup>

(١) أنفض رأسه : حركه . (٢) العضاء : كل شجر يعظم وله شوك . والحدا (فتح الحاء) : وقيل : ( بكسرهما )  
جمع حداة ، وهي القاس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المتحد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالقوس في الحدة .  
(٣) أى على الرأس من المرة . (٤) في و : مخزقة . (٥) المحبوف والمحبوف : الجبان الذى  
لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى الزرع . يقال : رجل نخب أى جبان ؛ كأنه منزع الفؤاد .

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأن الرجل منها فوق صعل<sup>(۱)</sup> • من الظلمان جوجؤه هواء

فارغ أى خال ؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُكَ مُوسَىٰ قَارِعًا » أى من كل شئ إلا من هم موسى . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبَّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ<sup>(۲)</sup> أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ( وَأَنْذِرِ النَّاسَ ) قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ( يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ) وهو يوم القيامة ؛ أى خوفهم ذلك اليوم . وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم التواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي . ( فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى فى ذلك اليوم ( رَبَّنَا أَخْرِنَا ) أى أمهلنا . ( إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ) سالوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ( نُّحِبَّ دَعْوَتَكَ ) أى إلى الإسلام . ( وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ) . فجاوبوا : ( أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ ) يعنى فى دار الدنيا . ( مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ) قال مجاهد : هو قسم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ<sup>(۳)</sup> » . « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما — ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى — « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » أى من العذاب . وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلوا بعدها أبداً ، يقولون :

« رَبَّنَا آمَنَّا أَفْتِنِ وَأَخْبِسْنَا أَفْتِنِ فَأَعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ »<sup>(۴)</sup> فيجيبهم الله « ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

(۱) "فوق صعل" شبه الناقة فى سرعتها بالظلم وهو ذكر النعام ، فكان رحلها فوقه . والصعل الرأس ، وبذلك يوصف الظلم والباطل والعدو . (۲) راجع ج ۱۳ ص ۲۵۴ . (۳) راجع ج ۱۰ ص ۱۰۵ .

(۴) راجع ج ۱۵ ص ۲۹۶ .



ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ <sup>(١)</sup> » فيجيبهم الله تعالى : « قَدْ وَقُواْ بِمَا نَعْتَمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِناْ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَدْبِيعِ الرُّسُلِ » فيجيبهم الله تعالى : « أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم الله تعالى : « أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُدْكِرُ فِيهِ مَنْ تَدْكُرُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ <sup>(٢)</sup> » . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ فيجيبهم الله تعالى : « أَخْسُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ <sup>(٣)</sup> » فلا يتكلمون بعدها أبداً؛ أخرجه ابن المبارك في « دلائله » بأطول من هذا — وقد كتبه في كتاب « التذكرة » — وزاد في الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ . وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « أَخْسُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبج بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال : فخذني الأضرى ابن أبي الأضرى أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ <sup>(٤)</sup> » . قوله تعالى : « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ <sup>(٥)</sup> » وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ <sup>(٦)</sup> » فوله تعالى : « (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ) أى في بلاد تمود ونحوها فهلا اعتبرتم بما كنهم، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي؛ وليناسب قوله : « كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » . وقرأه الجماعة، « وَتَبَيَّنَ » وهى مثله في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

(١) راجع ج ١ ص ٩٥، و ص ٣٥١ . (٢) راجع ج ١ ص ١٥٣ . (٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ .

قوله تعالى : ( وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ) أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة عن ابن عباس وغيره . ( وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَوَلَّى مِنْهُ الْجَبَالُ ) « إن » بمعنى « ما » أى ما كان مكرهم لنزول منه الجبال لضعفه ووهنه ؛ « وإن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى - « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » . الثالث - « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْلَعَ لَهْوَ لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا إِى مَا كُنَّا » . الرابع - « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ » . الخامس - « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ فَيَا إِنْ مَكَارُكُمْ فِيهِ » . وقرا الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرا عمرو بن على وابن مسعود وأبى « وإن كاد » بالدال . والعامة على كسر اللام فى « لتزول » على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا . وقرا بن محيص وابن جريج والكسائى « لَتَزُولُ » بفتح اللام الأول على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ؛ أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطبرى : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ؛ قال أبو بكر الأنبارى : ولا حجة على مصحف المسادين فى الحديث الذى حدثناه أحمد بن الحسين : حدثنا عثمان بن أبى شبة حدثنا وكيع بن الجستراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانييل قال سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّارا من الجبّارة قال لا أتهى حتى أعلم من فى السموات ، فعمد إلى فرائخ نسور ، فأمر أن تطعم اللحم ، حتى آشتدت وعَصَّتْ وأمتلجت أمر بأن يُخَذَّ تابوتٌ يسع فيه رجلين ؛ وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرة ، وأن يُسْتَوْتَقَ من أرجل النسور بالأوتاد ؛ وتُكْسَدَ إلى قوائم التابوت ، ثم جالس هو وصاحب له فى التابوت وأثَّارَ النسور ، فلما رأت اللحم طلبته ، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله ؛ فقال الجبّار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب ، فقال : أغلق الباب ؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد ، فقال الجبّار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُدْءًا ، فقال : تَكْسُ العَصَا فَتَكْسُهَا ، فَاهْقَصَتْ النَّسُورُ . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدة كادت الجبال تزول عن

(۱) راجع ۸ ص ۳۸۲ . (۲) راجع ۱۱ ص ۲۷۵ . (۳) راجع ۱۶ ص ۱۱۹ و ۲۰۸ .

(۴) هذا الست فى كل الأصول ولم تنف عليه رغم البحث . (۵) استنجلت : غلطت .

مراتبها منها؛ قال : فسمعت علياً رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَيَتَزَوَّلَنَّ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية . وقد ذكر التعليل هذا الخبر بمعناه، وأن الجبار هو التمرود الذى حاج إبراهيم في ربه، وقال عكرمة : كان معه في التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فماد إليه ملطخا بالدماء وقال : كُنَيْتُ نَفْسَكَ إِلَهَ السَّمَاءِ . قال عكرمة : تَلَطَّخَ بدم ستمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر في الهواء معلق . وقيل : طار من الطير أصابه السهم ثم أمر تمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يَنْكُسَ اللحم، فهبطت النسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأن الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَيَتَزَوَّلَنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القشيري : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال . وذكر الماوردي عن ابن عباس : أن التمرود بن كنعان بنى الصرح في قرية الرِّس من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء آخذ حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصرح عليهم فهلكوا جميعاً، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ » وفي الجبال التي عَنَى زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثاني — الإسلام والقرآن ؛ لأنه لثبوت ورسوخه كالجبال . وقال القشيري : « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرهم لحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَزَوَّلَنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرًا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مثل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » في تقديرهم « لَيَتَزَوَّلَنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ » وتؤثر في إبطال الإسلام . وقرئ « لَتَزَوَّلَنَّ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرًا عظيمًا تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية في تفسيره بعد أن حكاهما عن الطبري بقوله : « ذلك عندى لا يصح عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وفي هذه القصة ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصمد الأنسر كما وصف ، ويبدو أن يفرر أحد بنفسه في مثل هذا » .  
(٢) عبارة التلبي في «قصص الأنبياء» : (كفبت شذل إله السما) .

عليه وسلم ، وهو كقوله تعالى : « وَمَكْرُوهًا مَّكَرًا مُّجَارًا » <sup>(۱)</sup> والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

ذُو أَنْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ ﴾ اسمُ الله تعالى و « مخلف » مفعولا محسوب ؛ و « رُسُلُهُ » مفعول « وَعَدِهِ » وهو على الاتساع ، والمعنى : مخلف وعده رُسُلُهُ ؛ قال الشاعر :

تَرَى النَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ • وَسَائِرُهُ بَادٍ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ <sup>(۲)</sup>

قال الفُتَيْي : هو من المقدم الذى يوضحه التأخير ، والمؤخر الذى يوضحه التقديم ، وسواء فى قولك : مخلف وعده رُسُلُهُ ، ومخلف رُسُلِهِ وعده . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ أى من أعدائه . ومن اسمائه المنتقم وقد بيناه فى « الكتاب الأسمى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغُ النَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أى أذكر يوم تبديل الأرض ، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف فى كيفية تبديل

(۱) راجع ج ۱۸ ص ۳۰۶ . (۲) يصف الشاعر عابرة قد أبلغت التيران إلى كنفها ، ترى النور مدخلا لرأسه فى ظل كنفه لما يجده من الحرارة ، وسائرته بارز شمس .

الأرض ، فقال كثير من الناس : إن تبدل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومد أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أخرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب ، قال حدثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى صرفوعا من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” تبدل الأرض غير الأرض فبسطها ويمدّها مدّ الأديم العسكاطي لا ترى فيها عوجا ولا أمّثا ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [ من كان في بطنها فنى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ] ” ذكره الغزّوي . وتبدل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها ، فتره كالمهل<sup>(٢)</sup> ومره كالدهان<sup>(٣)</sup> ؛ حكاه ابن الأنباري ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيناً في كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء في ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفاء فحبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال لليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” في الظلمة دون الجحيم<sup>(٤)</sup> ” . وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : ” على الصراط ” . أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وأخرجه الترمذي عن عائشة وأنها هي السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنص على أن السموات والأرض تُبدل وتزال ، ويخلق الله أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجحيم . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه عليه

(١) أديم عكاطي : منسوب إلى عكاظ ، وهو مما جل إليها فبيع بها . وعكاط : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرى مكة . والأمت : المكان المرتفع والندال الصغار والانخفاض والارتفاع .

(٢) عبارة الأصل هنا نافضة ومحرفة ، والزيادة والنصوب من تفسير الطبري وكتاب « التذكرة » للزلف .

(٣) راجع به ١٨ ص ٢٨٤ . (٤) راجع به ١٧ ص ١٧٣ . (٥) الجحيم : الصراط .



وسلم : « يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّبِيِّ <sup>(۱)</sup> لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ » .  
 وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عز وجل : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ  
 الْأَرْضِ » قال : تُبَدَّلُ خُبْرَةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثم قرأ : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً  
 لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » . وقال ابن مسعود : إنها تبذل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعْمَلْ  
 عليها خطيئة . وقال ابن عباس : بأرض من فضة بيضاء . وقال علي رضي الله عنه : تبذل  
 الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل للعين ، وحسبك . ( وَبَرَّزُوا لِلَّهِ  
 الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ) أى من قبورهم ، وقد تقدم .

قوله تعالى : ( وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ) وهم المشركون . ( يَوْمَئِذٍ ) أى يوم القيامة .  
 ( مُقَرَّنِينَ ) أى مشدودين ( فِي الْأَصْفَادِ ) وهى الأغلال والقيود ، واحداها صَفْدٌ وَصَفَدٌ .  
 ويقال : صَفَدْتُهُ صَفْداً أى قيدته والأصم الصَّفْدُ ، فإذا أردت التكثير قلت : صَفَدْتُهُ  
 تصفيداً ، قال عمرو بن كلثوم :

فَأَبْسُوا بِالنَّهَابِ وَالسَّبَابَا \* وَأَبْسَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

أى مقيدينا . وقال حسان :

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُسَدُّ صَفَادُهُ \* صَقِيرٌ إِذَا لَاقَى الْكَرِيمَةَ حَامٍ

أى غله ، وأصفدته إصْفَاداً أعطيته . وقيل : صَفَدْتُهُ وَأَصَفَدْتُهُ جَارِئَانِ فِي الْقَيْدِ

وَالْإِعْطَاءِ جَمِيعاً ، قال النابغة :

\* قَلَمٌ أَعْرَضَ أَبَيْتَ اللَّعْنِ بِالْصَّفَدِ <sup>(۲)</sup> \*

فَالصَّفْدُ الْعَطَاءُ ، لَأَنَّهُ يُقَيَّدُ وَيُعْبَدُ ، قال أبو الطيب :

وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ حَبِيَّةً \* وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْداً تَقِيْدَا <sup>(۳)</sup>

(۱) النبي : الدقيق الحواري . والحواري : ما حوَرَى أى بيض . والعالم الأثر

(۲) راجع ج ۱۱ ص ۲۷۴ . (۳) معنى أبَيْتَ اللَّعْنِ : أى أبَيْتَ أَنْ تَأْتِيَ شَيْئاً تَلْعَنُ عَلَيْهِ ، ومصدر البيت :

\* هَذَا النَّشَاءُ فَإِنْ تَسَمِعَ لِفَاتِلِهِ \*

(۴) القرا (بالفتح) : الدار ونواحيها ، وكل ما استترت به ، تقول : أنا في ذرا فلان أى في كنفه وسره .

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان في غُلّ، بيانه قوله : « أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ »<sup>(١)</sup> يعنى قرناهم من الشياطين . وقيل : لانهم الكفار يجمعون في الأصفاة كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَّائِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ ﴾ أى قصصهم ، عن ابن دُرَيْد وغيره ، واحدها سِرْبَال ، والفعل سَرَبَلْتُ وَسَرَبَلْتُ غَيْرِي ؛ قال كعب بن مالك :

تَلَقَّاكُمْ عَصَبَ حَوْلِ النَّبِيِّ لَهْمُ \* مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَّائِلُ

« مِنْ قَطْرَانٍ » يعنى قطران الإبل الذى تُهَنَّبُ به ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتغال النار فيهم . وفى الصحيح : أن النائحة إذا لم تنب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِرْبَال من قطران وِدْرَع من حَرْب . وروى عن حماد أنهم قالوا : هو النحاس . وقرأ عيسى بن عمر : « قَطْرَانٍ » بفتح القاف وتسكين الطاء ، وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء ؛ ومنه قول أبى الجهم :

جَوْنٌ كَانَتْ الْعَرَقُ الْمَتَوَحَّاهُ \* لَبَسَهُ الْقَطْرَانُ وَالْمُسْوَحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قَطْرَانٍ » رويت عن ابن عباس وأبى هريرة وعكرمة وسعيد بن جبيرة ويعقوب ؛ والقَطْر النحاس والصُّفْر المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : « أَتَوْنِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا »<sup>(٢)</sup> . والآن : الذى قد انتهى إلى حرّه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ »<sup>(٣)</sup> . (وَتَعَشَى) أى تضرب ﴿ وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فُتَغَشَّيَا . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أُنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوفوا عقاب الله عز وجل ، وقرئ . « وَلِيُنذِرُوا » بفتح الباء والذال ، يقال : نَذَرْتُ بالشئ أنذرت إذا علمت به فاستعددت له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس ، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك : سَرَفْتُ أَنْ نَذَرْتُ بالشئ . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا ﴾

(١) راجع ج ١٥ ص ٧٢ . (٢) تهنا به : ترهن . (٣) نزع العرق نزع من الجلد .

(٤) « قَطْر » : مضطه فى « روح المعاني » بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ، ومثله فى « البحر المحیط » ، مضطه بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء ، ففيه ثلاث لغات .

(٥) راجع ج ١١ ص ٦٢ .

(٦) راجع ج ١٧ ص ١٧٥ .

أَتَمَّا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿١﴾ أَيْ وَلِيَعْلَمُوا وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ بِمَا أَقَامَ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ . ( وَلْيَذَكِّرْ أُولُو  
الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾ أَيْ وَلْيَتَعَطَّ أَصْحَابُ الْعُقُولِ . وَهَذِهِ الْإِلَاحَاتُ فِي « وَلْيَنْذِرُوا » « وَلْيَعْلَمُوا »  
« وَلْيَذَكِّرْ » مُعْلَقَةً بِمُحْذُوفٍ بِالنَّقْدِيرِ : وَلِذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ . وَرَوَى يَمَّانُ بْنُ رِثَابٍ أَنَّ هَذِهِ  
الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ هَلْ لِكِتَابِ اللَّهِ عُنْوَانٌ ؟  
فَقَالَ : نَعَمْ ، فَيَقِيلُ : وَأَيْنَ هُوَ ؟ قَالَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ »  
إِلَى آخِرِهَا . ثُمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

محققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

✦ ✦

تم الجزء التاسع من تفسير القرطبي  
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر ، وأوله :

سورة « الحجر »

بەون الله و جەل توفىقه فەد تەم طبع الجزء التاسع من "تفسير القرطبي"

# الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطيعي

## الجزء العاشر

إعداد طبعه  
دار إحياء التراث العربي  
بيروت - لبنان  
١٩٦٥



## فهرس الجزء العاشر

### تفسير سورة الحجر

صفحة

- ١ تفسير قوله تعالى : « آل تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » ... .. ١
- ١ تفسير قوله تعالى : « رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... » الآية . الكلام على « رَبِّمَا »
- تفسير قوله تعالى : « ذَرَهُمْ يَا كُولا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ... » فيه مسألتان :
- ٢ بيان أن الآية منسوخة بالسيف . النهى عن طول الأمل والحرص على الدنيا .
- ٣ تفسير قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية ... » الآيات ... .. ٣
- تفسير قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ... » الآيات . بيان أن الله تعالى حفظ القرآن من أن يزد فيه أو ينقص منه ، فلم يزل محفوظا إلى اليوم ... .. ٥
- ٥ تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك ... » الآية . ما جاء في معنى « الشَّعْبِ » .
- ٦ تفسير قوله تعالى : « كذلك نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ ... » الآيات . اختلاف العلماء في عدد الضمير، هل هو عائذ على القرآن، أو على الضلال والشرك والاستهزاء .
- ٧ تفسير قوله تعالى : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ ... » الآيات . الكلام في عود الضمير في قوله : « عليهم » و « فظنوا » . ما في معنى قوله : « سُكَّرَتْ » من أقوال .
- ٨ تفسير قوله تعالى : « ولقد جعلنا في السماء بُرُوجًا ... » الآيات . الدليل على كمال قدرة الله تعالى . بيان أسماء هذه البروج، وأنه يستدل بها على الطرقات والأوقات والحُصْب والجَدْب . بيان أن الشياطين كانت لا تتحجب عن السماء، وأنهم كانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ويزيدون عليها إلى مبعث النبي عليه السلام . رميهم بالشهب عند استراق السمع . آخفاف في الشهاب هل يقتل أم لا . وهل كان رمي بالشهب قبل المبعث ... .. ٩
- ٩ تفسير قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رَواسِيَ » الآيات ... .. ١٢
- ١٢ تفسير قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لوائح ... » الآية . فيه خمس مسائل : الكلام على الرياح . قول العلماء في لقاح القمح، وإبار النخل . إجماعهم أن البستان

- صفحة
- إذا انشقى طلع إناثه فأثر إبارده وقد أبرغره أن حكمه حكم ما أبر . وأن الشر  
المؤبر لا يدخل مع الأصول في البيع إلا بالشرط . النهى عن بيع الملائق، وهل  
هى الفحول من الإبل، أو الإناث التى فى بطونها أولادها ... ١٥ ...  
تفسير قوله تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » فيه ثلاث  
مسائل : بيان ما فى الآية من التأويلات . الدليل على فضل أول الوقت  
فى الصلاة، وعلى فضل الصف الأول فيها، وكذا فضل الصف الأول فى القتال ١٩  
تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » الآيات . الكلام على  
المادة التى خلق منها آدم عليه السلام ، والمادة التى خلق منها إلهان ... ٢١ ...  
تفسير قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا ... » الآيات . أقوال  
العلماء فى الروح ، وأن سجود الملائكة لآدم كان سجود تحية لا سجود عبادة ... ٢٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ... » الآيات . الكلام  
على الاستثناء فى هذه الآية . الفرق بين الشياطين والجن . اختلاف الفقهاء  
فى جواز الاستثناء من الجنس غير الجنس . امتناع إبليس من السجود .  
الدليل على جواز استثناء القليل من الكثير والعكس . أبواب جهنم وتخصيص  
كل طائفة بساب ... ٢٥ ...  
تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ... » بيان المراد بالعيون ... ٣٢ ...  
تفسير قوله تعالى : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ... » كيف ينزع الغل من قلوب  
المتقين، وهل هو فى الدنيا أم فى الآخرة . ما قيل فى السرر ... ٣٣ ...  
تفسير قوله تعالى : « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » . بيان سبب نزول الآية ... ٣٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... » الآيات . تبشير الملائكة لإبراهيم  
بإحراق عليهما السلام وتمجيبه من ذلك . بيان أوجه القراءات فى قوله  
« يُبَشِّرُونَ » وقوله : « من الفانطين » . أقوال العلماء فى الاستثناء الواقع فى هذه  
الآيات، وإجماعهم على أن الاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي ... ٣٤ ...  
تفسير قوله تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون ... » الآيات . قدوم الملائكة  
إلى لوط عليه السلام، وقصة لوط مع قومه لما أرادوا الفاحشة منهم ... ٣٨ ...

- تفسير قوله تعالى : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » فيه ثلاث مسائل :
- إجماع المفسرين على أن هذا قسم من الله تعالى بحياة محمد عليه السلام تشریفه .
- بيان أن القسم بقولك « لعمري ولعمرك » ونحوه جاء في أشعار العرب ، والكثير من العلماء على كراهيته . مذهب مالك فيمن قال : لعمرك ، والتين والزيتون ، ونحو هذا ؛ أن اليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالخلق
- ٣٩ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ » الآيات
- ٤٢ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » فيه مسألتان : ما جاء في التوسيم والفراسة . هل يحكم بالفراسة في الأحكام
- ٤٢ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ... » الآيات . بيان معنى . « الأليكة » .
- ٤٥ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ » . ما جاء في معاني « الحجر » والمراد به هنا . استنبط العلماء من هذه الآية ثمان مسائل : كراهة دخول مساكن الذين ظلموا أنفسهم . ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلقه الإبل ، والبهايم . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن من بثر ثمود الإبل . في أمره عليه السلام بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه لياكلوها . الدليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين . ما جاء من النهي عن الصلاة في بعض المواضع . جواز التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طاهرا نظيفا . البستان الذي يليق فيه النتن والعدرة ليكرم لا يصلي فيه حتى يسقى ثلاث مرات
- ٤٥ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ... » الآيات . قيل :
- ٥٣ ... ..
- إن المراد بالآيات الناقة ، بيان ما كان فيها من آيات
- تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » . اختلاف العلماء في السبع المثاني ، هل هي الفاتحة أم غيرها
- ٥٤ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « لَا تَحْمِزْنِي إِلَى مَاءٍ مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ... » الآية . سبب نزول الآية . الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام
- ٥٦ ... ..
- تفسير قوله تعالى : « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » كما أزلنا على الْمُقْسِمِينَ ... الآيات .
- اختلاف في « المقسمين » على أقوال سبعة . ما جاء في قوله : « عِصِينَ »
- ٥٧ ... ..

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « فَوَرَّبُّكَ لِنَسَالَتِهِمْ أَجْمَعِينَ ... » الآية تدل على محاسبة الجميع  
وسؤالهم كافرهم ومؤمنهم ؛ إلا من دخل الجنة بغير حساب . سؤال الكافر  
ومحاسبته ... ٥٩ ...  
تفسير قوله تعالى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ... » الآية . بيان  
المراد من قوله : « فَأَصْدَعْ » . ذكر الخمسة الذين كانوا يستهزئون برسول الله  
صلی الله عليه وسلم وسبب هلاكهم ... ٦١ ...  
تفسير قوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » المراد بالتسبيح هنا  
الصلاة . الجمهور من العلماء على أن هذه الآية ليست محل سجود ... ٦٣ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » معنى « اليقين » . الفرق  
بين الرجل يقول لأمراته : أنت طالق أبداً ، أو يقول : طلقتها حياتها ... ٦٤ ...

## سورة النحل

- تفسير قوله تعالى : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... » بيان المراد في قوله : « أَمْرُ اللَّهِ »  
تفسير قوله تعالى : « يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ ... » الآية . أوجه القراءات  
في قوله : « يَنْزِلُ » . اختلاف العلماء في معنى الروح في هذه الآية ... ٦٧ ...  
تفسير قوله تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ... » الآية . بيان أدلة  
التوحيد ، الاستدلال بخلق الإنسان وأحواله على وجود الله تعالى ... ٦٨ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :  
الكلام على الأنعام . معنى الدفء . في الآية دليل على لباس الصوف ... ٦٨ ...  
تفسير قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ... » الآية . ما في الأنعام والدواب من الجمال .  
تفسير قوله تعالى : « وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : المراد من شق  
الأنفس ، ومعنى لشق . جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها على قدر ما تحتمله .  
تفسير قوله تعالى : « وَالْحَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْجِبْرِ لَتَرْكَبُوهُا ... » الآية . فيه ثمان مسائل :  
ما ملكه الإنسان من الحيوان جازله تسخيره وكراؤه ، وأن الكراء يجري مجرى  
اليؤج فيا يحمل منه ويحرم . الإجماع على أن من اكترى دابة ليحمل عليها  
عشرة أفضرة قمع لحمل عليها ما اشترط أو أخف منه فتلف أن لا ضمان عليه .

- اختلافهم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى، فيتعذى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه. اختلافهم في جواز أكل لحوم الخليل. بيان أن البغال تلهق بالجير في الحرمه. الدليل على أن الخليل لا زكاة فيها. قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإبل عز لأهلها والغنم بركة والخليل معقود في نواصيها الخير». الكلام على قوله: «ويخلق ما لا تعلمون» ٧٣
- تفسير قوله تعالى: «وعلى الله قصد السبيل...» الآية. بيان المراد بقصد السبيل. ٨١
- تفسير قوله تعالى: «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم...» الآية. معنى السوم. في هذه الآيات دليل على قدرة الله ووحدانيته ... ٨٢
- تفسير قوله تعالى: «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً...» الآية. فيه تسع مسائل: الكلام على تسخير البحر، اختلاف العلماء في السمك هل يسمى لحماً. بيان أن اللحوم أصناف مختلفة لا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلاً. المشهور أن الجراد يجوز بيع بعضه ببعض متفاضلاً. اختلف فيمن حاف إلا يأكل لحماً. المراد بجليسة البحر. لأحرمة على الرجال والنساء فيما يخرج من البحر. الكلام على لبس الذهب والحرير للرجال، والتختم بخاتم الفضة والتعلل به. من حلف ألا يلبس حلياً فلبس لؤلؤاً لم يحنث. معنى الخسر ... ٨٥
- تفسير قوله تعالى: «والتي في الأرض رواسى أن تميد بكم...» الآية. في الآية دليل على استعمال الأسباب ... ٩٠
- تفسير قوله تعالى: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» بيان أن العلامات هي معالم الطرق بالنهار. اختلف في النجوم الذي يقع بها الاهتداء. حكم استقبال القبلة. ٩١
- تفسير قوله تعالى: «أمن يخلق كمن لا يخلق...» الآية. بيان أن الله تعالى هو الأحق بالعبادة لأنه هو الخالق للأشياء. بيان أن الآيات تبكى للكفار. ٩٣
- تفسير قوله تعالى: «إلهكم إله واحد...» الآية. بيان أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم لا تقبل الوعظ. بيان أن الكبر فسق وهو أصل العصيان ... ٩٤
- تفسير قوله تعالى: «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم...» الآية. دعوى المشركين أن ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو من الأباطيل والتأوهات ٩٥



- صفحة
- تفسير قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... » الآية . بيان أن دعاء  
 ٩٦ الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم ... ..
- تفسير قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم ... » الآية . بيان قصة النمرود بن كنعان  
 ٩٧ وبنائه الصرح وكيف سقط عليهم ... ..
- تفسير قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يخزيهم ... » الآيات . بيان ما يلقاه المشركون  
 ٩٨ يوم القيامة من الحسوان ... ..
- تفسير قوله تعالى : « وقيل للذين آتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا .. » الآيات ...  
 ١٠٠ تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت ... » الآيات .
- الكلام على إنكار الكفار للبعث ... ..  
 ١٠٥ تفسير قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .  
 في الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله تعالى مرید لجميع الحوادث  
 ١٠٦ خيرها وشرها ... ..
- تفسير قوله تعالى : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ... » الآيات . اختلاف  
 ١٠٦ العلماء في سبب نزول هذه الآيات . واختلافهم أيضا في الحسنة المرادة في الآية .
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ... » الآيات .  
 الرد على مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن الرسول  
 عليه السلام مبين عن الله عز وجل مراده مما أجهل في كتابه . الكلام على وعيد  
 ١٠٨ المشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام ، ومعنى أخذهم على تخوف ... ..
- تفسير قوله تعالى : « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض ... » الآيات .  
 ١١٢ بيان أن كل ما في السموات والأرض يسجد لله تعالى ... ..
- تفسير قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا ألحين اثنين ... » الآيات . النهي عن اتخاذ  
 ١١٣ آهة غير الله . بيان أن الطاعة لا تكون إلا لله ... ..
- تفسير قوله تعالى : « ويعلمون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ... » الآيات .  
 ذكر قبائح المشركين من جعلهم لأهتهم نصيبا من أموالهم يتقربون بها إليهم ، ومن  
 ١١٥ زعمهم أن الملائكة بنات الله ... ..

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ... » الآيات .  
 بيان بنص العرب في الجاهلية للبنات ، وما كانوا يفعلونه من دفن البنات حية .  
 ١١٦ بيان أن البنات بلية ، وأن في الصبر عليهن والإحسان لهن مايق من النار ...  
 تفسير قوله تعالى : « وَلَوْ يَأْخُذُ النَّاسُ بِظُلْمِهِمْ ... » الآيات . بيان أن الله تعالى  
 لو أخذ الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة من نبي ولا غيره ...  
 ١١٩ تفسير قوله تعالى : « تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ... » الآيات . تسلية للنبي  
 صلى الله عليه وسلم بأن من تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم ...  
 ١٢١ تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ... » الآية . فيه عشر مسائل :  
 بيان المراد بالأنعام وما فيها من العبرة . الاختلاف في الضمير من قوله : « مِمَّا  
 فِي بَطُونِهِ » على ماذا يعود . استنبط بعض العلماء من عود هذا الضمير أن ابن  
 الفحل يفيد التحريم . الكلام على تحويل اللبن من الدم . الدليل على أن الحنظل  
 ليس بنجس . الدليل على جواز الانتفاع باللبان من الشرب وغيره ، وأن لبن  
 الميتة لا يجوز الانتفاع به ، وعلى استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ...  
 ١٢٢ تفسير قوله تعالى : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ... » الآية . فيه مسئلتان :  
 بيان أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر . بيان معنى السكر . أقوال من ذهب  
 من العلماء إلى جواز شرب ما دون السكر من النبيذ ...  
 ١٢٧ تفسير قوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :  
 بيان أن الوحي قد يكون بمعنى الإلهام . لم سمى النحل نحلا . الكلام على بيوت  
 النحل ، وأن الله تعالى ألهمها لاختخاذ بيوتها مسدسة ...  
 ١٣٣ تفسير قوله تعالى : « ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... » الآية . فيه تسع مسائل : الجمهور  
 من الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل . اختلف في الضمير من قوله :  
 « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » هل هو راجع للعسل أو القرآن . الرد على من زعم أن هذه  
 الآية يراد بها أهل البيت . اختلف في شفاء العسل للناس هل يقتضى العموم  
 في كل علة وفي كل إنسان أم على الخصوص . الدليل على جواز التعالج بشرب الدواء  
 وغيره ، والرد على الصوفية الذين لا يجوزون المداواة . الاختلاف في زكاة العسل .  
 ١٣٤

- تفسير قوله تعالى : «وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّكُمْ ...» الآية . بيان الاحتجاج على منكرو البعث بحالة الإنسان وتطوراته ... ١٤٠
- تفسير قوله تعالى : «وَاللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ...» الآية . بيان أن هذا مثل ضربيه . والله تعالى اعبدة الأصنام ... ١٤١
- تفسير قوله تعالى : « وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ... » الآية . فيه خمس مسائل : بيان أن الولد يتبع أمه في الرق والحرية . معنى الحفدة . ما جاء في خدمة الزوجة في بيت زوجها ، وأن الرجل يخدم زوجته فيما خف من الخدمة ويُعينها ، وعليه أن ينفق على خادمة واحدة ، وقيل على قدر الثروة والمترلة ... ١٤٢
- تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ... » الآية . بيان أن الله تعالى ضرب هذه الآية مثلا يبين ضلالة المشركين ، وأنه لا تساوى بينه وبين الأصنام . ذكر ما جاء في نقصان رتبة العبد عن الحر في الملكية وأنه لا يملك . بيان أن طلاق العبد بيد سيده . بيان أن الرزق ما وقع الاغتذاء به ... ١٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم ... » الآية . اختلف في الأبكم والذي يأمر بالعدل ... ١٤٩
- تفسير قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة ... » الآيات . معنى إتيان الساعة كملح البصر ... ١٥٠
- تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... » الآية . فيه عشر مسائل : تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت . جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار . بيان أن صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به ، واختلاف في القرن والسن والعظم ، وطهارة جلد الميتة إذا دغ . الكلام على جلد الخنزير والكلب وما لا يؤكل لحمه . اختلف في الدباغ التي تطهر به جلود الميتة ما هو . ١٥٢
- تفسير قوله تعالى : «والله جعل لكم مما خالق ظلالا ...» الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الله تعالى جعل للناس في الجبال ماوى يتحصنون به ويعتزلون عن الخلق فيه . الدليل على اتخاذ العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ... ١٥٩

- تفسير قوله تعالى : « فإِنْ تَوَلَّوْا فَلَنَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاحُ ... » الآيات . بيان أن إعراض المشركين عن الإسلام لم يكن لعدم معرفتهم نعمة الله بل كانوا يعرفونها ثم ينكرونها ، وفي معرفتهم وإنكارهم ثمانية أقوال ... ١٦١
- تفسير قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ... » الآيات . بيان أن المشركين يتبعون يوم القيامة أصنامهم التي عبدوها ، وسنتطق تلك الآلهة بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة . زيادة العذاب على المشركين يوم القيامة ... ١٦٣
- تفسير قوله تعالى : « ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم ... » الآية . بيان أن لكل أمة شهيدا عليها يوم القيامة وإن لم يكن نبيا ... ١٦٤
- تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... » الآية . فيه ست مسائل هذه الآية هي أجمع آية في القرآن لحير يمتثل ولشريع يتنب . الاختلاف في تأويل العدل والإحسان . إعطاء ذى القربى . معنى الفحشاء والمنكر والبغى ... ١٦٥
- تفسير قوله تعالى : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أنه يجب الوفاء بجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة فيما يوافق الدين . اختلف في سبب نزول هذه الآية . الكلام على حلف الفضول . النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها . وما معنى التوكيد ... ١٦٩
- تفسير قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ... » الآية . المقصود من الآية النهى عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم ... ١٧١
- تفسير قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ... » الآية . النهى عن عقد الأيمان بالأنطواء على الخديعة والفساد ... ١٧٢
- تفسير قوله تعالى : « ولا تشتروا بعهدهم الله ثمنا قليلا ... » الآيات التحذير عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد ... ١٧٣
- تفسير قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ... » الآية . ذكر أقوال العلماء في معنى الحياة الطيبة ... ١٧٤
- تفسير قوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... » الآية . بيان أن الاستعاذة تكون قبل قراءة القرآن لا بعده ... ١٧٤

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ... » الآيات . بيان أن  
 ١٧٥ الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين ، إنما سلطانه على الكافرين ...  
 تفسير قوله تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ... » الآيات .  
 ١٧٦ الكلام على أن الله تعالى شرع الأحكام وتبديل البعض ببعض ...  
 تفسير قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... » الآيات . بيان  
 دعوى المشركين أن النبي صلوات الله عليه إنما يُعلمه بشر ، اختلاف العلماء  
 في اسمه . الكلام على المعجزة ...  
 ١٧٧ تفسير قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ... » الآية . فيه إحدى وعشرون  
 مسألة : بيان أن من ارتد بعد إيمانه فعليه غضب . من هم المرتدون . الكلام  
 على من أكرهه المشركون على الكفر . سمح الله تعالى بالكفر به عند الإكراه .  
 حكم من أكرهه على الكفر حتى خشي على نفسه القتل . بيان أن الرخصة  
 إذا جاءت في القول دون الفعل . إجماع العلماء على أن من أكرهه على قتل غيره  
 أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمة يجلد أو غيره . اختلافهم  
 في الإكراه على الزنى . الكلام على طلاق المكره وعتاقه وبيعه ونكاحه . هل  
 تحدد المرأة إذا استكرهت على الزنى . اختلافهم في وجوب الصداق للمستكرهة .  
 إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لا يحمل أسلمها ولم يقتل نفسه دونها .  
 الكلام على يمين المكره . إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجري على لسانه  
 إلا بجرى المعارض . أجمع العلماء على أن من أكرهه على الكفر فاختر القتل  
 إنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة ، واختلفوا فيمن أكرهه على غير القتل  
 من فعل ما لا يحمل له . واختلفوا أيضاً في حد الإكراه ...  
 ١٨٠ تفسير قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ... » الآية ...  
 ١٩٢ تفسير قوله تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ... » الآية . الكلام على  
 محاسبة الروح للجسد يوم القيامة ...  
 ١٩٣ تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ... » الآية . بيان أن  
 هذه الآية متصلة بذكر المشركين في الآيات السابقة ، وهي ضرب مثل لم



- صفحة  
١٩٥ ... تفسير قوله تعالى : فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ... « الآيات ... »
- تفسير قوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب ... » الآيات . فيه مستثنان : الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كانت ميتة . التحليل والتجريم إنما هو لله عز وجل ... ١٩٥
- تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ... » الآية . بين الله تعالى أن الأنعام والحلّ لهذه الأمة أما اليهود فحرم عليهم منها أشياء . ١٩٧
- تفسير قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ... » الآيات . بيان أن الرسول عليه السلام دعا مشركي العرب إلى ملة إبراهيم ... ١٩٧
- تفسير قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن أتبع ملة إبراهيم حنيفا ... » أمر الله نبيه عليه السلام باتباع ملة إبراهيم في عقائد الشرع دون الفرع . جواز اتباع الأفضل للأفضول ... ١٩٨
- تفسير قوله تعالى : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ... » جعل السبت تعليقا على اليهود في رفض الأعمال بسبب اختلافهم في تعظيم يوم الجمعة ، كيفية ما وقع لهم من الاختلاف . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذّر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود ... ١٩٩
- تفسير قوله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... » الكلام على أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمر النبي عليه السلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتأطّف ولين ... ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى : « وإن عاقبتهم فاعقبوا بمثل ما عاقبتهم به ... » الآية . فيه أربع مسائل : الآية نزلت في شأن التمثيل بمحنة عم النبي عليه السلام يوم أحد . وقيل نزلت فيمن أصيب بظلامه الأيتال من ظالمه إذا تمكن الإمثال لظلامته لا يمتدّاه إلى غيره . اخاف فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم اتّجنّ الظالم المظلوم على مال هل يجوز له خيانتة في القدر الذي ظلمه . جواز التماثل في القصاص ... ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله ... » الآيات ... ٢٠٢

## سورة الإسراء

منة

- تفسير قوله تعالى : « سبحانه الذي أمرى بعبده ليلا ... » الآية . فيه ثمان مسائل :
- الكلام على معنى « سبحانه » و « أسرى » . تشريف النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية . أقوال العلماء في حديث الإسراء . اختلافهم في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة ، وهل كان إسراء بالروح أو الجسد . معنى بركة المسجد الأقصى .
- بيان ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات ليسله مسرّاه ... ٢٠٤
- تفسير قوله تعالى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى ... » الآيات ... ٢١٢
- تفسير قوله تعالى : « فإذا جاء وعد أولاهما ... » الآيات . أقوال العلماء في الإفساد الذي وقع من بني إسرائيل وعقابهم عليه . ردّ الكثرة لبني إسرائيل على أعدائهم .
- قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام وما وقع بسبب القتل لبني إسرائيل ... ٢١٥
- تفسير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... » الآيات . بيان أن القرآن يهدي لأقوم الطرق وهو الإيمان والتوحيد ... ٢٢٤
- تفسير قوله تعالى : « ويدع الإنسان بالشردعاه بالخبر ... » الآية . النص دعاء الرجل على نفسه وولده . بيان أن طبع الإنسان العجلة ، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل دعاءه على من لا يستحق من المؤمنين رحمة وكفارة له ... ٢٢٥
- تفسير قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ... » الآية . جعل الله الليل والنهار علامتين على وحدانيته وكمال قدرته . الكلام على الآيتين ، وعلى نحو آية الليل .
- الحكمة في جعل آية النهار مبصرة ... ٢٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ... » الآيات . أقوال العلماء في معنى طائر الإنسان ... ٢٢٩
- تفسير قوله تعالى : « من اعتدى فلما يهتدى لنفسه ... » الآية . بيان أن كل مكلف ملزم بعمله ، ولا تؤخذ نفس بإثم أخرى . أقوال العلماء في أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . الكلام على قوله : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » هل هذا في حكم الدنيا وإن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الإنذار ، أو هو عام في الدنيا والآخرة . الدليل على أن الأحكام لا تنبت إلا بالشرع ... ٢٣٠

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن الذنوب سبب في هلاك الأمم ، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تغيب كانت سببا في هلاك الجميع . معنى « أمرنا » ... ٢٣٢
- تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة ... » الآيات . الكلام على صفة المنافق الذي يلبس الإسلام والطاعة لينال عاجل الدنيا . بيان أن من عمل للأخرة وأخلص في عمله قبل منه ... ٢٣٥
- تفسير قوله تعالى : « كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ... » الآيات . بيان أن الله تعالى يرزق المؤمنين والكافرين ... ١٣٦
- تفسير قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ... » الآيات . فيه ست عشرة مسألة . بيان أن القضاء يستعمل في اللغة على وجوه . جعل الله تعالى بر الوالدين مقرونا بعبادته وتوحيده ، وأن من البر بهما ألا يتعرض الإنسان لسيهما ولا يعقهما . بيان أن عقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائزة لهما . قول العلماء في أن للام ثلاثة أرباع البر وللاب الربع . لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين . النهى عن الخروج للجهاد بغير إذن الأبوين إذا لم يتعين الجهاد . اختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية . من تمام بر الوالدين صلة أهل وذهما . ألزم الله مراعاة أحوالهما في حالة الكبر أكثر مما ألزمه من قبل ، وألا يقل لهما ما يكون فيه أدنى تبهر وأن يعمل نفسه مع أبويه في خير ذلة . ما في قوله : « أفت » من اللغات . الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . الكلام على الترحم والاستغفار للأبوين ... ٢٣٦
- تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بما في نفوسكم ... » الآية ... ٢٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين ... » الآيات . الأمر بزيادة ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل . النهى عن التبذير في الأموال . بيان حد التبذير ... ٢٤٧
- تفسير قوله تعالى : « وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ... » الآية ... ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ... » الآية . فيه أربع مسائل : بيان أن هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله .

صفحة

- النهى عن الإفراط في الإنفاق . بيان أن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ،  
 ٢٤٩ ... عليه الله كيفية الإنفاق وأمره بالاعتصام ...  
 تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .. » الآية . الكلام على معنى  
 ٢٥٣ ... الإملاق والخسطة ...  
 تفسير قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنى ... » الآية . تحريم الزنى وأنه من الكبائر  
 تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ... » الآيات . بيان  
 أنه تعالى قد جعل لولي المقتول ظلمًا سلطانًا . اختلف العلماء في الولي وفي معنى  
 ٢٥٤ ... سلطانًا . في قوله : « فلا يسرف في القتل » ثلاثة أقوال ...  
 تفسير قوله تعالى : « وأوفوا البكيل إذا كُتِّم ... » الآية . الأمر بإيفاء البكيل والعدل  
 ٢٥٦ ... في الميزان . بيان أن هذه الآية تقتضي أن البكيل على البائع ...  
 تفسير قوله تعالى : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ... » الآية . فيه ست مسائل :  
 النهى عن قول الزور والقدح وما أشبه ذلك . بيان أن هذه الآية تضمنت  
 الحكم بالقافة . أسامة بن زيد والقدح في نسبه وحكم مجزئ القائف فيه . استدلال  
 جمهور العلماء بمرور النبي صلى الله عليه وسلم بقول مجزئ على الرجوع إلى القافة  
 عند التنازع في الولد . اختلف الآخذون بأقوال القافة ؛ هل يؤخذ بذلك في أولاد  
 الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء . وهل يكفي بقول واحد من القافة  
 أولاد من اثنين لأنها شهادة . بيان أن الله سبحانه يسأل كل عضو من أعضاء  
 الإنسان عما اكتسب . وقيل : يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ...  
 ٢٥٧ ...  
 تفسير قوله تعالى : « ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحًا ... » الآيات . فيه خمس مسائل :  
 بيان أن الله تعالى نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . إقبال الإنسان على الصيد  
 ونحوه ترفعًا دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية . المراد بخروج الأرض  
 ٢٦٠ ... تَفْعُها لا قطعها بالمسافة . استدلال العلماء بهذه الآية على دَم الرقص وتماطيه ...  
 تفسير قوله تعالى : « ذلك مما أَوْحَى إليك ربك ... » الآية . بيان أن الإشارة  
 إلى هذه الآداب والقصاص والأحكام التي تضمنتها الآيات المتقدمة . الخطاب  
 للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر ...  
 ٢٦٤ ...

- تفسير قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبين ... » الآية . الرد على الفانين بأن  
الملائكة بنات الله ... ٢٦٤
- تفسير قوله تعالى : « ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدّركوا ... » الآية . لم يجعل الله  
القرآن نوعا واحدا ، بل وعدا ووعدا وحكما ومتشابهها ونها وأمرنا ونهنا ومنسوخا  
وأخبارا وأمثالا ... ٢٦٤
- تفسير قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ... » الآيات . الرد على عبّاد  
الأصنام في اعتقادهم أن الأصنام تقربهم الى الله زلتى ... ٢٦٥
- تفسير قوله تعالى : « تسبيح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ... » الآية .  
كل شيء من الجسد وغيره يسبح لله . اختلف في هذا التسبيح هل هو تسبيح  
الدلالة أو تسبيح الحقيقة . الكلام على غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور . ٢٦٦
- تفسير قوله تعالى : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك ... » الآيات . بيان أن الآية  
نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن ،  
فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن وكانوا يعمرون به ولا يرونه ٢٦٩
- تفسير قوله تعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به ... » الآية . ادعاء المشركين أن  
النبي صلى الله عليه وسلم ساحر ومجنون ... ٢٧٢
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا أن هذا كاذب عظاما ورُفاتا ... » الآية . بحسد المشركين  
للبعث وإنكاره ... ٢٧٣
- تفسير قوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدا ... » الآيات . الرد على المشركين  
في إنكارهم البعث . معنى النّقص . الدعاء إلى المحشر ونحروج أهل القبور . ٢٧٤
- تفسير قوله تعالى : « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ... » الآية . اختلاف  
العلماء في سبب نزول الآية . بيان نزغ الشيطان وإغوائه الإنسان ... ٢٧٦
- تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بكم إن يشاء يرحمكم ... » الآيات . اختلف في هذا  
الخطاب هل هو للمشركين أو للمؤمنين . محاجة اليهود في إنكارهم القرآن . الزبور  
كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ، بل مجرد تهديد ودعاء ... ٢٧٨
- تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ... » الآية . بيان  
أن من عبدهم المشركون يطالبون من الله القربى ويتضرعون إليه في طلب الجنة ٢٧٩



صفحة

- ٢٨٠ تفسير قوله تعالى : « وإن من قرية إلا نحن مُهلِكوها ... » الآية . إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم ...
- ٢٨٠ تفسير قوله تعالى : « وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... » الآية . الحكمة في عدم إجابة المشركين إلى ما اقترحوه من الآيات . وما هي « الآيات » ...
- ٢٨١ تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... » الآية . معنى هذه الإحاطة . أقوال العلماء في الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فتنسة للناس . الكلام على الشجرة الملعونة . بيان خبر ابن إسحاق عن مسرى الرسول صلوات الله عليه ...
- ٢٨٦ تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة استجدوا لآدم ... » الآيات . قصة إبليس حين عصى وأبى السجود . وعبد إبليس ومن تبعه ...
- ٢٨٨ تفسير قوله تعالى : « وَأَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْتَفْزِزُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الأمر أمر تعجيز وأن المراد بصوت إبليس كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى . معنى استفزازه للعباد ومشاركته في الأموال والأولاد . الدليل على تحريم المزامير والغناء واللهو ...
- ٢٩٠ تفسير قوله تعالى : « رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ ... » الآية . بيان أن الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ...
- ٢٩١ تفسير قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ... » الآية . بيان أن الآية تحقير لمن يدعى إلها من دون الله ...
- ٢٩١ تفسير قوله تعالى : « أَفَأَمْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ ... » الآيات . بيان معنى الخسف والحاصب والقاصف ...
- ٢٩٣ تفسير قوله تعالى : « ولقد كرمتنا بني آدم ... » الآية . ذكر ما آمنت الله تعالى به على بني آدم . تفضيل الملازمة على الإنس والجن . الكلام على تناول الطيبات من الرزق ...
- ٢٩٦ تفسير قوله تعالى : « يوم ندعوا كلُّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ... » الآية . المعنى المراد من إمام كل أمة ...

- صفحة
- تفسير قوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ... » ... ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ... » الآية ... ٢٩٩
- تفسير قوله تعالى : « وأولاً أن تبذل لك لقسد كبرت ترسكن إليهم ... » بيان أن هذا تعريف للأمة لإلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الدين .
- الكلام على أنه كلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم ... ٣٠٠
- تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا ليلسفنوك من الأرض ... » الآية . بيان أن الآية نزلت في أهل مكة لما هموا بإخراج الرسول عليه السلام من المدينة ... ٣٠١
- تفسير قوله تعالى : « أقم الصلاة لذالك الشمس ... » الآية فيه سبع مسائل :  
أمر الله نبيه عليه السلام بالصبر والحفاظ على الصلاة ، وأن هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة . معنى الذلوك ومعنى الفسق . اختلاف في آخر وقت المغرب . المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح . اختلاف العلماء في القراءة في الصلاة . فضل التكبير بصلاة الصبح ... ٣٠٢
- تفسير قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به ذاك لئلا لك ... » الآية . فيه ست مسائل  
معنى التهجد . تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته . اختلافهم في المقام المحمود . الكلام على شفاعات النبي عليه السلام . القول في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود ... ٣٠٧
- تفسير قوله تعالى : « وقال رب أدخلني مدخل صدق ... » الآية . معنى الإدخال والإخراج في هذه الآية ... ٣١٢
- تفسير قوله تعالى : « وقال جاء الحق وزهق الباطل ... » فيه ثلاث مسائل :  
بيان أنه كان حول الكعبة ثمانمائة وستون صنماً وقد كسرها النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة عام الفتح . في الآية دليل على كسر نصب المشركين وكسر آله الباطل وما لا يصالح إلا لمعصية الله تعالى ، كالطغايير والعبدان والمزمار ... ٣١٣
- تفسير قوله تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ... » الآية . فيه سبع مسائل : القول في كون القرآن شفاء . ما جاء في التداوى بالقرآن . اختلاف العلماء في النشرة ، وهي أن تكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم تغسله بالماء

صفحة

- .. وتمسح به المريض أو تسقيه . تعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها . ما جعله الله تعالى من الرحمة في القرآن وفضل تلاوته . ٣١٥
- تفسير قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ... » الآية ... ٣٢١
- تفسير قوله تعالى : « قل كُلِّ يعمل على شاكلته ... » الآية . الكلام على أن كل واحد يعمل على ما يشاء كل أصله وأخلاقه التي ألفها ... ٣٢١
- تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ... » الآية سؤال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ، الاختلاف فيه . معنى قوله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ٣٢٣
- تفسير قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ... » الآيات . بيان أن أول ما يفقد من أمر الدين الأمانة ، وآخر ما يفقد الصلاة ، وأن القرآن يسرى في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب وتصبح الناس كالبهائم . ٣٢٥
- تفسير قوله تعالى : « قل إئن آجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ... » الآية . الرد على الكفار في قولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ... ٣٢٦
- تفسير قوله تعالى : « ولقد صرفنا في هذا القرآن ... » الآية . بيان أن الله تعالى وجه القول في القرآن بكل مثل يجب به الاعتبار من الآيات والعبر والأوامر والنواهي وأقاصيص الأوثان ، وقد تبين الحق للمشركين فأبوا إلا الكفر ... ٣٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن مؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت في رؤساء قريش وبيان ما اقترحوه على النبي عليه السلام ... ٣٢٧
- تفسير قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ... » الآيات . الكلام على معاندة المشركين وقولهم : إن الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . بيان الحكمة في عدم إرسال الملائكة رسلا ... ٣٣٢
- تفسير قوله تعالى : « من يهد الله فهو المهتدى » الآيات . الكلام على حشر الكفار يوم القيامة ، والرد عليهم في إنكارهم البعث ... ٣٣٣
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... » الآيات . اختلاف العلماء في تعيين التسع آيات التي أوتيتها موسى عليه السلام . قصة موسى مع فرعون . الكلام على معنى « مذبورا » ... ٣٣٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وقرآنًا فرقناه لئقرأه على الناس على مكث ... » الآية . اختلاف العلماء في المدة التي نزل فيها القرآن . واختلافهم في معنى « مكث » ... ٣٣٩
- تفسير قوله تعالى : « قل آمنوا به أولا تؤمنوا ... » الآية . قول العلماء في المعنى المراد من قوله : « إن الذين أوتوا العلم من قبله ... » ... ٣٤٠
- تفسير قوله تعالى : « ويقولون سبحان ربنا ... » في الآية دليل على جواز التسبيح في السجود ... ٣٤١
- تفسير قوله تعالى : « ويخرون للأذقان يبكون ... » الآية . فيه أربع مسائل : شأن العالم أن يخشع عند استماع القرآن ويخضع له . جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى أو على معصيته في دين الله . اختلف في الأئين في الصلاة . ٣٤٢
- تفسير قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ... » الآية . سبب نزول هذه الآية . معنى قوله : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » . المراد بالصلاة هنا القراءة .. ٣٤٣
- تفسير قوله تعالى : « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ... » الآية . الرد على اليهود والنصارى والعرب في قولهم : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه . بيان فضل هذه الآية وأنها خاتمة التوراة ... ٣٤٤

### سورة الكهف

- الكلام على فضائل سورة الكهف ... ٣٤٦
- تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ... » الآيات . خبر قريش وأخبار اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وسؤاله عن حديث الفتية ، وعن نهار رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ما هي . قوله عليه السلام لهم « أخبركم غدا » ولم يقل إن شاء الله ، وتأخر الوحي عنه ... ٣٤٦
- تفسير قوله تعالى : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ... » الآيات . بيان أن اليهود والنصارى وقريشا نسبوا لله ما ليس لهم به من علم ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن على من كفر ... ٣٥٣

- تفسير قوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ... » الآيات . فيه مسألتان :  
بيان ما جملة الله تعالى على الأرض من الزينة : وأقوال العلماء في الزينة  
المراد . جعل الله الدنيا مستطابة في ذوقها ، وابتلى الله بها عباده لينظر أيهم  
أحسن عملا . بيان أن حسن العمل أخذ بحق وإنفاق في حق مع الإيمان  
وإداء الفرائض واجتناب المحارم . أقوال العلماء في الزهد ... ٣٥٣
- تفسير قوله تعالى : « أم حَسِبْتَ أَنْ أَتَحْبَبَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمَ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ... »  
الآية خطاب للنبي عليه السلام ، وبيان أن ما عظمه عليك السائلون من الكفرة  
عن الفتن وعن ذى القرنين وعن الروح ليس بأعجب من آيات الله ، بل خلق  
السموات والأرض ، أو شأنك في الإسماء أعجب من خبرهم . معنى الكهف والرقيم . ٣٥٦
- تفسير قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ... » الآيات . حديث الفتية  
وفي أي زمن كانوا . بيان أن الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل  
والأوطان والأموال خوف الفتنة . الكلام على العزلة . إلقاء النوم على الفتية  
وبعثهم . الاختلاف في الخبرين . بيان أنهم كانوا شبابا وأحداثا حكم لهم بالفتوة  
حين آمنوا بلا وساطة . قول أهل الامة في الفتوة ... ٣٥٨
- تفسير قوله تعالى : « وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ... » الآية . إيمان الفتية بالله تعالى ،  
ومواجههم به من عزم وقوة صبر . بيان أن الصوفية تعلقت في أفعالها بهذه الآية  
والرد عليهم . تشديد الفتية بأهل عصرهم في عبادتهم الأصنام تقليدا من  
غير حجة ... ٣٦٥
- تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَاهُمُ الْوَيْلَ وَمَا يُعِيدُونَ إِلَّا اللَّهَ ... » الآية ... ٣٦٧
- تفسير قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ... » الآيات .  
بيان أن الله تعالى حفظ أصحاب الكهف عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان  
بهم ، والتأذى بجزأ أو برد . قلبهم ذات اليقين وذات الشمال لئلا تأكل الأرض  
لحمهم . الكلام على كلهم والاختلاف في اسمه ، وهل كان كلبا حقيقة أم أدهم .  
افتناء الكلاب والقول فيه . من أحب أهل الخير نال من بركتهم . معنى الوصيد .  
بيان أنه لا يمسر أحد على الدق من أصحاب الكهف ... ٣٦٨



- تفسير قوله تعالى : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى أبْقَط أصحاب الكهف من نومهم على ما كانوا عليه من حياتهم في حياتهم وأحوالهم . بَعَث أصحاب الكهف أحدهم لِيَأْتِيَهُم بالطعام . في هذه البعثة دليل على الوكالة وصحتها ، وهي جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه ، بيان أن الآية تضمنت جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم ، جواز أكل الرفقاء وخطبهم طعامهم معاً . ٣٧٤
- تفسير قوله تعالى : « وكذلك أَعَزَّنَا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ... » الآية . اختلاف أهل بلدة الفتية في الحشر وبعث الأجساد من القبور . بيان أن إيقاظهم كان دليلاً على أن القيامة حق والبعث حق . الكلام على أنهم لما ماتوا ميتة الحق اختلف فيما بيني عليهم ليكون معلماً لهم . النسي عن اتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها . القول في تخصيص القبور والكتابة عليها وارتفاعها والنهي عنه . الكلام على الدفن في التابوت والمُخَد ... ٣٧٨
- تفسير قوله تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ... » الآية . الكلام على عدة أصحاب الكهف والاختلاف فيه . كلام النحويين على واو العطف هنا . في الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم ... ٣٨٢
- تفسير قوله تعالى : « ولا نقول شيء إلى فاعل ذلك غدا ... » الآيات . معاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على قوله للكفار : غدا أخبركم ، ولم يقل إن شاء الله . الكلام على الاستثناء في هذه الآية . اختلاف في الذكر المأمور به ... ٣٨٤
- تفسير قوله تعالى : « ولبنوا في كهفهم ثلاثمائة سنين ... » الآيات . بيان مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم . هل ماتوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ... ٣٨٦
- تفسير قوله تعالى : « وآل ما أوحى إليك ... » الآية . تمام قصة أصحاب الكهف . ٣٨٩
- تفسير قوله تعالى : « وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... » الآية . ما افترحه بعض المؤلفة قلوبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من إبعاد قراء المسلمين من مجلسه وتقريب صناديد أهل مكة . نهي عن إطاعتهم ... ٣٩٠
- تفسير قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ... » الآية . بيان أن هذا ليس بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد لمن غفل قلبه عن ذكر الله . بيان ما أعدّه الله للظالمين من العذاب والهوان . معنى السرداق ٣٩٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع ... » الآيات ... ٣٩٥
- بيان ما أعدّه الله للمؤمنين من النعيم والثواب . والكلام على ابس أهل الجنة ... ٣٩٥
- تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجُلَيْنِ ... » الآيات . بيان أن هذا مثلاً لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف من مجالسة المؤمنين . الاختلاف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما . قصة الرجلين وما كان من شأنهما . كلام النحاة في لفظ كلنا وكلّا . ٣٩٨
- تفسير قوله تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ... » الآيات . بيان أن هذا توبيخ ووصية من الأخ المؤمن للكافر ورد عليه . بيان أنه ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . فضل . لاحول ولا قوة إلا بالله . . الكلام على المعنى اللغوي لمفردات هذه الآيات ... ٤٠٦
- تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... » الآية . بيان أن الله تعالى شبه حالة الدنيا بالماء الذي يتزل من السماء فلا يستقر في موضع ... ٤١٢
- تفسير قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ... » بيان أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمز ولا يبقى . الكلام على معنى . « الباقيات الصالحات » ... ٤١٣
- تفسير قوله تعالى : « ويوم نسير الجبال ... » الآية ... ٤١٦
- تفسير قوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفّا ... » الآية . بيان أن هذا خطاب لمنكرى البعث . كيفية العرض يوم القيامة ... ٤١٧
- تفسير قوله تعالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين ... » الآية . الكلام على الآخرة . ٤١٨
- تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا ... » الآية . توبيخ الكفرة على اتخاذهم إبليس وذريته أولياء . الكلام على ذريته . بيان أسمائهم وأعمالهم ... ٤١٩

# بسم الله الرحمن الرحيم

## تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : **الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** (١)  
تقدم معناه . و « الكتاب » قيل فيه : لانه اسم لجنس الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل ، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن ، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : **رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** (٢)  
« رُبَّ » لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها « ما » هيأتها الدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد ، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون « ما » نكرة بمعنى شيء ، و « يودُّ » صفة له ؛ أي رب شيء يودُّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « رُبَّمَا » مخفف الباء . الباقون مشددة ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل المجاز يخففون ربما ؛ قال الشاعر :

رُبَّمَا ضربة بسيف صقيل \* بين بُصْرَى وطعنَةٍ نجلاء (٣)

وتميم وقيس وربعة يشقلونها . وحكى فيها : رُبَّمَا ورُبَّمَا ، ورُبَّمَا ورُبَّمَا ، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً (٣) . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير ؛ أي يودُّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

(١) راجع ج ٨ ص ٣٠٤ (٢) البيت لهدى بن الرعلاء الغساني . وبصري : بلدة قرب الشام ، هي كرمي حوران ، كان يقوم فيها سوق للجاهلية . قال صاحب خزائن الأدب : « ... وإنما صح إضامة بين إلى بصري لاشتغالها على منعقد من الأكنة ؛ أي بين أماكن بصري ونواحيها . وروى الشريف الحسيني في حماسه : « دون بصري » ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العيني : بمعنى عند » . راجع الخزائن في الشاهد التاسع والنسعين بعد السبعائة . (٣) قال ابن هشام في المغني : « وفي رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التانيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

ألا ربما أهدت لك العينُ نظرةً • قصاراك منها أنها عنك لا تُجدي<sup>(١)</sup>  
وقال بعضهم : هي للتقليل في هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع  
لا في كلها ؛ لشغلهم بالعذاب ، والله أعلم . وقال : « رَبِّمَا يُوَدُّ » وهي إنما تكون لما وقع ؛  
لأنه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان . ونرجح الطبراني أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون  
في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يديرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من  
تصديقكم وإيمانكم فنعكم فلا يبقى موحد إلا أنخرجه الله من النار — ثم قرأ رسول الله صلى  
الله عليه وسلم — رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ " . قال الحسن : إذا رأى  
المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة وما رأوهم في النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين . وقال  
الضحاک : هذا التني إنما هو عند المعاينة في الدنيا حين تبين لهم الهدى من الضلالة .  
وقيل : في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذلل الكافرين .

قوله تعالى : ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ( ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ) تهديد لهم . ( وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ )  
أي يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أي شغله . ويطي هو عن الشيء يلهي .  
( فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهذه الآية منسوخة  
بالسيف .

الثانية — في مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة  
من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " . وطول الأمل داء  
(١) أي لا تنفي ؛ يقال : ما يجدي عنك هذا ؛ أي ما ينفي . وفي بعض نسخ الأصل : لا يجزي ؛ بالزاي ،  
وهي بمعنى لا تنفي .

عضال ومرض مزمن ، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ، ولم يفارقه داء ولا ينفع فيه دواء ، بل أعياء الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانتجاب عليها ، والحب لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل “ . وروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يا أهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ؟ إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا ويننون مشيدا ويأملون بعيدا ، فاصبح جمعهم بورا وبئساتهم قبورا وأملهم غرورا . هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا ، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد :

إذا المؤمل آمالا وإن بعدت \* منه ويزعم أن يحظى بأفصاها  
أنى تفوز بما ترجوه وبك وما \* أصبحت في ثقة من نيل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتفاسد ، ويخذل إلى الأرض ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطلب صاحبه ببرهان ؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويحيل على المبادرة ، ويحث على المسابقة .

قوله تعالى : وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١٠﴾  
أى أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿١١﴾

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءنى من أحد . أى لا تتجاوز أجلها فتزید عليه ، ولا تتقدم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » .

(١) فى : يروى .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٠١ .



قوله تعالى : وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾  
لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾

قوله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و ﴿ لَوْ مَا ﴾ تخضيض على الفعل كالولا وهلا . وقال القراء : الميم في « لوما » بدل من اللام في لولا . ومثله استولى على الشيء واستوى عليه ، ومثله خالته وخلته ، فهو خالي وخلي ؛ أى صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مقبل : لوما الحياء ، ولوما الدين عبسكا . ببعض ما فيكما إذ عبثا عورى يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :  
تعدون عقر النيب أفضل مجديكم • بجي ضوطرى لولا الكمي المغنعا<sup>(١)</sup>  
أى هلا تعدون الكمي المغنعا .

قوله تعالى : مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾  
قرأ حفص وحزمة والكسائي ﴿ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ » . الباقر « مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ » وتقديره : ما نزل بآيتين حذف إحداهما تخفيفا ، وقد شدد التاء البزى ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ » . ومعنى « إِلَّا بِالْحَقِّ » إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة ؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ أى لو نزلت الملائكة بهلا كههم لما أهملوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو نزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

(١) البيت بمرير يهجو الفرزدق . والمعر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب (بكر التون) : جمع ناب ، ومعى الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللثيم الذى لا يخاف عنده ؛ وهى كلمة ذم وسب . والكى : الشجاع المتكى في سلاحه ؛ لأنه كى نفسه أى شقها بالدرع والبيضة . والمغنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) راجع ج ٢٠ ص ١٢٢ .

بعد ذلك لم ينظروا . وأصل « إِذَا » إِذْ أَنْ — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن ، واستنقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ** ﴾ يعني القرآن . ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ من أن يزداد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البناني : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو تنقص منه حقاً ؛ فنول سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً ، وقال في غيره : « **يَا أَسْتَحْفِظُوا** » ، فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكومي التلمساني قال : قرئ على الشيخة العالمة نغر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرخ الدينوري - وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسمين وأربعائة ، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد ابن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح المعروف بالطوماري - حدثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكرم يقول : كان للأموي - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما أن تقوَّض المجلس دعاه المؤمن فقال له : إسرائيل ! قال نعم . قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعدته . فقال ، ديني ودين آبائي ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً ، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوَّض المجلس دعاه المؤمن وقال : ألسنت صاحبتنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت [مع ما] <sup>(٤)</sup> تراتي حسن

(١) راجع ج ٦ ص ١٨٨ (٢) في : الصالحة . (٣) في و : أبي بكر . (٤) من ي .

الخط ، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشترت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشترت مني وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الرزاقين فنصفحوها ، فلما أن أوجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . قال يحيى بن أكرم : فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « يَا آسُفُظُوا مِنِّي يَا إِلَهَ » ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضيع . وقيل : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقول علينا أو نتقول عليه . أو « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » . و « نَحْنُ » يحسب أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نَزَّلْنَا » الخبر . والجملة خبر « إِنْ » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيد الاسم « إِنْ » في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجل تكون نعونا للتركات فحكمها حكم التركات .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤٢﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ، خذف . والشيع جمع شيعة وهي الأئمة ، أي في أمهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : في فرقهم . والشيع : الفرقة والطائفة من الناس المتألفة المتفقة الكلمة . فكان الشيع الفرق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْبَاسُكُمْ شَيْعًا » . وأصله مأخوذ من الشيع وهو الخطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم في « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشيع هنا القرى .

(١) راجع ج ٦ ص ٢٤٢ .

(٢) راجع ج ٧ ص ٩٠ .

قوله تعالى : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾

تسليه للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك يفعل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ <sup>ط</sup> وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكتاه في قلوب من تقدم من شيعة الأولين كذلك نسلكه في قلوب مشرك قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن من قبلهم برسلمهم . وروى ابن جريج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب . والنسلك : إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في الخيط . يقال : سلكته يسلكه سلوكا وسلوكا ، وأسلكه إسلاكا . وسلكت الطريق سلوكا وسلوكا وأسلكه دخلة ، والشيء في غيره مثله ، والشيء كذلك والرخ ، والخيط في الجوهر ؛ كله فَعَلَ وأَفْعَلَ . وقال عدي بن زيد :

(١) \* وقد سلكتوك في يوم عَصِيب \*

والسلك ( بالكسر ) الخيط . وفي الآية رد على القدرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القول الذى عليه أكثر أهل التفسير ، وهو أنهم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلك الذكر إلزاما للحجة ؛ ذكره الغزالي . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك . وقيل : « خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » بمنزلة ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم يقتدون بأولئك .

(١) هذا مجزأ البيت ، ومصدره كما في اللسان وشعراء النصرانية :

\* ركنك تراز شمسك لم أعرد \*

(٢) في الأصول : « وقرا » .

قوله تعالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾  
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقال : ظَلَّ يفعل كذا ، أى يفعله بالنهار . والمصدر الظَّلُول . أى لو أجيبوا إلى ما افترضوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعللوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه سحر . ( « يَعْرُجُونَ » ) من عَرَجَ يَعْرُجُ أى صَعِدَ . والمعارج المصاعد . أى لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير في « عَلَيْهِمْ » لاشركين ، وفي « فَظَلُّوا » للملائكة ، تذهب وتجيء . أى لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبواباً في السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقناة . ومعنى « سُكَّرَتْ » سَدَّتْ بالسجدة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحِرَتْ . الكلبي : أَغْشَيْتْ أَبْصَارَنَا ؛ وعنه أيضاً عَمِيَتْ . قناة : أَخَذَتْ . وقال المؤرَّج : دِيرَبْنَا ، من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جَوَّيِرَ : خُدعت . وقال أبو عمرو بن العلاء : « سكرت » غُشِيَتْ وَغُطِّيَتْ . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مَغْفَر \* وجعلت عين الحرور تَسْكُرُ

وقال مجاهد : « سُكَّرَتْ » حُبِسَتْ . ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليللة مساهرة <sup>(١)</sup> \* فليست بطلقي ولا سايكة

قلت : وهذه أقوال متتاربة يجهل قولك : منعت . قال ابن عريز : « سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا » سَدَّتْ أَبْصَارُنَا ؛ هو من قولك : سكرت النهر إذا سدته . ويقال : وهو من سُكَّرَ الشراب ، كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكر . وقرأ ابن كثير « سُكَّرَتْ » بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابي : سُكِّرَتْ مَلَتْ <sup>(٢)</sup> . قال المهدي : « والتخفيف والتشديد

(١) في اللسان مادة سكر : « جذلت » بالهم والذال المفتوحين ، ومعنى « جذل » انتصب وثبت لا يرح . ولبه ملقي : مشرق لا يرد فيها ولا حر ، ولا مطر ولا قز .

(٢) عبارة ابن الأعرابي كما في نسخ الأصل : « سكرت ملكت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا ، ولعله تكرير من النسخ مع تحريف .



في «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدي عن معناه . والمعروف أن «سكر» لا يتعدى . قال أبو علي : يجوز أن يكون شمع متعديا في البصر . ومن قرأ «سكرت» فإنه شبه ما عرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أخذت ، ذكرهما الماوردي . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سكرت» بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِرَتْ . وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال : سُكِرَتْ أبصارهم إذا غَشِيَهَا سُمَادِيرٌ حَتَّى لَا يَبْصُرُوا . وقال الفراء : من قرأ «سكرت» أخذته من سكور الريح . قال النحاس . وهذه الأقوال متاربة . والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى ، قال : هو من السكر في الشراب . وهذا قول حسن ؛ أى غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله . وسُكُورُ الريح سكونها وفترها : فهو يرجع إلى معنى التحجير .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدل بها على وحدانيته . والبروج : الفصول والمنازل . قال ابن عباس : أى جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر ، أى منازلها . وأسماء هذه البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والحصب والجندب . وقالوا : الفلك اثنا عشر برجاً ، كل برج ميلان ونصف . وأصل البروج الظهور ؛ ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدم هذا المعنى في النساء . وقال الحسن وقادة : البروج النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل : الكواكب العظام ؛ قاله أبو صالح ،

(١) البادير : ضعف البصر . وقيل : هو الذي يترأى الإنسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .

(٢) سكونها بعد الهبوب . (٣) راجع ج ٥ ص ٢٨٤ .

بمعنى السبعة السيارة <sup>(١)</sup> . وقال قوم : « بُرُوجًا » ؛ أى قصورا وبيوتا فيها الحرس ، خلقها الله فى السماء . فله أعلم . ( وَزَيْنَاهَا ) يعنى السماء ؛ كما قال فى سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصْرًا <sup>(٢)</sup> » . ( لِلنَّازِطِينَ ) للمتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم . والرجم الرى بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرده . وقد تقدم <sup>(٣)</sup> . وقال الكسائى : كل رجيم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشَّهْب . وقاله ابن عباس رضى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتنع باطل ، فإذا رأوا شيئا مما قالوه صدقوه فيما جاء به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهم السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِيَ بِشَهابٍ ؛ على ما يأتى <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع ، أى الخطفة البسيرة ، فهو استثناء منقطع . وقيل : هو متصل ، أى إلا من استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره ، إلا من استرق السمع فإنما لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي ، فاما الوحي فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله : « لَئِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ <sup>(٥)</sup> » . وإذا استمع الشياطين

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدي — : القمر ، عطارد : الزهرة ، الشمس ، المريخ ، المشتري ، زحل .

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢١٠ . (٣) راجع ج ٩ ص ٩١ . (٤) راجع ج ١٥ ص ٦٤ ، ج ١٩ ص ١٠ .

(٥) راجع ج ١٣ ص

إلى شيء ليس يوحى فإنهم يقدفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخيلهم ؛ ذكره الحسن وابن عباس .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾<sup>(٢)</sup> أتبعه : أدركه وحلقه . وشهاب : كوكب مضى . وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : « شِهَابٌ قَبَسٌ »<sup>(٣)</sup> بشعلة نار في رأس عود ؛ قاله ابن عريز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثر عَفْرِيَّة \* مسومٌ في سواد الليل مُنْقَضِب

وسمى الكوكب شهاباً لبريقه ، بشبه النار . وقيل : شهاب لشعلة من نار ، قبس لأهل الأرض فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو ، فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب ، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتسع باطل . فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان ، صدقوه بكل ما جاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعاً في سورة « سبأ »<sup>(٤)</sup> إن شاء الله تعالى .

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويحرق ويخيل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل ؛ فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يقتلون قبل إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ، ولذلك انقطعت الكهانة . والثاني — أنهم يقتلون بعد إلقاء السمع ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن ؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه ، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق ؛ ذكره الماوردي .

(١) الخليل (سكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) راجع ج ١٣ ص ١٥٦ . (٣) أى إرشيطان ، مسوم : مسم . ومنقضب : منقضى من مكانه . (٤) راجع ج ١٤ ص ٢٩٥ .

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتي بيانه في « الصافات » واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؟ فقال الأكثرون نعم . وقيل : لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة « الجن »<sup>(۱)</sup> إن شاء الله تعالى . وفي « الصافات » أيضا ، قال الزجاج : والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده ؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم ، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق والسيل . ولا يبعد أن يقال : انتفاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين ، ثم صار رجوما حين ولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انتفاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يرمون بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فانوا عبد ياليل بن عمرو الثقفي فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد اعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم لما رأوا في النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا وأنظروا فإن كانت النجوم التي تعرف فهي عند فناء الناس ، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث . فنظروا فإذا هي نجوم لا تعرف ، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا ۖ وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ۖ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ ۚ وَمَنْ لَكُمْ لَكُمْ بِرَزْقَيْنَ**

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا ﴾ هذا من نعمه أيضا ، وما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء ، كما قال : « وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »<sup>(۲)</sup> أى

(۱) راجع ج ۱۹ ص ۱۰ ، ص ۲۰۱ .

بسطها . وقال : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ <sup>(١)</sup> » . وهو يرد على من زعم أنها كالكرة .  
وقد تقدم <sup>(٢)</sup> . « وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » جبالا ثابتة لئلا تحرك باهلها . « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ » أى مقدر معلوم ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر . وإنما قال : « مَوْزُونٍ »  
لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّة \* عندى لِكُلِّ مَخَاصِمِ مِيزَانِهِ

وقال قتادة : موزون بمعنى مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . ويقال : هذا كلام موزون ؛ أى منظوم غير مشتر . فعلى هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا <sup>(٣)</sup> » . والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد . وقيل : « أَنْبَتْنَا فِيهَا » أى فى الجبال « مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ » من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والفضة والفضة ، حتى الزرنيخ والكحل ، كل ذلك يوزن وزنا . روى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار ما يكال ويوزن . وقيل : ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ »  
يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها ؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :  
تكالفى مَعِيشَةَ آلِ زَيْدٍ وَمَنْ لِي بِالْمَرْقُوقِ وَالصَّنَابِ <sup>(٤)</sup>

والأصل مَعِيشَةٌ عَلَى مَفْعَلَةٍ (بتحريك الياء) . وقد تقدم فى الأعراف <sup>(٥)</sup> . وقيل : إنما الملايس ؛  
قاله الحسن . وقيل : إنما التصرف فى أسباب الرزق مدّة الحياة . قال الماوردى :  
وهو الظاهر . « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ » يريد الدواب والأنعام ؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم  
العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ <sup>(٦)</sup> » . ولفظ « مَنْ » يجوز أن يتناول  
العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل ، غلب من يعقل . أى

(١) راجع ج ١٧ ص ٥٢ . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٨٠ .

(٣) راجع ج ٤ ص ٦٩ . (٤) الرقاق الأرغفة الرقيقة الواسعة المخروطة المضروب : الرطب يؤتد به .

(٥) راجع ج ٧ ص ١٦٧ . (٦) راجع ج ١٠ ص ٢٥٢ .



جعلنا لكم فيها معاش وعبيدا وائمة ودواب واولاداً نرزقهم ولا نرزقونهم . فـ « من » على هذا التأويل في موضع نصب ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور « وَمَنْ لَسْتُ لَهُ بِرَازِقِينَ » قال : الوحش . فـ « من » على هذا تكون لما لا يعقل ، مثل « فَنَهُم مَّنْ يَمِشِي عَلَى بَطْنِهِ <sup>(١)</sup> » الآية . وهى في محل خفض عطفا على الكاف والميم في قوله : « لَكُمْ » . وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمرة إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثل مررت به وبزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا في الشعر . كما قال :

فاليوم قزبت تهجونا وتشتبنا • فاذهب فباك والأيام من عجب

وقد مضى هذا المعنى في « البقرة <sup>(١)</sup> » وسورة « النساء <sup>(٢)</sup> » .

قوله تعالى : وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزَانَةٌ وَمَا نُنَزِّلُ

إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ( وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزَانَةٌ ) أى وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ؛ يعنى المطر المتزل من السماء ، لأن به نبات كل شيء . قال الحسن : المطر خزائن كل شيء . وقيل : الخزائن المفاتيح ، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبي . والمعنى واحد . ( وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ » . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عتيبة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيمطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان المطر في البهار والقفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستتر فيه الإنسان ماله . والخزانة أيضا مصدر تخزن يخزن . وما كان فى خزانة الإنسان كان معدا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

(٢) راجع ج ١ ص ٣٠٠ .

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٩١ .

(٤) راجع ج ١٦ ص ٢٧ .

(٣) راجع ج ٥ ص ٣ فابعد .

فكانه مُعَدَّ عنده؛ قاله القشيري. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مِنَ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ». والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ<sup>(١)</sup>» وقوله: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ<sup>(٢)</sup>». وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ<sup>(٣)</sup>» فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ» قراءة العامة «الرِّيَّاحَ» بالجمع. وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضاً وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرض سباسب<sup>(٤)</sup> وثوب أخلاق. وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسع. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ (لَوَاقِحَ) وهي جمع. ومعنى «لَوَاقِحَ» حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاحقاً لأنها تحمل السحاب؛ أي تَقْلَهُ وتصرفه ثم تَمْرِيهِ فتَسْتِدْرَهُ، أي تنزله؛ قال الله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا نِقَالًا<sup>(٥)</sup>» أي حملت. وناقاة لاحق ونُوق لوائح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لوائح بمعنى مُلقحة وهو الأصل، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لاحق، كأن الرياح لقيحت بخير. وقيل: ذوات لفتح، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يُلْقَحُ الشجر؛ كقولهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضاء، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لقيحت الناقة (بالكسر) لقحاً ولقاحاً (بالفتح) فهي لاحق. والقحها الفعل أي أتى إليها

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٣٤.

(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٦٠.

(٣) السبب: الأرض المستوية البعيدة.

(٤) مرث الريح السحاب: إذا أنزلت منه المطر.

(٥) راجع ج ٧ ص ٢٢٨.

الماء فحملته ، فالرياح كالفعل للسحاب . قال الجوهري : ورياح لوائغ ولا يقال مَلاغ ، وهو من النوادر . وحكى المهدوي عن أبي عبيدة : لوائغ بمعنى مَلاغ ، ذهب إلى أنه جمع مُنْفِحة ومُنْفِج ، ثم حذف زوائده . وقيل : هو جمع لائحة وللاغ ، على معنى ذات اللقاح على النسب . ويجوز أن يكون معنى لائغ حاملا . والعرب تقول للجنوب : لائغ وحامل ، وللشمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عمير : يرسل الله المباشرة فتقيم الأرض قمّا ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه ، ثم يبعث اللوائغ فتلقح الشجر . وقيل : الريح الملائع التي تحمل الندى فتنبه في السحاب ، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” الريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللوائغ التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس “ . وروى عنه عليه السلام أنه قال : ” ما هبت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غدقة “ . وقال أبو بكر بن عياش : لا تنقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ؛ فالصبا تهيجها ، والدبور تلقحها ، والجنوب تديره ، والشمال تنزقها .

الثانية — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ » فلقاح القمع عندي أن يحبب ويُسَئِل ، ولا أدري ما يبس في أحكامه ، ولكن يُحبب حتى يكون لو يس حينئذ لم يكن فسادا لا خيرا فيه . ولقاح الشجر كلها أن تنمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت ، وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربي : إنما عوّل مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمي باسم تشترك فيه كل حامله وهو اللقاح ، وعليه جاء الحديث ” نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الحب حتى يشتد “ . قال ابن عبد البر : الإبرار عند أهل العلم في النخل التلقيق ، وهو أن يؤخذ شيء من طلع [ ذكور ] النخل فيُدخل بين ظهراني طلع الإناث .

(١) ثم البيت : كنه .

ومعنى ذلك فى سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها . والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمار التذكير ، وفيما لا يذكر أن يثبت من توارده ما يثبت ويسقط ما يسقط . وحد ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباراه أن يحبب ، ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إنائه فأنثر إباراه وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الأبار وثمرته ظاهرة بعد تفتيحها فى الحب . فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعه له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعاً لذلك الصلاح فى جواز بيعه .

الثالثة — روى الأئمة كلهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” من ابتاع نخلا بعد أن تؤبر فتمرتها للذى باعها إلا أن يشترط المبتاع ، ومن ابتاع عبداً فماله للذى باعه إلا أن يشترط المبتاع “ . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول فى البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالباً . بخلاف التى لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأموناً فلم يتحقق لها وجود ، فلم يجوز للبائع اشتراطها ولا استثنائها ؛ لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وتيل : يجوز استثنائها ؛ وهو قول الشافعى .

الرابعة — لو اشترى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طيها على مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد ، وعنه فى رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

الخامسة — وما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملتح ؛ والملاح الفحول من الإبل ، الواحد ملتح . والملاح أيضاً الإناث التى فى بطونها أولادها ، الواحدة ملقحة (بفتح القاف) والملاحيق ما فى بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوطة ، ومن قولهم : لُقِحت ؛ كالمحموم من حم ، والمجنون من جن ، وفى هذا جاء النهى . وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم :

أنه نهى عن الخمر وهو بيع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال  
ابو عبيد : المضامين ما فى البطون ، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو  
قول سعيد بن المسيب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما فى بطون الجمال ، والملاقيح  
ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأى الأمرين كان ، فعلماء المسامير  
يجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزمى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما فى البطون  
لبعض الأعراب :

مَنْبِي مَلَايَحًا فِي الْأَبْطَرِ . \* تُتَجَّعُ مَا تَلْقَحُ بَعْدَ أَزْمِنِ<sup>(١)</sup>

وذكر الجوهري على ذلك شاهدا قول الرازي :

إِنَّا وَجَدْنَا طَرْدَ الْمَوَامِلِ \* خَيْرًا مِنَ التَّائَانِ وَالْمَسَائِلِ<sup>(٢)</sup>

وَعِدَّةِ الْعَامِ وَعَامِ قَابِلِ \* مَلْقُوحَةٌ فِي بطن نَابٍ حَائِلِ

قوله تعالى : ( وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ) أى من السحاب . وكل ما علاك فاذلك يسمى  
سما . وقيل : من جهة السماء . ( مَاءٌ ) أى قطرا . ( فَأَسْقَيْنَا كُوهٌ ) أى جعلنا ذلك المطر  
لسقياكم وشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سقى وأسقى بمعنى . وقيل : بالفرق ، وقد تقدم .  
( وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ) أى ليست خزائنه عندهم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا  
ونعسكه إذا شئنا . ومثله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا<sup>(٣)</sup> » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرِ  
فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ<sup>(٤)</sup> » . وقال : سفيان : لستم بمانعين المطر .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَخْنُجُنَّحِي وَنُحْمِيَّتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ<sup>(٥)</sup>

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شيء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا  
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ<sup>(٦)</sup> » . فملك كل شيء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت

(١) كذا فى الأصول واللسان . وفى : منبى . (٢) الموامل : الإبل المهمل . والتائان : الأتین .  
والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحبل . (٣) راجع ج ١ ص ٤١٧ . (٤) راجع ج ١٣ ص ٣٩  
فابده . (٥) راجع ج ١٢ ص ١١٢ . (٦) راجع ج ١١ ص ١٠٩ .



الآعوى ، فكان الله وارثا من هذا الوجه . وقيل : الإحياء في هذه الآية إحياء النطفة في الأرحام . فاما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُحْيِيهِمْ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا  
الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿١٩﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ) فيه ثمان تأويلات : الأول — « الْمُسْتَقْدِمِينَ » في الخلق إلى اليوم ، و « الْمُسْتَأْخِرِينَ » الذين لم يخلقوا بعد ، قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثاني — « المستقدمين » الأموات ، و « المستأخرين » الأحياء ، قاله ابن عباس والضحاك . الثالث — « المستقدمين » من تقدم أمة محمد ، و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد . الرابع — « المستقدمين » في الطاعة والخير ، و « المستأخرين » في المعصية والشر ، قاله الحسن و قتادة أيضا . الخامس — « المستقدمين » في صفوف الحرب ، و « المستأخرين » فيها ، قاله سعيد بن المسيب . السادس — « المستقدمين » من قتل في الجهاد ، و « المستأخرين » من لم يقتل ، قاله القرطبي . السابع — « المستقدمين » أول الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ، قاله الشعبي . الثامن — « المستقدمين » في صفوف الصلاة ، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ، فإنه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ، لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ، فأزل الله عز وجل « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » . وروى عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس ، وهو أصح .

(١) في : الصحيح .

الثانية — هذا يدل على فضل أول الوقت في الصلاة وعلى فضل الصف الأول؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا<sup>(١)</sup> عليه لاستهموا “ . فإذا جاء الرجل عند الزوال فتزل في الصف الأول مجاور الإمام ، حاز ثلاث مراتب في الفضل : أول الوقت والصف الأول ، ومجاورة الإمام . فإن جاء عند الزوال فتزل في الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأول ، فقد حاز فضل أول الوقت وفاته فضل الصف الأول والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال ونزل في الصف الأول دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أول الوقت وفضل الصف الأول ، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل في الصف الأول فقد فاته فضيلة أول الوقت ؛ وحاز فضيلة الصف الأول ومجاورة الإمام . وهكذا ، ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد ، وإنما هي كما قال صلى الله عليه وسلم : ” لِيَلْبِيَنَّ مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيُ “ الحديث . فما يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هذه صفته . فإن نزل غير آخر وتقدم هو إلى الموضع ؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع ، كالحجرات هو موضع الإمام تقدم أو تأخر . قاله ابن العربي .

قات : وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه : تأخريا فلان ، تقدم يا فلان ؛ ثم يتقدم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليختر ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوحن الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك في التوراة . ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول . وسيأتي في سورة « الصافات<sup>(٢)</sup> » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثة — وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال ؛ فإن القيام في نحر العدو ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل ؛ فالتقدم إليه أفضل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدم الحرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البراء : كنا والله إذا أحمر البأس تنق به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) راجع ج ١٥ ص ١٣٧ فابده .

(١) أي إلا أن يستهموا .

قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ<sup>ج</sup> إِنَّهُ<sup>٢٥</sup> حَكِيمٌ عَلِيمٌ  
 قوله تعالى : (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ) أى للحساب والجزاء . (إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)  
 تقدم<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ<sup>(٢٦)</sup>  
 قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) معنى آدم عليه السلام . (مِنْ صَلْصَالٍ)  
 أى من طين يابس ، عن ابن عباس وغيره . والصلصال : الطين الحتر خلط بالرمل فصار  
 يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، عن أبي عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين .  
 وأنشد أهل اللغة :

\* كَعَدُوا الْمَصْلَصِلَ الْجَوَالَ<sup>(٢)</sup> \*

وقال مجاهد : هو الطين المتين ، واختاره الكسائي . قال : وهو من قول العرب : صَلَّى  
 اللحم وأصل إذا أنتن — مطبوخا كان أو نيئا — يصل صلولا ، قال الحطيطي :

ذاك فَيَّ يَبْدُلُ ذَا قِدْرِهِ \* لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

وطين صَالٍ ومِصْلَالٌ ، أى يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد . فكان أولَ ترابا ،  
 أى متفرقا الأجزاء ثم بَلَّ فصار طينا ، ثم تُرِكَ حتى أنتن فصار حمأ مسنونا ، أى متغيرا ، ثم يَبَسَ  
 فصار صلصالا ، على قول الجمهور . وقد مضى في «البقرة» بيان<sup>(١)</sup> هذا . والحمأ : الطين الأسود ،  
 وكذلك الحمأة بالتسكين ، تقول منه : حيث البثر حمأ (بالتسكين) إذا نزع حماتها . وحيث  
 البثر حمأ (بالتحريك) كثرت حماتها . وأحماتها إحماء ألقيت فيها الحمأة ، عن ابن السكيت .  
 وقال أبو عبيدة : الحمأة (يسكون الميم) مثل الكأه . والجمع حمءٌ ، مثل ثمرة وتمر . والحمأ المصادر  
 مثل الملع والجرع ، ثم سُمي به . والمسنون المتغير . قال ابن عباس : هو التراب المبتل المتين ،

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٧ ، وص ٢٧٩ .

(٢) هذا محز البيت . وتامه كما في اللسان :

عنتر يس تملو إذا منها الصو \* ت كعدو المصلصل الجوال

بفعل صلصلا كالفخار . ومثله قول مجاهد وقادة ، قالوا : المتن المتغير ؛ من قولهم : قد  
أَسِنَ الماء إذا تغير ؛ ومنه « يَتَسَنُّ » و « مَاءٌ غَيْرُ آسِنٍ » <sup>(٢)</sup> . ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :  
سقت صدای رُضا با غیر ذی آسن \* کالمسک فُتّ علی ماء العناقید

وقال الفراء : هو المتغير ، وأصله من قولهم : سنتت الحجر على الحجر إذا حركته به . وما يخرج  
من الحجر ين يقال له : السنانة والسنين ؛ ومنه المسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتهُ إلى القبة الجم \* براہ تمشی فی مَرَمَرٍ مَسْنُونِ <sup>(٣)</sup>

أى محكوك مُمس . حُكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبد الرحمن بن حسان  
يشب بابتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هی زهرأُ مثل لؤلؤة الغو \* اص میزت من جوهیر مَكْنُونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد [ إنه يقول ] <sup>(٤)</sup> :

وإذا ما تَسَبَّتها لم تجدها \* فی سَناء من المکارم دون

فقال : صدق ! فقال : أين قوله : ثم خاصرته ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال  
أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، وهو من قول العرب : سنتت الماء وغيره على الوجه إذا  
صبته . والسَّن الصب . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسنون الرطب ؛  
وهذا بمعنى المصبوب ؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن ؛  
لأنه يقال : سنتت الشيء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروى <sup>(٥)</sup> عن عمر  
أنه كان يَسِّنُ الماء على وجهه ولا يَسَنُّه . والشَّن (بالشين) تفريق الماء : وبالسین المهمل  
صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصنور . أخذ من سَنَة الوجه وهو صورته .  
وقال ذو الرمة :

تُرِيكَ سُنَّةً وجهٍ غير مُقْرِفَةٍ \* مَلَّاءَ ليس بها خال ولا نَدَبٍ <sup>(٦)</sup>

(١) راجع ج ٣ ص ٢٨٨ (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٣٦ (٣) في اللسان : الخفراء .

(٤) الزيادة عن اللسان . (٥) في نهاية ابن الأثير : « ابن عمر » .

(٦) السنة : الصورة . والمقرفة : التي دنت من الهجينة . والنَدَب : الأثر من الجراح والقروح . وقوله :  
غير مقرفة ؛ أى غير هجينة ، عفيفة كريمة . خال : شامة ، ندب : أثر الجرح .

وقال الأخفش : المستون المنصوب القائم ؛ من قولهم : وجه مسنون إذا كان فيه طول .  
وقد قيل : إن الصلصال التراب المدقق ؛ حكاه المهدوي . ومن قال : إن الصلصال هو  
المتن فأصله صلال ، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَلٍ » مفسر لجنس  
الصلصال ؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : **وَالْجَنَّاتُ خَلْقَتْهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْجَنَّاتُ خَلْقَتْهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن :  
يعنى إبليس ، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسمى جانا لتواريه عن الأعين . وفي صحيح  
مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لما صور الله تعالى  
آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به وينظر ما هو فلما  
رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يمالئك “ . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود :  
نار السموم التى خلق الله منها الجن جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس :  
السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنها نار لا دخان لها ، والصواعق تكون منها ، وهى  
نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى  
ما أمرت . فلهذه التى تسمعون حرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها  
حجاب ، والذى تسمعون من انقطاع السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان  
لإبليس من حية من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم . من بين الملائكة  
— قال — وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظري ؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر ؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأى .  
وقد خرج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
” خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار وخلق آدم مما وُصف لكم “ .

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع  
الوسواس عنه . (٢) الهدية : صوت وقع الحائط ونحوه ، والهدية : صوت ما يقع من السحاب .



فقرله : ” خلقت الملائكة من نور “ يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهري : مارح من نار تار لا دخان لها خلق منها الجن ، والسموم الريح الحازة تؤثب ؛ يقال منه : سم يومنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيري : وسميت الريح الحارة سموا لدخولها بلطفها [في مسام البدن] <sup>(۱)</sup> .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿۲۸﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿۲۹﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿۲۸﴾) تقدم في «البقرة» . (إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ) من طين (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) أى سويت خلقه وصورته . (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) النفخ إجراء الريح في الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً ؛ كقوله : ” أرضى وسمائي وبلقي وناقة الله وشهر الله “ . ومثله «روح مؤمنه» وقد تقدم في «النساء» <sup>(۳)</sup> مينا . وذكرنا في كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التي تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركبته فيه الحياة . (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) أى خروا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا يسجد عبادة . والله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم في «البقرة» هذا المعنى . وقال الفقهاء : كانوا أفضل من آدم ، وأمتحنهم [الله] بالسجود له تعريضاً لهم للشواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قبله لهم .

(۱) منى . (۲) راجع ج ۱ ص ۲۶۱ ، رص ۲۹۱ فابعد . (۳) راجع ج ۶ ص ۲۲

قوله تعالى : فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى - لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ آلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام ؛ كما تقدم في « البقرة » بيانه .<sup>(١)</sup>  
ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة »<sup>(٢)</sup> هذا كله مستوفى . وقال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . فأدم أبو الإنس . والجان أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره الماوردي . والذي تقدم في « البقرة » خلاف هذا ، فتأمله هناك .

الثانية - الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لفلان على دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبالغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدرات . وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قبل . فاما إذا استثنى المقومات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقومات ، مثل أن يقول : على عشرة دنائير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقر جميع المبلغ . وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جملة ما أقر به . والدليل

(١) راجع ٧ ص ١٦٩ . (٢) راجع ١ ص ٢٩٦ و ٢٩٤ . (٣) في : جميع .

لنقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا» فاستثنى السلام من جملة اللغو. ومثله «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ» وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْخَنِفِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ». وقال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس \* إلا اليعافير وإلا العيس

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثله قول النابغة:

... \* ...

قوله تعالى: قَالَ يَبْنَؤُا إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٣﴾  
قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٤﴾  
قَالَ فَانْخُرْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾  
قوله تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَى مَا الْمُنْعَ لَكَ . (أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) أَى فى ألا تكون . ( قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ) بين تكبره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدم فى «الأعراف» بيانه . ( قَالَ فَانْخُرْ مِنْهَا ) أَى من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة . ( فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ) أَى مرجوم بالشبه . وقيل : ملعون مشنوم . وقد تقدم هذا كله مستوفى فى البقرة والأعراف . ( وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ) أَى لعنتى؛ كما فى سورة «ص» .

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٠٦ . (٢) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء . (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة، وأمله سقط من النسخ . وكأنه يشير إلى قوله :

حلفت يمينا غير ذى مشنوية \* ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

وهذا البيت أوردته سيوبه فى كتابه شاهد على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع؛ لأن حسن الظن ليس من العلم والمثنوية : الاستثناء فى اليقين . والمعنى : حلفت غير مسثنى فى يمينى حسن ظن منى بصاحبى قام عندى مقام العلم الذى يوجب اليقين . (راجع كتاب سيوبه) . (٤) راجع ج ٧ ص ١٧٠ . (٥) راجع ج ١٥ ص ٢٢٨

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلة عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يحاب له دعاء ، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه ، كفعل الآيس من السلامة ، وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . قال الله تعالى : ﴿فَأِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ، يعنى من المؤجلين . ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعالى : «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلبه على لسان رسوله . الثانى — كلبه تغليظا فى الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدم معنى الإغواء والزينة فى الأعراف<sup>(١)</sup> . وتزيينه هنا يكون بوجهين : إما بفعل المعاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى لأضلّهم عن طريق الهدى . وروى ابن لمبة عبيد الله عن دُرّاج أبى السّمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن إبليس قال يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتك وجلالك لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى “ .

(١) راجع ج ١٧ ص ١٦٤ . (٢) راجع ج ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ .

قوله تعالى : **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ** ﴿٤٠﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أورياء . حكى أبو ثمامة أن الحوارين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال : ” الذى يعمل ولا يحب أن يحمده الناس “ .

قوله تعالى : **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ** ﴿٤١﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة . الحسن : « على » بمعنى إلى . مجاهد والكشاف : هذا على الوعيد والتهديد ؛ كقولك لمن تهتده : طريقك على ومصيرك إلى . وكفوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسٌ مُرْصِدٌ » . فكان معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كلاً بعمله ، يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى على أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقادة والحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب « هذا صراط على مستقيم » برفع « على » وتنوينه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ، أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال ، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ**

**مِنَ الْغَاوِينَ** ﴿٤٢﴾

فيه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ابن عينة : أى فى أن يلقهم فى ذنب يمنهم عفوى وبضيقه عليهم . وهؤلاء الذين هدام الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(١) راجع ج ٢٠ ص ٥٠ .



قلت : لعل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : « فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ <sup>(١)</sup> » ، وعن جملة من أصحاب نبیه بقوله : « إِنَّمَا أَسْتَرْهُمُ الشَّيْطَانُ يَبْعِثُ مَا كَسَبُوا <sup>(٢)</sup> » فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم ، ولا يلقينهم في ذنب يؤول إلى عدم القبول ، بل تزيله التوبة وتحوه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول ؛ على ما تقدم في « البقرة » بيانه . وأما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى عنهم القول في آل عمران . ثم إن قوله سبحانه : « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ <sup>(٣)</sup> » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون في تسلمه تفريج كربة وإزالة غمة ؛ كما فعل بلال ، إذ أتاه بهدي كما بهدى الصبي حتى نام ، ونام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس ، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ما صنعتما بتفريطنا في صلاتنا ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس في النوم تفريط » ففرج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي الضالين المشركين . أي سلطانه على هؤلاء ؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ <sup>(٤)</sup> » .

الثانية — وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل ؛ مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد ابن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الْغَاوِينَ » من العباد والعباد من الغاوين ، وذلك يدل على استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ

لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(١) راجع ج ١ ص ١١ و ٣٢١ و ج ٤ ص ٢٤٣ . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) في : الفوق . (٤) راجع ص ١٧٥ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ( وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ) يعنى إبليس ومن أتبعه . ( لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ) أى أطباق ، طبق فوق طبق ( لِكُلِّ بَابٍ ) أى لكل طبقة ( مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ) أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبوهارون الغنوي قال : سمعت جحطان ابن عبد الله الرقاشي يقول سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض — زاد التعلي : وضع إحدى يديه على الأخرى — وأن الله وضع الجنان على الأرض ، والنيران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها لظى ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية ، وكل باب أشد حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التنسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدركات ، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى التى تخلى من أهلها تنصفق الرياح أبوابها ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الدرك الأعلى المحمديون ، وفى الثانى النصارى ، وفى الثالث اليهود ، وفى الرابع الصابئون ، وفى الخامس المجوس ، وفى السادس مشركو العرب ، وفى السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُتَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — وقد تقدم فى النساء <sup>(١)</sup> — ، وقال : « أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِيثَاقِنَا أَعَذِبْهُ عَذَابًا لَا أَعَذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » . وقسم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب ، ذكرناه فى كتاب ( التذكرة ) . وروى الترمذى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمى » قال : حديث غريب . وقال أبى بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية <sup>(٢)</sup> . وقال وهب بن منبه : بين كل باين مسيرة سبعين

(١) راجع ج ٤ ص ٤٢٤ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٣١٨ . (٣) راجع ج ٦ ص ٣٦٨ .

(٤) فى فتح الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنه : للشيد نور ، وإن قاتل الحرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب : باب منها للحرورية . قال : « ولقد تروى فى زمان داود عليه السلام » .

سنة، كل باب أشد حراً من الذى فوقه بسبعين ضعفاً . وقد ذكرنا هذا كله فى كتاب التذكرة .  
وروى سَلَام الطويل عن أبى سفيان عن أنس بن مالك عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم  
فى قول الله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » « جزء أشركوا بالله ،  
و جزء شكوا فى الله ، و جزء غفلوا عن الله ، و جزء آثروا شهوراتهم على الله ، و جزء شفوا غيظهم  
بغضب الله ، و جزء صبروا و رغبتهم بحظهم من الله ، و جزء عتوا على الله » . ذكره الحليمى  
أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (مناجى الدين) له ، وقال : فإن كان نابتاً فالمشركون بالله  
هم الثنوية<sup>(١)</sup> . والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلهاً أو لا إله لهم ، و يشكون فى شريعته  
أنها من عنده أم لا . والغافلون عن الله هم الذين يمجّدونه أصلاً ولا يثبتونه ، وهم الدهرية .  
والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى ؛ لتكذيبهم رسول الله وأمره ونهيه .  
والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المعدّون من ينصح  
لهم أو يذهب غير مذهبهم ، والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب ؛  
فهم يعبدون ما يرغبون فيه ، لهم جميع حظهم من الله تعالى ، والعاتون على الله الذين لا يزالون ،  
بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً ، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم  
بما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . و يروى أن سلمان الفارسى رضى الله عنه  
لما سمع هذه الآية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فتر ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ،  
فجئ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية  
« وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » ؟ فوالذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى ، فأنزل الله تعالى  
« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » . وقال بلال : كان النبىِّ صلى الله عليه وسلم يصلى فى مسجد  
المدينة وحده ، فترت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم هذه الآية « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » فغزت الأعرابية  
مغشياً عليها ، وسمع النبىِّ صلى الله عليه وسلم وجبتها فانصرف ودعا بماء فصب على وجهها

(١) فى : الوثنية . (٢) الوجبة : صوت الشئ يسقط نيسم له كالهدّة .

حتى أفاقت وجلست ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” يا هذه مالك ؟ “ قالت : أهداشي ، من كتاب الله المنزل ، أو ثقله من تلقاء نفسك ؟ فقال : ” يا أعرابية ، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل “ فقالت : كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها ؟ قال : ” يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم “ فقالت : والله إنني امرأة مسكينة ، مالى مال ، ومالى إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حروجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : ” يا رسول الله ، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها “ .

قوله تعالى : **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾** أَدْخُلُوها وَسَلِّم

### آمِنِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى الذين آتقوا الفواحش والشرك . « فِي جَنَّاتٍ » أى بساتين . « وَعُيُونٍ » هى الأنهار الأربعة : ماء ونحر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة فى سورة « الإنسان <sup>(١)</sup> » : الكافور والزنجبيل والسلسبيل ، وفى « المطففين <sup>(٢)</sup> » : التسليم ، فىأتى ذكرها وإهلها إن شاء الله . وضم العين من « عُيُونٍ » على الأصل ، والكسر مراعاة للياء . وقرئ بهما . ﴿ أَدْخُلُوها وَسَلِّمَ آمِينَ ﴾ قراءة العامة « أَدْخُلُوها » بوصل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخل ، على الأمر . تقديره : قيل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالاية ورويس عن يعقوب « أَدْخُلُوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول ، من أدخل . أى أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين فى مثل « بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوها الْجَنَّةَ <sup>(٣)</sup> » وشبهه ؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين ؛ إذ هى ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . ﴿ وَسَلِّمَ ﴾ أى بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . ﴿ آمِينَ ﴾ أى من الموت والعذاب والعزل والزال .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٤ .

(١) راجع ج ١٩ ص ١٢٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٦٢ .

قوله تعالى : وَزَعَفَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿١٨﴾

قال ابن عباس : أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينا ، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، وتجرى عليهم نضرة النعيم ، ونحوه عن علي رضي الله عنه . وقال علي بن الحسين : نزلت في أبي بكر وعمر وعلي والصحابة ، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغل . والقول الأول أظهر ، يدل عليه سياق الآية . وقال علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة ؛ يقال منه : غل يغل . ويقال : من الغلول وهو السرقة من المغنم : غل يغل . ويقال من الخيانة : أغل يغسل . كما قال :<sup>(١)</sup>  
جرى الله عنا حمزة أبنة نوفل • جزاء مغسل بالأمانة كاذب

وقد مضى هذا في آل عمران .<sup>(٢)</sup> ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفأ بعض تواصلًا وتحابيًا ، عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كقفا شاءوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود . وسرر جمع سرير ، مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع ممهّد للسرور . والأول أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكلمة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صنفاء إلى الجبابية وما بين عدن إلى أيلة . و « إخوانًا » نصب على الحال من « المتقين »<sup>(٣)</sup>

(١) البيت للبر بن توبل من أبيات في أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن توبل سيد قومه أغار على بني أسد فسيب منهم امرأة منهم يقال لها : « حمزة بنت نوفل » فوهبها لأخيه النمر ففكرته فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً ، ثم قالت له في بعض أيامها : إني قد اشتقت إلى أهلي ، فقال لها : إني أخاف إن صرت إلى أهلك أن تغلبني على نفسك فواتقه لترجى إليه ، ثم خانت عهده . (راجع الأغاني ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) . وفي التاج : حمزة : بجيم . فكرته : أبغضته . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ (٣) صنفاء : موضعان ، أحدهما باليمن وهي العنقى ، وأخرى قرية بالندوة . والجبابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان) .



أو من المضمر في «أَدْخُلُوها»، أو من المضمر في «آمِنِينَ»، أو يكون حالا مقدرة من الماء والميم في «صُدُّوهُمْ» . (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ) أى إعياء وتعب . (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ) دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول، وأن أهلها فيها باقون . «أَكُلْهَا دَائِمًا» . «إِنَّ هَذَا لِرِزْقًا مَالَهُ مِنْ تَفَادٍ» .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

هذه الآية وزان قوله عليه السلام : ” لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بيمينه أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد “ أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وقد تقدّم في الفاتحة . وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجى ، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض . وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : ” أنضحكون وبين أيديكم الجنة والنار “ فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره الماوردي والمهدوي . ولفظ التعابي عن ابن عمر قال : أطلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه ونحن نضحك فقال : ” مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون “ ثم أدير حتى إذا كان عند الخمر رجع الفهقرى فقال لنا : ” إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يا محمد لم تقنط عبادي من رحمتي “ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ “ . فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ﴿٥٤﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢ : ٨ . (٣) راجع ج ١ ص ١٣٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَبَنِيهِمْ عَنْ ضَيْفٍ إِِبْرَاهِيمَ ﴾ ضيف إبراهيم : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط . وقد تقدم ذكرهم <sup>(١)</sup> . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفاً لإضافته إليك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف في « هود » ما يكتفى والحمد لله . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث « حين تضيف الشمس للغروب » ، وضيفوفة السهم ، والإضافة النحوية . ﴿ فَقَانُوا سَلَامًا ﴾ أى سلموا سلاماً . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ﴾ أى فزعون خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرب العجل ورآهم لا ياكلون ، على ما تقدم <sup>(٢)</sup> في هود . وقيل : أنكر السلام ولم يكن فى بلادهم رسم السلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم ؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَى أَنَّ مَسِيَّ الْكِتَبِ ﴾ « أنب » مصدرية ؛ أى على مس الكبر إباى وزوجتى ، وقد تقدم فى هود وإبراهيم ؛ حيث يقول : ﴿ قِيمَ بُشْرُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجَلْ » بضم التاء . والأعشى « بُشِّرْتُمُنِي » بغير ألف ، ونافع وشيبة « بُشِّرُونَ » بكسر النون والتخفيف ؛ مثل « أَخْجَاجُونِي » وقد تقدم تعليله . وفسراً ابن كثير وابن محيصة « بُشِّرُونَ » بكسر النون مشددة ، تقديره تبشروننى ، فادغم النون فى النون . الباقون « تبشرون » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : قَالُوا بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بما لا خلاف فيه ، وأن الولد لابد منه . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى من الآيسين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفرط

(١) راجع ج ٩ ص ٦٢ ، ص ٦٤ فابعد ، ص ٣٧٥ .

(٢) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية . (٣) فى : حكيم . (٤) راجع ج ٧ ص ٢٨ .

الكبر . وقراءة العامة « مِّنَ الْفَاطِنِينَ » بالألف . وقرأ الأعشى ويحيى بن وثاب « مِّنَ الْفَاطِنِينَ » بلا ألف . وروى عن أبي عمرو . وهو مقصور من « الْفَاطِنِينَ » . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَطِ يَنْقُطُ ، مثل حَذِر يَحْذَرُ . وفتح النون وكسرهما من « يَنْقُطُ » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه « يَنْقُطُ » بالضم . ولم يأت فيه « قَنْطُ يَنْقُطُ » [ و ] من فتح النون في الماضى والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين ، فأخذ في الماضى بلغة من قال : قَنْطُ يَنْقُطُ ، وفي المستقبل بلغة من قال : قَطِ يَنْقُطُ ؛ ذكره المهدوى .

قوله تعالى : قَالَ وَمَنْ يَنْقُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

أى المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعنى أنه استبعد الولد لكبر سنه لا أنه قَطِ من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا

إِلَى قَوْمٍ مَّجْرُمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾  
إِلَّا أَمْرًا تَقْدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَلْبِينَ ﴿٦٠﴾

فيه مشئتان :

الأولى — لما علم أنهم ملائكة — إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشرهم بالولد — قال : فما خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فما أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين ضالين . وفى الكلام إضمار ؛ أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهل دينه . ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي « لَمُنَجُّوهُمْ » بالتخفيف من أنجى . الباقيون : بالتشديد من نجى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . والتنجية والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا أَمْرًا تَقْدَرْنَا ﴾ استثنى من آل لوط أمراته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين فى الهلاك . وقد تقدمت قصة قوم لوط

في «الأعراف» وسورة «هود» بما فيه كفاية . (١) قَدَرْنَا إِيَّاهَا لَمَنَ الْغَايِرِينَ (٢) أى قضينا  
وكتبنا لمن الباقين في المذاب . والغابر : الباقي .  
قال : (٣)

لَا تَكْسَعُ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا \* إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِجِ  
الأغبار بقايا اللبن . وقراً أبو بكر والمفضل «قَدَرْنَا» بالتخفيف هنا وفي التمثيل ، وشدد  
الباقون . المروى : يقال قَدَرَوْا قَدْرًا ، بمعنى .

الثانية — لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفي إثبات ومن  
الإثبات نفي ، فإذا قال رجل : له على عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهمًا ، ثبت الإقرار  
بسبعة ؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة ، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفي ، وكانت الأربعة  
منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة ، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك  
لو قال : على خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه ؛ كان عليه أربعة دراهم وثلاث . وكذلك إذا  
قال : لفلان على عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة ؛ كان الاستثناء الثاني راجعاً إلى ما قبله ،  
والثالث إلى الثاني فيكون عليه درهمان ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها  
ثمانية عشر : والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان ،  
وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقلوه سبحانه : «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّا  
آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّجُهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا أَسْرَأَتْهُ» فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال :  
«إِلَّا أَسْرَأَتْهُ» فاستثناه من آل لوط ، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا  
الحكم في الطلاق ، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة طلقت اثنتين ؛ لأن  
الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فنفعه .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ . (٢) راجع ج ٩ ص ٦٢ .

(٣) النائل هو الحارث بن حازة . والكسع : ضرب ضرب الناقة بالماء البارد ليحفظ لبنها ويتراد في ظهرها فيكون  
أقوى لها على الجسد في العام القابل . والشول : جمع شائلة وهى من الإبل التى آق عليها من حلماتها أو وضعت سبعة  
أشهر تغف لبنها . والأغبار : جمع الغبر ، وهى بقية اللبن في الضرع . (٤) راجع ج ١٣ ص ٢١٩ .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَاتَّبَعْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ) أى لا اعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا يخاف عليهم من فتنه قومه ، فهذا هو الإنكار . ( قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ) أى يشكون أنه نازل بهم ، وهو العذاب . ( وَاتَّبَعْنَاكَ بِالْحَقِّ ) أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ( وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) أى فى هلاكهم . ( فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ) تقدم فى هود . ( وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ ) أى كن من ورائهم فلا يتخلف منهم أحد فينال العذاب . ( وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ) نهوا عن الالتفات ليجتدوا فى السبر وبقاعدوا عن القرية قل أن يفاجئهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف . ( وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ) قال ابن عباس : يعنى الشام . مقال : معنى صَفَدَ ، قرية من قرى لوط . وقد تقدم . وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمي اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم ، فقال لجبريل : من أين يغسف بهم ؟ قال : ” من هاهنا ” وحدله حدا ، وذهب جبريل ، فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقا ذلك العذاب ، فلما اهترت الأرض قال إبراهيم : ” أيقنت بالله ” فسمى اليقين .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضُنِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ قَوْمًا عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿٧١﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٢٩ .



قوله تعالى : ( وَضَعْنَا لِيَسِيَّ ) أى أوحينا إلى لوط . ( ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَذُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصَيِّحِينَ ) نظيره « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ( مُصَيِّحِينَ ) أى عند طلوع الصبح . وقد تقدم . ( وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ) أى أهل مدينة لوط ( يَسْتَبْشِرُونَ ) مستبشرين بالأضياف طمعا منهم في ركوب الفاحشة . ( إِنْ هَؤُلَاءِ ضِيفِي ) أى أضيافى . ( فَلَا تَفْضَحُون ) أى تخجلون . ( وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا ) يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزية وهو الحياء والجليل . وقد تقدم في هود . ( قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ) أى عن أن تضيف أحدا لأننا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعالهم الغرباء ، عن الحسن . وقد تقدم في الأعراف . وقيل : أو لم تنهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ( قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) أى فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدم بيان هذا في هود .

قوله تعالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٦)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربى : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفى حريرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبسائك يا محمد . وقيل : وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : « الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(٢) راجع ج ٩ ص ٤١ وص ٧٧ فـ١٠١٠

(١) راجع ج ٦ ص ٢٧

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٥

ما شاء ، وكل ما يعطيه الله تعالى لاوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخليل وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد ، فإذا أقسم بحياة لوط بحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يخرج له ذكر لغير ضرورة .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما . معرضا في قصة لوط . قال الفشيري : أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أي كانوا في سكنتهم يعمهون . وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم أفي سكنتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحل بهم صباحا . فإن قيل : فقد أقسم تعالى بالثين والزيتون وطور سينين ؛ فما في هذا ؟ قيل له : ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداده ، فكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو في عدادهم . والعمر والعمر ( بضم العين وفتحها ) لغتان ومعناها واحد ؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عمرك الله ، أي أسأل الله تعمرك . و « تعمرك » رفع بالابتداء وخبره محذوف ، المعنى تعمرك بما أقسم به .

الثانية — كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النخعي : يكره للرجل أن يقول لعمرى ؛ لأنه حالف بحياة نفسه ، وذلك من كلام ضعفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤثنتين يقسمون بحياتك وعيشك ، وليس من كلام أهل القرآن ، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة ، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواء ولا يستعمل في غيره . وقال ابن حبيب : ينبغي أن يصرف « لعمرك » في الكلام لهذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربي : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال ورد القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك » والعمرى « ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة :

لعمري وما عمري على بهين \* لقد نطقْتُ بطلا على الأفارع<sup>(١)</sup>

آخر :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى \* لكالطول المرنح وثيابه باليد<sup>(٢)</sup>

آخر :

أيها المنكح الثريا سهيلاً \* عمرك الله كيف يلتقيان

آخر :

إذا رَضِيتُ على بنو قشير \* لعمرك الله أعجبنى رضاها

وقال بعض أهل المعاني : لا يجوز هذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، وإنما هو تعالى أزل . ذكره الزهراوى .

الثالثة — قد مضى الكلام فيما يخالف به وما لا يجوز الحلف به فى « المائدة »<sup>(٣)</sup> ، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ابن خزيمة مندد : من جَوَزَ الحلف بغير الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوماً ؛ لأنه فى الباطن مستخف بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نخاف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « التين والزيتون »<sup>(٤)</sup> « والطور » و « كتاب المسطور »<sup>(٥)</sup> « والنجم إذا هوى » و « الشمس وضحاها »<sup>(٦)</sup> « لا أقسم بهذا البلد » وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد<sup>(٧)</sup> . كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، و « رب الكتاب المسطور » و « رب البلد الذى حالت به ، وخالق عيشك وحياتك » ، وحق محمد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالخلق . قال ابن خزيمة مندد : ومن جَوَزَ اليمين بغير الله تعالى تأول قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحلفوا

(١) أراد بالأفارع بنو قريع بن عوف ، وكانوا قد رشوا به إلى النعمان .

(٢) البيت طائفة بن العبد . والطول : الحبل . وثيابه : ما ثنى منه . (٣) راجع ج ٦ ص ٢٦٩ وما بعدها .

(٤) راجع ج ٢٠ ص ١١٠ و ص ٧٢ و ص ٥٩ . (٥) راجع ج ١٧ ص ٥٨ و ص ٨١ .

بآبائكم“ وقال : إنما نهى عن الحلف بالآباء الكفار ، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : ”ليجلب عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية“ . ومالك حمل الحديث على ظاهره . قال ابن خزيمة مندد : واستدل أيضا من جوز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال : احلف لى بحق ما حواه هذا القبر ، وبحق ساكن هذا القبر ، يعنى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحرم والمشاعر العظام ، والركن والمقام والمحراب وما يتلى فيه<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ بِفَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا  
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ نصب على الحال ، أى وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت ، وشرقت إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنى . وأشرق القوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو المراد فى الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أول الذباب كان عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس ، فكان تمام الهلاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصَّيْحَةُ » العذاب . وتقدم ذكر « سِجِّيلٍ »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾  
فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ روى الترمذى الحكيم فى ( نوادر الأصول ) . من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” للفرسين “ وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله

(١) تأمل هذا مع قوله عليه الصلاة والسلام ” من كان حالفا فليحلف بالله أرى بصمت “ .

(٢) راجع به ٩ ص ٨١ .

عليه وسلم : ” اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ — ثُمَّ قَرَأَ — « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » “ . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للمتوسمين للتفكيرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

أوكلمنا وردتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٍ \* بعثوا إلى عريفهم يَتَوَسَّمُ

وقال قتادة : للمتبرين ؛ قال زهير :

وفيهنْ مَلَهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ \* أُنِيقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذى الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إِنْ لِّلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ “ . قال العلماء : التوسم تفعل من الوسم ، وهى العلامة التى يستدل بها على المطلوب غيرها . يقال : تَوَسَّمت فيه الخير إذا رأيت ميسم ذلك فيه ؛ ومنه قول عبيد الله ابن ربيعة للنبي صلى الله عليه وسلم :

إِنِّى تَوَسَّمتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفْهُ \* وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّى ثَابِتُ الْبَصَرِ

آخر :

تَوَسَّمتُهُ لِمَا رَأَيْتُ مَهَابَةً \* عَلَيْهِ وَقَلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها . وتوسم الرجل طلب كلاً الوَسْمِ . وأنشد :

وَأَصْبَحَنُ كَالدُّومِ النَّوَاعِمِ غَدَوَةٌ \* عَلَى وَجْهَةٍ مِنْ ظَاعِنِ مُتَوَسِّمٍ

وقال ثعلب : الواسم الناظر اليك من فَرَقِكَ إلى قدمك . وأصل التوسم التثبت والتفكير ؛ مأخوذ من الوسم وهو التأثير بمجديدة فى جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحيدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى وكدورة الأخلاق وفُضُول الدنيا . روى تَهَشُّل عن ابن عباس « لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هى استدلال بالعلامات ،

(١) هو طريف بن تميم العبزى (عن شواهد سيبويه) .



ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما ينبغي فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسّمون هم الذين يتوسّمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ، فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثله قول ابن عباس : ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أنفيه هو أو غير قفيه . وروى عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بقاء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجاراً ، وقال الآخر : بل حداد ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجاراً وأنا اليوم حداد . وروى عن جندب بن عبد الله البجلي أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سمع سمع الله به ، ومن رأى رأى الله به . فقلنا له : كأنك عرضت بهذا الرجل ، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غداً حرورياً ، فكان رأس الحرورية ، واسمه مرداس . وروى عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتیان البصرة إن لم يحدث ، فكان من أمره من القدر ما كان ، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأبيوب : هذا سيد فتیان أهل البصرة ، ولم يستثن . وروى عن الشعبي أنه قال لداود الأزدى وهو يماريه : إنك لا تموت حتى تُكوى في رأسك ، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مدحج فيهم الأشتري ، فصعد فيه النظر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للساميين منه يوماً عصيباً ، فكان منه في الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه ، وكان قد مرّ بالسوق فنظر إلى امرأة ، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم على وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : وأحياناً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراصة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانية — قال [القاضي] أبو بكر بن العربي : « إذا ثبت أن النوسم والتفزز من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفزز . وقد كان قاضي القضاة الشافعي المالكي ببغداد أيام كوفى بالشام يحكم بالفراصة في الأحكام ، جرياً على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا ، وكان شيخنا نحر الإسلام أبو بكر الشامي صنف جزءا في الرد عليه ، كتبه لي بخطه وأعطانيه ، وذلك صحيح ؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا . مدركة قطعاً وليست الفراسة منها .

قوله تعالى : **وَإِنَّمَا لِبَيْسِلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾** وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّمَا)** يعني قرى قوم لوط . **(لِبَيْسِلٍ مُّقِيمٍ)** أى على طريق قومك يا محمد إلى الشام . **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)** أى لعبرة للصدّقين . **(وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)** يريد قوم شعيب ، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثر . والأَيْكَةُ : الفَيْضَةُ ، وهى جماعة الشجر ، والجمع الأَيْك . ويروى أن شجرهم كان دَوماً وهو المقل . قال النابغة :

تَجَلُّوْا بِقَادِمَتِي حَمَامَةَ أَيْكَةٍ \* بَرْدًا أُسِفَّ لِسَاتِهِ بِالْإِنْمِيدِ

وقيل : الأَيْكَةُ اسم القرية . وقيل : اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأَيْكَةُ وَلَيْكَةُ مدينتهم ، بمنزلة بَيْكَةٍ من مكة . وتقدّم خبر شعيب وقومه . **(وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ)** أى بطريق واضح فى نفسه ، يعنى مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأَيْكَةِ يعتبر بهما من يتر عليهم .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾**

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة . ومنها الحرام ؛ قال الله تعالى : « وَحِجْرًا مَّحْجُورًا » أى حراما محرما . والحجر العقل ؛ قال الله تعالى : « لِيَذِرَ حِجْرِي » <sup>(٢)</sup> والحجر حِجْر القميص ؛ والفتح أفصح . والحجر الفرس الأثني . والحجر ديار ثمود ، وهو المراد هنا ،

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ . (٢) راجع ج ١٣ ص ٥٨ . (٣) راجع ج ٢٠ ص ٤٢ .

أى المدينة؛ قاله الأزهري . فتادة : وهى ما بين مكة وتبوك، وهو الوادى الذى فيه ثمود .  
 الطبرى : هى أرض بين الحجاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ( الْمُتَرَسِّلِينَ ) وهو صالح  
 وحده ، ولكن من كذب نيبا فقد كذب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد فى الأصول فلا  
 يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحا ومن تبعه ومن تقدمه من النبيين أيضا . والله  
 أعلم . روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى غزوة  
 تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا وأستقينا . فأمرهم  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُيريقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح  
 عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود ، فاستقوا  
 من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُيريقوا ما استقوا  
 ويعلقوا الابل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى تردها الناقة . وروى أيضا عن  
 ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم  
 مثل ما أصابهم " ثم زجر فأمرهم .<sup>(۱)</sup>

قلت : فى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء  
 واختلف فى بعضها الفقهاء ، فأقولها — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حل بعض العلماء  
 دخول مقابر الكفار ؛ لأن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد  
 إليها النبي صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : " لا تدخلوا أرض بابل لأنها ملعونة " .

مسألة : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن  
 وخبز به لأجل أنه ماء منخط ، فلم يميز الانتفاع به فرارا من منخط الله . وقال " املقوه الإبل " .

(۱) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقة .

قلت : وهكذا حكم الماء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلقه الإبل والبهايم ؛ إذ لا تكليف عليهما ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلقه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعاف ما عجن بهذا الماء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسانية يوم خيبر ؛ فدل على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التجنيس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يعلق الناصع والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تجنيس . قال الشافعي : ولو كان حراما لم يأمره أن يطعمه رقيقه ؛ لأنه متعبد فيه كما تعبد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلق الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه لياكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطاق الكلاب عليهما ولا يحملها إليهما . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن في الأول دليل على بغض أهل الفساد ودم ديارهم وآثارهم . هذا ، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحبوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كثير :

أحب لحبها السوداء حتى \* أحب لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر :

أمر على الديار ديار ليلي \* أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما تلك الديار شغفن قلبي <sup>(٢)</sup> \* ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقرة غضب . قال ابن العربي : فصارت هذه البقرة مستنناة من قوله صلى الله عليه وسلم : "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناصع : البير يستق عليه . (٢) الرواية المشهورة : « وما حب الديار » . والبيتان لمجون ليل .  
(راجع نزهة الأدب في الشاهد التسمين بعد المسائين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى في سبع مواطن : في المنزل والمجبرة والمقبرة وقارعة الطريق ، وفي الحمام وفي معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفي الباب عن أبي هريرة وجابر وأنس : حديث ابن عمر إسناده ليس بذلك القوى ، وقد تكلّم في زيد بن جبرة من قبل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبيعة والبيت الذى فيه تمائيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربى : ومن هذا المواضع ما منع لحق الغير ، ومنه ما منع لحق الله تعالى ، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها ؛ فإما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كاللحم والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز في المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة مخط كالجحيم . وقال مالك في المجموعة : لا يصلى في أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستار بها<sup>(١)</sup> ونفارها فتفسد على المصلى صلاته ، فإن كانت واحدة فلا بأس ؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ في الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تمائيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تمائيل ، وفي الدار المغصوبة ، فإن فعل أجزاء . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة في الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربى : وذلك عندى بخلاف الأرض فإن الدار لا تدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطئها الملك .

قلت : الصحيح — إن شاء الله — الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : ” إن هذا واد به شيطان “ وقد رواه معمر عن الزهري فقال : وأخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقول على : ” نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصل بأرض بآيل فإنها ملعونة . وقوله عليه

(١) في الموطأ : « لأنها يستتر بها الجهول والنائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .

(٢) أى نافذة واحدة .



السلام حين مرّ بالجعر من ثمود : ” لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين “  
 ونهيه عن الصلاة في معادن الإبل إلى غير ذلك مما في هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول  
 المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا في هذا  
 الباب أن ذلك الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة  
 متيقنة تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من أعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع  
 شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ما روى في هذا الباب من النهي  
 عن الصلاة في المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى ، كل ذلك  
 عندنا مذسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : ” جعلت لي الأرض كلها مسجدا  
 وطهورا “ ، وقوله صلى الله عليه وسلم بخبرا أن ذلك من فضائله ومما خص به ، وفضائله  
 عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صلى الله عليه وسلم :  
 ” أوتيت خمسا “ — وقد روى سنا ، وقد روى ثلاثا وأربعا ، وهي تنتهي إلى أزيد  
 من تسع ، قال فيهن <sup>(١)</sup> — ” لم يؤتمن أحد قبلي بعثت إلى الأحمر والأسود ونصرت بالرعب  
 وجعلت أمي خير الأئمة وأجلت لي النساء وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأوتيت  
 الشفاعة وبعثت بجوامع الكلم وبيننا أنا نائم أوتيت بمفاتيح الأرض فوضعت في يدي وأعطيت  
 الكوثر وختم بي النبيون “ رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم  
 ما لم يذكر غيره ، وهي صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى  
 أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيا ثم كان نبيا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال :  
 ” ما أدري ما يفعل بي ولا بكم “ ثم نزلت : « لَيْفَقَرَّ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » <sup>(٢)</sup> .  
 وسمع رجلا يقول : يا خير البرية ؛ فقال : ” ذاك إبراهيم “ وقال : ” لا يقولن أحدكم  
 أنا خير من يونس بن مينا “ وقال : ” السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم  
 السلام “ ثم قال بعد ذلك كله : ” أنا سيد ولد آدم ولا نخر “ . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

(١) في روى : سبع .

(٢) راجع ج ١٦ ص ٢٦١ .

ترداد إلى أن قبضه الله؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا التقصان ، وجاز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : ” جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً “ أجزنا الصلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : ” حينما أدركك الصلاة فصل فإن الأرض كلها مسجد “ ذكره البخارى ولم يخص موضعاً من موضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر ، حديث الترمذى الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جبيرة وأنكره عليه ، ولا يعرف هذا الحديث مسنداً إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة . وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحلوانى عن سعيد بن أبى مریم عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد روى عن على بن أبى طالب قال : نهانى حبيبى صلى الله عليه وسلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذى رواه عن على هو سعيد ابن عبيد الرحمن الغفارى ، بصرى ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن على ، ومن دونه مجهولون لا يعرفون . قال أبو عمر : وفى الباب عن على من قوله غير مرفوع حديث حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دكين قال : حدثنا المغيرة بن أبى الحرز الكندى قال حدثنى أبو العتبس مجبر بن عتبس قال : خرجنا مع على إلى الحرورية ، فلما جاؤنا سوريا وقع بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أمسيت ، الصلاة الصلاة ؛ فابى أن يكلم أحداً . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبى الحرز كوفى ثقة ؛ قاله يحيى بن معين وغيره . ومجبر بن عتبس من كبار أصحاب على . وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام “ . قال الترمذى : رواه سفيان الثورى عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مراسلا، وكأنه أثبت وأصح. قال أبو عمر: فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرناه. ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين: إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإن قال: المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يرد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول، ولا دل عليه فحوى الخطاب ولا نخرج عليه الخبر. ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين: إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما لا معنى له. أو يكون من أجل أنها بقعة مسخطة، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبني مسجده في مقبرة المشركين وينشئها ويسويها ويبني عليها، ولو جاز لفائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث. وكل من كره الصلاة في المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى المعهود، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيته صلى الله عليه وسلم ولم يحمه؛ لأنه بعث مبينا. ولو ساغ لجاهل أن يقول: مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول: حمام كذا؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام. وكذلك قوله: المزابلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال: مزابلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم في دين الله غير جائز.

وأجمع العلماء على أن التيمع على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائزا. وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة. وقد تقدم هذا في سورة «براءة»<sup>(١)</sup>. ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة مسخطة من المقبرة؛

(١) راجع ج ٨ ص ٢٥٥.

لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة . وقد وردت السنة باتخاذ البيع والكائس مساجد . روى النسائي عن طلق بن علي قال : خرجنا وفدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلبنا معه ، أخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا أنيتم أرضكم فأكسروا بيعتكم واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقد تقدم في « براءة » . وحسبك بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسس على التقوى مبنيا في مقبرة المشركين ، وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . ومن كره الصلاة في المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي وأصحابهم . وعند الثوري لا بعيد . وعند الشافعي أجزاءه إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة ؛ لأحاديث المعلومة في ذلك ، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " ، ولحديث أبي مُرند الغنوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تصلوا إلى القبور ولا تجاسوا عليها " . وهذا حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل لا يعتدل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خطأ القول الذي لا يشتغل بمثله ، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر .

وثانها (٢) — الحافظ يلقي فيه التين والعذرة ليكرم فلا يصلي فيه حتى يسقى ثلاث مرات ، لما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحافظ يلقي فيه العذرة والتين قال : " إذا سقى ثلاث مرات فصل فيه " . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تلي فيها العذرات وهذا الزيل ، يصلي فيها؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصل فيها . رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . اختلفا في الإسناد ، والله أعلم .

(١) راجع ج ٨ ص ٢٥٤ فابعد . (٢) أراد ثامن المسائل التي استنبطها الفقهاء . والحافظ الحديثية .

قوله تعالى : **وَءَاتَيْنَاهُمُ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** ﴿٨١﴾

قوله تعالى : **(وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا)** أى بآياتنا . كقوله : **« آتَيْنَا غَدَاءَنَا »** أى بغدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمة : خروجها من الصخرة ، ودنوئناجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبر وغيره . **(فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)** أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : **وَكَانُوا يَخْتُونُ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ** ﴿٨٢﴾ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبِيحَةُ مُصْجِحِينَ** ﴿٨٣﴾ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٨٤﴾

التحت في كلام العرب : البرى والتجر . تحته يخته <sup>(٢)</sup> (بالكسر) نخنا أى براه . والنخاة البراية . والمنحت ما ينحت به . وفى التزويل **« أَتَعْبُدُونَ مَا تَخْتُونَ »** أى تجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأمنهم بشدة قوتهم . **(ءَامِنِينَ)** أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . **(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبِيحَةُ مُصْجِحِينَ)** أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة فى هود والأعراف <sup>(٤)</sup> . **(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** من الأموال والحصون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ﴿٨٥﴾ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ﴿٨٦﴾

(١) راجع ج ١١ ص ١٢ . (٢) وبالفتح وبه قرأ الحسن وذكر فى الثلاث أن البواقر والصحاح .

(٣) راجع ج ١٥ ص ٩٦ . (٤) راجع ج ٩ ص ٦١ و ٦٢ ص ٢٤٢ .



قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى للزوال والفاء .  
وقيل : أى لأجازى المحسن والمسيء ، كما قال : « وَبَلِّغْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . ﴿وَلِأَنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ﴾  
أى لكائنة فيجزي كل بعمله . ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ مثل «وَأَجْزُهُمْ جَمْعًا جَمِيلًا» أى تجاوز عنهم يا مجد ، وأعف عفوًا حسنًا ، ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « نَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ » . وإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لم : « لقد جئتكم بالنذيج وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة » ، قاله عكرمة ومجاهد . وقيل : ليس بمسوخ ، وأنه أمر بالصفح فى حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ، عن الحسن وفضله .  
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ أى المقتدر للخلق والأخلاق . ﴿الْعَلِيمُ﴾ باهل الوفاق والتفاق .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْأَمْثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

اختلف العلماء فى السبع المثاني ، فقيل : الفاتحة ، قاله على بن أبى طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة ، من حديث أبى بن كعب وأبى سعيد بن المعلى . وقد تقدم فى تفسير الفاتحة . وخرج الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص ، وقد تقدم فى الفاتحة . وقال الشاعر :

نشدتكم بمَثَلِ القرآن • أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هى السبع الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ، إذ ليس بينهما التسمية . روى النسائي :

(١) راجع ج ١٧ ص ١٠٥ . (٢) راجع ج ١٩ ص ٤٤ . (٣) راجع ج ٥ ص ٣١٠ .

(٤) كذا فى الأصول وتفسير الطبرى . وفى كتاب الجامع الصغير : « بالجهاد » . (٥) كذا فى الأصول .

(٦) راجع ج ١ ص ١٠٨ .

حدثنا علي بن حجر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطول : وسميت مثنائي لأن العبر والأحكام والحدود ثبتت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطول شيء ، إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما : فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه مجدا صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل عليه بعد . ومن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير وبجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُنسي \* مُضِيعاً لِلْفَصْلِ وَالْمَثَانِي

وقيل : المثنائي القرآن كله ؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس . وقيل له : مثنائي ؛ لأن الأنبياء والقصاص ثبتت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نوراً ساطعاً يُهتدى به \* يُخَصَّ بِتَنْزِيلِ الْمَثَانِي الْمُعْظَمِ

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثنائي أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعدد نعم وأنباء قرون ؛ قاله زياد بن أبي مريم . والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثنائي ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ؛ إلا أنه إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدم في الفاتحة . وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعة من المثنائي القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القَـرْمِ وابنِ الهُمام \* وليتِ الكُتَيْبَةَ في المَزْدَحِمِ

وقد تقدم عند قوله : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى » .

قوله تعالى : لَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَآخُضْ بِجَنَاحِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾  
فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ( لَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ ) المعنى : قد أغنيك بالقرآن عما في أيدي الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغن بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس بقى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وفى سبع قوافل من بصرى وأذرعاً ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ، فيها البر والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينها وأنفقناها في سبيل الله ، فانزل الله تعالى «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ» أى فهم خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عيينة ، وأورد قوله عليه السلام : "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" أى من لم يستغن به . وقد تقدم هذا المعنى في أول الكتاب . ومعنى ( أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ) أى أمثالا في النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى ، فهم أزواج .

الثانية — هذه الآية تفتضى الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبد على عبادة مولاه . ومثله «وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ» الآية . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة" . وكان عليه الصلاة والسلام ينشغل بالنساء ، حيلة الآدمية وتشوف الحيلة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تنزله عين إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى ، ويرى أن مناجاته أخرى من ذلك وأولى ، ولم يكن في دين مجد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان في دين عيسى ،

(۱) راجع به ۱ ص ۱۲ . (۲) راجع به ۱۱ ص ۲۶۱ . (۳) كذا في سنن النسائي ومستد الإمام أحمد . والذى في الأصول : «حبب إلى من دنياكم ثلاث... الخ» وبكلمة «ثلاث» لا يستقيم الكلام . راجع كشف الخفا به ۱ ص ۳۳۸ ففيه بحث شيق واف . (۴) أى الانقطاع الكل عن الدنيا فإنه من معاني الرهبانية .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الخرج خفيفة على الآدمي، يأخذ من الاديمة بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكشاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى؛ لما غلب على الدنيا من الحرام، وأضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته، فكانت القراءة أفضل، والقرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم: "يأتى على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّج بدنه من الفتن".

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى إن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم . وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، بفعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح، أى وقور ساكن . والجناحان من آبن آدم جانباه، ومنه «وَأَصْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ» وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وَحَسْبُكَ فَنِيَّةُ لَزِيمٍ قَوْمٍ \* يَمُدُّ عَلَى أُنْحَى سُقْمٍ جَنَاحَا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعالى: وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ ﴿٢٠﴾

في الكلام حذف؛ أى إني أنا النذير المبين عذابا، لحذف المفعول، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال في موضع آخر: «أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ» . وقيل : الكاف زائدة، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المفتسمين؛ كقوله: «لَيْسَ كَيْشِلِهِ شَيْءٌ» . وقيل : أنذرتكم

(١) أى رومها . (٢) راجع ج ١١ ص ١٩٠ . (٣) راجع ج ١٥ ص ٣٤٦ .

(٤) راجع ج ١٦ ص ٧ .

مثل ما أنزلنا بالمفتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المفتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغوا ، فإنما كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وآختلف في « المفتسمين » على أقوال سبعة : الأول — قال مقاتل وانفساء : هم سنة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فأقسموا أعقاب مكة وأنفائها وبفاجها يقولون لمن سألهم : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ، فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وثموا المفتسمين لأنهم اقتصموا هذه الطرق ، فأماهم الله شرميتة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حاكمًا على باب المسجد ، فإذا سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى — قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتصموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه سجرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . الثالث — قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وثموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس — قال قتادة : قسموا كتابهم ففزقوه وبددوه وحرّفوه . السادس — قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ » . السابع — قال الأخفش : هم قوم اقتصموا إيماننا تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج ، ذكره الماوردى .

قوله تعالى : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿١١﴾

هذه صفة المفتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لَنَسْأَلَنَّهُمْ » . ووحد العيضي عَصَةً ، من عَضَبَتِ الشئ تعضيه أى فزقته ، وكل فرقة عَصَةٌ . وقال بعضهم : كانت فى الأصل (١) الأعقاب ما يهد مكة من الطرق يهد منها الناس ، والأعقاب : منافذ الجبال ، والفجاج : الطرق الواسعة . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢١٦ .



عِضْوَةٌ فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين ؛ كما قالوا : عِزِينَ في جميع عِزَّة ، والأصل عِزْوَةٌ ، وكذلك ثُبَّة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : فزقوا أفاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

\* وليس دين الله بالمُعَصَّى \*

أى بالمفروق . ويقال : نقصانه الهاء وأصله عَضَةٌ ؛ لأن العِضَّة والعِضَّة في لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضيه وللساحرة عاضيه . قال الشاعر :

أعوذ بربي من النافثا \* يت في عُقْد العاضيه المعِضه

وفي الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضيه والمستعِضَّة ، ونسر : الساحرة والمستسحرة . والمعنى : أكثروا البُهت على القرآن وتوعوا الكذب فيه ، فقالوا : سحر وأساطير الأولين ، وأنه مفترى ، إلى غير ذلك . ونظير عِضَّة في النقصان شَفَّة ، والأصل شَفْهَةٌ . كما قالوا : سنَّة ، والأصل سنَّه ، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيل : هو من العَضه وهى النيمة . والعِضِيَّة البهتان ، وهو أن يعضه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه . يقال عضَّه عضها رماه بالبهتان . وقد أعضَّتْ أى جثت بالبهتان . قال الكسائى : العِضَّة الكذب والبهتان ، وجمعا عضون ، مثل عِزَّة وعِزون ، قال تعالى : « الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ » . ويقال : عضوه أى آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي ، فأحبط كفرهم إيمانهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعالى : قَوْرَبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٠﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَوْرَبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا . وفى البخارى : وقال عدة من أهل العلم فى قوله : « قَوْرَبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذی الحکیم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نبيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « قَدْ رَبَّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » قال : « عن قول لا إله إلا الله » قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ، وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيهه العمل فقال « عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنما المعنى به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعمل عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عن لا إله إلا الله » أي عن الوفاء بها والصدق لمقالتها . كما قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتحلي ولا الدين بالتمني ولكن ما وقَّره في القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » قيل : يا رسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله » . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عهد إلى ألا يأتي بني أحد من أمي بلا إله إلا الله لا يخطئ بها شيئا إلا وجبت له الجنة » قالوا : يا رسول الله وما الذي يخطئ بلا إله إلا الله ؟ قال : « حرصا على الدنيا وجمعها لها ومنعها لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة » . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردت عليهم وقال الله كذبتم » . أسانيدنا في نوادر الأصول .

قلت والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كما فرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب (التذكرة) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب ؟ قلنا : فيه خلاف ، وذكرناه في التذكرة . والذي يظهر سؤاله ؛ للآية وقوله : « وَفَقَّوهُمْ <sup>(١)</sup> مُسْتَوُونَ » وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ <sup>(٢)</sup> ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » . فإن قيل : فقد قال تعالى :

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٣٨

(١) راجع ج ١٥ ص ٧٢

« وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » <sup>(١)</sup> وقال : « قَيِّمُذْ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » <sup>(٢)</sup> ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » <sup>(٣)</sup> ، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ مَحْجُوبُونَ » <sup>(٤)</sup> . قلنا : القيامة مواطن ، فوطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تفرغ وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قطرب هذا القول . وقيل : « لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » <sup>(٥)</sup> يعني المؤمنين المكلفين ؛ بآئنه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُمْ يَوْمِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ <sup>(٦)</sup>  
إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ <sup>(٧)</sup>

قوله تعالى : ( فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ ) أى بالذى تؤمر به ، أى بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحججة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدع القوم أى تفرقوا ؛ ومنه « يَوْمِذٍ يَصْدَعُونَ » <sup>(٨)</sup> أى يتفرقون . وصدعته فانصدع أى انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأنته :

وَكَأَنَّهُ رِبَابَةٌ وَكَأَنَّهُ • يَسْرِيفُضْ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَصْدَعُ <sup>(٩)</sup>

أى يفرق ويشق . فقلوه : « أَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فأصدع بالأمر ، أى أظهر ذلك ، ذ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : « فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ » أى فزق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣١٥ . (٢) راجع ج ١٧ ص ١٧٣ . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٤) راجع ج ١٩ ص ٣٥٧ . (٥) راجع ج ٢٠ ص ١٧٤ . (٦) راجع ج ١٤ ص ٢١ .

(٧) الزبابة : الجلدة التى تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذى يضرب بالقِدَاحِ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستنزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله ﴿ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾<sup>(١)</sup> . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن في الصلاة . ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستنزاء أنزل الله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . إنا كفييناك المستنزئين . الَّذِينَ يَمْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿ . والمعنى اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله ؛ فإن الله كافيك من أذاك كما كافاك المستنزئين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الضلّاطلة ، أهلكهم الله جميعا ، قيل : يوم بدر في يوم واحد لاستنزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتر به الأسود ابن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعیمی ووجعت عينه ، بفعل يضرب برأسه الجدار . ومرة به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبّا . ( يقال : حين بالكسر ) حبّا وحين للفعل عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحبن ، والمرأة حبّاء ؛ قاله في الصحاح ) . ومرة به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يحتر سبيله ؛ وذلك أنه مرة رجل من خزاعة يریش تباله فقتلهم منهم من نبيله بإزاره فخذش في رجله ذلك الخدش وليس بشيء ، فانتقض به فقتله . ومرة به العاص بن وائل فأشار إلى أنخص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربض به على شبرقة فدخلت في أنخص قدمه شوكة فقتلته . ومرة به الحارث بن الضلّاطلة ، فأشار إلى رأسه

(١) راجع ج ٨ ص ٧٢ . (٢) السيل (بالحرىك) : الثياب المسبلة ؛ بفعل ذلك كبرا واعتيالا .

(٣) الشبرق : نبت مجازى يؤكل ، وله شوك .

(١) فامِطْخَ قِيحًا فَنَقَّسَلَهُ . وقد ذُكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : لأنهم المراد بقوله تعالى : « تَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » (٢) . شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم ؛ على ما يأتي .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾  
هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾  
قوله تعالى : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ) أى قابك ؛ لأن الصدر محل القلب .  
( بِمَا يَقُولُونَ ) أى بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتناله ويناله أصحابك من أعدائك .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾  
فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ( فَسَبِّحْ ) أى فافزع إلى الصلاة ، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس ؛ وذلك تفسير لقوله : ( وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ) ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود ، كما قال عليه السلام : ” أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاخلصوا (٣) الدعاء “ . ولذلك خص السجود بالذكر .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه ، فرأى هذا الموضوع محل سجود في القرآن ، وقد شاهدت الإمام بحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله ، يسجد في هذا الموضوع وسجدت معه فيها ، ولم يره جماهير العلماء .  
قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدة عند أبى حذيفة ويَمَانُ بنِ رِثَاب ، ورأى أنها واجبة .

(١) المخط : السيلان والخروج . (٢) راجع ص ٩٧ من هذا الجزء .

(٣) الرواية « فَأَكْثَرُوا » كما في الجامع الصغير .



قوله تعالى : **وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴿٦٦﴾

فيه مسألة واحدة — وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصر عبادته في خدمته ، وإن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله : « حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » ؟ وكان قوله : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ » كافياً في الأمر بالعبادة ، قيل له : الفائدة في هذا أنه أوفال : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ » مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً ؛ وإذا قال : « حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » ؟ ولم يقل أبداً ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبداً ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدم هذا المعنى <sup>(٢)</sup> . والمراد استمرار العبادة مدة حياته ؛ كما قال العبد الصالح : « وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » . ويتركب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبداً ، وقال : نويت يوماً أو شهراً كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقته حياتها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية ، وكانت من المبايعات ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان — أعني عثمان بن مظعون — فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به » وذكر الحديث <sup>(٣)</sup> . انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعني كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقد روى جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني أنه سمعه يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أوحى إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلى أن أسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

(١) في : وقد . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٣ . (٣) راجع صحيح البخاري ج ٣ ص ١٥١ مطبعة بولاق .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عتد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية غير قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ » الآية ؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتل أحد . وغير قوله تعالى : « وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » . وغير قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا » الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » فكي في شأن حمزة الحبشة . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إِلَى قَوْلِهِ — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ( أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ) قيل : « أَتَى » بمعنى يأتي ؛ فهو كقولك : إن أكرمتني أكرمتك . وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آت لا محالة ، كقوله : « وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ » . و « أَمْرُ اللَّهِ » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جرير والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائض وأحكامه . وفيه بعد ؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) راجع ص ٢٠٠ من هذا الجزء ، وص ٢٠٢ ، وص ١٩٢ ، وص ١٠٦ ، وص ١٧٣ .

(٢) راجع ص ٧٦ ص ٢٠٩ .

وغیرہم ، حتی قال النضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ « الآية ، فَأَسْتَعْجِلْ الْعَذَابَ » .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الجباب ، وفى أسارى بدر ، أخرجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة<sup>(۱)</sup> . وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ »<sup>(۲)</sup> . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشرطها . قال ابن عباس : لما نزلت « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقَّ الْقَمَرُ »<sup>(۳)</sup> قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا ما نرى شيئا ! فنزلت « أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ »<sup>(۴)</sup> الآية . فاشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فأمدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ، فنزلت : « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه : السبابة والى تليها يقول : أن كادت لتسبقتنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشرط الساعة ، وأن جبريل لما مر به أهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر ، قد قامت الساعة . قوله تعالى : ( سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) أى تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

(۱) راجع ج ۹ ص ۳۰

(۲) راجع ج ۲ ص ۱۱۲

(۳) راجع ج ۱۱ ص ۲۶۶

(۴) راجع ج ۱۷ ص ۱۲۵

قوله تعالى : يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢٠﴾

نقرأ المفضل عن عاصم « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ » والأصل تَنَزَّلَ ، فالفعل مسند إلى الملائكة .  
 وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه ، والأعمش « تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » غير مسمى  
 الفاعل . وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم « تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ » بالنون مسمى الفاعل ،  
 الباقيون « يُنَزِّلُ » بـياء مسمى الفاعل ، والضمير فيه لاسم الله عز وجل . وروى عن قتادة  
 « نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالنون والتخفيف . وقرأ الأعمش « تَنَزَّلُ » بفتح التاء وكسر الزاي ،  
 من النزول . « الْمَلَائِكَةُ » رفعا مثل « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ » . (١) بِالرُّوحِ (٢) أى بالوحي وهو النبوة ؛  
 قاله ابن عباس . نظيره « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » . (٣) الربيع بن أنس :  
 بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذي يجب اتباعه . وقيل : أرواح الخلق ؛  
 قاله مجاهد ، لا ينزل ملك إلا ومعه روح . وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق  
 الله عز وجل كصور ابن آدم ، لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم . وقيل : بالرحمة ؛  
 قاله الحسن وقتادة . وقيل : بالهداية ؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو  
 معنى قول الزجاج : قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياة بالإرشاد إلى أمره .  
 وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . والباء في قوله : « بِالرُّوحِ » بمعنى مع ، كقولك :  
 نخرج بنبابه ، أى مع نبابه . (٤) مِنْ أَمْرِهِ (٥) أى بأمره . (٦) عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (٧) أى على  
 الذين اختارهم الله للنبوة . وهذا رد لقولهم : « تَوَلَّى نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ  
 عَظِيمٍ » . (٨) أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٩) تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء  
 الإنذار ؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه . ودل على ذلك قوله : « فَاتَّقُونِ » . و « أَنْ »  
 في موضع نصب بترع الخافض ، أى بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، ف « أَنْ »  
 في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه .

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٣٣ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٩٩ . (٣) راجع ج ١٦ ص ٨٢ .

قوله تعالى : خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾  
 قوله تعالى : ( خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ) أى للزوال والبقاء . وقيل :  
 « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأذله أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيى الخلق بعد الموت .  
 ( تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شئ .

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾  
 قوله تعالى : ( خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ) لما ذكر الدليل على توحيد الله ذكر بعده الإنسان  
 ومناكحته وتمذى طوره . « والإنسان » اسم للجنس . وروى أن المراد به أبى بن خلف  
 الجهمى ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أترى يحيى الله هذا بعد ما قدرتم .  
 وفى هذا أيضا نزل : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » أى خلق  
 الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم  
 فى الأمور . فعنى الكلام التعجب من الإنسان : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ « وقوله :  
 ( فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ) أى يخاصم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم الله عز وجل فى قدرته .  
 و ( مُبِينٌ ) أى ظاهر الخصومة . وقيل : يُبَيِّنُ عن نفسه الخصومة بالباطل . والمُبَيِّنُ :  
 هو المفضح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعالى : وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا  
 تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ) لما ذكر الإنسان ذكر ما من به عليه .  
 والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للجموع ولا يقال  
 للغنم مفردة . قال حسان :

(١) راجع ج ١٥ ص ٥٧ ، ٥٨ .



عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ \* إِلَى عَذْرَاءَ مِثْلُهَا خَلَاءُ<sup>(١)</sup>  
 دِيَارٌ مِنْ بَنَى الْحَسْحَاسِ قَفَرٌ \* تُعْفِيهِمُ الرَوَامِسُ وَالسَّمَاءُ<sup>(٢)</sup>  
 وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيَسُ \* خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ

فَالنَّعَمُ هُنَا الْإِبِلُ خَاصَّةً . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَالنَّعَمُ وَاحِدُ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْمَسَالُ الرَّاعِيَّةُ ، وَكَثَرُ مَا يَقَعُ هَذَا الْأِسْمُ عَلَى الْإِبِلِ . قَالَ الْفَرَّاءُ : وَهُوَ ذَكَرٌ لَا يُؤْنْتُ ، يَقُولُونَ : هَذَا نَعَمٌ وَارِدٌ ، وَيَجْمَعُ عَلَى ثَعْمَانٍ مِثْلَ حَمَلٍ وَمُحْلَانٍ . وَالْأَنْعَامُ تَذَكَرُ وَتؤْنْتُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « مِمَّا فِي بُطُونِهِ » . وَفِي مَوْضِعٍ « مِمَّا فِي بُطُونِهَا »<sup>(٣)</sup> . وَانْتَصَبَ الْأَنْعَامُ عَطْفًا عَلَى الْإِنْسَانِ ، أَوْ بِفَعْلٍ مَقْدَرٍ ، وَهُوَ أَوْجَهُ .

الثَّانِيَّةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ( دَفَّ )<sup>(٤)</sup> الدَّفَّ : السَّخَانَةُ ، وَهُوَ مَا اسْتَدْفَى بِهِ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ، مَلَابِسٌ وَلُحُفٌ وَقُطُفٌ<sup>(٥)</sup> : وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : دَفَّوْهَا نَسْلَهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي الصَّحَاحِ : الدَّفَّ نِسَاجُ الْإِبِلِ وَأَلْبَانِهَا وَمَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِنْهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَكُمْ فِيهَا دِفٌّ » . وَفِي الْحَدِيثِ « لَنَا مِنْ دِفِّهِمْ مَا سَلَمُوا بِالْمِثْقَالِ » . وَالدَّفَّ أَيْضًا : السَّخُونَةُ ، يَقُولُ مِنْهُ : دَفَّى الرَّجُلُ دَفَاةً مِثْلَ كَرَاهَةٍ . وَكَذَلِكَ دَفَّى دَفَاً مِثْلَ ظَمِئٍ ظَمًا . وَالْإِسْمُ الدَّفَّةُ ( بِالْكَسْرِ ) وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَدْفُكُ ، وَالْجَمْعُ الْأَدْفَاءُ . يَقُولُ : مَا عَلَيْهِ دَفٌّ ، لِأَنَّهُ اسْمٌ . وَلَا يَقُولُ : مَا عَلَيْكَ دَفَاةً ، لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ . وَيَقُولُ : أَقْعَدُ فِي دِفِّهِ هَذَا الْحَاطِطُ أَى كَيْتُهُ . وَرَجُلٌ دَفَّى عَلَى فَعِيلٍ إِذَا لَبَسَ مَا يَدْفِيهِ . وَكَذَلِكَ رَجُلٌ دَفَّانٌ وَامْرَأَةٌ دَفَاى . وَقَدْ أَدْفَاهُ الثَّوْبُ وَتَدَفَّى هُوَ بِالثَّوْبِ وَاسْتَدَفَى بِهِ ، وَادْفَأَ بِهِ وَهُوَ انْتَعَلَ بِأَى لَبَسَ مَا يَدْفِيهِ . وَدَفَّوْتُ لَيْلَتَنَا ، وَهُوَ يَوْمٌ دَفَّى عَلَى فَعِيلٍ وَاسِلَةٌ دَفِيَّةٌ ، وَكَذَلِكَ الثَّوْبُ وَالْبَيْتُ . وَالدَّفِيَّةُ الْإِبِلُ الْكَثِيرَةُ لِأَنَّ بَعْضَهَا يَدْفِي بَعْضًا بِأَنْفُسِهَا ، وَقَدْ يَشْتَدُّ . وَالدَّفْدَفَةُ الْإِبِلُ الْكَثِيرَةُ الْأَوْبَارِ وَالشَّحُومِ ، عَنْ الْأَصْمَعِيِّ . وَأَنْشَدَ الشَّامِيُّ :

وَكَيْفَ يَضِيغُ صَاحِبُ مُدْفَاتٍ \* عَلَى أَتْبَاجِهِنَّ مِنْ الصَّقِيعِ<sup>(٦)</sup>

(١) ذَاتُ الْأَصَابِعِ وَالْجَوَاءُ : مَوْضِعَانِ بِالشَّامِ . وَعَذْرَاءُ : قَرْيَةٌ بِقَوْمَةِ دِمَشْقَ . (٢) الْحَسْحَاسُ : اسْمُ رَجُلٍ . وَالرَّوَامِسُ : الرِّيحُ الَّتِي تَنِيرُ التُّرَابَ وَتَدْفِنُ الْأَنْثَارَ . (٣) رَاجِعٌ ص ١٢٢ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ . (٤) رَاجِعٌ ص ١٢٢ . (٥) الْفُطُفُ ( جَمْعُ قُطْفَةٍ ) كَمَا لَهُ نَحْوٌ : أَى وَبَرٍ . (٦) أَتْبَاجٌ : جَمْعُ ثَنِيَجٍ ، وَهُوَ وَسْطُهَا . وَقِيلَ : ظَهْرُهَا . وَمَا بَيْنَ كَاهِلِهَا وَظَهْرُهَا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَّا فِعْ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والجل والالبان واللحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثة : دلت هذه الآية على لباس الصوف ؛ وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كدوسى وغيره . وفى حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين ... الحديث ، نرجه مسلم وغيره . قال ابن العربى : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس لنا وخشنا وجيدا ومقاربا وردينا ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم فى الغالب ، فالياء للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدنى بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تساجر الناس فى الصوفى واختلقوا • فيه وظنوه مشتقا من الصوف  
ولست أنحل هذا الاسم غير قى • صافى فصوفى حتى سُمى الصوفى

قوله تعالى : وَلَكُرْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

الجمال ما يتجمل به ويترن . والجمال : الحسن . وقد يحمل الرجل ( بالضم ) جمالا فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجلاء أيضا ؛ عن الكسائى . وأنشد :

فهى جملاء كبدٍ طالع • بدت الملقى جميعا بالجمال

وقول أبى ذؤيب :

• جمالك أيها القلبُ الفريح <sup>(٢)</sup>

يريد : الزم تجلك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمال يكون فى الصورة وتركيب الخلق ، ويكون فى الأخلاق الباطنة ، ويكون فى الأفعال . فأما جمال الخلق فهو

(١) شىء مقارب (بكر الراى) : وسط بين الجيد والردى . (٢) هذا صدر البيت ، وبجزه كما فى اللسان :

• سائق من تحب فسترى •

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبتها لأحد من البشر . وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة . من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لطلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئيّ بالأبصار موافق للبصائر . ومن جماله كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه تَمَّ فلان ؛ قاله السدي . ولأنها إذا راحت ، توقّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها ؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسمة وضروعا ؛ قاله قتادة . ولهذا المعنى قدّم الزواج على السراح لتكامل دترها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أنسب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والزواج رجوعها بالعشي من المرعى والسراح بالغداء ؛ تقول : سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً إذا غدوت بها إلى المرعى فغلبتها ، وسرحت هي . المتعدى واللازم واحد .

قوله تعالى : وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِأَلْيَعِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧١﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ ) الأوقال أوقال الناس من متاع وطعام وغيره ، وهو ما يشغل الإنسان حمله . وقيل : المراد أبدانهم ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وَأَخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » . والبلد مكة ، في قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظاهر . وشق الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهري : والشق المشقة ؛ ومنه قوله تعالى : « لَمْ تَكُونُوا بِأَلْيَعِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٤٧ ، ولعل الأوقال في الزلزلة : الكتز .

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوي : وكسر الشين وفتحها في « شَقَّ » متقاربان ، وهما بمعنى المشقة ؛ وهو من الشق في العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال التلجي : وقرأ أبو جعفر « إِلَّا يَشَقُّ الْأَنْفُسُ » وهما لغتان ، مثل رِقَ ورقَ وِرَقَ وجَصَ ورِطلَ ورَطَلَ . وينشد قول الشاعر بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْعَى وَيَحْسِبُهَا لَهُ • أَيُّ نَصَبٍ مِنْ شَقَّهَا وَدُؤُوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شَقَّقت عليه أَشَقَّ شَقًّا . والشق أيضا بالكسر النصف ، يقال : أخذت شِقَّ الشاة وشَقَّةَ الشاة . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى ؛ أي لم تكونوا بالغية إلا بنقص من القوة وذهاب شِق منها ، أي لم تكونوا تبلفوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر . والشَّقُّ أيضا الناحية من الجبل . وفي حديث أُمِّ زَرْع : وجدني في أهل غُنيمة يشق . قال أبو عبيد : هو اسم موضع . والشق أيضا : الشقيق ، يقال : هو أخى وشق نفسى . وشَقَّ اسم كاهن من كهَّان العرب . والشق أيضا : الجانب ؛ ومنه قول امرئ القيس :

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انصَرَفَتْ لَهُ • يَشَقُّ وَيَحْتِ شِقَّةً لَمْ يَحُولِ

فهو مشترك .

الثانية — من الله سبحانه بالأنعام عموما ، وخص الإبل هنا بالذكر في حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فإن الغنم للسرْح والذبيح ، والبقر للحرث ، والإبل للعمل . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” بينا رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث فقال الناس سبحانه الله تعجبا وفزعا أَبْقَرَةٌ تَكَلِّمُ ؟ ” فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وإني أؤمن به وأبو بكر وعمر “ . فدل هذا الحديث على أن البقرة لا يحمل عليها ولا تتركب ، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرَّسْلُ<sup>(٢)</sup> .

(١) هو الثربن تولب ، كما في اللسان مادة شقق : وفي جوى : يفتى . (٢) الرسل (بالكسر) : اللبن .

الثالثة — في هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل مع الرفق في السير . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا سافرتُم في الحِصْب فاعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتُم في السنة فبادروا بها نَقِيها “<sup>(١)</sup> رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن معدان . وروى معاوية بن قُزَّة قال : كان لأبي الذرداء جمل يقال له دَمُون ، فكان يقول : يادمون ، لا تخاصمني عند ربك . فالدواب عُجْم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه ، ولا تقدر أن تفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقتها ثم ضيعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرض للخصومة بين يدي الله تعالى . وروى مطر بن محمد قال : حدثنا أبو داود قال حدثنا ابن خالد قال حدثنا المسيب بن آدم قال . رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب بجمالاً وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق ؟ .

قوله تعالى : **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٨٥﴾  
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **( وَالْخَيْلَ )** بالنصب معطوف ، أى وخلق الخيل . وقرأ ابن أبي عبَّالة « وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ » بالرفع فيها كلها . وسميت الخيل خيلاً لاختيارها في المشية . وواحد الخيل خائل ، كضائن واحد ضائن . وقيل : لا واحد له . وقد تقدم هذا في « آل عمران »<sup>(٢)</sup> ، وذكرنا الأحاديث هناك . ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

(١) قوله « في السنة » أى في القحط وانعدام نبات الأرض في يدها . والنق ( يكثر النون وسكون القاف ) هو المنع . ومعناه : أمرعوا في السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ؛ إذ ليس في الأرض ما يقويها على السير . (٢) راجع ج ٤ ص ٣٢ .



دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب ، فإنه يكثر في الخيل واليغال والحمر .

الثانية — قال العلماء : ملكاً الله تعالى الأنعام والدواب وذلالها لنا ، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه تعالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخير من الحيوان فكأثره له جائز بإجماع أهل العلم ، لا اختلاف بينهم في ذلك . وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور في كتب الفقه .

الثالثة — لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها ؛ لقوله تعالى : « وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ » الآية . وأجازوا أن يُكْرَى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمَّ أين ينزل منها ، وكَم من مثيل ينزل فيه ، وكيف صفة سيره ، وكَم ينزل في طريقه ، وأجرتوا بالمتعارف بين الناس في ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجري مجرى البيوع فيما يحمل منه ويحرم . قال ابن القاسم : فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرَوِي ولم يصف رقعة وذره ، لم يميز ؛ لأن مالكا لا يميز هذا في البيع ، ولا يميز في ثمن الكراء إلا ما يجوز في ثمن البيع .

قلت : ولا يختلف في هذا إن شاء الله ؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أفزة قمع لحمل عليها ما اشترط فليفت أن لاشئ عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أفزة شعيرا . واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أفزة لحمل عليها أحد عشر قفزا ، فكان الشافعي وأبو ثور يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء . وقال ابن أبي ليلى : عليه قيمتها ولا أجر عليه . وفيه قول ثالث — وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يفتح الدابة ، ويُعلم أن مثله

(١) المثل : المترب ، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السفارة على الماء منازل .

لا تعطب فيه الدابة ، ولربّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ؛ لأن عطها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تعدّ كله فيضمن إذا هلك في قليله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذن وتعدّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطب في مثلها علم أن هلاكها مما أذن له فيه .

الرابعة — واختلف أهل العلم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى ، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدى كراء ؛ هكذا قال الثوري . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمي ، ولا أجر له فيما لم يسم ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، وبه قال يعقوب . وقال الشافعي : عليه الكراء الذي سمي ، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخة أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكتري الغاية التي اكتري إليها ثم زاد ميلا ونحوه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطبت الدابة ، فلهيّا كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدى . ابن المواز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحو : وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن الماجشون وأصنغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذي تكارها إليه بسير ، ثم رجع بها سالمة إلى موضع تكارها إليه فمات ، أو مات في الطريق إلى الموضع الذي تكارها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة ، كرده لما تسلف من الوديعة . ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغير في مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو مات في مجاوزة الأمد أو المسافة ؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يعين على قتلها فهلاكها بمسردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلف من الوديعة بعد رده لا محالة . وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها .

الخامسة - قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ  
وَالْجَيْرَ لَتَرْكَبُوَهَا وَزِينَةً » فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل ؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا  
قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب  
والزينة دل على أن ما عداه بخلافه . وقال في الأنعام : « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » مع ما امتن الله منها  
من الذئب والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهذه الآية أحتج ابن عباس  
والحكم بن عتيبة ، قال الحكم : لحوم الخيل حرام في كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتي قبلها  
وقال : هذه للأكل وهذه للركوب . وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه  
الآية وقال : هذه للركوب ، وقرأ الآية التي قبلها « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ »  
ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد  
وغيرهم ، وأحتجوا بما خرج أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المقدم  
ابن معديكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى  
يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكل ذي ناب من السباع أو يخب من الطير .  
لفظ الدارقطني . وعند النسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم  
يقول : « لا يجل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير » . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين :  
هي مباحة . وروى عن أبي حنيفة . وشذت طائفة فقالت بالتحريم ؛ منهم الحكم كما ذكرنا ،  
وروى عن أبي حنيفة . حكى الثلاث روايات عنه الروائي في بحر المذهب على مذهب الشافعي .

قلت : الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وإن الآية والحديث  
لا حاجة فيهما لازمة ؛ أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل ؛ إذ لو دلّت عليه لدأت على تحريم  
لحوم الحمر ، والسورة مكية ، وأى حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمر عام خير وقد  
ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي . وأيضاً لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من  
مناعمها وأهم ما فيها ، وهو حمل الأنفال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحشر بها ولا غير  
ذلك مصرحاً به ، وقد تركب ويمرّح بها ؛ قال الله تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا

مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ<sup>(۱)</sup> . وقال في الخيل : « لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها ، ولم يذكر حمل الأثقال عليها ، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل . وقد بينه نبيه عليه السلام الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي ، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألا تؤكل ، فهذه البقرة قد أنطقها خالفها الذي أنطق كل شيء فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم من عل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألا تؤكل البقر لأنها خلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها ؛ فكذلك الخيل بالسنة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمير الأهلية وإذن في لحوم الخيل . وقال النسائي عن جابر : أطمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمير . وفي رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خيبر حكاية حال وقضية في عين ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا للضرورة ، ولا يحتج بقضايا الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال ، وإثن سلمناه فعنا حديث أسماء قالت : نحرنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه ؛ رواد مسلم . وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى ، لا يلتفت إليه ولا يعرج عليه . وقد روى الدارقطني زيادة حسنة ترفع كل تأويل في حديث أسماء ، قالت أسماء : كان لنا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذببحناها فأكلناها . فذببحها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال . والله التوفيق . فإن قيل : حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالجار ؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول في القول به ، وإثن سلمناه فهو مستقص بالاحتراز ؛ لأنه ذو ظلف وقد بآين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان في مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه . قال الطبري : وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكره لا كل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

السادسة - وأما البغال فإنها تلتحق بالحمير، إن قلنا إن الخليل لا تؤكل؛ فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان . وإن قلنا إن الخليل تؤكل ، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحل به الذبيحة . وقد مضى في « الأنعام » الكلام في تحريم الحمير فلا معنى للإعادة . وقد عُلّ تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلقط؛ فسحق رجسا .

السابعة - في الآية دليل على أن الخليل لا زكاة فيها ؛ لأن الله سبحانه من علينا بما إباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عمارك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة " . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في الخليل والريق زكاة إلا زكاة الفطر في الرقيق " . وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة ، وإن شاء قومها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم . وأحتج بأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " في الخليل السائمة في كل فرس دينار " ويقول صلى الله عليه وسلم : " الخليل ثلاثة ... " الحديث . وفيه : " ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها " . والجواب عن الأول أنه حديث لم يروه إلا غورك السعدي (٢) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر . قال الدارقطني ؛ تفرد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا ، ومن دونه ضعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النفي وتعين بها لقتال العدو إذا تعين ذلك عليه ، ويمحل المتقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك ، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك ، كما يتعين عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله في رقابها . فإن قيل ؛ هذا هو

(١) راجع ج ٧ ص ١١٥ فابعد . (٢) هو غورك بن الحضرمي أبو عبد الله . (عن الدارقطني) .



الحق الذي في ظهورها وبق الحق الذي في رقابها ؛ قيل : قد روى ” لا ينسى حق الله فيها “ ولا فرق بين قوله : ” حق الله فيها “ أو ” في رقابها وظهورها “ فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلق بجملة . وقد قال جماعة من العلماء : إن الحق هنا حسن ملكها وتعهدها شيعها والإحسان إليها وركوبها غير مشقوق عليها ؛ كما جاء في الحديث ” لا تتخذوا ظهورها كراسي “ . وإنما خص رقابها بالذکر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ <sup>(١)</sup> » وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرباع والأموال ؛ ألا ترى قول كثير :  
غَمَرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا \* فَلَقْتُ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ <sup>(٢)</sup>

وأبضا فإن الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها . وأيضا فيلجأ به الزكاة في إنائها منفردة دون الذكور تناقض منه ، وليس في الحديث فصل بينهما . ونقيس الإناث على الذكور في نفي الصدقة بأنه حيوان مُقْتَنٍ لنسله لا لذره ، ولا تجب الزكاة في ذكوره فلم تجب في إنائه كالبعال والحمير . وقد روى عنه أنه لا زكاة في إنائها وإن انفردت كذكورها منفردة ؛ وهذا الذي عليه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزهري وغيره . وقد روى من حديث مالك ، رواه عنه جويرية عن الزهري أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبي يقوم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان ، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما . تفرد به جويرية عن مالك وهو ثقة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل ، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يُتَزَيَّنُ به ، وهذا الجمال والتزين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” الإبل عزٌّ

(١) راجع ج ٥ ص

(٢) الفهر : الماء الكثير . ورجل غمر الرداء ، وغمر الخلق ، أى واسع الخلق ، كثير المعروف حتى .

لأهلها والغنم بركةً والخيل في نواصيها الخير . خرج البرقاني وابن ماجه في السنن . وقد تقدم في الأنعام . وإنما جمع النبي صلى الله عليه وسلم العز في الإبل ؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو وإن نقصها الكر والفز . وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب ؛ بخلاف الفقادي<sup>(١)</sup> أهل الوبر . وقرن النبي صلى الله عليه وسلم الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش ، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور ؛ من الخلق . وقيل ؛ من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » مما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها ، مما لم تره عين ولم تسمع به إذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قتادة والسدي : هو خلق السوس في الثياب والدرد في الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش ؛ حكاه الماوردي . الثعلبي : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة ، يدخله جبريل كل سحر فيغتمل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه ، ثم ينتفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور ، وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس<sup>(٢)</sup> — وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها "أرض بيضاء ، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض" قالوا : يا رسول الله ، من ولد آدم؟ قال : " لا يعلمون أن الله خلق آدم " . قالوا : يا رسول الله ، فأين إبليس منهم؟ قال : " لا يعلمون أن الله خلق إبليس " — ثم تلا " وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " ذكره الماوردي .

(١) الفقاديون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف . في : أهل الإبل .

(٢) كذلك في الأصول . والفتاوى سادس .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال : إن الله عبادا من وراء الأندلس كما بينا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق ، وضراهم الدز والياقوت وجبالهم الذهب والفضة ، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمره طعمهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم ، ذكره في بدء الخلق من ( كتاب الأسماء والصفات ) . وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام “ .

قوله تعالى : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ( وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ) أى على الله بيان قصد السبيل ، لحذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام ، أى على الله بيانه بالرسول والحجج والبراهين . وقصد السبيل : استقامة الطريق ؛ يقال : طريق فاصد أى يؤدى إلى المطلوب . ( وَمِنْهَا جَائِرٌ ) أى ومن السبيل جائر ؛ أى عادل عن الحق فلا يهتدى به ؛ ومنه قول امرئ القيس :  
ومن الطريقة جائر وهُدًى \* قصد السبيل ومنه ذو دخل  
وقال طرفة :

عَدْوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَاسِينَ \* يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي  
العدولية سفينة منسوبة إلى عدو لي قرية بالبحرين . والعدولي : الملاح ؛ قاله في الصحاح . وفي التزويل « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ » وقد تقدم . وقيل : المعنى ومنهم جائر عن السبيل الحق ، أى عادل عنه فلا يهتدى إليه . وفيهم قولان ، أحدهما — أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثاني — ميل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضاض : الحصى أو مادي من الحصى . (٢) فى : يحرثون . (٣) راجع ج ٧ ص ١٣٧

والتصرانية. وفي مصحف عبد الله « وَمِنْكُمْ جَائِرٌ » وكذا قرأ عليّ « ومنكم » بالكاف. وقيل: المعنى وعنها جائر؛ أى عن السبيل . فـ « مِنْ » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أى من أراد الله أن يهديه سبيل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضلّه نفل عليه الإيمان وفروعه. وقيل: معنى « قَصْدُ السَّبِيلِ » مسيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنثى الكناية فقال: « وَمِنْهَا » والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز .

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويردّ على القدرية ومن وافقها كما تقدّم .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾

الشراب ما يُشْرَب، والشجر معروف . أى ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا . وَ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم ؛ يقال: سامت السائمة تسوم سَوْماً أى رعت ، فهى سائمة . وَالسَّوَامُ والسائم بمعنى ، وهو المسال الراعى . وجمع السائم والسائمة سوائم . وأسمتها أنا أى أخرجتها إلى الرعي ، فإنا مُسِمٌ وهى مُسامة وسائمة . قال: <sup>(١)</sup> . أَوَّلَى لَكَ آيَنَ مُسِيْمَةِ الْأَجْمَالِ •

وأصل السَّوْمُ الإبعاد في المرعى . وقال الزجاج : أخذ من السَّوْمَةِ وهى العلامة ؛ أى أنها تؤثر في الأرض علامات برعيها ، أو لأنها تُعَلَّمُ للإرسال في المرعى . قلت : والخليل المسومة تكون المريعة . وتكون المعائمة . وقوله : « مُسَوِّمِينَ » قال الأخفش تكون مُعَلِّمِينَ وتكون مُرْسَلِينَ ؛ من قولك : سَوَّمت فيها الخليل أى أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخليل صُوِّمت وعليها ركانها .

(١) هذا مجزئيت ، وصدره كما في تفسير الطبري :

• مثل ابن بزعة أو كآثر منته •

قوله تعالى : يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ  
وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾  
قرأ أبو بكر عن عاصم « نبت » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛  
يقال : نبت الأرض وأنبت بمعنى ، ونبت البقل وأنبت بمعنى . وأنشد الفراء :

رَأَيْتُ ذِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بَيْتِهِمْ \* قَطَيْنَا بَهَا حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ

أى نبت . وأنبت الله فهو منبوت ، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت عانته . ونبت الشجر  
غرسه ؛ يقال : نبت أهلك بين عيذك . ونبت الصبي تنبنا ربه . والمنبت موضع النبات ؛  
يقال : ما أحسن نابتة بنى فلان ؛ أى ما ينبت عليه أموالهم وأولادهم . ونبت لهم نابتة إذا  
نشأ لهم نشء صغار . وإن بنى فلان لنابتة شر . والنواب من الأحداث الأغمار . والنبت  
حتى من الين . والنبوت شجر ؛ كله عن الجوهرى . ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ جمع زيتونة . ويقال  
للشجرة نفسها : زيتونة ، وللثمرة زيتونة . وقد مضى فى سورة « الأنعام » حكم زكاة هذه  
الثمار فلا معنى للإعادة . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنزال والإنبات . ﴿لَآيَةً﴾ أى دلالة . ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى : وَخَرَجُوا لَكُمْ أَيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَخَرَجُوا لَكُمْ أَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى للسكون والأعمال ؛ كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ  
جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » . ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أى مذلات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم  
فى الظلمات . وقرأ [ابن عباس و] ابن عباس وأهل الشام «والشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ

(١) فى ج : بنت الشجر غرسه . (٢) أبو حنيفة من الين واسمه عمرو بن مالك .

(٣) الذى فى القاموس : النبوت شجر الخشخاش وشجر آخر عظام أو شجر الخروب .

(٤) راجع ج ٧ ص ٩٩ فابعداها . (٥) راجع ج ١٣ ص ٣٠٨ . (٦) فى ج .



بالرفع على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفاً على ما قبله . وقرأ حفص عن عاصم برفع  
« وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ » خبره . وقرأ « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ » بالنصب [عطفاً على  
الليل والنهار، ورفع والنجوم على الابتداء] . « مُسَخَّرَاتٌ » بالرفع، وهو خبر ابتداء محذوف  
أى هى مسخرات، وهى فى قراءة من نصبها حال مؤكدة؛ كقوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »  
(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أى عن الله ما نبههم عليه ووقفهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَ لَكَ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَا ذَرَأَ ) أى وسخر ما ذراً فى الأرض لكم . « ذَرَأَ »  
أى خلق؛ ذراً الله الخالق يذرؤهم ذَرَأَ خلقهم، فهو ذارى؛ ومنه الذرية وهى نسل الثقلين،  
إلا أن العرب تركت همزها؛ والجمع الذرارى . يقال : أنمى الله ذَرَأَكَ وذروك، أى ذريتك .  
وأصل الذرو والذره التفريق عن جمع . وفى الحديث « ذره النار » أى أنهم خلقوا لها .

الثانية - ما ذراه الله سبحانه منه مسخرٌ مذكَّل كالذواب والأنعام والأشجار وغيرها،  
ومنه غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن  
لجعلنى يهودٌ حماراً . فقيل له : وما هن ؟ فقال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شئ  
أعظم منه، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها  
ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وبرّاً وذرّاً . وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال :  
أُسِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفرتنا من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث .  
وفيه : وشر ما ذَرَأَ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

(١) من ج . (٢) رابع ج ٢ ض ٢٩ . (٣) أى فى حديث عمر رضى الله عنه وقد كتب

إلى خاله : وإنى لأظنكم آل المذرة ذرة النار .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ «مختلفا» نصب على الحال . و «أَلْوَانُهُ» هيئاته ومناظره ، يعنى الدواب والشجر وغيرها . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أى فى اختلاف ألوانها . ﴿آيَةً﴾ أى لعبرة . ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى يتعظون ويعلمون أن فى تسخير هذه المكونات لعلامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾  
فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره ، وهذه نعمة من نعم الله علينا ، فلو شاء سلطه علينا وأغرقتنا . وقد مضى الكلام فى البحر وفى صيده . وسماء هنا لحما واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس ، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات الماء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا ، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسماك متفاضلا ، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسماك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها ؛ فلحم البقر صنف ، ولحم الغنم صنف ، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السمك ، وهو أحد أقوال الشافعى . والقول الآخر أن الكل من النعم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه . والقول الأول هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : تَمَسْنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ<sup>(١)</sup>

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٨ و ج ٦ ص ٣١٨ .

(٢) راجع ج ٧ ص ١١٣ .

ثم قال : « وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » فلما أن أم بالجميع إلى اللحم قال : « أَهْلَتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ » فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كقتقارب لحم الضأن والمعز . وقال في موضع آخر : « وَلَحِمٌ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتُونَ »<sup>(١)</sup> وهذا جمع طائر الذي هو الواحد ؛ لقوله تعالى : « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » فجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « تَحْمًا طَيْرِيًّا » فجمع أصناف السمك بذكر واحد ، فكان صغاره ككباره في الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش أشيء واحد ؟ فقال لا ؛ ولا يخالف له فصار كالإجماع ، والله أعلم . ولا حجة للمخالف في نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مثلاً بمثل ؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم ، وأيضا فإنه معارض بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم » وهذا جنسان ، وأيضا فقد انفقتنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لعله أنه يبيع طعام لازكاة له يبيع بلحم ليس فيه الزكاة ، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانية — وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن سُخْنُونٍ أنه يمنع من ذلك ، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يذخر .

الثالثة — اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما ؛ فقال ابن القاسم : يحنت بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب في المجموعة : لا يحنت إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره ، مراعاة للعرف والعادة ، وتقديمها لها على إطلاق اللفظ اللغوي ، وهو أحسن .  
الرابعة — قوله تعالى : « وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا »<sup>(٢)</sup> يعني به اللؤلؤ والمرجان ؛ لقوله تعالى : « يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ »<sup>(٣)</sup> . وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من الملبح فقط . ويقال : إن في الزُّمُرْدِ بحريا . وقد خُطِنَ المُهْدَلِي في قوله في وصف الدرّة :

(١) في الأصول : « فلما أن أم بالجميع » . يريد : فلما أن قصد بالجميع إلى اللحم .  
(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٠٢ فابعد ص ١٦١ فابعد . (٣) راجع ج ٦ ص ٤١٩ فابعد .  
(٤) في ج ١ ص ١١٠ . (٥) في : وهذا حسن .

بغناء بها من دُرَّة لَطِيْمَةٍ \* على وجهها ماء الفرات يَدُومُ<sup>(١)</sup>

بغفلهما من الماء الحلو . فالحلية حق وهي تحلة الله تعالى لآدم وولده . خلق آدم وتُوج وكُلَّ  
بلا كليل الجنة ، وختم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم ، وكان يقال  
له : خاتم العز فيما روى .

الخامسة — امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ،  
فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير : روى الصحيح  
عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لا تلبسوا الحرير فإنه من  
لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة “ . وسيأتي في سورة « الحج » الكلام فيه إن شاء الله .  
وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل  
فصه مما يلي باطن كفه ، ونقش فيه محمد رسول الله ، فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها  
رمى به وقال : ” لا ألبسه أبدا “ ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة .  
قال ابن عمر : فليس الخاتم بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من  
عثمان في بئر أريس<sup>(٢)</sup> . قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده .  
وأجمع العلماء على جواز التختم بالورق على الجملة للرجال . قال الخطابي : وكره للنساء التختم  
بالفضة ؛ لأنه من زي الرجال ، فإن لم يجدن ذهبا فليصترنه بزعفران أو بشبهه . وجهور  
العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ؛ إلا ما روى عن أبي بكر بن  
عبد الرحمن وخباب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم يبلغهما النهي والنسخ . والله أعلم .  
وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من ورق  
يوما واحدا ، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من ورق وليسوها ، فطرح رسول الله صلى الله عليه  
وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم — أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاري — فهو عند العلماء

(١) اللطيمة : الجمال التي تحمل العطر . وقيل : اللطيمة العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتت به حتى نشبت رائحتها ،  
وهي اللطيمة .

(٢) راجع ج ١٢ ص ٢٨ . (٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء .

وهم من ابن شهاب؛ لأن الذي نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب .  
رواه عبد العزيز بن صهيب وثابت وقائدة عن أنس ، وهو خلاف ما روى ابن شهاب عن أنس  
فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها ، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادسة — إذا ثبت جواز التختيم للرجال بخاتم الفضة والتجلي به ، فقد ذكره ابن سيرين  
وغیره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش  
عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعله في شماله ، فهل يدخل به الخلاء  
ويستنجى بشماله ؟ خففه سعيد بن المسيب ومالك . قيل لمالك : إن كان في الخاتم ذكر  
الله ويلبسه في الشمال أيستنجى به ؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو  
الأولى . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريح عن الزهري عن  
أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود :  
هذا حديث منكر ، وإنما يعرف عن ابن جريح عن زيادة بن سعد عن الزهري عن أنس أن  
النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ورق ثم ألغاه . قال أبو داود : لم يحدث بهذا إلا همام .

السابعة — روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما  
من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : « إني اتخذت خاتما من ورق ونقشت فيه محمد  
رسول الله فلا ينقش أحد على نقشه » . قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب  
الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم ، ونهيه  
عليه السلام : ألا ينقش أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له  
إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان . ورووا في ذلك حديثا .  
عن أبي ریحانة ، وهو حديث لا حجة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : « لا ينقش أحد على  
نقشه » يرده ، ويدل على جواز اتخاذ الخاتم لجميع الناس ، إذا لم ينقش على نقش خاتمه .  
وكان نقش خاتم الزهري « محمد يسأل الله العافية » . وكان نقش خاتم مالك « حسبى الله  
ونعم الوكيل » . وذكر الترمذي الحكيم في (نواذر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام



« لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » وقد مضى في الرعد <sup>(١)</sup> . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغني أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبعه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم ، واكتب عليه « رحم الله أمراء عرف قدر نفسه » .

الثامنة — من حلف ألا يلبس حلياً فلبس لأولاً لم يحنث ؛ وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خزيمة مندداً : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين ، والإيمان تحصى بالعرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنث ؛ وكذلك لا يستضيئ بسراج بفس في الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سمى الأرض فراشا والشمس سراجاً . وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حلياً ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث ؛ لقوله تعالى : « وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » والذي يخرج منه : اللؤلؤ والمرجان .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفلك وركوب البحر في « البقرة » وغيرها . وقوله : « مَوَاحِرَ » قال ابن عباس : جَوَارِي ، من جرت تجرى . سعيد بن جبير : معترضة . الحسن : موافر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجي ، مقبلة ومدبرة بريح واحدة . وقيل : « مَوَاحِرَ » ملججة في داخل البحر ؛ وأصل المخرشق الماء عن يمين وشمال . محرت السفينة تَمَحَّرَ وَتَمَحَّرَ مَحْرًا وَمُحَوَّرًا إذا جرت تشق الماء مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ﴾ يعنى جَوَارِي . قاله الجوهري ، ومَحَر السابح إذا شق الماء بصدده ، ومَحَر الأرض شقها للزراعة ، ومَحَرها بالماء إذا حبس الماء فيها حتى تصير أريضة ؛ أى خليقة بجودة نبات الزرع . وقال الطبري : المخر في اللغة صوت هبوب الريح ؛ ولم يقيد كونه في ماء ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبي عبيدة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخز الريح ؛ أى لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهب ، فيتجنب استقبالها لئلا ترده عليه بوله . ﴿ وَلَيْتَبَتُّوْا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى ولتركوه للتجارة وطلب الريح . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقدم جميع هذا في « البقرة » والحمد لله .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٩ . (٢) راجع ج ١ ص ٣٨٨ وج ٢ ص ١٩٤ .

قوله تعالى : **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَحْمَدَ بِكُمْ وَانْهَرَا وَسَبَّالاً**

**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٥﴾

قوله تعالى : **(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي)** أى جبلاً ثابتاً . رسا يرسو إذا ثبت وأقام .

قال :

فصبرت عارفةً لذلك حُرَّةً \* ترسو إذا نفس الجبان تطلعت<sup>(١)</sup>

**(أَنْ تَحْمَدَ بِكُمْ)** أى لتلا تحميد ، عند الكوفيين . وكراهية أن تحمد ، على قول البصريين .  
واليمد : الاضطراب يمينا وشمالا ، ماد الشيء يمد مميذا إذا تحرك ، ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تتغير . قال وهب بن منبه : خلق الله الأرض فجعلت تحمد وتمور ، فقالت الملائكة : إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أرسبت بالجبال ، ولم تدر الملائكة من خلقت الجبال . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لما خلق الله الأرض قمصت ومالت وقالت : أى رب ! اتجعل على من يعمل بالمعاصي والخطايا ، ويلي على الجيف والنتن ! فأرسل الله تعالى فيها من الجبال ماترون وما لا ترون . وروى الترمذى فى آخر (كتاب التفسير) : حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما خلق الله الأرض جعلت تحمد تخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرت فعجيب الملائكة من شدة الجبال فقالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الماء قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء قال نعم الريح قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم تصدق بصدقة يمينه يخفيها من شماله" . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه .

(١) البيت لمنزلة العيسى . يقول : حبست نفساً عارفة ، أى صابرة . وقوله :

وعلمت أن منيى إنسان ثائلى \* لا يجنى منها القسرد الأسرع

قلت : وفي هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدم هذا المعنى . ( وَأَنهَارًا ) أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقي فيها أنهارا . ( وَسُبُلًا ) أى طرقا ومسالك . ( لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ) أى إلى حيث تقصدون من البلاد فلا تضلّون ولا تتحيرون .

قوله تعالى : وَعَلَّمَنِي وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَعَلَّمَنِي ) قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أى جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . ( وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ) يعنى بالليل ، والنجم يراد به النجوم . وقرأ ابن وثاب « وَبِالنُّجْمِ » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم ، فقصره ؛ كما قال الشاعر :

إنا الفقيه بيننا قاضٍ حكم \* أن ترد المساء إذا غاب النجم

وكذلك القول لمن قرأ « النجم » إلا أنه سكن استخفافا . ويجوز أن يكون النجم جمع نجم كسقف وسقف . واختلف في النجوم ؛ فقال الفراء : الجدى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر :

حتى إذا ما استقلَّ النجم في غلس \* وغودر البقل ملوئٌ ومحصولٌ<sup>(١)</sup>

أى منه ملوئ ومنه محصول ، وذلك عند طلوع الثريا يكون . وقال الكلبى : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتدى بها ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قتادة والنخعي . وقيل : تم الكلام عند قوله : « وَعَلَامَاتٍ » ثم ابتدأ وقال : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » . وعلى الأول : أى وجعل لكم علامات ونجوم ما يهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بها . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما — فى الأسفار ،

(١) البيت لذي الرمة . معنى « استقل » طلع فى آخر الليل . وفى ديوانه : « أحصد » بدل « غودر » .  
وأحصد : حان حصاده .

وهذا قول الجمهور . الثانى — فى القبلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » قال : ” هو الجُدىُّ يأبَن عباس ، عليه قبلكم وبه تهتدون فى بركم وبحركم “ ذكره الماوردى .

الثانية — قال ابن العربى : أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغارها ، والفرق بين الجنوى والشمالى منها ، وذلك قليل فى الآخرين . وأما التّريّا فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهدى لكل أحد بالجُدى والفرقدین ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السّمت الثابتة فى المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دورانا محصلا ، فهى أبدا هُدى الخلق فى البر إذا عميت الطرق ، وفى البحر عند مجرى السفن ، وفى القبلة إذا جهل السّمت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكك الأيسر فما استقبلت فهو سمت الجهة .

قلت : وسأل ابن عباس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : ” هو الجدى عليه قبلكم وبه تهتدون فى بركم وبحركم “ . وذلك أن آخر الجُدى بنات نعش الصغرى والقطب الذى تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثة — قال علماءنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما — أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصد جهتها بجميع بدنه . والآخر — أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاها بالدلائل ، وهى الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها ، ومن غابت عنه وصلى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلى مجتهدا مستديلا ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلى إلى غير القبلة أعاد إن كان فى وقتها ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أمر به . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » <sup>(١)</sup> مستوفى والحمد لله :

قوله تعالى : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هو الله تعالى . ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ يريد الأصنام .  
﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يخبر عن من يعمل على ما تستعمله العرب في ذلك ؛ فلأنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « من » كقوله : « أَهْمُ رَجُلٌ » . وقيل : لا فتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه على الركب وجمله فلا أدري مَنْ ذا وَمَنْ ذا ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المهدوي : ويسأل بـ « من » عن البارئ تعالى ولا يسأل عنه بـ « ما » ؛ لأن « ما » إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بذى جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « مَنِ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى » ولم يجب حين قال له : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » إلا بجواب « مَنْ » وأضرب عن جواب « ما » حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تقدم في إبراهيم . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . والله يعلم ما تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفى .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

- (١) راجع ج ٧ ص ٣٤٢ . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٠٣ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٩٨ .  
(٤) راجع ج ١٤ ص ٥٨ و ٥٩ . (٥) راجع ج ١٦ ص ١٧٩ . (٦) راجع ج ٩ ص ٣٦٧ .



قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) قراءة العامة « تَدْعُونَ » بالياء لأن ما قبله خطاب . روى أبو بكر عن عاصم وهبيرة عن حفص « يَدْعُونَ » بالياء ، وهى قراءة يعقوب .  
 فاما قوله : « مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » فكلامهم بالياء على الخطأ ؛ إلا ما روى هبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء . ( لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ) أى لا يقدرُونَ على خلق شئ . ( وَهُمْ يُخْلَقُونَ ) .  
 ( أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ) أى هم أموات ، يعنى الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أى هى جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة . ( وَمَا يَشْعُرُونَ ) يعنى الأصنام .  
 ( أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ) وقرأ السليبي « أَيَّانَ » بكسر الهمزة ، وهما لغتان ، موضعه نصب بـ « يُبْعَثُونَ » وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . وعبر عنها كما عبر عن الآدميين ؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى ، بغرى خطأهم على ذلك . وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتبترأ من عبادتهم ، وهى فى الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث . قال ابن عباس ؛ تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبادتها ، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبادتها يوم القيامة ؛ دليله « إِن كُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » . وقيل : تم الكلام عند قوله : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات ، وهذا الموت موت كفر . « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى وما يدري الكفار متى يبعثون ، أى وقت البعث ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة ، وأملها تكون قريبا .

قوله تعالى : إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لما بين استحالة الإشراف بالله تعالى بين أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه . ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينفع فيها الذكر ، وهذا رد على القدرية . ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم في « البقرة » معنى الاستكبار . ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : «لَا جَرَمَ» كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً ، يقال : فعلوا ذلك ؛ فيقال : لا جرم سيندمون . أى حقا أن لهم النار . وقد مضى القول في هذا في « هود » مستوفى . ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أى لا يشيهم ولا يثني عليهم . وعن الحسين بن علي أنه مر بمساكين قد قدموا كسرا بينهم وهم يأكلون فقالوا: الغذاء يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فلما فرغ قال : قد أجبتكم فأجيبوني ؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء : وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر ؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله . وفي الحديث الصحيح "إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة يطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم" . أو كما قال صلى الله عليه وسلم : "تَصْغُرُ لَهُمْ أَجْسَامُهُمْ فِي الْمَحْشَرِ حَتَّى يَضْرِبَهُمْ صَغَرُهَا وَتَعْظُمَ لَهُمْ فِي النَّارِ حَتَّى يَضْرِبَهُمْ عَظْمُهَا" .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعنى وإذا قيل لمن تقدم ذكره من لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرا بالبعث «مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ» . قيل : القائل النضر بن الحارث ، وأن الآية نزلت فيه ، وكان خرج إلى الحيرة فاشترى أحاديث (كيلة ودمنة) فكان يقرأ على قريش ويقول : ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين ؛ أى ليس هو من تنزل

(١) راجع ج ١ ص ٢٩٦ . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٠ . (٣) في ج ١ ص ٢٠ .

ربنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبأوا فاجابوا بقولهم : « <sup>(۱)</sup>أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » فافترسوا بإنكار شيء هو أساطير الأولين . والأساطير : الأباطيل والتوهمات . وقد تقدم في الأنعام . والقول في « <sup>(۲)</sup>مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ » كالكقول في « <sup>(۳)</sup>مَاذَا يُنْفِقُونَ » وقوله : « <sup>(۴)</sup>أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » خبر ابتداء محذوف ، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ <sup>(۵)</sup> أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ » قيل : هي لام كي ، وهي متعلقة بما قبلها . وقيل : لام العاقبة ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزًا » . أي قولهم في القرآن والنبي آذاهم إلى أن حملوا أوزارهم ؛ أي ذنوبهم . « كَامِلَةً » لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم . وقيل : هي لام الأمر ، والمعنى التهديد . « وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » قال مجاهد : يحملون وِزْرَ من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شيء . وفي الخبر « إِيْمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبَعَ فَإِنْ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ وَإِيْمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبَعَ فَلَهُ مِثْلُ أَجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ » ترجمه مسلم بمعناه . و « مِنْ » للجنس لا للتبعية ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم . وقوله : « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا . « <sup>(۶)</sup>أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أي بئس الوزر الذي يحملونه . ونظير هذه الآية « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » وقد تقدم في آخر « الأنعام » بيان قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(۱) راجع ج ۶ ص ۴۰۵ .  
(۲) راجع ج ۱۳ ص ۲۵ ، ص ۲۳۰ .

(۱) في بدوي : إزال .  
(۲) راجع ج ۳ ص ۳۶ .  
(۳) راجع ج ۷ ص ۱۵۷ .

قوله تعالى : قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنْ  
الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ  
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدمين  
فكانت العاقبة الجميلة للرسل . ﴿ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾  
قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه الثمروذ بن كنعان وقومه ، أرادوا صعود السماء  
وقال أهله ؛ قَبْنُوا الصَّرْحَ لِيَصْعَدُوا مِنْهُ بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخر . كما تقدم بيانه  
في آخر سورة « إبراهيم » . ومعنى « فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ » أى أتى أمره البنيان ، إما زلزلة  
أوريجا فخر به . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْحِ فى السماء خمسة آلاف ذراع ،  
وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل . كان طوله فرسخين ، فهبت ريح فألقت رأسه  
فى البحر وخر عليهم الباقي . ولما سقط الصَّرْحُ تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ ،  
فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ، فذلك سمى بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السريانية .  
وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » . ﴿ وَقَرَأَ ابْنُ هَرْمُزٍ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ « السَّقْفُ » بضم السين  
والقاف جميعا . وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ؛ كما تقدم فى « دوالجيم » فى الوجهين .  
والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء ، وإذا اختلفت القواعد سقط البناء .  
وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابي : وكذا يعلمك أنهم كانوا حالين تحته . والعرب  
تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . بخلاف قوله :  
« مِنْ فَوْقِهِمْ » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال : « مِنْ فَوْقِهِمْ » أى عليهم وقع  
وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ؛ أى إن العذاب أُنْهَمَ  
من السماء التى هى فوقهم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنْ »

(١) راجع ج ٩ ص ٢٨١

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٢

الْقَوَاعِدِ» تمثيل، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه. وقيل: المعنى: أخط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه. وقيل: المعنى: أبطل مكرهم وتديبرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه. وعلى هذا اختلف في الذين نزل عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدم. وقيل: إنه يُخْتَصَرُ وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين. وقيل: المراد المقتسمون الذين ذكركم الله في سورة الحجر؛ قاله الكلبي. وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم. (وَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أى من حيث ظنوا أنهم في أمان. وقال ابن عباس: يعنى البعوضة التى أهلك الله بها عمروذا<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُسْتَفْتُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ) أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم. (وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ) أى بزعمتكم وفى دعواكم، أى الآلهة التى عبدتم دونى، وهو سؤال توبيخ. (الَّذِينَ كُنْتُمْ تُسْأَلُونَ فِيهِمْ) أى تعادون أنبيأى بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كثير «شُرَكَائِيَ» بياء مفتوحة من غير همز، والباقون بالهمز. نافع «تُسْأَلُونَ» بكسر النون على الإضافة، أى تعادوننى فيهم. وفتحها الباقون. (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) قال ابن عباس: أى الملائكة. وقيل: المؤمنون. (إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ) أى الهوان والذل يوم القيامة. (وَالسُّوءَ) أى العذاب. (عَلَى الْكَافِرِينَ) .

قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَلْسَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء. (٢) رجع بعض اللغويين بالذال المعجمة ويجوز بعضهم الوجهين



قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هذا من صفة الكافرين .  
 و ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ نصب على الحال ؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك .  
 ﴿ فَالْقُوا السَّلَامَ ﴾ أى الاستسلام . أى أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا : ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : ﴿ بَلَى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء .  
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فانخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها ؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾  
 بقبض أرواحهم . ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة . ﴿ فَالْقُوا السَّلَامَ ﴾  
 يعنى في خروجهم معهم . وفيه ثلاثة أوجه : أحدها — أنه الصلح ؛ قاله الأخفش .  
 الثانى — الاستسلام ؛ قاله قطرب . الثالث — الخضوع ؛ قاله مقاتل . ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعنى من كفر . ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن أعمالكم أعمال الكفار .  
 وقيل : إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين ؛ فزلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم ، ويخضع ويذل ، ولا تفهمهم حينئذ توبة ولا إيمان ؛ كما قال : « قَلَمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »<sup>(١)</sup> وقد تقدم هذا المعنى . وتقدم في « الأنفال »<sup>(٢)</sup> إن الكفار يتوفون بالضرب والهوان ، وكذلك في « الأنعام »<sup>(٣)</sup> . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

قوله تعالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليسَ شَوْى  
 الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر ؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلاً إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية والثالثة هكذا . وقيل : لكل دركة

(١) كذا في جوى . وفى ا در : أعمالهم . (٢) رابع ج ١٥ ص ٣٣٤ .  
 (٣) رابع ج ٨ ص ٢٨ . (٤) رابع ج ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر. فآله أعلم .  
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ما كدين فيها . ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى﴾ أى مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبروا  
 عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد يلتم بهم بقوله الحق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ  
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ <sup>(۱)</sup> » .

قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ  
 أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾  
 جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ  
 كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ  
 يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ أى قالوا : أنزل خيراً؛  
 ونتم الكلام . و « مَاذَا » على هذا اسم واحد . وكان يراد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم  
 فيسأل المشركين عن مجد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل  
 المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل  
 الإيمان يوم القيامة . قال التعلبي : فإن قيل : لم ارتفع الجواب في قوله : « أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »  
 وانتصت في قوله : « خَيْرًا » ؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكانهم قالوا :  
 الذى يقوله مجد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالتنزيل فقالوا : أنزل خيراً . وهذا  
 مفهوم معناه من الإعراب ، والمحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل .  
 وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أى من أطاع الله فله الجنة  
 غدا . وقيل : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة : ﴿وَلَدَارُ

الْآخِرَةِ خَيْرٌ) أى ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة . ( وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ) فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا ؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة ؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون ( جَنَّاتُ عَدْنٍ ) بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقدير هي جنات ، فهي مبيّنة لقوله : « دَارُ الْمُتَّقِينَ » ، أو تكون مرفوعة بالابتداء ، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقين . ( يَدْخُلُونَهَا ) في موضع الصفة ، أى مدخولة . وقيل : « جَنَّاتُ » رفع بالابتداء ، وخبره « يَدْخُلُونَهَا » وعليه يخرج قول الحسن والله أعلم . ( تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ) تقدم معناه في البقرة . ( لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ) أى مما تمنوه وأرادوه . ( كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ) أى مثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين . ( الَّذِينَ شَاقَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ) قرأ الأعمش وحزرة « يَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » في الموضعين الباء ، واختاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قریشا زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أتم . الباقون بالنساء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و ( طَيِّبِينَ ) فيه ستة أقوال : الأول — « طَيِّبِينَ » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما تنقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم . ( يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ) يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى — أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدثني حيوة قال أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ولّى الله ، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الَّذِينَ

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٩ . (٢) في الطبري : أبو صخر أنه سمع . (٣) استنقعت الماء : اجتمع وبثت . أى إذا اجتمعت نفس المؤمن في فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء في قراره ؛ وأراد بالنفس الروح .

تَنُورَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن لبشر بصلاح ولده من بعده انقز عينه . وقد أتينا على هذا في ( كتاب التذكرة ) وذكرنا هناك الأخبار الواردة في هذا المعنى ، والحمد لله . وقوله : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ ) يحتمل وجهين : أحدهما - أن يكون معناه ابشروا بدخول الجنة . الثاني - أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة . ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ) يعنى في الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ) هذا راجع إلى الكفار ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحزمة والكسائي وخلف « يأتيهم الملائكة » بالياء . والباقيون بالناء على ما تقدم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ ) أى بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والحسب في الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ) أى أصروا على الكفر فأنهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ ) أى بتعذيبهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير ، التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسمهم يظلمون ، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و « من » صلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا فى سورة « الأنعام » مبينا معنى وإعرايا فلا معنى للإعادة . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسول فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ ، وأما الهداية فهى إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۖ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى بأن أعبدوا الله ووحده . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبود دونه الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .



﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أى باقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يراد على القدريّة؛ لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووقفهم للهدى، والله تعالى يقول: «مِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ» وقد تقدم هذا في غير موضع. ﴿فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى فسروا معتبرين في الأرض. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك.

قوله تعالى: «إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ» ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أى إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أى لا يرشد من أضله، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده. وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة. «يَهْدِي» فعل مستقبل وماضيه هدى. و«مَن» في موضع نصب بـ «يَهْدِي» ويجوز أن يكون هدى يهدى بمعنى اهتدى يهتدى؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال: «كأقروى» «أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِي» بمعنى يهتدى. قال أبو عبيد: ولا تعلم أحداً روى هذا غير الفراء، وليس بمتهم فيما يحكيه. النحاس. حكى لى عن محمد ابن يزيد كان معنى «لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ» من دلم ذلك منه وسبق ذلك له عنده، قال: ولا يكون يهتدى بمعنى يهتدى إلا أن يكون يهدى أو يهتدى. وعلى قول الفراء «يَهْدِي» بمعنى يهتدى، فيكون «مَن» في موضع رفع، والعائد إلى «مَن» الهاء المحذوفة من الصلة، والعائد إلى اسم «إِنْ» الضمير المستكن في «يُضِلُّ». وقرأ الباقون «لَا يَهْدِي» بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى من أضله الله لم يهده؛ دليله قوله: «مَن يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ» و«مَن» في موضع رفع على أنه اسم مالم يُدْم فاعله، وهى بمعنى الذى، والعائد عليها من صائها محذوف، والعائد على اسم إن من «فَإِنَّ اللَّهَ» الضمير المستكن في «يُضِلُّ». ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى : **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، وكان في بعض كلامه : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت ، فترلت الآية . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يا بن عباس ، إن ناسا يزعمون أن علياً مبعوث بعد الموت قبل الساعة ، ويتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس ، لو كان علي مبعوثاً قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . **﴿بَلَىٰ﴾** هذا رد عليهم ، أى بلى ليعيشهم . **﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾** مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : « يبعثهم » يدل على الوعد ، أى وعد البعث وعداً حقاً . **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أنهم مبعوثون . وفي البخارى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقلوله لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إياي فقلوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " . وقد تقدم ، ويأتى .

قوله تعالى : **لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ** ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : **﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾** أى ليظهر لهم . **﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾** أى من أمر البعث . **﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بالبعث وأقسموا عليه **﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾** وقيل : المعنى

ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ليعلموا الحق ويختلفون فيه ، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون امور : منها البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن عدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد ؛ كما في طالب .

قوله تعالى : **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴿١﴾  
 أعلمهم سهولة الخلق عليه ، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحياهم ، ولا في غير ذلك مما نحدثه ؛ لأننا إنما نقول له كُنْ فيكون . قراءة ابن عامر والكسائي « **فَيَكُونُ** » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجوز أن يكون نصبا على جواب « **كُنْ** » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه في « البقرة » مستوفى . وقال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشئ ، على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « **كُنْ** » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، والثاني إلى ثالث وتساؤل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مرید لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها ففعلها وضرها ؛ والدليل على ذلك أن من يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريد به فلا أحد شئين : إما لكونه جاهلا لا يدري ، وإما لكونه مغلوبا لا يطيق ، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لا كسابق العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلا لشئ وهو غير مرید له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلولا يكن الحق سبحانه مریدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد ؛ وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع المؤمنون على خلافه وفساده .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قد تقدّم في « النساء » معنى الهجرة ، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله ، وترك السيئات . وقيل : « في » بمعنى اللام ، أي لله . « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أي عذبوا في الله . نزلت في صهيب وبلال وخبّاب وعُمار ، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة ؛ قاله الكلبي . وقيل : نزلت في أبي جندل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة ؛ ثم بؤاهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تعم الجميع . ﴿لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَتَهُ﴾ في الحسنة ستة أقوال : الأول — نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة . الثاني — الرزق الحسن ؛ قاله مجاهد . الثالث — النصر على عدوهم ؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه ليمان صدق ؛ حكاه ابن جريج . الخامس — ما استولوا عليه من فروع البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقى لهم في الدنيا من البناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله ، والحمد لله . ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولا جردار الآخرة أكبر ، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده ؛ « وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيًّا وَمُلْكًا كَبِيرًا » . ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . قيل : هو راجع إلى المؤمنين . أي لو رأوا نواب الآخرة وعانيوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما آتاكم في الآخرة أكثر ؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

قيل : ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من «الذين» الأول . وقيل : من الضمير في «لنبيئهم» . وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر ، وإذا عجز عن أمر توكل ؛ قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٤٢ .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا  
 أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
 الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ) فراءة العامة « يُوحَى »  
 بالياء وفتح الحاء . وقرا حفص عن عاصم « نوحى إليهم » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت  
 في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون  
 رسوله بشرا ، فهلا بعث إلينا ملكا ؟ فرد الله تعالى عليهم بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ »  
 إلى الأهم الماضية يا محمد « إِلَّا رَجُلًا » آدميين . ( فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ) قال سفيان : يعنى  
 مؤمنى أهل الكتاب . ( إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ) يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل :  
 المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر . روى  
 معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيل : أهل  
 العلم ، والمعنى متقارب . ( بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ) قيل : « بالبينات » متعلق بـ « أَرْسَلْنَا » .  
 وفي الكلام تقديم وتأخير ، أى ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ بالبينات والزُّبُرِ إِلَّا رَجُلًا — أى غير  
 رجال ، ذـ « إِلَّا » بمعنى غير ؛ كقوله : لا إله إلا الله ، وهذا قول الكلبي — نوحى إليهم . وقيل :  
 في الكلام حذف دل عليه « أَرْسَلْنَا » أى أَرْسَلْنَاهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ . ولا يتعلق « بِالْبَيِّنَاتِ »  
 بـ « أَرْسَلْنَا » الأول على هذا القول ؛ لأن ما قبل « إِلَّا » لا يعمل فيها بعدها ، وإنما يتعلق بأَرْسَلْنَا  
 المفتردة ، أى أَرْسَلْنَاهُم بِالْبَيِّنَاتِ . وقيل : مفعول بـ « نَعْلَمُونَ » والباء زائدة ، أو نصب  
 بإضمار أعنى ؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجِيرًا إِنْ أَتَى الْحَيَّ خَائِفٌ • وَلَا قَائِلًا إِلَّا هُوَ الْمُتَعَيِّنُ



أى أعنى المتعيب . والبنات : الحجج والبراهين . والزُّبر : الكتب . وقد تقدّم فى آل عمران .  
 ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ . (لُتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) فى هذا الكتاب من  
 الأحكام والوعد والعيد بقولك وفعلك . فالرسول صلى الله عليه وسلم مُبَيِّنٌ عن الله عز وجل  
 مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة ، وغير ذلك مما لم يفصّله . وقد تقدّم  
 هذا المعنى مستوفى فى مقدّمة الكتاب ، والحمد لله . ﴿ وَلَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فىنبغظون .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ  
 الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ  
 فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٧﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّهُمْ  
 لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى بالسّيئات ، وهذا وعيد للمشركين الذين  
 احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿ أَنَّ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ قال ابن عباس : كما خسف  
 بقارون ، يقال : خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض  
 خُسُوفًا أى غاب به فيها ؛ ومنه قوله : « نَخْسِفْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضُ » . وخسف هو فى الأرض  
 وخُسف به . والاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى يجب ألا يأمِنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت  
 المكذِبين . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل :  
 يريد يوم بَدْر ؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن شئٌ منه فى حسابهم . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ  
 فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم ؛ قاله قتادة . ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى سابقين الله  
 ولا فائتيه . وقيل : « فى تَقَلُّبِهِمْ » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار .  
 ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أى على تنقُص من أموالهم

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابي : أى على تنقص من الأموال والأنفس والثروات حتى أهلكهم كلهم . وقال الضحاك : هو من الخوف ؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبها . وقال الحسن : « عَلَى تَخَوُّفٍ » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأول ، وأن التَخَوُّفَ التَّنْقِصَ ، تَخَوَّفَهُ تَنَقَّصَهُ ، وتَخَوَّفَهُ الدَّهْرُ وتَخَوَّنَهُ (بالفاء والنون) بِمَعْنَى : يقال : تَخَوَّنَى فُلَانٌ حَتَّى إِذَا تَنَقَّصَكَ . قال ذوالرمة :

لا ، بل هو الشَّقُّ مِنْ دَارٍ تَخَوَّنَهَا \* مَرًّا سَحَابٌ وَمَرًّا بِأَيْحُ تَرَبُّ<sup>(١)</sup>

وقال لبيد :

تَخَوَّنَهَا نَزُولِي وَارْتِحَالِي<sup>(٢)</sup> \*

أى تنقص لجها وشعبها . وقال الهيثم بن عدي : التَخَوُّفُ (بالفاء) التَّنْقِصُ ، لغة لأزْدٍ شُوءة . وأنشد :

تَخَوُّفٌ غَدْرُهُم مَالِي وَاحِدِي \* سَلَامَلٌ فِي الْحُلُوقِ لَهَا صَالِي

وقال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » فسكت الناس ، فقال شيخ من بني هذيل : هِيَ لَعْنَتُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، التَخَوُّفُ التَّنْقِصُ . فخرج رجل فقال : يَا فُلَانُ ، مَا فَعَلَ دَيْنُكَ ؟ قَالَ : تَخَوَّنْتُهُ ، أَيْ تَنَقَّصْتُهُ ؟ فَرَجَعَ فَأَخْبَرَ عُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ : أَتَعْرِفُ الْعَرَبَ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ شَاعِرُنَا أَبُو كَيْسٍ الْهَذَلِيُّ يَصِفُ نَاقَةَ تَنَقَّصَ السَّيْرِ سَنَامَهَا بَعْدَ ثَمِيكِهِ وَاسْتِنَازَهُ :

تَخَوُّفُ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِيكًا قَرْدًا \* كَمَا تَخَوُّفُ عُودَ النَّبْعَةِ السَّقْنُ<sup>(٣)</sup>

(١) الباب : الرِّيحُ الْحَارَةُ فِي الصَّيْفِ الَّتِي فِيهَا تَرَابٌ كَثِيرٌ . (٢) هذا مجزأ البيت ، وصدره كما في اللسان :

\* عَذَابُهُ تَنْقُصُ بِالرَّدَائِقِ \*

(٣) كذا في جميع الأصول ، والذي في اللسان أنه لا بن مقبل وقيل : لدى الرمة .

(٤) الفرد : معناه هنا : المتراكم بعضه فوق بعض من السن . والنبتة : شجرة من أشجار الجبال يُلْغِزُ مِنْهَا الْقَسِيُّ .

فقال عمر : يا أيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم .  
 تَمَكَّ السَّامُ يَمَكُّ تَمَكًّا ، أى طال وارْتَفَعَ ، فهو تَامَك . وَالسَّقْنُ الْمُسْفَنُ مَا يُجْبَرُ بِهِ الْخَشَبُ .  
 وقال الليث بن سعد : « عَلَى تَخَوُّفٍ » على عَجَل . وقيل : على تَقْرِيعٍ بِمَا قَدَّمُوهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ،  
 وهذا مروى عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : « عَلَى تَخَوُّفٍ » أَنْ يَعَاقِبَ أَوْ يُجَاوِزَ .  
 ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَقَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَّ لَهُ  
 عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ ﴿٣٨﴾

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والأعمش ﴿ تَرَوْا ﴾ بالناء ، على أن الخطاب للجمع  
 الناس . الباقون بالياء خبرا عن الذين يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ، وهو الاختيار . ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعنى من  
 جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل ، قاله ابن عباس . وإن كانت الأشياء كلها سميعة مطيعة  
 لله تعالى . ﴿ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَّ لَهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالناء لتأنيث الظلال . الباقون  
 بالياء ، واختاره أبو عبيد . أى يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أول النهار على حال  
 ويتقلص ثم يمد في آخر النهار على حالة أخرى ، فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع  
 سجودها ، ومنه قيل للظل بالعشي : قَيٌّْ ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق ، أى رجيع . والقيء  
 الرجوع ، ومنه « حَتَّى تَقِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » <sup>(١)</sup> . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما ،  
 وقد مضى هذا المعنى في سورة « الرعد » <sup>(٢)</sup> . وقال الزجاج : يعنى سجود الجسم ، وسجوده انقياده  
 وما يرى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام في كل جسم . ومعنى ﴿ وَهُمْ ذَاخِرُونَ ﴾ أى خاضعون  
 صاغرون . والدخور : الصغار والذل . يقال : دَخَرَ الرجل ( بالفتح ) فهو دَاخِر ، وأدخره الله .  
 وقال ذو الرمة :

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دَاخِرٌ فِي مُحَيِّسٍ \* وَمِنْجَحِرٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ فِي مُحَيِّسٍ

(١) راجع ج ١٦ ص ٣١٥ . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٠٢ . (٣) كذا في كتب اللغة .  
 يقال : انجحر الضب إذا دخل البحر . والذي في الأصول وديوان ذى الرمة : « مِنْجَحِرٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ فِي جَحِرٍ »  
 بتقديم الحاء على الجيم في الكلمتين ، وكذا في ج ٩ .

كذا نسبة الماوردي لذي الرقة، ونسبه الجوهري للفرزدق وقال: الْمُخَيَّسُ اسمٌ مجن كان بالعراق، أى موضع النذل. وقال: <sup>(١)</sup>

أما ترى كَيْسًا مُكَيَّسًا \* بَنَيْتُ بَعْدَ نَافِعٍ مُخَيَّسًا

ووجد اليمين في قوله: «عَنِ الْيَمِينِ» وجمع الشمال؛ لأن معنى اليمين وإن كان واحداً الجمع. ولو قال: عن الأيمان والشمال، واليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة. وأيضاً فن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع أحدهما وتفرد الأخرى؛ كقوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ» وكقوله: «وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» <sup>(٢)</sup> ولو قال على أسماعهم وإلى الأنوار لجاز. ويجوز أن يكون رد اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها. ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر: الوادودون وتيم في دُرَا سَبَلًا \* قد عَصَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ <sup>(٣)</sup>

ولم يقل جلود. وقيل: وجد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم في حال يميل إلى جهة الشمال ثم حَالَاتٌ، فمها شمالاً.

قوله تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْكِرُونَ ﴿٢٢﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ) أى من كل ما يدب على الأرض. (وَالْمَلَائِكَةُ) يعنى الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

(١) القائل هو سيدنا على رضى الله عنه. ونافع: مجن بالكوفة كان غير مسنونق البناء وكان من قصب، وكان المجوسون يهرون منه. ونزيل: إنه قب وأقلت منه المجيدون؛ فقدمه على رضى الله عنه وبنى الخفيس لم من مدر.

(٢) أى فائل في غير القرآن. (٣) راجع ج ١ ص ١٨٩. (٤) راجع ج ٦ ص ١١٧. الخ

(٥) البيت لجرير. ورواية ديوانه: تدعوك تيم وتيم في قري سباً \* ... .. الخ

(٦) هكذا وردت هذه الجملة في الأصول. ولعل صوابها: لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل من اليمين في حال، ثم يميل إلى جهة الشمال في حالات؛ فمها شمالاً.

والذى في البحر لأبي حيان: «وقيل: وجد اليمين وجمع الشمال لأن الابتداء عن اليمين، ثم يتقبض شيئاً فشيئاً حالاً بعد حال، فهو بمعنى الجمع، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتتعدد بتعدد الحالات».

بشرف المنزل ، فسيهم من صفة الديب بالذكر وإن دخلوا فيها ، كقوله : « فِيمَا فَآكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ » . وقيل : لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا . وقيل : أراد « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ » من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب ، « وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ » وتسجد ملائكة الأرض . ( وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ) عن عبادة ربهم . وهذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة نبات الله . ومعنى ( يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ) أى عقاب ربهم وعذابه ؛ لأن العذاب المهلك إنما يتزل من السماء . وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التى هى فوق قدرتهم ؛ ففى الكلام حذف . وقيل : معنى « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ » يعنى الملائكة ، يخافون ربهم وهى من فوق ما فى الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف من دونهم أولى ؛ دليل هذا القول قوله تعالى : ( وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) يعنى الملائكة .

قوله تعالى : وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ) قيل : المعنى لا تتخذوا اثنين إلهين . وقيل : جاء قوله : « اثْنَيْنِ » توكيدا . ولما كان الإله الحق لا يتعدد وأن كل من يتعدد فليس بإله ، اقتصر على ذكر الاثنين ؛ لأنه قصد نفى التعدد . ( إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ) يعنى ذاته المقدسة . وقد قام الدليل العقلى والشرعى على وحدانيته حسبا تقدم فى « البقرة » <sup>(٢)</sup> بيانه وذكرناه فى اسمه الواحد فى شرح الأسماء ، والحمد لله . ( فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ) أى خافون . وقد تقدم فى « البقرة » <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(٢) راجع ج ٢ ص ١٩٠ وما بعدها .

(١) راجع ج ١٧ ص ١٨٥ .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٢٢ .



قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين : الطاعة والإخلاص . و « وَاصِبًا » معناه دائماً ؛ قاله الفراء ، حكاه الجوهري . وَصَبَ الشَّيْءُ يُصَبُّ وَصُوبًا ، أى دام . وَوَصَبَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَمْرِ إِذَا وَاطَبَ عَلَيْهِ . والمعنى : طاعة الله واجبة أبداً . ومن قال واصباً دائماً : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى : « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ <sup>(۱)</sup> » أى دائم . وقال الدؤلى :

لا أبتغى الحمد القليل بقاؤه • بدم يكون الدهر أجمع واصباً

أنشد الغزنوى والتعلبي وغيرهما :

ما أبتغى الحمد القليل بقاؤه • يوماً بدم الدهر أجمع واصباً

وقيل : الوصب التعب والإعياء ؛ أى تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر :

لَا يُمَسِّكُ السَّاقَ مِنْ أَيْنَ وَلَا وَصَبٌ <sup>(۲)</sup> • وَلَا يَمُضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّغَرُ

وقال ابن عباس : « واصباً » واجباً . الفراء والكسبي : خالصاً . ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾

أى لا ينبغي أن تتقوا غير الله . ف « غير » نصب بـ « تتقون » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ

تَجْعُرُونَ <sup>(۳)</sup> ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ

يُشْرِكُونَ <sup>(۴)</sup> لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ <sup>(۵)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفراء . « ما » بمعنى الجزاء . والباء

في « بكم » متعلقة بفعل مضمر ، تقديره : وما يكن بكم . « مِنْ نِعْمَةٍ » أى صحة جدم وصحة

رزق وولد ﴿ فَمِنَ اللَّهِ » . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هـ : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾

(۱) راجع ج ۱ ص ۶۴ . (۲) الشعر لأعشى بأهله . والشر الأذل من بيت ، والثاني من بيت آخر . والبيان :

لَا يَتَأَذَى لِمَا فِي الْقَدْرِ رِقْبَةٍ • وَلَا يَمُضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّغَرُ

لَا يَفْزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنَ وَلَا نَصَبٌ • وَلَا يَزَالُ أَمَامَ الْقُصُوفِ يَتَنَفَّرُ

تأذى بالمكان : أدام به . والشُرْسُوفُ : غضروف — كل عظم رخص يؤول — معلق بكل ضلع مثل غضروف

الكنت . والصغر ( بالتحريك ) : داء في البطن يصفر منه الوجه . وقيل : الصغر هنا الجرع . وانفجر الأثر : تبهم .

أى السقم والبلاء والقحط . ﴿فَإِلَيْهِ جُأْرُونَ﴾ أى تضجون بالدعاء . يقال : جأرت جواراً . والجوار مثل الخوار ، يقال : جأرت الثور بجاراً ، أى صاح . وقرأ بعضهم ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ جُؤَارٌ﴾<sup>(١)</sup> ؛ حكاية الأخفش . وجأرت الرجل إلى الله ، أى تضرع بالدعاء . وقال الأعشى<sup>(٢)</sup> يصف بقرة :  
فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة \* وكان التكثير أن تضيف وتجاراً<sup>(٣)</sup>

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ أى البلاء والسقم . ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُسْمِعُونَ﴾ بعد إزالة البلاء . وبعد الجوار . فعنى الكلام التعجيب من الإشرار بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرّر في القرآن ، وقد تقدّم في «الأنعام» و«يونس» ، ويأتى في «سبحان» وغيرها . وقال الزجاج : هذا خاص بمن كفر . ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كى . وقيل : لام العاقبة . وقيل : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أى ليجعلوا النعمة سبباً للكفر ، وكل هذا فعل خبيث ؛ كما قال :  
\* والكفر مخبئة لنفس المنعم \*<sup>(٤)</sup>

﴿فَتَسْمَعُوا﴾ أمر تهديد . وقرأ عبد الله «قل تسموا» . ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى عاقبة أمركم .  
قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ  
لَتُسْعَلُنَّ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ذكر نوعاً آخر من جهالتهم ، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع — وهى الأصنام — شيئاً من أموالهم يتقربون به إليه ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فـ «يعلمون» على هذا للشركين . وقيل : هى

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٣٥ ج ١١ . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة «ضف» وكتاب سبويه ج ٢ ص ١٧٤ أنه للناطقة الجعدي . (٣) فى الأصول : «تأفب» بالطاء . والنصيب عن اللسان وكتاب سبويه . وتضيف : تشفق وتحذر والتكثير : الإنكار . والجوار : الصياح . والمعنى : أن هذه البقرة فقدت فطانت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها ، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح . (٤) راجع ج ٨ ص ٣١٧ . (٥) هذا عجز بيت من معانعة عترة ، وصدره :

\* نبئت عمراً غير شاكر نعمتى \*

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول بعلم محذوف ، والتقدير : ويعمل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى في « الأنعام » تفسير هذا المعنى في قوله : « فَقَالُوا هَذَا إِلَهُ رَبِّهِمْ وَهَذَا إِلَهُ رَبِّنَا » ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : « تَاللَّهِ لَأَسْئَلَنَّ » وهذا سؤال تو بئخ . « عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ » أى تخلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾  
قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ » نزلت في نزاعه وكنانة ؛ لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون الحقوا البنات بالبنات . « سُبْحَانَهُ » نزه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . « وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » أى يجعلون لأنفسهم البنين ويأفنون من البنات . وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سُبْحَانَهُ » . وأجاز الفراء كونها نصبا ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ » أى أخبر أحدهم بولادة بنت . « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا » أى متفيرا ، وليس يريد السواد الذى هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمها بالبنت . والعرب تقول لكل من لقي مكروها : قد اسود وجهه غما وحزنا ؛ قاله الزجاج . وحكى المساوردى : أن المراد سواد اللون قال : وهو قول الجمهور . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مثلى من الغم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذى يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ؛ ماخوذ من الكظامة وهو شد فيم القربة ؛ قاله علي بن عيسى . وقد تقدم هذا المعنى في سورة « يوسف » .

قوله تعالى : يَتَوَرَّئِ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ  
عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ( يَتَوَرَّئِ مِنَ الْقَوْمِ ) أى ينجنى ويتغيب . ( مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ )  
أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب البنت . ( أَيُمْسِكُهُ ) ذكر الكناية لأنه  
مردود على « ما » . ( عَلَى هُونٍ ) أى هوان . وكذا قرأ عيسى النقي « على هوان » والهوان  
الهوان بلغة قريش ، قاله الزبيدي ، وحكاه أبو عبيد عن الكسائي . وقال الفراء : هو القليل  
بلغة تميم . وقال الكسائي : هو البلاء والمشقة . وقالت الخنساء :

نُبِنُ النَّفُوسَ وَهُونَ النَّفُوسِ \* سَ يَوْمَ الْكَرِيمَةِ أَبْقَى لَهَا

وقرأ الأعمش « أيمسكه على سوء » ذكره النحاس ، قال : وقرأ المجدري « أم يدسها في التراب »  
يرده على قوله : « بالأنثى » ويلزمه أن يقرأ « أيمسكها »<sup>(١)</sup> . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛  
أى أيمسكها وهى مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنه أم يدسه  
في التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية . قال قتادة : كَانَ مُضَرُّ وَخُرَاعَةُ يَدْفَنُونَ  
البنات أحياء ؛ وأشدهم في هذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن .  
وكان صَعَصَعَةُ بْنُ ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجهه إلى والد البنت إبلًا  
يستحيها بذلك . فقال الفرزدق بفتخر :

وعمى الذى منع الوائدات \* وأحيا الوئيد فلم يؤاد<sup>(٢)</sup>

وقيل : دَسَّهَا إِخْفَاؤُهَا عَنْ النَّاسِ حَتَّى لَا تَعْرِفَ ، كَالْمَدْسُوسِ فِي التُّرَابِ لِإِخْفَائِهِ عَنْ  
الْأَبْصَارِ ؛ وهذا محتمل .

مسئلة — ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة ومعها  
أبنتان لها ، فسألتنى فلم تجد عندى غير تمر واحدة ، فأعطيتهما إياها فأخذتما فقسمتها بين ابنتيها  
ولم تأكل منها شيئاً ، ثم قامت فخرجت وابنتاهما ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته<sup>(٣)</sup>

(١) قال محققه : في الشواذ أن المجردى يقرأ كذلك . كان المصنف لم يقف عليها .

(٢) الرواية : وجدى ، وأن صَعَصَعَةَ بْنِ ناجية جد الفرزدق كما في الاستيعاب . (٣) في ج : نغبرته .

حديثها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من ابتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففى هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقى من النار. وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لنا كلها فاستطعمتها أبنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه، خرجهما أيضا مسلم رحمه الله! وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كانت له بنت فادبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار". وخطب إلى عقيل بن علفة ابنته الجرباء فقال:

إني وإن يسبق إلى المهر • ألف وعُبدان وخُور عشر<sup>(۱)</sup>  
• أحب أصهارى إلى القبر •

وقال عبد الله بن طاهر:

لكل أبى بنت براعى شؤونها • ثلاثة أصهار إذا حُمد الصهر  
قبول براعيها وخدر يكتها • وقبر يوارىها وخبرهم القبر

(أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أى فى إضافة البنات إلى خالفهم وإضافة البنين إليهم • نظيره  
«أَلَيْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى • تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى» أى جائرة، وسبأى •

(۱) الظور: جمع عذارة على غير قياس، وهى الناقة الغزيرة اللبن •

(۲) راجع ج ۱۷ ص ۱۰۲ •



قوله تعالى : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد . قوله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز . وقال ابن عباس : «مَثَلُ السَّوْءِ» النار، و«الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ» شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : «أَيْسَ كَيْتِلْهُ شَيْءٌ» . وقيل : «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ» كقوله : «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ» . فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» فالجواب أن قوله : «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» أى الأمثال التى توجب الأشباه والنقائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلاً يقتضى نقصاً وتشبيهاً بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا يشابه له ولا نظير ، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى بكفرهم وإفترائهم ، وعاجلهم . ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دلّ عليه قوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ فإن الدابة لا تدب إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ، أى لو أخذ الله الخلق بما كسبوا مترك على

(١) في جود : الواضحين . (٢) راجع ج ١٦ ص ٧ . (٣) راجع ج ١٢ ص ٢٢٠ .

(٤) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء . (٥) راجع ج ١ ص ٢٨٧ ر ج ٢ ص ١٣١ .

ظهر هذه الأرض من دابة من نجي ولا غيره؛ وهذا قول الحسن. وقال ابن مسعود وقرا هذه الآية:  
لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان<sup>(۱)</sup> في جحرا،  
ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فأت الدواب، ولكن الله يأخذ بالعبث  
والفضل؛ كما قال: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ»<sup>(۲)</sup>. «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ» أي أجل موتهم ومنتى  
أعمارهم. «لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»<sup>(۳)</sup> وقد تقدم. فإن قيل: فكيف يتم بالهلاك  
مع أن فيهم مؤمن ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء، وهلاك المؤمن  
معوضا بشواب الآخرة. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول: «إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»<sup>(۴)</sup>.  
وعن أم سلمة وسثت عن الجيش الذي يُحسَف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يعوذ بالبيت عائذ فيبعث إليه بعث فإذا كانوا ببيده  
من الأرض خسف بهم» فقالت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: «يُخسف  
به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته». وقد أتينا على هذا المعنى مجودا في (كتاب  
التذكرة) وتقدم في «المائدة» وآثر «الأنعام» ما فيه كفاية، والحمد لله. وقيل: «فَإِذَا  
جَاءَ أَجْلُهُمْ» أي فإذا جاء يوم القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ  
أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٣٢﴾  
قوله تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) أي من البنات. (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ)  
أي وتقول ألسنتهم الكذب. (أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) قال مجاهد: هو قولهم أن لهم البنين والله  
البنات. «الْكُذِبَ» مفعول «تَصِفُ» و «أَنَّ» في محل نصب بدل من الكذب؛ لأنه

(۱) الجعلان (يكسر الجيم جمع جعل، كصرد): دابة سوداء من دواب الأرض.

(۲) راجع ج ۱۶ ص ۳۰. (۳) راجع ج ۷ ص ۲۰۲. (۴) في صحيح مسلم. «على أعمالهم».

(۵) راجع ج ۶ ص ۳۵۲ و ج ۷ ص ۱۵۷.

بيان له . وقيل : « الحُسْنَى » الجزء الحسن ، قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن محيصة « الكَذْبُ » برفع الكاف والذال والباء نعتاً للألسنة ؛ وكذا « وَلَا تَقُولُوا لِمَا يَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذْبَ »<sup>(١)</sup> . والكَذْبُ جمع كَذُوب ؛ مثل رَسُولٍ وَرُسُلٍ وَصَبُورٍ وَصُبْرٍ وشكورٍ وشكر . « لَا » رد لقولهم ، ونَمَّ الكلام ، أى ليس كما تزعمون . « جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ » أى حقاً أن لهم النار . وقد تقدم مستوفى<sup>(٢)</sup> . « وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ » مُتْرَكُونَ مُنْسِيُونَ فى النار ؛ قاله ابن الأعرابي وأبو عبيدة والكسائي والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضاً : مَبْعَدُونَ . قتادة والحسين : معجلون إلى النار مقتدمون إليها . والفارط : الذى يتقدم إلى الماء ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا فرطكم على الخوض » أى متقدمكم . وقال القطامي :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا \* كما تعجل فرطاً لوزاد

والفرط : المتقدمون فى طلب الماء . والوزاد : المتأخرون . وقرأ نافع فى رواية ورش « مُفْرَطُونَ » بكسر الراء وتخفيفها ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون فى الذنوب والمعصية ، أى أفرطوا فيها . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أربى عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر الفارسي « مُفْرَطُونَ » بكسر الراء وتشديدها ، أى مضيعون أمر الله ؛ فهو من التفريط فى الواجب .

قوله تعالى : تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : « تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن من تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم . « فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ » أى ناصرهم فى الدنيا على دنسهم . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٠ .

(١) راجع ص ١٩٥ من هذا الجزء .

في الآخرة . وقيل : « فَهُوَ وَلِيُّهُمْ » أى قريتهم في النار . « الْيَوْمَ » يعنى يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل : يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعُطف « هُدًى وَرَحْمَةً » على موضع قوله : « لِتُبَيِّنَ » لأن عمله نصب . ومجاز الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبياناً للناس . ( وَهُدًى ) أى رشداً ( وَرَحْمَةً ) للؤمنين .

قوله تعالى : وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى السحاب . ﴿ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ عاد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى دلالة على البعث وعلى وحدانيته ؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً ، فتكون هذه الدلالة ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالأذان ؛ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْأَلْهُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّقِصْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ

مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِيرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١٦﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ ﴾ قد تقدم القول في الأنعام ، وهي هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز . « لعبرة » أى دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته . والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة ، ومنه « فاعبروا » <sup>(٢)</sup> . وقال أبو بكر الوراق : العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم ، وتمزك على ربك وخلافك له في كل شيء . ومن أعظم العبرىء يحمل مذنباً .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ تُسْقِيكُمْ ۖ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبن عامر وعاصم في رواية أبى بكر ( بفتح النون ) من سقى يسقى . وقرأ الباقون وحفص عن عاصم ( بضم النون ) من أسقى يسقى ، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لغتان . وقال لبيد :

سَقَى قَوِيٌّ بَنَى تَجْدٍ وَأَسْقَى \* تُمَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ

وقيل : يقال لما كان من يدك إلى فيه سقيته ، فإذا جعلت له شرباً أو عرضته لأن يشرب ففيه أو يزرعه قلت أسقيته ؛ قاله ابن عُرَيْرٍ ، وقد تقدم <sup>(٣)</sup> . وقرأت فرقة « تسقيكم » بالتاء ، وهي ضعيفة ، يعنى الأنعام . وقرئ بالياء ، أى يسقيكم الله عز وجل . والقراء على القراءتين المتقدمتين ؛ ففتح النون لغة قريش وضدها لغة حمير .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۖ ﴾ اختلف الناس في الضمير من قوله : « مِمَّا فِي بُطُونِهِ » على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بنجر الواحد . قال ابن العربي : وما أراه عول عليه إلا من هذه الآية ، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل : لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعام وهي الأنعام ، جاز عود الضمير بالتذكير ؛

(١) راجع ج ٧ ص ١١١

(٢) راجع ج ١٨ ص ٥

(٣) راجع ج ١ ص ٤١٨



وقال الزجاج . وقال الكسائي : معناه مما في بطون ما ذكرناه ، فهو عائد على المذكور ؛ وقد قال الله تعالى : « إِنهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » وقال الشاعر :

\* مثل الفِراخ تُنْفَتِ حواصلُهُ \*

ومثله كثير . وقال الكسائي : « مما في بطونه » أى مما في بطون بعضه ؛ إذ المذكور لا إبان لها ، وهو الذى عول عليه أبو عبيدة . وقال الفراء : الأنعام والنعم واحد ، والنعم يذكر ، ولهذا تقول العرب : هذا نعم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذى هو بمعنى الأنعام . قال ابن العربى : إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنه في سورة المؤمنون باعتبار لفظ الجماعة فقال : « تُسْقِئُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا » وبهذا التأويل ينظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل يبرين وتيها فلسطين .

الرابعة - استنبط بعض العلماء الحلة وهو القاضى إسماعيل من عود هذا الضمير ، أن لبن الفحل يفسد التحريم ، وقال : إنما جىء به مذكرا لأنه راجع إلى ذكر النعم ؛ لأن اللبن للذكر محسوب ، ولذلك قضى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرم حين أنكرته عائشة (رضى الله عنها) في حديث أفلح أخى أبى القعيس « فللمرأة السقي وللرجل اللقاح » بخرى الاشتراك فيه بينهما . وقد مضى القول في تحريم لبن الفحل في « النساء » والحمد لله .

الخامسة - قوله تعالى : « مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْهِ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا » نبه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصا بين القرن والدم . والقُرْنُ : الزبل الذى ينزل إلى الكرش ، فإذا خرج لم يُسمَ قرنا . يقال : أقرنت الكرش إذا أخرجت ما فيها . والمنى : أن الطعام يكون منه ما فى الكرش ويكون منه الدم ، ثم يخلص اللبن من الدم ، فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدم فى العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل العلف

(١) راجع ج ١٩ ص ٢١٣ . (٢) راجع ج ١٢ ص ١١٨ . (٣) رمل لا تدرك أطرافه من بين مطلع الشمس من حجر البسامة . (بافوت) . (٤) ن ج . (٥) راجع ج ٥ ص ١١١ .

فإذا استقر في كرشها طبعته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، والكبد مسأط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق، وتجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكرش؛ «حِكْمَةٌ بِالْعِلَّةِ فَمَا تُغْنِي النَّدْرُ»<sup>(١)</sup>. (خَالِصًا) يريد من حمرة الدم وقذارة الفرث وقد جمعهما وعاء واحد. وقال ابن بحر: خالصا بياضه. قال النابغة:

\* بِخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خُضِرَ الْمَنَاكِبُ \*

أى يبيض الأكام. وهذه قدرة لا تنبى إلا للقاء على كل شئ بالمصلحة.

السادسة — قال النقاش: في هذا دليل على أن المني ليس بنجس. وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال: كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المني على مخرج البول طاهرا. قال ابن العربي: إن هذا الجهل عظيم وأخذ شنيع، اللبن جاء الخبر عنه بجىء النعمة والمئة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة، فافتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المني من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مقيسا عليه.

قلت: قد يعارض هذا بأن يقال: وأى منة أعظم وأرفع من خروج المني الذى يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى: «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ»<sup>(٢)</sup>، وقال: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحِفْظًا»<sup>(٣)</sup> وهذا غاية في الامتنان. فإن قيل: إنه يتنجس بخروجه في مجرى البول، قلنا: هو ما أردناه، فالنجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل: إن مخرجه غير مخرج البول وخاصة المرأة؛ فإن مدخل الذكر منها ومخرج الولد غير مخرج البول على ما قاله العلماء. وقد تقدم في البقرة. فإن قيل: أصله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك، فإن أصله دم وهو طاهر. ومن قال بطهارته الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت: كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبسا بظفري. قال الشافعى: فإن لم يُفرك فلا بأس به. وكان سعد

(١) راجع ج ١٧ ص ١٢٨. (٢) الأوردان: جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم.

(٣) راجع ج ٢٠ ص ٤. (٤) راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء.

ابن أبي وقاص يفرك المني من ثوبه . وقال ابن عباس : هو كالنخامة أيطه عنك بإذخرة  
وامسحه بخرقه . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المني من ثوب  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل  
فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التي تزال من الثوب لالنجاسة ، ويكون  
هذا جمعا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأوزاعي : هو نجس . قال  
مالك : غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا ، وهو قول الكوفيين .  
ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمره أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف  
فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابعون .

السابعة — في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، فاما  
لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به ؛ لأنه مائع طاهر حصل في وعاء نجس ، وذلك أن ضرع  
الميتة نجس واللبن طاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس . فاما لبن المرأة الميتة  
فأختلف أصحابنا فيه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيا وميتا فهو طاهر . ومن قال :  
ينجس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعا ثبتت الحرمة ؛ لأن الصبي قد يفتنذى به  
كما يفتنذى من الحية ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الرضاع ما أتبث اللثم<sup>(١)</sup>  
وأشتر العظم » . ولم يخص ؛ وقد مضى في « النساء » .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذا هينا لا يفص به من شربه .  
يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا أى سهل مدخله في الحلق ، وأساغه شارب ، وسفته أنا أسيفه  
وأسوغه ، يتعدى ولا يتعدى ، والأجود أسفته إسافة . يقال : أسغ لي غصتي أى أهملني  
ولا تعجلني ؛ وقال تعالى : « يَجْعَلُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ » . والسواغ ( بكسر السين ) ما أسفت  
به غصتك . يقال : الماء سواغ الغصص ؛ ومنه قول الكبيش :  
\* فكانت سواغا أن جثرت بفصة \*

وروى : أن اللبن لم يشرق به أحد قط ، وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

التاسعة — في هذه الآية دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهد أو بباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سرف ولا إكثار . وقد تقدم هذا المعنى في « المائدة <sup>(١)</sup> » وغيرها . وفي الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرى هذا الشراب كله : العسل والنبذ واللبن والماء . وقد كره بعض القراء أكل الفالودج واللبن من الطعام ، وأباحه عامة العلماء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالک بن دينار ، فأتى بفالودج فامتنع عن أكله ، فقال له الحسن : كُلْ ! فإن عليك في الماء البارد أكثر من هذا .

العاشرة — روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن فشرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يُجيز عن الطعام والشراب إلا اللبن “ . قال علماؤنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أول ما يقتضى به الإنسان وتنبى به الجثث والأبدان ، فهو قوت خلى عن المفسد به قوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خير الأمم أمة ؛ فقال في الصحيح : ” بجأنى جبريل بلقاء من نحر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لى جبريل اخترت الفطرة أما إنك لو اخترت الجمر غوت أمتك “ . ثم إن في الدعاء بالزيادة منه علامة الخصب وظهور الخيرات [ وكثرة <sup>(٢)</sup> ] البركات ؛ فهو مبارك كله .

قوله تعالى : وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾  
فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ( وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ ) قال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون ؛ غذف « ما » ودل على حذفه قوله : « مِنْهُ » . وقيل :

(١) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وج ٧ ص ١٩١ .

(٢) الفالودج : حلواء تعمل من الدقيق والماء . والعسل . ( عن الألفاظ الفارسية المغربية ) .

(٣) غوت : ضلت وفستت .

(٤) من ج .

المحذوف شيء، والأمر قريب . وقيل : معنى « منه » أى من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ » عطفا على « الْأَنْعَامِ » أى ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على « مما » أى ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانية - قوله تعالى : ( سَكْرًا ) السكر مأثور ؛ هذا هو المشهور في اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين . وقال بهذا القول ابن جُبَيْرٍ والنخعي والشعبي وأبو ثور . وقد قيل : إن السكر الخَلَلُ بلغة الحبشة ، والرزق الحسن الطعام . وقيل : السكر العصير الحلو الحلال ، وسمي سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حرم . قال ابن العربي : أسد هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويخرج ذلك على أحد معنيين ، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر ، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة ؛ فإن هذه الآية مكية بانفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدني .

قلت : فعلى أن السكر الخَلَلُ أو العصير الحلو لا نسخ ، وتكون الآية محكمة ودوحسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمون الخَلَلُ السكر ، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر ، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رُزَيْنٍ والحسن ومجاهد وابن أبي لَيْلَى والكوفي وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، كلهم قالوا : السكر ما حرمه الله من ثمرتيهما . وكذا قال أهل اللغة : السكر اسم للخمر وما يسكر ، وأنشدوا :

بئس الصِّبَاةُ وبئس الشَّرْبُ شَرِبُهُمْ \* إذا جرى فيهم المُرَّاءُ والسُّكَّرُ  
والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيل : إن قوله « تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا » خبر معناه الاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى اتخذون منه سكرًا وتدعون رزقا حسنا الخَلَلُ والزبيب



والتمر، كقوله: «فَهُمُ الْخَالِدُونَ»<sup>(١)</sup> أى أفهم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة : السكر الطعم، يقال : هذا سكر لك أى طعم . وأنشد :

\* جَعَلَتْ عَيْبَ الْأَكْرَمِينَ سَكْرًا \*

أى جعلت ذمتهم طعما . وهذا اختيار الطبري أن السكر ما يُطعم من الطعام وحلّ شربه من ثمار النخيل والأعناب : وهو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد، مثل «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ»<sup>(٢)</sup> وهذا حسن ولا نسخ، إلا أن الزجاج قال : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه، ولا حجة له في البيت الذى أنشده؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : «سكرا» ما لا يسكر من الأنبذة؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلا بحال لا يجرم، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجر، وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها» . وبما رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركن، ودفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديدا فرده إلى صاحبه؛ فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله، أحرأ هو؟ فقال : «على الرجل» فأتى به فأخذ منه القدح، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفعه إلى فيه فقطب، ثم دعا بماء أيضا فصبه فيه ثم قال : «إذا اغتسلت عليكم هذه الأوعية فاكسروا متونها بالماء». وروى أنه عليه السلام كان يذله فيشربه ذلك اليوم، فإذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادم إذا تغير، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عون الثقفى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : حرم الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب؛ نخرجه الدارقطنى أيضا .

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٧ . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٥١ .

(٣) الاغلام مجاوزة الحد؛ أى إذا جاوزت حدها الذى لا يسكر إلى حدها الذى يسكر .

ففي هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعها في بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثوري يشرب النبيذ في بيت حبر أهل زمانه مالك بن يعقوب . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آمّن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بما أحل فصحيح ؛ بيد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربي : إن قيل كيف ينسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هذا كلام من لم يتحقق الشريعة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقي أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذي لا يدخله النسخ ، فاما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تبدل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهم هذا خرجتم عن الصنف الغيبي الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله : « وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ويرفع من ذلك ببدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهي أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف في ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هو الحكم الشرعي الذي يستدل على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثاني ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : « كل شراب أسكر فهو حرام » وقال : « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » وقال : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . قال النسائي : وهؤلاء أهل الثبوت والعدالة مشهورون .

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو عاضده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق. وأما الثالث وإن كان صحيحاً فإنه ما كان يسقيه للخدام على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه متغير الرائحة. وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيل عليه أزواجه في غسل زينب بأن قيل له: إنا نجد منك ريح مغاير، يعني ريحا منكراً، فلم يشربه بعد. وسيأتي في التحريم<sup>(١)</sup>. وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» ورواه عنه قيس ابن شذاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما ما روى عن عمر من قوله: ليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النسائي عن عتبة بن فرقد قال: كان النبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد خُلل. قال النسائي: ومما يدل على صحة هذا حديث السائب، قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم: حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكراً جلدته، بخلافه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحد تاماً. وقد قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبا بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والعسل والتمر والخنطة والشعير. والخمر ما خمر العقل. وقد تقدم في «المأثدة»<sup>(٢)</sup>. فإن قيل: فقد أحل شربه إبراهيم النخعي وأبو جعفر الطحاوي وكان إمام أهل زمانه، وكان سفيان الثوري يشربه. قلنا: ذكر النسائي في كتابه أن أول من أحل المسكر من الأئمة إبراهيم النخعي، وهذه زلة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حجة في قول أحد مع السنة. وذكر النسائي أيضاً عن ابن المبارك قال: ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحاً إلا عن إبراهيم. قال أبو أسامة: ما رأيت

(١) راجع ج ١٨ ص ١٧٧. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٨٥.

(٣) لعل ما يشربه النخعي وهو إمام — ليس من النبيذ المسكر فإن من مالم يبلغ حد الإسكار.

رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات ومصر واليمن والحجاز . وأما الطحاوي  
رسفيان لوضع ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع  
ما ثبت من السنة ؛ على أن الطحاوي قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلاف ذلك .  
قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاوي اتفقت الأمة على  
أن عصير العنب إذا اشتد وغلى وقذّف بالزبد فهو نحر ومستحلّه كافر . وأختلفوا في نقيع  
التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدلّ على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن  
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب ” غير معمول  
به عندهم ؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل نقيع التمر؛ ثبت أنه لم يدخل في الخمر  
المحرّمة غير عصير العنب الذي قد اشتدّ وبلغ أن يسكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون  
التحريم معلقا بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد  
قاسوا عليها نقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب . قال : فوجب قياسا على ذلك  
أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
” كل مسكر حرام ” واستغنى عن سنده لقبول الجميع له ، وإنما الخلاف بينهم في تأويله ،  
فقال بعضهم : أراد به جنس ما يسكر . وقال بعضهم : أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى  
قائلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدلّ على أنه محرم عند الطحاوي لقوله : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم  
كل ما أسكر من الأشربة . وقد روى الدارقطني في سننه عن عائشة رضي الله عنها  
أنها قالت : إن الله لم يحرم الخمر لأسمها وإنما حرّمها لعاقبتها ، فكل شراب يكون عاقبته  
كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ،  
وإذا اختلف الناس في الشيء وجب ردّ ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ،  
وماروى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون

(۱) في حاشية السدي على سنن الترمذي : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية » :

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطئ أخطأ في التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنباً لعله أن يكثّر من الاستغفار لله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل في تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أى من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالاً أو حراماً ، فآخذ السكّر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال الله تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ <sup>(١)</sup> » والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ قد مضى القول في الوحي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام ، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » . قال إبراهيم الحربي : لله عز وجل في الموات قدرة لم يُدر ما هي ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرفها ذلك ؛ أى ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وثاب « إلى النَّحْلِ » بفتح الحاء . وسعى نحلاً لأن الله عز وجل نخله العسل الذي يخرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهرى : والنحل والنحلة الدَّبَرُ يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : بَعْسُوب . والنحل يؤث في لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء . وروى من حديث

(٢) راجع ج ٤ ص ٨٥ .

(١) راجع ج ٣ ص ٥١ .

(٣) راجع ج ٢ ص ٧٥ . وص ١٤٥ .



أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الذَّبَّانِ كَلَمَا فِي النَّارِ يَجْعَلُهَا عَذَابًا لِأَهْلِ النَّارِ إِلَّا النَّحْلَ » ذكره الترمذي الحكيم في ( نوادر الأصول ) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النملة والنحلة والهُذُودَ والصدْرَ ، ترجمه أبو داود أيضا ، وسيأتي في « النمل » إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : ( أَنْ آتِيَهُ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ ) هذا إذا لم يكن لها ملك . ( وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ) جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع ، إما في الجبال وكواها ، وإما في متجوف الأشجار ، وإما فيها بعرش ابن آدم من الأجباح والخلايا والحيطان وغيرها . وعَرَّشَ معناه هنا هباً ، وأكثر ما يستعمل فيها يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ، ومنه العريش الذي صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش بعرش وبعرش ( بكسر الراء وضمة ) ، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف في ذلك عن عاصم .

الثالثة - قال ابن العربي : ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما قُرْبَجٌ ، إلا الشكل المسدس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعالى : ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾

(١) الصدر : طائر ضخم الرأس والمنقاره ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود يصعد صفار الطير .

(٢) راجع ج ١٣ ص ١٦٩ فا بعد . (٣) كذا في ي . وفي أ : مالك .

(٤) الأجباح : خلايا النحل في الجبل وفيها تعمل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُنِيَ مِنْ كُلِّ الْفَرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار .  
 ﴿ فَاسْلُكِي سَبْلَ رَبِّكِ ﴾ أى طرق ربك . والسبل : الطرق ، وأضافها إليه لأنه خالفها .  
 أى أدخل طرق ربك لطاب الرزق فى الجبال وخلال الشجر . ﴿ ذُلُّا ﴾ جمع ذلول وهو المتقاد ؛  
 أى مطيعة مسخرة . ذ « ذُلُّا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛  
 لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : المراد بقوله « ذلا » السبل .  
 واليعسوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :  
 الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد  
 النعمة والتنبية على العبرة فقال : « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » يعنى العسل . وجمهور  
 الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن على بن أبى طالب رضى الله عنه  
 أنه قال فى تحقيقه للدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة .  
 فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدري من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم  
 صلاحه إلا بحمى أنفاسها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ،  
 فأتى أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ؛ ذكره الغزنوى . وقال : « مِنْ بُطُونِهَا »  
 لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا فى البطن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر  
 والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوعته بحسب تنوع  
 الغذاء ، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبي صلى الله  
 عليه وسلم : « جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعَرْفُطُ » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

(١) اليعسوب : هو الملكة وليس للنحل غيرها رئيسا وذكر النحل هو الذى يلقح الملكة ثم يموت ، هذا الذى  
 يقتره العلماء بهذا الجنس . (٢) الجرس : الأكل . والعرفط (بالضم) : شجر الطلع ، وله صمغ كربه الرائحة ،  
 فإذا أكلته النحل حصل فى عسلها من رجيعه . أى شربت عسلا أكلت نحله من شجر الطلع .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعسل ؛ قاله الجمهور .  
 أى فى العسل شفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والقرطبي  
 وابن كيسان : الضمير للقرآن ؛ أى فى القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن ؛ وأوفىا قصصنا  
 عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء ، وهذا القول بين أيضا ؛  
 لأن أكثر الأثرية والمعجونات التى يتعالج بها أصلها من العسل . قال القاضى أبو بكر  
 ابن العربى : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصح عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن  
 مساق الكلام كله للعسل : ليس للقرآن فيه ذكر . قال ابن عطية : وزهد قوم من أهل  
 الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم ؛ وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآن  
 والحكمة ، وقد ذكر هذا بعضهم فى مجلس المنصور أبى جعفر العباسى ، فقال له رجل ممن  
 حضر : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فاضحك الحاضرين وبُهِتَ  
 الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعة - اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه  
 أم لا ؟ فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد ، فروى عن ابن عمر أنه كان  
 لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا ، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا .  
 وحكى النقاش عن أبى وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل .  
 وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقبل له : ألا نعالجك ؟ فقال : اثنوى بالماء ،  
 فإن الله تعالى يقول : « وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا » ثم قال : اثنوى بعسل ، فإن الله تعالى  
 يقول : « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » واثنوى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ »  
 بجاءوه بذلك كله تغلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل  
 ويطبخ فىأتى شرابا ينفع به فى كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص  
 ولا يقتضى العموم فى كل علة ، وفى كل إنسان ، بل إنه خبر من أنه يشفى كما يشفى غيره من  
 (۱) راجع ج ۱۷ ص ۶ . والظاهر أن المراد بالمباركة ماء المطر فإنه فى غاية النقاء نهر شفاء من الأمراض مطهر  
 من الجراثيم . محققه . (۲) راجع ج ۱۲ ص ۲۶۲ .

الأدوية في بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخبار منه في أنه دواء لما أكثر الشفاء به وصار خليطا ومُعِينًا للأدوية في الإشرية والمعاجين ؛ وليس هذا بأول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن « شفاء » نكرة في سياق الإثبات ، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان وعققي أهل العلم وتغافل أهل الأصول . لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من عليهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان . ابن العربي : ومن ضعفت نيته وغابته على الدين عاداته أخذها مفهوما على قول الأطباء ، والكَلِّ من حَكِّمِ الفَعَالِ ما يشاء .

الخامسة — إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره ، فكيف يكون شفاء للناس ؟ قيل له : الماء حياة كل شيء ، وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذ على ما يضاده من علة في البدن ، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الإشرية ؛ قال معناه الزجاج . وقد اتفق الأطباء عن بركة أيهم على مدح عموم منفعة السكنجين في كل مرض ، وأصله العسل وكذلك سائر المعجونات ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حسم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشكى بطنه بشرب العسل ، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزد إلا استطلافا أمره بعود الشراب له فبرئ ؛ وقال : ” صدق الله وكذب بطن أخيك “ .

السادسة — اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال : قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال ؛ فالجواب أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل له التصديق بنبيه عليه السلام ، فيستعمله على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي أمره بعقد نية وحسن طوية ، فإنه يرى منفعته ويدرك بركته كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدم . وأما ما حكى من الإجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيّد وأطلق . قال الإمام أبو عبد الله المازري : ينبغي أن يعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ، منها الإسهال

(١) السكنجين : شراب معزب ، أي خل وعسل ( عن الألفاظ الفارسية المعربة )

الحادث عن الثَّخْمِ والمُنْبِضَاتِ؛ والأطباءُ يجمعون في مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضع هذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهيضه فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده إلى أن فثبت المسادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أُذِنَ ذلك بمجهل المعترض بتلك الصناعة . قال : واسنأ تستظهر على قول نينا بأن يصدقه الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم ولكفراهم وصدقناه صلى الله عليه وسلم ، فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفترق حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحريجه على ما يصح إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب .

السابعة - في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز العلاج بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جلة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله “ . وروى أبو داود والترمذى عن أسامة بن شريك قال قالت الأعراب : ألا تتداوى يا رسول الله ؟ قال : ” نعم . يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً “ قالوا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : ” الهرم “ لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبي حزيمة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله، أرايت رُقَى فسترقيها ودواء تتداوى به ونقاة نثقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : ” هي من قدر الله “ قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبي حزيمة غير هذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : ” إن كان في شيء من أدويتكم خير فقى شرطه عجم أو شربة من عسل أو لدعة بنار وما أحب أن أكتوى “ أخرجه الصحيح . والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

(۱) الهيضات : جمع هيضة ، وهي انطلاق البطن .



جمهور العلماء . روى أن ابن عمراً <sup>(١)</sup> كَتَبَ من اللقوة ورق من العقرب . وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسقى ولده الترياق <sup>(٢)</sup> . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” دخلت أمة <sup>(٣)</sup> بقضيتها وقضيتها الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ” . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاماً بالله وتوكلاً عليه وثقة به وانقطاعاً إليه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » <sup>(٤)</sup> . ومن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما . دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال له عثمان : ما تشمكي ؟ قال ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : ألا أدعوك طيباً ؟ قال : الطيب أمرضني ... وذكر الحديث . وسيأتي بكامله في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى . وذكر وكيع قال : حدثنا أبو هلال عن معاوية بن قرة قال : مريض أبو الترداء فعادوه وقالوا : ألا ندعوك طيباً ؟ قال : الطيب أضجني . وإلى هذا ذهب الربيع بن خثيم . وكره سعيد بن جبيرة الرقي . وكان الحسن بكرة شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل . وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حجة فيه ، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه بدليل كي النبي صلى الله عليه وسلم أنبأ يوم الأحزاب على أشكله <sup>(٥)</sup> لما ربي . وقال : ” الشفاء في ثلاثة ” كما تقدم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقي بما ليس في كتاب الله ، وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ » <sup>(٦)</sup> على ما يأتي بيانه . ورقى أصحابه وأمرهم بالرقية ؛ على ما يأتي بيانه .

(١) اللقوة (بالفتح) : مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، وهو معرب . (٣) أى دخلوا مجتمعين ، ينقض أحرم على أولهم . وقال ابن الأعرابي : إن القرض الحصى الكبار ، والفضيض الحصى الصغار ، أى دخلوا بالكبير والصغير . (٤) راجع ج ١٧ ص ١٩٤ . (٥) الأشكل : عرق في وسط الذراع . (٦) راجع ص ٣١٥ من هذا الجزء .

الثامنة — ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوماً مقنناً ، وأختلف فيه قول الشافعي ، والذي قطع به في قوله الجديد : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل في قبله وكثيره ؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفراق<sup>(١)</sup> ، والفرق ستة وثلاثون رطلاً من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : في كل عشرة أفراق زق<sup>(٢)</sup> ، متمسكاً بما رواه الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في العسل في كل عشرة أفراق زق " قال أبو عيسى : في إسناده مقال ، ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء ، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول أحمد وإسحاق ، وقال بعض أهل العلم : ليس في العسل شيء .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي يعتبرون ؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإطاف الفكر في عجيب أمرها ، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة ، وذوقها باحتياها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى ؛ كما قال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم إنها تأكل الحامض والمُر والحلو والمالح والحشائش الضارة<sup>(٣)</sup> ، فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاءً ، وفي هذا دليل على قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝١٧٠ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بين معناه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ ﴾ يعني إرداءه وأوضعه . وقيل : الذي ينقص قوته وعقله ، ويصيره إلى الخرف ونحوه . وقال ابن عباس : يعني إلى أسفل العمر ، بصير كالصبي الذي لا عقل له ؛ والمعنى مقارب . وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بقول :

(١) في جردى : « نعمة أفراق » . (٢) لم يصح هذا عند النعاليين . محققه .

” اللهم إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من البخل “. وفي حديث سعد بن أبي وقاص ” وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر “ الحديث .  
 أخرجه البخاري . ( لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ) أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفطر الكبر . وقد قيل : هذا لا يكون للمؤمن ، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فعبء عن العمل بالعلم لا فتقاره إليه ؛ لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يمينه ثم يحييه .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** (٦١)

قوله تعالى : ( **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ** ) أى جعل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبيدا . ( **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا** ) أى فى الرزق . ( **بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ) أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوى المملوك والمالك فى المال . وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام ، أى إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدى معى سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم فى أموالهم لم يحز لهم أن يشاركون الله تعالى فى عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلفه . حكى معناه الطبري ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله فقال الله لهم : « **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** » أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرا سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولدا

من عبیدی . ونظیرها « صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » <sup>(۱)</sup> علی ما یاقی . ودل هذا علی أن العبد لا یملك ، علی ما یاقی آتفاً <sup>(۲)</sup> .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَـدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالْغَيْبِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴿۷۲﴾

قوله تعالى : ( **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ) جعل بمعنى خلق ؛ وقد تقدم .  
 ” مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ” یعنی آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم ، أى من جنسكم ونوعكم وهى خلقتمكم ؛ كما قال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » <sup>(۳)</sup> أى من الآدميين . وفى هذا ردّ علی العرب التى كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها ، حتى روى أن عمرو بن هند تزوج منهم غولاً <sup>(۴)</sup> وكانت يحبوها عن البرق لثلاث تراه فتفر ، فلما كان فى بعض الليل إلى لمع البرق وعايقه السَّعَلَةُ <sup>(۵)</sup> فقالت : عمرو ! ونفرت ، فلم يرها أبداً . وهذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزاً فى حكم الله وحكمته ، فهو ردّ علی الفلاسفة الذين يتكبرون وجود الجنان ويميلون طعامهم . ( **أَزْوَاجًا** ) زوج الرجل هى ثانیته ، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجین ، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها فى الوجود كما تقدم .

(۱) راجع ج ۱۴ ص ۲۲ . (۲) یرید بعد قليل . « آتفاً » إنما استعمل فى الماضی القریب لاقى المستقبل القریب . (۳) راجع ج ۸ ص ۳۰۱ . (۴) کذا فى نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربی ، والصواب أنه عمرو بن یریوع بن حنظلة بن مالک بن ثناء ؛ قال طیار بن أرقم :  
 یا فبیح الله بنی السَّعَلَةُ • عمرو بن یریوع شرار الناس  
 راجع شرح التتویر علی سقط الزند فی شرح بیت أبی العلاء المعری :  
 إذا لاح إیماس سرت وجوهها • کانی عسدر والمطی سماعی  
 (۵) السَّعَلَةُ : أعین العیالان .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحَقَّةٍ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء ، ووجود الأبناء يكون منهما معا ، ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصاله عنها أضيف إليها ، ولذلك تبعها في الرق والحرية وصار مثالا في المألية . قال ابن العربي : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفا على بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المألية وصار يجهلها في الرق والحرية ، لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مألية فيه ولا منفعة ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلا أجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة ؛ لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانية — قوله تعالى : « وَحَقَّةٌ » روى ابن القاسم عن مالك قال : ومأنته عن قوله تعالى : « بَيْنَ وَحَقَّةٍ » قال : الحفدة الخدم والأعوان في رأيي . وروى عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَحَقَّةٌ » قال : هم الأعوان ، من أعانك فقد حقدك . قيل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم وتقولون ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَقْدُ الْوَلَانْدِ حَوْلُنِ وَأَسْلَمْتُ \* بِأَكْفَهَرٍ أَزِمَةَ الْأَجْمَالِ

أى أسرع الخدمة . والولائد : الخدم ، الواحدة وليدة ؛ قال الأعشى :

كَلَفْتُ مَجْهُولَهَا نُوقًا يَمَانِيَةً \* إِذَا الْحُدَاةُ عَلَى أَكْسَانِهَا حَقَدُوا<sup>(١)</sup>

أى أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد ، قال : ومنه قولهم « إليك نسعى ونحفد » ، والحفدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم ، وقاله مجاهد . وقال الأزهري : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عباس . وقيل : الأختان ؛ قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحا وسعيد بن جبير وإبراهيم ؛

(١) الأكساء : جمع كسى (بالضم) وهو مؤنر المعجز .



ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup> :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصيحْتُ • لِمَا حَفَدْتُ مِمَّا يُسَدُّ كَثِيرُ  
ولكنها نفسٌ على آيَةٍ • عَيُوفٌ لِإِصْهَارِ اللُّثَامِ قَدُورُ<sup>(٢)</sup>

وروى زُرَّعٌ عن عبد الله قال: الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم، والمعنى متقارب. قال الأصمعي:  
الختَنَ مَنْ كَانَ مِنْ قِبَلِ الْمَرْأَةِ، مِثْلَ أَيْيَا وَأَخِيهَا وَمَا أَشْبَهَهُمَا؛ وَالْأَصْهَارُ مِنْهُمَا جَمِيعًا. يُقَالُ:  
أَصْهَرُ فُلَانٌ إِلَى بَنِي فُلَانٍ وَصَاهِرٌ. وقول عبد الله «هم الأختان» يحتمل المعنيين جميعًا.  
يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقرابائها، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم  
من أزواجكم بنين وبنات تزوجوهن، فيكون لكم بسببهن أختان. وقال عكرمة: الحفدة من  
نفع الرجل من ولده؛ وأصله من حَفَدَ يَحْفِدُ (يفتح العين في الماضي وكسرهما في المستقبل)  
إِذَا أَسْرَعَ فِي سِيرِهِ؛ كَمَا قَالَ كَثِيرُ<sup>(٣)</sup> :

« حَفَدَ الْوَلَاثِدُ بَنِينَ ... » • البيت .

ويقال: حَفَدْتُ وَأَحَفَدْتُ، لِفَتَانٍ إِذَا خَدِمَتْ. ويقال: حَافِدٌ وَحَفْدٌ، مِثْلُ خَادِمٍ وَخَدَمٍ،  
وَحَافِدٌ وَحَفْدَةٌ مِثْلُ كَافِرٍ وَكَفَرَةٍ. قال المهدوي: ومن جعل الحفدة الخدم جعله منقطعًا  
مِمَّا قَبْلَهُ يَنْبَوِي بِهِ التَّقْدِيمُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: جَعَلَ لَكُمْ حَفْدَةً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ.  
قلت: ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه؛  
أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفْدَةً» فجعل الحفدة والبنتين منهن.  
وقال ابن العربي: الأظهر عندي في قوله «بَنِينَ وَحَفْدَةً» أن البنين أولاد الرجل لُصْبُهُ  
والحفدة أولاد ولده، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا، ويكون تقدير الآية على هذا:  
وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة. وقال معناه الحسن.

الثالثة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة في قولهم إن الحفدة  
الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربي<sup>(١)</sup>  
(١) هو جميل . (٢) في البحر: لأصحاب . (٣) تقدم استهزاء ابن عباس به فلا يصح أن  
يكون لكثير عزة .

روى البخارى وغيره عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعمره فكانت امرأته خادمهم ... الحديث ، وقد تقدم في سورة « هود » . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا قتلت قلائد بُدِن النبي صلى الله عليه وسلم بيدي . الحديث . ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القدر وتَقَم الدار ، بحسب حالها وعادة مثلها ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » فكانه جمع لنا فيها السَّكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعة — ويخدم الرجل زوجته فيما خَف من الخدمة ويُعِينها ؛ لما روته عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يَخِصِف النعل وَيَقُم البيت وَيَخِيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يغلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

الخامسة — ويتفق على خادمة واحدة ، وقيل : على أكثر ؛ على قدر الثروة والمزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب وسكان البوادي يخدمون أزواجهن [حتى] في استعذاب الماء وسياسة الدواب ، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليه الزوجة ذلك ، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالترم إخدامها ، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار والحبوب والحيوان . ﴿ أَفَبِإِبْطَالٍ ﴾ يعنى الأصنام ، قاله ابن عباس . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قراءة الجمهور بالياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بالناء . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ أى بالإسلام . ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

(٣) يغلي ثوبه بما يناله من

(٤) من ابن العربي .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٣٧ .

(١) راجع ج ٩ ص ٦٨ .

بعض الجلساء لأن عنصره صلوات الله عليه في غاية الصفا والبقاء الخالص .

(٥) كذا في ابن العربي والعبارة له .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ( وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ ) يعنى المطر . ( وَالْأَرْضِ ) يعنى النبات . ( شَيْئًا ) قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفراء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ؛ أى يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئا . ( وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ) أى لا يقدرُونَ على شيء ، يعنى الأصنام . ( فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ) أى لا تشبهوا به هذه الجادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِدُّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ) نبه تعالى على ضلالة المشركين ، وهو منتظم بما قبله من ذكر نيم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى بين شبهاء ثم ذكر ذلك فقال : ( عَبْدًا مَّمْلُوكًا ) أى كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ، ورجل مرقود رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذى هو مثال فى هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه ، وإنما هو مستخر بإرادة سيده . ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة ؛ فإن النكرة فى الإثبات لا تقتضى الشمول عند أهل اللسان كما تقدم ، وإنما نفيد واحدا ، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعى ؛ كقوله : أعق رجلا ولاتين

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة، فأى رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء. وقال قتادة: هذا المثل للؤمن والكافر؛ يذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر، لأنه لا ينفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل [ العلم ] والتأويل. قال الأصم: المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشد من مولاه أسرا وأضر وجها، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه، فقال الله تعالى ضربا للثال. أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحمارا موانا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع.

الثانية - فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك، وأنه لا يملك شيئا وإن ملك. قال أهل العراق: الرق ينافي الملك، فلا يملك شيئا ألينة بحال، وهو قول الشافعى في الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين. ومنهم من قال: يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسيده أن ينتزعه منه أى وقت شاء، وهو قول مالك ومن أتبعه، وبه قال الشافعى في القديم. وهو قول أهل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا: لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات، ولا من عبادات الأبدان ما يقطع عن خدمة سيده كالخروج والجهاد وغير ذلك. وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملكه جارية جازله أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم لخال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر. والعراقى يقول: لا يجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة في النصاب واجبة على السيد كما كانت. ودلائل هذه المسئلة للفريقين في كتب الخلاف. وأدلى دليل لنا قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ» فسوى بين العبد والحر في الرزق والخلق. وقال عليه السلام: «من أعتق عبدا وله مال ...» فأضاف المسال إليه. وكان ابن عمر يرى عبده يتسرى في ماله فلا يعيب عليه ذلك. وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق أمرأته طلقتهين فأمره أن يرتجعهما بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم ينتزعه سيده. والله أعلم.

(١) منى . (٢) الأمر: الخلق . (٣) راجع ج ١٤ ص ٤٠ .

الثالثة — وقد استدَلَّ بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وهل أن بيع الأمة طلاقها، معولاً على قوله تعالى: «لَا يَبْدُلُ عَلَى شَيْءٍ». قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلاً، لا الملك ولا على غيره فهو على عمومته، إلا أن يدل دلائل على خلافه. وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص. والله تعالى أعلم.

والرابعة — قال أبو منصور في عقيدته: الرزق ما وقع الاغتذاء به. وهذه الآية ترد هذا التخصيص، وكذلك قوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»<sup>(١)</sup>. و«وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ»<sup>(٢)</sup> وغير ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقوله: «أرزاق أمتي في سنابك خيلها وأسنة رماحها». فالغنيمة كلها رزق، وكل ما صح به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب: أعلاها ما ينفق. وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبابت أو تصدقت فأمضيت». وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك. وفي السنة المحدثين: السماع رزق، بغير سماع الحديث، وهو صحيح.

الخامسة — قوله تعالى: «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» هو المؤمن، يطعم الله في نفسه وماله، والكافر لما لم ينفق في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً «هَلْ يَسْتَوُونَ»<sup>(٣)</sup> أي لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان «مَنْ» لأنه أسمٌ مُبَهَمٌ يصلح للواحد والاثنتين والجمع والمذكر والمؤنث. وقيل: إن «عِبَادًا تَمْلُوكَ»، «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ» أريد بهما الشيوع في الجنس. «الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَى أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أي هو المستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه، إذ لا نعمة إلا لصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق. «بَلَى أَكْثَرُهُمْ» أي أكثر المشركين «لَا يَعْلَمُونَ» أن الحمد لله، وجميع النعمة مني. وذكر الأكثر وهو يريد الجميع، فهو خاص أريد به التعميم. وقيل: أي بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون.

(١) العقيدة: اسم كتاب لأبي منصور المازنري، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقند سنة ٣٢٣ هـ. راجع كشف الظنون وتاج التراجم في طبقات الحنفية.

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧.

(٣) راجع ج ٣ ص ٢٦٥.



قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ( وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ) هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوش ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، قاله قتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضى الله عنه ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى ، ويأمر بالعدل عثمان . وعنه أيضا أنه مثل لأبى بكر الصديق ومولى له كافر . وقيل : الأبكم أبو جهل ، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العذيمى وعنس ( بالنون ) حتى من مذج وكان حليفا لبني مخزوم رهط أبى جهل ، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أنه ثُمَيَّة ، وكانت مولاة لأبى جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بحمد لأناك تحبينه لجلاله ، ثم طعنها بالرمح فقبلها فهاقت ، فهى أول شهيد مات فى الإسلام ، رحما الله . من كتاب النقاش وغيره . وسبق فى آية الإكراه مبينا إن شاء الله تعالى . وقال عطاء : الأبكم أبى بن خلف ، وكان لا ينطق بخير . ( وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ) أى قومه لأنه كان يؤذيم ويؤذى عثمان بن مظعون . وقال مقاتل : نزلت فى هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافرا قليل الخير يمدى النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافر ، والذي يأمر بالعدل المؤمن جملة بجملة ، روى عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعم . والأبكم الذى لا نطق له . وقيل : الذى لا يعقل . وقيل : الذى لا يسمع ولا يبصر . وفى التفسير إن الأبكم ها هنا الوثن . بين أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقله ويخيه فهو كَلٌّ عليه . والله الأمر بالعدل ، الغالب على كل شيء . وقيل : المنى « وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ » أى ثقل على وليه وقربته ، روى آل على صاحبه وابن عمه . وقد يسمى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أَكُوُّ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ \* إِذَا كَانَ عَظْمُ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدِ

(١) راجع ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء .

وَالْكَلِّ اَيْضًا الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ . وَالْكَلِّ الْعِيَالُ ، وَاجْلَعَ الْكُلُوفَ ؛ يُقَالُ مِنْهُ : كَلَّ السَّكِينُ بِكُلِّ كَلًّا أَيْ غَظِظَتْ شَفْرَتُهُ فَلَمْ يَقْطَعْ . ( اَيْتَمَّا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ) قَرَأَ الْجَاهِلُونَ « يُوجِّهُهُ » وَهُوَ خَطُّ الْمُصْحَفِ ؛ أَيْ أَيْتَمَّا يَرْسِلُهُ صَاحِبُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ وَلَا يَفْهَمُ مَا يُقَالُ لَهُ وَلَا يَفْهَمُ عَنْهُ . وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ « أَيْتَمَّا يُوجِّهُهُ » عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ . [ وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ] وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا « تَوَجَّهَ » عَلَى الْخَطَّابِ . ( هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) أَيْ هَلْ يَسْتَوِي هَذَا الْأَبْكَرُ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) تقدم معناه . وهذا متصل بقوله : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أَيْ شَرَعَ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ إِنَّمَا يَحْسُنُ مَنْ يَحِيطُ بِالْعَوَاقِبِ وَالْمَصَالِحِ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَحِيطُونَ بِهَا فَلِمَ تَحْكُمُونَ . ( وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ) وَتَجَاوِزُونَ فِيهَا بِأَعْمَالِكُمْ . وَالسَّاعَةُ هِيَ الْوَقْتُ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ ؛ سَمِيتُ سَاعَةً لِأَنَّهَا تَنْفُجُ النَّاسَ فِي سَاعَةِ فَيَمُوتُ الْخَلْقُ بِصَبِيحَةٍ . وَاللَّحْجُ : النَّظَرُ بِسُرْعَةٍ ؛ يُقَالُ : لَحَحَهُ لَحْحًا وَلَحَحَانَا . وَوَجْهَ النَّاوِيلِ أَنَّ السَّاعَةَ لَمَّا كَانَتْ آتِيَةً وَلَا بَدَّ جَعَلَتْ مِنَ الْقُرْبِ كَلْمَحَ الْبَصَرِ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : لَمْ يَرِدْ أَنَّ السَّاعَةَ تَأْتِي فِي لَمَحِ الْبَصَرِ ، وَإِنَّمَا وَصَفَ سُرْعَةَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا ؛ أَيْ يَقُولُ لِأَشْيَاءٍ كُنْ فَيَكُونُ . وَقِيلَ : إِنَّمَا مَثَلُ بَلَمَحِ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ يَلْمَحُ السَّمَاءَ مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَعْدِ مِنَ الْأَرْضِ . وَقِيلَ : هُوَ تَمْثِيلٌ لِلْقُرْبِ ؛ كَمَا يَقُولُ الْفَائِلُ : مَا السَّعَةِ إِلَّا لَحْظَةً ، وَشَبَّهَ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى هُوَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَلِكَ لَا عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ ؛ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ : « أَنْتُمْ يَوْمَهُ بَعِيدًا . وَتَرَاهُ قَرِيبًا » ( أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ) لَيْسَ « أَوْ » لِلشَّكِّ بَلْ لِلتَّمْثِيلِ بِأَيُّهَا أَرَادَ الْمُثَلِّ . وَقِيلَ : دَخَلَتْ لَشْكُ الْمُخَاطَبِ . وَقِيلَ : « أَوْ » بِمِثْلَةِ بَلْ . ( إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تقدم .

(١) منى .

(٢) راجع ج ٩ ص ١١٧ .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٢٤ .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم بشيء . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم . الثاني — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ، وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ** ﴾ أى التى تعلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ؛ أى وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوها بها إلى معرفته . « **وَالْأَفْئِدَةُ** » جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل فى ضمن قوله : « **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ** » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرأ الأعمش وآبن وتاب وحمزة « **إمهااتكم** » هنا وفى النور والزمر والنجم ، بكسر الهمزة والميم ، وأما الكسائى فكسر الهمزة وفتح الميم ؛ وإنما كان هذا للإتباع . الباقيون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمات ، فزيدت الهاء تأكيذا كما زادوا هاء فى أهرقت الماء وأصله أرفت . وقد تقدم هذا المعنى فى « **الْفَاتِحَةُ** » ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ ﴿٧٨﴾ فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثانى — يعنى تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إصبارها يؤدى إلى الشكر .

قوله تعالى : **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿٧٩﴾

(١) راجع ج ١٢ ص ٣١١ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٣٤ . (٣) راجع ج ١٧ ص ١٠٥ .

(٤) راجع ج ١ ص ١٤٨ .

قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ يَرَوْا اِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ اِلَّا اللّٰهُ ﴾ قرا يحيى بن زتاب والاعمش وابن عامر وحزمة ويعقوب « تروا » بالناء على الخطاب ، واختاره أبو عبيد . الباقون بالياء على الخبر . ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات لأمر الله تعالى ، قاله الكلبي . وقيل : « مُسَخَّرَاتٍ » مذللات لمنافعكم . ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الجوّ ما بين السماء والأرض ، وأضاف الجوّ إلى السماء لارتفاعه عن الأرض . وفي قوله : « مُسَخَّرَاتٍ » دليل على مُسَخَّرَها ومُدَبَّرَها من التصرف . ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ اِلَّا اللّٰهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف . بين لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته . ﴿ اِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ أى علامات وعبراً ودلالات . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسله .

قوله تعالى : وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنًا وَمتَّعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ معناه صبر . وكل ما علك فأظلك فهو سقف وسما ، وكل ما أظلك فهو أرض ، وكل ما سترتك من جهاتك الأربع فهو جدار : فإذا انتظمت وأنصلت فهو بيت . وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت ، فذكر أولاً بيوت المدين وهي التي للإقامة الطويلة . وقوله : ﴿ سَكَنًا ﴾ أى تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ، وقد تحرك فيه وتسكن في غيره ؛ إلا أن القول خرج على الغالب . وعدّه هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأنفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد ، ولو خلقه ساكناً كالأرض لكان كما خلق وأراد ، ولكنه أوجده خلقاً يتصرف للوجهين ، ويختلف حاله بين الحالتين ، وردده كيف وأين . والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع . ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة وهي :

(۱) في جرد : رسلهم . (۲) اضطربت الأصول في عدة هذه المسائل .

الثانية - فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى من الأنطاع والأدم . « بُيُوتًا » يعنى الخيام والقباب يخفّ عليكم حملها فى الأسفار . ﴿ يَوْمَ طَعَنَكُمْ ﴾ الطعن : سير البادية فى الانتجاع<sup>(١)</sup> والتحول من موضع إلى موضع ؛ ومنه قول عنترة :  
طَعَنَ الَّذِينَ فَرَأْفُهُمْ أَتَوَقَّعُ \* وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغُرَابُ الْأَنْقَعُ  
والظعن المودج أيضا ؛ قال :

الأهل هاجلك الأظمان إذ بانوا \* وإذ جادت بوشك البين غربان  
وقرى : بإسكان العين وفتحها كالشعر والشعر . وقيل : يحتمل أن يعم [ به ] بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سلام .  
وهو احتمال حسن ، ويكون قوله : « وَمِنْ أَصْوَافِهَا » ابتداء كلام ، كأنه قال جعل : أنا ؛ يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ؛ قال الشاعر :

أهاجتك الطعائن يوم بانوا \* بذى الرى الجميل من الأنثا  
ويحتمل أن يريد بقوله : مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ « بيوت الأدم فقط كما قدمناه أولا . ويكون قوله : « وَمِنْ أَصْوَافِهَا » عطفا على قوله : « مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ » أى جعل بيوتنا أيضا . قال ابن العربى : « وهذا أمر انتشر فى تلك الديار ، وعزبت عنه بلادنا ، فلا تُضرب الأخيبة عندنا إلا من البكّان والصوف ، وقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم قبة من أدم ، وناهيك من أدم الطائف غلاء فى القيمة ، واعتلاء فى الصنعة ، وحُسنا فى البشرة ، ولم يعد ذلك صلى الله عليه وسلم ترفا ولا رآه سرفا ؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعة فى الأكثنان والاستغلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زُرْتُ بعض المتزهدين من الغافلين مع بعض المحذنين ، فدخلنا عليه فى خباء كان فعرض عليه صاحبى الحديث أن يحمله إلى منزله ضيفا ، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحشر والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى فيك ؛ فقال : هذا الخباء لنا كثير ، وكان

(١) النجدة والانتجاع : طلب الكلاء ومساقط الفيت . (٢) من جوى .



في صنعنا من الحقيق؛ فقلت : ليس كما زعمت ! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد قبة من آدم طائفتي يسافر معها ويستظل بها ؛ فبهت ، ورأيت على منزلة من العتي فتركته مع صاحبي وخرجت عنه . »

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ اذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز؛ كما اذن في الأعظم ، وهو ذبحها واكل لحومها ، ولم يذكر الفطن والكتان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به ، وإنما عدد عليهم ما أنعم به عليهم ، وخوطبوا فيها عرفوا بما فهموا . وما قام مقام هذه وثاب منها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها ؛ وهذا كقوله تعالى : « وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ » ؛ فخطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم ، وسكت عن ذكر الثلج ؛ لأنه لم يكن في بلادهم ، وهو مثله في الصفة والمفظة ، وقد ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم معا في التطهير فقال : « اللهم اغسلني بماء وتلج وبرد » . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيت قط . وقيل : إن ترك ذكر الفطن والكتان إنما كان إعراضا عن الترف ؛ إذ مذهب عبادة الله الصالحين إنما هو الصوف « وهذا فيه نظر ؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوَاءَاتِكُمْ » حسبما تقدم بيانه في « الأعراف » . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشار إلى الفطن والكتان في لفظة « سراويل » والله أعلم . و﴿ أَنَاثًا ﴾ قال الخليل : متاعا منضما بعضه إلى بعض ؛ من أث إذا كثرت . قال :

وفسرج يزين المتن أسود فاحيم • أميث كيقنو النخلة المتشكيل<sup>(٣)</sup>

ابن عباس : « أَنَاثًا » ثيابا . وقد تقدم . وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٨٩ . (٢) راجع ج ٧ ص ١٨٢ . (٣) البيت من مقطعة امرئ القيس . والفرع : الشعر الثام . والمثمن والمثمنة : ما عن يمين الصلب وشماله من العصب والحم . والقاسم : الشديد لسواد . والفتر ( بالكسر والضم ) : المذق وهو الشراخ . والمتشكك : الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرة .

الانتفاع به على كل حال ، ويفسّل مخافة أن يكون علق به وسخ ، وكذلك روت أم مسامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا بأس بجلد الميتة إذا دُبِغ وصوفها وشعرها إذا غُسل " <sup>(١)</sup> لأنه مما لا يخله الموت ، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أولا ، كشعر ابن آدم والخنزير ، فإنه طاهر كله ؛ وبه قال أبو حنيفة ، ولكنه زاد علينا فقال : القرن والسن والعظم مثل الشعر ، قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان . وقال الحسن البصري والليث بن سعد والأوزاعي : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تظهر بالفسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لا تنجس بالموت . الثانية — تنجس . الثالثة — الفرق بين شعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودليانا عموم قوله تعالى : « وَمِنْ أَصْوَافِهَا » الآية . فمنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المدّكاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضاً فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قبل قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ <sup>نَجَاسَتُهَا</sup> الْمَيْتَةُ » وذلك عبارة عن الجملة . قلنا : نخصه بما ذكرناه ؛ فإنه منصوص عليه في ذكر الصوف ، وليس في آيتكم ذكره صريحا ، فكان دليلا أولى . والله أعلم . وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خليفة ، فهو ينجس بنبأه وينجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النماء ليس بديل على الحياة ؛ لأن النبات ينجس وإيس ينجس . وإذا عوّلوا على النماء المتصل لما على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التي تدلّ على عدم الإحساس الذي يدلّ على عدم الحياة . وأما ما ذكره الحنفية في العظم والسن والقرن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة . ولنا قول ثالث — هل تلتحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشعرى من الريش حكمه الشعر ، والعظم منه حكمه حكمه . ودليلا قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليله ؛ ومن الدلائل القاطع على ذلك قوله تعالى : « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ،

(١) والحديث المشهور « أيها إمام دبغ فقد طهر » رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٧ . (٣) راجع ج ١٥ ص ٥٨ .

وقال تعالى : « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا »<sup>(۱)</sup> ، وقال : « فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا »<sup>(۲)</sup> ، وقال : « إِنِّذَا كُنَّا عِظَامًا تَحْرُجَ »<sup>(۳)</sup> ، فالأصل هي العظام ، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجسد . وفي حديث عبد الله بن عكيم : « لَا تَنْتَفِعُوا مِنَ الْمَيِّتَةِ بِإِهَابٍ وَلَا عَصَبٍ » . فإن قيل : قد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شاة مميونة : « إِلَّا أَنْتَفَعْتُمْ بِجِلْدِهَا » ؟ فقالوا يا رسول الله ، إنها ميتة . فقال : « إِنَّمَا حَرَّمَ أَكْلَهَا » والعظم لا يؤكل . قلنا : العظم يؤكل ، وخاصةً عظم الحمل الرضيع والجسد والطيء ، وعظم الكبير يشوى ويؤكل . وما ذكرناه قبل يدل على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذكاة نجس بالموت . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : « مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ » عام في جلد الحي والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ ؛ وبه قال ابن شهاب الزهري والليث بن سعد . قال الطحاوي : لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث . قال أبو عمر : يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح ، وهو قول أباه جمهور أهل العلم . وقد روى عنهما خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت : قد ذكر الدارقطني في سنده حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهري ، وحديث بَقِيَّةَ عن الزبيدي ، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المِنَقَرِي عن سليمان بن كثير عن الزهري ، وقال في آخرها : هذه أسانيد صحاح .

السادسة —<sup>(۵)</sup> اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دبغ هل يطهر أم لا ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك . وذكر ابن خزيمة مناد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا . قال ابن خزيمة مناد : وهو قول الزهري والليث . قال : والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة ، ولا يصلى عليه ولا يؤكل فيه . وفي المدونة لأبي القاسم :

(۱) راجع ج ۳ ص ۲۸۸ . (۲) راجع ج ۱۲ ص ۱۰۸ . (۳) راجع ج ۱۹ ص ۱۸۸ .  
(۴) في ۱ ، ۲ ، ۳ ، ۴ ، ۵ ، ۶ ، ۷ ، ۸ ، ۹ ، ۱۰ ، ۱۱ ، ۱۲ ، ۱۳ ، ۱۴ ، ۱۵ ، ۱۶ ، ۱۷ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۲ ، ۲۳ ، ۲۴ ، ۲۵ ، ۲۶ ، ۲۷ ، ۲۸ ، ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۱ ، ۳۲ ، ۳۳ ، ۳۴ ، ۳۵ ، ۳۶ ، ۳۷ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۰ ، ۴۱ ، ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۴ ، ۴۵ ، ۴۶ ، ۴۷ ، ۴۸ ، ۴۹ ، ۵۰ ، ۵۱ ، ۵۲ ، ۵۳ ، ۵۴ ، ۵۵ ، ۵۶ ، ۵۷ ، ۵۸ ، ۵۹ ، ۶۰ ، ۶۱ ، ۶۲ ، ۶۳ ، ۶۴ ، ۶۵ ، ۶۶ ، ۶۷ ، ۶۸ ، ۶۹ ، ۷۰ ، ۷۱ ، ۷۲ ، ۷۳ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۷۶ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۷۹ ، ۸۰ ، ۸۱ ، ۸۲ ، ۸۳ ، ۸۴ ، ۸۵ ، ۸۶ ، ۸۷ ، ۸۸ ، ۸۹ ، ۹۰ ، ۹۱ ، ۹۲ ، ۹۳ ، ۹۴ ، ۹۵ ، ۹۶ ، ۹۷ ، ۹۸ ، ۹۹ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱ ، ۱۰۲ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ ، ۱۰۵ ، ۱۰۶ ، ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۱۰۹ ، ۱۱۰ ، ۱۱۱ ، ۱۱۲ ، ۱۱۳ ، ۱۱۴ ، ۱۱۵ ، ۱۱۶ ، ۱۱۷ ، ۱۱۸ ، ۱۱۹ ، ۱۲۰ ، ۱۲۱ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۲۵ ، ۱۲۶ ، ۱۲۷ ، ۱۲۸ ، ۱۲۹ ، ۱۳۰ ، ۱۳۱ ، ۱۳۲ ، ۱۳۳ ، ۱۳۴ ، ۱۳۵ ، ۱۳۶ ، ۱۳۷ ، ۱۳۸ ، ۱۳۹ ، ۱۴۰ ، ۱۴۱ ، ۱۴۲ ، ۱۴۳ ، ۱۴۴ ، ۱۴۵ ، ۱۴۶ ، ۱۴۷ ، ۱۴۸ ، ۱۴۹ ، ۱۵۰ ، ۱۵۱ ، ۱۵۲ ، ۱۵۳ ، ۱۵۴ ، ۱۵۵ ، ۱۵۶ ، ۱۵۷ ، ۱۵۸ ، ۱۵۹ ، ۱۶۰ ، ۱۶۱ ، ۱۶۲ ، ۱۶۳ ، ۱۶۴ ، ۱۶۵ ، ۱۶۶ ، ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۷۰ ، ۱۷۱ ، ۱۷۲ ، ۱۷۳ ، ۱۷۴ ، ۱۷۵ ، ۱۷۶ ، ۱۷۷ ، ۱۷۸ ، ۱۷۹ ، ۱۸۰ ، ۱۸۱ ، ۱۸۲ ، ۱۸۳ ، ۱۸۴ ، ۱۸۵ ، ۱۸۶ ، ۱۸۷ ، ۱۸۸ ، ۱۸۹ ، ۱۹۰ ، ۱۹۱ ، ۱۹۲ ، ۱۹۳ ، ۱۹۴ ، ۱۹۵ ، ۱۹۶ ، ۱۹۷ ، ۱۹۸ ، ۱۹۹ ، ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۰۵ ، ۲۰۶ ، ۲۰۷ ، ۲۰۸ ، ۲۰۹ ، ۲۱۰ ، ۲۱۱ ، ۲۱۲ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴ ، ۲۱۵ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷ ، ۲۱۸ ، ۲۱۹ ، ۲۲۰ ، ۲۲۱ ، ۲۲۲ ، ۲۲۳ ، ۲۲۴ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶ ، ۲۲۷ ، ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۳۰ ، ۲۳۱ ، ۲۳۲ ، ۲۳۳ ، ۲۳۴ ، ۲۳۵ ، ۲۳۶ ، ۲۳۷ ، ۲۳۸ ، ۲۳۹ ، ۲۴۰ ، ۲۴۱ ، ۲۴۲ ، ۲۴۳ ، ۲۴۴ ، ۲۴۵ ، ۲۴۶ ، ۲۴۷ ، ۲۴۸ ، ۲۴۹ ، ۲۵۰ ، ۲۵۱ ، ۲۵۲ ، ۲۵۳ ، ۲۵۴ ، ۲۵۵ ، ۲۵۶ ، ۲۵۷ ، ۲۵۸ ، ۲۵۹ ، ۲۶۰ ، ۲۶۱ ، ۲۶۲ ، ۲۶۳ ، ۲۶۴ ، ۲۶۵ ، ۲۶۶ ، ۲۶۷ ، ۲۶۸ ، ۲۶۹ ، ۲۷۰ ، ۲۷۱ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۴ ، ۲۷۵ ، ۲۷۶ ، ۲۷۷ ، ۲۷۸ ، ۲۷۹ ، ۲۸۰ ، ۲۸۱ ، ۲۸۲ ، ۲۸۳ ، ۲۸۴ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۲۸۷ ، ۲۸۸ ، ۲۸۹ ، ۲۹۰ ، ۲۹۱ ، ۲۹۲ ، ۲۹۳ ، ۲۹۴ ، ۲۹۵ ، ۲۹۶ ، ۲۹۷ ، ۲۹۸ ، ۲۹۹ ، ۳۰۰ ، ۳۰۱ ، ۳۰۲ ، ۳۰۳ ، ۳۰۴ ، ۳۰۵ ، ۳۰۶ ، ۳۰۷ ، ۳۰۸ ، ۳۰۹ ، ۳۱۰ ، ۳۱۱ ، ۳۱۲ ، ۳۱۳ ، ۳۱۴ ، ۳۱۵ ، ۳۱۶ ، ۳۱۷ ، ۳۱۸ ، ۳۱۹ ، ۳۲۰ ، ۳۲۱ ، ۳۲۲ ، ۳۲۳ ، ۳۲۴ ، ۳۲۵ ، ۳۲۶ ، ۳۲۷ ، ۳۲۸ ، ۳۲۹ ، ۳۳۰ ، ۳۳۱ ، ۳۳۲ ، ۳۳۳ ، ۳۳۴ ، ۳۳۵ ، ۳۳۶ ، ۳۳۷ ، ۳۳۸ ، ۳۳۹ ، ۳۴۰ ، ۳۴۱ ، ۳۴۲ ، ۳۴۳ ، ۳۴۴ ، ۳۴۵ ، ۳۴۶ ، ۳۴۷ ، ۳۴۸ ، ۳۴۹ ، ۳۵۰ ، ۳۵۱ ، ۳۵۲ ، ۳۵۳ ، ۳۵۴ ، ۳۵۵ ، ۳۵۶ ، ۳۵۷ ، ۳۵۸ ، ۳۵۹ ، ۳۶۰ ، ۳۶۱ ، ۳۶۲ ، ۳۶۳ ، ۳۶۴ ، ۳۶۵ ، ۳۶۶ ، ۳۶۷ ، ۳۶۸ ، ۳۶۹ ، ۳۷۰ ، ۳۷۱ ، ۳۷۲ ، ۳۷۳ ، ۳۷۴ ، ۳۷۵ ، ۳۷۶ ، ۳۷۷ ، ۳۷۸ ، ۳۷۹ ، ۳۸۰ ، ۳۸۱ ، ۳۸۲ ، ۳۸۳ ، ۳۸۴ ، ۳۸۵ ، ۳۸۶ ، ۳۸۷ ، ۳۸۸ ، ۳۸۹ ، ۳۹۰ ، ۳۹۱ ، ۳۹۲ ، ۳۹۳ ، ۳۹۴ ، ۳۹۵ ، ۳۹۶ ، ۳۹۷ ، ۳۹۸ ، ۳۹۹ ، ۴۰۰ ، ۴۰۱ ، ۴۰۲ ، ۴۰۳ ، ۴۰۴ ، ۴۰۵ ، ۴۰۶ ، ۴۰۷ ، ۴۰۸ ، ۴۰۹ ، ۴۱۰ ، ۴۱۱ ، ۴۱۲ ، ۴۱۳ ، ۴۱۴ ، ۴۱۵ ، ۴۱۶ ، ۴۱۷ ، ۴۱۸ ، ۴۱۹ ، ۴۲۰ ، ۴۲۱ ، ۴۲۲ ، ۴۲۳ ، ۴۲۴ ، ۴۲۵ ، ۴۲۶ ، ۴۲۷ ، ۴۲۸ ، ۴۲۹ ، ۴۳۰ ، ۴۳۱ ، ۴۳۲ ، ۴۳۳ ، ۴۳۴ ، ۴۳۵ ، ۴۳۶ ، ۴۳۷ ، ۴۳۸ ، ۴۳۹ ، ۴۴۰ ، ۴۴۱ ، ۴۴۲ ، ۴۴۳ ، ۴۴۴ ، ۴۴۵ ، ۴۴۶ ، ۴۴۷ ، ۴۴۸ ، ۴۴۹ ، ۴۵۰ ، ۴۵۱ ، ۴۵۲ ، ۴۵۳ ، ۴۵۴ ، ۴۵۵ ، ۴۵۶ ، ۴۵۷ ، ۴۵۸ ، ۴۵۹ ، ۴۶۰ ، ۴۶۱ ، ۴۶۲ ، ۴۶۳ ، ۴۶۴ ، ۴۶۵ ، ۴۶۶ ، ۴۶۷ ، ۴۶۸ ، ۴۶۹ ، ۴۷۰ ، ۴۷۱ ، ۴۷۲ ، ۴۷۳ ، ۴۷۴ ، ۴۷۵ ، ۴۷۶ ، ۴۷۷ ، ۴۷۸ ، ۴۷۹ ، ۴۸۰ ، ۴۸۱ ، ۴۸۲ ، ۴۸۳ ، ۴۸۴ ، ۴۸۵ ، ۴۸۶ ، ۴۸۷ ، ۴۸۸ ، ۴۸۹ ، ۴۹۰ ، ۴۹۱ ، ۴۹۲ ، ۴۹۳ ، ۴۹۴ ، ۴۹۵ ، ۴۹۶ ، ۴۹۷ ، ۴۹۸ ، ۴۹۹ ، ۵۰۰ ، ۵۰۱ ، ۵۰۲ ، ۵۰۳ ، ۵۰۴ ، ۵۰۵ ، ۵۰۶ ، ۵۰۷ ، ۵۰۸ ، ۵۰۹ ، ۵۱۰ ، ۵۱۱ ، ۵۱۲ ، ۵۱۳ ، ۵۱۴ ، ۵۱۵ ، ۵۱۶ ، ۵۱۷ ، ۵۱۸ ، ۵۱۹ ، ۵۲۰ ، ۵۲۱ ، ۵۲۲ ، ۵۲۳ ، ۵۲۴ ، ۵۲۵ ، ۵۲۶ ، ۵۲۷ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹ ، ۵۳۰ ، ۵۳۱ ، ۵۳۲ ، ۵۳۳ ، ۵۳۴ ، ۵۳۵ ، ۵۳۶ ، ۵۳۷ ، ۵۳۸ ، ۵۳۹ ، ۵۴۰ ، ۵۴۱ ، ۵۴۲ ، ۵۴۳ ، ۵۴۴ ، ۵۴۵ ، ۵۴۶ ، ۵۴۷ ، ۵۴۸ ، ۵۴۹ ، ۵۵۰ ، ۵۵۱ ، ۵۵۲ ، ۵۵۳ ، ۵۵۴ ، ۵۵۵ ، ۵۵۶ ، ۵۵۷ ، ۵۵۸ ، ۵۵۹ ، ۵۶۰ ، ۵۶۱ ، ۵۶۲ ، ۵۶۳ ، ۵۶۴ ، ۵۶۵ ، ۵۶۶ ، ۵۶۷ ، ۵۶۸ ، ۵۶۹ ، ۵۷۰ ، ۵۷۱ ، ۵۷۲ ، ۵۷۳ ، ۵۷۴ ، ۵۷۵ ، ۵۷۶ ، ۵۷۷ ، ۵۷۸ ، ۵۷۹ ، ۵۸۰ ، ۵۸۱ ، ۵۸۲ ، ۵۸۳ ، ۵۸۴ ، ۵۸۵ ، ۵۸۶ ، ۵۸۷ ، ۵۸۸ ، ۵۸۹ ، ۵۹۰ ، ۵۹۱ ، ۵۹۲ ، ۵۹۳ ، ۵۹۴ ، ۵۹۵ ، ۵۹۶ ، ۵۹۷ ، ۵۹۸ ، ۵۹۹ ، ۶۰۰ ، ۶۰۱ ، ۶۰۲ ، ۶۰۳ ، ۶۰۴ ، ۶۰۵ ، ۶۰۶ ، ۶۰۷ ، ۶۰۸ ، ۶۰۹ ، ۶۱۰ ، ۶۱۱ ، ۶۱۲ ، ۶۱۳ ، ۶۱۴ ، ۶۱۵ ، ۶۱۶ ، ۶۱۷ ، ۶۱۸ ، ۶۱۹ ، ۶۲۰ ، ۶۲۱ ، ۶۲۲ ، ۶۲۳ ، ۶۲۴ ، ۶۲۵ ، ۶۲۶ ، ۶۲۷ ، ۶۲۸ ، ۶۲۹ ، ۶۳۰ ، ۶۳۱ ، ۶۳۲ ، ۶۳۳ ، ۶۳۴ ، ۶۳۵ ، ۶۳۶ ، ۶۳۷ ، ۶۳۸ ، ۶۳۹ ، ۶۴۰ ، ۶۴۱ ، ۶۴۲ ، ۶۴۳ ، ۶۴۴ ، ۶۴۵ ، ۶۴۶ ، ۶۴۷ ، ۶۴۸ ، ۶۴۹ ، ۶۵۰ ، ۶۵۱ ، ۶۵۲ ، ۶۵۳ ، ۶۵۴ ، ۶۵۵ ، ۶۵۶ ، ۶۵۷ ، ۶۵۸ ، ۶۵۹ ، ۶۶۰ ، ۶۶۱ ، ۶۶۲ ، ۶۶۳ ، ۶۶۴ ، ۶۶۵ ، ۶۶۶ ، ۶۶۷ ، ۶۶۸ ، ۶۶۹ ، ۶۷۰ ، ۶۷۱ ، ۶۷۲ ، ۶۷۳ ، ۶۷۴ ، ۶۷۵ ، ۶۷۶ ، ۶۷۷ ، ۶۷۸ ، ۶۷۹ ، ۶۸۰ ، ۶۸۱ ، ۶۸۲ ، ۶۸۳ ، ۶۸۴ ، ۶۸۵ ، ۶۸۶ ، ۶۸۷ ، ۶۸۸ ، ۶۸۹ ، ۶۹۰ ، ۶۹۱ ، ۶۹۲ ، ۶۹۳ ، ۶۹۴ ، ۶۹۵ ، ۶۹۶ ، ۶۹۷ ، ۶۹۸ ، ۶۹۹ ، ۷۰۰ ، ۷۰۱ ، ۷۰۲ ، ۷۰۳ ، ۷۰۴ ، ۷۰۵ ، ۷۰۶ ، ۷۰۷ ، ۷۰۸ ، ۷۰۹ ، ۷۱۰ ، ۷۱۱ ، ۷۱۲ ، ۷۱۳ ، ۷۱۴ ، ۷۱۵ ، ۷۱۶ ، ۷۱۷ ، ۷۱۸ ، ۷۱۹ ، ۷۲۰ ، ۷۲۱ ، ۷۲۲ ، ۷۲۳ ، ۷۲۴ ، ۷۲۵ ، ۷۲۶ ، ۷۲۷ ، ۷۲۸ ، ۷۲۹ ، ۷۳۰ ، ۷۳۱ ، ۷۳۲ ، ۷۳۳ ، ۷۳۴ ، ۷۳۵ ، ۷۳۶ ، ۷۳۷ ، ۷۳۸ ، ۷۳۹ ، ۷۴۰ ، ۷۴۱ ، ۷۴۲ ، ۷۴۳ ، ۷۴۴ ، ۷۴۵ ، ۷۴۶ ، ۷۴۷ ، ۷۴۸ ، ۷۴۹ ، ۷۵۰ ، ۷۵۱ ، ۷۵۲ ، ۷۵۳ ، ۷۵۴ ، ۷۵۵ ، ۷۵۶ ، ۷۵۷ ، ۷۵۸ ، ۷۵۹ ، ۷۶۰ ، ۷۶۱ ، ۷۶۲ ، ۷۶۳ ، ۷۶۴ ، ۷۶۵ ، ۷۶۶ ، ۷۶۷ ، ۷۶۸ ، ۷۶۹ ، ۷۷۰ ، ۷۷۱ ، ۷۷۲ ، ۷۷۳ ، ۷۷۴ ، ۷۷۵ ، ۷۷۶ ، ۷۷۷ ، ۷۷۸ ، ۷۷۹ ، ۷۸۰ ، ۷۸۱ ، ۷۸۲ ، ۷۸۳ ، ۷۸۴ ، ۷۸۵ ، ۷۸۶ ، ۷۸۷ ، ۷۸۸ ، ۷۸۹ ، ۷۹۰ ، ۷۹۱ ، ۷۹۲ ، ۷۹۳ ، ۷۹۴ ، ۷۹۵ ، ۷۹۶ ، ۷۹۷ ، ۷۹۸ ، ۷۹۹ ، ۸۰۰ ، ۸۰۱ ، ۸۰۲ ، ۸۰۳ ، ۸۰۴ ، ۸۰۵ ، ۸۰۶ ، ۸۰۷ ، ۸۰۸ ، ۸۰۹ ، ۸۱۰ ، ۸۱۱ ، ۸۱۲ ، ۸۱۳ ، ۸۱۴ ، ۸۱۵ ، ۸۱۶ ، ۸۱۷ ، ۸۱۸ ، ۸۱۹ ، ۸۲۰ ، ۸۲۱ ، ۸۲۲ ، ۸۲۳ ، ۸۲۴ ، ۸۲۵ ، ۸۲۶ ، ۸۲۷ ، ۸۲۸ ، ۸۲۹ ، ۸۳۰ ، ۸۳۱ ، ۸۳۲ ، ۸۳۳ ، ۸۳۴ ، ۸۳۵ ، ۸۳۶ ، ۸۳۷ ، ۸۳۸ ، ۸۳۹ ، ۸۴۰ ، ۸۴۱ ، ۸۴۲ ، ۸۴۳ ، ۸۴۴ ، ۸۴۵ ، ۸۴۶ ، ۸۴۷ ، ۸۴۸ ، ۸۴۹ ، ۸۵۰ ، ۸۵۱ ، ۸۵۲ ، ۸۵۳ ، ۸۵۴ ، ۸۵۵ ، ۸۵۶ ، ۸۵۷ ، ۸۵۸ ، ۸۵۹ ، ۸۶۰ ، ۸۶۱ ، ۸۶۲ ، ۸۶۳ ، ۸۶۴ ، ۸۶۵ ، ۸۶۶ ، ۸۶۷ ، ۸۶۸ ، ۸۶۹ ، ۸۷۰ ، ۸۷۱ ، ۸۷۲ ، ۸۷۳ ، ۸۷۴ ، ۸۷۵ ، ۸۷۶ ، ۸۷۷ ، ۸۷۸ ، ۸۷۹ ، ۸۸۰ ، ۸۸۱ ، ۸۸۲ ، ۸۸۳ ، ۸۸۴ ، ۸۸۵ ، ۸۸۶ ، ۸۸۷ ، ۸۸۸ ، ۸۸۹ ، ۸۹۰ ، ۸۹۱ ، ۸۹۲ ، ۸۹۳ ، ۸۹۴ ، ۸۹۵ ، ۸۹۶ ، ۸۹۷ ، ۸۹۸ ، ۸۹۹ ، ۹۰۰ ، ۹۰۱ ، ۹۰۲ ، ۹۰۳ ، ۹۰۴ ، ۹۰۵ ، ۹۰۶ ، ۹۰۷ ، ۹۰۸ ، ۹۰۹ ، ۹۱۰ ، ۹۱۱ ، ۹۱۲ ، ۹۱۳ ، ۹۱۴ ، ۹۱۵ ، ۹۱۶ ، ۹۱۷ ، ۹۱۸ ، ۹۱۹ ، ۹۲۰ ، ۹۲۱ ، ۹۲۲ ، ۹۲۳ ، ۹۲۴ ، ۹۲۵ ، ۹۲۶ ، ۹۲۷ ، ۹۲۸ ، ۹۲۹ ، ۹۳۰ ، ۹۳۱ ، ۹۳۲ ، ۹۳۳ ، ۹۳۴ ، ۹۳۵ ، ۹۳۶ ، ۹۳۷ ، ۹۳۸ ، ۹۳۹ ، ۹۴۰ ، ۹۴۱ ، ۹۴۲ ، ۹۴۳ ، ۹۴۴ ، ۹۴۵ ، ۹۴۶ ، ۹۴۷ ، ۹۴۸ ، ۹۴۹ ، ۹۵۰ ، ۹۵۱ ، ۹۵۲ ، ۹۵۳ ، ۹۵۴ ، ۹۵۵ ، ۹۵۶ ، ۹۵۷ ، ۹۵۸ ، ۹۵۹ ، ۹۶۰ ، ۹۶۱ ، ۹۶۲ ، ۹۶۳ ، ۹۶۴ ، ۹۶۵ ، ۹۶۶ ، ۹۶۷ ، ۹۶۸ ، ۹۶۹ ، ۹۷۰ ، ۹۷۱ ، ۹۷۲ ، ۹۷۳ ، ۹۷۴ ، ۹۷۵ ، ۹۷۶ ، ۹۷۷ ، ۹۷۸ ، ۹۷۹ ، ۹۸۰ ، ۹۸۱ ، ۹۸۲ ، ۹۸۳ ، ۹۸۴ ، ۹۸۵ ، ۹۸۶ ، ۹۸۷ ، ۹۸۸ ، ۹۸۹ ، ۹۹۰ ، ۹۹۱ ، ۹۹۲ ، ۹۹۳ ، ۹۹۴ ، ۹۹۵ ، ۹۹۶ ، ۹۹۷ ، ۹۹۸ ، ۹۹۹ ، ۱۰۰۰ ، ۱۰۰۱ ، ۱۰۰۲ ، ۱۰۰۳ ، ۱۰۰۴ ، ۱۰۰۵ ، ۱۰۰۶ ، ۱۰۰۷ ، ۱۰۰۸ ، ۱۰۰۹ ، ۱۰۱۰ ، ۱۰۱۱ ، ۱۰۱۲ ، ۱۰۱۳ ، ۱۰۱۴ ، ۱۰۱۵ ، ۱۰۱۶ ، ۱۰۱۷ ، ۱۰۱۸ ، ۱۰۱۹ ، ۱۰۲۰ ، ۱۰۲۱ ، ۱۰۲۲ ، ۱۰۲۳ ، ۱۰۲۴ ، ۱۰۲۵ ، ۱۰۲۶ ، ۱۰۲۷ ، ۱۰۲۸ ، ۱۰۲۹ ، ۱۰۳۰ ، ۱۰۳۱ ، ۱۰۳۲ ، ۱۰۳۳ ، ۱۰۳۴ ، ۱۰۳۵ ، ۱۰۳۶ ، ۱۰۳۷ ، ۱۰۳۸ ، ۱۰۳۹ ، ۱۰۴۰ ، ۱۰۴۱ ، ۱۰۴۲ ، ۱۰۴۳ ، ۱۰۴۴ ، ۱۰۴۵ ، ۱۰۴۶ ، ۱۰۴۷ ، ۱۰۴۸ ، ۱۰۴۹ ، ۱۰۵۰ ، ۱۰۵۱ ، ۱۰۵۲ ، ۱۰۵۳ ، ۱۰۵۴ ، ۱۰۵۵ ، ۱۰۵۶ ، ۱۰۵۷ ، ۱۰۵۸ ، ۱۰۵۹ ، ۱۰۶۰ ، ۱۰۶۱ ، ۱۰۶۲ ، ۱۰۶۳ ، ۱۰۶۴ ، ۱۰۶۵ ، ۱۰۶۶ ، ۱۰۶۷ ، ۱۰۶۸ ، ۱۰۶۹ ، ۱۰۷۰ ، ۱۰۷۱ ، ۱۰۷۲ ، ۱۰۷۳ ، ۱۰۷۴ ، ۱۰۷۵ ، ۱۰۷۶ ، ۱۰۷۷ ، ۱۰۷۸ ، ۱۰۷۹ ، ۱۰۸۰ ، ۱۰۸۱ ، ۱۰۸۲ ، ۱۰۸۳ ، ۱۰۸۴ ، ۱۰۸۵ ، ۱۰۸۶ ، ۱۰۸۷ ، ۱۰۸۸ ، ۱۰۸۹ ، ۱۰۹۰ ، ۱۰۹۱ ، ۱۰۹۲ ، ۱۰۹۳ ، ۱۰۹۴ ، ۱۰۹۵ ، ۱۰۹۶ ، ۱۰۹۷ ، ۱۰۹۸ ، ۱۰۹۹ ، ۱۱۰۰ ، ۱۱۰۱ ، ۱۱۰۲ ، ۱۱۰۳ ، ۱۱۰۴ ، ۱۱۰۵ ، ۱۱۰۶ ، ۱۱۰۷ ، ۱۱۰۸ ، ۱۱۰۹ ، ۱۱۱۰ ، ۱۱۱۱ ، ۱۱۱۲ ، ۱۱۱۳ ، ۱۱۱۴ ، ۱۱۱۵ ، ۱۱۱۶ ، ۱۱۱۷ ، ۱۱۱۸ ، ۱۱۱۹ ، ۱۱۲۰ ، ۱۱۲۱ ، ۱۱۲۲ ، ۱۱۲۳ ، ۱۱۲۴ ، ۱۱۲۵ ، ۱۱۲۶ ، ۱۱۲۷ ، ۱۱۲۸ ، ۱۱۲۹ ، ۱۱۳۰ ، ۱۱۳۱ ، ۱۱۳۲ ، ۱۱۳۳ ، ۱۱۳۴ ، ۱۱۳۵ ، ۱۱۳۶ ، ۱۱۳۷ ، ۱۱۳۸ ، ۱۱۳۹ ، ۱۱۴۰ ، ۱۱۴۱ ، ۱۱۴۲ ، ۱۱۴۳ ، ۱۱۴۴ ، ۱۱۴۵ ، ۱۱۴۶ ، ۱۱۴۷ ، ۱۱۴۸ ، ۱۱۴۹ ، ۱۱۵۰ ، ۱۱۵۱ ، ۱۱۵۲ ، ۱۱۵۳ ، ۱۱۵۴ ، ۱۱۵۵ ، ۱۱۵۶ ، ۱۱۵۷ ، ۱۱۵۸ ، ۱۱۵۹ ، ۱۱۶۰ ، ۱۱۶۱ ، ۱۱۶۲ ، ۱۱۶۳ ، ۱۱۶۴ ، ۱۱۶۵ ، ۱۱۶۶ ، ۱۱۶۷ ، ۱۱۶۸ ، ۱۱۶۹ ، ۱۱۷۰ ، ۱۱۷۱ ، ۱۱۷۲ ، ۱۱۷۳ ، ۱۱۷۴ ، ۱۱۷۵ ، ۱۱۷۶ ، ۱۱۷۷ ، ۱۱۷۸ ، ۱۱۷۹ ، ۱۱۸۰ ، ۱۱۸۱ ، ۱۱۸۲ ، ۱۱۸۳ ، ۱۱۸۴ ، ۱۱۸۵ ، ۱۱۸۶ ، ۱۱۸۷ ، ۱۱۸۸ ، ۱۱۸۹ ، ۱۱۹۰ ، ۱۱۹۱ ، ۱۱۹۲ ، ۱۱۹۳ ، ۱۱۹۴ ، ۱۱۹۵ ، ۱۱۹۶ ، ۱۱۹۷ ، ۱۱۹۸ ، ۱۱۹۹ ، ۱۲۰۰ ، ۱۲۰۱ ، ۱۲۰۲ ، ۱۲۰۳ ، ۱۲۰۴ ، ۱۲۰۵ ، ۱۲۰۶ ، ۱۲۰۷ ، ۱۲۰۸ ، ۱۲۰۹ ، ۱۲۱۰ ، ۱۲۱۱ ، ۱۲۱۲ ، ۱۲۱۳ ، ۱۲۱۴ ، ۱۲۱۵ ، ۱۲۱۶ ، ۱۲۱۷ ، ۱۲۱۸ ، ۱۲۱۹ ، ۱۲۲۰ ، ۱۲۲۱ ، ۱۲۲۲ ، ۱۲۲۳ ، ۱۲۲۴ ، ۱۲۲۵ ، ۱۲۲۶ ، ۱۲۲۷ ، ۱۲۲۸ ، ۱۲۲۹ ، ۱۲۳۰ ، ۱۲۳۱ ، ۱۲۳۲ ، ۱۲۳۳ ، ۱۲۳۴ ، ۱۲۳۵ ، ۱۲۳۶ ، ۱۲۳۷ ، ۱۲۳۸ ، ۱۲۳۹ ، ۱۲۴۰ ، ۱۲۴۱ ، ۱۲۴۲ ، ۱۲۴۳ ، ۱۲۴۴ ، ۱۲۴۵ ، ۱۲۴۶ ، ۱۲۴۷ ، ۱۲۴۸ ، ۱۲۴۹ ، ۱۲۵۰ ، ۱۲۵۱ ، ۱۲۵۲ ، ۱۲۵۳ ، ۱۲۵۴ ، ۱۲۵۵ ، ۱۲۵۶ ، ۱۲۵۷ ، ۱۲۵۸ ، ۱۲۵۹ ، ۱۲۶۰ ، ۱۲۶۱ ، ۱۲۶۲ ، ۱۲۶۳ ، ۱۲۶۴ ، ۱۲۶۵ ، ۱۲۶۶ ، ۱۲۶۷ ، ۱۲۶۸ ، ۱۲۶۹ ، ۱۲۷۰ ، ۱۲۷۱ ، ۱۲۷۲ ، ۱۲۷۳ ، ۱۲۷۴ ، ۱۲۷۵ ، ۱۲۷۶ ، ۱۲۷۷ ، ۱۲۷۸ ، ۱۲۷۹ ، ۱۲۸۰ ، ۱۲۸۱ ، ۱۲۸۲ ، ۱۲۸۳ ، ۱۲۸۴ ، ۱۲۸۵ ، ۱۲۸۶ ، ۱۲۸۷ ، ۱۲۸۸ ، ۱۲۸۹ ، ۱۲۹۰ ، ۱۲۹۱ ، ۱۲۹۲ ، ۱۲۹۳ ، ۱۲۹۴ ، ۱۲۹۵ ، ۱۲۹۶ ، ۱۲۹۷ ، ۱۲۹۸ ، ۱۲۹۹ ، ۱۳۰۰ ، ۱۳۰۱ ، ۱۳۰۲ ، ۱۳۰۳ ، ۱۳۰۴ ، ۱۳۰۵ ، ۱۳۰۶ ، ۱۳۰۷ ، ۱۳۰۸ ، ۱۳۰۹ ، ۱۳۱۰ ، ۱۳۱۱ ، ۱۳۱۲ ، ۱۳۱۳ ، ۱۳۱۴ ، ۱۳۱۵ ، ۱۳۱۶ ، ۱۳۱۷ ، ۱۳۱۸ ، ۱۳۱۹ ، ۱۳۲۰ ، ۱۳۲۱ ، ۱۳۲۲ ، ۱۳۲۳ ، ۱۳۲۴ ، ۱۳۲۵ ، ۱۳۲۶ ، ۱۳۲۷ ، ۱۳۲۸ ، ۱۳۲۹ ، ۱۳۳۰ ، ۱۳۳۱ ، ۱۳۳۲ ، ۱۳۳۳ ، ۱۳۳۴ ، ۱۳۳۵ ، ۱۳۳۶ ، ۱۳۳۷ ، ۱۳۳۸ ، ۱۳۳۹ ، ۱۳۴۰ ، ۱۳۴۱ ، ۱۳۴۲ ، ۱۳۴۳ ، ۱۳۴۴ ، ۱۳۴۵ ، ۱۳۴۶ ، ۱۳۴۷ ، ۱۳۴۸ ، ۱۳۴۹ ، ۱۳۵۰ ، ۱۳۵۱ ، ۱۳۵۲ ، ۱۳۵۳ ، ۱۳۵۴ ، ۱۳۵۵ ، ۱۳۵۶ ، ۱۳۵۷ ، ۱۳۵۸ ، ۱۳۵۹ ، ۱۳۶۰ ، ۱۳۶۱ ، ۱۳۶

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأناله كان عليه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك .  
 وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه .  
 قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسى . وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا فى جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الذكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى .  
 قال أبو عمر : وكل جلد دُئى بخائز استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء فى إزاء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا فى خاصة نفسه ، وتركه الصلاة عليه وبيعته ، وتابعه على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياها باع دُبغ فقد طهر » .  
 وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعة — ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة فى شيء وإن دُبغت ، لأنها كلحم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ تردّ قوله . واحتج بحديث عبد الله بن عكيم — رواه أبو داود — قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جُهينة وأنا غلام شاب : « ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » . وفى رواية : « قبل موته <sup>(١)</sup> بشهر » . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم ، قال : حدثنا مِشخة لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علي : سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث فضغفه وقال : ليس بشيء ، إنما يقول حدثني الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتا لاحتمال أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن الحُبَاق وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم « ألا تتنفعوا من الميتة بإهاب » قبل الدباغ ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفا فليس لنا أن نجعله مخالفا ، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء فى الخبر فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه « إياها باع دُبغ فقد طهر » قبل موته بجمعة ، أو دون جمعة . والله أعلم .

(١) لفظة « شهر » سافطة من سنن أبي داود .

الثامنة - المشهور عندنا أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث ولا يتناوله العموم ، وكذلك الكلب عند الشافعي . وعند الأوزاعي وأبي ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى معن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وضاح : سمعت مثنونا يقول لا بأس به ، وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن علي وأصحابه ؛ اقلوه عليه السلام : ” أيما مَسَكٌ دبغ فقد طهر <sup>(١)</sup> ” . قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها ، فاما الخنزير فلم يدخل في المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيه الذكاة . ودليل آخر وهو ما قاله النضر بن شميل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل ، وما عداه فأنما يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : ” أكل كل ذي ناب من السباع حرام ” فليست الذكاة فيها ذكاة ، كما أنها ليست في الخنزير ذكاة . وروى النسائي عن المقسّم بن معد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب وميّاثر النور <sup>(٢)</sup> .

التاسعة - اختلف الفقهاء في الدباغ الذي تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه : كل شيء دبغ الجسد من ملح أو قَرَطَ أو شَبَّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به ؛ وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول داود . وللشافعي في هذه المسئلة قولان : أحدهما - هذا ، والآخر أنه لا يُطَهَّرُ إلا الشَّبَّ والقَرَطُ ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه نخرج الخطائي - والله أعلم - ما رواه النسائي عن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من قريش يمزونة لهم مثل الحصان ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لو أخذتم إهابها قالوا : إنها ميتة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يطهرها الماء والقَرَطُ ” .

(١) المسك (بالفتح وسكون السين) : الجلد . وخص بعضهم به جلد السحلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا ، والجمع مسك ومسوك . (٢) أي عن أن تفرش جلودها على النرج والرجال للباس عليها لما فيه من التكبر ، أو لأنه زى الديم ، أو لأن الشعر يجس لا يقبل الدباغ . (عن شرح سنن النسائي) . الميّاثر : جلود محشوة تجعل على الرجل .



العاشرة - قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتَ ﴾ الأناث متاع البيت ، واحدها أنانة ؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري . وقال الأمازيغي : الأناث متاع البيت ، وجمعه آنة وأث . وقال غيرهما : الأناث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنه شعر أثير أي كثير . وأث شعر فلان يأت أنا إذا كثر وألف ؛ قال امرؤ القيس :

وفرج يزيرُ المتن أسود فاحم \* أثيث كيقنو النخلة المتعشكيل

وقيل : الأناث ما يلبس ويفترش . وقد تأثت إذا اتخذت أنانا . وعن ابن عباس رضي الله عنه « أنانا » مالا . وقد تقدم القول في الحين ؛ وهو هنا وقت غير معين بحسب كل إنسان ، إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء التي هي أناث . ومن هذه النافضة قول الشاعر :

أهاجتك الطعائن يوم بانوا \* بذى الزى الجميل من الأناث

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْخَبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ ظُلُمًا ﴾ الظلال : كل ما يستظل به من البيوت والشجر . وقوله : « مِمَّا خَلَقَ » يعنى جميع الأشخاص المظلة .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ أَكْنَانًا ﴾ الأكنان : جمع كن ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ؛ وهى هنا الغيران في الجبال ، جعلها الله عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها . وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبد بغار حراء ويمكث فيه الليالي ... الحديث . وفي صحيح البخاري قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع ١ ص ٣٢١ ر ٩ ص ٣٦٠ فابعد .

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فازا بدينه مع صاحبه ابي بكر حتى لحقا بفارس في جبل نور ،  
فكنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن ابي بكر وهو غلام شاب ثقف لقين فيدخل من  
عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كجئت فلا يسمع امرأ يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما  
بغبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرى عليهما عامر بن فهيرة مولى ابي بكر منحة من غنم فيريحهما  
عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل ، وهو ابن منحتهما ورضيهما حتى ينق  
بهما عامر بن فهيرة بقلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ... وذكر الحديث .  
انفرد بإخراجه البخاري .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ﴾ يعني القمص ،  
واحدة سربال . ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب ، ومنه  
قول كعب بن زهير :

سُمُّ التَّارِيزِ أَبْطَالٌ لِبُؤْسِهِمْ • من نسج داود في الهيجه سَرَابِيلُ

الرابعة - إن قال قائل : كيف قال « وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا » ولم يذكر السهل ،  
وقال : « تَقِيَكُمُ الْحَرَّ » ولم يذكر البرد ؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب  
سهل ، وكانوا أهل حر ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصهم بذكر  
الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكثان ولا التاج - كما تقدم - فإنه لم يكن ببلادهم ، قال معناه  
عطاء الخراساني وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ، ومنه قول الشاعر :

وما أدري إذا يمتعت أرضا • أريد الخير أيهما يليق

الخير الذي أنا أبتغيه • أم الشر الذي هو يتغنى

الخامسة - قال العلماء : في قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ  
العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبي صلى الله عليه وسلم نقاة

- (١) في جورو : مكنا . (٢) أي حاذق سريع الفهم ، لقن حسن التفنن لما يسمعه .  
(٣) من الكبد ؛ أي يطلب لها ما فيه المكره . (٤) أي شاة تحلب إنا . بالذاة و إنا . بالمشى .  
(٥) الرضيف : الابن المروض ، وهو الذي طرح فيه الهجارة الهامة لذهب ونده . و ينق : يصحج .  
(٦) يقول محققه : ذكر الله لم تلك النعم وهي دالة على ما يقابلها على سبيل الاكتشاف . والقتان مشهور باين  
ومنه الثياب السجولية وكذا مصارومته كفن عليه السلام في ثوبين مصارين . وكذا التاج في جبال بلاد العرب .

الجراحة وإن كان يطالب الشهادة، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للتخوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيف، ولكنه يابس لآمة حرب لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ويفعل الله بعد ما يشاء.

السادسة — قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قرأ ابن محيصن ومحمد «تم» بـ «تاءين»، «نعمته» رفعاً على أنها الفاعل. الباقيون «يتم» بضم الياء على أن الله هو يتمها. و«تسلمون» قراءة ابن عباس وعكرمة «تسلمون» بفتح التاء واللام، أى تسلمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عباد بن العوام عن حنظلة عن شهر عن ابن عباس. الباقيون بضم التاء، ومعناه تستسلمون وتتقادون إلى معرفة الله وطاعته شكراً على نعمه. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أى ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فالإينا.

قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ قال السدي: يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم، أى يعرفون نبوته. ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ويكذبونه. وقال مجاهد: يريد ما عتد الله عليهم في هذه السورة من النعم؛ أى يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم. وبمثله قال قتادة. وقال عون بن عبيد الله: هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، ولولا فلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضرر من عند الله. وقال الكلبي: هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرفهم بهذه النعم كلها عرفوها، وقالوا: نعم، هى كلها نعيم من الله، ولكنها

(١) فى : على العبد . (٢) لآمة الحرب : أداته ؛ فقد ترك الهمة تخفيفاً . فى : حربه .

بشفاعة آلهتنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلّيبهم فيها ، ويتكرونها بترك الشكر عليها . ويحتمل  
سادسا — يعرفونها في الشدة ويتكرونها في الرخاء . ويحتمل سابعا — يعرفونها بأقوالهم  
ويتكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامنا — يعرفونها بقلوبهم ويحسدونها بالسنتهم ؛ نظيرها : « وَجَدُّوا  
يَا وَاسْتَفْتَنَّا أَنْفُسَهُمْ » . ( وَأَكْثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ )<sup>(١)</sup> بمعنى جميعهم ؛ حسبما تقدم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ) نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ  
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » وقد تقدم . ( ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ) أى فى الاعتذار والكلام ؛ كقوله :  
« وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . وذلك حين تطبق عليهم جهنم ، كما تقدم فى أول « الحجر »  
وباقى . ( وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ) بمعنى يسترضون ، أى لا يكفون أن يرضوا ربهم ؛ لأن الآخرة  
ليست بدار تكليف ، ولا يترون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب وهى  
الموجودة ؛ يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا فاضه ماعتب عليه فيه قيل : عاتبه ،  
فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبي وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى  
العاتب ؛ قاله المرويتي . وقال النابغة :

فإن كنتَ مظلوما فعبدا ظلمته \* وإن كنتَ ذا عتبي فنلك يعتب

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ( وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى أشركوا . ( الْعَذَابَ ) أى عذاب جهنم  
بالدخول فيها . ( فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ) أى لا يمهلون ؛ إذ لا توبة لهم ثم .

(٢) راجع به ص ١٩٧ .

(١) راجع به ١٣ ص ١٥٦ .

(٤) راجع ص ٣٠ فبا بعد من هذا الجزء .

(٣) راجع به ١٩ ص ١٦٤ .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَسْوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَلْسَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ) أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ؛ وذلك أن الله يبعث معبودهم فيبعونهم حتى يُردوهم النار . وفى صحيح مسلم : ” من كان يعبد شيئا فليتبَّعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ” الحديث ، خرجه من حديث أنس ، والترمذى من حديث أبى هريرة ، وفيه : ” فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التماثيل تماثيله ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ” وذكر الحديث . (قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) أى الذين جعلناهم لك شركاء . (فَالْقَسْوَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) أى ألفت إليهم الآلهة القول ، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . (وَالْقَسْوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَلْسَمَ) يعنى المشركين ، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعززه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا للحكمة فيهم . (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى زال عنهم ما زين لهم الشيطان وما كانوا يؤمنون من شفاعته لهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .



قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عذاب أيابها كالنخل الطوال ، وحيات مثل أعناق الإبل ، وأفاعى كأنها البعاني<sup>(۱)</sup> تضربهم ، فلك الزيادة . وقيل : المعنى يخرجون من النار إلى الزهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار . وقيل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السفلة ، فأحد العدايين على كفرهم والعذاب الآخر على صدمهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعصية . قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ<sup>ب</sup> وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَزَلَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء ، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة ودعواهم إلى الإيمان ، وفي كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا ، وفيهم قولان : أحدهما . أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثاني . أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قات : فعل هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله كقُس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو<sup>(۲)</sup> ابن نُفيل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : ” بيعت أمة وحده “ ، وسطيح ، وورقة ابن نوفل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : ” رأيته ينغمس في أنهار الجنة “ . فهُؤُلَاءِ ومن كان مثلهم حجة على أهل زمانهم وشهيد عليهم . والله أعلم . وقوله : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ تقدم في البقرة والذات .

قوله تعالى : ﴿ وَتَزَلَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : ﴿ مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾<sup>(۳)</sup> وقد تقدم ، فلينظر هناك . وقال مجاهد : تبينا لللال والحرام .

(۱) الباني : جمال طوال الأعناق . (۲) هو كاهن بني ذئب ، كان يتكهن في الجاهلية ، واسمه : ربيع بن زينة . (راجع سيرة ابن هشام ص ۹ طبع أوردبا) . (۳) رابع ج ۳ ص ۱۵۴ و ج ۵ ص ۱۹۷ . (۴) رابع ج ۶ ص ۴۱۹ .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ  
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾  
فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ روى عن عثمان بن مظعون  
أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب رضى الله عنه فتمجّب فقال :  
يا آل غالب ، اتبعوه فتلجوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق . وفي حديث —  
إن أبا طالب لما قيل له : إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه ، « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ  
وَالْإِحْسَانِ » الآية ، قال : اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق .  
وقال عكرمة : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ  
وَالْإِحْسَانِ » إلى آخرها ، فقال : يا ابن أخى أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ،  
وإن عليه لطلاوة ، وإن أصله لمورق ، وأعلاه لمشعر ، وما هو بقول بشر ! وذكر الغزنوى  
أن عثمان بن مظعون هو الفارى . قال عثمان : ما أسلمت ابتداء إلا حياة من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فأستقر الإيمان في قلبى ، فقرأتها  
على الوليد بن المغيرة فقال : يا ابن أخى أعد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة ، ... وذكر تمام  
الخبر . وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن خير مماثل ، ولشر مما تنب . وحكى النقاش  
قال : يقال زكاة العدل الإحسان ، وزكاة القسرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف وزكاة  
الجاه كتب الرجل إلى إخوانه .

الثانية — اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان ، فقال ابن عباس : العدل  
لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة . وقال  
سفيان بن عيينة : العدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من  
العلانية . على بن أبى طالب : العدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات ، وترك الظلم والإنصاف ، وإعطاء الحق ، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه ؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض ، إلا أن حدّ الإجزاء منه داخل في العدل ، والتكبير الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر ؛ لأن أداء الفرائض هي الإسلام حسبا فسرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل ، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسان التكيلات والمندوب إليه حسبا يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل بقوله : "إن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربي : العدل بين العبد وبين ربه إثبات حقه تعالى على حفظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتنال للأوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فمعهما مما فيه هلاكها ؛ قال الله تعالى : « وَتَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ » <sup>(١)</sup> وعزوب الأطماع عن الاتباع ، ولزوم الفناعة في كل حال ومعنى . وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ؛ ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سر ولا في علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى .

قلت : هذا التفصيل في العدل حسن وعدل ، وأما الإحسان فقد قال علماءنا : الإحسان مصدر أحسن يُحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما متعد بنفسه ؛ كقولك : أحسنت كذا ، أي حسنته وكنته ، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء . وثانيهما متعد بحرف جر ؛ كقولك : أحسنت إلى فلان ، أي أوصلت إليه ما ينفع به .

قلت : وهو في هذه الآية مراد بالمتعنين معا ؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض ، حتى أن الطائر في صبيك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك ؛ وهو تعالى غني عن إحسانهم ، ومنه الإحسان والنعيم والفضل والمِنَّة . وهو في حديث جبريل

(١) راجع ١٩ ص ٢٠٥ . (٢) في : عزوف .

بالمعنى الأول لا الثاني؛ فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة المكتملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وأرأى باب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله: "وجعلت فزة عيني في الصلاة". وثانيهما — لا تنهى إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَابُكُ فِي السَّاجِدِينَ» وقوله: «إِلَّا نَأْتِيَنَّكُمْ شَهِيدًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» (١).

الثالثة — قوله تعالى: «وَلِيَّائِ ذِي الْقُرْبَىٰ» أى القرابة؛ يقول: يعطيهم المال كما قال: «وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» (٢) يعنى صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدلل الشافعي في إيجاب إيتاء المكاتب؛ على ما يأتي بيانه. وإنما خص ذا القرى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح: "أَمَّا بَرِّصِينَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ وَأَفْطَحَ مِنْ قَطْعِكَ". ولا سيما إذا كانوا فقراء.

الرابعة — قوله تعالى: «وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أكره الشرع بالنهي عنه؛ وهو يعم جميع المعاصي والذنابل والدناءات على اختلاف أنواعها. وقيل: هو الشرك. والبغى: هو الكبر والظلم والحقد والتعدي؛ وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المذكور، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به أشد ضرره. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ذنب أسرع عقوبةً من بغْيٍ". وقال عليه السلام: "الباغى مصروع". وقد وعد الله من بغْيٍ عليه بالنصر. وفي بعض الكتب المنزلة: لو بغَى جبل على جبل لجرل الباغى منهما دكًا.

(١) راجع ج ١ ص ١٠٠ (٢) راجع ج ٨ ص ٣٥٥ (٣) راجع ص ٢٤٧ من هذا الجزء.

(٤) راجع صحيح البخاري في كتاب التفسير في سورة محمد وكتاب الأدب والزهد. وصحيح مسلم في كتاب الأدب.

الخامسة - ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال : (باب قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، وقوله : « إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » ، « ثُمَّ يُبَيِّنْ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ » ، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سحر لبيد ابن الأعصم النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطلان : نأول رضى الله عنه من هذه الآيات وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر؛ كما دلَّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : «أما الله فقد شقاني وأما أنا فأكفه أن أثير على الناس شراً» . ووجه ذلك - والله أعلم - أنه نأول في قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » النذب بالإحسان إلى المسيء وترك معافته على إساءته . فإن قيل : كيف يصح هذا التأويل في آيات البنى . قيل : وجه ذلك - والله أعلم - أنه لما أعلم الله عباده بأن ضرر البنى ينصرف على الباغى بقوله : « إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » وضمن تعالى نصرة من بُنى عليه ، كان الأولى بمن بنى عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عن بنى عليه ؛ وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم باليهودى الذى سحره ، وقد كان له الانتقام منه بقوله : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » . ولكن آخر الصنف أخذًا بقوله : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

السادسة - تضمنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد تقدم القول، فيها<sup>(٥)</sup> . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبى جعفر المنصور العباسى، فحاجبها العامل وغلابها، بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور في شيء ، فقام قى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

(١) رابع ج ٨ ص ٣٢٤ . (٢) رابع ج ١٢ ص ٨٩ . (٣) رابع ص ٢٠٠ من

هذا الجزء . (٤) رابع ج ١٦ ص ٣٨ . (٥) رابع ج ٤ ص ٤٧ .



قوله تعالى : **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴿٩١﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ)** لفظ عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة في أمر موافق الديانة . وعنده الآية مضمّن قوله : **« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ »** لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، واتقوا عن كذا ؛ فعطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت في التزام الحلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به ؛ قاله قتادة وجماعة وابن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه . روى الصحيح عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَيْمَانُ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً »** يعني في نصرته الحق والقيام به والمواساة . وهذا كنحو حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه ونسبه ، فتعاهدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُردّ عليه مظلمته ؛ فسمعت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، أي حلف الفضائل . والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس . روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم لو ادعى به في الإسلام لأجبت »** . وقال ابن إسحاق : تحامل الوليد بن عتبة على حسين بن علي في مال له ، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة ؛ فقال له حسين بن علي : **« أحلف بالله لتنصفني من حق أو لاخذت سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعون بحجاف الفضول . قال عبيد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دعانا لأخذت سيفي ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا . وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك . وبلغت**

(١) في سيرة ابن هشام : « لشرفه وسنه » . (٢) في سيرة ابن هشام : « لئن دعاه » .

عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شده الإسلام وخصه النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : ” لا حلف في الإسلام “ . والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإبصاله إلى المظلوم ، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عاماً على من قدر من المكلفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَمْ يَعَذَّبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » . وفي الصحيح [ من قوله <sup>(٢)</sup> ] : ” أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً “ قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : ” تأخذ على يديه “ في رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره . وقد تقدم قوله تأييد السلام : ” إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده “ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتعليقها ؛ يقال : توكيد وتأكيد ، وتكيد وأكيد ، وهما لغتان .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْفِيًّا ﴾ يعني شهيداً . ويقال : حافظاً ، ويقال : ضامناً . وإنما قال : « بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فرقاً بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مراراً ، يردد فيه الأيمان ثلاثاً أو أكثر من ذلك ؛ كقوله : والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين . قال يحيى بن سعيد : هي اليهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر . قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ أَسْنِهِ بِقَدَرِ غَدَرْتَهُ يَقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ “ . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة ، وحل ما انعقدت عليه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدم في المائدة <sup>(٣)</sup> .

(٣) رابع ج ٦ ص ٣٦٤ .

(٢) من ر .

(١) رابع ج ١٦ ص ٤٤ .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَخْذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُولُكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ النقض والنكت

واحد، والاسم النكت والنقض، والجمع الأنكاث. فشبهت هذه الآية الذي يخلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفعله محكما ثم تحله. وروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطَةَ بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة كانت تفعل ذلك، فيها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسدي ولم يسميا المرأة. وقال مجاهد وقتادة:

وذلك ضرب مثل، لا على امرأة معينة. و « أَنْكَاثًا » نصب على الحال. والدَّخَلَ: الدَّغَلَ والخديعة والغش. قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَلَ. ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداها قبيلة كثيرة قسوة فداخاتها، غدرت الأولى ونقضت عهدها

ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين. والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم. وقال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقاتهم وكثرتكم أولفائكم وكثرتهم، وقد عززتوهم بالإيمان. ﴿ أَرْبَى ﴾ أى أكثر من ربى الشيء يربو إذا كثر. والضمير في « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذى أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء أى أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد، وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها من يتبعها ويعمل بمقتضى هواها؛ وهو معنى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَبُولُكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من البعث وغيره.

(١) فى : كبيرة .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى على ملة واحدة . ﴿ وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بخذلانه إياهم ؛ عدلا منه فيهم . ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بتوفيقه إياهم ؛ فضلا منه عليهم ، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنتم . والآية ترد على أهل القدر كما تقدم . واللام في « ولبيّن ولتسألن » مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر ، أى والله لبيّن لكم ولتسألن .

قوله تعالى : وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر ذلك تأكيدا . ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس ؛ أى لا تعقدوا الأيمان بالأنطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها ، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ؛ ومن هذا المعنى قول كثير :

• فلما توافينا بآبَ وَزَلَّتْ •

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة : زَلَّتْ قدمه ؛ كقول الشاعر :

سَمِعْتَنِيكَ مِنْكَ السَّبْقُ إِن كُنْتَ سَابِقًا • وَتَقَسَّلَ إِن زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمَانِ

ويقال لمن أخطأ في شيء : زَلَّ فيه . ثم توعده تعالى بعد عذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج عن الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصددكم . وتذوق السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه .

قوله تعالى : وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِيمَانًا قَلِيلًا ۖ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِيمَانًا قَلِيلًا ﴾ نهي عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد ؛ أى لاتنقضوا عهودكم أترض قليل من الدنيا . وإنما كان قليلا وإن كثرت لأنه مما يزول ، فهو على التحقيق قليل ، وهو المراد بقوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ، ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد وثبت على العقد . ولقد أحسن من قال :

المال ينفد حلاله وحرامه \* يوما وتبقى في غيد آثامه  
ليس التقي بمتقى لإلهه \* حتى يطيب شرابه وطعامه <sup>(١)</sup>

آخر :

هيب الدنيا تساق إليك عفوًا \* أليس مصير ذلك إلى انتفال  
وما دنياك إلا مثال فيء \* أظلك ثم آذت بالزوال

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصي . ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى من الطاعات ، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « وَلَنَجْزِيَنَّ » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء . وقيل : إن هذه الآية « وَلَا تَسْتُرُوا » إلى هنا نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي وخصمه ابن أسوع ، اختصما في أرض فأراد أمرؤ القيس أن يخلف فلما سمع هذه الآية نكل وأفتزله بمقته ؛ والله أعلم .

(١) في نسخ الأمل : \* ليس التقي بمن يمر بأهله \* وفى : يميز ، والصواب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق . (٢) الذى فى كتب الصعابة فى ترجمة امرئ القيس بن عابس أنه ربيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عيدان بن أسوع : « ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى حاصر أمرا القيس بن عابس الكندي فى أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشتركون به عهد الله ... » الآية .



قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ

حَبْوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً )

شرط وجوبه ، وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال : الأول — أنه الرزق الحلال ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك . الثاني — القناعة ، قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه ، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فلأنها تؤديه إلى رضوان الله ، قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن في فاقة وميسرة لحياة طيبة ، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فعيشته ضنك لا خير فيها . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هي الجنة ، وقاله الحسن ، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة . وقيل : هي السعادة ، روى عن ابن عباس أيضا ، وقال أبو بكر الوزاق : هي خلاوة الطاعة . وقال سمل بن عبد الله التستري : هي أن يتزع عن العبد تديره ويرد تديره إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هي المعرفة بالله ، وصدق المقام بين يدي الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . ( وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ) أي في الآخرة . ( بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) . وقال : « فَلَنُحْيِيَنَّهٗ » ثم قال : « وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ » لأن « مَنْ » يصلح للواحد والجمع ، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى ، وقد تقدم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أنضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ، ففترت .

قوله تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٧٥﴾

فيه مسألة واحدة — وهي أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكَتَابَ نَبَأًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدك عن

تدبره والعمل بما فيه ؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة ؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله ؛ أي إذا أردت أن تأكل . وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة قال : ” اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونَفْخه ونَفْثه “<sup>(١)</sup> . وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتموّد في صلاته قبل القراءة . قال الكيا الطبري : ونُقل عن بعض السلف التعمّد بعد القراءة مطلقاً ، احتجاجاً بقوله تعالى : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا » . إلا أن غيره محتمل ، مثل قوله تعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا »<sup>(٢)</sup> « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »<sup>(٣)</sup> وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم . ومثله قول القائل : إذا قلت فاصدق ، وإذا أحرمت فاغتسل ، يعني قبل الإحرام . والمعنى في جميع ذلك : إذا أردت ذلك ؛ فكذلك الاستعاذة . وقد تقدم هذا المعنى ، وتقدم القول في الاستعاذة مستوفى .<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشِيرُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ( إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ) أي بالإغواء والكفر ، أي ليس لك قدرة على أن تجعلهم على ذنب لا يُغفر ؛ قاله سفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوه إلى من المعاصي . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال ؛ لأن الله تعالى صرف

(١) الهزرة : النخس والغمز ، وكل شيء . دفعته فقد همزته . والنفخ : الكبر ؛ لأن المشكبر يتعاطى ويجمع نفسه ونفسه فيحتاج أن ينفخ . والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر ؛ لأنه ينث من الفم .

(٢) راجع ج ٥ ص ٣٧٣ . (٣) راجع ج ٧ ص ١٣٧ . (٤) راجع ج ١٤ ص ٢٢٧ .

(٥) راجع ج ٦ ص ٨٠ . (٦) راجع ج ١ ص ٨٦ .

سلطانہ علیہم حين قال عذو الله إبليس لعنه الله : « وَلَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » (۱) قال الله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » .

قلت : قد بينا أن هذا عام يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بهما ، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربك ؟ حسبما تقدم في آخر الأعراف بيانه ، (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) أي بطيعونه . يقال : توليته أي أطعته ، وتوليت عنه ، أي أعرضت عنه . (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُبْتَغُونَ) أي بالله ، قاله مجاهد والضحاك . وقيل : يرجع « به » إلى الشيطان ، قاله الربيع بن أنس والفتني . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أي من أجلها . وصار فلان بك عالماً ، أي من أجلك . أي والذي تولى الشيطان مشركون بالله .

قوله تعالى : وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۲) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (۳)

قوله تعالى : (وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ) قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدمة بشريعة مستأفة ، قاله ابن بحر . مجاهد : أي رفعتنا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهور : نسختنا آية بآية أشد منها عليهم . والنسخ والتبديل رفع الشيء مع وضع غير مكانه . وقد تقدم الكلام في النسخ في البقرة مستوفى . (قَالُوا) يريد كفار قريش . (إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) أي كاذب مخنلق ، وذلك لما رأوا من تبديل الحكيم . فقال الله : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض ببعض . وقوله : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

(۱) راجع ص ۲۷ من هذا الجزء ، فابعد . (۲) راجع ج ۷ ص ۲۴۸ .

(۳) راجع ج ۲ ص ۶۱ وما بعدها .

الْقُدُسِ ﴿بَعَثَ جِبْرِيلَ ، نَزَلَ بِالْقُرْآنِ كُلَّهُ نَاسِخًا وَمُنْسُوخًا . وَرَوَى بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : وَكُلَّ إِسْرَافِيلَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ سِنِينَ ، فَكَانَ يَأْتِيهِ بِالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَةُ ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ . وَفِي صَحِيحٍ مُسْلِمٍ أَيْضًا أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ بِسُورَةِ « الْحَمْدِ » مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الْأَرْضِ قَطُّ . كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْفَاتِحَةِ بَيَانُهُ . ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيْ مِنْ كَلَامِ رَبِّكَ . ﴿ لِيُبَيِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أَيْ بَمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ . ﴿ وَهَدَى ﴾ أَيْ وَهُوَ هَدَى . ﴿ وَبَشَّرَ لِلنَّاسِ إِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلمه ؛ فقتيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر ، كان نصرانيا فأسلم ، وكانوا إذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أُمِّيٌّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي ، فقال الله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أَيْ كَيْفَ يَعْلَمُهُ جَبْر وَهُوَ أَعْجَمِيٌّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ وَالْجِبْرِ أَنْ يَمَارِضُوا مِنْهُ سُورَةً وَاحِدَةً فَمَا فَوْقَهَا . وَذَكَرَ الْبِقَاشُ أَنَّ مَوْلَى جَبْرٍ كَانَ يَضْرِبُهُ وَيَقُولُ لَهُ : أَنْتَ تَعَلَّمَ مَجْدًا ، فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ ، بَلْ هُوَ يَعْلَمُنِي وَيَهْدِيَنِي . وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فِيمَا بَلَغْنِي — كَثِيرًا مَا يَجْلِسُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ إِلَى غُلَامٍ نَصْرَانِيٍّ يُقَالُ لَهُ جَبْر ، عَبْدُ بَنِي الْحَضْرَمِيِّ ، وَكَانَ يقرأ الْكُتُبَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : وَاللَّهِ مَا يَعْلَمُ مَجْدًا مَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا جَبْرُ النَّصْرَانِيِّ . وَقَالَ عِكْرَمَةُ : اسْمُهُ يَعِيشُ عَبْدُ لَبْنَى الْحَضْرَمِيِّ ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْقَنَهُ الْقُرْآنَ ؛ ذَكَرَهُ الْمَسَاوِدِيُّ . وَذَكَرَ التَّلْمِيزِيُّ عَنْ عِكْرَمَةَ وَتَسَادَةً أَنَّهُ غُلَامٌ لِبَنِي الْمَغِيرَةِ اسْمُهُ يَعِيشُ ، وَكَانَ يقرأ الْكُتُبَ الْأَعْجَمِيَّةَ ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ، فَتَزَلَّتْ . الْمَهْدَوِيُّ عَنْ عِكْرَمَةَ :

هو غلام لبني عامر بن لؤي، واسمه يعيش . وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر الماوردي والفشيري<sup>(١)</sup> والثعلبي<sup>(٢)</sup> إلا أن الثعلبي قال : يقال لأحدهما بُت و يكنى أبا فُكَيْهَة ، والآخر جبر ، وكانا صيقليين يعملان السيوف ؛ وكانا يقرآن كتابا لهم . الثعلبي : يقرآن التوراة والإنجيل . الماوردي<sup>(٣)</sup> والمهدوي<sup>(٤)</sup> : التوراة . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزجها ويسمع قراءتهما ، وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنوا سلمان الفارسي رضى الله عنه ؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة أسمه بلعام ، وكان غلاما يقرأ التوراة ؛ قاله ابن عباس . وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام . وقال القتبي<sup>(٥)</sup> : كان بمكة رجل نصراني يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية ، فرما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الكفار : إنما يتعلم عهد منه ، فنزلت . وفي رواية أنه عداس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عابس غلام حو يظب بن عبد العزى ويسار أبو فُكَيْهَة مولى ابن الحضرمي ، وكانا قد أسلما . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم في أوقات مخالمة ليعلمهم مما علمه الله ، وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمناقضة ؛ لأنه يجوز أن يكونوا أُرْسُوا إلى هؤلاء جميعا ، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعد ؛ لأن سلمان إنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهذه الآية مكية . ( لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ) الإلحاد : الميل ؛ يقال : لحذ وألحد ، أى مال عن القصد . وقد تقدم في الأعراف وقرا حزة « يُلْحِدُونَ » بفتح الباء والحاء ؛ أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمي . والمعجمة : الإخفاء وضد البيان . ورجل أعجم وأمراة عجماء ، أى لا يفصح ؛ ومنه نَحِم الذنب لاستناره . والمعجماء :

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٢٨ .

(١) العيقل : شحاذ الديوف وجلالهما



البيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكتاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفراء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمى أو العجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو على : الأعجمى الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً . وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً ؛ قال الشاعر :

لسانُ الشر تهديها إلينا \* وخُنت وما حسبتك أن تحونا

يعنى باللسان القصيدة . ( وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ) أى أنصح ما يكون من العربية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ( **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ) أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . ( **لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ) .

قوله تعالى : **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ( **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ) هذا جواب وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بالافتراء . ( **وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ) هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب ؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم . ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب ؛ لأن الفعل قد يكون لازماً وقد لا يكون لازماً . فأما النعت فيكون لازماً ولهذا يقال : عصي آدم ربه فعوى ، ولا يقال : إنه عاى غاو . فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب ؛ قاله القشيري .

قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ  
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ  
اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ( مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ) هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَنْفُضُوا  
الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فكان مبالغة في الوصف بالكذب ؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول  
صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وأرتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت  
في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ومقيس بن صبابه وعبد الله بن خطل ، ومقيس بن الوليد بن  
المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : ( إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ ) . وقال الزجاج : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ  
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ » بدل من يفترى الكذب ؛ أى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد  
إيمانه ؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَنْ »  
ابتداء وخبره محذوف ، اكنفى منه بخبر « من » الثانية : كقولك : من يأتنا من يحسن نكرمهم .

الثانية — قوله تعالى : ( إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ ) هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ، في قول  
أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا  
إياه وأمه سُمَيَّةَ وَصُحَيَّيَا وَبِلَالًا وَخَبَّابًا وَسَلَمًا فَعَذَّبُوهُمْ ، وَرُبِطَتْ سُمَيَّةُ بَيْنَ بَيْرَيْنِ وَوُجِئَ  
قُبُلُهَا بِحَجْرَةٍ ، وَقِيلَ لَهَا : إِنَّكَ أَسْلَمْتِ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ ، فَفَقَلْتَ وَقَتْلَ زَوْجِهَا يَاسِرَ ، وَهِيَ أَوَّلُ  
فَتِيلَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ . وَأَمَّا عَمَارُ فَأَعْطَاهُمْ مَا أَرَادُوا بِأَسَانِهِ مَكْرَهَا ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قَالَ :  
مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ عَادُوا فَعُذُّ » . وَرَوَى  
مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : أَوَّلُ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ أُمُّ عَمَارٍ ، قَتَلَهَا أَبُو جَهْلٍ ، وَأَوَّلُ

(١) في الأصول : « عبد الله بن أنس بن خطل » وهو محرم بن

شهيد من الرجال يهجع مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فلبسوهم أدرع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشي أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يسبهم ويؤذيهم ، وأتى سمية فجعل يسبها ويرفث<sup>(١)</sup> ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فيها فقتلها ، رضى الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سئلوا ، إلا ببلا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يعذبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أحد أحد حتى ملّوه ، ثم كففوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشي مكة حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذي قالوا — أولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبا بكر اشتري ببلا فاعتقه . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإننا لانراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قریش بالطريق ، ففتنوه فكفروا مكرهين ، فمهم نزلت هذه الآية . ذكر الروایتين عن مجاهد إسماعيل بن إسحاق . وروى الترمذی عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ماخير عمار بين أمرين إلا اختار أرحمهما ” هذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الجنة تشقق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان بن ربيعة ” . قال الترمذی : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثة — لما سمع الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يرتب

(١) الرفث : النعش من القول . (٢) الأخشيان : الجبلان المذيقان بمكة ، وهما أبو قبيس والأحر .

عليه حكم، وبه جاء الأثر المذمور عن النبي صلى الله عليه وسلم: ”رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه“ الحديث. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع.

الرابعة — أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقبضه مطعون بالإيمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعي؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه أمراته ولا يصلي عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلما. وهذا قول يردده الكتاب والسنة، قال الله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» الآية. وقال: «إِلَّا أَنْ تُنْقُوا مِنْهُمْ نَفَاةً»<sup>(١)</sup> وقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»<sup>(٢)</sup> الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكروه لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاري.

الخامسة — ذهب طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير الله؛ أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصري، رضي الله عنه. وهو قول الأوزاعي ومُحمَّد بن عثمان. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: أَسجد لهذا الصنم وإلا قُتلت. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليَسجد وتكون نيته لله تعالى؛ وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه. والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحرأه بالسجود حينئذ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

(١) راجع ج ٤ ص ٥٧

(٢) راجع ج ٥ ص ٣٤٥

وجهه، قل: وفيه نزلت. «قَاتِمًا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>. في رواية: «وَبُورَ عَلِيَّهَا، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصَلِّي عَلَيْهَا الْمَكْتُوبَةُ». فإذا كان هذا مباحا في السفر في حالة الأمان اتعبد النزول عن الدابة لتنفل فكيف بهذا؟ واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكئا به. فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لاجتماع فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثالا وهو يريد أن أقبل في حكمه. وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان. روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع. السادسة - أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمة بجلده أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يندى نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

واختلف في الزنى، فقال مطرف وأصبع وابن عبد الحكم وابن الماسحون: لا يفعل أحد ذلك، وإن قُتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد؛ وبه قال أبو ثور والحسن. قال ابن العربي: الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حد عليه، خلافا لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خافية لا يتصور الإكراه عليها، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذي أسقط حكمه، وإنما يجب الحد على شهوة بعث عليها سبب اختياري، ففاس الشيء على ضده، فلم يحل بصواب من عنده. وقال ابن خزيمة: مناد في أحكامه: اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم: عليه الحد؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حد عليه. قال ابن خزيمة: مناد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة: إن أكرهه غير السلطان حد، وإن أكرهه السلطان فاقياس أن يحتم، ولكن استحسن ألا يحتم. وخالفه صاحبه فقالا: لا حد عليه في الوجهين، ولم يراعوا الانتشار،



وقولوا : متى علم أنه يتخاص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حدّ عليه ، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان .

السابعة — اخلاف العلماء في طلاق المكره وعناقه ؛ فقال الشافعي وأصحابه : لا يلزمه شيء . وذكر ابن وهب عن عمر وعلى وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشعبي والبخاري وأبي قلابة والزهرى وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالهزل . وهذا قياس باطل ؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به ، والمكره غير راض ولا نية له في الطلاق ، وقد قال عليه السلام : ” إنما الأعمال بالنيات “ . وفي البخاري : وقال ابن عباس فيمن يكرهه للصوم فيطلق : ليس بشيء ؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن . وقال الشعبي : إن أكرهه للصوم فليس بطلاق ، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق . وفسره ابن عيينة فقال : إن اللص يُقدّم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنة — وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله في حق وجب عليه ؛ فذلك ماضٍ سائغ لا رجوع فيه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمناعه يأخذه بلائمن ، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيته بلا أكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه . قال مُطَرِّف : ومن كان من المشتري يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، كلما أحدث المتاع في ذلك من عتق أو تدير أو تحبب فلا يلزم المكره ، وله أخذ مناعه . قال مُتَحَنُون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجور لا يجوز . وقال الأبهري : إنه إجماع .

التاسعة - وأما نكاح المكره ؛ فقال سُخُنُون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهه ، وقالوا : لا يجوز المقام عليه ، لأنه لم يتعقد . قال محمد بن سُخُنُون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم ، وصادق مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل . قال محمد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خُذْء بنت خِذَام الأنصارية ؛ ولأمره صلى الله عليه وسلم بالاستئثار في أبضاعهن ، وقد تقدّم ، فلا معنى لقولهم .

العاشرة - فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسعى من الصداق ودُرئ عنه الحد . وإن قال : وطئتها على غير رضا منى بالنكاح فعليه الحد والصداق المسعى ؛ لأنه مدع لإبطال الصداق المسعى ، وتحته المرأة إن أفدمت وهي عالمة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهه على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولها الصداق ، ويحدّ الواطئ ؛ فأعلمه . قاله سُخُنُون .

الحادية عشرة - إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها ؛ لقوله : « إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْرَهُ » وقوله عليه السلام : « إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْرَهُ » . إن الله تجاوز عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ؛ ولقول الله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ » <sup>(١)</sup> يريد الغتبات . وهذا المأني حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدها . والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرهه . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت استكرهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحد ، إلا أن تكون لها بينة أو جاءت تدمي على أنها أوتيت ، أو ما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمر بن الخطاب أنه قال : الرّجْم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة ، أو كانت الحبل أو الاعتراف . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول .

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٥٥ . (٢) عبارة الموطأ : « أوجاهت تدمي إن كانت بكرًا أو استغنات حتى أوتيت وعلى ذلك ... » الخ .

الثانية عشرة — واخنافوا في وجوب الصداق للمستكرهة ؛ فقال عطاء والزهرى : لها صداق مثاها ؛ وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وقال الثوري : إذا أقيم الحسد على الذي زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبي ، وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأي . قال ابن المنذر : القول الأقول صحيح .

الثالثة عشرة — إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لم يحل إسلامها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا احتمل أذية في تخليصها . والأصل في ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلى فارس لها مقام إياها فقامت نوضاً وتصلى فقالت : اللهم إن كنت آمنك بك وبرسولك فلا تسلط علي هذا الكافر . فَنُظَّ حتى رَكَضَ برجله <sup>(١)</sup> . ” ودل هذا الحديث أيضاً على أن سارة لما لم يكن عليها ملامه ، وكذلك لا يكون على المستكرهة ملامه ، ولا حد فيها هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما يمين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء . قال ابن الماجشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصية إذا أكره على اليمين ؛ وقاله أصبغ . وقال مطزف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالي رجلاً فاسقاً فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب نعراً ، أولاً يفسق أولاً يفتش في عمله ، وأولاً والد يحلف ولده تأديباً له فإن اليمين تلزم ؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث ، قالوا : لأن المكره له أن يورث في يمينه كلها ، فلما لم يورث ولا ذهب يمينه إلى خلاف ما أكره عليه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأقولون بأن قالوا : إذا أكره عليها فبنته مخالفة لقوله ؛ لأنه كاره لما حلف عليه .

(١) ينظر هذا مع ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وفيه « من قتل دون أهله شهيد » . كشف الخفاء ج ٢ ص ٢٦٩ . (٢) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصراً ، فراجع في شرح القسطلاني ، كتاب البوع ج ٤ ص ١٢٢ طبعة بولاق . اللفظ هنا هو العصر الشديد والكيس ، والركض الضرب بالرجل .

الخامسة عشرة — قال ابن العربي : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا ، وهذه مسألة عراقية سرت لنا منهم ، لا كانت هذه المسئلة ولا كانوا ! وأى فرق يامعشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم ولا تغفروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء ؛ فقال مالك : لا تقيّة له في ذلك ، وإنما يدرأ المرء يمينه عن بدنه لأماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القمام بقول مطزف ، ورواه عن مالك ، وقاله ابن عبد الحكم وأصغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح ؛ لأن المدافعة عن المال كالمداخلة عن النفس ؛ وهو قول الحسن وقتادة وسياق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقال : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " . وروى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرايت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : " فلا تعطه مالك " . قال : أرايت إن قاتلني ؟ قال : " قاتله " . قال : أرايت إن قتلني ؟ قال : " فأنت شهيد " . قال : أرايت إن قتله ؟ قال : " هو في النار " <sup>(١)</sup> . وخرج مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطزف وابن الماجشون : وإن بدر الحالف يمينه للوالى الظالم قبل أن يُسألها ليدب بها عما خاف عليه من ماله وبدنه خلف له لأنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصغ . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم خلف له بالطلاق البتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب ، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حاث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكروه بالكفر فلا يجوز له أن يجبره على لسانه إلا مجرى المعارض ؛ فإن في المعارض <sup>(٢)</sup> لمنذوحة عن الكذب . ومتى لم يكن

(١) ويؤيد هذا ما رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر " من قتل دون ماله فهو شهيد " كشف الخفاء ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) المعارض : التوردة بالنسيء . وأعراض الكلام ومعارضه ومعارضه : كلام يشبه بعضه بعضا في المعاني .

كذلك كان كافراً ، لأن المعارض لا سلطان الإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهي ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبي فيقول هو كافر بالنبي ، مشدداً وهو المكان المرتفع من الأرض<sup>(١)</sup> . وبطلق على ما يعمل من الخوص شبه المسائمة ، فيقصد أحدهما بقاءه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إيمه . فإن قيل له : أكفر بالنبي (مهموزاً) فيقول هو كافر بالنبي يريد بالخبر ، أى خبر كان كطليحة ومُسَيْلَمَةَ الكذاب . أو يريد به النبي الذي قال فيه الشاعر :

فأصبح رثماً دُفاق الحصى \* مكان النبي من الكائب<sup>(٢)</sup>

الثامنة عشرة — أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن أختار الرخصة . واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة . ذكره ابن حبيب ومُحَنُّون . وذكر ابن مُحَنُّون عن أهل العراق أنه إذا نُهِّدَ بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب نمر أو أكل خنزير ؛ فإن لم يفعل حتى قتل خيفاً أن يكون آثماً لأنه كالمضطر . وروى حَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ قال : شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسدُ بُرْدَةٍ له في ظل الكعبة فقلت : أَلَا تَمْتَنُّصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا ؟ فقال : ” قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُجْفَرُ له في الأرض فيُجْعَلُ فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُشَطُّ بأمشاط الحديد مادون لجمه وعظمه فما يُصَدِّدْ ذلك عن دينه والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ<sup>(٣)</sup> حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون “ . فوصَّفه صلى الله عليه وسلم هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله ، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبَطَّلُوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة من أثر الضرب

(١) ومنه الحديث : « لا تفعلوا على النبي » أى على الأرض المرتفعة المَحْدُودَةُ .  
(٢) ابن خزيمة بن نوفل الأسدي ، ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأدعى النبوة ثم أسلم .  
(٣) الزَّمُّ بالنا .  
(٤) يريد الإسلام .  
والنا . : الدق والكسر . ويريد بالنبي . المكان المرتفع . والكائب : الرمل الخبيث .



والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الأخود»<sup>(١)</sup>  
 إن شاء الله تعالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الفرغ البغدادي قال : حدثنا شريح بن  
 يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيمة أخذوا رجلا من  
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلة ، فقال لأحدهما : أتشهد أن  
 محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال نعم . فغلبني عنه . وقال  
 للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أني رسول الله ؟ قال : أنا أصم  
 لا أسمع ، فقدّمه وضرب عنقه . بخاء هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت !  
 قال : « وما أهلكك ؟ » فذكر الحديث ، قال : « أما صاحبك فأخذ بالثقة<sup>(٢)</sup> وأما أنت فأخذت  
 بالرخصة على ما أنت عليه الساعة » ؟ قال : أشهد أنك رسول الله . قال : « أنت على  
 ما أنت عليه » . الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدلّه على رجل أو مال  
 رجل ، فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكتم يمينه ؛ وهو قول قتادة إذا  
 حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقدّم ما للعلماء في هذا . وذكر موسى بن معاوية أن  
 أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله  
 أنه ما آواه ، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : خلف له ابن أشرس ؛ وابن أشرس يومئذ قد علم  
 موضعه وآواه ، فخلفه بالطلاق ثلاثا ، فخلف له ابن أشرس ، ثم قال لا ممرأته : اعتزلي فاعتزلته ؛  
 ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان ، فأخبره بالخبر ؛ فقال له البهلول :  
 قال مالك إنك حانت . فقال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك ، وإنما أردت  
 الرخصة ، أو كلام هذا معناه ؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصري إنه لا حنت  
 عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب  
 قال : حدثني معبد عن المسيّب بن شريك عن أبي شيبه قال : سألت أنس بن مالك عن  
 الرجل يؤخذ بالرجل ، هل ترى أن يحلف ليقية يمينه ؟ فقال نعم ، ولأن أحلف سبعين يمينا

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٨٤ .

(٢) عبارة الدر المنثور : « أما صاحبك فغلبني على إيمانه » .

وأحنت أحب إلى أن أدل على مسلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس تجسسوا الخلق يأتونه بالأخبار، قال : بخل رجل منهم في حلقة رجاء بن حيوة فسمع بعضهم يقع في الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أذكر بالسوء في مجلسك ولم تغبر ؟ فقال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقال له الوليد : قل : الله الذي لا إله إلا هو ، قال : الله الذي لا إله إلا هو ؛ فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطاً ، فكان باقي رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستفي المطر ، وسبعون سوطاً في ظهري ! فيقول رجاء : سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة — واختاف العلماء في حد الإكراه؛ فروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود ما كلام يدرأ عن سوطين إلا كنت متكلماً به . وقال الحسن : النقية جائزة للأمن إلى يوم القيامة ؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تنمية . وقال النخعي : القيد إكراه ، والسجن إكراه . وهذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع ، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لما يتوعد به ، وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت ، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكروه . وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه . وتنقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر أو كل الميتة ؛ لأنه لا يخاف منهما التلف . وجعلوهما إكراهاً في إقراره لفلان عندى ألف درهم . قال ابن مثنون : وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما بدئ على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أنه يخلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء .

الموفية عشرين — ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعارض لمنذوحة عن الكذب . وروى الأعمش عن إبراهيم النخعي أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجل عنك شيء أن تقول :

(١) في رواية : ينسق .

والله، إن الله يعلم ما قلت فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذي قلت ، وهو في ظاهره انتفاء من القول ، ولا حث على من قال ذلك في يمينه ولا كذب عليه في كلامه . وقال النخعي : كان لهم كلام من الغز الأيمان يدعون به عن أنفسهم ، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث . قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعارض من الكلام ، إذا كان ذلك في غير مكر ولا خديعة في حق . وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعي إذا أتته أحد يكره الخروج إليه جلس في مسجد بيته وقال لجاريته : قولي له هو والله في المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يحجز للرجل من البعث إذا عرضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهدى إلا ما سدد لي غيري ، ولا أركب إلا ما حلني غيري ؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعني بقوله : « غيري » الله تعالى ، هو مسدده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حثا في يمينه ، ولا كذبا في كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم ومحمدان حق فمن اجتبرا وفعل أنتم في خديعته ولم تجب عليه كفارة في يمينه .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي وسعه لقبول الكفر ، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله ؛ فهو يرد على القدريّة . و « صَدْرًا » نصب على المفعول . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَابْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٣﴾

(١) وذلك كما في كتاب الملاحن لأبن دريد . (٢) البعث : الجيش .

(٣) هذا المصدر لم ندره كتب اللغة في هذه المادة .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الغضب . ﴿ إِنَّمَا اسْتَخِجُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى اختاروها على الآخرة . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ « أن » فى موضع خفض عطفًا على « بأنهم » . ﴿ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى عن فهم المواعظ . ﴿ وَتَبْصِيرِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى . ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم . ﴿ لَا يَجْرَمُ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ هذا كله فى عمار . والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس . وقال قتادة : نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن قتلهم المشركون وعذبهم ، وقد تقدم ذكرهم فى هذه السورة . وقيل : نزلت فى ابن أبي سرح ، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة ، فاستجار بعمان فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره النسائي عن عكرمة عن ابن عباس قال : فى سورة النحل . « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ — إِلَى قَوْلِهِ — وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذى كان على مصر ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاره الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح ؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء .

(١) راجع ٩٦ ص ٢٠ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ أى إن الله غفور رحيم في ذلك .  
 أود كرههم . « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » أى تخاصم وتحتاج عن نفسها ؛ جاء والخبر  
 أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله  
 عليه وسلم فإنه يسأل في أمته . وفى حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خُوفنا هيجنا  
 حدثنا نهبنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذي نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل  
 عمل سبعين نبيا لأنت عليك تارأت لا يهلكك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب  
 ولا نبي متخبط إلا وقع جاثيا على ركبته ، حتى إن إبراهيم الخليل ليُدلى بالخلعة فيقول : يارب ،  
 أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك في كتاب الله ؟  
 قال : قوله تعالى : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ  
 لَا يُظْلَمُونَ » . وقال ابن عباس في هذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى  
 تخاصم الروح الجسد ؛ فتقول الروح : رب ، الروح منك أنت خلقت ، لم تكن لي يد أبطش بها ،  
 ولا رجل أمشي بها ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت  
 فدخلت في هذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجيت ؛ فيقول الجسد : رب ، أنت  
 خلقتني بيدك فكنت كالخشبة ، ليس لي يد أبطش بها ، ولا قدم أسي به ، ولا بصر أبصر به ،  
 ولا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشمع النور ، فيه نطق لسانى ، وبه أبصرت عيني ، وبه مشيت  
 رجل ، وبه سمعت أذنى ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجيت منه . قال : فيضرب الله لها  
 مثلا أعمى ومقعدا دخلا بستانا فيه ثمار ، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمقعدا لا ينالها ، فنأدى  
 المقعد الأعمى : إيتني فأحلني أكل وأطعمك ، فدنا منه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعلى من  
 يكون العذاب ؟ [ قلأ : <sup>(١)</sup>عليهما ] قال : عليهما جميعا العذاب ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا  
 رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ  
 الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

(١) من جوى ، وفى ر : قال .



قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشرك قريش وقال : " اللهم أشدّد وطأتك على مضرّ وأجعلها عليهم سنين كسيني يوسف " . فابتُلُوا بِالْقَحْطِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا فَفَزَقَ فِيهِمْ . ﴿ كَانَتْ آيَةً ﴾ لَا يُهَاجِرُ أَهْلُهَا . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر ؛ نظيره : « تُجَيِّ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » <sup>(۱)</sup> الآية . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الْأَنْعَمُ : جمع النعمة ؛ كَالْأَشَدَّ جَمْعُ الشَّدَةِ . وقيل : جمع نُعْمَى ؛ مثل بُؤْسَى وَأَبُوس . وهذا الكفران تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ﴾ أى أذاق أهلها . ﴿ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ سماه لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . ﴿ يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أى من الكفر والمعاصي . وقرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو وفيما روى عنه عبد الوارث وعبيد عباس « وَالْخَوْفُ » نصيباً بإيقاع أذاقها عليه ، عطفافعل . « لِبَاسِ الْجُوعِ » [ أى أذاقها الله لباس الجوع ] وَأَذَاقَهَا الْخَوْفَ . وهو بعث النبي صلى الله عليه وسلم سراياه التي كانت تُطِيفُ بِهِمْ . وأصل الذوق بالغم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء . وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد ؛ أى لأنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى . وقد قيل : إنما المدينة ، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان ابن عفان ، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن . وهذا قول عائشة وحفصة زوّجِي النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنه مثلٌ مضروب بأى قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ

وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿ ١١٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عِبَادُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للمشركين ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رقة عليهم ، وذلك أنهم لما آتوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم الميرة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرقة والحيفة والكلاب الميتة والجلود والعلّيز ، وهو الوبر يعالج بالدم . ثم إن رؤساء مكة <sup>(١)</sup> كلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرّحم والعفو ، وإن قومك قد هلكوا ؛ فأدع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون .

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ <sup>ط</sup> فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم في « البقرة » القول فيها مستوفى . <sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْ قَالِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

(١) في ج : كاتبوا . (٢) في : أمر الناس . (٣) راجع ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هاهنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجل ، أى لا تقولوا لأجل وصفكم « الكذب » بقرع الخافض ، أى لما تصف<sup>(١)</sup> ألسنتكم من الكذب . وقرئ : « الكُذُّبُ » بضم الكاف والذال والباء ، نعنا للألسنة ، وقد تقدم . وقرأ الحسن هنا خاصة « الكذِب » بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعنا « لما » ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب . وقيل : على البدل من ما ، أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم ، ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ . الآية خطاب للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله : « هَذَا حَلَالٌ » إشارة إلى ميتة بطون الأنعام ، وكل ما أحلوه . وقوله : « وَهَذَا حَرَامٌ » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرموه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانية — أسند الذاريى أبو محمد فى مسنده : أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من قُتِيَا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولون إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التعليل والتحریم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إني أكره [ كذا ] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت على حرام إنها حرام ويكون ثلاثا . فالجواب أن ما كالمات سمع على بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء .

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك ، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة<sup>(١)</sup> ، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله ، فذلك حرام لا يصلح في الأموال الربوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ( وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ) بين أن الأنعام والحَرْث حلال لهذه الأمة ، فاما اليهود غرمت عليهم منها أشياء . ( حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ) أى فى سورة الأنعام . ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ) أى بتعريم ما حرّمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فغرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم ، كما تقدم فى النساء .<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِمِجْهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ) أى الشرك ؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم فى النساء .<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ) دعا عليه السلام مشركى العرب الى ملة إبراهيم ؛ إذ كان أباهم وبأبى البيت الذى به عزهم ؛ والأمة : الرجل الجامع للخير ، وقد تقدم محامله .<sup>(٤)</sup> وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغنى أن عبد الله بن مسعود

(١) هى الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح . (٢) راجع ج ٧ ص ١٢٤ .

(٣) راجع ج ٦ ص ١٢ . (٤) راجع ج ٥ ص ٩٢ . (٥) راجع ج ٢ ص ١٢٧ .

قال : يرحم الله معاذاً ! كان أمة قانتا . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأمة الذي يعلم الناس الخير ، وإن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت في البقرة <sup>(۱)</sup> و « حنيفاً » في الأنعام <sup>(۲)</sup> .

قوله تعالى : شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿۱۴۱﴾  
وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَعَنِ الصَّالِحِينَ ﴿۱۴۲﴾

قوله تعالى : ( شَاكِرًا ) أى كان شاكرًا . ( لِأَنْعُمِهِ ) الأنعم جمع نعمة ، وقد تقدم . ( اجْتَبَاهُ ) أى اختاره . ( وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ) قيل : الولد الطيب . وقيل : الثناء الحسن . وقيل : النبوّة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على عهد عليه السلام في التشهد . وقيل : إنه لبس أهل دين إلّا وهم يتولّونه . وقيل : بقاء ضيافته وزبارة قبره . وكل ذلك أعطاه الله وزاده صلى الله عليه وسلم . ( وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَعَنِ الصَّالِحِينَ ) . « مِن » بمعنى مع ، أى مع الصالحين : لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين . وقد تقدم هذا في البقرة <sup>(۳)</sup> .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿۱۴۳﴾

قال ابن عمر : أمر باتباعه في مناسك الحج كما علم إبراهيم جبريل عليهما السلام . وقال الطبري : أمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتبرين بالإسلام . وقيل : أمر باتباعه في جميع ملته إلّا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعي على ما حكاه الماوردي . والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع ؛ لقوله تعالى : « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » <sup>(۴)</sup> .

(۱) ج ۲ ص ۸۶ و ج ۳ ص ۲۱۳ . (۲) ذكر في الأنعام في موضعين ، ( ج ۷ ص ۲۸ ، ۱۵۲ )

ولم يذكر المؤلف اشتغافه فيما ، وإنما تكلم عليه في سورة البقرة ج ۳ ص ۱۳۹ فراجع .

(۳) راجع ج ۲ ص ۱۳۳ . (۴) راجع ج ۶ ص ۲۱۱ .



مسألة : في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للفضول — لما تقدم<sup>(١)</sup>  
 [ إلى الصواب ] — والعمل به ، ولا ترك على الفاضل في ذلك ؛ لأن النبي صلى الله عليه  
 وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمر بالافتداء بهم فقال : « فَيَهْدَاهُمْ أَفْئِدَهُ » .  
 وقال هنا : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعالى : **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ**  
**لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (٢)

قوله تعالى : ( **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** ) أى لم يكن في شرع  
 إبراهيم ولا من دينه ، بل كان تمحوا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود في رفض  
 الأعمال وترك التبسط في المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم  
 الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون  
 عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛  
 فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم ، وأخبرهم بفضيلته  
 على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : « دعهما وما اختاروه لأنفسهم » .  
 وقيل : إن الله تعالى لم يعينه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهدهم  
 في تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى  
 يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق . فألزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده . وعين الله  
 لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يكلفهم إلى اجتهدهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خير  
 الأمم أمة . روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن  
 الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيده أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا  
 وأوتيناهم بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي

(١) كذا في . وفي أبو جود : في الأصول . (٢) الدرك : التبعة .

(٣) راجع ج ٧ ص ٣٥ .

اختلفوا فيه فهدانا الله له — قال يوم الجمعة — فاليرم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى .  
 فقولوه : ” فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه “ يقوى قول من قال : لانه لم يعين لهم ، فإنه لو  
 عُنِي لهم وعاندوا لما قيل « اختلفوا » . وإنما كان يذنبى أن يقال نغالقوا فيه وعاندوا .  
 ومما يقويه أيضا قوله عليه السلام : ” أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا “ . وهذا نص  
 فى المعنى . وقد جاء فى بعض طرقه ” فهذا يومهم الذى فرض الله عليهم اختلفوا فيه “ .  
 وهو حجة للقول الأول . وقد روى : ” إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه  
 وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع “ .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يريد فى يوم الجمعة كما ببناءه ، اختلفوا على نبيهم  
 موسى وهيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ،  
 وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود .

قوله تعالى : اَدْعُ اِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ  
 وَجَدِّ لِهْم بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ اِنْ رَبَّكَ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ  
 وَهُوَ اَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٤٥﴾

فيه مسألة واحدة — هذه الآية نزلت بحكمة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن  
 يدعو إلى دين الله وشرعه بتألف وآلئ دون مُحَاشَنَة وَتَعْنِيف ، وهكذا يَنْبَغِي أن يوعظ  
 المسلمون إلى يوم القياسمة . فهى بحكمة فى جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقنال  
 فى حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجِي إيمانه  
 بها دون قتال فهى فيه بحكمة . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ  
 لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً؛ لأنها تدرج الرتب من الذي يدعى ويوعظ، إلى الذي يُجَادَل، إلى الذي يجازى على فعله. ولكن ما روى الجمهور أثبت؛ روى الدارقطني عن ابن عباس قال: لما أنصرف المشركون عن قتلى أحد أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءاً، رأى حمزة قد شق بطنه، وأصطلم أنفه، وجُذِعَتْ أذناه، فقال: "لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً" ثم دعا بريدة وغطى بها وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجله من الإذخر، ثم قدمه فكبر عليه عشراً، ثم جعل يحيا بالرجل فيوضع وحمة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية: «أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» — إلى قوله — وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ « فصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يمثّل بأحد. خرج إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة، وحديث ابن عباس أكل. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداه إلى غيره. وحكاها الماوردي عن ابن سيرين ومجاهد.

الثانية — واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم أثنى الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانتته في القدر الذي ظلمه؛ فقالت فرقة: له ذلك؛ منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعي وسفيان ومجاهد؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها. وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك؛ وأحسبوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أد الأمانة إلى من أئتمنتك ولا تخن من خانك». رواه الدارقطني وقد تقدم هذا في «البقرة»<sup>(١)</sup> مستوفى.

ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بأمرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر، فاستشار ذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر فقال له: «أذا الأمانة إلى من آئمتك ولا تخن من خانك». وعلى هذا يتقوى قول مالك في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغي أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مال لم يأتمنه عليه فيُشبه أن ذلك جائز وكان الله حكم له؛ كما لو تمكن الآخذ بالحكم من الحاكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة، نسختها. «وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ».

الثالثة — في هذه الآية دليل على جواز التماس في القصاص؛ فمن قتل بمجديدة قتل بها. ومن قتل بحجر قتل به، ولا يتعدى قدر الواجب، وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى، والحمد لله.

الرابعة — سبى الله تعالى الإذابات في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية؛ وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان ويتناسب دجاجة القول، هذا بعكس قوله: «وَمَكْرُوا وَمَكْرَ اللَّهِ» وقوله: «لَقَدْ يَسْتَهْزِئُ يَوْمَ»<sup>(٣)</sup> فإن الثاني هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قال ابن عطية. قوله تعالى: «وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»<sup>(١٢٧)</sup> إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ<sup>(١٢٨)</sup>

فيه مسألة واحدة — قال ابن زيد: هي منسوخة بالقتال. وجمهور الناس على أنها محكمة. أي أصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المشقة. «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» أي على قتل أحد فإهم صاروا إلى رحمة الله. «وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ» ضيق جمع ضيقة؛ قال الشاعر:  
كَشَفَ الضَّيْقَةَ عَنَّا وَقَسَحَ \*

(١) راجع ج ٣ ص ٣٥٥

(٢) راجع ج ٤ ص ٩٨

(٣) هذا مجازات للأعشى. ومصدره كما في اللسان وديوانه:

«فلئن ربك من رحمة» \*

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد ، ورويت عن نافع ، وهو غلط من رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر . قال الأخفش : الضَّيِّقُ والضَّيِّقُ مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّيِّقُ ما ضاق عنه صدرك ، والضَّيِّقُ ما يكون في الذی يتسع ويضيق ، مثل الدار والنوب . وقال ابن السكيت : هما سواء ، يقال : في صدره ضَيِّقٌ وضَيِّقٌ . القَتَيَّ : ضَيِّقٌ مخفف ضَيِّقٌ ؛ أى لا تكن في أمر ضَيِّقٍ نخفف ؛ مثل هَيْنَ وهَيْنَ . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل ، وأضاق إذا أفقر . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى القواش والنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدم معنى الإحسان . وقيل لهريم بن حبان عند موته : أوصنا ؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » إلى آخرها .

تمت سورة النحل ، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية ، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ » نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وفُتِدَ نَقِيفٌ ، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » . وقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ » الآية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه في بنى إسرائيل والكهف [ومريم] : لمنهن من العتائق الأول ، وهن من تِلَادِي ؛ يريد من قديم كسبه .

(١) في أسد الغابة : حبان . بالياء . وكذا في ج . وفي الناجى : حبان . بالوحدة .

(٢) راجع ص ٣٠١ ، ص ٣١٢ ، ص ٢٨١ ف بعد ، ص ٣٤٠ من هذا الجزء .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنَّهُ هُوَ  
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾  
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (سُبْحَانَ) « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير  
ممكن ، لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب ، ولا تدخل عليه الألف واللام ، ولم يجر منه فعل ،  
ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين ، تقول : سُبِحْتَ تسبيحاً وسُبْحَانَا ، مثل كَفُرْتَ اليقين تكفيراً  
وكُفِّرْنَا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى  
لا يصلح لغيره ، فأما قول الشاعر :

أقول لما جاءني بخبره • سبحان من علقمة الفاسخ<sup>(٢)</sup>

فإنما ذكره على طريق النادر . وقد روى طلحة بن عبيد الله الغياض أحد العشرة أنه قال  
للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : ” تنزيه الله من كل سوء “ . والعالم  
فيه على مذهب سيويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه : إذ لم يجر من لفظه فعل ، وذلك  
مثل قعد القرفصاء ، واشتمل الصباء<sup>(٣)</sup> ، فالتقدير عنده : أنزه الله تنزيهاً ، فوقع « سبحان الله »  
مكان قولك تنزيهاً .

(١) كذا في جميع الأصول ، ولاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا الملقمة بن علاثة  
الجعفرى في منافرة لعاصم بن الطبقيل ، وكان الأعشى قد فضل عامراً وتبرأ من ملقمة ونفخه على عامر (من الشتمى) .  
(٣) القرفصاء : جلسة المعنى بيديه . والصباء : ضرب من الاشتغال . واشتمال الصباء : أن تجل جسدك بثوبك  
تحر شلة الأهراب باكتبيهم ، وهو أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يرد ثانياً من خلفه  
على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيها بهما .

الثانية — قوله تعالى : ( **أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ) « أسرى » فيه لغتان : سرى وأسرى ؛ كسقى وأسقى ، كما تقدّم . قال :

أُسِرْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةً \* تُزْحِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ <sup>(١)</sup>

وقال آخر :

حَى النَّيْضِيَّةُ رَبَّةَ الْحُدَيْرِ \* أُسِرْتُ إِلَىٰ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي <sup>(٢)</sup>

بجمع بين اللغتين في البيتين . والإسراء : سير الليل ، يقال : سَرَيْتُ مَسْرًى وَمَسْرًى ، وأسريت إسرائاً ، قال الشاعر :

وَلَيْلَةُ ذَاتِ نَدَى سَرَيْتُ \* وَلَمْ يَلْتَنِي مِنْ سُرَاهَا لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أول الليل ، وسرى سار من آخره ، والأول أعرف .

الثالثة — قوله تعالى : ( **بِعَبْدِهِ** ) قال العلماء : لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية . وفي معناه أنشدوا :

يا قوم قلبي عند زهراء \* يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها \* فإنه أشرف أسمائي

وقد تقدّم <sup>(٣)</sup> . قال القشيري : لما رفعه الله تعالى إلى حضرة السّنة ، وأرفاد فوق الكواكب العلوية <sup>(٤)</sup> ، ألزمه أسم العبودية تواضعاً للأمة .

الرابعة — ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أتيت بالبراق وهو دابة أبيض [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه — قال — فركبته حتى أتيت بيت المقدس — قال — فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء — قال — ثم دخلت المسجد

(١) راجع ج ١ ص ٤١٧ . (٢) البيت للابفة الذباني ، من قصيدته التي مطلعها : يا دارمية بالعباء .

(٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) راجع ج ١ ص ٢٣٢ . (٥) في ر : اسمه عبده الله

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت بغاء في جبريل عليه السلام بإناء من نحر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفِطْرَةَ — قال — ثم عَرَّج بنا إلى السماء ... « وذكر الحديث .  
ومما لبس في الصحيحين ما ترجمه الآجُزِّي والسَّعْدَقَانِي ، قال الآجُزِّي عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرُهُ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة أُسْرِىَ بِهِ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أُتَيْتُ بِدَابَّةٍ هِيَ أَشْبَهَ الدَّوَابَّ بِالْبَغْلِ لَهُ أُذُنَانِ يَضْطَرِبَانِ وَهُوَ الْبَرَقُ الَّذِي كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ تَرْكَبُهُ قَبْلُ فَرَكْبَتُهُ فَاَنْطَلَقَ تَقَعُ يَدَاهُ عِنْدَ مَتْنِي بِصَرِهِ فَسَمِعْتُ نَدَاءَ عَن يَمِينِي يَا مَعْجِدُ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى أَسْأَلَكَ مُضَيِّتٌ وَلَمْ أُعَرَّجْ عَلَيْهِ ثُمَّ سَمِعْتُ نَدَاءَ عَن يَسَارِي يَا مَعْجِدُ عَلَى رِسْلِكَ مُضَيِّتٌ وَلَمْ أُعَرَّجْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَنِي أَمْرَأَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةِ الدُّنْيَا رَافِعَةٌ يَدَيْهَا تَقُولُ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى أَسْأَلَكَ مُضَيِّتٌ وَلَمْ أُعَرَّجْ ثُمَّ أُتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ الْأَقْصَى فَتَزَلْتُ عَنِ الدَّابَّةِ فَأَوْقَفْتُهُ فِي الْحَلْقَةِ الَّتِي كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ تَوْثِقُ بِهَا ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَصَلَيْتُ فِيهِ فَقَالَ لِي جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا سَمِعْتَ يَا مَعْجِدُ فَقُلْتُ سَمِعْتُ نَدَاءً عَن يَمِينِي يَا مَعْجِدُ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى أَسْأَلَكَ مُضَيِّتٌ وَلَمْ أُعَرَّجْ فَقَالَ ذَلِكَ دَاعِيَ الْيَهُودِ وَلَوْ وَقَفْتُ لَتَوَدَّتْ أَمْنُكَ — قَالَ — ثُمَّ سَمِعْتُ نَدَاءَ عَن يَسَارِي عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى أَسْأَلَكَ مُضَيِّتٌ وَلَمْ أُعَرَّجْ عَلَيْهِ فَقَالَ ذَلِكَ دَاعِيَ النَّصَارَى أَمَّا إِنَّكَ لَوْ وَقَفْتَ لَتَنَصَّرْتَ أَمْنُكَ — قَالَ — ثُمَّ اسْتَقْبَلَنِي أَمْرَأَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةِ الدُّنْيَا رَافِعَةٌ يَدَيْهَا تَقُولُ عَلَى رِسْلِكَ مُضَيِّتٌ وَلَمْ أُعَرَّجْ عَلَيْهِ فَقَالَ تِلْكَ الدُّنْيَا لَوْ وَقَفْتُ لَأَخْتَرْتُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ — قَالَ — ثُمَّ أُتَيْتُ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا فِيهِ لَبَنٌ وَالْآخَرُ فِيهِ تَحَمُّرٌ فَقِيلَ لِي خُذْ فَاشْرَبْ أَيُّهُمَا شِئْتَ فَاخْذْتُ اللَّبْنَ فَشَرَبْتُهُ فَقَالَ لِي جَبْرِئِيلُ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ وَلَوْ أَنَّكَ أَخَذْتَ الْتَحَمُّرَ غَوَّثَ أَمْنُكَ ثُمَّ جَاءَ بِالْمِعْرَاجِ الَّذِي تَعْرَجُ فِيهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ فَإِذَا هُوَ أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ أَوْ لَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَبِيتِ كَيْفَ يَحْدُ بِصَرِهِ إِلَيْهِ فَعَرَّجَ بَنَا حَتَّى أُتَيْنَا بِبَابِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِئِيلُ فَقِيلَ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جَبْرِئِيلُ قَالُوا : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مَعْجِدُ قَالُوا : وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ ؟

(٢) فِي جَوَدِي : انْهَبَا .

(١) فِي الْأَصُولِ : « يَنْظُرَانِ » وَالتَّصْوِيبُ عَنِ الدَّرِ الْمَشْهُورِ .

قال نعم ففتحوا لي وسلموا عليّ وإذا ملك يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف — قال — وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ... “ وذكر الحديث إلى أن قال : ” ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المحبّ في قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال طويل الخيصة تكاد لحيته تضرب في سرتة ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم عليّ ورحب بي — فوصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال — رجل كثير الشعر ولو كان عليه قبضان نخرج شعره منهما ... “

الحديث . وروى البزار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بفرس فحمل عليه ، كل خطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” بينا أنا نائم في الجحش إذ أتاني آت غركني برجله فأتبعته الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وحُفها حُف حافر وذَنبها ذنب ثور وعُرُفُها عُرُف فرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فسحجها جبريل عليه السلام وقال يا بُرَّة لا تَنفِرْ مني عهد فو الله ما ربك ملك مقرب ولا نبي مرسل أفضل من عهد صلى الله عليه وسلم ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحب أن أكون في شفاعة فقالت أنت في شفاعة إن شاء الله تعالى ... “

الحديث . وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد التيسابوري عن أبي سعيد الخدريّ قال : لما مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذي وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأبوابها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبّح أهلها سبعان من جمع بين الثلج والنار من قالها مرة واحدة كان له مثل ثوابهم استفتح الباب جبريل عليه السلام ففتح له فإذا هو بكهل لم يرقط كهل أبجل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريبا من سرته قد كاد أن تكون شَمَطَةً وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحِبُّ في قومه ... ” وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسماء خارجة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان ابن سبع بكالها في كتاب ( شفاء الصدور ) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السيرة أن الصلاة إنما فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في حين الإسماء حين صرح به إلى السماء . واختلفوا في تاريخ الإسماء وهيئة الصلاة، وهل كان إسماء بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلف الفقهاء بعون الله تعالى .

فأما المسألة الأولى — وهي هل كان إسماء بروحه أو جسده؛ اختلف في ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسماء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكى عن الحسن وابن إسحاق . وقالت طائفة: كان الإسماء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرِي بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» بفعل المسجد الأقصى غاية الإسماء . قالوا: لو كان الإسماء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ في المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسماء بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ثم أُسْرِيَ بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية . وليس في الإسماء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعَدَّلُ عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده . وقوله: «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» <sup>(٢)</sup> يدل على ذلك . ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما قالت له أم هاني: لا تحدث الناس

(٢) راجع ج ١٧ ص ٩٢ .

(١) الشَّطَطُ في الشعر: اختلاطه بلونين من سواد وبياض .



فيكذبوك، ولا فضل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشا التشنيع والتكذيب، وقد كذب به قريش فيما أخبر به حتى أرتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقا فخبّرنا عن عيرنا أين لقيتها؟ قال: "بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان" فقيل له: ما رأيت يا فلان، قال: ما رأيت شيئا! غير أن الإبل قد نفرت. قالوا: فأخبرنا متى تأتينا العير؟ قال: "تأتيكم يوم كذا وكذا". قالوا: أية ساعة؟ قال: "ما أدرى، طلوع الشمس من ها هنا أسرع أم طلوع العير من ها هنا". فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت. وقال رجل: هذه عيركم قد طلعت، وأستخبروا النبي صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألني عن أشياء من بيت المقدس لم أُنَبِّئْهَا فَكُرِّبْتُ كُرْبًا مَكْرُبًا<sup>(١)</sup> مثله فقط — قال — فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأهم به" الحديث. وقد اعترض قول عائشة ومعاوية: «إنا أسرى بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم» بأنها كانت صغيرة لم تشهد، ولا حدثت عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما معاوية فكان كافرا في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتج لعائشة بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» فسيأها رؤيا. وهذا رده قوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا» ولا يقال في النوم أسرى. وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم معارج، فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح: "بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان" الحديث. ويحتمل أن يردمن الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

(١) أي لم أعرفها حق؛ يقال: أثبت الشيء وثابته إذا عرفه حق المعرفة.

(٢) راجع ص ٢٨٢ من هذا الجزء.

المسألة الثانية — في تاريخ الإسراء ، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضا ، واختلف في ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أُسِرَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنه يونس بن عمرو عن عائشة قالت : تُوِّفِتْ خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الواقصي : قال أُسِرَ به بعد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهاب : وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر ، وفُرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرِّمت الخمر بعد أحد . وقال ابن إسحاق : أُسِرَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد نشأ الإسلام بمكة في القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم . وسيأتي . قال أبو عمر : وهذا يدل على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدّم . وقال الحرّبي : أُسِرَ به ليلة سبع وعشرين من [ شهر ] ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علي ابن القاسم الذهبي في تاريخه : أُسِرَ به من مكة إلى بيت المقدس ، وعُرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي ، ولم يُسند قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة — وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرج به إلى السماء ، وذلك منصوب في الصحيح وغيره . وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت ؛ فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضرة فأكملت أربعا ، وأفوت صلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق . قال الشعبي : إلا المغرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمز له بعقبه في ناحية (١) في ج : المسألة الخامسة ، والمسألة السادسة بدل المسألة الثانية والثالثة . فيكون الترتيب على ما قاله المصنف أولا : ثمان مسائل .

الوادي فأقفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومجد ينظر عليهما السلام فتوضأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعنين ونضح فرجه، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجودات، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجودات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء. وروى عن ابن عباس أنها فرضت في الحضرة أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريح، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة وموافقها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أول الصلاة مثنى، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً فصارت سنة، وأُقرت الصلاة للسافر وهي تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يحتج بمثله، وقوله: «فصارت سنة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قول لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضرة أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملاً ونقلًا مستفيضاً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة - (١) قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»<sup>(٢)</sup> والحمد لله. ومضى في «آل عمران»<sup>(٣)</sup> أن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذر، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك؛ فتأمل هنا فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مصجدي هذا وإلى مسجد إيلياء - أو بيت المقدس». أخرجه مالك من حديث أبي هريرة. وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد

(١) في جريدة المسألة السابعة. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٤. (٣) ج ٤ ص ١٣٧.

لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل ، و يصل في مسجده ، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك و جماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطا في تغريبه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البختري في هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدم في مقدمة الكتاب .

السادسة <sup>(١)</sup> — قوله تعالى : ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ سُمِّيَ الْأَقْصَى لبعده ما بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ، ثم قال : ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قيل : بالثَّار و بجماري الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين ؛ وبهذا جعله مقدسا . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” يقول الله تعالى يا شام أنت صغوتي من بلادى وأنا سائق إليك صفوتي من عبادى “ [أصله سام فعرّب] <sup>(٢)</sup> ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس ، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا ، حسبا ثبت في صحيح مسلم وغيره . ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ <sup>(٣)</sup> تقدم .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾

أى كرمنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيل : موسى . وقيل : معنى الكلام سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب ؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : إن معنى سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا ، معناه أمرينا ، يدل عليه ما بعده من قوله : ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فحمل «وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» على المعنى . ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا»

(١) راجع ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٢) من ي .

(٣) في ج : المسألة الثامنة .

بالياء . الباقون بالياء . فيكون من باب تلوين الخطاب . (وَيْكَلًا) أى شريكاً عن مجاهد .  
وقيل : كفيلاً بأمورهم ؛ حكاة الفراء . وقيل : رباً يتوكلون عليه في أمورهم ؛ قاله الكلبي .  
وقال الفراء : كافياً ؛ والتقدير : عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . وقيل :  
التقدير لئلا تتخذوا . والويكل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿١١﴾

أى يا ذرية من حملنا ، على النداء ؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبى نجیح . والمراد بالذرية  
كل من احتج عليه بالقرآن ، وهم جميع من على الأرض ؛ ذكره المهدوي . وقال الماوردي :  
يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل ، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا  
ليذكرهم نعمة الإنجاء من الفرق على آبائهم . وروى سفيان عن حميد عن مجاهد أنه قرأ  
« ذُرِّيَّةٌ » بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد  
ابن ثابت . وروى عن زيد بن ثابت أيضا « ذرية » بكسر الذال وشذ الراء [ والياء <sup>(١)</sup> ] . ثم بين  
أن نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا  
لبس ثوبا قال : بسم الله ، فإذا نزع قال : الحمد لله . كذا روى عنه معمر . وروى معمر عن  
منصور عن إبراهيم قال : شكره إذا أكل قال : بسم الله : فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله .  
قال سلمان الفارسي : لأنه كان يحمّد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمي نوحا  
عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمني ولو شاء لأجاعني ، وإذا شرب  
قال : الحمد لله الذى سقاني ولو شاء لأظمأني ، وإذا أكنسى قال الحمد لله الذى كسانى  
ولو شاء لأعراني ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذاني ولو شاء لأحفاني ، وإذا قضى  
 حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسني في . ومقصود الآية : إنكم  
من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فاتم أحق بالاعتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل :  
المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(١) كذا في نسخ الأصل ، ولم نثر عليه في المطان . وفي التوازي : ذرية بالكسر الأصل . (٢) من به .



« ذُرِّيَّةٌ » مفعولا ثانيا لـ « تَتَّخِذُوا » ، ويكون قوله : « وَيَكِلَا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعا أعنى الباء والتاء في « تَتَّخِذُوا » . ويجوز أيضا في القراءتين جميعا أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « وَيَكِلَا » لأنه بمعنى الجمع ؛ فكأنه قال : لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أغني وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر في « تَتَّخِذُوا » في قراءة من قرأ بالياء ؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن مخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرّها على البدل من بنى إسرائيل في الوجهين فاما « أن » من قوله : « أَلَا تَتَّخِذُوا » فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون « لا » للنهي فيكون خروجا من الخبر إلى النهي .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ( وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَابِ ) وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « فِي الْكُتَيْبِ » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع ؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . ومعنى « قَضَيْنَا » أعلمنا وأخبرنا ؛ قاله ابن عباس : وقال قتادة : حكنا ؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا ؛ ولذلك قال : « إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ » . وعلى قول قتادة يكون « إِلَىٰ » بمعنى على ؛ أى قضينا عليهم وحكنا . وقاله ابن عباس أيضا . والمعنى بالكاتب اللوح المحفوظ . ( لَتُفْسِدُنَّ ) وقرأ ابن عباس « لَتُفْسِدُنَّ » . عيسى التميمي « لَتُفْسِدُنَّ » . والمعنى في القراءتين قريب ؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . ( فِي الْأَرْضِ ) يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . ( مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ ) اللام في « لتفسدن وتعلن » لام قسم مضمر كما تقدم . ( عُلُوًّا كَبِيرًا ) أراد التكبر والبني والعلوان والاستطالة والفلبه والعدوان .

قوله تعالى : فَلَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ جَحَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أى أولى المرتين من فسادهم . ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم أهل بابل ، وكان عليهم يُخْتَنَصَرُ في المرة الأولى حين كذبوا لإرمياء وجرحوه وحبسوه ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسسون أخبارهم ومعهم يُخْتَنَصَرُ فَوَتَّى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال ، وهذا في المرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل ؛ ذكره القشيري أبو نصر . وذكر المهدي عن مجاهد أنه جاءهم يُخْتَنَصَرُ فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا . ورواه ابن أبي نجیح عن مجاهد ؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه <sup>(١)</sup> طول : إن المهزوم سنحاريب ملك بابل ، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب ونحوه نفر من كتّابه ، وبعث ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة ، أحدهم يُخْتَنَصَرُ ، فطرح في رقابهم الجوامع <sup>(٢)</sup> وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم ، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل ، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين ، واستخلف يُخْتَنَصَرُ وعظمت الأحداث في بني إسرائيل ، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شُعْيَا ؛ فجاءهم يُخْتَنَصَرُ ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفتانهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أول الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم في المرة الأولى قتل شُعْيَا نبي الله في الشجرة ؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرَجَ <sup>(٣)</sup> أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء ، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بولاق وتاريخ الطبري ج ٢ قسم أول ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوردبا .

(٢) الجوامع : الأغلال ، والواحد جامعة .

(٣) مرج الأمر : فسد واختلط والكبس المخرج فيه .

وتناصروا على الملك وقتل بعضهم بعضاً وهم لا يسمعون . من نبينهم ؟ فقال الله تعالى له : قم في قومك أوج على لسانك ، فلما فرغ مما أوحى الله إليه صعدوا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبَةً من ثوبه فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار في وسطها ففتشوها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها . وذكر ابن إسحاق : أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وإنما المقتول شعبياً . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ بِحَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك بابل . وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق ، فالله أعلم . وقيل : إنهم المعلقة وكانوا كفاراً ، قاله الحسن . ومعنى " حَاسُوا " : عاثوا وقتلوا ؛ وكذا حاسوا وحاسوا وداسوا ؛ قاله ابن عريز : وهو قول القتيبي . وقرأ ابن عباس : « حاسوا » بالحاء المهملة . قال أبو زيد : الحوس والحوس والعوس والحوس : الطواف بالليل . وقال الجوهري : الحوس مصدر قولك حاسوا خلال الديار ، أى تخالوها فطلبوا ما فيها كما يحوس الرجل الأخبار أى يطلعها ؛ وكذلك الاجتاس . والحوسان ( بالتحريك ) الطوفان بالليل ؛ وهو قول أبي عبيدة . وقال الطبري : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين ؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وترددوا بين الدور والمسكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم ؛ وأنشد لحسان :

ومنا الذى لاق بسيف محمد \* بخاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا ؛ قال :

بِحُصْنَا دِيَارِهِمْ عُنُوءَةً \* وَأَبْنَا بِسَادَتِهِمْ مُوْتَقِيَةً

( وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ) أى قضاء كائن لا خاف فيه .

قوله تعالى : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى الدولة والرجعة ؛ وذلك لما تبسم وأطعتم . ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهم . ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أى أكثر عددا ورجالا من عدوكم . والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته ؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نفر كالكلب والمعيز والعبيد ؛ قال الشاعر :

فَاكْرُمُ بِقَحْطَانٍ مِنْ وَالِدٍ \* وَحَمِيرٍ أَكْرَمَ بِقَوْمٍ نَفِيرَا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الواقعة الأولى أكثر أنضاما وأصاحا أحوالا ، جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَعْسِفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۚ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى نفع إحسانكم عائدا عليكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعلها ؛ نحو سلام لك ، أى سلام عليك . قال :

\* نَحَرْتُ صَرِيحًا لِلْيَدِينِ وَلِلْفَقِيمِ <sup>(١)</sup> \*

أى على اليمين وعلى النعم . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى ، يعنى وإن أسأتم فلإيها ، أى فلإيها ترجع الإساءة ؛ كقوله تعالى : ﴿ بَانَ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ ﴾ <sup>(٢)</sup> أى إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا

(١) هذا مجزيت لربيع بن مكرم . ومصدره :

\* وهنكت بالرخ الطويل إهانة \*

وقبل هذا البيت :

فصرقت راحلة الظلمة نحوه \* عمدا أيلم بعض ما لم يعلم

وبعده :

ومنحت آخر بعده جياشة \* نجلا فاعرة كشدق الأضيح

وهذه الأبيات قبلت يوم الظلمة . راجع أمال القائل ج ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب .

(٢) راجع ج ٢٠ ص ١٤٩ .

حضايا بنى اسرائيل في اول الامر ؛ اى اسام خفل بكم القتل والسبي والتخريب ثم احسبتم  
 فعاد إليكم الملك والعاقب وأنظما الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو اسرائيل في زمن  
 محمد صلى الله عليه وسلم ؛ اى عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله .  
 أو يكون خطبا لمشرك فريش على هذا الوجه . ( فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ) من إفسادكم ؛ وذلك  
 أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام ، قتله ملك من بنى اسرائيل يقال له :  
 لاخت ؛ قاله القتيبي . وقال الطبري : اسمه هيردوس ، ذكره في التاريخ ؛ حمله على قتله امرأة  
 اسمها أزيل . وقال السدي : كان ملك بنى اسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشير به في الأمر ،  
 فاستشاره الملك أن يترج بنت امرأة له فنها عنها وقال : إنما لا تحل لك ؛ فخذت ألقها على  
 يحيى عليه السلام ، ثم ألست ابتها ثيابا حمراء رقافا وطيتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرايه ،  
 وأمرتها أن تتعرض له ، وإن أرادها آبت حتى يعطيها ما تسأله ؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى  
 برأس يحيى بن زكريا في طلست من ذهب ؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا  
 والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحل لك ؛ لا تحل لك ؛ فلما أصبح إذا دمه  
 يغلي ، فالتقى عليه التراب فغلي فوقه ، فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك  
 يغلي ؛ ذكره الثعلبي وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن علي قال : كان  
 ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وأبنته فوريث مملكته أخوه ، فأراد أن يتزوج امرأة  
 أخيه ، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء ،  
 فقال له : لا تتزوجها فإنها بئى ، فعرّفت المرأة أنه قد ذكرها وصرفه عنها ، فقالت :  
 من أين هذا ؟ حتى بلغها أنه من قبل يحيى ، فقالت : ليقطن يحيى أو ليخرج من مملكه ،  
 فعمدت إلى ابتها وصنعتها ، ثم قالت : ادعني إلى عمك عند الملاجزة إذا رآك سيدعوك  
 ويمسك في حجره ، ويقول سليني ماشئت ، فإنك لن تسألني شيئا إلا أعطيتك ، فإذا قال لك  
 ذلك فقولي : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشئ ؛ حل رءوس  
 الملاجرة لم يمدّ له نزع من مملكه ؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى ؛



وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه « فاختار ملكه فقله . قال : فساخت بأتها الأرض . قال ابن جُدعان : حدثت بهذا الحديث ابن المسيب فقال : ألفا أخبرتك كيف كان قتل زكريا ؟ قلت لا : قال : إن زكريا حيث قتل ابنه أنطاوق هاربا منهم وأتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبَةٌ تكففتها الرياح ، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهدبة فدعوا بالمنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقع في التاريخ الكبير للطبري <sup>(١)</sup> لخدثي أبو السائب قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس ، قال : كان فيما نهمهم عنه نكاح أخته الأخ ، قال : وكان للملكهم أخته أخت تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بعث يحيى ابن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما يعلمونهم بنهمهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان للملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمها أنهم نهموا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال لك حاجة فقلولي : حاجتي أن تذهب يحيى بن زكريا ، فقال : سأليني سوى هذا ! فقالت : ما أسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطست ودعا به فذبحه ، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث الله عليهم بختنصر فأتى في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفا ، في رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيب : هي دية كل نبي . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنى قتلت يحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وإنى قاتل بآب ابنك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق ، أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي تلى المحراب

(١) راجع ج ٣ تم أول ص ٧١٣ طبع أوربا .

من بلى الشرق، فكانت البشرية والشعر على حاله لم يتغير. وعن قزة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليٍّ وحماتها بكاءها. وعن سفيان بن عيينة قال : أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دارهم، ولبلة بيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثله، قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .<sup>(١)</sup>  
كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة ؛ ف قيل : بختنصر . وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره . قال السهيلي : وهذا لا يصح ؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل ؛ وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحو من ثمانمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعبا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا، فهو الذي قتلهم وتخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار ؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعبا وفي عهد إرميا . قالوا : ومن عهد إرميا وتخرّب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخرّب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك<sup>(٢)</sup> سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاث وستين سنة<sup>(٣)</sup> .

قلت : ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله . قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى - وبعض

(١) راجع ج ١١ ص ٨٨ فـ ٥ . (٢) الذي في تاريخ الطبري : « كيرش » ولم نوفق لتصحيحه .

(٣) في الطبري : « ثلثمائة وثلاث سنين » . راجع ص ٧١٨ من القسم الأول .

الناس يقول : لما قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : خردوس<sup>(١)</sup>، فصار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تعلي، فسألم فقالوا : دم قربان قزينا فلم يتقبل منا منذ ثمانين سنة<sup>(٢)</sup>. قال ماصدقتموني، فذبح على ذلك الدم سبعائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ، [فأتى بسبعائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ<sup>(٣)</sup>]، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد، فقال : يا بني إسرائيل، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافع نار من أتى ولا من ذكر إلا قتله. فلما رأوا الجهد قالوا : إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سنخ الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى الله قط طرفة عين ولا هم بمعصية. فقال : الآن صدقتموني، وخرساجدا ثم قال : لمثل هذا ينقم منكم، وأمر بفتح الأبواب وقال : أخرجوا من كان ها هنا من جيش خردوس<sup>(١)</sup>، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبي الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فأهدأ بإذن الله قبل إلا أتى منهم أحدا. فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتل وقال : رب، إني آمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدقت به، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس الأنبياء : إن هذا الرئيس مؤمن صدوق. ثم قال : إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكركم، وإني لا أعصيه، فأمرهم لحقروا خندقا وأمر بأموالهم من الإبل والحيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سالت الدم إلى العسكر، وأمر بالقتل الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل.

(١) في ج : جردوس . واسمه تحريف من الناسخ .

(٢) في تاريخ الطبري ص ٧٢١ : « منذ ثمانمائة سنة » .

(٣) زيادة عن تاريخ الطبري .

قلت : قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حذيفة ، وقد كتبناه في ( كتاب التذكرة ) مقطعا في أبواب في أخبار المهدي ، نذكر منها هنا ما يبين معنى الآية ويفسرهما حتى لا يحتاج معه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله ، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيما جسما الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هو من أجل البيوت ابتناه الله لسلطان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودرّ وياقوت وزمرد " : وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سخر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن ، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد ، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء ساء الله عليهم بخنصه وهو من الجوس وكان ملكه سبعمائة سنة ، وهو قوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل ، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالجزى والعقاب والنكال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى الجوس في أرض بابل ، وأن يستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل ، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي الجوس واستنقذ ذلك الحلى الذي كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة فقال لهم : يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسبي والقتل ، وهو قوله : « عَنَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتَا » فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر ، وهو قوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّهُوا مَا عُلِّمُوا فَنَفْسًا » ففزاهم في البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم ، وأخذ حل جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعه

في كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي فيرده إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبعائة سفينة يُرَبَّى بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجتمع الله الأولين والآخرين ...» وذكر الحديث .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي من المرتين ؛ وجواب « إذا » محذوف ، تقديره بعثناهم ، دل عليه « بعثنا » الأول . ﴿ لَيْسُوا وَوُجُوهُكُمْ ﴾ أي بالسّي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم ؛ ف « ليسوا » متعلق بمحذوف ؛ أي بعثنا عبدا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أي ليدلّوهم . وقرأ الكسائي « لنسوء » بنون وفتح الهمزة ، فعل مخبر عن نفسه معظم ، اعتبارا بقوله : « وقضينا وبعثنا ورددنا » . ونحوه عن علي . وتصديقها قراءة أبي « لنسوء » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأنعمش وابن وثاب وحمزة وابن عامر « ليسوا » بالياء على التوحيد وفتح الهمزة ؛ ولها وجهان : أحدهما — ليسوا الله وجوهكم . والثاني — ليسوا الوعد وجوهكم . وقرأ الباقون « لَيْسُوا » بالياء وضم الهمزة على الجمع ؛ أي ليسوا العباد الذين هم أولوا بأس شديد وجوهكم . ﴿ وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلْيُتَبَرَّأُوا ﴾ أي ليدمروا ويهلكوا . وقال قطرب : يهدموا ؛ قال الشاعر :

فما الناس إلا عاملان فعامل \* يُتَبَرَّأ ما يئني وآخر رافع

﴿ مَا عَلُوا ﴾ أي غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَنْبِيْرًا ﴾ .

قوله تعالى : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ وهذا لما أخبروا به في كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهم . و « عسى » من الله واجبة . ﴿ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم ، وكذلك كان ؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوكة . ﴿ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا ﴾ قال قتادة :

(١) كذا في الطبري والدر المنثور . وفي أرجوزي : باق . وهذا خصا لنساج .



فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فهم يعطون الجزية بالصغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهذا خلاف ما تقدم في الحديث وغيره . وقال القشيري : وقد حل العقاب بنى إسرائيل مرتين على أيدي الكفار ، ومرة على أيدي المسلمين . وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هذا يصح قول قتادة . ( وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ) أى محبساً وسجنًا ، من الحَصْر وهو الحبس . قال الجوهرى : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخل . والحصير البارية . والحصير : الجنب ، قال الأختبى : هو ما بين العرق الذى يظهر فى جنب البعير والفرس معتريضا فما فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال ليلى :

وَقَالَ قِيمُ غُلَبِ الرقاب كأنهم \* جَنِّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامِ

(١)

• وَمَقَامَةُ غُلَبِ الرقاب ... •

ويروى :

على أن يكون « غلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : وَرُبَّ غُلَبِ الرقاب . وروى عن

• لَدَى طَرَفِ الْحَصِيرِ قِيَامِ •

أبى عبيدة :

أى عند طرف البساط للنعمان بن المنذر . والحصير : المحبس ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » . قال القشيري : ويقال للذى يُفْتَرَشُ حصيرا ؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا ؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، قال الثعلبي : وهو وجه حسن .

قوله تعالى : ( إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا )

قوله تعالى : ( إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ) لما ذكر المراج ذكر ما قضى إلى بنى إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين أن الكتاب الذى

(١) فى هامش ج : قال الشيخ المصنف : ويرى : وعصاة .

أنزل الله عليه سبب آهتداء ، ومعنى ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أى الطريقة التى هى أسد وأعدل وأصوب ؛ فـ «التى» نعت لموصوف محذوف ، أى الطريقة التى هى أقوم . وقال الزجاج : لئال التى هى أقوم الحالات ، وهى توحيد الله والإيمان برسله . وقاله الكلبي والفراء .

قوله تعالى : ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ تقدم . ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أى بأن لهم . ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أى الجنة . ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى وبشرهم بأن لأعدائهم العقاب . والقرآن معظمه وعد ووعد . وقرأ حمزة والكسائي « وَيُبَشِّرُ » مخففا بفتح الياء وضم الشين ؛ وقد ذكر<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْثَّرِ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

بُحُولًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه ولده عند الضرر بما لا يحب أن يستجاب له : اللهم أهلكه ، ونحوه . ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أى كدعائه ربه أن يهب له العافية ؛ فسلواستجاب الله دعاءه على نفسه بالشرك هلك لكن بفضل لا يستجيب له فى ذلك . نظيره : « وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدم . وقيل : نزلت فى الضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم » . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحذور كما يدعو فى طلب المباح ، قال الشاعر وهو ابن جاع :

أطوف بالبيت فيمن يطوف \* وأرفع من مِثْرَى الْمُسْبِلِ  
وأجهد بالليل حتى الصباح \* وأنل من المحكم المنزل  
عسى فارح الهم عن يوسف \* يسخر لى ربة الخميل

(١) راجع ج ١ ص ٣٣٨ . (٢) راجع ج ٤ ص ٧٥ . (٣) راجع ج ٨ ص ٣١٤ .

(٤) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ و ج ٨ ص ٣١٥ .

قال الجوهري : يقال ماعلى فلان تجل مثال تجلس أى معتمد . والمجمل أيضا : واحد محامل الحاج . والمجمل مثال الميرجل : علاقة السيف . وحذفت الواو من « وَبَدَعَ الْإِنْسَانُ » في اللفظ والخط ولم تحذف في المعنى لأن موضعها رفع لحذفت لاستقبالها الألام الساكنة ، كقوله تعالى : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » <sup>(۱)</sup> « وَيَمِجُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ » <sup>(۲)</sup> « وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ » <sup>(۳)</sup> « يُنَادِ الْمَنَادُ » <sup>(۴)</sup> « فَمَا تَعْنِي النَّدْرُ » <sup>(۵)</sup> . « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا » أى طبعه العجلة ، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن ترتب فيه الروح على الكمال . قال سلمان : أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : يارب تجل قبل الليل ؛ فذلك قوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا » . وقال ابن عباس : لما انتهت النجفة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر ؛ فذلك قوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا » . وقال ابن مسعود : لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه فجعل إلى ثمار الجنة ؛ فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ نُجْجَلٍ » ذكره البيهقي . وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خالق خلقا لا يمتالك » وقد تقدم . وقيل : سلم عليه السلام أسيرا إلى سودة فبات يئن فسألته فقال : أئني لشدة الفقد والأسر ؛ فأرخت من كئانه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « قطع الله يديك » فلما أصبحت كانت تنوق الآفة ؛ فقال عليه السلام : « إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أحلى رحمة لأني بشر أعضب كما بغضب البشر » ونزلت الآية ؛ ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(۱) راجع ج ۲۰ ص ۱۲۶ . (۲) راجع ج ۱۶ ص ۲۴ . (۳) راجع ج ۵ ص ۴۲۵ .

(۴) راجع ج ۱۷ ص ۲۷ ص ۱۲۸ . (۵) راجع ج ۱۱ ص ۲۸۸ . (۶) راجع ج ۱ ص ۲۸۱ .

”اللهم إنما مجد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفني فأيمأ مؤمن آتيته أو سببته أو جلدته فأجعلها له كفارةً وقربةً تقربه بها إليك يوم القيامة“ .  
وفي الباب عن عائشة وجابر . وقيل : معنى . « وَكَانَ الْإِنْسَانُ نَجْوًلًا » أى يؤثر العاجل وإن قل ، على الآجل وإن جل .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُتَا آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ) أى علامتين على وحدانيتنا وجودنا وكمال علمنا وقدرتنا . والآية فيهما : لإقبال كل واحد منهما من حيث لا يعلم ، وإدباره إلى حيث لا يعلم . ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضا . وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هذا . ( فَمَحْوُتَا آيَةِ اللَّيْلِ ) ولم يقل : فمحونا الليل ، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما . و « مَحْوُتَا » معناه طمسنا .  
وفي الخبر : أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور ، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءا ، فحما من نور القمر تسعة وستين جزءا بفعله مع نور الشمس ، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا ، والقمر على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، بفعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقتها إلى مغاربها ، وجعل القمر دون الشمس ، فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره ، فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو ، ولو تركه شمس لم يعرف الليل من النهار . ذكر

عنه الأول الثماني، والثاني المهدوي؛ وسياق مرفوعا . وقال علي رضي الله عنه وقتادة :  
يريد بالحو اللطخة السوداء التي في القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز  
به الليل من النهار . ( وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّبَارِ مُبْصِرَةً ) أى جعلنا شمس مضبوطة للأبصار . قال  
أبو عمرو بن العلاء : أى يبصر بها . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا  
أضاء ، وصار بحالة يُبَصَّرُ بها . وقيل : هو كقولهم خيبت خبيث إذا كان أصحابه خبيثا .  
ورجل مُضْعِف إذا كانت دوابه ضعافا ؛ فكذلك النهار مبصرا إذا كانت أهله بصراء .  
( لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ) يريد التصرف في المعاش . ولم يذكر السكون في الليل آكتفاء  
بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ  
مُبْصِرًا » . ( وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ) أى لو لم يفعل ذلك لما عُرف الليل من النهار ،  
ولا كان يُعرف الحساب والعدد . ( وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلًا ) أى من أحكام التكليف ؛  
وهو كقوله : « تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ » « مَا قَرُوطًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . وعن ابن عباس أن  
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما أكرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمس من  
نور عرشه وقرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمس خلقها مثل  
الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كانت في علم الله أن يخلقها قرا خلقها دون الشمس  
في العظم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبدها من الأرض فلو ترك الله  
الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدرى إلى متى يعمل ولا  
الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تتعبد ولا تُدري أوقات الصلوات والحج ولا تحمل الديون<sup>(١)</sup>  
ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكان الله نظر إلى عباده وهو  
أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ  
شمس فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور فذلك قوله : وجعلنا الليل والنهار آيتين » الآية .

(٢) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء .

(٤) في جري : محل .

(١) راجع ج ٨ ص ٣٦٠ .

(٣) راجع ج ٦ ص ٤٢٠ .



قوله تعالى : وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كازوم الفلاة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه ، وعنه : مامن مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد . وقال الحسن : « أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ » أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى صار له عند القسمة فى الأزل . وقيل : أراد به التكليف ، أى قلدها التزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به ويتجرع ما أوجب له من خير أمكنه ذلك . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ، يعنى كتاب طائره الذى فى عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طيره » بغير ألف ، ومنه ما روى فى الخبر « اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا رب غيرك » . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب : « وَيُخْرِجُ » بفتح الباء وضم الراء ، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ، ف « كتابا » منصوب على الحال . ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وثاب : « وَيُخْرِجُ » بضم الباء وكسر الراء ، وروى عن مجاهد ، أى يخرج الله . وقرأ شيبه ومحمد بن السَّبَّاح ، وروى أيضا عن أبى جعفر : « وَيُخْرِجُ » بضم الباء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويخرج له الطائر كتابا . الباكون « وَيُخْرِجُ » بنون مضمومة وكسر الراء ، أى ونحن نخرج . احتج أبو عمرو فى هذه القراءة بقوله : « أَلْزَمْنَاهُ » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عمر : « يُلْقَاهُ » بضم الباء وفتح اللام وتشديد القاف ، بمعنى يؤثاه . الباكون بفتح الباء خفيفة ، أى يراه منشورا . وقال : « مَنشُورًا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والنو بيبخ بالسئته . قال

(١) منى . وفى أود : قدزناه إلزام ، وفى به : قدلناه إلزام .

أبو السوار العدوي وقرأ هذه الآية . «وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَتُهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ» قال : هما نشرتان وطية ؛ أما ما حديث يابن آدم فصحيحك المنشورة فأمل فيها ما شئت ، فإذا مت طويت حتى إذا بعثت نُشرت . ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أميا كان أو غير أمي . ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيَّكَ حَسِيبًا ﴾ أى محاسبها . وقال بعض الصالحاء : هذا كتاب ، لسانك قلبه ، ويريق مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المنجلي على حفظك ، ما زيد فيه ولا نقص منه ، وبني أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : ﴿ مَن آمَنَ دَخَلَ فِي السَّعَادَةِ وَمَن كَفَرَ دَخَلَ فِي السَّعِيرِ وَمَن كَانَ فِي غَيْبٍ مِّنْ آبٍ أَوْ إِخْوَةٍ أَوْ نِسَاءٍ أَوْ مَالٍ أَوْ بَنِينَ فَلَمْ يَأْتِ الْيَقِينَ فَيَسِّرْ لْهُمْ مَّا رَزَقَهُنَّ مِنْ غَيْبٍ فَلْيَفْرَحُوا بِحَدِّثِ الْيَقِينِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن آمَنَ دَخَلَ فِي السَّعَادَةِ وَمَن كَفَرَ دَخَلَ فِي السَّعِيرِ وَمَن كَانَ فِي غَيْبٍ مِّنْ آبٍ أَوْ إِخْوَةٍ أَوْ نِسَاءٍ أَوْ مَالٍ أَوْ بَنِينَ فَلَمْ يَأْتِ الْيَقِينَ فَيَسِّرْ لْهُم مَّا رَزَقَهُنَّ مِنْ غَيْبٍ فَلْيَفْرَحُوا بِحَدِّثِ الْيَقِينِ ﴾

أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره ؛ فمن أهدى فتواب أهله له ، ومن ضل فعقاب كفره دابه . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ تقدم في الأنعام . وقال ابن عباس : نزلت في الوليد بن المغيرة ، قال لأهل مكة : اتبعوني وآكفروا بحمد وعل أوزاركم ، فترأت هذه الآية ؛ أى إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما كل واحد عليه . يقال : وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا وَوَزْرَةً ، أى أثم . والوزر : الثقل المنقل والجملع أوزار ؛ ومنه : « يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » (١) أى أنفغال ذنوبهم . وقد وَزَرَ إذا حمل فهو وَازِرٌ ؛ ومنه وزير السلطان الذى يحمل نقل دولته . والهاء في قوله كفاية عن النفس ، أى لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تلقي ولدها يوم القيامة فتقول : يا بني ! ألم يكن حجري لك وطاء ، ألم يكن ندي لك سقاء ، ألم يكن بطني لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أمه ! فتقول يا بني ! فإن ذنوبى أنقلتنى فأحمل عنى منها ذنبا واحدا ! فيقول : إلبك عنى يا أمه ! فإنى بذنبي عنك اليوم مشغول .

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٥ . (٢) راجع ج ٦ ص ٤١٣ .

(٣) يبدو هنا سقط لفظ وازرة بدليل ما بعدها .

مسألة — زعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الرد على ابن عمر حيث قال :  
 ”إن الميت ليُعَذَّبُ ببكاء أهله“ . قال علمائنا : وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه ، وأنه  
 معارض للآية . ولا وجه لإنكارها ، فإن الرواة لهذا المعنى كثير ، كعمرو وابنه والمغيرة  
 ابن شعبة وقبيلة بنت محرمة ، وهم جازمون بالرواية ، فلا وجه لتخطئتهم ، ولا معارضة بين  
 الآية والحديث ، فإن الحديث شمله على ما إذا كان النوح من وصية الميت ورسالة ، كما كانت  
 الجاهلية تفعله ، حتى قال طرفة :

إِذَا مِتَ فَأَعْنِي بِمَا أَهْلُهُ \* وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ بِأَبْنِ مَعْبِدٍ

وقال :

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ أَسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكَ \* وَمَنْ يَبْكُ حَوْلَكَ لَا فَقْدَ اعْتَذِرْ

وإلى هذا نحا البخاري . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر  
 الحديث ، وأنه إنما يعذب بتوحيهم ؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتذليلهم بذلك ، فيعذب  
 بتفريطه في ذلك ؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » <sup>(١)</sup> لا بذنب  
 غيره ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أي لم نترك الخلق سُدىً ، بل  
 أرسلنا الرسل . وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافاً للاعتزلة الغائبين بأن  
 العقل يقبح ويحسن ويذبح ويحظر . وقد تقدم في البقرة القول فيه . والجمهور على أن هذا  
 في حكم الدنيا ؛ أي أن الله لا يهلك أمة بمذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار . وقالت  
 فرقة : هذا عام في الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى : « كُنَّا أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ  
 نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا » <sup>(٢)</sup> . قال ابن عطية : والذي يعطيه النظر أن بعثة آدم عليه السلام  
 بالتوحيد وبث المعتقدات في بني مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجب  
 على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد

(١) راجع ج ١٨ ص ١٩٤ و ٢١٢ .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٥١ .

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يهبط احتمال الفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة ، وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال حديث لم يصح ، ولا يقتضى ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدي : وروى عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم ، فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا ، وتلا الآية ، رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة ، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسباني مرفوعا في آخر سورة طه إن شاء الله تعالى ، ولا يصح . وقد استدل قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ، وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم . قوله تعالى : وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى في الآية التي قبل أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل ، لا لأنه يقيح منه ذلك إن فعل ، ولكنه وعد منه ، ولا خلاف في وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها حتى عاينها القول بالتدمير . بملك أن من هلك [ فإمّا ] هلك بإرادته ، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ( أَمَرْنَا ) قرأ أبو عثمان النهدي وأبو رجاء وأبو العالية ، والربيع ومجاهد والحسن . « أَمَرْنَا » بالتشديد ، وهي قراءة على رضى الله عنه ، أى سألنا شرارها فنصونا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدي « أَمَرْنَا » بتشديد الميم ، جعلناهم

(١) المحققون على ما قال ابن عباس كما في البحر : أمرناهم فنصونا ونسقوا وسبنا . وهذا هو المطلق لقوله تعالى إن الله لا يأمر بالفتنة . أما ما ذكره القرطبي كالنفسى فيحتاج إلى تأويل . محققه . (٢) من جري .

أمراء مسلطين ، وقاله ابن عزيز . وأمر عليهم تسلط عليهم . وقرأ الحسن أيضا وقناة وأبو حيوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماة بن سلمة عن ابن كثير وعلى وابن عباس باختلاف عنهما : « أمرنا » بالمد والالتخفيف ، أى أكثرنا جبارتها وأمرأها ، قاله الكسائي . وقال أبو عبيدة : أمرته بالمد وأمرته ، لغتان بمعنى كثرت ، ومنه الحديث « خير المال مَهْرَةٌ مأمورة أو سَكَّةٌ مأبورة »<sup>(١)</sup> ، أى كثيرة النِّسَاج والنَّسَل . وكذلك قال ابن عزيز : أمرنا وأمرنا بمعنى واحد ، أى أكثرنا . وعن الحسن أيضا ويحيى بن يعمر « أمرنا » بالقصر وكسر الميم على فعلنا ، ورويت عن ابن عباس . قال قناة والحسن : المعنى أكثرنا ، وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد ، وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد ، قال : وأصلها « أمرنا » تخفف ، حكاه المهدوي . وفي الصحاح : وقال أبو الحسن أمر ماله ( بالكسر ) أى أكثره وأمر القوم أى كثروا ، قال الشاعر :

\* أَمْرُونَ لَا يَرْثُونَ سَهْمَ الْقَعْدِ<sup>(٢)</sup> \*

وأمر الله ماله ( بالمد ) . الثعلبي : ويقال للشيء الكثير أمرٌ ، والفعل منه : أَمَرَ القومُ يأمرُون أمرًا إذا كثروا . قال ابن مسعود : كنا نقول في الجاهلية لئى إذا كثروا : أَمِرْ أَمْرُ بنى فلان ، قال لبيد :

كُلُّ بَنِي حُرَّةٍ مَصِيرُهُمْ \* قُلٌّ وَإِنْ أَكْثَرَتْ مِنَ الْعَدَدِ<sup>(٣)</sup>  
إِنْ يُغْطَلُوا يَغْطَلُوا وَإِنْ أَمُرُوا \* يَوْمًا يَصِيرُوا لِلْهَلْكِ وَالْذَكْدِ

(١) السكة : الطريقة المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة ، يقال : أبرت الدخلة وأبرتها ، فهى مأبورة ومؤبرة . وقيل : السكة سكة الحرث ، والمأبورة المصلحة له . المراد : خير المال نتاج وزرع . ( ابن الأثير ) .  
(٢) هذا مجزئ بيت للأعشى وصدره :

\* طرْفُونٌ وَلَا دُونَ كُلِّ مَبَارِكِ \*

الطرف والطريف : الكثير الآباء . إلى الجد الأكبر . والقائد : القليل الآباء . إلى الجد الأكبر . (٣) يقول : إن غطلوا يوما فإنهم يموتون . و « يهملوا » هاهنا يموتوا . ويروى : « إن يغطلوا يهملوا » يموتوا عيلة ، كما يموتون من غير مرض . ( راجع الديوان ) . فى جوى : والقد .



فأت : وفي حديث هرقل الحديث الصحيح : "لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، ليخافه ملك بنى الأصفر" أى أكثر . وكله غير متعد . ولذلك أنكره الكسائى ، والله أعلم . قال المهدوى : ومن قرأ «أمر» فهى لغة ، ووجه تعدية «أمر» أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شىء إلى العارة فعدى كما عدى عمر<sup>(۲)</sup> . الباقون «أمرنا» من الأمر ؛ أى أمرناهم بالطاعة إظهارا وإنذارا وتخويفا ووعيدا . ( فَتَسْقُوا ) أى تخرجوا عن الطاعة عاصين لنا . ( لِحَقِّ هَاتِمَا الْقَوْلِ ) فوجب عليها الوعيد ؛ عن ابن عباس . وقيل : «أمرنا» جعلناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ، أى غير مؤتمر . وقيل : معناه بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهى قراءة أبى : «بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا» ذكره الماوردى . وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أبى « وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول » . ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا ؛ ومنه "خير المال مهرة مأمورة" على ما تقدم . وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكفوله : "أرجعن ما زورات غير مأجورات" . وعلى هذا لا يقال : أمرهم الله ، بمعنى كثرتهم ، بل يقال : أمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا «أمرنا» لأن الممانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمُتَرَفُّ : المنعم ؛ وخُصُّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثة — قوله تعالى : ( فَدَمَّرْنَاهَا ) أى استأصلناها بالهلاك . ( تَدْمِيرًا ) ذكر المصدر للبالغة فى العذاب الواقع بهم . وفى الصحيح<sup>(۳)</sup> من حديث زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فزعا محبرا وجهه يقول : " لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " وحاق بأصبعه الإبهام والذى تليها . قالت : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وقتنا مثل هذه (۱) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون لنبى صلى الله عليه وسلم « ابن أبى كبشة » شهيرة بأبى كبشة ، وجبل من خزائن خالف فريشا فى عبادة الأوثان . أو هى كنية رجب بن عبد مناف جد رسول الله عليه وسلم من قبل أمه ، لأنه كان نزع إليه فى الشبه . أو كنية زوج حليمة السعدية . (۲) عمر كفرة . (۳) فى هامش ج : الصحيحين . خ .

الصالحون ؟ قال : " نعم إذا أكثر الخُبْثُ " . وقد تقدّم الكلام في هذا الباب ، وإن الماصي إذا ظهرت ولم تُذَر كانت سببا لهلاك الجميع ؛ والله أعلم .<sup>(١١)</sup>

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ) أي كم من قوم كفروا حل بهم البوار . يخوف كفار مكة ؛ وقد تقدّم القول في القرن في أول سورة الأنعام ، والحمد لله . ( وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ) « خبيراً » عليا بهم . « بصيراً » يضر أعمالهم ؛ وقد تقدّم .<sup>(١٢)</sup>

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ) يعني الدنيا ، والمراد الدار العاجلة ؛ فَعَبَّرَ بِالْمَعْنَى عَنْ الْمَنْعُوتِ . ( عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ) أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار . ( مَذْمُومًا مَذْهُورًا ) أي مطرودا مبعدا . من رحمة الله . وهذه صفة المنافقين الفاسقين ، والمرايين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة ليدالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلا ما قسم لهم . وقد تقدّم في « هود » أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة ؛ فأنمله . ( وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ) أي الدار الآخرة . ( وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ) أي عَمِلَ لَهَا عَمَلَهَا مِنَ الطَّاعَاتِ . ( وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . ( فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ) أي مقبولا غير

(١) راجع ج ٧ ص ٧٩١ . (٢) راجع ج ٦ ص ٣٩١ . (٣) راجع ج ٢ ص ٣٥ .

(٤) في ج ٢ : خ ؛ عن المنعوت بالعت . (٥) راجع ج ٩ ص ١٣ .

مردود . وقيل : مضاعفاً أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر ، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف ، وإلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبى هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إن الله ليَجْزِي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة “ ؟ فقال سمعته يقول : ” إن الله ليَجْزِي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة “ .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا تُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَئِنَّ آخِرَةَ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا تُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ اعلم انه يرزق المؤمنين والكافرين . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أى محبوباً ممنوعاً ؛ من حظريه ظُهِرَ حَقُّهُرًا وحظاراً . ثم قال تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلٌّ ومُكثِرٌ . ﴿ وَلَئِنَّ آخِرَةَ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أى للؤمنين ؛ فالكافر وإن وسع عليه فى الدنيا مرة ، وقتر على المؤمن مرة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شئ منها لم يستدركه فيها . وقوله : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أى تنق . ﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك ولا وليا .

قوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنَّا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمْ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ﴿٢٤﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — (قَضَى) أى أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : ليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . وفي مصحف ابن مسعود « ووصى » وهى قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعلى وغيرهما ، وكذلك عند أبي بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وَقَضَى رَبُّكَ » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم « وصى بقضى » حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتبت المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلاً قول الضحاك . وقال عن ثميون بن مهران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا ، قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك . وقال : لو قلنا هذا لطمع الزنادقة فى مصحفنا ، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل فى اللغة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر ، كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق ، كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » بمعنى خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم ، كقوله تعالى : « فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » بمعنى احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ ، كقوله : « قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » . أى فرغ منه ؛ ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ » . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » . والقضاء بمعنى الإرادة ، كقوله تعالى : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . والقضاء بمعنى العهد ، كقوله تعالى : « وَمَا كُنْتُمْ بِخَايِبٍ عِندِي إِذْ قَضَيْتُمَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » .

فإذا كانت القضاء يحتمل هذه المعانى فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله ؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بها ،

- |                      |                       |                       |
|----------------------|-----------------------|-----------------------|
| (١) راجع ج ١٦ ص ٩ .  | (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٤٢ . | (٣) راجع ج ١١ ص ٢٢٥ . |
| (٤) راجع ج ٩ ص ١٩٣ . | (٥) راجع ج ٢ ص ٤٣١ .  | (٦) راجع ج ١٨ ص ١٠٨ . |
| (٧) راجع ج ٤ ص ٩٢ .  | (٨) راجع ج ١٣ ص ٢٩١ . |                       |

لأنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً . فقال : إنك قد عصيت ربك وبانت منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك علي ! فقال الحسن وكان قصصهما : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ، وقرأ هذه الآية : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ » .

الثانية — أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده ، وجعل برّ الوالدين مةونا بذلك ، كما قرن شكرهما بشكره فقال : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . وقال : « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » . وفي صحيح البخارى عن عبد الله قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على قتها » قال : ثم أى ؟ قال : « ثم برّ الوالدين » قل ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتب ذلك بـ « ثُمَّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثة — من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسيئهما ولا يعقهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، وبذلك وردت السنة الثابتة ؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « نعم » يسب الرجل أباه الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .

الرابعة — عقوب الوالدين مخالفتها فى أغراضهما الجليلة لها ؛ كما أن برّهما موافقتها على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ، إذ لم يكن ذلك الأمر معصية ، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله ، كذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح بصيره فى حق الولد مندوباً إليه وأمرهما بالمندوب يزيد تأكيداً فى نذيقته .



الخامسة - روى الترمذی عن ابن عمر قال : كانت تحتي امرأة أحبها ، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبیت ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ” يا عبد الله ابن عمر طأني أمرأتك “ . قال : هذا حديث حسن صحيح .

السادسة - روى الصحيح عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق الناس بحسن صحابي ؟ قال : ” أمك “ قال : ثم من ؟ قال : ” ثم أمك “ قال : ثم من ؟ قال : ” ثم أمك “ قال : ثم من ؟ قال : ” ثم أمك “ قال : ثم من ؟ قال : ” ثم أمك “ . فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب ؛ لذكر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط . وإذا توصل هذا المعنى شهد له العيان . وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . وروى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبي في بلد السودان ، وقد كتب إلى أن أقدم عليه ، وأمي تمنعني من ذلك ؛ فقال له : أطع أبك ، ولا تمص أمك . فدل قول مالك هذا أن ربهما متساو عنده . وقد سئل النبي عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم ؛ وزعم أن لها ثلثي البر . وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر ؛ وهو المحجة على من خالف . وقد زعم المحبسي في ( كتاب الرعاية ) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع ؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والله أعلم .

السابعة - لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد ؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ » . وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومُدتهم إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها ، فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : ” نعم صلي أمك “ .

(١) كذا في الأصول . (٢) راجع ج ١٨ ص ٥٨ و ج ١٤ ص ٦٣ .

(٣) قولها راغبة : أي راغبة في برى وصلى ، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتني أمي رغبة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أصلها ؟ قال : ” نعم “ . قال ابن عيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأول معلق والثاني مسند .

الشمسة - من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بلذنهما .  
 روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : ” أحمي والذاك “؟ قال : نعم . قال : ” ففيمها يجاهد “ . لفظ مسلم . في غير الصحيح قال : نعم ؛ وتركتهما يبيكان . قال : ” اذهب فاضحكهما كما أبكيتهما “ . وفي خبر آخر أنه قال : ” نومك مع أبويك على فراشهكما يضاحكك ويلعبانك أفضل لك من الجهاد معي “ . ذكره ابن خزيمة في منبذ . ولفظ البخاري في كتاب ر الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبأ به على الهجرة وترك أبويه يبيكان فقال : ” ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما “ . قال ابن المنذر : في هذا الحديث النهي عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع التغير ؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بين في حديث أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجدف بن أبي طالب وابن ربيعة وأن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ” أيها الناس ، أخرجوا فامدوا إخوانكم ولا يتخلف أحد “ فخرج الناس مشاة وركبانا في حر شديد . فدل قوله : ” أخرجوا فامدوا إخوانكم “ أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع التغير مع قوله عليه السلام : ” فإذا استغفرتم فأنفروا “ . قلت : وفي هذه الأحاديث دليل على أن الفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدم الأهم منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبي في كتاب الرعاية .

التاسعة - واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بلذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثوري يقول : لا يغزو إلا بلذنهما . وقال الشافعي : له أن يغزو

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم ؛ ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات . وكان طاوس يرى السهمى على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل .

العاشرة - من تمام برهما صلة أهل وديهما ؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أبر البر صلة الرجل أهل وديه بعد أن يموت " . وروى أبو أسيد وكان بدرياً قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسا بغناء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقي من برِّ والدي من بعد موتها شيء أبرهما به ؟ قال : " نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك " . وكان صلى الله عليه وسلم يهدي لصداقتي خديجة برأها ووفاء لها وهي زوجته ، فما ظنك بالوالدين .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خص حالة الكبر لاثنتي عشرة الحالة التي يحتاجان فيها إلى برِّه لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر ، فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه ، فيحتاجان أن يلبى منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلبى منه ؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر . وأيضاً فطول المكث للبر يوجب الاستئصال للبر عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتتفجع لهما أوداجه ، ويستطيل عليهما بدالة البروة وقلة الديانة ، وأقل المكره ما يظهره بنفسه المتردد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَغِمَ أَنْفُهُ رَغِمَ أَنْفُهُ " قيل : من يا رسول الله ؟ قال : " من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة " . وقال البخاري في كتاب برِّ الوالدين : حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

”رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٌ ذُكِرْتُ عَنْهُ فَلَمْ يَصَلِّ عَلَى رَغِمَ أَنْفٍ رَجُلٌ أَدْرَكَ أَبُوهُ عِنْدَهُ الْكَبِيرَ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ ، وَرَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانٌ ثُمَّ أَنْسَخَ قَبْلَ أَنْ يُفْقِرَ لَهُ “ . حَدَّثَنَا أَبُو أَبِي أُوَيْسٍ حَدَّثَنِي أَنَّى عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مُجَرَّةَ السَّامِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنْ كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” أَحْضَرُوا الْمُنْبَرَ “ فَلَمَّا خَرَجَ رَجُلٌ [ إِلَى ] الْمُنْبَرِ ، فَرَّقَ فِي أَوَّلِ دَرَجَةٍ مِنْهُ قَالَ آمِينَ ثُمَّ رَقِيَ فِي الثَّانِيَةِ فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ لَمَّا رَقِيَ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ آمِينَ ، فَلَمَّا فَرِغَ وَنَزَلَ مِنَ الْمُنْبَرِ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ مِنْكَ ؟ قَالَ : ” وَنَسْمَعُوهُ “ ؟ قُلْنَا نَعَمْ . قَالَ : ” إِنْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَرَضَ قَالَ : بَعْدَ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُفْقِرْ لَهُ فَقُلْتُ آمِينَ فَلَمَّا رَقِيتُ فِي الثَّانِيَةِ قَالَ بَعْدَ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْهُ فَلَمْ يَصَلِّ عَلَيْكَ فَقُلْتُ آمِينَ فَلَمَّا رَقِيتُ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ بَعْدَ مَنْ أَدْرَكَ عَنْهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ قُلْتُ آمِينَ “ . حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ وَرْدَانَ سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : ارْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُنْبَرِ دَرَجَةً فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ ارْتَقَى دَرَجَةً فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ آمِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى وَجَلَسَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَامَ أَتَمَنْتَ ؟ قَالَ : ” أَنَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ رَغِمَ أَنْفٌ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْهُ فَلَمْ يَصَلِّ عَلَيْكَ فَقُلْتُ آمِينَ وَرَغِمَ أَنْفٌ مَنْ أَدْرَكَ أَبُوهُ أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ آمِينَ “ الْحَدِيثُ . فَالْسَّعِيدُ الَّذِي يَبَادُرُ اغْتِنَامَ فُرْصَةِ يَرْهَمَا لِثَلَاثَةِ نَفَوْتِهِ بِمَوْتِهِمَا فَيَسْتَنْدِمُ عَلَى ذَلِكَ ، وَالشَّقِيقَ مِنْ عَقْبِهِمَا ، لَا سِيَّامَا مِنْ بَلْغَةِ الْأَمْرِ بِرِهَمَا .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهَا أَفْ ﴾ أَيْ لَا تَقُلْ لَهَا مَا يَكُونُ فِيهِ أَذَى تَبْرُمُ . وَعَنْ أَبِي رَجَاءَ الْهَضْرِيِّ قَالَ : الْأَفُّ الْكَلَامُ الْقَدَحُ الرَّدَى الْخَفِيُّ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ إِذَا رَأَيْتَ مِنْهُمَا فِي حَالِ الشَّيْخِ الْفَاطِطِ وَالْبَوْلِ الَّذِي رَأْيَاهُ مِنْكَ فِي الصَّغَرِ فَلَا تَقْدَرْهُمَا وَتَقُولُ أَفْ . وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ هَذَا . وَالْأَفُّ وَالْأَفُّ وَنَحْوُ الْأُظْفَارِ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَا يَضْحَرُ وَيَسْتَنْقَلُ : أَفْ لَهُ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَالْأَفُّ أَيْضًا الشَّيْءُ الْحَقِيرُ . وَقُرْبَى « أَفْ » مَثْوًى

مخفوضاً؛ كما تُخَفِّضُ الْأَصْوَاتُ وَتُسَوِّنُ، تقول : صَيَّهْ وِيه . وفيه عشر لغات : أَفٌ ، أَفٌّ ، وَأَفٌّ ، وَأَفَّا وَأَفٍّ ، وَأَفٌّ ، وَأَفٌّ ، وَأَفٌّ ، وإف لك ( بكسر الهمزة ) ، وَأَفٌّ ( بضم وتسكين الفاء ) ، وَأَفَّا ( مخففة الفاء ) . وفي الحديث : " فالتى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أَفٌّ أَفٌّ " . قال أبو بكر : معناه استغذار لما شَمَّ . وقال بعضهم : معنى أَفٍّ الاحتقار والاستقلال ؛ أخذ من الأَفِّ وهو القليل . وقال القَتَيْبِيُّ : أصله فَنَحَكَ الشَّيْءَ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْ رَمَادٍ وَتَرَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وللكان تريد إمالة شئ ، لتقعده فيه ؛ فقليلت هذه الكلمة لكل مستنقل . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأَفٌّ وسخ بين الأظفار ، والتف فلامتها . وقال الزجاج : معنى أَفٍّ التَّن . وقال الأصمعيّ : الأَفٌّ وسخ الأذن ، والتَفٌّ وسخ الأظفار ؛ فكثير استعماله حتى ذكر في كل ما يُبْذَى به . وروى من حديث عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو علم الله من العقوق شيئاً أَرَدَأُ مِنْ « أَفٍّ » لذكره فليعمل البار ما شاء أن يعمل فإن يدخل النار ؛ وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة " . قال علماؤنا : وإنما صارت قوله « أَفٌّ » للأبوين أَرَدَأُ شئاً لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، ومجد التربية ورد الوصية التى أوصاه فى التنزيل . و « أَفٍّ » كلمة مقولة لكل شئ ، مرفوض ؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أَفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » (١) أى رَفَضُ لَكُمْ وَلِهَذَا الْأَصْنَامُ مَعَكُمْ .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (النهر : الزجر والغلظة .) ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أى لينا لطيفا ، مثل : يا ابتاه ويا أمناه ، من غير أن يسميهما أو يكتنيهما ؛ قاله عطاء . وقال أبو البداح الشَّجَبِيّ : قلت لسعيد بن المسيّب كل مافى القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيّب : قول العبد المذنب للسيد القَظ الغلظ .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : (وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأُمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

(۱) راجع ج ۱۱ ص ۳۰۲ .

(۲) فی ی : ینصہما .

(٣) كذا في الأصول . والذي في ابن جرير والدر المنثور « أبو الهذاج » .



المسيب . وَضَرَبَ خَفْضَ الجَنَاحِ ونصبه مثلاً للجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده .  
والذَّل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال ، من ذَلَّ يَذَلُّ ذُلًّا وذَلَّةً ومذلةً فهو ذالٌّ وذليل .  
وقرأ سعيد بن جبيرة وابن عباس وعروة بن الزبير « الذَّل » بكسر الذال ، ورويت عن حاصم ؛  
من قولهم : دابة ذلول بينة الذَّل . والذَّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغي  
بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خبر ذلة ، في أقواله وسكاته ونظرة ،  
ولا يُحِدِّثُ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة — الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ؛  
إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذَّل في قوله تعالى : « وَاخْفِضْ  
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و « مِنْ »  
في قوله : « مِنْ الرَّحْمَةِ » لبيان الجنس ، أى إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة  
في النفس ، لا بأن يكون ذلك استملاً . ويصح أن يكون لانتهاء الغاية ، ثم أمر تعالى عباده  
بالترحم على آبائهم والدعاء لهم ، وإن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفق بك ؛ إذ ولياك  
صغيراً جاهلاً محتاجاً فأثارك على أنفسهما ، وأسهرأ ليلهما ، وجاعاً وأشبعاك ، وتمزياً وكسواك ،  
فلا تجزئهما إلا أن يبلغا من الكبر الحُدَّ الذي كنت فيه من الصغر ، فتلي منهما ما ولياً منك ،  
و يكون لهما حينئذ فضل التقدم . قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَجْزِي وَلَدَ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ  
مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ » . وسيأتى في سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قوله تعالى : « كَا رَبَّيَانِي » خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة  
الأبوين وتربتهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين  
المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولى قرُوبى ، كما تقدم .  
وذكر عن ابن عباس وقناة أن هذا كله منسوخ بقوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ  
يَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا » — إلى قوله — أَصْحَابُ الْحَجِيمِ » فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل  
(۱) راجع ج ۱۳ ص ۱۱۸ فابعد . (۲) راجع ج ۱۱ ص ۱۰۹ . (۳) راجع ج ۸ ص ۲۷۲ .

معهما ما أمره الله به هاهنا ؛ إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر ؛ لأن هذا وعده نسخ بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ماداما حيّين ، كما تقدم . أو يكون عموم هذه الآية خصّ بتلك ، لارحة الآخرة ، لاسيما وقد قيل : إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمُهُمَا » نزلت في سعد بن أبي وقاص ، فإنه أسلم ، فألقت أمه نفسها في الرّمضاء مُتَجَرِّدة ، فذكر ذلك لسعد فقال : لَيْتَ ، فزلت الآية . وقيل : الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا ، وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من أمسى مُرَضِّباً لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا ، ومن أمسى وأصبح مُسَخَّطاً لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا “ فقال رجل : يا رسول الله ، وإن ظلماه ؟ قال : ” وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه “ . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن أبي أخذ مالى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل : ” فأتني بأبيك “ فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ” إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شئ قاله في نفسه ما سمعته أذناه “ فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” ما بال أبنيك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ “ فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقته إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إياه <sup>(١)</sup> ، دعنا من هذا ، أخبرني عن شئ قلته في نفسك ما سمعته أذناك ؟ “ فقال الشيخ : والله يا رسول الله ، ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي . قال : ” قل وأنا أسمع “ قال قلت :

(١) إياه (بكره الـ) : كلمة استزادة واستنطاق . وإذا قلت « إياها » بالنصب والنون فإنما تأمره بالسكوت . وقال ابن سيده : « وإياه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسيك ، وتتنون فيقال إياها . وحكى عن الهيث : « إياه وإياه في الاستزادة والاستنطاق . وإياه وإياها في الزجر ؛ كقولك : إياه حسيك ، وإياها حسيك . »

قَدَرْتُكَ مولوداً ومُتَّكِئاً يَافِعَا • تُعَلِّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتُنْهَلُ  
إِذَا لَيْلَةٌ ضَاغَتْكَ بِالسَّحْمِ لَمْ أَثُ • لُسْعُكَ إِلَّا سَاهِرَا أَتَمَلُّ  
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي • طُرِقْتَ بِهِ دُونِي فَعَبْنِي تَهْمَلُ  
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنِّهَا • لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتُ مُؤْجَلُ  
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي • إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَؤْمَلُ  
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفُظَاظَةً • كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْهَمِ الْمُنْفَعَضُ  
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَجَّ حَقَّ أَبَوِي • فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُصَاقِبُ يَفْعَلُ  
فَأُولَيْتَنِي حَقَّ الْحَوَارِ وَلَمْ تَكُنْ • عَلَيَّ بِمَالِ دُونَ مَالِكَ تَجْعَلُ

قال : فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب آبنه وقال : " أنت ومالك لأبيك " .  
قال الطبراني : القمى لا يروى — معنى هذا الحديث — عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر  
إلا بهذا الإحسان ، وتفرد به عبيد الله بن خلصة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ  
فَلَمَّا كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ) أى من اعتقاد الرحمة بهما والحنق عليهما ،  
أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهراً برهما رياءً . وقال ابن جبير : يريد البادرة  
التي تبدر ، كالقائمة والزائلة ، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما ، لا يريد بذلك بأساً ، قال  
الله تعالى : ( إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ ) أى صادقين في نية البرِّ بالوالدين فإن الله يغفر البادرة .  
وقوله : ( فَلَمَّا كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ) وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الآيات في أشعار الحاسة لأمية بن أبي الصلت . قال الزهرى : « وترى لابن عبد الأعل .  
وقيل : لأبي العباس الأعمى » . (٢) في الأصول : « وصنعتك » . وفي أشعار الحاسة : « وصنعتك » أى قت  
بؤرتك . و « يافعا » شاباً . و « نعل » من نله يله ، سقاء ثانية . و « أجنى » أكسب . و « نهل » من أنهله ،  
سقاء أول سقية . (٣) في الحاسة :

إذا ليلت نابتك بالشكولم أبت • لشكوك ... .. الخ

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأواب : الحفيظ الذى إذا ذكر خطاياہ استغفر منها . وقال عبيد بن عمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخللاء<sup>(١)</sup> ثم يستغفرون الله عز وجل . وهذه الأقوال متقاربة . وقال عون العقيلي<sup>(٢)</sup> : الأوابون هم الذين يصلون صلاة الضحى . وفى الصحيح : ” صلاة الأوابين حين ترمض الفِصال ” . وحقيقة اللفظ [ أنه<sup>(٣)</sup> ] من آب يؤوب إذا رجع .

قوله تعالى : وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٦٧﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أى كما راعيت حق الوالدين فيصل الرحم ، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل . وقال علي بن الحسين فى قوله تعالى : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ » : هم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقهم من بيت المال ، أى من سهم ذوى القربى من الغزو والغنيمة ، ويكون خطاباً للولاء أو من قام مقامهم . وألحق فى هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ ﴾ أى لا تسرف فى الإنفاق فى غير حق . قال الشافعى رضى الله عنه : والتبذير إنفاق المال فى غير حقه ، ولا تبذير فى عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه فى غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » وقوله :

(١) الخللاء : الخلوقة . (٢) هى أن يحى الرضا ، وهى الرذل ، فتترك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها . (٣) من به .

« إِيْخْوَانُ » يعنى أنهم فى حكمهم ؛ إذ المبذّر ساج فى إفساد كالشياطين ، أو أنهم يفعلون ما نسؤل لهم أنفسهم ، أو أنهم يُقرّون بهم غدا فى النار؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أى من غير النسب ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . وقوله تعالى : ( وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ) أى آخذروا متابعتة والتشبه به فى الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك . « إِيْخْوَانُ الشَّيْطَانِ » على الأفراد ، وكذلك ثبت فى مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثة — من أنفق ماله فى الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاق فهو مبذر . ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر . ومن أنفق درهما فى حرام فهو مبذر ، ويحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاق .

قوله تعالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آبِتَةً رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل .

الأولى — وهو أنه سبحانه وتعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ( وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آبِتَةً رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ) . وهو تاديب عجيب وقول لطيف بديع ؛ أى لا تعرض عنهم لإعراض مستهين من ظهر الفنى والقدرة فتحريمهم . وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل ؛ فإن قعد بك الحال « فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا » .

الثانية — فى سبب تزولها ، قال ابن زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يستثلون رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبى أن يعطيهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى فساد ، (١) راجع به ١٦ ص ٣٢٢ . (٢) فى : والقرارد من فتنهم . ولا يدوله معنى .



فكان يُعرض عنهم رغبة في الأجر في منهم لثلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى : « وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ آيَاتُنَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا في ذكر الوالدين ، جاء ناس من مُزَيْنَةَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستحملونه ، فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، فأنزل الله تعالى : « وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ آيَاتُنَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا » . والرحمة القى<sup>(١)</sup> .

الثالثة — قوله تعالى : ( فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا ) أمره بالدعاء لهم ، أى يَسِّرْ فقرهم عليهم بدعائكم لهم . وقيل : أدع لهم دعاء يتضمن الفتح لهم والإصلاح . وقيل : المعنى « وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ » أى إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يدي فقل لهم قولاً ميسوراً ، أى أحسن القول وبأسط العذر ، وأدع لهم بسعة الرزق ، وقل إذا وجدت فقلت وأكرمت ، فإن ذلك يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة . وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يعطى سكت انتظارا لرزق يأتى من الله سبحانه وتعالى كراهة الرد ، فزلت هذه الآية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطى قال « يرزقنا الله وإياكم من فضله » ، فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير في « عنهم » عائد على من تقدم ذكرهم من الآباء والقراة والمساكين وأبناء السبيل . و « قَوْلًا مِّسُورًا » أى لينا لطيفا طيبا ، مفعول بمعنى القائل ، من لفظ اليسر كالميمون ، أى وعدا جميلا ، على ما بيناه . ولقد أحسن من قال :

لَا تَكُنْ وَرِيًّا يَوْمَا أَجُودُ بِهَا \* لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّي لَبِيبُ الْعُودِ

لا بعدم السائلون الخير من خلقى \* إِنَّمَا نَوَالِي وَإِنَّمَا حَسَنُ مُرَدُودِي

تقول : يَسِّرْتُ لك كذا إذا أعددت .

قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿١٦﴾

(١) في ج في هـ : القى .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز مبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله ؛ فضرب له مثل الغل الذي يمنع من التصرف باليد . وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبَّتَانِ من حديد قد أَضْطَرَّتْ أَيْدِيَهُمَا إِلَىٰ نُدْيِهِمَا وَتَرَاوَيْهِمَا بفعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى إنامله وتَمَقُّوْاْ أثره وجعل البخيل كلبا هم بصدقة قَلَصَتْ وأخذت كل حلقة بمكانها . قال أبو هريرة رضي الله عنه : فانا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيبه نلو رأيتَهُ يُوسِعُها ولا توسع .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ضرب بسط اليد مثلا لذهاب المال ، فإن قبض الكف يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها ، وهذا كله خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء في القرآن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عَرَّبَهُ عنهم على عادة العرب في ذلك . وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يترك يدنر شيئا لغيره ، وكان يجوع حتى يَشُدَّ الحجر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم ، فلم ينعفهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق ، وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحفرة على ما خرج من يده ، فأما من وثق بموعد الله عز وجل وبجزيل ثوابه فيما أنفق فغير مراد بالآية ، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه ، فإنه فيه كفية الإنفاق ، وأمره بالاعتصام . قال جابر وابن مسعود : جاء غلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي

(۱) أى انتشرت عنه الجبة . (۲) أى أثر مثوه لسبوغها . (۳) أى انضمت وارتفعت . (۴) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأعمال وتطلق على غير الكلام واللسان ؛ فنقول : قال يده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى مشى . وكل ذلك على المجاز والانتساع . (۵) في جوده . ولقد رأيت . (۶) جواب لو محذوف ؛ أى لتسببت .

تسألك كذا وكذا . فقال ” ما عندنا اليوم شيء “ . قال : فتقول لك اكُنْني قيصك ، نفع قيصه فدفعه إليه وجلس في البيت عرياناً . وفي رواية جابر : فأذن بلال للصلاة وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ، واشتغلت القلوب ، فدخل بعضهم فإذا هو عارٍ ففترت هذه الآية . وكل هذا في إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدم .

الثالثة — نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين ؛ لتلايق من يأتي بعد ذلك لاشيء له ، أولئلا يضيع المنفق عياله . ونحوه من كلام الحكمة : مارأيت قط سرفاً إلا ومعه حق مُضَيِّع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَقَعَّدَ مَلُومًا مُحْشُورًا ﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تنصرف ولا تنلف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف ؛ كما يكون البعير الحسير ، وهو الذي ذهب قوته فلا أنبعث به ، ومنه قوله تعالى : « يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » (٢) أي كليل منقطع . وقال قتادة : أي نادماً على ماسأف منك ؛ بفعله من الحسرة ، وفيه بعد ؛ لأن الفاعل من الحسرة حسير وحسيران ولا يقال محسور . والملموم : الذي يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣)

(١) الوجد (مثلثة الواو) : اليسار والسعة . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٠٩ . (٣) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر في النسخ التي بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النسخ . وعادة ابن جرير الطبري في كلامه على الآية كما وردت في تفسيره : « يقول تعالى ذكره لربه مجد عليه وسلم إن بك يا مجد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه . ويقدر على من يشاء . يقول : ويقدر على من يشاء منهم فيضيّق عليه : « إنه كان عباده خبيرا » يقول : إن بك ذو خبرة بعباده ، ومن الذي تصلحه السعة في الرزق وتفسده ، ومن الذي يصلحه الإقتار والضيّق ويهلكه . « بصيرا » يقول هو ذو بصير يتدبرهم وسياسهم . يقول : فأنته يا مجد إلى أمرنا كما أمرناك وتبينناك من بسط يدك فإي تبسطها فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كنهها عن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم . »

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْرُقُهُمْ  
وإِمَّا يَكُنْ إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾  
فيه مسائل ثلاث :

الأولى - قدم مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك.  
أماق الرجل أى لم يبق له إلا الملقات؛ وهى الحجارة العظام الملس. قال المذلى يصف صائدا:  
أَتَيْحَ لَهَا أَقْيَدِرُ ذُو حَشِيف • إذا سامت على الملقات ساما  
الواحدة مَلَقَة . والأقيدر تصغير الأقدَر ، وهو الرجل القصير . والحشيف من الثياب :  
الخالق . وسامت مرت . وقال شاعر: أُمْلَقُ لازم ومتعدّد ، أُمْلَقُ إذا افتقر ، وأُمْلَقُ الدهر  
ما بيده . قال أوس :

• وَأُمْلَقُ مَا عِنْدِي خُطُوبُ تَنْبِيلٍ <sup>(١)</sup> •

الثانية - قوله تعالى : ( «خَطَأً» ) «خَطَأً» قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء  
وبالهمزة والفصح. وقرأ ابن عامر «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة ، وهى قراءة  
أبي جعفر يزيد . وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطئ» إذا أتى الذنب على عمد . قال  
ابن عرفة : يقال خَطِئَ فى ذنبه خَطَأً إذا أئِمَّ فيه ، وأخطأ إذا سَلَكَ سَبِيلَ خَطَاٍ عامدا أو غير  
عامد . قال : ويقال خِطِئَ فى معنى أخطأ . وقال الأزهري : يقال خِطِئَ يَخْطِئُ خِطْئًا إذا  
تعمد الخطأ ؛ مثل أئِمَّ يَأْمُئُ إِئْمًا . وأخطأ إذا لم يتعمد ، إخطأ وخطأ . قال الشاعر :  
دَبَعْنِي إِئْمًا خَطِئِي وَصَوْنِي • على • وإِنَّ مَا أَهْلَكْتُ مَالِ <sup>(٢)</sup>

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٠ • (٢) صدر البيت :

• لَمَّا رَأَيْتَ الدَّمَّ قَدِ نَاقَلَ •

(٣) فى الأصول : « وإن ما أهلك مالى » . والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء  
لابن سلام فى ترجمة أوس بن عفراء ، ولسان العرب فى مادة « صوب » . وقيل هذا البيت :  
الآقاات أامة يوم غول • تقطع بأبن عفراء الحبال  
يقول : وإن الذى أهلك إئسا هو مال ، والمسال يستلطف ولم أظف عرضا .  
وغول ، مكان كان فيه وقعة للمرب لضبة على بن كلاب . ( راجع معجم بالغوث ) •

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضد الصواب . وفيه لفتان : الفصر وهو الجيد، والمد وهو قليل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «خطأ» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدد الهمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجها، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً . قال أبو علي : هي مصدر من خاطأ بخاطئ ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلت عليه، ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَاتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ \* وَأَثَرُ يَوْمِي فَلَمْ أَتَجَلَّ

وقول الآخر في وصف مهابة :

تَخَاطَاهُ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدَتْهُ \* وَخَرَطُوهُ فِي مَنَقَعِ الْمَاءِ رَاسِبٌ

الجوهرى : تخاطأ أى أخطأه، وقال أَوْقَى بن مطر المازنى :

أَلَا أَبْلَغُ خُلَّتِي جَابِرًا \* بَأْسَ خَلِيلِكَ لَمْ يُقْتَلِ

تخاطات النبل أحشائه \* وَأَثَرُ يَوْمِي فَلَمْ يَمُجِّلِ

وقرأ الحسن «خطأ» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هذا في اللغة وهي فظ غير جائز . وقال أبو الفتح : الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا «خطى» بفتح الخاء والطاء منونة من غير همزة .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

فيه مسألة واحدة :

قال العلماء : قوله تعالى : (وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ) أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا، فإن معناه

لا تدنوا من الزنى . والزنى يمد ويقصر، لفتان . قال الشاعر :

كَانَتْ فَرِيضَةٌ مَا تَقُولُ كَمَا \* كَانَتْ الزَّيْنَاءُ فَرِيضَةُ الرَّجْمِ

و(سَبِيلًا) نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلا . أى لأنه يؤدى إلى النار . والزنى من الكجائر، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجمار . وينشأ عنه استخدام ولد الغير

(١) أثر : بمعنى يتأثر، ويجوز «أثر» بضم الهمزة وشذ الخاء مع الكسر .



واتخاذہ آبنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بأمرأة يُحِبُّ على باب فسطاط فقال : " لعنہ يريد أن يلتمس بها " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد هممت أن ألعنہ لعنًا يدخل معه قبره كيف يُورثه وهو لا يحل له كيف يستخدمه وهو لا يحل له " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ) قد مضى الكلام فيه في الأنعام .

قوله تعالى : ( وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ) . فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا ) أى بغير سبب يوجب القتل . ( فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ ) أى لمسيح دمه . قال ابن خُوَيْرِ مَنَاد : الولي يجب أن يكون ذكراً ؛ لأنه أفرد بالولاية بأفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى : « فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولي ، فلا يحرم ، ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر

( ١ ) قوله : « أتى بأمرأة » أى مر عليها في بعض أسفاره . و « المحب » ( بضم مضموه وجمع مكسورة وحاء مهملة ) صفة لامرأة ، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال له ... الخ فيه حذف تقديره : فسأل عنها فقالوا أمة فلان ؛ أى مسيئة . ومعنى « يلتمس بها » : أى يطلبها . وكانت حاملاً مسبية ، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف يورثه ... » معناه : أنه قد تأخر ولادتها ستة أشهر ، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى ، ويحتمل أنه كان من قبله ، فعل تقدير كونه من السابى يكون ولداً له ، ويوارثان . وهل تقدير كونه من غير السابى لا يوارثان حسو ولا السابى لعدم القرابة ، بل له استثناء ، لأنه مملوك . فتقدير الحديث : أنه قد يستلحقه ويجمعه أبنا له ويورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه ، ولا يحل توريثه ومزاجته لياق الورثة . وقد يستخدمه المبيد ويجمعه بهذا بملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه إذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الاستئذان من وطئها خوفاً من هذا المخطور . ( راجع شرح النورى على صحيح مسلم ، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية ) .

( ٢ ) راجع ج ٧ ص ١٣٠ .

لَعَفْوِهَا ، وليس لها الاستيفاء . وقال المخائف : إن المرادها هنا بالولى الوارث ؛ وقد قال تعالى : «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ» <sup>(١)</sup> ، وقال : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِّنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِن شَيْءٍ» ، وقال : «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» فاقضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة ؛ وأما ما ذكره من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه ، وتمتته في كتب الخلاف . (سُلْطَانًا) أى تسليطاً إن شاء قتل وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية ؛ قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعى . وقال ابن وهب قال مالك : السلطان أمر الله . ابن عباس : السلطان المحجة . وقيل : السلطان طلبه حتى يدفع إليه . قال ابن العربى : وهذه الأقوال متقاربة ، وأوضحها قول مالك : إنه أمر الله . ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصاً فاختلف العلماء فيه ؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبو حنيفة : القتل خاصة . وقال أشهب : الأخيرة ؛ كما ذكرنا آنفاً ، وبه قال الشافعى . وقد مضى في سورة «البقرة» <sup>(٢)</sup> هذا المعنى .

الثانية — قوله تعالى : (فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) فيه ثلاثة أقوال : لا يقتل غير قاتله ؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبیر . الثانى — لا يقتل بدل وإيه اثنين كما كانت العرب تفعله . الثالث — لا يمثل بالقاتل ؛ قاله طلق بن حبيب ، وكله مراد لأنه إسراف منهى عنه . وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفى . وقرأ الجمهور «يُسْرِفُ» بالياء ، يريد الولي ، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائى «تسرف» بالياء من فوق ، وهى قراءة حذيفة . وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال : هو للقاتل الأول ، والمضى عندنا فلا تسرف أيها القاتل . وقال الطبرى : هو على معنى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده . أى لا تقتلوا غير القاتل . وفى حرف أبي «فلا تسرفوا في القتل» .

(٢) فى ج : أظهرها .

(١) راجع ج ٨ ص ٢٠٢ وص ٥٥٥ وص ٥٨ .

(٣) راجع ج ٢ ص ٢٤٤ فابعد .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ أى مُعَانَا : يعنى الولى . فإن قيل : وكم من وليٍّ مخذول لا يصل إلى حقه . قلنا : المعونة تكون بظهور المجبة تارة وباستيفائها أخرى ، ويعمومها ثالثة ، فأَيُّهَا كَانَ فهو نصر من الله سبحانه وتعالى . وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه في قراءة أبي « فلا تسرفوا في القتل إن وليّ المقتول كان منصورا » . قال النحاس : الأبين بالياء ويكون للولى ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل ، فهذا للولى . وقد يجوز بالتاء ويكون للولى أيضا ، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هذا أول ما نزل من القرآن في شأن القتل ، وهى مكبة <sup>(۱)</sup> .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٢٤﴾  
فيه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾  
قد مضى الكلام فيه في الأنعام <sup>(۲)</sup> .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع <sup>(۳)</sup> . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد . ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ عنه ، مخفف ؛ كقوله : « وَيَقْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ <sup>(۴)</sup> » به وقيل : إن العهد يسأل تبكيئا لناقضه فيقال : لم نقضت ؟ كما تسأل المؤودة تبكيئا لو أئدها <sup>(۵)</sup> .

قوله تعالى : وَأَوْفُوا بِالْكِلِّ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ  
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾

(۱) المروى عن الحسن أنها مدنية كما في الألوس . وهو المتبادر لأنها من الأحكام .  
(۲) راجع ج ۷ ص ۱۳۰ . (۳) راجع ج ۱ ص ۳۲۲ . (۴) راجع ج ۱۸ ص ۱۹۶ .  
(۵) راجع ج ۱۹ ص ۲۳۰ فابعد .

فيه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ تقدم الكلام فيه أيضا في الأنعام .<sup>(١)</sup>  
وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقد مضى في سورة « يوسف »<sup>(٢)</sup> فلا معنى للإعادة .  
وَالْقُسْطَاسِ ( بضم القاف وكسر ها ) : الميزان بلغة الروم ؛ قاله ابن عُزَيْر . وقال الزجاج :  
القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهد : القسطاس العدل ، وكان يقول :  
هي لغة رومية ، وكان الناس قبل لهم : زَنُوا بِمَعْدِلِهِ فِي وَزْنِكُمْ . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع  
وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر « الْقُسْطَاسِ » بضم القاف . وحزمة والكسائي وحفص عن  
عاصم [ الْقُسْطَاسِ ] ( بكسر القاف ) وهما لغتان .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وفاء الكيل وإقامة الوزن  
خير عند ربك وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة . قال الحسن : ذكر لنا أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعُ له ليس لديه إلا مخافة الله تعالى  
إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » .

قوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ  
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم ولا يمينك . قال قتادة :  
لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم ؛ وقاله ابن عباس  
رضي الله عنهما . قال مجاهد : لا تَدْتَمُ أحدا بما ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله  
عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هي شهادة الزور . وقال القتبي : المعنى لا تتبع الحدس

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٥٤ .

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٠ .

(٤) في ج : عند الله .

(٣) في أرحه وروى : بمعدلة وفي ج بمعدله .

والظنون ؛ وكلها متقاربة . وأصل القَفْوُ البُهْتُ والغَدْفُ بالباطل ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : ” نحن بنو النضر بن كنانة لا تَقْفُوا أَمَنَا ولا نَنْتَفِي من أَيْدِينا “ اى لا تَسُبُّ أَمَنَا . وقال الكُتَيْبُ : —

فلا أرمى البرىء بغير ذنب \* ولا أَقْفُو الحِصَاصِ إن قُفِينَا  
يقال : قَفَوْتُهُ أَقْفُوهُ ، وقَفَيْتُهُ أَقْفُوهُ ، وقَفَيْتُهُ إِذَا اتَّبَعْتَ أثره . ومنه القافاة لتبعيةهم الآثار وقافية كلِّ شيء آخره ، ومنه قافية الشعر ؛ لأنها تقفو البيت . ومنه أَسَمُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْمُقَفَّى ؛ لأنه جاء آخر الأنبياء . ومنه القائف ، وهو الذى يتبع أثر الشَّبه . يقال : قَافَ القائف يقوف إذا فعل ذلك . وتقول : قَفَوْتُ الأثر ، بتقديم الفاء على القاف . ابن عطية : ويشبه أن يكون هذا من تلعب العرب فى بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمَلِي فى لَعَمَرِي . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت ؛ قفا وقاف ، مثل عنا وعات ، وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثلُ جَبَدَ وجَدَّ . وبالجمله فهذه الآية تنهى عن قول الزور والغدْف ، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي « تَقَفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والفأد » بفتح الفاء ، وهى لغة لبعض الناس ، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

الثانية — قال ابن خُوَيْرٍ مَنَاد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافاة ؛ لأنه لما قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلَّ على جواز ما لنا به علم ، فكما ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخِرْص ؛ لأنه ضرب من غلبة الظن ، وقد يُسَمَّى علما آنساعا . فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفرس بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على مسرورا تبرق أسارى وجهه فقال : ” أَلَمْ تَرَى أَن مُجَزَّأَ نَظَرَ إِلَى زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُءُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا فَقَالَ إِنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأَقْدَامِ لَمَنْ بَعْضٌ “ . وفى حديث يونس بن يزيد : ” وَكَانَ مُجَزَّأَ قَائِفًا “ .

(۱) فى الشواذ : القواد بفتح الفاء والوار . والجراح قاضى البعرة .



الثالثة — قال الإمام أبو عبد الله المازري : كانت الجاهلية تقسح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح ، قال القاضي عياض : وقال غير أحمد كان زيد أزهر اللون ، وكان أسامة شديد الأدمة ؛ وزيد بن حارثة عربي صريح من كلب ، أصابه سباء ، حسباً يأتي في سورة « الأحزاب <sup>(١)</sup> » إن شاء الله تعالى .

الرابعة — استدّل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد ؛ بمرور النبي صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف ؛ وما كان عليه السلام بالذي يُسرّ بالباطل ولا يعجبه ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم متمسكين بما لعنه النبي صلى الله عليه وسلم الشبه في حديث اللعان ؛ على ما يأتي في سورة « النور <sup>(٢)</sup> » إن شاء الله تعالى .

الخامسة — واختلف الآخذون بأقوال القافة ، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء ، على قولين ؛ فالأول — قول الشافعي ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه ، ومشهور مذهبه قصره على ولد الأمة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعي رضي الله عنه ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر ، فإن أسامة وأباه حرّان فكيف يلتقي السبب الذي تُخرج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه ، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء ، هل يكفي بقول واحد من القافة أو لا بُدّ من اثنين لأنها شهادة ؛ وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه . وبالثاني قال مالك والشافعي رضي الله عنهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما أفكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : « كلّكم راعٍ وكلّكم مسئول عن رعيته »

(١) راجع ج ١٤ ص ١١٨ . (٢) راجع ج ١٢ ص ١٩١ .

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكيف نه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولاً ، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول أبلغ في الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزي ؛ كما قال : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ نُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ <sup>(۱)</sup> » ، وقوله : « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(۲)</sup> » . وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسئولة ، فهي حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى : « رَأَيْتُمْ لِي سَاجِدِينَ » : إنما قال : « رَأَيْتُمْ <sup>(۳)</sup> » في نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل ؛ وقد تقدم . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبري :

دُمُ المنازل بعد منزلة اللّوى \* والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَا تَبْلُغَ أَجْحَبَالَ طُولًا <sup>(۴)</sup> كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا <sup>(۵)</sup> فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ) هذا نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . والمرح : شدة الفرح . وقيل : التكبر في المشي . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء في المشي . وقيل : هو البطر والأثر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففي الحديث الصحيح " لله أفرح بتوبة العبد من رجل ... " الحديث . والكل

(۲) راجع ج ۹ ص ۱۲۲ .

(۱) راجع ج ۱۵ ص ۴۸ ، ص ۳۴۹ .

مذموم شرعاً والذشاط ضده . وقد يكون التكبر وما في معناه محموداً ، وذلك على أعداء الله والظلمة . أسند أبو حاتم محمد بن حبان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” مِنْ الْغَيَرَةِ مَا يَبْغِضُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَمِنْ الْخِيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يَبْغِضُ اللَّهُ فَمَا الْغَيَرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ الْغَيَرَةُ فِي الدِّينِ وَالْغَيَرَةُ الَّتِي يَبْغِضُ اللَّهُ الْغَيَرَةُ فِي غَيْرِ دِينِهِ وَالْخِيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ اخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَعِنْدَ الصَّدَقَةِ وَالْاخْتِيَالُ الَّذِي يَبْغِضُ اللَّهُ الْخِيَلَاءُ فِي الْبَاطِلِ “ وأخرجه أبو داود في مصنفه وغيره . وأنشدوا :

ولاتمش فوق الأرض إلا تواضعاً \* فكف تحتها قومٌ همومك أرفعُ  
وإن كنت في عزٍّ وحرزٍ ومنعةٍ \* فكف مات من قومٍ همومك أمتعُ

الثانية — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفعاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية ، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى . وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه ، يُحِمُّ فيها نفسه في التطريح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر ، كقراءة علم أو صلاة ، فليس بداخل في هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَرَحًا ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل . والأول أبلغ ، فإن قولك : جاء زيد ركضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضاً ؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ يعني لن نتوَّجَ باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أي لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . ويقال : خرق الثوب أي شقه ، وخرق الأرض قطعها . والخرق : الواسع من الأرض . أي لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعظمتك ، أي بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ ، بل أنت عبد ذليل ، محاط بك من تحتك ومن فوقك ، والمحاط محصور ضعيف ؛ فلا يليق بك

التكبر . والمراد بنحرق الأرض هنا تقهبا لا قطعها بالمسافة ؛ والله أعلم . وقال الأزهري : معناه ان تقطعها . النحاس : وهذا أئين ؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة . ويقال : فلان أحرق من فلان ، أى أكثر سفرا وعزلة ومنعة . ويروى أن سبأ دَخَجَ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسَهَلًا وجبلا ، وقتل سادة وسي - وبه سُمِّيَ سبأ - ودان له الخلق ، فلما رأى ذلك اتفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إني لما نلت ما لم ينل أحد رآيت الابتداء بشكر هذه النعم ، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت ، فسجدوا لها ، وكان ذلك أوَّلَ عبادة الشمس ؛ فهذه عاقبة الخبيلاء والتكبر والمرح ، نعوذ بالله من ذلك .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ « ذَلِكَ » إشارة إلى جملة ما تقدم ذكره مما أمر به ونهى عنه . و « ذلك » يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر . وقرأ عاصم وآبن عامر وحزمة والكسائي وممروق « سَيِّئُهُ » على إضافة سيئ إلى الضمير ، ولذلك قال : « مَكْرُوهًا » نصب على خبر كان . والسيئ : هو المكروه ، وهو الذي لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية من قوله : « وَقَضَىٰ رَبِّيْ - إلى قوله - كَانَ سَيِّئُهُ » مأمورات بها ومنهيات عنها ، فلا يخبر عن الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهى عنه . واختار هذه القراءة أبو عبيد . ولأن في قراءة أبي . « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَاتِهِ » فهذه لا تكون إلا للإضافة . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « سَيِّئَةً » بالتنوين ؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة . وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله : « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » ثم قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ، « وَلَا تَمْنَحْ » ، ثم قال : « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً » بالتنوين . وقيل : إن قوله : « وَلَا تَقْفُوا أَوْلَادَكُمْ » إلى هذه الآية كان سيئة لا حسنة فيه ، فجعلوا « كلا » محيطا بالمنهى عنه دون غيره . وقوله : « مَكْرُوهًا » ليس نعتا لسيئة ، بل هو بدل منه ؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروها . وقد قيل : إن « مَكْرُوهًا » خبر ثان لكان حمل على لفظة كل ، و « سيئة » محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل . وقال بعضهم : هو نعت لسيئة ؛ لأنه لما كان (۱) في جري : كأنه .

تأنيهاً غير حقيقٍ جاز أن توصف بمذكر . وضعف أبو على الفارسيّ هذا وقال : إن المؤنث إذا ذكر فلانما ينبغي أن يكون ما بعده مذكراً ، وإنما التسهيل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر ، ألا ترى قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها \* ولا أرض أبقل إبقالها

مستقبح عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو على : ولكن يجوز في قوله : « مَكْرُوهًا » أن يكون بدلا من « سيئة » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذي في « عِنْدَ رَبِّكَ » ويكون « عِنْدَ رَبِّكَ » في موضع الصفة لسيئة .

الخامسة - استدلل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قد نصّ القرآن على النهي عن الرقص فقال : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » وذم الختال . والرقص أشد المرح والبطر . أولسنا الذين قسنا التبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر ، فما بالناس لا يقيس القضيبي وتاحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما . فما أفصح من ذى الحية ، وكيف إذا كان شبيهة ، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان ، وخصوصا إن كانت أصوات لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى التدارين ، يَشْمُسُ<sup>(١)</sup> بالرقص شمس البهائم ، ويصفق تصفيق النسوان ، و[الله] لقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سن من التبسّم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : ولقد حدثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنه قال : الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا بالأمب . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان في « الكهف »<sup>(٢)</sup> وغيرها إن شاء الله تعالى .

(١) شمس الدابة شردت وجمعت . (٢) من جرى . (٣) راجع ص ٣٦٥ من هذا الجزء .

(٤) راجع ج ١٤ ص ٥١ فما بعد .



قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ  
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٩﴾

الإشارة بـ « ذَٰلِكَ » إلى هذه الآداب والفصوص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام . أى هذه من الأفعال المحمكة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عبادته ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحمكة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله : « وَلَا تَجْعَلْ » على ما تقدم من النواهي . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر . والمدحور : المهان المبعد المقصي . وقد تقدم في هذه السورة <sup>(١)</sup> . ويقال في الدعاء : اللهم أذر عنا الشيطان ؛ أى أبعد .

قوله تعالى : أَفَأَصْفَقُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا  
إِنَّمَا لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾

هذا يرّد على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضا مع البنين ، ولكنه أراد : أفاخلص لكم البنين دونهم وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه . ﴿ إِنَّمَا لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أى في الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ  
إِلَّا نُفُورًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أى بينا . وقيل : كَرَّرْنَا . ( فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ ) قيل : « في » زائدة ، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن ؛ مثل : « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » أى أصلح ذريتي . والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغايرة ؛ أى غايرنا بين المواظ لِيَذَّكَّرُوا ويعتبروا ويتعظوا . وقراءة العامة « صَرَّفْنَا »

بالتشديد على التكرير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله : « فِي هَذَا الْقُرْآنِ »  
يعنى الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال التعلبي : سمعت أبا القاسم  
الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبى الطيب : لقوله تعالى : « صرنا » معنيان ؛ أحدهما  
لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومُحْكَمًا ومتشابهًا ونهيا وأمرًا وناسخًا ومنسوخًا وأخبارا  
وأمثالا ؛ مثلُ تصرف الرياح من صَبًا ودُبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي  
والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثاني أنه لم يزل مرة واحدة  
بل نجوما ؛ نحو قوله : « وَقُرْآنًا فُرْقَانَهُ » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك .  
﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ قراءة يحكي والأعمش وحزة والكسائي « لِيَذْكُرُوا » مخففاً ، وكذلك في الفرقان  
« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا » . الباقر بالتشديد . واختاره أبو عبيد ؛ لأن معناه لِيَذْكُرُوا  
وليتعظوا . قال المهدوي : من شدد « لِيَذْكُرُوا » أراد التذبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُرُوا » .  
ونظير الأول . « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » والثاني — « وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ » .  
﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أى التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نَقُورًا ﴾ أى تباعدا عن الحق وغفلة عن  
النظر والاعتبار ؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَتَّبِعُوا  
إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾  
قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ  
إِلَهًا آخَرَ » وهو رد على عباد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون »  
بالياء . الباقر « تقولون » بالناء على الخطأ . ﴿ إِذَا لَا يَتَّبِعُوا ﴾ يعنى الآلهة . ﴿ إِلَى ذِي  
الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل  
ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سعيد بن جبیر رضى الله تعالى عنه : المعنى إذا لطلبوا

(١) راجع ص ١٣٩ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٣ ص ٥٧ وص ٢٩٤ فابعد .

(٣) راجع ج ١ ص ٤٣٦ .

طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهم شركاؤه . وقال قتادة : المعنى إذا لَبَّثْتَ  
الآلهة القُربة إلى ذى العرش سبيلاً ، والتمست الرُّقة عنده لأنهم دونه ، والقوم اعتقدوا أن  
الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، فإذا اعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد  
بطل أنها آلهة . ( سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ) نزه سبحانه نفسه وقدسه ومجده  
عما لا يليق به . والتسبيح : التنزيه . وقد تقدّم<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ  
مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ  
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ( تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ) أعاد على السموات  
والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : « وَمَنْ فِيهِنَّ »  
يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها فى قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ  
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هذا العموم ، هل هو مخصص أم لا ؟ فقالت فرقة :  
ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل  
خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شئ على العموم يسبح تسبيحا  
لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا  
مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقهه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لَا تَفْقَهُونَ »  
الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء . وقالت  
فرقة : قوله : « مِنْ شَيْءٍ » عموم ، ومعناه الخصوص فى كل شئ ونام ، وليس ذلك فى الجمادات .  
ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا تسبح . وقال يزيد الرقاشى للحسن وهما  
فى طعام وقد قدّم الخوان : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة ؛  
يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح ، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا .

قلت : ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ على قبرين فقال : ”لإنهما ليُعَذَّبَانِ وَيُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَبِرُّ مِنَ الْبَوْلِ“ قال : فدعا بعسيب رطب فشقه أثنين ، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : ”لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا“ . ف قوله عليه الصلاة والسلام . ” ما لم ييبسا “ إشارة إلى أنهما ما دامَا رطبين يسبحان ، فإذا يبسا صارا جمادا . والله أعلم . وفي مسند أبي داود الطيالسي : فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال : ” لعله أن يتون عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء “ . قال علمائنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هذا المعنى في ( كتاب التذكرة ) بيانا شافيا ، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهدى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثاني لايحتاج إلى ذلك ؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : <sup>(١)</sup> «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا نَنْخَرُجُكَ الْجَبَلُ مَعَهُ يُسَبِّحُنَا بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ» ، وقوله : <sup>(٢)</sup> «وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» — على قول مجاهد — ، وقوله : <sup>(٣)</sup> «وَنَخْرِجُ الْجِبَالَ هَذَا . أَنَّ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَذًا» . وذكر ابن المبارك في ( دقائقه ) أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان ، هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سرَّبه . ثم قرأ عبد الله : <sup>(٤)</sup> «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا» الآية . قال : أفترأى يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه ، هل مرَّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك ؟ فإن قالت لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأيت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

(١) راجع ج ١٥ ص ١٥٨ فابعد . (٢) راجع ج ١ ص ٦٢ فابعد . (٣) راجع ج ١١ ص ١٥٥ فابعد .

الله عليه وسلم : " لَا يَسْمَعُ صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ حِينَ لَا إِنْسَ وَلَا شَجَرَ وَلَا حَجَرَ وَلَا مَدَرَ وَلَا شَيْءَ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطنه من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه . ونحو البخارى عن عبد الله رضى الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفي صحيح مسلم عن جابر ابن سمرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن " . قيل : إنه الحجر الأسود ، والله أعلم . والأخبار في هذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جملة منها في اللؤلؤية في شرح العشرنيات النبوية للفاداري رحمه الله ، وخبر الحُدُوع أيضا مشهور في هذا الباب نحوه البخارى في مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجادات ، ولا استحالة في شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للمعوم . وكذا قال النخعي وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صيرير الباب . واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا . وقيل : تسبيح الجادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تَأْتِي بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حَيْثُ مَا انْصَرَفَتْ \* وَتَسْتَقِرُّ حَشَا الرَّاى بِتَرْغَادٍ

أى يقول من رآها : سبحان خالقها . فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فإى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصت السنة على ما دلّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمة والكسائي وخلف « تفقهون » بالثاء لتأنيث الفاعل . الباقر بالباء ، واختاره أبو عبيد ، قال : للماثل بين الفعل والتأنيث . ( إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ) عن ذنوب عباده في الدنيا . ( غَفُورًا ) للمؤمنين في الآخرة .



قوله تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٥٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » <sup>(١)</sup> أَقْبَلْتُ الْعَوْرَاءُ أُمُّ حَبِيلَ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلَوْلَةٌ فِي يَدِهَا فَهَرَوِي تَقُولُ :  
\* مُدْمِمًا عَصِينَا \* وَأَمْرَهُ أَبِينَا \* وَدِينَهُ قَلِينَا \* <sup>(٢)</sup>

والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه ؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها لن تراني " وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال ، وقرأ : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا » . فوفقت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر ، أخبرت أن صاحبك هجاني ! فقال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . قال : فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أني أبنه سيدها . وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : لما نزلت « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتُ عنها لثَلَا تُسْمِعَكَ ما يؤذيك ، لأنها امرأة بذية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره . فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك ! فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنا لك لمصدقته ؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أما رأيتك ؟ قال : " لا . ما زال ملك يني وبينها يسترنني حتى ذهبت " . وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف . « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » <sup>(٣)</sup> والآية التي في النحل

(١) راجع ج ٢٠ ص ٢٣٤ . (٢) الفهر (بالكسر) : المجرمل الكف . وقيل : هو المجرم مطلقا .

(٣) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام . والذي في نسخ الأصل : مَدْمِمًا أَبِينَا \* وَدِينَهُ قَلِينَا

(٤) راجع ج ١١ ص ٤ فـ١ بعد .

«أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَتَمَعَتْهُمُ أَبْصَارُهُمْ» ، والآية التي في الجاثية <sup>(۲)</sup> . «أَقْرَأْتَ يَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» الآية <sup>(۳)</sup> . فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين ، قال كعب رضي الله تعالى عنه :  
 خذت بين رجل من أهل الشام ، فأتى أرض الروم فأقام بها زمنا ، ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه فقرأ بين فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه <sup>(۴)</sup> . قال الثعلبي : وهذا الذي يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الرى فأسر بالدلم ، فكثرت زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا في طلبه فقرأ بين حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه .

قلت : ويزاد إلى هذه الآي أول سورة يس إلى قوله : «فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» <sup>(۵)</sup> . فإن في السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام على رضي الله عنه في فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : «يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَتَرَى الْغَنَازِ الرَّحِيمِ . - إلى قوله - وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد أنفق لي ببلادنا الأندلس بحصن مشهور من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أني هربت أمام العدو وأخبرت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يستترني عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا واحدهما يقول للآخر : هذا ديبله ؛ يعنون شيطانا . وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيل : الحجاب

(۱) راجع ص ۱۹۱ من هذا الجزء . (۲) في أوردوى : الشربة . وهي من أسماء الجاثية .  
 (۳) راجع ص ۱۶ ص ۱۶۶ فابعد . (۴) في أوردوى : «الكلبي» . (۵) راجع ص ۱۵ ص ۹ .  
 (۶) كذا في الأصول . (۷) لفظة فرانسوية ، معناها : جنبي . ولعله كذلك في لغة اللاتين .

المستور طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة ؛ قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءة تلك وتغافلهم عنك كن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن ، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحويطب ؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمزون به ولا يرونه ؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأول بعينه ، وهو الأظهر في الآية ، والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُورًا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثاني — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه ؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ) ﴿١﴾ « أَكِنَّة » جمع كنان ، وهو ماستر الشيء . وقد تقدم في « الأنعام » . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى لئلا يفقهوه ، أو كراهية أن يفقهوه ، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني . وهذا رد على القدرة ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى صما ونقلا . وفي الكلام إضمار ، أى أن يسمعوه . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله : ليس شيء أظرد للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله ، ثم تلا : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا » . وقال علي بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا في البسملة . ﴿ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴾ قيل : يعنى بذلك المشركين . وقيل : الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر ؛ مثل شهود جمع شاهد ، وقعود جمع قاعد ، فهو منصوب على الحال . ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر ؛ إذ كان قوله : « وَلَوَّا » بمعنى نفروا ، فيكون معناه نفروا نفورا .

(١) راجع ج ٦ ص ٤٠٤ . (٢) في ج : يرد . (٣) راجع ج ١ ص ٩ فابعد .

قوله تعالى : **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة في قوله : « به » أى يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره . ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أى متناجون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وأنه ساحر وأنه يأتى بأساطير الأولين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عبثة أشراف قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك على ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد ، وقال : « قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم » فأبوا ، وكانوا يستمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فزلت الآية . وقال الزجاج : النجوى اسم للصدر ؛ أى وإذ هم ذو نجوى ، أى سرار . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أى مطبوعاً قد خبله السحر فاخناط عابه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مَسْحُورًا » أى مخدوعاً مثل قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »<sup>(١)</sup> أى من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : « مَسْحُورًا » معناه أن له سحراً ، أى رئة ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بملك . وتقول العرب للبيان : قد انتفخ سحره . ولكل من أكل من آدمى وغيره أو شرب مسحور ومسحور . قال لييد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا \* عصافير من هذا الأنام المسحور

وقال امرؤ القيس :

أرانا مَوضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ \* وَنُسَحَرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

أَيُّ نَغْدَى وَنُعَلَلٍ . وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : مَنْ هَذِهِ الَّتِي تُسَامِنِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ تَوَقَّعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ تَخْرِي وَتَخْرَى .

قوله تعالى : أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

سَبِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ عَجَبَهُ مِنْ صَنَعِهِمْ كَيْفَ يَقُولُونَ تَارَةً سَاحِرًا وَتَارَةً مَجْنُونًا وَتَارَةً شَاعِرًا . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ حِيلَةٍ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْكَ . وَقِيلَ : ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَجِدُونَ سَبِيلًا ، أَيُّ إِلَى الْهُدَى . وَقِيلَ : مَخْرَجًا لِتَنَاقُضِ كَلَامِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : مَجْنُونٌ ، سَاحِرٌ ، شَاعِرٌ .

قوله تعالى : وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا

جَدِيدًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفَاتًا ﴾ أَيُّ قَالُوا وَهُمْ يَتَنَاجَوْنَ لِمَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَسَمِعُوا أَمْرَ الْبَعْثِ : لَوْلَمْ يَكُنْ مَسْحُورًا مَخْدُوعًا لِمَا قَالَ هَذَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الزَّفَاتُ الْفُجَارُ . مُجَاهِدٌ : التَّرَابُ . وَالزَّفَاتُ مَا تَكَسَّرَ وَبَلَّى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، كَالْفَتَاتِ وَالْحُطَامِ وَالرُّضَاضِ ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيِّ وَالْقُرَّاءِ وَالْأَخْفَشِ . يَقُولُ مِنْهُ : رُفِتَ الشَّيْءُ رُفَاتًا ، أَيُّ حُطِمَ ، فَهُوَ مَرْفُوتٌ . ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ « إِنَّا » اسْتَفْهَامٌ وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَجْدُ وَالْإِنْكَارُ وَ« خَلْقًا » نَصَبٌ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ ، أَيُّ بَعَثًا جَدِيدًا . وَكَانَ هَذَا غَايَةَ الْإِنْكَارِ مِنْهُمْ .

(١) أَوْضَعَ الرَّجُلُ فِي السَّبْرِ إِذَا أَمْرَعُ . وَقَوْلُهُ : « لِأَمْرِ غَيْبٍ » يَرِيدُ الْمَوْتَ وَأَنَّهُ قَدْ غِيبَ عَنْهُ وَنَحْنُ نَأْهِي عَنْهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . (٢) تَرِيدُ أَنَّهُ مَاتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُسْتَدِلٌّ إِلَى صَدْرِهِ وَمَا يَجَازِي سَمْعَهَا رَهُوَ (الرَّيَّةُ) .



قوله تعالى : قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ  
فِي صُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ  
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز  
حجارة أو حديدًا في الشدة والقوة . قال الطبري : أى إن عجبت من إنشاء الله لكم عظاما  
ولما تكونوا أتم حجارة أو حديدًا إن قدرتكم . وقال علي بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة  
أو حديدًا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم ؛ إلا أنه نخرج نخرج الأمر ، لأنه أبلغ في الإلزام .  
وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعادكم كما بدأكم ، ولأما نكم ثم أحياكم . وقال مجاهد :  
المعنى كونوا ما شئتم فستعادون . النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا  
حجارة ، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث ف قيل لهم استشعروا أن تكونوا  
ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدًا لبعثنكم كما خلقتم أول مرة . ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُورِكُمْ ﴾  
قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس . وهو معنى قول قتادة .  
يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يبعثكم ثم يبعثكم . وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن  
عمر بن العاص وابن جبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه  
ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه ؛ قال أمية بن أبي الصلت :

• وَلِلْمَوْتِ خَلْقٌ فِي النَّفُوسِ فَظَلِيع •

يقول . إنكم لو خلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميننكم ولا بعثنكم ؛ لأن القدمرة  
التي بها أنشأكم بها نعيدكم . وهو معنى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ  
مَرَّةٍ ﴾ . وفي الحديث أنه ” يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة  
والنار “ . وقيل : أراد به البعث ؛ لأنه كان أكبر في صدورهم ؛ قاله الكلبي . « فَطَرَكُمْ »  
خلقكم وأنشأكم . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى يحركون رؤوسهم استهزاء ؛ يقال :

نَفَضَ رَأْسَهُ يَنْفُضُ وَيَنْفِضُ نَفْضًا وَنَفْضًا أَي تَحْرُكُ. وَأَنْفَضَ رَأْسَهُ أَي حَرَكَهُ، كَالْمُعْجَبِ  
 مِنَ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾.  
 قَالَ الرَّاجِزُ:

\* أَنْفَضَ نَحْوَى رَأْسِهِ وَأَفْنَعَا <sup>(١)</sup> \*

وَيُقَالُ أَيْضًا: نَفَضَ فُلَانٌ رَأْسَهُ أَي حَرَكَهُ يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى، حَكَاهُ الْأَخْفَشُ. وَيُقَالُ:  
 نَفَضْتُ سَنَةً أَي تَحَرَّكَتْ وَانْقَلَعَتْ.

قَالَ الرَّاجِزُ: \* وَنَفَضْتُ مِنْ هَرَمِ أَسْنَانِهِ \*

وَقَالَ آخَرُ: \* لَمَّا رَأَيْتِي أَنْفَضْتُ لِي الرَّاسَا \*

وَقَالَ آخَرُ:

لَا مَاءَ فِي الْمَقْرَةِ إِنْ لَمْ تَنْفِضْ \* بِمَسِّدٍ فَوْقَ الْحَالِ النَّفْضِ

الْحَالُ وَالْحَالَةُ: الْبَكْرَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يَسْتَقِي بِهَا الْإِبِلُ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أَي الْبَعْثُ  
 وَالْإِعَادَةُ وَهَذَا الْوَقْتُ. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أَي هُوَ قَرِيبٌ لِأَنَّهُ عَسَى وَاجِبٌ  
 نَظِيرُهُ: «وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا» <sup>(٢)</sup> و «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» <sup>(٣)</sup>. وَكُلُّ مَا هُوَ  
 آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ الدَّعَاءُ: النَّدَاءُ إِلَى الْمُحْشَرِّ بِكَلَامٍ تَسْمَعُهُ  
 الْخَلَائِقُ، يَدْعُوهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِالْخُرُوجِ. وَقِيلَ: بِالصَّبِيحَةِ الَّتِي يَسْمَعُونَهَا فَتَكُونُ دَاعِيَةً  
 لَهُمْ إِلَى الْاجْتِمَاعِ فِي أَرْضِ الْقِيَامَةِ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَاحْسَنُوا أَسْمَاءَكُمْ». ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أَي بِاسْتِحْقَاقِهِ الْحَمْدَ  
 عَلَى الْإِحْيَاءِ.

(١) أَفْنَعَ فُلَانٌ رَأْسَهُ: وَهُوَ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ وَوَجْهَهُ إِلَى مَا خِالَافَ رَأْسَهُ مِنَ الدَّمَاءِ.

(٢) رَاجِعٌ ج ١٤ ص ٢٨٤. (٣) رَاجِعٌ ج ١٦ ص ١٥.

وقال أبو سهل : أى والحمد لله ؛ كما قال :

فإني بحمد الله لا نوب فاجر \* لبستُ ، ولا من غدره أتقنع

وقيل : حامدين لله تعالى بالسنتكم . قال سعيد بن جبير : تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك ؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمد » بأمره ؛ أى تقرون بأنه خالف . وقال قتادة ؛ بمعرفته وطاعته . وقيل : المعنى بقدرته . وقيل : بدعائه إياكم . قال علماؤنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور ؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق ، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قال : فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويحتم به ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » وقال في آخره : « وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (۱) « وَنُظُنُّونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » يعنى بين النفتخين ؛ وذلك أن العذاب يكف عن الممذيين بين النفتخين ، وذلك أربعون عاما فينامون ؛ فذلك : له تعالى : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين جمعة قبل يوم القيامة يمدون فيها طعم النوم ، فإذا صبح بأهل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : « وَنُظُنُّونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة .

قوله تعالى : وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ( وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ) تقدم إعرابه . والآية نزلت في عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم يقتله ، فكادت تثير فتنة فأمر الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . ذكره التلمبي والمأوردي .

(۱) في ج : وسفيان . (۲) راجع ج ۱ ص ۲۸۴ و ص ۲۹ . (۳) راجع ج ۹ ص ۳۶۶ .

وابن عطية والواحدي . وقيل : نزل لما قال المسلمون : لا إذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ؛ فقال : ” لم أؤمر بعد بالقتال “ فأنزله تعالى : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالفهم وهم يعبدون الأصنام ، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد ، أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله ! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد . وقيل : المعنى قل لهم يأمرُوا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه ؛ وعلى هذا تكون الآية عامة فى المؤمن والكافر ، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة ، بحسن الأدب وإلانة القول ، وخفض الجناح وأطراح نزغات الشيطان ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ” وكونوا عباد الله إخوانا “ . وهذا أحسن ، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدم فى آراء الأعراف ويوسف<sup>(١)</sup> . يقال : نزغ بيننا أى أفسد ؛ قاله اليزيدى . وقال غيره : النزغ الإغراء . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ أى شديد العداوة . وتقدم فى البقرة<sup>(٢)</sup> . وفى الخبر ” أن قوما جلسوا بذكرون الله عز وجل بغاء الشيطان ليقطع مجلسهم ففنعته الملائكة بغاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فخرش بينهم فنخاصموا وتواشوا فقال هؤلاء الذاكرون قوما بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان “ . فهذا من بعض مداوته .

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٦٧ .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٤٧ و ٦٠ .

(٣) راجع ج ٢ ص ٢٠٩ .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ( رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ ) هذا خطاب للمشركين ، والمعنى : إن يساء يوفقكم للإسلام فيرحمكم ، أو يمتنكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جريج . و « أعلم » بمعنى علم ، نحو قولهم : الله أكبر ، بمعنى كبير . وقيل : الخطاب للؤمنين ؛ أى إن يساء يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة ، أو إن يساء يعذبكم بتسليطهم عليكم ؛ قاله الكلبي . ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ) أى وما وكلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر .  
ذكرت أبا أروى فبت كائن \* برذ الأمور الماضيات وكل

أى كفيل .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ) أعاد بعد أن قال : « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ » ليبين أنه خالفهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » . وكذا النبؤون فضل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم . وقد مضى القول في هذا في « البقرة » . ( وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ) الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد .  
أى كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى بحمد القرآن . وهو في حاجة اليهود .

قوله تعالى : قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾

(۲) راجع ج ۳ ص ۲۶۱ فاجد .

(۱) راجع ج ۱۸ ص ۲۱۳ .



قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أى ادعوا الذين تعبدون من دونه وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن ، يعنى الملائكة وعيسى وعزير . ابن مسعود : يعنى الجن . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أى القحط سبع سنين ، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْيَاوُا ﴾ من الفقر إلى الفنى ومن السقم إلى الصحة .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أُولَئِكَ » مبتدأ « الَّذِينَ » صفة « أُولَئِكَ » وضهير الصلة محذوف ؛ أى يدعونهم . يعنى أولئك المدعونون . و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر . أو يكون حالا ، و « الَّذِينَ يَدْعُونَ » خبر ؛ أى يدعون إليه عبادا [ أو عبادا ] إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالناء على الخطاب . الباقيون بالياء على الخبر . ولا خلاف فى « يبتغون » أنه بالياء . وفى صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون ، فبقى الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . فى رواية قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و [ الإنس ] الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون ؛ فنزلت : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ » . ومنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل العرب ؛ ذكره الماوردى . وقال ابن عباس ومجاهد : هُزِرَ يروعى . و « يَبْتَغُونَ » يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرعون إلى الله تعالى فى طلب الجنة ، وهى الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبدين يبتغون القربة إلى ربهم . والهاء والميم فى « رَبِّهِمْ » تعود على العابدين أو على المعبدين أو عليهم جميعا . وأما « يَدْعُونَ » فعل العابدين . « وَيَبْتَغُونَ » على المعبدين ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « أَيُّهُمْ أَقْرَبُ »

(١) من جوار .

(٢) زيادة عن صحيح مسلم .

بدلاً من الضمير في «يَتَغَوَّنَ»، والمعنى ينبغي أن يبتغي أقرب الوسيلة إلى الله. (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) أى تخوفاً لا أماناً لأحد منه ، فنبين أن يحذر منه ويخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجع أحدهما بطل الآخر .

قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾  
قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا) أى غربوها . (قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا) قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب . وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم . فقيل : المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ بقوى ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » . أى فليقتل المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب . (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ) أى في اللوح . (مَسْطُورًا) أى مكتوباً . والسطر : الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر . وَالسَّطْرُ بِالتَّحْرِيكِ ، مثله . قال جرير .

مَنْ شَاءَ بَابِعْه مَالِي وَخُلَعَتْهُ • مَا تُكِلُ التَّيْمُ فِي دِيَوَانِهِمْ سَطْرًا

الخلعة « بضم الخاء » : خيار المال . والسطر جمع أسطر ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُحُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(٢) في ديوان جرير : « ما تكمل الخلع »

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٠١ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي افترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل من كان قبلهم . قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما . فأنزل الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً . وقد تقدم في « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصفا ذهباً وتنتجى الجبال عنهم ، فزلب جبريل وقال : « إن شئت كان ما سألت قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يهلكوا وإن شئت استأنيت بهم » . فقال « لا ، بل استأن بهم » . و « أن » الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم ، و « أن » الثانية في محل رفع . والباء في « بِالْآيَاتِ » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين ، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء ، فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه . ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَرَأَيْنَا تُمُودَ النَّافَةِ مُبْصِرَةً ﴾ أي آية دالة مضيئة تيرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدم ذلك . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول — العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للكافرين . الثاني — أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شبيب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب ، لتعبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت الدريع ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ مَّا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ و ج ٩ ص ٦٠ .

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) أي السريع الفناء لا يكاد الناس يتدافتون .

قوله تعالى : (وَلَا تُدْرِكُهُ الْيَدَانِ إِنْ رَأَيْتَ عَبْدًا عَاطًا يَلُتَالِسُ) قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ؛ أى أن الله سيهلكهم . وذكره بلفظ الماضي لتحقيق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى : «عَاطًا يَلُتَالِسُ» أى إحاطت قدرته بهم ، فهم فى قبضته لا يقدرّون على الخروج من مشيئته ؛ قاله مجاهد وابن أبي نجيح . وقال الكلبي : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ؛ أى وما أرسلناك عليهم حفيظا ، بل عليك التبليغ ، فبلغ بجدك فلما نعصمك منهم ونحفظك ، فلا تهمهم ، وأمض لما أمرك به من تبليغ الرسالة . فقدرتنا محبطة بالكل ؛ قال معناه الحسن وعروة وقناة وغيرهم .

قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) لما بين أن إزال آيات القرآن تتضمن التخويف صمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله تعالى : «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» قال هى رؤيا عيسى أُرِيها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس . قال : «وَالشَّجَرَةُ الْمُلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ» هى شجرة الزقوم . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث صحيح . ويقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقناة وسعيد بن جبير والضحاك وابن أبي نجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِيَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ؛ وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحُدُيبِيَّة ، فَرَدَّ فافتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى : «لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ» . وفى هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان يتزوّنون

على منبره نزو القردة، فساء ذلك فقيل : إنما هي الدنيا أعطونا، فسرى عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة. وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه . قال سهل : إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أمية يترون على منبره نزو القردة، فاعتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية بخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنه للناس وامتحانا . وفرا الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية : « وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » <sup>(١)</sup> . قال ابن عطية : وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) فيه تقديم وتأخير، أى ماجعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنه للناس . وفتنتها أنهم لما خوفوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تثبت الشجر والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه : تزقوا . وقد قيل : إن القائل مانع الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزبعرى حيث قال : كثر الله من الزقوم في داركم، فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنه واختبارا ليكفر من سبق عليه الكفر ويصدق من سبق له الإيمان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق . فقيل له : أنصدقه قبل أن تسمع منه؟ فقال : أين عقولكم؟ أنا أنصدقه بخبر السماء، فكيف لا أنصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير .



قلت : ذكر هذا الخبر ابن إسحاق ، ونصه : « قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبدالله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقائدة وغيرهم من أهل العلم وأُمّ هانئ بنت أبي طالب ، ما اجتمع في هذا الحديث ، كُلُّ يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به صلى الله عليه وسلم ، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعالى حل يقين ، فأسرى به صلى الله عليه وسلم كيف شاء وكما شاء لِرَبِّهِ من آياته ما أراد ، حتى ما ين ما عين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول : أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهو الدابة التي كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرهما في منتهى طرفها - فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى آتته إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آتية : إناء فيه لبن وإناء فيه نحر ، وإناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فسمعت قائلا يقول حين عُرِضَتْ عليّ إن أخذ الماء ففريق وغرقت أمته ، وإن أخذ النحر ففريق وغرقت أمته وإن أخذ اللبن فهدي وهديت أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هديت وهديت أمتك يا محمد " .

قال ابن إسحاق : وحديث عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا قائم في الحجر جاني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه بخلست فلم أري شيئا ثم عدت لمضجتي بلماني الثانية فهمزني بقدمه بخلست فلم أري شيئا فعدت لمضجتي بجفائي الثالثة فهمزني بقدمه بخلست فأخذ بعضدي فقممت معه نفرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في نخذه جناحان يحفزان بهما رجله يضع حافره في منتهى طرفة فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفتوه " .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن قتادة أنه قال : حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لما دنوت منه لأركبه شمست<sup>(١)</sup> فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال ألا تستحي يا براق مما تصنع فوالله ما ركبك عبد الله قبل محمد أكرم عليه منه ، فاستجيا حتى أرفض عرقاً ثم قرخ حتى ركبته “ .

قال الحسن في حديثه : فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [ جبريل ] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أتى بلاناءين : في أحدهما نحسرو في الآخريين ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لئاء اللبن فشرب منه وترك لئاء النحر . قال : فقال له جبريل : هُذيت الفطرة وهُذيت أمتك وحرمت عليك النحر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غداً على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين ؟ والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام ، مدبرة شهراً ومقبلة شهراً ، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فارتد كثير من كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله إن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال ” نعم “ قال : يا نبي الله ، فصفه لي فإني قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” رفع لي حتى نظرت إليه “ بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله كلما

(١) شمست الذاكرة والفرس شمست : شردت وجمعت ومنعت ظهورها .

وصف له منه شيئا قال: صدقت، أنشهد أنك رسول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : «وأت يا أبا بكر الصديق» فيومئذ معاه الصديق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن الإسلام لذلك : «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيه من حديث قتادة . وذكر باقي الإسراء عن تقدم في السيرة . وقال ابن عباس : هذه الشجرة بنو أمية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نفى الحكم . وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ، إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت في صلبه فانت بعض من لعنة الله . ثم قال : «وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ» ولم يميز في القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوى على الشجر فتقتله ، يعني الكشوث . (وَنُحَوِّفُهُمْ) أى بالزقوم . (فَمَا يَزِيدُهُمْ) التخويف إلا الكفر .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٣٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ بَيْنَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآخُتَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٧﴾ قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) تقدم ذكر كون الشيطان عدو الإنسان ، فأنجز الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذكر بما دى هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى :

(١) هذه عبارة الفخر الرازى . والذي في الأصول : «فأنت قطع من لعنة الله» . والصواب ما في النهاية : فأنت مفض من لعنة الله . أى فلعنة منها .

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (١) أى من طين . وهذا استنهام إنكار . وقد تقدم القول فى خلق آدم فى « البقرة » ، والأنعام » مستوفى . (قَالَ أَرَأَيْتَ) أى قال إبليس . والكاف توكيد للمخاطبة . (هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَى) أى فضّلته على . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدم هذا فى الأعراف (١) . و« هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعت . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضّلته على ، لم فضّلته وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين ؟ لحذف لعلم السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أترى هذا الذى كرمته على لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى : (لَأَحْتَنِكَنَّ) فى قول ابن عباس : لأستولين عليهم . وقاله الفقهاء . مجاهد : لأحتويهم . ابن زيد : لأضلهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنهم . وروى عن العرب : احتك الجراد الزرع إذا ذهب به كله . وقيل : معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث أردت . من قولهم : حنكت الفرس أحنيكه وأحنكه حنكا إذا جعلت فى فيه الزن . وكذلك احتنكه . والقول الأول قريب من هذا ؛ لأنه إنما يأتى على الزرع بالحنك . وقال الشاعر :

أشكوا إليك سنةً قد أجمعت \* جهدا إلى جهد بنا وأضعفت

\* وأحتنكت أموالنا واجتلفت (٢)

(إِلَّا قَلِيلًا) يعنى المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » وإنما قال إبليس ذلك ظنا ، كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « اجْعَلْ فِيهَا مِنْ نَفْسٍ (١) فِيهَا » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزما .

قوله تعالى : قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ

جَزَاءً مَوْفُورًا (٣)

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ و ١٦١ و ج ٧ ص ١٦٨ و ١٧١ .

(٢) أى أذهبت . (٣) راجع ج ١٤ ص ٢٩١ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ ﴾ هذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهدك فقد أنظرتك .  
 ﴿ قَمِينَ تَبِعَكَ ﴾ أى أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أى وافرا ؛  
 عن مجاهد وغيره . وهو نصب على المصدر ، يقال : وفرتة أفره وفرا ، وفقر المال بنفسه  
 يفر وفورا فهو وافر ؛ فهو لازم ومتعة .

قوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ  
 بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ  
 الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٤١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ ﴾ أى استرل واستخف وأصله القطع . ومنه تفزّر  
 الثوب إذا انقطع <sup>(١)</sup> . والمعنى استرله بقطعك إياه عن الحق . واستفزه الخوف أى استخفه .  
 وقعد مستوفزا أى غير مطمئن . « وَاسْتَفْزِزْ » أمر تعجيز ، أى أنت لا تقدر على إضلال أحد ،  
 وليس لك على أحد سلطان فأفعل ما شئت .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛  
 عن ابن عباس . مجاهد : الغناء والمزامير واللهو . الضحاك : صوت المزمار . وكان آدم  
 عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبال ، وولد قابيل أسفله ، وفيهم بنات حسان ، فزمر  
 اللعين فلم يخالكو أن انحدروا فزّنوا ؛ ذكره الفريزى . وقيل : « بِصَوْتِكَ » بوسوستك .  
 الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوقي  
 بجملة من السائق ؛ يقال : أجلب إجلابا . والجلب والجلبة : الأصوات ؛ تقول منه : جلبوا  
 بالتشديد . وجلب الشيء يجلبه جلبًا وجليًا . وجلبت الشيء إلى نفسي وأجلبته بمعنى .  
 وأجلب على العدو إجلابا ؛ أى جمع عليهم . فالمعنى أجمع عليهم كلما تقدر عليه من مكائده .  
 (١) لم نجد في كتب اللغة « تفزّر الثوب » بزيين بهذا المعنى ، وإنما هو « تفزّر » بزي ثم راه . فليلاحظ .



وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيَلِ إبليس ورجاله . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مشى في معصية الله ، وكل مال أصيب من حرام ، وكل ولد بغيته فهو لاشيطان . والرجل جمع راجل ؛ مثل صحب وصاحب . وقرأ حفص « ورجلك » بكسر الجيم وهما لغتان ؛ يقال : رجل ورجل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعة — ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى اجعل لنفسك شركة في ذلك . فشركنه في الأموال إتفاقها في معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيل : هى التى أصابوها من غير حيلها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحترقونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لألهتهم . والأولاد قيل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنه أيضا : هو ما قتلوا من أولادهم وأنوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد الآلات وعبد الشمس ونحوه . وقيل : هو صبغة أولادهم في الكفر حتى هودوهم ونصروهم ، كصنيع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذى لهم ؛ قاله قتادة . وقول خامس — روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يسم أنطوى الجنان على إحليله بجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِئِنُّ<sup>(١)</sup> إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ<sup>(٢)</sup> » وسيأتى . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فيكم مغرّبين » قلت : يا رسول الله ، وما المغربون ؟ قال : « الذين يشترك فيهم الجن » . رواه الترمذى الحكيم ( نوادر الأصول ) . قال الحرّوى : سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذى الحكيم : فللجن مساماة<sup>(٣)</sup> بآدم في الأمور والاختلاط ؛ فمنهم من يتزوج فيهم ، وكانت ياقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجن . وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

(٢) المساماة : المباراة والمفاخرة . مسألة التزواج بين

(١) راجع ج ١٧ ص ١٨٠ و ١٨٨ .  
الإنس والجن لا يفترها العلم . محققه .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَعِذُّهُمْ ﴾ أى منتهى الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فاتم أولى بالجنة من غيركم . يقويه قوله تعالى : « يَـعِـذُّهُمْ وَيَمِـنُّهُمْ وَمَا يَـعِـذُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا »<sup>(١)</sup> أى باطلا . وقيل : « وَعِذُّهُمْ » أى عيدهم النصرة على من أرادهم بسوء . وهذا الأمر للشيطان تهديد ووعد له . وقيل : استخفاف به وبمن آمنه .

السادسة - فى الآية ما يدل على تحريم المزامير والغناء واللهو ؛ لقوله : « وَأَسْتَفِزُّ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ يَصَوْتُكَ وَأَجَابَ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعليه وما يستحسنه فواجب التنزه عنه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : يا نافع ! أسمع ؟ فأقول نعم ؛ فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [ صوت ] زمارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلمهم فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بفناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « لقمان »<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ

وَكَيْلًا ۝٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقدم الكلام فيه . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أى عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعالى : رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكَ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا

مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٣٦﴾

(١) راجع ج ٥ ص ١٢٠ (٢) راجع ج ١٤ ص ٥١ فـ ٥١٠ (٣) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ (١) الإجزاء : السوق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ لَكُمْ سُبَابًا » (٢) وقال الشاعر :

يأيها الراكب المُرْجى مطيته \* سائل بنى أسد ما هذه الصَّوتُ

وإجزاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع ، وقد تقدم . والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غاب هذا الاسم على المشهور . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفصله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ لِيَتَّقُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى فى التجارات . وقد تقدم . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ يُطِئُ فَلَمَّا تَجَسَّصْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (٣)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ « الضُّرُّ » لفظ يعنى خوف الغرق والإمساك عن الجرى ، وأحوال حالته اضطرابه وتوجبه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ ﴾ « ضَلَّ » معناه تَلَفٌ وفَقْدٌ وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلهًا من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلا ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعتها أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظام ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا تَجَسَّصْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أى عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا من عصمه الله ؛ فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا ﴾ (٤)

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٨٧ فا بعد . (٢) هو رو يشد بن كثير الطائي ؛ كما فى اللسان .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٥ ، وص ٤١٣ . (٤) كذا فى الأصول . أى البحر الملح .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ بَيْنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى هَلَاكِهِمْ فِي الْبَرِّ وَإِنْ سَالَمُوا مِنَ الْبَحْرِ . وَالْخَسْفُ : أَنْ تَنْهَارَ الْأَرْضُ بِالشَّيْءِ ؛ يُقَالُ : بَرَّ خَسِيفٌ إِذَا انْهَدَمَ أَصْلُهَا . وَعَيْنٌ خَاسِفٌ أَيْ غَارَتْ حُدُوتُهَا فِي الرَّأْسِ . وَعَيْنٌ مِنَ الْمَاءِ خَاسِفَةٌ أَيْ غَارَ مَآوُهَا . وَخَسَفَتِ الشَّمْسُ أَيْ غَابَتْ <sup>(۱)</sup> عَنِ الْأَرْضِ . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو : وَالْخَسِيفُ الْبُئْرُ الَّتِي تَحْفَرُ فِي الْحِجَارَةِ فَلَا يَنْقَطِعُ مَآوُهَا كَثْرَةً . وَاجْمَعُ خُسْفٌ . وَجَانِبُ الْبَرِّ : نَاحِيَةُ الْأَرْضِ ؛ وَسَمَاءُ جَانِبِهَا لِأَنَّهُ يُصِيرُ بِمَسَدِ الْخَسْفِ جَانِبًا . وَأَيْضًا لِأَنَّ الْبَحْرَ جَانِبُ وَالْبَرَّ جَانِبُ . وَقِيلَ : لِمَنْ كَانُوا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَسَاحِلُهُ جَانِبُ الْبَرِّ ، وَكَانُوا فِيهِ آمِنِينَ مِنْ أَهْوَالِ الْبَحْرِ ، لِحَذَرِهِمْ مَا أَمْنُوهُ مِنَ الْبَرِّ كَمَا حَذَرَهُمْ مَا خَافُوهُ مِنَ الْبَحْرِ . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ بِعَنِي رِيحًا شَدِيدَةً ، وَهِيَ الَّتِي تَتَرَبَّى بِالْحَصْبَاءِ ، وَهِيَ الْحَصَى الصَّغَارُ ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْقَتَنِيُّ . وَقَالَ قَتَادَةُ : بِعَنِي حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ تَحْصِبُهُمْ ، كَمَا نَعْمَلُ بِقَوْمِ لُوطَ . وَيُقَالُ لِلْسَّحَابَةِ الَّتِي تَرْمِي بِالْبَرَدِ : حَاصِبٌ ، وَلِلرَّيْحِ الَّتِي تَحْمِلُ التُّرَابَ وَالْحَصْبَاءَ حَاصِبٌ وَحَصْبَةٌ أَيْضًا . قَالَ ابْنُ أَبِي دُيَّانٍ :

جَرَتْ عَلَيْهَا أَنْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا • أَذْيَالُهَا كُلُّ عَصُوفٍ حَصْبَةٍ

• قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

مُسْتَقْبَلِينَ شَمَالَ الشَّامِ يَضْرِبُنَا • بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْفُطَنِ مَنُثَوِرِ

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ حَافِظًا وَنَصِيرًا يَمْتَنِعُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ .

قوله تعالى : أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿ ٢٩ 〉

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾ بِعَنِي فِي الْبَحْرِ . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾ الْقَاصِفُ : الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَكْسِرُ بِشِدَّةٍ مِنْ قَصَفِ الشَّيْءِ يَقْصِفُهُ ؛ أَيْ كَسَرَهُ بِشِدَّةٍ . وَالْقَصْفُ : الْكُسْرُ ؛ يُقَالُ : قَصَفْتُ الرِّيحَ السَّفِينَةَ . وَرِيحٌ قَاصِفٌ :

(۱) أَوَّلُ أَنْ يُقَالَ : غَابَ نُورُهَا .

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَفَ الرعدُ وغيره قَصِيفًا . والقَصِيف : هشيم الشجر . والتَقَصَّفَ التكسر . والتَقَصَّفَ أيضا : اللهو واللعب ، يقال : إنها مَوْلدة . (فُغِرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ) أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ، «نَحْسِفَ بِكُمْ» «أَوْ نُرْسِلَ عَلَيْكُمْ» «أَنْ نَعِيبَكُمْ» «فَنُرْسِلَ عَلَيْكُمْ» «فَنُغْرِقَكُمْ» بالنون في الحسنة على التعظيم ، ولقوله : «علينا» الباقون بالياء ؛ لقوله في الآية قبل : «إياه» . وقرأ أبو جعفر وشيبة ورؤيس ومجاهد «فَنُغْرِقَكُمْ» بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقنادة «فِغْرِقَكُمْ» بالياء مع التشديد في الراء . وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفي كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكة في البر ، والعاصف المغرقة في البحر ؛ حكاية الماوردي . وقوله : (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) قال مجاهد : ثائرا . النحاس : وهو من النار . وكذلك يقال لكل من طلب بثار أو غيره : تبع وتابع ؛ ومنه «فَاتَّبَعَ<sup>(١)</sup> بِالْمَعْرُوفِ» أى مطالبة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَهْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿١٧﴾  
فيه ثلاث مسائل :<sup>(٢)</sup>

الأولى — قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) الآية . لما ذكر من الترهيب ماذا كَرَّمَ بين النعمة عليهم أيضا . «كَرَّمْنَا» تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كراما أى شرفا وفضلا . وهذا هو كرم نفى النقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ؛ وهذا لا يتسع فيه حيوان آتساع بنى آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ويأكلون المأكولات من الأطعمة . وغاية كل حيوان يأكل لحما نباتا أو طعاما غير

(١) راجع ج ٢ ص ٢٤٤ . (٢) يلاحظ أن المسائل أربع .



مرتب . وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم . وروى عن ابن عباس ؛ ذكره المهدوي والنحاس ؛ وهو قول الكلبي ومقاتل ؛ ذكره الماوردي . وقال الضحاك : كرمهم بالنطق والتمييز . عطاء : كرمهم بتعديل القامة وامتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم . وقيل : أكرم الرجال بالثمن والنساء بالذوايب . وقال محمد بن جرير الطبري : بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بمشئ الرسل وأثارت الكتب . فمثال الشراع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدم من الأقوال بعضها أقوى من بعض . وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالا يفضل بها ابن آدم أيضا ؛ بكرى الفرس وسمعه وإبصاره ، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكرم والتفضيل بالعقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانية — قالت فرقة : هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستنون بقوله تعالى : «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ»<sup>(۱)</sup> . وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به من سائر الحيوان ، والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، ولم نعرض الآية لذكرهم ، بل يمتثل أن الملائكة أفضل ، ويمتثل العكس ، ويمتثل التساوى ، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهى فى هذه المسألة إلى القطع . وقد تحاشى قوم من الكلام فى هذا كما تحاشوا من الكلام فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ فى الخبر «لا تخافوا بين الأنبياء ولا تفضّلوني على يونس بن متى» . وهذا ليس بشئ ؛ لوجود

(۱) راجع ص ۲۶۰ .

النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء . وقد بيناه في « البقرة <sup>(١)</sup> » ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن <sup>(٢)</sup> .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني لذيق المطاعم والمشارب . قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أى على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة .

الرابعة — هذه الآية ترد ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ائرموا أنفسكم طيب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجرى في العروق منها “ . وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات ، ولا أصل له ؛ لأن القرآن يردّه ، والسنة النابتة بخلافه ، على ما تنذر في غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطوسي قال : كان سهل يقتات ورق التبن مدة ، وأكل دُقاق ورق التبن ثلاث سنين . وذكر إبراهيم ابن البتا قال : صحبت ذا النون من إسماعيل إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا وملحا كان معي ، وقلت : هلم . فقال لى : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تُفْلَح ! فنظرت إلى مزودته وإذا فيه قليل سويق شعير يستف منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال علماؤنا : وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه ؛ لأن الله تعالى أكرم الآدمي بالحنطة وجعل قشورها لهمهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن ، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج <sup>(٣)</sup> ، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه يخوف مزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر . وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها مُنعت فقد قويت حكمة البارئ سبحانه بردها ، ثم يؤثر ذلك في البدن ، فكان هذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البدن

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦١ . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٩ . (٣) القولنج : مرض معوي .  
يؤلم بمرمه معه خروج النمل والريح ، معذب .

مطية الادمي، ومتى لم يرق بالمطية لم تباع. وروى عن ابراهيم بن ادهم أنه اشترى زبدا وعلسا وخبز حواري، فقبل له : هذا كله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عِدنا صبرنا صبر الرجال . وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفاوذج ثم يقوم إلى الصلاة . ومثل هذا عن الساف كثير . وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة والأعراف<sup>(١)</sup> وغيرهما . والأول غلو في الدين إن صح عنهم . « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup> » .

قوله تعالى : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِيمَانِهِمْ<sup>(٣)</sup> قَمِينَ أَوْتَى كِتَابَهُ بِئِمْنِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : ( يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِيمَانِهِمْ ) روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِيمَانِهِمْ » قال : « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمنه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعا ، ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلأ ؛ فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون اللهم انشأ بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثل هذا — قال — وأما الكافر فيستود وجهه ويمد له في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ولبس تاجا فإراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا ! اللهم لا تاتنا بهذا . قال : فيأتيهم فيقولون اللهم انزله . فيقول أبعدم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ونظير هذا قوله : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا آلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ<sup>(٥)</sup> » . والكتاب يسمى إماما ؛ لأنه يرجع إليه في تعزف أعمالهم . وقال ابن عباس والحسن وقائدة والضحاك : « بِإِيمَانِهِمْ » أى بكتابهم ، أى بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله ؛ دليله « قَمِينَ أَوْتَى كِتَابَهُ بِئِمْنِهِ » . وقال ابن زيد : بالكتاب المنزل عليهم . أى يدعى كل إنسان

(١) الفاوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والصل . وفيه لغات ( عن الألفاظ الفارسية ) .

(٢) راجع ج ٦ ص ١٩٥ .

(٣) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ .

(٤) راجع ج ١٦ ص ١٧٤ .

(٥) راجع ج ١٧ ص ٢٦٢ فما بعد .

بكتابه الذى كان يتلوہ ؛ فیدعی أهل النوراة بالنوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : بأهل القرآن ، ماذا عملتم ، هل امتثلتم أو امره هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا . وقال مجاهد : « بِإِمَامِهِمْ » بنبيهم ، والإمام من يؤتم به . فيقال : هاتوا متبى إبراهيم عليه السلام ، هاتوا متبى موسى عليه السلام ، هاتوا متبى الشيطان ، هاتوا متبى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بإيمانهم ، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم . وقاله قتادة . وقال على رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثِ إِبْرَاهِيمَ » فقال : « كُلُّ يَدْعَى بِإِمَامِ زَمَانِهِمْ وَكُتَابِ رَبِّهِمْ وَسَنَّةِ نَبِيِّهِمْ » فيقول هاتوا متبى إبراهيم هاتوا متبى موسى هاتوا متبى عيسى هاتوا متبى محمد — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بإيمانهم ويقول هاتوا متبى الشيطان هاتوا متبى رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة . وقال الحسن وأبو العالية : « بِإِمَامِهِمْ » أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم ؛ فيُدْعَوْنَ بمن كانوا يأتون به في الدنيا : يا حنفى ، يا شافعى ، يامعتزلى ، يا قدرى ، ونحوه ؛ فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبى عبيدة . وقد تقدّم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ... ، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلى والصوم ، وعكسه الدَّفَاف والنَّام . وقال محمد بن كعب : « بِإِمَامِهِمْ » بأهماتهم . وإمام جمع آتم . قالت الحكماء : وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة ؛ أحدها — لأجل عيسى . والثانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفي هذا القول نظر ؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان » ترجمه مسلم والبخارى . فقوله : « هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان »

(١) الدَّفَاف : الضارب بالدف . وفي الأصول : « الزفاف » بالزاي المعجمة .

دليل على أن الناس يُدْعَوْنَ في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يرّد على من قال : إنما يُدْعَوْنَ بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سترًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَمَنْ أَوْفَىٰ بَعْدَهُ بِمِثْلِهِ ﴾ هذا يقوّى قول من قال : « بِأَمَامِهِمْ » بكاءهم .  
ويقوّيه أيضا قوله تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ » . ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ ﴾<sup>(١)</sup>  
وَلَا يُظْلَمُونَ قِتْلًا ﴿ الفتل الذي في شق النواة . وقد مضى في « النساء » .<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ

وَأَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ ﴾ أى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق .  
﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى في أمر الآخرة ﴿ أَعْمَى ﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال : افروا ما قبلها . « رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ السَّمَاءَ الْفُلُكُ فِي الْبَحْرِ » — إلى — تَفْضِيلًا . قال ابن عباس : من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يماين أعمى وأضل سبيلا . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان في الدنيا التي أهمل فيها وفُتِّحَ له ووُعِدَ بقبول النسوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان في هذه الدنيا كافرا ضالا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » الآيات . وقال : « وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكًّا وَحَصَا مَآوِعَهُمْ جَهَنَّمَ » . وقيل : المعنى في قوله : « فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى » في جميع الأقوال : اشتدّ عمى ؛ لأنه من عمى القلب ، ولا يقال مثله في عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خَلَقَهُ بَعْتَلَةً

(١) راجع به ١٥ ص ١١ فإيه .

(٢) راجع به ٥ ص ٢٤٨ .

(٣) راجع ص ٢٩٠ فإيه من هذا الجزء .

(٤) راجع به ١١ ص ٢٥٧ فإيه .



اليد والرجل، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أيداه . الأخفش : لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى<sup>(١)</sup> . وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعله عمى وعشى . وقال الفراء : حدثني بالشام شيخ بصرى أنه سمع العرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر \* وفي المخازي لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فانت اليوم الأهمهم \* لؤما وأبيضهم سربال طباش

وأمال أبو بكر وحمة والكسائي وخلف الحرفين « أعمى » و « أعمى » وفتح الباقون . وأمال أبو عمرو الأول وفتح الثاني . ( وَأَضَلَّ سَبِيلًا ) يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية .

قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَجِدُوكَ ظَالِمًا

قال سعيد بن جبير : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود في طوافه ، فمغنمته قریش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُبَلِّمَ بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : ” ما على أن ألبم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره “ فابى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها ، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيم ذلك فنزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قریش للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرده عنا هؤلاء السقاط والموال حتى نجلس معك ونسمع منك ؛ فهم بذلك حتى بُسِيَ عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قریشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلونه ويفتحمونه ، ويسودونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس ، وأنت سيدنا ياسيدتنا وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ،

(١) كذا في الأصل : ولعل الحق : عمى ؛ لأن فعله عمى كما قال نفلويه : يقال عمى عن رشفه . ومنه بصاغ أفضل التفضيل .

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية . ومنى . (لَيَقْتَتِلَنَّكَ) أى يزِيلونكَ . يقال : قَتَنُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه ؛ قاله الهَرَوِيُّ . وقيل : يصرفونكَ ، والمعنى واحد .  
 (عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أى حكم القرآن ؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن .  
 (لَتُفْتَرَى عَلَيْنَا فِئْرَةٌ) أى لَيُخْتَلَقَ عَلَيْنَا غير ما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وهو قول نفيف : وحرّم وإدبنا كما حرمت مكة ، شجرها وطيرها ووحشها ، فإن سألَكَ العرب لم خصصتهم فقل الله أمرنى بذلك . حتى يكونَ عندنا لك . (وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ، أى والوك وصافوك ؛ مأخوذ من الخلطة (بالضم) وهى الصداقة لما ياتيه لهم . وقيل : «لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا» أى فقيرا . مأخوذ من الخلّة (بفتح الخاء) وهى الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْنِمْ شَيْعًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذُنُوكَ ضِعْفَ الْحَبْوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) أى على الحق وعصمتك من موافقتهم . (لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْنِمْ) أى تميل . (شَيْعًا قَلِيلًا) أى ركونا قليلا . قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : "اللهم لا تبيكنى إلى نفسى طرفة عين" . وقيل : ظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وباطنه إخبار عن نفيف . والمعنى : وإن كادوا ليركنونك ، أى كادوا ينجبرون عنك بأنك مِلْتَ إلى قولهم ؛ فنسب فعلهم إليه مجازا وآتساعا ؛ كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ؛ ذكره المهدوى . وقيل : ما كان منه هم بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك مِيلَ إلى موافقتهم ، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل ؛ ذكره القشيري . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للامة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شئ من أحكام الله تعالى وشرائعه .

وقوله : ﴿ إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركنت لأذُنكَ مثل عذاب الحياة في الدنيا ومثل عذاب الممات في الآخرة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ <sup>(١)</sup> » وضعف الشيء مثله مرتين ، وقد يكون الضعف النصيب ؛ كقوله عز وجل : « لِكُلِّ ضِعْفٍ » أى نصيب . وقد تقدم في الأعراف <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(٣)</sup>

هذه الآية قيل : إنها مدنية ؛ حسبما تقدم في أول السورة . قال ابن عباس حسدت اليهود مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام ، فإن كنت نبيا فألحق بها ؛ فإنك إن خرجت إليها صدقتك وأمانتك ؛ فوقع ذلك في قلبه لما يحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على صرخة فأزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن عوف : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع . وقيل : إنها مكية . قال مجاهد وقناة : نزلت في هم أهل مكة بإخراجهم ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالمهجرة ففرج ، وهذا أصح ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : « مِنَ الْأَرْضِ » يريد أرض مكة . كقوله : « فَإِنْ أَرَبَّ الْأَرْضِ <sup>(٤)</sup> » أى أرض مصر ؛ دليله : « وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ <sup>(٥)</sup> » يعنى مكة . معناه . هم أهلها بإخراجهم ؛ فلهذا أضاف إليها وقال « أَخْرَجْنَاكَ » . وقيل : هم الكفار كلهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهروهم عليه فتمنع الله ، ولو أخرجوه

(١) راجع ج ١٤ ص ١٧٣ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠٥ . (٣) راجع ج ٩ ص ٢٤١ فما بعد .

(٤) راجع ج ١٦ ص ٢٣٥ . (٥) في الأصول : « إلهم » وهو تحريف .

من أرض العرب لم يُمهلوا، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقرأ عطاء، ابن أبي رباح «لا يلبثون» الباء مشددة. «خَلَقَكَ» نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحزرة والكسائي «خلافك» واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: «قَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ» ومعناه أيضاً بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَّتْ الدِّيارُ خِلَافَهُمْ فَكَانَ مَا • بِسَطِ الشَّوْاطِطِ بَيْنَهُنَّ حَاصِرَا

بسط البواسط؛ في الماوردي. يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تلقى الشاطبة إلى المُنْقِيَةِ. وقيل: «خَلَقَكَ» بمعنى بعدك. «وخلافك» بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأثيري. «إِلَّا قَلِيلًا» فيه وجهان: أحدهما — أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قرئش. الثاني — ما بين ذلك وقتل بنى قريظة وجلاء بنى النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود. قوله تعالى: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا

تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا، فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ قاله الفراء. وقيل: انتصب على معنى سنن سنة من قد أرسلنا. وقيل: هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: «إِلَّا قَلِيلًا» ويوقف على الأول والثاني. «قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا» وقف حسن. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أى لا تخلف في وعدنا.

قوله تعالى: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ

الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ <sup>(١)</sup> » . وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة <sup>(٢)</sup> . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلفت العلماء في الدلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كبد السماء ؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم . الثاني — أن الدلوك هو الغروب ؛ قاله علي وابن مسعود وأبي بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الماوردي : من جعل الدلوك اسما لغروبها فلائذ الإنسان يدلك عينيه براحتيه لتبينها حالة المغيب ، ومن جعله اسما لرواحها فلائذ يدلك عينيه لشدة شعاعها . وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها . ودلكت برآح يعني الشمس ؛ أي غابت . وأنشد قُطْرِب :

هَذَا مَقَامٌ قَدِمَ رَبَاحٌ \* ذَبَبَ حَتَّى دَلَكْتَ بَرَّاحَ

براح (بفتح الباء) على وزن حَذَامٍ وَقَطَامٍ ورقاش اسم من أسماء الشمس . ورواه الفراء ( بكسر الباء ) وهو جمع راحة وهي الكف ؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفّه على حاجبه . ومنه قول العجاج :

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنَفًا \* أَدْنَعَهَا بِالرَّاحِ كِي تَرَحَّلَفَا

قال ابن الأعرابي : الترّحولة مكان منحدر أملس ، لأنهم يترحلّفون فيه . قال : والترّحلفة كالدرجة والدفع ؛ يقال : زحلفته فترحلف . ويقال : دلكت الشمس إذا غابت . قال ذو الرمة :

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا \* نَجُومٌ وَلَا بِالْأَفْسَالَتِ الدَّوَالِكِ

(٢) راجع ج ١ ص ١٦٤ .

(١) راجع ص ٦٤ من هذا الجزء .

(٤) أي بأه الجر .

(٣) كذا في الأصول . والصواب عن أسماء النساء .



قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — في اللغة — فأقول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب . ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا ، لأنها في حالة ميل . فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده ؛ فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب ، ويصح أن تكون المغرب داخلة في غَسَقِ الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتأدى وقتها من الزوال إلى الغروب ؛ لأن الله سبحانه خلق وجوبها على الدلوك ، وهذا دلوك كله ، قاله الأوزاعي وأبو حنيفة في تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعي في حالة الضرورة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ابن قيس الرقيات :

إن هذا الليل قد غَمَقَا \* واشتَكَيْتُ الهَمَّ والأَرْقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظَلَّتْ تجرود يداها وهي لاهية \* حتى إذا جنح الإظلام والغسق

يقال : غسق الليل غسوقا . والغسق اسم يفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان ؛ يقال : غَسَقَتِ العين إذا سالت ، تَغْشَقُ . وَغَسَقَ الجرح غَشَاقًا ، أي سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذن ، أي أخرج المغرب إلى غَسَقِ الليل . وحكى الفراء : غَسَقَ الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجا وأدجى ، وغَبَسَ وأغبس وغَبَشَ وأغَبَشَ . وكان الربيع بن خثيم يقول لمؤذنه في يوم غيم : أغسق أغسق . يقول : أخرج المغرب حتى يغسق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثة — اختلف العلماء في آخر وقت المغرب ؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس ، وذلك بين في إمامة جبريل ؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس ، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قول الشافعي في المشهور عنه أيضا ، وبه قال الثوري . وقال مالك في الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجت من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن (١) هذا ضبط الثوري ، والذي في الخلاصة : بفتح المعجمة والثالثة بينهما محذوفة ساكنة وهذا هو المشهور .

ابن سحّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبي موسى ، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فاترجتني كان عند سقرط الشفق ؛ خرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لما قبله . وزعم ابن العربي أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك ، وقوله في موطنه الذي أقرأه طول عمره وأملأه في حياته .

والنكبة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجمعها ؛ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها ؛ لأن يكون ذكرها لغواً إذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكل إلى الآخر .

قلت القول بالتوسعة أرجح . وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريباً من غروب الشمس فلم يُصَلِّ المغرب حتى أتى سرف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس بالبين وإن كان التاريخ معلوماً ؛ فإن الجمع ممكن . قال علماءنا ؛ تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب ، ولذلك آتفت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْرِزٍ مَنْدَاد : ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التوسعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض ويصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح بانفاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب « قُرْآن » من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة ؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح ؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة : انتصب على الإغراء ؛ أي فعليك بقرآن الفجر ؛ قاله الزجاج . وعبر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجبور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطوال المفصل، وبينها في ذلك الظهر والجمعة — وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء . وقد قيل في انعصر : إنها تخفف كالمغرب . وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة نيا استقر فيه التقصير، أو من التقصير نيا استقرت فيه الإطالة؛ كقراءته في الزجر المعوذتين — كما رواه النسائي — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب، فترك بالعمل؛ ولم ينكاه على معاذ التطويل حين أم قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة . نرحبه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : ” أيها الناس إن منكم متفرين فأيكم أم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والبيض والسميم والضعيف وذا الحاجة “ . وقال ” فإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ماشا “ . كله مسطور في صحيح الحديث .

الخامسة — قوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سمي الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والقائد في كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة في جُل الصلاة . وهو قول إسماعيل . وعنه أيضا تجب في ركعة واحدة؛ فانه المغيرة ومُحَنُون . وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة . وهو أشد الروايات عنه . وحكى عن مالك أيضا أنها تجب في نصف الصلاة، وإليه ذهب الأوزاعي . وعن الأوزاعي أيضا وأيوب أنها تجب على الإمام ونقداً . أما موم على كل حال . وهو أحد قول الشافعي . وقد مضى في ( الفاتحة ) مستوفى .

السادسة — قوله تعالى : « كَانَ مَشْهُودًا » روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : ” تشهد .

ملائكة الليل وملائكة النهار“ هذا حديث حسن صحيح . ورواه علي بن مسير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” فَضَّلُ صَلَاةَ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسَ وَعَشْرُونَ دَرَجَةً وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ “ . يقول أبو هريرة إِقْرَءُوا إِن شَاءْتُمْ « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » . ولهذا المعنى يُتَكْرَّمُ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ ، فمن لم يسبِّحْ لم تشهدْ صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة . ولهذا المعنى أيضا قال مالك والشافعي : التغليس بالصباح أفضل . وقال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ، فإن فاتته ذلك فالإسفار أولى من التغليس . وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعلُه من المداومة على التغليس ، وأيضاً فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعة — استدلل بعض العلماء بقوله صلى الله عليه وسلم : ” تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار “ على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ؛ فإن في الصحيح عن النبي الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : ” يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ “ الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان ، وهذا واضح .

قوله تعالى : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( مِنَ اللَّيْلِ ) « من » للتبويض . والفاء في قوله : « فَتَهَجَّدْ » ناسقة على مضمر ، أي قم تهجد . ( بِهِ ) أي بالقرآن . وَالتَّهَجُّدُ من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام ، وهجد سهر ، على الضد . قال الشاعر :

أَلَا زَارَتْ وَأَهْلُ يَتَى هَجُود • وَلَيْتَ خِيَالَهَا بِمَنَى بَعُود

آخر :

أَلَا طَرَقْنَا وَالرَّفَاقَ هَجُود • فَبَاتَتْ بِعَلَاتِ النِّوَالِ تَجُود <sup>(۱)</sup>

بَعْنَى نِيَامًا • وَهَجِدَ وَتَهَجَّدَ بِمَعْنَى • وَهَجَّدَتْهُ أَيْ أَمَّتْهُ ، وَهَجَّدَتْهُ أَيْ أَبْقَظَتْهُ • وَالتَّهَجُّدُ التَّيَقُّظُ  
بَعْدَ رَقْدَةٍ ، فَصَارَ اسْمًا لِلصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَبِهُ لَهَا • فَالتَّهَجُّدُ الْقِيَامُ إِلَى الصَّلَاةِ مِنَ النَّوْمِ • قَالَ  
مَعْنَاهُ الْأَسُودَ وَعَلَقْمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَسُودِ وَغَيْرِهِمْ • وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْقَاضِي مِنْ  
حَدِيثِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرِو صَاحِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : أَيْحَسِبُ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ مِنَ  
اللَّيْلِ كُلِّهِ أَنَّهُ قَدْ تَهَجَّدَ ! إِنَّمَا التَّهَجُّدُ الصَّلَاةُ بَعْدَ رَقْدَةٍ ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدَ رَقْدَةٍ ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدَ  
رَقْدَةٍ • كَذَلِكَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ • وَقِيلَ : الْمَجُودُ النَّوْمُ • يَقَالُ :  
تَهَجَّدَ الرَّجُلُ إِذَا سَهَرَ ، وَأَلْفَى الْمَجُودَ وَهُوَ النَّوْمُ • وَيَسْمَعُ مَنْ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مُتَهَجِّدًا ؛ لِأَنَّهُ  
الْمُتَهَجِّدُ هُوَ الَّذِي يُلْقَى الْمَجُودَ الَّذِي هُوَ النَّوْمُ عَنْ نَفْسِهِ • وَهَذَا الْفِعْلُ جَارٍ بِمَجْرَى تَحَوُّبٍ  
وَتَحْوِجٍ وَتَأَمٍّ وَتَحَنُّنٍ وَتَقَدَّرَ وَتَجَسَّسَ ؛ إِذَا أَلْفَى ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ • وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَظَلَّمُ  
تَفَكُّهُونَ » <sup>(۲)</sup> مَعْنَاهُ تَنْدَمُونَ ؛ أَيْ تَطْرَحُونَ الْفَكَاهَةَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ ؛ وَهِيَ انْبِسَاطُ النَّفُوسِ  
وَسُرُورُهَا • يَقَالُ : رَجُلٌ فِيكَهَ إِذَا كَانَ كَثِيرَ السُّرُورِ وَالضَّحِكِ • وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ : وَوَقْتًا مِنَ  
اللَّيْلِ أَشْهَرْتَهُ فِي صَلَاةٍ وَقِرَاءَةٍ •

الثَّانِيَّةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : « نَافِلَةٌ لَّكَ » أَيْ كَرَامَةٌ لَكَ ؛ قَالَهُ مُقَاتِلٌ • وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ  
فِي تَخْصِصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالذِّكْرِ دُونَ أُمَّتِهِ ؛ فَقِيلَ : كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً  
عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ : « نَافِلَةٌ لَّكَ » أَيْ فَرِيضَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الْفَرِيضَةِ الْمَوْظُفَةِ عَلَى الْأُمَّةِ •  
قَالَتْ : وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ بَعْدُ لَوْجِهَيْنِ : أَحَدُهُمَا — تَسْمِيَةُ الْفَرَضِ بِالنَّقْلِ ، وَذَلِكَ بِجَازٍ  
لِاحْتِقَاقِهِ • الثَّانِي — قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَمْسُ صَلَوَاتٍ فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ » ،  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « مَنْ خَمْسَ وَهَنْ خَمْسُونَ لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ » ، وَهَذَا نَصٌّ ، فَكَيْفَ يَقَالُ :  
اقْتَرَضَ عَلَيْهِ صَلَاةَ زَائِدَةٍ عَلَى الْخَمْسِ ، هَذَا مَا لَا يَبْصَحُ ؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(۲) راجع ج ۱۷ ص ۲۱۷ •

(۱) اللمة (رها) : ما ينطل به ؛ مثل التلمة •



٢٥ ثلاث على فريضة ولا متى تطوع قيام الليل والوتر والسواك . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتي مبيناً في سورة . « الْمُزَّمِّلُ » (١) إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالتغفل على جهة التذنب ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات ، وعيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية ؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ اختلّف في المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأول — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حذيفة بن اليمان . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثّاً كل أمة تبسّع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم إبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم موسى فإنه كلمه الله فيؤتي موسى فيقول لست لها ولكن عليكم محمد صلى الله عليه وسلم فأوتي فأقول الله وكلته فيؤتي عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم محمد صلى الله عليه وسلم فأوتي فأقول أناها ” وذكر الحديث . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » سئل عنها قال : ” هي الشفاعة ” قال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) جثا (جمع جنوة تكطورة وخطا) أى جماعات .

(١) راجع ج ١٩ ص ٣٢ لا بعد .

الرابعة - إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". قال النقاش: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إنجراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء. وقال القاضي أبو الفاضل عياض: شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة، والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة في قوم من موحدى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترقيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول.

الخامسة - قال القاضي عياض: وعرف بالقل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من المالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ما عُرِف من دعاء السلف والخلف؛ روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا - صلى الله عليه وسلم - الوسيلة والفضيلة وأبعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة".

القول الثاني — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .  
 روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر وبيدى لواء الحمد ولا نخر وما من نبي يومئذ آدم من سواه إلا تحت لوائى “ الحديث .

القول الثالث — ماحكاه الطبرى عن فرقة، منها مجاهد، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسية ؛ وروى في ذلك حديثا .  
 وعصّد الطبرى جواز ذلك بشطط من القول ، وهو لا يخرج إلا على تالطف فى المعنى ، وفيه بُعد . ولا يُشكّر مع ذلك أن يروى ، والعلم يتأوله . وذكر النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر : ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هذا والثانى فى تأويل قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » قال : تنتظر الثواب ؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا فى باب ابن شهاب فى حديث التزويل . وروى عن مجاهد أيضا فى هذه الآية قال : يجلسه على العرش . وهذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلها والعرش قائما بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها ، بل إظهارا لقدرته وحكمته ، وليُعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحمكة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان ؛ فعلى هذا القول سواء فى الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من انقيام والمعقود والحال التى تشغل العرش ، بل هو مستقر على عرشه

كما أخبر عن نفسه بلا كيف . وليس إقصاءه مجداً على العرش موبيا له صفة الربوبية أو تحرجاً له عن صفة العبودية ، بل هو رفع لمجده وتشريف له على خلقه . وأما قوله في الأخبار : «معهُ» فهو بمنزلة قوله : «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ»<sup>(۱)</sup> ، و«رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»<sup>(۲)</sup> ، «وَأَنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»<sup>(۳)</sup> ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة . نزلة والحظوة والدرجة الرفيعة ، لا إلى المكان .

الرابع — إخراجهم من النار بشهادته من يخرج ، فإنه . برين عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) والله الموفق .

السادسة — احتاف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للقيام المحمود على قولين : أحدهما — أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه ، أو بمعرفة وجه الحكمة . الثاني — أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو انقاد المحمود . ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلهم فيه درجة محمد صلي الله عليه وسلم ، فإنه يعطى ما لا يعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد . و«عَمَى» من الله عز وجل واجبة . و«مقاماً» نصب على الظرف . أى في مقام أو إلى مقام . وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لإمتي» . فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأموال الجليلة كالمقامات بين يدى الملوك .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ  
وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿٨٥﴾

قيل : المعنى أمتنى إمانته صدق ، وابتغى يوم القيامة مبعث صدق ؛ ليتصل بقوله : «عَمَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» . كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليجزله

(۱) راجع ج ۷ ص ۳۰۶ . (۲) راجع ج ۱۸ ص ۴۰۲ . (۳) راجع ج ۱۳ ص

الوعد . وقيل : أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهى . وقيل : علمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجهم من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن ؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا . أبو سهل : حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون : « لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » يعنى إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة . وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتنى ؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج ( بضم الميم ) بمعنى الإدخال والإخراج ؛ كقوله : « أَنْزَلْنِيْ مُنْزَلًا مُّبٰرَكًا » أى إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهى قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مدخل » و « مخرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج ؛ فالأول رباعى وهذا ثلاثى . وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ؛ أى لاتجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه ؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجها عندك . وقيل : الآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويتنظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة . فهى دعاء ، ومعناه : رب أصلح لى ووردي وصدرى فى كل الأمور . وقوله : « وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا » قال الشعبي وعكرمة : أى حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله لِيَبْتَغِيَ مُلْكًا فَارِسَ وَالرُّومَ وغيرها فيجعله له .

قوله تعالى : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ

كَانَ زُهُوْقًا ﴿٨١﴾

(٢) راجع ج ١٢ ص ١١٩

(١) راجع ج ١٨ ص ١٢٩



فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثائة وستون نُصباً : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يطعنها <sup>(١)</sup> بخضرة في يده - وربما قال : بعود - ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " <sup>(٢)</sup> لفظ الترمذى . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا في حديث مسلم « نُصباً » . وفي رواية صنف . قال علامؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظمون في يوم صنف ويخضون أعظمها بيومين . وقوله : " فجعل يطعنها بعود في يده " يقال : إنها كانت مثبتة بالرصاص وأنه كلما طعن منها صنفاً في وجهه نثر لفقاه ، أو في ففاه نثر لوجهه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً " حكاه أبو عمر والقاضى عياض . وقال القشيري : فابقى منها صنم إلا نثر لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

الثانية - في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذ غلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطناير والعيان والمزامير التي لا معنى لها إلا للهوبها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصُورُ المتخذة من المدّر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذ الناس مما لا منفعة فيه إلا للهو المنهى عنه . ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غيّرت عما هي عليه وصارت تُقرأ أو قطعاً فيجوز بيعها والشراء بها . قال المهلب : وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة ؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال . وقد تقدم حرق ابن عمر رضى الله عنه <sup>(٣)</sup> . وقد هم النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة التي اعتنبا صاحبها :

(١) ما ينحصره الإنسان يده فبمسكه من عصا أو عكازة أو مفرعة أو قضيب وقد يتكلم عليه .

(٢) راجع ج ١٤ ص ٣١٣ . (٣) النقرة : السبيكة . (٤) الذي تقدم لابن عمر أنه أنشد

على الأولاد أدراك القلب . راجع ج ٨ ص ٣٤٠ .

”دعوا فإنها ملعونة“ فأزال ملكها عنها تأديبا لصاحبها ، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبناً شيب بماء على صاحبه .

الثالثة — ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : ” والله لينزلن عيسى بن مريم حكماً عادلاً فَلْيَكْبِرَنَّ الصليبَ وَلْيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ وَلْيَضَعَنَّ الحِزْبَةَ وَلْيَتْرَكَنَّ الْفِلَاصُ“ فلا يُسعى عليها“ الحديث . نرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبي صلى الله عليه وسلم السر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليل على إفساد الصور وآلات الملاحى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها . إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم ؛ وحسبك ! وسيأتى هذا المعنى فى « التمهيد » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( وَثُلَّ جَاءَ الْحَقُّ ) أى الإسلام . وقيل : القرآن ؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . ( وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ) قيل : الشرك . وقيل : الشيطان ؛ قاله مجاهد . والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه . « وَزَهَقَ الْبَاطِلُ » : بطل الباطل . ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقال : زهقت نفسه ترهق زهوفاً ، وأزهقتها . ( إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ) أى لابقاء له ، والحق الذى يثبت .

قوله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٢١﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَنُنَزِّلُ ) قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « وَيُنَزِّلُ » بالياء خفيفة ، ورواها المروزي عن حفص . و « من » لا ابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : وننزل ما فيه شفاء من القرآن . وفى الخبر : ” من لم يَشْفِ بالقرآن

(١) الفلاس (بكر الملاف جمع القلوص بفتحها) وهى النافذة الشابة . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٢١ .

(٣) كذا فى الأصول . ولعل : ونون خفيفة .

فلا شفاء الله . وإنكر بعض المتأولين أن تكون «مين» للتبويض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون للتبويض بحسب أن إزالته إنما هو مبعض ؛ فكأنه قال : وتنزل من القرآن شيئاً شفاء ، ما فيه كله شفاء .

الثانية — اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين : أحدهما — أنه شفاء للقلوب نزول الجهل عنها وإزالة الزيت ، وكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني — شفاء من الأمراض الظاهرة بالرق والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة — واللفظ للدارقطني — عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ثلاثين راكباً قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا ؛ قال : فلديغ سيد الحى ، فاتونا فقالوا ؛ فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ في رواية ابن قتيسة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا . فقالوا ؛ فلما نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه . « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » سبع مرات فبرأ . في رواية سايان بن قفة عن أبي سعيد : فأفاق ورأ . فبعث إلينا بالترل وبعث إلينا بالشاء ، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبوا أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : « وما يدريك أنها رقية » ؟ قلت : يا رسول الله ، شئ ألقى في روعي . قال : « كلوا وأطعموا من الغنم » نرجه في كتاب السنن . وخرج في (كتاب المذبح) <sup>(١)</sup> من حديث السري بن يحيى قال : حدثني المعتز بن سايان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينفع بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسل والحمى والنفس أن تكتب بزعفران أو بمشق — يعني المغرة — أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلها عامة من شر السامة والعامة ومن شر العين الآالة ومن شر حاسد إذا حسد ومن أبي قروة وما ولد » . كذا قال ، ولم يقل من شر أبي قرة <sup>(٢)</sup> . العين الآالة : التي تصيب بسوء . تقول أعيدته من كل هامة لامة . وأما قوله :

(١) في بعض الأصول : « المذبح » ولم نوفق لتصويبه .

(٢) أبو قرة ( بكسر القاف وسكون التاء ) : كنية إبليس .

أعبدته من حادثات الآلة فيقال : هو الدهر . ويقال : الشدة . والسامة : الخاصة .  
يقال : كيف السامة والعامية . والسامة السم . ومن أبى قروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون  
من الملائكة أنوا ربهم عز وجل فقالوا : وَصَبَّ بَارِضُنَا . فقال : خذوا ترربة من أرضكم  
فامسحوا نواصيكم . أو قال : نواصيكم رقيقة محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلح من كتمها أبدا  
أو أخذ عليها صَفْدًا<sup>(١)</sup> . ثم كتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التي فيها  
تصريف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم سورة البقرة من موضع « لِّلَّهِ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » إلى آخرها ، وعشرا من أول « آل عمران » وعشرا من  
آخرها ، وأول آية من النساء ، وأول آية من المائدة ، وأول آية من الأنعام ، وأول آية من  
الأعراف ، والآية التي في الأعراف « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » حتى  
تَحْمُ الْآيَةَ ، والآية التي في « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُ بِهَ السَّجَرِ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » ، والآية التي في طه « وَالَّذِي مَّا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا  
إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاجِرًا وَلَا يُلْقِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » ، وعشرا من أول الصفات ، و « قُلْ هُوَ  
اللَّهُ أَحَدٌ » ، والمعوذتين . تكتب في إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يخنو  
منه الوجد ثلاث حثوات ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى  
يكون على ظهره قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدرة وظهره ولا يستنجى به ثم يصلي  
ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل ، يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب في كل يوم كتابا .  
في رواية : ومن شر أبى قرة وما ولد . وقال : « فامسحوا نواصيكم » ولم يشك . وروى  
البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَنْفِثُ على نفسه في المرض الذي مات  
فيه بالمعوذات فلما نقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسيه لبركتها . فسالت الزهري<sup>(٢)</sup>  
كيف كان ينفث ؟ قال : كان يَنْفِثُ على يديه ثم يمسح بهما وجهه . وروى مالك عن  
ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

(١) في ج : بوصبك . أي بوجهك . وتكون رقية منصوبة على الإغراء . (٢) الصدق : الغطاء .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢١٨ . (٤) راجع ج ٨ ص ٣٦٧ . (٥) راجع ج ١١ ص ٢٢١ فابعد .

(٦) في ج : بوصبك . (٧) السائل هو عروة بن الزبير راوى الحديث .

المعوذتين وتَقَلَّ أو تَقَتَّ . قال أبو بكر بن الأنباري : قال اللغويون تفسير « نفث » نفخ  
نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تَقَلَّ » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :  
فإن يبرا فلم أنث عليه \* وإن يُفقد حقَّ له الفُقد  
وقال ذو الرمة :

وَمِنْ جَوْفِ مَاءِ عَرْمَضِ الْحَوْلِ فُسُوقُهُ \* متى يَحْسُ مِنْهُ مَا تُنْخِ الْقَوْمُ بِتَقَلِّ<sup>(۱)</sup>  
أراد ينفخ بريق . وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثة — روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُّقَى  
إلا بالمعوذات . قال الطبري : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدين ؛ إذ في نقله  
من لا يعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطاً وإما منسوخاً ؛ لقوله عليه السلام في الفاتحة  
”ما أدراك أنها رقية“ ؟ وإذا جاز الرق بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر  
القرآن مثلهما في الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليه السلام أنه قال : ”شفاء أمتي  
في ثلاث، آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم“ . وقال رجاء الغنوي :  
ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعة — وأخناف العلماء في النثرة، وهي أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن  
ثم يفسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيب . قيل له : الرجل  
يؤخذ عن امرأته أيحَلَّ عنه ويُنْثَر؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم ينه عنه . ولم ير مجاهد  
أن تكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوذتين  
في إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المازري أبو عبد الله : النثرة أمر معروف  
عند أهل التعزيم ؛ وتُميت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أي تحل . ومنها الحسن وإبراهيم  
التخمي ، قال التخمي : أخاف أن يصيبه بلاء ؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما حي به القرآن فهو

(۱) العرمض : الخضرة التي تعلوا الماء، وهي الرمض والعلق والطلعب . والماسخ (بالهمز) : الذي يزل البئر  
فيملاّ الدلو . والماسخ (بالتاء) : الذي يجذب الدلو . (۲) راجع ج ۲ ص ۲۰۷ ق ۲ بند .  
(۳) لم تنف على هذه الرواية ، والمشهورة كما في البخاري وغيره : ”شفاء أمتي في ثلاث شرطة محجم أو شرية  
عسل أو ركية نارة...“ ، الحديث . (۴) كذا في ج ۲ ، وفي اودودي : ينجي .



إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أنساً فقال : ذكروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر ابن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذئبة فقال : ”هي من عمل الشيطان“ . قال ابن عبد البر : وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وعن المداواة المعروفة . والذئبة من جنس الطيب فهي غسالة شيء له فضل ، فهي كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : ”لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك ومن استطاع منكم أن يتفَع أَخَاهُ فليَفْعَلْ“ .

قلت : قد ذكرنا النص في الذئبة مرفوعاً وأنت ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه .

الخامسة — قال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين . وهذا معناه قبل أن يتزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندكم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى ، فهو كالرُّقَى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد روى عبيد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إذا فَرَعَ أَحَدُكُمْ في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يحضُّروا“ . وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم ، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”من علق شيئاً وُكِّل إليه“ . ورأى ابن مسعود على أم ولده تيممة مربوطة بحبّها جبداً شديداً فقطعها وقال : إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشُّرك ، ثم قال : إن التائم والرقى والتَّوَلَّى من الشُّرك . قيل : ما التَّوَلَّى ؟ قال : ما تحببت به لزوجها . وروى عن عقبة بن عامر الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”من علق تيممة فلا آثم الله له

ومن علق ودعة فلا ودع الله له قلباً“. قال الخليل بن أحمد : التيمعة فِلَادَة فيها عُوْدَة ، وَالْوَدْعَة نَرَز . وقال أبو عمر : التيمعة في كلام العرب الفِلَادَة ، ومعناه عند أهل العلم معلق في الأعناق من الفلائد خشية العين أو غيرها [ من أنواع البلاء وكأن المعنى في الحديث من يعلق خشية ما عسى ] أن يزل أو لا يزل قبل أن يزل ، فلا أتم الله عليه صحته وعافيته ، ومن تعلّق ودعة — وهى مثلها في المعنى — فلا ودع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التائم والفلائد ، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء ، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل ، وهو المعافي والمبلى ، لا شريك له . فنهام رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التائم . وقد ذكره بعض أهل العلم تعليق التيمعة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده . والقول الأول أصح في الأمر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكهّان ؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلقاً وغير معلق لا يكون شركاً ، وقوله عليه السلام : ” من علق شيئاً وكل إليه “ فمن علق القرآن ينبغي أن يتولاه الله ولا يكله إلى غيره ، لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكل عليه في الاستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيّب عن التعويذ أعلق ؟ قال : إذا كان في فصلة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط . ورخص أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويذ يعلق على الصبيان . وكان ابن سيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يعلقه الإنسان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفسريح الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته ؛ كما روى الترمذى عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف بل ألف حرف ولا م حرف وميم حرف “ . قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدم . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم . قال

قناة : ما جالس أحد القرآن لإقام عنه زيادة أو نقصان ، ثم قرأ : « وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ » وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَهُ عَلَيْهِمْ عَمًى » . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ( وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا ) أى هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت في الوليد ابن المغيرة . ومعنى « نَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا » أى تكبر وتباعد . وناء مقلوب منه ؛ والمعنى : بعد عن القيام بحقوق الله عز وجل ؛ يقال : نأى الشيء أى بعد . ونأيت ونأيت عنه بمعنى ، أى بعدت . وَأَنَّىٰ يَأْتِيهِ فَآتَىٰ ؛ أى أبعدته فبعد . وتناؤوا وتباعدوا . والمتناؤ ؛ الموضع البعيد . قال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى \* وإن خلتُ أن المتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤخره ، وهو على طريقة القلب من نأى ؛ كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من النوء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضاً للوقوف والجلوس : نوء ؛ وهو من الأضداد . وقرئ « وثئى » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامية « نأى » في وزن رأى . ( وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ) أى إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو يؤس يؤس وقنط ؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٦٨ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ ﴾ قال ابن عباس : ناحيته . وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : جدته . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : يجيله . الفراء : على طريقته ومذهبه الذي جُبل عليه . وقيل : قل كل يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب في اعتقاده . وقيل : هو مأخوذ من الشكل ، يقال : لست على شَكْلِي ولا شاكلي . قال الشاعر :

كل أمرئ يشبه فعله • ما يفعل المرء فهو أهله

فالشكل هو المثل والنظير والضرب . كقوله تعالى : « وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » . والشكل ( بكسر الشين ) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . وهذه الأقوال كلها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي أُلِفَها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن . والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة ؛ ذكره المهدوي . ﴿ قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ مِنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « أَهْدَى سَبِيلًا » أى أسرع قبولاً . وقيل : أحسن ديناً . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفيه آية أربى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الفجران . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفيه آية أربى وأحسن من قوله تعالى : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » . حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَايِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِ<sup>(۱)</sup> قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفي هذا إشارة للمؤمنين . وقال عثمان ابن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أراية أحسن وأربى من قوله تعالى : « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنَّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »<sup>(۲)</sup> . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه :

(۲) راجع ص ۳۴ من هذا الجزء .

(۱) راجع ج ۱ ص ۲۲۰ فابدر ص ۲۸۹ .

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »<sup>(١)</sup>.

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(٣)</sup>

روى البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حَرْث وهو متكئ على عِيسِبَ إذ مرَّ اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . فقال : ما رأيكم إليه؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشئ تَكْرَهُونه . فقالوا : سلوه . فسأله عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فمقت مقامى ، فلما نزل الوحي قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظ البخارى . وفي مسلم . فأسكت النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا . وقد اختلف الناس في الروح المستول عنه ، أى الروح هو؟ فقيل : هو جبريل ، قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل : القرآن ، حل ما يأتى بيانه في آخر الشورى . وقال علي بن ابى طالب : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، في كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبري . قال ابن عطية : وما أظن القول يصح عن علي رضي الله عنه .

قلت : أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفى حدثنا عثمان بن مسعيد حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٦٧ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٩ فابعد . (٣) أى مادعاكم إلى سؤال تخشون عاقبه بأن يستقبلكم بشئ تَكْرَهُونه . (٤) راجع ج ١٦ ص ٥٤ فابعد .



عباس في قوله : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » يقول : الروح مَلَكٌ . وبإسناده عن معاوية بن صالح حدثني أبو هيران (بكر الماه) يزيد بن سُمرة عن حماد بن عيسى عن علي بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » قال : هو مَلَكٌ من الملائكة له سبعون ألف وجه ... الحديث بلفظه ومعناه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح مَلَكٌ له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره القرطبي . وقال الخطابي : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان ، وكيف أمترجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق تكلف بنى آدم وليسوا بنى آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإجماع لقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » دليل على خلق الروح (۱) أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، مُبْتِغَا له وتاركا تفضيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان يعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاز له ، دلالة على أنه عن إدراك خالفه أعجز .

قوله تعالى : ( وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ) اختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بمجملتهم . وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العالم كله . وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وَمَا أَوْتِيتُمْ » . وقد قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف لم تُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فغلبوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث : « كُلُّا » يعنى أن المراد بـ « ما أوتيتُم » جميع (۱) أى هو المفرد بخلق الروح والعالم بسره لا يدركه أحد من الناس .

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك ؟ . فقال : ” كَلَّا “ . وفي هذا المعنى نزلت : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ <sup>(١)</sup> » . حكى ذلك الطبري رحمه الله ! وقد قيل : إن السائين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين على ما يأتي . وقال في الروح : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » . أى من الأمر الذى لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس . قوله تعالى : وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا <sup>(٢)</sup> وَإِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا <sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ( وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ) . يعنى القرآن . أى كما قدرنا على أنزاله فنقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتصل هذا بقوله : « وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . أى ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . ( ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا ) . أى ناصرا يرده عليك . ( إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ) . يعنى لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأول . وقيل : إلا أن يرحمك ربك فلا يذهب به . ( إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ) . إذ جعلك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز . وقال عبد الله بن مسعود : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم ، تُصيحون يوما وما معكم منه شيء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في العلوب ، فنصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله : « وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأخوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

شداد بن مَعْقِل قال قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يُترع منكم . قال : قلت كيف يترع منا وقد أثبتته الله في قلوبنا وشبناه في مصاحفنا ! قال يُسرى عليه في ليلة واحدة فيترع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » وهذا إسناد صحيح . وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل ، له دوى كدوى النحل ، فيقول الله ما بالكَ . فيقول : يارب منك خرجت وإليك أعود ، أتلى فلا يُعمل بي ، أتلى ولا يعمل بي . قلت : قد جاء معنى هذا صرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يدرس الإسلام كما يدرس وتُنى الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نكاح ولا صدقة فيُسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا هل هذه الكلمة لا إله إلا الله . وهم لا يدرسون ما صلاة ولا صيام ولا نكاح ولا صدقة “ . قال له صِلَةٌ : ما تنفى عنهم لا إله إلا الله ! وهم لا يدرسون ما صلاة ولا صيام ولا نكاح ولا صدقة ؛ فأعرض عنه حذيفة ؛ ثم ردّها ثلاثا ، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صِلَةٌ ! تخبهم من النار ، ثلاثا . خربه ابن ماجه في السنن . وقال عبد الله بن عمر : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ” أيها الناس ما هذه الكتب التي تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن بغضب الله لكتابها فلا يدع ورقا ولا قلبا إلا أخذ منه “ قالوا : يا رسول الله ، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : ” من أراد الله به خيرا أبق في قلبه لا إله إلا الله “ ذكره التعلبي والقرطبي وغيرهما في التفسير .

قوله تعالى : قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(١) حروطة بن زفر البسي ، أحد رجال سند الحديث .

أى عوباً ونصباً، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه . نزلت حين قال الكفار :  
لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ فأكذبهم الله تعالى . وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أول الكتاب :  
والحمد لله . و ( لَا يَأْتُونَ ) جواب القسم في « لئن » وقد يجوز على إرادة الشرط . قال الشاعر :  
لئن كان ما حدثت به اليوم صادقا \* أقيم في نهار القيظ للشمس باديا<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ  
فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ) أى وجهنا القول  
فيه بكل مثل يجب به الاعتبار ؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهي  
وأفاصيص الأولين ، والجنسة والنار والقيامة . ( فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ) يريد أهل  
مكة ، بين لهم الحق وفتح لهم وأهلهم حتى تبين لهم أنه الحق ، فأبوا إلا الكفر وقت تبين  
الحق . قال المهدوي : ولا حجة للقدري في قولهم : لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر  
عليه ؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على  
قلبه ، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طاب الحق وتمييزه من الباطل .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ  
يَنْبُوعًا ﴿٨٩﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا  
تَفْجِيرًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُحَّمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ  
وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩١﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُنُفَرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ  
وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِقِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي  
هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٢﴾

(١) راجع ج ١ ص ٦٩ . رواية خزانة الأدب في الشاهد الرابع والثلاثين بعد التسعة : أهم في نهار القيظ... الخ .

قوله تعالى : ( وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ) الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي سفيان والنضر بن الحارث ، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية ، وأمّية بن خلف وأبي البختري ، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة ، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — فكلّموه وخاصّموه حتى تُعْذَرُوا فيه ، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلّموك فأتهم ، بغاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن أن قد بدأ لهم فيما كلّمهم فيه بدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحبّ رشدهم ويعزّز عليه عنّهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لتكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعيبت الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفزقت الجماعة ، فما بيّ أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به مملكة ملكك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثا تراه قد قلب عليك — وكانوا يسمّون التابع من الجن ريثا — فربما كان ذلك بدلنا أموالنا في طلب العطب لك حتى تُبرئك منه أو نُعذّر فيك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ما جئتُ بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبئسكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ” أو كما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يا محمد ، فإن كنت خير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أسبق بلدا ولا أقل ماء ولا أشدّ هيشا منا ، فسَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسرّ



عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليُسِّطْ لنا بلادنا وليخْرِقْ لنا فيها أنهارا كأنهار الشام، وليبعث لنا مَنْ مَضَى من آبائنا، ولكن فيمن يبعث لنا قُصَى بن كلاب؟ فإنه كان شيخَ صِدْقٍ فَنَسَاهُمْ عَمَّا نَقُولُ، أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، فَإِنْ صَدَقُوا وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَقْنَاكَ، وَعَرَفْنَا بِهِ مَنَزَلَتَكَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ بَعَثَ رَسُولًا كَمَا نَقُولُ . فَقَالَ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ : ” مَا هَذَا بُعِثَ إِلَيْكُمْ إِنَّمَا جِئْتُمْكَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا بَعَثَنِي بِهِ وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ“ . قَالُوا : فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا نَخْذُ لِنَفْسِكَ ! سَلِّ رَبِّكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يَصْدُقُكَ بِمَا تَقُولُ وَيَرْجِعْنَا عَنْكَ، وَأَسْأَلُهُ فَلِيَجْعَلَ لَكَ جَنَانًا وَقُصُورًا وَكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ يَغْنِيكَ بِهَا عَمَّا تَرَكَ تَبْتَغِي بِهِ فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا تَلْتَمِسُهُ ، حَتَّى نَعْرِفَ فَضْلَكَ وَمَنَزَلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَا أَنَا بِفَاعِلٍ وَمَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا وَمَا بَعَثَ هَذَا إِلَيْكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِشِيرًا وَنَذِيرًا — أَوْ كَمَا قَالَ — فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ“ . قَالُوا : فَاسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كَسَقْفًا كَمَا زَعَمْتَ أَنْ رَبِّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ . قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلْ“ . قَالُوا : يَا أَحْمَدُ ، أَفَسَا عَلِمَ رَبُّكَ أَنَا سَنَجَاسَ مَعَكَ وَنَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ ، فَيَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَيُعَلِّمُكَ بِمَا تَرْجِعُنَا بِهِ ، وَيُخْبِرُكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا إِذَا لَمْ تَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْنَا بِهِ؟ إِنَّهُ قَدْ بَاغَنَا أَنْكَ إِنَّمَا يَعْأَلُكَ هَذَا رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَدًا ، فَقَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْكَ يَا أَحْمَدُ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا تَرَكْنَاكَ وَمَا بَلَغْتَ مِنَّا حَتَّى نَهْلِكَ أَوْ تَهْلِكَ . وَقَالَ قَائِلُهُمْ : نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ . وَقَالَ قَائِلُهُمْ : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قُبِيلًا . فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَامَ عَنْهُمْ وَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ ، وَهُوَ ابْنُ عَمَتِهِ ، هُوَ لِعَائِشَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَحْمَدُ ! عَرَضَ عَلَيْكَ

(١) فِي ج: بِمَا .

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوک لأنفسهم أمورا لیعرفوا بها منزلک من الله  
 کما تقول ؛ و یصدقوک و یطیعوک فلم تفعل ! ثم سألوک أن تأخذ لنفسک ما یعرفون به فضلک  
 علیهم و منزلک من الله فلم تفعل ! ثم سألوک أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم  
 تفعل ! — أو کما قال له — فوالله لا أومن بک أبدا حتی تنفذ إلی السماء سلما ، ثم ترقی فیہ  
 وأنا أنظر حتی تأتيها ، ثم تأتي معک بصک معه أربعة من الملائکة یشهدون لک أنك کما تقول .  
 وأیم الله أو فعات ذلک ما ظننت أنى أصدقک ! ثم انصرف عن رسول الله صلی الله علیه وسلم ،  
 وانصرف رسول الله صلی الله علیه وسلم إلی أهله حزینا أسفا لما فاته مما کان یطمع به  
 من قومه حین دعوه ، ولما رأى من مباءتهم إیاءه ؛ کلّه لفظ ابن اسحاق . وذكر الواحدی  
 عن عکرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ  
 يَنْبُوءًا ﴾ . « يَنْبُوءًا » یعنی العیون ؛ عن مجاهد . وهی یفعلون ، من نَبَعَ یَنْبَعُ . وقرأ حاصم  
 وحزرة والکسائی « تَنْجُرُ لَنَا » مخففة ؛ وأختاره أبو حاتم لأن النبوع واحد . ولم یختلفوا  
 فی تَنْجُرُ الأنهار أنه مشدد . قال أبو عیبد : والأولی مثله . قال أبو حاتم . لیست مثلها ؛  
 لأن الأولى بمدھا ینبوع وهو واحد ، والثانیة بمدھا الأنهار وهی جمع ، والتشدید بدل علی  
 التکثیر . أجب بان « يَنْبُوءًا » وإن کان واحدا فالمراد به الجمع ؛ کما قال مجاهد . النبوع  
 عین الماء ، والجمع ینابیع . وقرأ قتادة « أو یكون لک جنة » . ﴿ خِلَافًا ﴾ أى وسطها .  
 ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴾ قراءة العامة . وقرأ مجاهد « أو یسقط السماء » علی إسناد الفعل إلی  
 السماء . ﴿ كِسْفًا ﴾ قطعا ؛ عن ابن عباس وفیره . والکسف : یفتح السین جمع کسفة ، وهی  
 قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقون « کسفا » بإسکان السین . قال الأخفش : من قرأ  
 کسفا من السماء جعله واحدا ، ومن قرأ کسفا جعله جمعا . قال المهدوی : ومن أسکن  
 السین جاز أن یكون جمع کسفة و جاز أن یكون مصدرا ؛ من کسفت الشيء إذا غطیته .  
 فکانهم قالوا : أسقطها طبقا علینا . وقال الجوهری : الکیسفة القطعة من الشيء ؛ یقال :  
 أعطنی کسفة من ثوبک ، والجمع کسف وکسف . ویقال : الکیسف والکیسفة واحد .

﴿أَوْتَأْتِي بِلَهُوَ اللَّامِئِكَ قَيْسَلًا﴾ أى معاينة ، عرب فتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهد : هو جمع القبيلة ، أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة . وقيل : صمنا يضمنون لنا إتيانك به . ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَلَتْ مِنْ زُخْرِفٍ﴾ أى من ذهب ، عن ابن عباس وغيره . وأصله الزينة . والمُزَخَّرُ المزين . وزخارف الماء طرائفه . وقال مجاهد : كنت لا أدري ما الزُخْرُفُ حتى رأيته في قراءة ابن مسعود « بَلَتْ مِنْ ذَهَبٍ » أى نحن لانفاد لك مع هذا الفقر الذى نرى . ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أى تصعد ، يقال : رَقِيَ فِي السَّلْمِ أَرْقَى رُقْيًا وَرُقْيًا إِذَا صَعِدَتْ . وَارْتَقَيْتَ مِثْلَهُ . ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفِكَ﴾ أى من أجل رُقِكَ ، وهو مصدر ، نحو مضى يمضى مُضِيًا ، وهوى يهوى هُويًا ، كذلك رقى يرقى رُقْيًا . ﴿حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ أى كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، أى قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شىء وعن أن يُعترض عليه فى فعل . وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون « قل » على أمر ، أى قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أى ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أتبع ما يوحى إلى من ربى ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التى ليست فى قدرة البشر ، فهل سمعت أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جوابا مقنعا ، وغلطوا ، لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شىء مما سألتونى ، وليس لى أن أتخير على ربى ، ولم تكن الرسل قبلى يأتون أمهم بكل ما يريدونه ويبلغونه ، وسبلى سبيلهم ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم ، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها ، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولو وجب لكل إنسان أن يقول : لا أؤمن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيرى . وهذا يثول إلى أن يكون التدمير إلى الناس ، وإنما التدمير إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ  
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ) يعنى الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . (إِلَّا أَنْ قَالُوا) جهلا منهم . (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فبين الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثانا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة . فـ « أَنْ » الأولى فى محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و « أَنْ » الثانية فى محل رفع بـ « منع » أى وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونُ مُطْمَئِنِّينَ  
لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

أعلم الله تعالى أن الملك إنما يُرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أُرسل ملكًا إلى الآدميين لم يقدرُوا أن يروه على الهيئة التى خلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرُونَ به؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدّم فى « الأنعام » نظير هذه الآية وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ  
خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يرى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله : « هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل : « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

قوله تعالى : وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فُهو الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ  
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا  
وَصُمًّا مَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ كُلفًا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فُهو الْمُهْتَدِ) أى لو هداهم الله لاهتدوا . (وَمَنْ يُضِلْ) فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) أى لا يهديهم أحد . (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب : قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى هوانه وتعذيبه . وهذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة “ : قال قتادة حين بلغه : بلى وعِزَّة رَبَّنَا . أخرجه البخارى . وسلم . وحسبك . (عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا) قال ابن عباس والحسن : أى عُمِيَ عما يسرهم ، بُكْمٌ عن التكلم بحجة ، صُمٌّ عما ينفعهم ؛ وعلى هذا القول حواسمهم باقية على ما كانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابهم ، ثم يخلق ذلك لهم فى النار ، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : « وَرَأَى الْجَحِيمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ۖ وَتَكَلَّبُوا ۖ » لقوله تعالى : « دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۚ » ، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَفِيْظًا وَزَفِيرًا ۚ » . وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ » صاروا عُمِيَآ لا يبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون . وقيل : عمو حين دخلوا النار لشدة سوادها ، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ » . وذهب الزفر والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا . (مَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ) أى مستقرهم ومقامهم . (كُلفًا خَبَتْ) أى سكنت ؛ عن الضحاك

(١) راجع ج ١١ ص ٣ . (٢) راجع ج ١٣ ص ٧ . (٣) راجع ج ١٢ ص ١٥٣ .



وغیره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تخبو خبوا أى طفئت ، وأخيتها أنا . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى نارا تثلج . وسكون التها بها من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهم . عذابهم . وقيل : إذا أرادت أن تحبى . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ » .

قوله تعالى : ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنَا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٠٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى ترابا . ﴿ أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فانكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ قيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم ، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوَلَمْ نَسْأَلِ السَّمَاءَ سَكَا زَعَمْتَ طَبِينَا كَسَفَا » . وقيل : هو يوم القيامة . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث ، ولا ينبغي أن يشك فيه .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ نَزَاجِينَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا أَمْسَكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ﴿١٠٢﴾

(١) راجع ص ٢٦٩ من هذا الجزء .

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أى خزانة الأرزاق . وقيل : خزانة النعم ، وهذا أعم . ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ من البخل ، وهو جواب قولهم : «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءًا» حتى نتوسع في المعيشة . أى لو توسعتم ليعلمن أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزانة الله لما جاد بها بحدود الله تعالى ، لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفسه وما يعود بمنفعته . الثانى — أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقر إذا قلّ ماله . ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أى بخيلا مضيقا . يقال : قتر على عياله يقتر ويقترقرا وقُتورا إذا ضيق عليهم في النفقة ، وكذلك التقير والإفتار ، ثلاث لغات . واختلف في هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت في المشركين خاصة ؛ قاله الحسن . والثانى — أنها عامة ، وهو قول الجمهور ؛ وذكره الماوردى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ اختلف في هذه الآيات ؛ فقيل : هى بمعنى آيات الكتاب ؛ كما روى الترمذى والنسائى عن صفوان بن عسال المرادى أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله ؛ فقال : لا تقل له نبي فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين ؛ فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تشركوا بالله شيئا ولا تزورا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسرفوا ولا تسحرروا ولا تمشوا ببرىء إلى السلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفزوا من الزحف — شك شعبة — وعابكم [بامعشر] اليهود خاصة ألا تعدوا فى السبت» فقبلا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبي . قال :

«فَإِمْتَنَّاكَ أَنْ تُلَاسِمَنَا» قالا : إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نجي وإنا نخاف إن أسامنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى في البقرة <sup>(۱)</sup> . وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ؛ آيات مفصلات . وقال الحسن والشعبي : الخمس المذكورة في «الأعراف» <sup>(۲)</sup> ؛ يعنىان الطوفان وما عطف عليه ، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات . وروى نحوه عن الحسن ؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة ، وجعل التاسعة تلقف العصا ما يافكون . وعن مالك كذلك ؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل . وقال محمد بن كعب : هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم . وقد تقدم شرح هذه الآيات مستوفى والحمد لله . ( فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ) أى سلمهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، حسبما تقدم بيانه في بؤس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم . ( فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ) أى ساحرا بفرايب أفعالك : قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضع الفاعل ؛ كما تقول : هذا مشوم وميمون ، أى شائم ويامن . وقيل : مخدوعا . وقيل : مغلوبا ؛ قاله مقاتل . وقيل : غير هذا ؛ وقد تقدم . وعن ابن عباس وأبي نعيم أنها قرأا : « فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » على الخبر ؛ أى سأل موسى فرعون أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

قوله تعالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُثْبُورًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ( قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ ) يعنى الآيات التسع . و « أَنْزَلَ » بمعنى أوجد . ( إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ) أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته .

(۱) راجع ۱۷ ص ۴۳۹ . (۲) راجع ۷ ص ۲۶۷ . (۳) راجع ۸ ص ۳۷۳ فابعد .

وقراءة العامة «علمت» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء، وهي قراءة على<sup>(١)</sup> [بن أبي طالب] رضى الله عنه؛ وقال: والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذى علم، فبلغت ابن عباس فقال: إنها «لقد علمت»، واحتج بقوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا»<sup>(٢)</sup>. ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للعنى الذى احتج به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعى، ولو كان مع هذا كله تصح به القراءة عن على<sup>(٣)</sup> لكنت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كُثُوم المراءى وهو مجهول لا يعرف، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي. وقيل: إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتنبأ للسحرة فعله، وأن مثل ما فعل موسى لا يتنبأ لساحر، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شات وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جاني البيت بين فُقميها، ففزع وأحدث في قطيفته. [الفقم بالضم اللحي، وفي الحديث "من حفظ ما بين فُقميه"<sup>(٤)</sup> أى ما بين لحييه]. (وَلَيْتَ لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) الظن هنا بمعنى التحقيق. والنبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكُتَيْب:

ورأت قُضَاعَةً فِي الْأَيَا \* مِنْ رَأَى مَثْبُورٍ وَثَابِرٍ

أى مخدور وخامر، يعنى في انتسابها إلى اليمن. وقيل: ملعونا. رواه المِثْنَال عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس. وقاله أبان بن تغلب. وأنشد:

يا قومنا لا تروموا حربنا سَفَهًا \* إِنْ السَّفَاهُ وَإِنْ الْبَقَى مَثْبُورٌ

أى ملعون. وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس: «مَثْبُورٌ» ناقص العقل. ونظير المأمون رجلاً فقال له: يا مَثْبُور؛ فسئل عنه قال: قال الرشيد قال المنصور لرجل: مَثْبُور؛ فسأله فقال: حدثني ميمون بن مهران... فذكره وقال قتادة: هالكا. وعنه أيضاً والحسن

(١) من ج: (٢) راجع ج ١٣ ص ١٥٦ فابعد. (٣) من ج: روى. في النهاية: بالضم لفتح — اللحي. تمام الحديث «ورجله دخل الجنة» يريد من حفظ لسانه وفروجه.

ومجاهد : مهلكا . والثبور : الهلاك ؛ يقال : ثبر الله العدو ثبورا أهلكه . وقيل : ممنوا من الخير . حكى أهل اللغة : ما تبرك عن كذا أى ما منعتك منه . وثبره الله يشبره (ويشبره لغتان) . قال ابن الزبيري :

إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْقَدِّ • سَيَّ وَمِنْ مَالٍ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

الضحاك : « مَثْبُورًا » مسحورا . ردّ عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : « مَثْبُورًا » مخبولا لا عقل له .

قوله تعالى : فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٦﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ( فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ) أى أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر [إما] بالقتل أو بالإبعاد ؛ فأهلكه الله عز وجل . ( وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ) أى من بعد إغراقه . ( لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ ) أى أرض الشام ومصر . ( فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ) أى القيامة . ( جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ) أى من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ، ولا يتحاز أحد منكم إلى قبيله وحبه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتى . والمعنى واحد . قال الجوهري : واللّفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ؛ يقال : جاء القوم بلففهم ولفيفهم ، أى وأخلطهم . وقوله تعالى : « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لّفيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا . وقلان لّفيف فلان أى صديقه . قال الأصمعي : اللّفيف جمع ولبس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبي : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ » يعنى عيسى عليه السلام من السماء .

(١٠٦) من به . وفى : إما بالقتل وإما بالإبعاد .

(١٠٧) من به وورى .



قوله تعالى : **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا**

**وَنَذِيرًا** ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : **(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ)** هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع إلى القرآن . ووجه التكرير في قوله : **« وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ »** يجوز أن يكون معنى الأول : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثاني : ونزل وفيه الحق ؛ كقوله : خرج بثبابة ، أى وعليه ثيابه . وقيل : الباء في : **« وَبِالْحَقِّ »** الأول بمعنى مع ، أى مع الحق ؛ كقولك : ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . **« وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ »** أى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أى نزل عليه ؛ كما تقول : نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى بالحق قدرنا أن ينزل ، وكذلك نزل . قوله تعالى : **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ**

**تَنْزِيلًا** ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : **(« وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ »)** مذهب سيبويه أن « قرآنًا » منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرأ جمهور الناس : **« فَرَقْنَاهُ »** بتخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل ؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصلناه . وقرأ ابن عباس وعلى وابن مسعود وأبى بن كعب وقنادة وأبو رجاء والشَّعْبِيُّ « فَرَقْنَاهُ » بالتشديد ، أى أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة ؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبى « فَرَقْنَاهُ عَلَيْكَ » . واختلف في كم نزل القرآن من المدة ؛ ف قيل : في خمس وعشرين سنة . ابن عباس : في ثلاث وعشرين . أنس : في عشرين . وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا في « البقرة » (١) . **(« عَلَى مُكْثٍ »)** أى تناول في المدة شيئاً بعد شيء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود ، أى أنزلناه آية آية وسورة سورة . وأما على القول الأول فيكون **« عَلَى مُكْثٍ »** أى على ترسل في التسلاوة وترتيل ؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج . فيعطى القارئ القراءة حقها من

ترتيلها وتحسينها وتطهيرها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تاحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع الفراء على ضم الميم من « مُكْت » إلا ابن محيص فإنه قرأ « مكث » بفتح الميم . ويقال . مَكْتُ ومُكْتُ ومِكْتُ ثلاث لغات . قال مالك : « على مُكْتُ » على ثبوت وترسيل .

قوله تعالى : ( وَتَرْتَلَاهُ تَرْتِيلًا ) مبالغة وتأكيد بالمصدر للعلم المتقدم ، أى أنزلناه تنجيماً بعد تحميم<sup>(١)</sup> ؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا .

قوله تعالى : قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ) يعنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التحخير . ( إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ) أى من قبل نزول القرآن ونحروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب ؛ في قول ابن جريج وغيره . قال ابن جريج : معنى ( إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ) كتابهم . وقيل : القرآن . ( يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ) وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبي عليه السلام ، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل . وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمة عهد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : لهم ناس من اليهود ؛ وهو أظهر لقوله : « مِنْ قَبْلِهِ » . « إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » يعنى القرآن في قول مجاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : « سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا » . وقيل : كانوا إذا تلووا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خضعوا وسجدوا وسبحوا ، وقالوا : هذا هو المذكور في التوراة ، وهذه صفته ، ووعد الله به واقع لا محالة ، وجنحوا إلى الإسلام ؛ فترت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبيله

(١) في الأصول : « المؤدى » . (٢) راجع ج ١ ص ٢٧ . (٣) في ج : ترتيل

(٤) أى نزل آية آية وسورة سورة .

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والضمير في « قبله » عائد على القرآن حسب الضمير في قوله « قُلْ آمِنُوا بِهِ » . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وآستأنف ذكر القرآن في قوله « إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ » .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾  
 دليل على جواز التسبيح في السجود . وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده « سبحانك اللهم ربنا » <sup>(١)</sup> ويحمدك اللهم أغفر لي

قوله تعالى : وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾  
 فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ) هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم . وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخضع عند استماع القرآن ويتواضع ويدل . وفي مسند الدارمي أبي محمد عن النبي قال : من أوتي من العلم ما لم يبيته نخليق ألا يكون أوتي علما ؛ لأن الله تعالى نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبري أيضا . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع اللغين . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللحي ؛ أي يضعونها على الأرض في حال السجود ، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على ؛ تقول : سقط لي فيه أى على فيه . وقال ابن عباس : « يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا » أى للوجود ، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان . قال ابن خزيمة : ولا يجوز السجود على الذقن ؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه ، وقد يعبر بالشئ عما جاوره وببعضه عن جميعه ؛ فيقال : خر لوجهه ساجدا وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه . ألا ترى إلى قوله : \* نَحَرَ صَرِيحًا لِلدِّينِ وَلِلْفَمِ \*  
 فإنما أراد : نحر صريحا على وجهه ويديه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته في دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . وفي كتاب أبي داود : وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

الثالثة — واختاف الفقهاء في الأذين ؛ فقال مالك : الأذين لا يقطع الصلاة للريض ، وأكرهه للصحيح ؛ وبه قال الثوري . وروى ابن الحكم عن مالك : التنحُّن والأذين والتفخ لا يقطع الصلاة . وقال ابن القاسم ؛ يقطع . وقال الشافعي : إن كان له حروف تسمع وتُفهم يقطع الصلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كله تامة ؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أذين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ تقدّم القول في الخشوع في « البقرة »<sup>(١)</sup> ويأتي .

قوله تعالى : قُلْ اذْعُوا لِلَّهِ أَوْ اذْعُوا لِلرَّحْمَنِ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تُخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ اذْعُوا لِلَّهِ أَوْ اذْعُوا لِلرَّحْمَنِ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو " يا الله يا رحمن " فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين ؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال في دعائه : " يا رحمن يا رحيم " فسمعه رجل

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٤ ، وج ١٢ ص ١٠٣ .

من المشركين ، وكان بالجماعة رجل يسمى الرحمن ، فقال ذلك السامع : ما بال مجد يدعو رحمان الجماعة . فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمى واحد ؛ فإن دعوتوه بالله فهو ذلك ، وإن دعوتوه بالرحمن فهو ذلك . وقيل : كانوا يكتبون في صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »<sup>(١)</sup> فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع في القرآن اسما هو في التوراة كثير . يعنون الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقرا طلحة بن مُصَرِّف « أَيُّ مَنْ تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » أى التى تقتضى أفضل الأوصاف وأشرف المعاني . وحسنُ الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنص عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معاني حسنا شريفة ، وهى بتوقيف لا يصح وضع أسم الله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبا ببناءه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : ( وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا ) فيه مسئلتان :

الأولى — اختلفوا فى سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول — ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا » قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متواري بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافُهَا » عن أصحابك . اسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر . ( وَأَبَسَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ) قال : يقول بين الجهر والخافتة ؛ أخرجهم البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم . واللفظ لمسلم . والخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال لبيت إذا برد : خفت . قال الشاعر :

لم يبق إلا نفس خافت \* ومُقلَّةٌ إنسانها باهت

رَفَى لها الشامت مما بها \* يَأْوِجُ من يَرَى له الشامت

(١) راجع ج ١٣ ص ١٩١ فابعد .



الثاني — مارواه مسلم أيضا عن عائشة في قوله عز وجل : « وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتُمْهَا » قالت : أنزل هذا في الدعاء .

الثالث — قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشدهم فنزلت الآية في ذلك . قلت : وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود : من السنة أن تخفي التشهد ، ذكره ابن المنذر .

الرابع — ماروى عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضى الله عنه كان يُسر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، ف قيل لها في ذلك ، فقال أبو بكر : إنما أنا جري ، وهو يعلم حاجتي إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر : أرفع قليلا ، وقيل لعمر : أخفض أنت قليلا ، ذكره الطبري وغيره .

الخامس — ماروى عن ابن عباس أيضا أن معناه ولا تجهر بصلاة النهار ، ولا تخافت بصلاة الليل ، ذكره يحيى بن سلام والزهرائى . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصلى مخير في الجهر والسر في الليل والنهار ، وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا وأما الفرائض فحكها في القراءة معلوم ليلا ونهارا وقول سادس — قال الحسن : يقول الله لا تراءى بصلاتك تحسنها في العلانية ولا تسيتها في السر . وقال ابن عباس : لا تصل مراثيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانية — عبر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ، لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها ، فعبّر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء ، على عادة العرب في المجاز وهو كثير ، ومنه الحديث الصحيح : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى » أى قراءة الفاتحة على ما تقدم .

قوله تعالى : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَخْخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذا: عز يزوعسى والملائكة ذرية<sup>(١)</sup> الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يحميه من الدل فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولي من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّ » يعنى لم يذل فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لعزته وكبريائه . ﴿ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ أى عظمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شئ . قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شئ • محاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة قال : « الله أكبر » وقد تقدم أول الكتاب . وقال عمر بن الخطاب : قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هى خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبد الله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفى الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ وقال الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً » . وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكاً إليه بالدين أن يقرأ « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحى الذى لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإسماء ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

(١) فى ج : تنزيه الله . (٢) راجع ج ١ ص ١٧٥ .

## تفسير سورة الكهف

وهي مكية في قول جميع المفسرين، وروى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله : « بُرْزَا » ، والأول أصح . وروى في فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعْطِيَ نوراً بين السماء والأرض ووُفِّي بها فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملاً عِظْمُهَا ما بين السماء والأرض لتأليها مثل ذلك » . قالو : بلى يا رسول الله ؟ قال : « سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأُعْطِيَ نوراً يبلغ السماء ووُفِّي فتنة الدجال » ذكره الثعلبي والمهدوي أيضاً بمعناه . وفي مسند الداريمى عن أبى سعيد الخدرى قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق . وفي صحيح مسلم عن أبى الدرداء أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » . وفي رواية « من آخر الكهف » . وفي مسلم أيضاً من حديث النواس بن سيمعان « فمن أدركه — يعنى الدجال — فليقرأ عليه فوائح سورة الكهف » . وذكره الثعلبي . قال : سُمِرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم تضره فتنة الدجال » . ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة .

قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ قوله تعالى : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا ) ذكر ابن إسحاق أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أخبار يهود وقالوا لها :

سَلَامٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصَفًا لَهُ صِفَتَهُ وَأَخْبَرَاهُمْ بِقَوْلِهِ ، فَانْهَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلُ ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدَمَا الْمَدِينَةَ ، فَسَأَلَا أَجْبَارَ يَهُودٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ ، وَأَخْبَرَاهُمْ بِبَعْضِ قَوْلِهِ ، وَقَالَا لَهُمْ : إِنَّا نَكُنُّ أَهْلَ التَّوْرَةِ وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِنُخْبِرَوْنَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا . فَقَالَتْ لَهُمَا أَجْبَارُ يَهُودٍ : سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثِ أَمْرٍ مَكْرَمٍ مِنْهُ ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ مِنْهُ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ ، فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ ، وَسَلَوَهُ عَنْ فِتْنَةِ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، مَا كَانَ أَمْرُهُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجَبٌ . وَسَلَوَهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، مَا كَانَ تَبَوُّهُ . وَسَلَوَهُ عَنْ الرُّوحِ ، مَا هِيَ ، فَمَاذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَادَا لَكُمْ . فَأَقْبَلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدَمَا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلٍ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — قَدْ أَمَرْنَا أَجْبَارَ يَهُودٍ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمَرُونَا بِهَا ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ ، فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ . فَبَغَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبَرْنَا عَنْ فِتْنَةِ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصَّةٌ عَجَبٌ ، وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَافًا قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأَخْبَرْنَا عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ ؟ قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” أَخْبَرَكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا “ وَلَمْ يَسْتَنْ . فَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَكُتِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَزْعُمُونَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْيًا وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ ، حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلَ مَكَّةَ وَقَالُوا :

وَعِدْنَا مُحَمَّدًا غَدًا ، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ ، مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ ، وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكْتُوبَ الْوَحْيِ عَنْهُ ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَحْقَابِ الْكَهْفِ فِيهَا مَعَابِتُهُ إِيَّاهُ عَلَى حَزْنِهِ عَلَيْهِمْ ، وَخَبَّرَهُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْفِتْنَةِ ، وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ وَالرُّوحِ . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِجِبْرِيلَ : ” لَقَدْ احْتَبَسْتُ عَنْكَ

(١) فِي جِدِّ يُخْبِرُكُمْ . (٢) أَيْ لَمْ يَقُلْ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — إِنَّ شَاءَ اللَّهُ . (٣) أَرْجَفَ الْقَوْمَ : خَاضُوا فِي الْأَخْبَارِ السَّيِّئَةِ وَذَكَرَ الْفِتْنَ وَفِي جِدِّ : أَوْجَفَ وَهُوَ الْأَخْطَرُ ، وَلَهُ رَمٌّ مِنَ النَّاسِ .

یا جبریل حتی سُئِيتُمْ ظَنًّا“ فقال له جبریل : « وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَأْتِ أَيْدِيَنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » . فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذكر نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ »، يعني حمدا، إنك رسول مني، أى تحقيق لما سألو عنه من نبوتك . « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَبِيًّا » أى معتدلا لا اختلاف فيه . « لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ » أى عاجل عقوبته في الدنيا، وعذابا إلما في الآخرة، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا « وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا »، يعنى قريشا في قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله . « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَمَّا كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ أَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « بِأَخْبَحُ نَفْسُكَ » أى مهلك نفسك؛ فيها حدثنى أبو عبيدة . قال ذو الرقة :

ألا أيهذا البائح الوجد نفسه • بشيء تحته عن يديه المقادير<sup>(١)</sup>

وجمعها باخمون وبجعة . وهذا البيت في قصيدة له . وتقول العرب : قد جمعت له نصيحي ونفسي ، أى جهدت له . « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قال ابن إسحاق : أى أيهم أتبع لأمرى وأعمل بطاعتي . « وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى الأرض، وإن ما عليها لفان وزائل، وإن المرجع إلى فأجرى كلاً بعمله؛ فلا تأس ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصعيد وجه الأرض، وجمعه صُعد . قال ذو الرقة بصف ظيياً صغيراً :

(٢) مقلدها :

(١) راجع ج ١١ ص ١٢٨ .

لمية أطلال بحزري دوائر • ففها السواق بعدنا والمواطر



كَأَنَّهُ بِالضُّحَا تَرْمِي الصَّعِيدَ بِهِ \* دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ تُخْرُطُومُ<sup>(١)</sup>  
وهذا البيت في قصيدة له<sup>(٢)</sup> . والصعيد أيضا : الطريق ، وقد جاء في الحديث : ” إياكم  
والقعود على الصُّعَدَاتِ “ يريد الطرق . والجُرُز : الأرض التي لا تثبت شيئا ، وجمعها  
أجرار . ويقال : سَنَةٌ جُرُزٌ وَسَنُونَ أجزار ؛ وهي التي لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جدوبة  
وبس وشدة . قال ذو الرمة يصف إبلا :

طَوَى النَحْزَ وَالْإِجْرَازَ مَا فِي بَطُونِهَا \* فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَّاشِعُ<sup>(٣)</sup>  
قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيها سألوه عنه من شأن الفتيحة فقال :  
« أُمِّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » أى قد كان من آيات  
فيا وضعت على العباد من حجتى ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكفا  
الذى رُقِمَ بخبرهم ، وجمعه رُقُم . قال العجاج :

\* وَمُسْتَقَرُّ الْمَصْحَفِ الْمُرْقِمِ \*

وهذا البيت في أرجوزة له<sup>(٤)</sup> . قال ابن إسحاق : ثم قال : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ  
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ  
سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » . ثم قال : « نَحْنُ نَقُصُّ  
عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » أى بصدق الخبر « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى  
قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا  
إِذَا شَطَطًا » أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : وَالشَّطَطُ  
الغلُو ومجاوزة الحق . قال أعشى [ بنى ] قيس بن ثعلبة :

أَنْتُمْ وَوَدَّ وَلَا يَنْهَى ذَوَى شَطِيطِ \* كَالطَّلَعِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتُّ

(١) أى بالدبابة : النحر . والخرطوم : النخر وصفوها . (٢) مغلها :

أعنى ترممت من نرقاء منزلة \* ماء الصبابة من عيبك مسجوم

(٣) النحر : الضرب والدفع . والجراشع : الغلاظ ؛ الواحد جرشع . (٤) مغلها :

يأدار سلهى يا اسلهى ثم اسلهى \* بسمهم أو عن يمينهم مسمم

(٥) من ج .

وهذا البيت في قصيدة له . قال ابن إسحاق <sup>(١)</sup> : « هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » . قال ابن إسحاق : أى بحجة بالغة . « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدُوا إِلَى الْكَهْفِ يُنْشِرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ » . قال ابن هشام : تراور تمل ؛ وهو من الزور . وقال أبو الزحف الكلبي <sup>(٢)</sup> يصف بلدا :

جَذِبَ الْمُنْدَى عَنْ هَوَانِ أَزُورٍ \* يُنْضِي الْمَطَايَا نَحْسَهُ الْعَشَرُ

وهذان البيتان في أرجوزة له . و « تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » تجاوزهم وتركهم عن شمالها . قال ذو الرمة :

إِلَى طُغْنٍ يَقْرِضُنْ أَقْوَاظَ مُشْرِفٍ \* شِمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِنِ الْفَوَارِسِ <sup>(٣)</sup>

وهذا البيت في قصيدة له . والفجوة : السعة ، وجمعها الفجاء . قال الشاعر :

أَلْبَسْتَ قَوْمَكَ نَحْزَةً وَمَنْقَصَةً \* حَتَّى أَيْبَحُوا وَحَلُّوا بِفُجْوَةِ الدَّارِ

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ » أى في المحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب من أمر هؤلاء بمسئلتك عنهم في صدق نبؤتك بتحقيق الخبر عنهم . « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

(١) مطلقها : ودع هريرة إن الركب مرتحل \* وهل تطيق وداعا أبها الرجل

(٢) في اللسان مادة « سمهد » أنه أبو الزحف الكلبي . واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله : « قوله الكلبي نسبة لكاتب كأمير بلدة بالرى » . وما يقوى أنه الكلبي ( بالباء ) ما ذكره ابن خنيس في كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطمي بن عم جرير الشاعر . ومن الذين أن جرير من بنى كليب . (٣) قبله :

\* ودوت ليل بلد سمهد \*

وبلد سمهد : بعيد مفضلة واسع . والمندى : حيث يرتع ساعة من النهار . والأزور : الطريق المعوج . وأنفى البعير : هزله بكثرة السير . وانحس ( بكسر السين ) من أظلام الليل ، أن ترمى ثلاثة أيام وتزد اليوم الرابع . والمشرذ : الشديد . (٤) بنى البيتين هنا شطرى الرجز .

(٥) الفوز ( بالفتح ) : العالي من الرمل كأنه جبل . والفوارس : رمال بالهنا . (٦) مطلقها :

ألم تسأل اليوم الرسوم الدهوارس \* بجزوى وهل تدرى الفغار الباس

الشَّيْطَانِ وَكُلُّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ « قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبدى وأسمه عبد بن وهب :

بَارِضٌ فَلَاةٌ لَا يُسَدُّ وَصِيدَهَا \* عَلَى وَمَعْرُوفٍ بِهَا غَيْرُ مَنْكِرٍ  
وهذا البيت في أبيات له . والوصيد أيضا الفناء ، وجمعه وصائد ووُصِدَ ووُصِدَان .  
« لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا - إلى قوله - الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان  
والملك منهم . « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . سَيَقُولُونَ » يعنى أجبأر اليهود الذين أمرهم  
بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُمْ كُلَّهُمْ يَقُولُونَ نَحْمَدُكَ سَادِسُهُمْ كُلُّهُمْ رَجُلًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ  
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ قُلٌّ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَمَلِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ » أى لانكأرهم .  
« إِلَّا مَرَاءَ ظَاهِرًا وَلَا تَنْسِفَتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ  
إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ وَادَّكُرْ بِكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى  
لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أى لا تقولن لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إنى مخبركم غدا ،  
واستن مشيئة الله ، وأد كر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لخبر ما سألتونى عنه  
رشدًا ، فإنك لا تدري ما أنا صانع فى ذلك . « وَلَيْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا »  
أى سيقولون ذلك . « قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ  
مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشِيرُكَ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » أى لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه .  
قلت : هذا ما وقع فى السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقه .<sup>(٢)</sup> وياتى خبر  
ذى القرنين ، ثم نعود إلى أول السورة فنقول :

قد تقدم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائى والفراء وأبو عبيد وجمهور المتأولين  
أن فى أول هذه السورة تقدما وتأخيرا ، وأن المعنى : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا  
ولم يجعل له عوجا . و « قَيِّمًا » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سياقه من غير تقديم  
ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قَيِّمًا . وقول الضحاك فيه حُسْنٌ وَأَنْ

(١) فى سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أورربا ورج ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبي .

المعنى : مستقيم<sup>(۱)</sup>، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قِيَا » على الكتب السابقة بصدقها . وقيل : « قِيَا » بالجمع أبدا . « عَوْجًا » مفعول به ، والعَوَج (بكسر العين) فى الدين والرأى والأمر والطريق . وافتحها فى الأجسام كالخشب والحداد ؛ وقد تنعّذ<sup>(۲)</sup> . وليس فى القرآن عَوَج ، أى عيب ، أى ليس متناقضا مختلفا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا<sup>(۳)</sup> » وقيل : أى لم يجعله مخلوقا ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوَج<sup>(۴)</sup> » قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عَوْجًا » اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودى للصدق تكُرُّمًا \* ولا خير فيمن كان فى الود أعوجًا

(لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) أى لينذر عجد أو القرآن . وفيه إضمار ، أى لينذر الكافرين عقاب الله . وهذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . (مِنْ لَدُنْهُ) أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدنه » بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بباء . الباقون « لَدُنْهُ » بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء . قال الجوهري : وفى « لَدُنْ » ثلاث لغات : لَدُنْ ، وَلَدَى ، وَلَدُ . وقال :

وفى « لَدُنْ » ثلاث لغات : لَدُنْ ، وَلَدَى ، وَلَدُ . وقال :

مِنْ لَدُنْ لَحِيْبِهِ إِلَى مُنْجُورِهِ<sup>(۵)</sup> \*

الْمُنْجُورُ لُغَةٌ فِي الْمُنْحَرِ .

قوله تعالى : (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ) أى بأن لهم . (أَجْرًا حَسَنًا) وهى الجنة . (مَا كَثِيرٌ) دأمين . (فِيهِ أَبَدًا) لا إلى غاية . وإن حلت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء فى «أن» . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدى إلى الجنة .

(۱) أى معنى قوله « قِيَا » . (۲) راجع ج ۴ ص ۱۰۴ . (۳) راجع ج ۵ ص ۲۸۸ . (۴) راجع ج ۱۵ ص ۲۵۲ . (۵) هذا بجزيت ليلان بن حريث . وصدره كافى اللسان :

\* يستوعب البوعين من جريه \*

والمُنْجُور (بالحاء المهملة وضم الميم) لغة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصاح الجوهري واللسان مادة « نحر » ولدن « بالحاء المعجمة » وهو الأنف . وقد استندرك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاده كما أنشده سيبره « إلى منجوره » بالحاء . وصف الشاعر بيرا أفرسا بطول الدنق ، بقوله يستوعب من حبسه الذى يرتقى به مقدار باعين قيا بين لحبيه ونحره : والبوع : الباع . والبرير : الحيل .

قوله تعالى : وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٦٠﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ( وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ) وهم اليهود، قالوا : عزيز ابن الله، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله وقريش قالت : الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ( مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ) « من » صلة، أى ما لهم بذلك القول علم، لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ( وَلَا لِآبَائِهِمْ ) أى أسلافهم . ( كَبُرَتْ كَلِمَةً ) « كلمة » نصب على البيان ؛ أى كبرت تلك الكلمة كلمة . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق « كلمة » بالرفع، أى عظمت كلمة ؛ يعنى قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشئ، إذا عظم . وكبر الرجل إذا استن . ( تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ) فى موضع الصفة . ( إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ) أى ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ( فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ) « باخِع » أى مهلك وقاتل ؛ وقد تقدم . « آثَرِهِمْ » جمع اثر، ويقال : اثر، والمعنى : على اثر توليهم وإعراضهم عنك . ( إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ ) أى القرآن . ( آسَفًا ) أى حزنا وغضبا على كفرهم؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ) فيه مستلطان :



الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ « ما » و « زينة » مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض ، فهو عموم ؛ لأنه دال على بآرته . وقال ابن جبير عن ابن عباس : أراد بالزينة الرجال ؛ قاله مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمرء . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ، ونحو هذا مما فيه زينة ، ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحیات والعقارب . والقول بالعموم أولى ، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التسلية ؛ أى لآلئهم يا محمد للدنيا وأهلها فإنما جعلنا ذلك أمتعانا واختياراً لأهلها ؛ فمنهم من يتدبرو يؤمن ، ومنهم من يكفر ، ثم يوم القيامة بين أيديهم فلا يعظمن عليك كفرهم فإنما نجازيهم .

الثانية - معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون " . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا " قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : " بركات الأرض " نرجعها مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري . والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كآثر المستحل المعجب المرأى ؛ فأبتلى الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملاً . أى من أزهدها وأترك لها ؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زينته الله إلا [ أن ] بعينه على ذلك . ولهذا كانت عمر يقول فيما ذكر البخاري : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم إني أسألك أن أتقنه في حقه . فدعا الله أن بعينه على إنفاقه في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " فن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذى يأكل ولا يشبع " وهكذا هو المكث من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همته جمعها ؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلة وعدم السلامة غالبية ، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وأقنعه (١) الحديث كافى كشف الغطا : « الدنيا خضرة... فناظر كيف... » رواه مسلم . (٢) أى يتطلع إليه ويطمع فيه .

الله بما آتاه . وقال ابن عطية : كان أبي رضى الله عنه يقول فى قوله : « أحسن عملا » : أحسن العمل أخذ بحق وإنفاق فى حق مع الإيمان ، وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه .

قلت : هذا قول حسن ، وجيز فى الفاظه بليغ فى معناه ، وقد جمعه النبى صلى الله عليه وسلم فى لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثقفى لما قال : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك — فى رواية : غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » خرجه مسلم . وقال سفيان الثورى : « أَحْسَنُ عَمَلًا » أزهدهم فيها . وكذلك قال أبو عصام العسقلانى : « أحسن عملاً » أترك لها . وقد اختلفت عبارات العلماء فى الزهد ؛ فقال قوم : قصر الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء ؛ قاله سفيان الثورى . قال عطاءنا : وصدق رضى الله عنه ! فإن من قصر أمله لم يتأق فى المطعومات ولا يتقن فى اللبوسات ، وأخذ من الدنيا ما تيسر ، واجترأ منها بما يبلغ . وقال قوم : بغض المحمدة وحب النناء . وهو قول الأوزاعى ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد ؛ أحب تركها أم كره . وهو قول فضيل . وعن بشر بن الحارث قال : « حب الدنيا حب لقاء الناس ، والزهد فى الدنيا الزهد فى لقاء الناس . وعن الفضيل أيضا : علامة الزهد فى الدنيا الزهد فى الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من أخذها ؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تهذب فى الدنيا بقبالك ؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حب الموت . والقول الأول يعنى هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَجَالِعُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٥٨﴾

تقدم بيانه . وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به ؛ كأنه قطع نباته . والجُرُز : القطع ، ومنه سنة جرُز . قال الراجز :<sup>(١)</sup>  
<sup>(٢)</sup>

\* قد جَرَحَتْهُنَّ السُّنُونُ الْأَجْرَازُ \*

(١) ص ٣٤٨ من هذا الجزء . (٢) فى به : وسيف جراز . وفى اللسان : سيف جراز بالضم قاطع .

والأرض المحْرُزُ التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . بمعنى يوم القيامة ، فإن الأرض تكون مستوية لا مسترف فيها . النحاس : والحزب في اللغة الأرض التي لا نبات بها . قال الكسائي : <sup>(۱)</sup> **بَالَجِرَزَتِ الْأَرْضُ تَجْرُزُ** ، وجرزها القوم يجرّزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجرّزة وجرز .

قوله تعالى : **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ**

**ءَايَاتِنَا عَجَبًا** ﴿١﴾

مذهب سيبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهي المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام في « لملك » ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبري : وهو تقرير للنبي صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجباً ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وآبن إصحاق . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن المشركين سأله عن فتية فُقدوا ، وعن ذى القرنين وعن الروح ، وأبطأ الوحي على ما تقدم . فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ؟ أى ليسوا بعجب من آياتنا ، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم . الكلبي : خَلَقَ السموات والأرض أعجب من خبرهم . الضحاك : ما أطلعك عليه من الغيب أعجب . الجنيّد : شأنك في الإسماء أعجب . الماوردي : معنى الكلام النفي ؛ أى ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أى أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : الثقب المتسع في الجبل ؛ وما لم يتسع فهو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير شهير في اللغة .

واختلف الناس في الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة :

**غُسْلِينَ وَحَنَانَ وَالْأَنْوَاءَ وَالرَّقِيمَ** . وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية خرجوا

(۱) في الكلمة أربع لغات : **جُرَزَ** ، **بُرَزَ** ، **بُرُزَ** ، **جَرَزَ** .

منها . وقال مجاهد : الرقيم واد . وقال السدي : الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف . وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غم الله علينا أمره ، ولم يشرح لنا قصته . وقالت فرقة : الرقيم كتاب في لوح من نحاس . وقال ابن عباس : في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفار الذين فرقتهم منهم قصتهم وجعلوها تاريخاً لهم ، ذكروا وقت فقدهم ، وكُم كانوا ، وبين من كانوا . وكذا قال الفراء ، قال : الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماءهم وأنسابهم ودينهم ومن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث ، وذلك من نُبيل الملكية ؛ وهو أمر مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرقيم ؛ ومنه "كتاب مرقوم" <sup>(١)</sup> . ومنه الأرقم لتخطيطه . ومنه رقة الوادي ، أي مكان جرى الماء وأنعطافه . وماروى عن ابن عباس ليس بمتناقض ؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كعب ، والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال : إن الفتية قد قتلوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال : ليكون لهم نبي ، وأحضر لوحاً من الرصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله في خزانته ؛ فذلك اللوح هو الرقيم . وقيل : إن مؤمنين كانوا في بيت الملك فكتبوا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم في لوح من رصاص ثم جعلوا في تابوت من نحاس وجعلوا في البنيان ؛ فأنه أعلم . وعن ابن عباس أيضاً : الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام . وقال النقاش عن قتادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشَّعْبِيّ : الرقيم كتبهم . وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر . وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم ؛ فذكر كل واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفي هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان ، وإليه نحا البخاري . وقال قوم : أخبر الله عن أصحاب الكهف ، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشيء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً كانوا نيام على هيئة أصحاب الكهف ، فعلى هذا هم

(١) في ج : وبن من كانوا . (٢) راجع ١٩ ص ٢٥٤ . (٣) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ٨٩ طبع الاسنائة . وشرح السطواني على صحيح البخاري ج ٤ ص ٢١٧ ، ج ٥ ص ٥٠٩ ، ج ٦ ص ٥ طبع بولاق .

فَتَبِعَ آخَرُونَ جُرَىٰ لِمَ جَرَىٰ لِأَصْحَابِ الْكَهْفِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقِيلَ : الرِّقِيمُ وادٍ دُونَ فَلَسْطِينَ فِيهِ الْكَهْفُ ، مَأْخُذٌ مِنْ رَقَّةِ الْوَادِي وَهِيَ مَوْضِعُ الْمَاءِ ، يُقَالُ : عَلَيْكَ بِالرَّقَّةِ وَدَعِ الصَّقَّةَ ، ذَكَرَهُ الْغَزَنَوِيُّ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَبِالشَّامِ عَلَى مَا سَمِعْتُ بِهِ مِنْ نَاسٍ كَثِيرٍ [كَهْفٌ] فِيهِ مَوْتَى ، يُزْعَمُ مَعَاوِرُهُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكَهْفِ وَعَلَيْهِمْ مَسْجِدٌ وَبَنَاءٌ يُسَمَّى الرِّقِيمَ وَمَعَهُمْ كَلْبٌ رَقَّةٌ . وَبِالْأَنْدَلُسِ فِي جِهَةِ غَرْنَاطَةَ بِقَرْبِ قَرْيَةٍ تَسْمَى أَوْشَةَ كَهْفٌ فِيهِ مَوْتَى وَمَعَهُمْ كَلْبٌ رَقَّةٌ ، وَأَكْثَرُهُمْ قَدْ تَجَزَّدَ لَحْمُهُ وَبَعْضُهُمْ تَحَاسَكَ ، وَقَدْ مَضَتْ الْقُرُونُ السَّالِفَةُ وَلَمْ يُجَدَّ مِنْ عِلْمِ شَأْنِهِمْ أَنْتَارَةٌ . وَيُزْعَمُ نَاسٌ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكَهْفِ ، دَخَلَتْ لَيْلُهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ سَنَةً أَرْبَعَ وَخَمْسِمِائَةً وَهَمَّ بِهَذِهِ الْحَالَةِ ، وَعَلَيْهِمْ مَسْجِدٌ ، وَقَرِيبٌ مِنْهُمْ بَنَاءٌ رُومِيٌّ يُسَمَّى الرِّقِيمَ ، كَأَنَّهُ قَعْرُ مُخْلَقٍ قَدْ بَقِيَ بَعْضُ جِدْرَانِهِ ، وَهُوَ فِي فَلَاحَةِ الْأَرْضِ تَحْرِبَةً ، وَبِأَعْلَى غَرْنَاطَةَ مِمَّا يَلِي الْقِبْلَةَ أَنْتَارُ مَدِينَةٍ قَدِيمَةٍ رُومِيَّةٍ يُقَالُ لَهَا مَدِينَةُ دَقْيُوسَ ، وَجَدْنَا فِي أَنْتَارِهَا غُرَابًا مِنْ قُبُورٍ وَنَحْوِهَا .

قلت : ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم ؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف : « لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » . وقد قال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ؛ وسيأتي في آخر القصة . وقال مجاهد في قوله : « كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا نَجَّيًّا » قال : هم نَجَّبٌ . كذا روى ابن جرير عنه ؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم نَجَّبٌ . وروى ابن نجيب عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا .

قوله تعالى : إِذْ أَوْىَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٥﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( إِذْ أَوْىَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ) روى أنهم قوم من أبناء أشرف مدينة دقيوس الملك الكافر ، [يقال فيه : دقلْيُوس<sup>(٢)</sup>] ويقال فيه : دقيوس . وروى أنهم كانوا

(١) الأتارة : البقية .

(٢) من ٣



مطوّقين مسوّرين بالذهب ذوى ذوائب<sup>(١)</sup>، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى . وقيل : كانوا قبل عيسى ، والله أعلم . وقال ابن عباس : إن ملكا من الملوك يقال له : دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها : افسوس . وقيل : هى طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر به ادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون للقسرا ، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا ، وصروا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى قم الغار ، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فأسمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، فقال الملك : سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا . وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله ، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة ، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبا ذكر النقاش ، أو من مؤمنى الأئم قبلهم — فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس ، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله ، فرفع أمرهم إلى الملك ، وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آلهتك وكفروا بها ، فاستحضرهم الملك إلى<sup>(٢)</sup> مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته ، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل ، فقالوا له فيما روى : « رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ — إلى قوله — وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ » . وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به ، فقال لهم الملك : إنكم شبان أغمار لا عقول لكم ، وأنا لا أعجل بكم بل أستاذنى فأذهبوا إلى منازلكم وادبروا رأيكم وأرجعوا إلى أمرى ، وضرب لهم في ذلك أجلا ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم ، فقال لهم أحدهم : إني أعرف كهفا في جبل كذا ، كان أبى يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنخفي فيه حتى يفتح الله لنا ، فخرجوا فيما روى يلبون بالصولجان والكرة ، وهم يدرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم . وروى أنهم كانوا متقنين فخصر عید خرجوا إليه فركبوا في جملة الناس ، ثم أخذوا باللبب بالصولجان والكرة حتى خَاصُوا بذلك . وروى وهب بن منبه : أن أول أمرهم لما كان حوارى لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها ، فأبصر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة ،

(١) في جهامش : حتى رؤسهم .

(٢) في ج : في مجلسه .

فأتى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فتیاناً من [أهل] المدينة فعرفهم الله تعالى فأمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة<sup>(۲)</sup> بها فنهاء ذلك الخواری فأتته، ثم جاء مرة أخرى فنهاء فشتمه، وأمضى عنزه في دخول الحمام مع النبي، فدخل فأتا فيه جميعاً؛ فأتهم ذلك الخواری وأصحابه بقتلهم، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروى أنه كان كلب صيد لهم، وروى أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب فاتبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حران وقيل: قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه. والذي ذكره الطبري هي هذه: مكسيمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومخسيميلينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقبتهم، ومرطوس وكشوطوش ودينوس ويطونس ويرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسيمينا، وكان أسنمهم وصاحب غنم.

الثانية — هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم فاراً بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار حسباً تقدم في سورة «النحل»<sup>(۳)</sup>. وقد نص الله تعالى على ذلك في «براءة»<sup>(۴)</sup> وقد تقدم. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وفضلها جماعة من العلماء ولا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: «فَاوُوا إِلَى الْكَهْفِ».

(۱) من جه. (۲) في جه: الدخول بها. (۳) في جه: ما قدمناه. راجع ص ۱۵۹ من هذا الجزء.

(۴) راجع جه ۸ ص ۱۴۳ وما بعدها.

قال العلماء: الاعتزال عن الناس يكون مرّة في الجبال والشعاب، ومرّة في السواحل والرباط ومرّة في البيوت؛ وقد جاء في الخبر: "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك" ولم يخصّ موضعا من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك في تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فخص معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت. وروى البغوي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن الذي يخالط الناس وبصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم". وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسيل الحسن وغيره. وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما النجاة يا رسول الله؟ فقال: "يا عقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وآبك على خطيئتك". وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتى على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شرف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن". نرجه البخارى. وذكر على بن سعد عن الحسن ابن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتي العزبة والعزلة والترهب في رؤوس الجبال". وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأتى على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من شاق إلى شاق أو هجر إلى حجر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلت العزبة". قالوا: يا رسول الله، كيف تحل العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: "إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرايات والحيران". قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "نُعيّرُونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها".

(١) الحجر: الموضع. وكل ما هجرته من حائط فهو حجر.

قلت : أحوال الناس في هذا الباب تختلف ، فرب رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيان في الجبال ، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي أختارها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في بداية أمره ، ونص عليها في كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْنُوا إِلَى الْكَهْفِ <sup>(١)</sup> » . ورب رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل ، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن . وذكر ابن المبارك حديثا وهيب بن الورد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدثت نفسي ألا أخاطبهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بد لك من الناس ، ولا بد لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعا ، أعمى بصيرا ، سكوئا تطوقا . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب ، مثل الاعتكاف في المساجد ، ولزوم السواحل للزباط والذكر ، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإجماعات الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يُعْمَلُ فيها ؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه ؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « <sup>(٢)</sup> يعجب ربك من راعي غنم في رأس شِطْطِية <sup>(٣)</sup> الجبل يؤذن بالصلاة ويصل فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة » . أخرجه النسائي .

الثالثة — قوله تعالى : ( وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ) لما فروا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أي مغفرة ورزقا . « وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الفار في سلامة . وقيل : صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

(١) راجع ص ٣٦٧ من هذا الجزء . (٢) يعجب ؛ أي يرضى به ويثيبه .

(٣) الشطبية (فتح الشين وكسر الظاء) : قطعة مرتفعة في رأس الجبل (٤) أي إذا نزل به مهم أو أمان به غم وفي الأصول : « إذا أجزه » والتصويب عن كتب الحديث .

قوله تعالى : فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصیحات القرآن التي أفوت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سدنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى « فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ » أى فاستجبنا دعائهم ، وصرفنا عنهم شر قومهم ، وأنماهم . والمعنى كله متقارب . وقال قطرب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يعفر وكان ضيريرا :

ومن الحوادث لا أبالك أننى \* ضُرِيتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَسْدَادِ ﴿١١﴾

وأما تخصيص الآذان بالذكرا فلائها الجراحة التي منها عظم فساد النوم ، وقبلا ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يُستحکم نوم إلا من تَعَطَّلَ السمع . ومن ذكر الأذن في النوم قوله صلى الله عليه وسلم : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » خرجه الصحيح ، أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن التكرير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرف . والمصدر ، والعدد اسم المعداد كالتقص والخبط . وقال أبو عبيدة : « عَدَدًا » نصب على المصدر . ثم قال قوم : بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : « وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ) أى من بعد نومهم . ويقال لمن أخفى أو أقيم من نومه : مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعا من الأنبات والتصرف .

(١) واحد الأسداد : سدة ، وهو ذهاب البصر ، يقول : سدت على الطريق ، أى عبت على مذهبي .



قوله تعالى : ﴿لَتَعْلَمَنَّ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ «لَتَعْلَمَنَّ» عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ، وهذا على نحو كلام العرب ، أى لتعلم ذلك موجودا ، وإلا فليست كان الله تعالى علم أى الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزهرى «ليعلم» بالياء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا البشيم قليلا . والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، آخفا فى مدة أصحاب الكهف . وقيل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل : غير ذلك مما لا يرتبط بالفاظ الآية . و «أَحْصَى» فعل ماضى . و «أَمَدًا» نصب على المفعول به ؛ قاله أبو على . وقال الفراء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أى الحزبين أحصى للبشيم فى الأمد ، والأمد الغاية . وقال مجاهد : «أَمَدًا» معناه عدا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبرى : «أَمَدًا» منصوب بـ «لبشوا» . ابن عطية : وهذا غير مُتجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعال لا يكون من فعل رباعى إلا فى الشاذ ، و «أَحْصَى» فعل رباعى . وقد يحتاج له بأن يقال : إن أفعال فى الرباعى قد كثرت كقولك : ما أعطاه لئال وآناه للغير . وقال فى صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : «ماؤه أبيض من اللبن» . وقال عمر بن الخطاب : فهو لما سواها أضع .

قوله تعالى : ﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَانُوا بِرِيْهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾

قوله تعالى : ﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لما انقضى قوله تعالى : «لَتَعْلَمَنَّ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى» اختلافا وقع فى أمد الفتية ، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى : «لَهُمْ فِتْيَةٌ» أى شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوة الإيمان . وقال الجنيدي : الفتوة بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفتوة اجتنب المحارم واستعجال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعنى بالمعنى جميع ما قيل فى الفتوة .

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أى يسرناهم للعمل الصالح ، من الانقطاع إلى الله تعالى ، ومباعدة الناس ، والزهد في الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السدى : زادهم هدى بكلب الراعى حين طردوه ورجعوه مخافة أن يذبح عليهم ويذبح بهم ، فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعى فانطقه الله ، فقال : يا قوم ! لم تطردوننى ، لم ترجعوننى ! لم تضربوننى ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ، فزادهم الله بذلك هدى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر ، أعطاه الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » . ولما كان الفرع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشبه الزبط ، ومنه يقال : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفرع والحرب وغيرها . ومنه الزبط على قلب أم موسى . وقوله تعالى : « وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » <sup>(١)</sup> وتقدم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسألان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر — كما تقدم ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا في ذات الله هيئته . والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعة ، فقال أسنهم : لى أجد في نفسى أن ربي رب السموات والأرض ، فقالوا : ونحن كذلك نجد في أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » .

أى ائن دَعَوْنَا لَهَا غَيْرُهُ فَقَدْ قُلْنَا إِذَا جَوْرًا وَمَحَالًا . والمعنى الثالث — أَنْ يُعْبَرَّ بِالْقِيَامِ عَنْ انْتِبَاهِهِم بِالْعَزْمِ إِلَى الْمَرْوَبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَمُنَابَذَةِ النَّاسِ ؛ كَمَا يَقُولُ : قَامَ فُلَانٌ إِلَى أَمْرٍ كَذَا إِذَا عَزَمَ عَلَيْهِ بِغَايَةِ الْجِدِّ .

الثانية — قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : تَعَلَّقَتْ الصُّوفِيَّةُ فِي الْقِيَامِ وَالْقَوْلِ بِقَوْلِهِ : «إِذْ قَالُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» .

قلت : وهذا تعلقٌ غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم ؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكلام ! وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان هيات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء ، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقدّم في «سبحان» عند قوله : «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» مافيه كفاية . وقد قال الإمام أبو بكر الطَّرسوسى وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأقول من أحدثه أصحاب السامري ؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعباد العجل ، على ما يأتي . قوله تعالى : هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ مِمَّنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ) أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أى أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة . ( لَوْلَا ) أى هلا . ( يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ ) أى بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : «عَلَيْهِمْ» راجع إلى الآلهة ؛ أى هلا أقاموا بيئته على الأصنام في كونها آلهة ؛ فقولهم : «لَوْلَا» تحضيض بمعنى التعجيز ، وإذا لم يكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم .

(١) راجع ج ١ ص ٦٩ فابعد . (٢) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَا إِلَى  
 الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ أَمْرٍ كُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾  
 قوله تعالى : (وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ) قيل : هو من قول الله لهم . أى وإذا أَعْرَضْتُمُوهُمْ فَأَوْرَا  
 إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم تملخوا ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغزوى :  
 رئيسهم مكسلبينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذا أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَأَعْرَضْتُمْ مَا يَعْبُدُونَ . ثم استثنى وقال  
 (إِلَّا اللَّهَ) أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهذا على تقدير  
 إن الذين فرأى الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ وإنما يعتقدون الأصنام  
 في ألوهيتهم فقط . وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم  
 معه في العبادة فلا استثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله .  
 وفي مصحف عبد الله بن مسعود « وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » . قال قتادة هذا تفسيرها .  
 قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراساني في قوله تعالى :  
 « وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » قال : كان فتيّة من قوم يعبدون الله ويعبدون معه  
 آلهة فاعتزلت الفتيّة عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله .

ابن عطية : فعل ما قال قتادة تكون « إِلَّا » بمنزلة خير ، و « ما » من قوله : « وَمَا يَعْبُدُونَ  
 إِلَّا اللَّهَ » في موضع نصب ، عطفا على الضمير في قوله : « أَعْرَضْتُمُوهُمْ » . ومضمّن هذه الآية  
 أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقنا الكفار وأنفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونستكمل  
 على الله ؛ فإنه سييسر لنا رحمة ، وينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مَرْفَقًا . وهذا كله  
 دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمد بن علي  
 ابن الحسين رضي الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة ، واسم الكهف حيوم <sup>(١)</sup> . (مَرْفَقًا)  
 قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يرتفق به . وكذلك مَرْفَقَ الإنسان ومَرْفَقَه ؛ ومنهم من  
 يجعل « المرفق » بفتح الميم [ وكسر الفاء من الأمر ، والمرفق من الإنسان ، وقد قيل : المرفق  
 بفتح الميم ] <sup>(٢)</sup> الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

(١) صياقلة : شخاذا السيوف . (٢) من جم...

قوله تعالى : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٧٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيِقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ( وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ) أى ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا ؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق . و « تَزَاوَرُ » تفتحي وتعمل ؛ من الأزورار . والزور المبل . والأزور في العين المسائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل في غير العين ؛ كما قال ابن أبي ربيعة :

\* وَجَنِّى خِيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ <sup>(١)</sup>

ومن اللفظة قول عنترة :

\* فَازُورَ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلْيَانِهِ <sup>(٢)</sup>

وفي حديث غزوة مؤتة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في سرير عبد الله بن رواحة أزورارا من سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحزمين وأبو عمرو « تَزَاوَرُ » بإدغام التاء في الزاى ، والأصل « تَزَاوَرُ » . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي « تَزَاوَرُ » مخففة الزاى .

(١) البيت بتمامه كما في ديوانه :

وشغف عن الصوت أقبأت مشية ال \* حجاب وشغفى خشبة إلى أزور

والحباب ( بالضم ) : الحية . وقيل هذا البيت :

فلبا ففقدت الصوت منهم وأطفت \* مصابيح شبت بالمشاء وأنور

وقاب قـبر كنت أهوى غيوبه \* ورتوح دعيات ونسوم سمر

(٢) وتمامه :

والإبان ( بالفتح ) : الصدر . والجمجم : صوت مقطع ليس بالصهيل .



وقرأ ابن عامر: «تَزَوَّرُ» مثل تجر. وحكى الفراء: «تَزَوَّازُ» مثل تجار، كلها بمعنى واحد .  
 ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ تَقْرِضُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالناء على معنى تركهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة :  
 تدعهم . النحاس : وهذا معروف في اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يشربه  
 إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البينة كرامة لهم ؛ وهو قول ابن عباس . يعنى  
 أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر بهم  
 ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا تصيبهم في ابتداء النهار رلا في آخر النهار . وكان كهفهم  
 مستقبل بنات نعش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم  
 لتؤذيهم بحرها ، وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة  
 الجنوب ، وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس  
 كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة  
 « بقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس .  
 وقيل : « وَإِذَا غَرَبَتِ تَقْرِضُهُمْ » أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قراضة الذهب والنفضة ،  
 أى تعطيم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان في مسهلهم بالعشي إصلاح لأجسادهم .  
 وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر  
 يتأذون فيه . إنبساط الشمس عليهم في معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف  
 الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمصدر بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير  
 الأبدان والألوان إليهم ، والتأذى بحر أو برد . ﴿وَهُمْ فِي جُحُورٍ مِّنْهُ﴾ أى من الكهف . والفجوة  
 المتسع ، وجمعها فجوات وفجاء ؛ مثل ركوة وركاء وركوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كل واد وبخوة \* رجلا وخيلا غير ميل ولا عزل

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ لطف بهم ، وهذا يقوى قول  
 الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرأى يحسبهم  
 أيقاظا . وقيل : ﴿تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاطًا﴾ لكثرة تقلبهم كالسيتقط في مضجعه . و(أيقاظا)

(١) ميل : جمع أميل وهو الجبان . وله معان .

جمع يقط ويقظان ، وهو المنتبه . (وَمَنْ رُقُودٌ) كقولهم : وهم ركوع ومجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر . (وَقُلُّهُمْ ذَاتَ ابْتِمَانٍ وَذَاتَ شَبَالٍ) قال ابن عباس : لثلاثا كل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام ثقلبتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلبوا في التسع الأواخر ، وأما في الثلاثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن الثقليب كان من فعل الله ، ويحوز أن يكون من مَلَك بامر الله ، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعالى : (وَكُلُّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَكُلُّهُمْ » قال عمرو بن دينار : إن مما أخذ على العسبر<sup>(١)</sup> ألا تضرب أحدا [ قال ] في ليله أو في نهاره : صلى الله على نوح . وإن مما أخذ على الكلب ألا يضرب من حمل عليه [ إذا قال ] : « وَكُلُّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه ؛ على ما قال مقاتل . واختلف في لونه اختلافا كثيرا ، ذكره الثعلبي . تخصيله : أي لون ذكرت أصبت ؛ حتى قيل : لون الحجر . وقيل : لون السماء . واختلف أيضا في اسمه ؛ فمن على : ريان . ابن عباس : قطير . الأوزاعي : مشير . عبد الله بن سلام : بسيط . كعب : صها . وهب : نقيا . وقيل : قطفير<sup>(٢)</sup> ؛ ذكره الثعلبي . وكان اقتناء الكلب جائزا في وقتهم ، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا ، وكانوا سبعة فمزوا برامع معه كلب فأنتهم على دينهم . وقال كعب : مزوا بكلب فنتج لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا ، فقام الكلب على رجله ورفع يديه إلى السماء كهشة الداعي ، فنطق فقال : لا تخافوا مني ! أنا أحب أحب الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانية — ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من اقضى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان" . وروى في الصحيح أيضا عن

(١) في ج : ألا تضرب . (٢) زيادة من كتاب حياة الحيوان . (٣) في حياة الحيوان : « سلام على نوح » . (٤) في ج : تبر . (٥) ج .

أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من أخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط “ . قال الزهري : وذكر لأبن عمر قول أبى هريرة فقال : يرحم الله أبى هريرة ! كان صاحب زرع . فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على ما يراه الشافعي ، أو لاقتحام النهى عن اتخاذ مالا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال في إحدى الروايتين ” قيراطان “ وفي الأخرى ” قيراط “ . وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر ، كالأسود الذى أمر عليه السلام بقتله ؛ ولم يدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر ؛ أخرجه الصحيح وقال : ” عليكم بالأسود اللهم ذى النقطتين فإنه شيطان “ . ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والحِزة . والله أعلم .

الثالثة — وكتب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذى يسرح معها ، لا الذى يحفظها في الدار من السراق . وكتب الزرع هو الذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذه لسراق الماشية والزرع . وقد تقدم في « المائدة » من أحكام الكلاب ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحديث أبى رضى الله عنه قال سمعت أبى الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلب أحب أهل فضل ومحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بمض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخاطبته الصالحات والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدین المخاطبين

الحسين للاولياء والصالحين ! بل في هذا تسلية وأنس للؤمنين المقصرين عن درجات الكمال،  
الحسين للنبي صلى الله عليه وسلم وآله خير آل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا  
أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال :  
يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددت لها " قال :  
فكان الرجل آسئالاً، ثم قال : يا رسول الله، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام  
ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله . قال : " فانت مع من أحببت " . في رواية قال  
أنس بن مالك : فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فانت  
مع من أحببت " . قال أنس : فانا أحب الله ورسوله وأبأ بكر وعمر ، فارجو أن أكون  
معهما وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فلذلك تعلقت  
أطاعنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين ، كلب أحب  
قوماً فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحُب النبي صلى الله  
عليه وسلم ، « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ  
عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »<sup>(١)</sup> .

وقالت فرقة : لم يكن كلباً حقيقة ، وإنما كان أحدهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعة<sup>(٢)</sup>  
لهم ؛ ... كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً ؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان ؛ ويقال له : كلب الجبار<sup>(٣)</sup>  
قال ابن عطية : قسّمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما إن هذا القول يَضَعُهُ ذكر  
بسط الذراعين فلأنها في العرف من صفة الكلب حقيقة ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :  
" ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر الموطر في كتاب البواقي

(١) راجع ص ٢٩٣ من هذا الجزء .

(٢) في بعض نسخ الأصل بدل قوله « طليعة لهم » : « قال ابن عطية : قسّمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع »  
ورأها غير لازمة . والذي في حياة الحيوان للهيروني في اسم الكلب : « وقالت فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب  
الغار طليعة لهم ؛ قسّمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمي النجم التابع للجوزاء كلباً ؛ لأنه منها كالكلب من  
الإنسان ، وهذا القول يَضَعُهُ ... » الخ . (٣) الجبار : اسم الجوزاء .

أنه قرئ « ركالهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين والوصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريسة المستخفي بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادق « وكالهم » يعني صاحب الكلب .

قوله تعالى : « بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ » أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضى ؛ لأنها حكاية حال لم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدة . وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفناء ، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير ، أى فناء الكهف ، والجمع وصائد ووُصِد . وقيل : الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأنشد :

أرض فضاء لا يُسَدُّ وصيدُها \* على - ومعروفى بها غير منكر

وقد تقدم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وأصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : « لَوَاطَلَعَتْ عَلَيْهِمْ » قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعشى ويحيى بن وثاب بضمها . « لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا » أى لو أشرفت عليهم هربت منهم . « وَلَمَّا لَأَتْ مِنْهُمْ رُغْبًا » أى لما حفهم الله تعالى من الرغب واكتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب ، لا يحسُّ أحد منهم على الدق إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم ؛ وذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري . وهذا بعيد ؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها ؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش : خال .

(٢) في ج : قاله ابن عطية .



آية، فلم يُبَلِّ لهم ثوب ولم تغيّر صفة، ولم يُنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أعم. وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة. «لَمَلَّتْ مِنْهُمْ» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أى ملئت ثم ملئت. وقرأ الباقون «لملت» بالتخفيف، والتخفيف أشهر في اللغة. وقد جاء التثقيل في قول الخليل السعدي:

وإذ فَكَّ الثَّيْمَانِ بالنَّاسِ مُحَرِّمًا • فُلِّيَ من كعب بن عوف سلسله

وقرأ الجمهور «رُعْبًا» بإسكان العين. وقرأ بضمها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما التان. و«فَرَّارًا» نصب على الحال و«رُعْبًا» مفعول ثان أو تمييز.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءٍ لِّوَا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَذَبْنَاهُمْ قَالُوا لَنَبْنِيَنَّ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءٍ لِّوَا بَيْنَهُمْ) البعث: التحريك عن سكون. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبانهم بشتاهم أيضا؛ أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هياتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وَقَيْنَانِ صِدْقٌ قَدْ بَعَثَتْ بِسُحْرَةٍ • فَقَامُوا جَمِيعًا بَيْنَ عَاثٍ وَتَشْوَانِ<sup>(١)</sup>

أى أيقظت. واللام في قوله: «لِنِسَاءٍ لِّوَا» لام الصيرورة وهى لام العاقبة، كقوله: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا» فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

(١) البيت لأمرئ القيس. والسحرة (بالضم): السحر. وقيل: أعل السحر. وقيل: هو من ثلث الليل الآخر

إلى طلوع الفجر.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهم دخلوه مُدَوَّةً وبمهم الله في آخر النهار ، فقال رئيسهم تَمْلِيخًا أو مكسَلِينَا : الله أعلم بالمدة .

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا أَوْلَادَكُمْ الَّذِينَ يُبْرِئُكُمْ مِنَ الذَّنْبِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى - قال ابن عباس : كانت ورقهم كأخفاف الرِّبْع ، ذكره النحاس ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم « بَوْرِقُمْ » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم « بَوْرِقُمْ » بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهما لغتان . وقرأ الزجاج « بَوْرِقُمْ » بكسر الواو وسكون الراء . ويروى أنهم انتبهوا جِيعًا ، وأن المبعوث هو تَمْلِيخًا ، كان أصغرهم ، فيما ذكر القزويني . والمدينة : أفسُسُ ويقال : هي طَرَسُوسُ ، وكان اسمها في الجاهلية أفسُسُ ، فلما جاء الإسلام سموها طَرَسُوسُ . وقال ابن عباس : كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَبْيَها أَرْكَى طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحل ذبيحة ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على أسم الصنم . وكان فيهم قوم يُخْفُونَ إِيْمَانَهُمْ . ابن عباس : كان عاقبتهم مَجُوسًا . وقيل : « أَرْكَى طَعَامًا » أي أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشتري ما يُظَنُّ أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطْلَع عليهم ، ثم إذا طُبِّخ كفى جماعة ؛ ولهذا قيل : ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زَبِييَا . وقيل : تمرًا ، فانه أعلم . وقيل : « أَرْكَى » أطيب . وقيل : أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقٌ مِنْهُ ﴾ أي بقوت . ﴿ وَلْيَنْتَلِفْ ﴾ أي في دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا يخبرن . وقيل : إن ظُهِر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالجمرة ، وهو أخبث القتل . وقيل : يرموكم بالسَّبِّ والشتم ، والأقول أصح ، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدم في قصصهم . والرجم فيما سلف هي كانت على ما ذكر قبله [ عقوبة <sup>(٢)</sup> مخالفة دين الناس ، إذ هي أشقى بجملة أهل ذلك الدِّين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(١) الربيع (كفر) : الفصل ينتج في الربيع . (٢) زيادة بقضيتها الباق .

الثالثة - في هذه البعثة بالورق دليل على الوكالة وصحتها . وقد وكل على بن أبي طالب أخا عقيلا عند عثمان رضى الله عنهما ؛ ولا خلاف فيها في الجملة . والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام ؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وكل أمية بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والترم عبد الرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازاة لصنعه . روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغيتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ؛ فلما ذكرت الرحمن ؛ قال : لا أعرف الرحمن ! كاتبتى بأسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو... وذكر الحديث . فالأصمى : صاغية الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه ، وهو مأخوذ من صغا يصغون ويصغى إذا مال ، وكل مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى ؛ من كتاب الأفعال .

الرابعة - الوكالة عقد نياية ، إذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة فى ذلك ، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترقة فيستنب من يرضيه . وقد استدل علماءنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هذه الآية ، وقوله تعالى : « وَاللَّامِذِينَ ظَلَمُوا » وقوله : « أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا » . وأما من السنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارقي ، وقد تقدم فى آخر الأنعام . روى جابر بن عبد الله قال : أردت الخروج إلى حبيب فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إني أردت الخروج إلى خبير ؛ فقال : « إذا أتيت وكبلى فخذ منه خمسة عشر وسقا فإن أتيت منك آية فضع يدك على رقبة »<sup>(١)</sup> نرجه أبو داود . وأحاديث كثيرة فى المعنى ، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامسة - الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيابة فيه ، فلو وكل الغاصب لم يحضر ، وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادسة - فى هذه الآية نكتة بدية ، وهى أن الوكالة إنما كانت مع اتقية خوف أن يشعروهم أحد لما كانوا عليه من خوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العذر متفق

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٥٨ .

(١) راجع ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) الرقعة : العظم الذى بين فمرة النمر والعاق .

(٣) راجع ج ٧ ص ١٥٦ .

عليه ؛ فأما من لا عذر له فالجهور على جوازها . وقال أبو حنيفة ويُسْتَحْنَن : لا تجوز . قال ابن العربي : وكأنَّ يُسْتَحْنَن تلقفه من أسد بن الفرات لحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافاً منهم وإذلالاً لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هذا حسن ؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يؤكّلوا وإن كانوا حاضرين أحماء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سنه فلم يجدوا إلا سناً فوقها ؛ فقال : "أعطوه" فقال : "أوفيتني أوفى الله لك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنكم قضاء" . لفظ البخاري . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السن التي كانت عليه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مريضاً ولا مسافراً . وهذا يرّد قول أبي حنيفة ويُسْتَحْنَن في قولها : أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه ؛ وهذا الحديث خلاف قولها .

السابعة - قال ابن خُوَيزَمَنَدَاد : تَضَمَّنَتْ هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم . وتَضَمَّنَتْ جواز الوكالة لأنهم بَعَثُوا من وكلّوه بالشراء . وتَضَمَّنَتْ جواز أكل الرققاء وخلطهم طعامهم معا ، وإن كان بعضهم أَكْثَرَ أَكْلاً من الآخر ؛ ومثله قوله تعالى : «وَأِنْ تَحَالَطُوا مِنْ فِئَاحَاتِكُمْ» <sup>(١)</sup> حسباً تقدم بيانه في «البقرة» . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُصَدَّقُ عليه فيخلطه بطعام لغني ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من اشترى له أخصية . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً فلا يكون فيه اشتراك . ولا مُعَوَّل في هذه المسألة

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ تَمْرًا فَقَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِقْتِرَانِ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ . الثاني — حديث أبي عبيدة في جيش الخبيط<sup>(١)</sup> . وهذا دون الأول في الظهور ، لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : وما يدلّ على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى : « وَإِنْ تَحَايَظُواهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ » وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا<sup>(٢)</sup> » على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَأَيْتُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ ) أى أطمعنا عليهم وأظهرناهم . و« أغتر » تعديّة غَرَّ بِالْمُحَمَّزَةِ ، وأصل الغتار في القدم . ( لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ) يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون ومَلَكَ أهل تلك الدار رجلٌ صالح ، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك في ذلك بمض الناس واستبعدوه وقالوا : إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا ، فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدرى كيف يتبين أمره لهم ، حتى لبس المسحوق وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى في حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ، فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم يورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها آسنكرك شخصه وآسنكرك دراهمه<sup>(٣)</sup> لبعده العهد ، فحُمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه ، فلما

(١) سموا جيش الخبيط لأنهم خرجوا في سرية إلى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبيط ، فسما به وهو خبط ورق المصاة من الطلع ونحوه وهو إسقاط ورقه بالخبيط .

(٢) راجع ج ١٢ ص ٣١٧ .

(٣) في ج : ورقه .



نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرَبِّينهم ، وسأل الفتى فأخبره ؛ فسرَّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلنسرَّ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنوا إلى الكهف قال تملِّحوا : أنا أدخل عليهم لئلا يَرَعَبُوا فدخل عليهم فأعلمهم بالأمر وأن الأمة أئمةٌ إسلام ، فرؤى أنهم سرُّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدَّتهم تملِّحاً ميتة الحق ، على ما يأتي . ورجع من كان شكَّ في بَثِّ الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى . « أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى ليعلم الملك ووعيته أن القيامة حق والبعث حق . « إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ » . وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهاجوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنسوا عليهم بنسائنا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجداً . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبئى بيعة أو مضيقاً <sup>(١)</sup> ، فأنهم المسلمون وقالوا لتخذنَّ عليهم مسجداً . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين . وروى عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وجمهم عنهم ، فلذلك دعا [الملك] إلى بناء البديان ليكون معاً لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفعهم في صندوق من ذهب فأنه آت منهم في المنام فقال : أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل ؛ فإننا من التراب خلَقنا وإليه نعود ، فدعنا .

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائرة ؛ فأتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها ، إلى غير ذلك مما تضمَّنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زورات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذى : وفى الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأُم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبيشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم

(١) فى جرحاشية الجبل عن القرطبي : مصنف . (٢) فى ج : « عن عبيد بن عمر » .

(٣) من الجبل عن المصنف .

الرجل الصالح مات بَنَوًا على قبره مسجداً وصُوروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة“ . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبي مَرْثَدَ النَّضِيِّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها “ لفظ مسلم . أى لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام . فحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال : ” اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم ومصلحتهم مساجد “ . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يطرح خبيصة له على وجهه فإذا أَعْتَمَ<sup>(١)</sup> بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : ” لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد “ يحذر ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحَصَّصَ القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . ونحرجه أبو داود والترمذى أيضاً عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن توطأ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبي الهيثج الأسدى قال قال لى على بن أبي طالب : ألا أبغضك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تدع تمثالاً إلا طمست ولا قبراً مشرفاً إلا سويته — فى رواية — ولا صورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذى . قال علماؤنا : طهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لأطمة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم ، وسبق للقبور ما يعرف به ويحترق ، وذلك صفة قبر نبيتنا محمد صلى الله عليه وسلم وقبر صاحبيه رضى الله عنهما — على ما ذكر مالك فى الموطأ — وقبر أبنينا آدم صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الدارقطني

(١) قوله : « إذا أَعْتَمَ » أى تسنن بالخبيصة وأخذ بنفسه من شدة الحر . (٢) أى فى حالة الطرح والكشف . (٣) أى يحذر أنه أن يصنعوا بقبره مثل صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم . (٤) قوله « ألا » بتشديد اللام للتفضيـض . وقيل : بفتحها للتبعية . (٥) لا طئة : لا صفة بالأرض .

من حديث ابن عباس . وأما تملية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخياً وتعظيماً  
فذلك يهدم ويزال ؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أوّل منازل الآخرة ، وتشتبهاً بمن كان يعظم  
القبور ويعبدها . وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهى ينبغي أن يقال : هو حرام . والتسليم  
في القبر : ارتفاعه قدر شبر ؛ مأخوذ من سنام البعير . ويرش عليه الماء ؛ لئلا يئنثر بالريح .  
وقال الشافعي : لا بأس أن يطين القبر . وقال أبو حنيفة : لا يخصص القبر ولا يطين ولا يرفع  
عليه بناء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال :  
حدثنا مسدد حدثنا نوح بن دُراج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة  
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وصاتته بصخرة ؛  
ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن في التابوت ؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرخوة . وروى أن  
دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر ، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له  
تابوت من زجاج ويلقى في ركة<sup>(١)</sup> مخافة أن يُعبد ، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم  
أجمعين ؛ فدلته عليه عجوز فرمعه ووضعته في حظيرة إسمحاق عليه السلام . وفي الصحيح عن سعد  
ابن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه : اتخذوا لي الخدّاً وأنصبوا عليّ اللبن نصيباً ؛  
كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم . الخدّ : هو أن يشق في الأرض ثم يحفر قبر آخر  
في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يُدخل فيه الميت ويسدّ عليه باللبن .  
وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال  
أبو حنيفة قال : السنة الخدّ ، وقال الشافعي : الشق . ويكره الآخر في الخدّ . وقال الشافعي :  
لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الأجر لإحكام البناء ، والقبر  
وما فيه ليسلّ فلا يليق به الإحكام وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآخر وقيل : إن الآخر  
أثر النار فيكره تفاؤلاً ؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآخر . قالوا : ويستحب اللبن والقصب  
لما روى أنه وضع على قبر النبي صلى الله عليه وسلم حزمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام  
(١) الركة البئر .

أبي بكر محمد بن الفضل الحنفى رحمه الله أنه جَوَزَ اتِّخَاذَ التَّابُوتِ فِي بِلَادِهِمْ لِخَاوَةِ الْأَرْضِ .  
 وقال : لو اتَّخَذَ تَابُوتٌ مِنْ حَدِيدٍ فَلَا بَأْسَ بِهِ ؛ لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَفْرَشَ فِيهِ التَّرَابُ وَتَطْلِينَ  
 الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِمَّا يَلِي الْمِيتَ ، وَيُجْعَلُ اللَّابَنُ الْخَفِيفُ عَلَى يَمِينِ الْمِيتِ وَيَسَارُهُ لِيَصِيرَ بِمِثْلِةِ الْخَدِّ .  
 قلت : ومن هذا المعنى جَعَلَ الطَّبَقَةَ فِي قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَإِنَّ الْمَدِينَةَ سَبِيحَةٌ <sup>(۱)</sup> ،  
 قَالَ شُقْرَانُ : أَنَا وَاللَّهِ طَرَحْتُ الطَّبَقَةَ تَحْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَبْرِ . قَالَ  
 أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثُ شُقْرَانَ حَدِيثٌ حَسَنٌ [صَحِيحٌ] غَرِيبٌ <sup>(۲)</sup> .

قوله تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْبَهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ  
 كَلْبُهُمْ رَجَعُوا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ  
 بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا  
 وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا <sup>(۳)</sup>

قوله تعالى : ( سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْبَهُمْ كَلْبُهُمْ ) الضمير في « سَيَقُولُونَ » يراد به أهل  
 التوراة ومعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا  
 الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبي صلى الله  
 عليه وسلم من تَجْرَانٍ بَغْرَى ذَكَرَ أَصْحَابَ الْكَهْفِ فَقَالَتِ الْيَعْقُوبِيَّةُ : كَانُوا ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ .  
 وَقَالَتِ النَّسْطُورِيَّةُ : كَانُوا خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ . وَقَالَ الْمَسَامُونُ : كَانُوا سَبْعَةً ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .  
 وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب  
 الكهف . والواو في قوله : « وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » طريق التحوين أنها واو عطف دخلت في آخر  
 إخبار عن عددهم ؛ لتفصيل أمرهم ، وتدل على أن هذا غاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام .  
 وقالت فرقة منها ابن خَالَوَيْه : هِيَ وَائِثَامِيَّةٌ . وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عِيَّاشٍ أَنْ قَرِيشًا  
 كَانَتْ تَقُولُ فِي عَدْدِهَا سَنَةَ سَبْعَةٍ وَثَمَانِيَةٍ ؛ فَدَخَلَ الْوَائِثَامِيَّةُ . وَحَكَى نَحْوَهُ النَّفَّالُ ، فَقَالَ :

(۱) أرض سبيحة : ذات ملح وزر . (۲) من ج . (۳) في ج : نهاية .

إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله: «التَّائِبُونَ الْعَادُونَ» — ثم قال — «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ»<sup>(١)</sup>. يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَأْ أَبْوَابُهَا» بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: «وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» بالواو. وقال: «خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمَاتٍ» ثم قال: «وَأَبْكَارًا» فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحمك، ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنُ الْعَزِيزُ الْحَبِيرُ الْمُنْتَكِبُ»<sup>(٢)</sup> ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله: «سَبْعَةٌ وَتَأْمِنُهُمْ»<sup>(٣)</sup> لئنه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مبين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين: «رَبِّمَا بِالْغَيْبِ» ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لئنه هم سبعة وثامنهم كلهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يخرص: رَجِمَ فيه ومرجوم ومُرجِمٌ؛ كما قال:

وما للحرب إلا ما علمته وذُفِرَ • وما هو عنها بالحديث المُرْجَمِ<sup>(٤)</sup>

قلت: وقد ذكر الماوردي والغزواني: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى: «وَتَأْمِنُهُمْ كُلُّهُمْ» أي صاحب كلهم. وهذا مما يقوى طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القشيري: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزا، فطلب الحكمة والعلّة في مثل هذه الواو تكلفٌ بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: «وَمَا أَهْلُكُنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ»<sup>(٥)</sup>. وفي موضع آخر: «إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ»<sup>(٦)</sup> ذِخْرَى.

قوله تعالى: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ»<sup>(٧)</sup> أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من

(١) راجع ج ٨ ص ٢٦٩. (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤. (٣) راجع ج ١٨ ص ١٩٣.

(٤) راجع ج ١٨ ص ٤٥. (٥) البيت من معلقة زهير. (٦) راجع ص ٣ من هذا الجزء.

(٧) راجع ج ١٣ ص ١٠٠.



أهل الكتاب، في قول عطاء . وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثمانهم كلهم، ثم ذكر السبعة باسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر، فوق القلطي ودون الكردى . وقال محمد بن سعيد بن المسيب : هو كلب صيني . والصحيح أنه ذبيري . وقال : ما بقي بنيسابور محدث إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الحيرى عنى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ (١) أى لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوجياه إليك، وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتاج على أمر مقتدر في ذلك . وفى هذا دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عددهم فلهذا قال : ﴿ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى ذاهبا، كما قال :  
• وتلك شكاة ظاهر عنك عارها •

ولم يبح له في هذه الآية أن يمارى، ولكن قوله : ﴿ إِلَّا مِرَاءً ﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر، ففارق المراء الحقيقي المذموم . والضمير في قوله : ﴿ فِيهِمْ ﴾ عائد على أهل الكهف . وفى قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ يعنى في عدتهم، حذفت العدة لدلالة ظاهر القول عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فتنبى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ (٢) إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٣)

(١) القلطي (كبرى) : القصير من الناس والساير والكلاب . قال الذميرى : « والقلطي : كلب صينى » .

(٢) هذا مجزيت لأب ذؤيب . وصدوره .

• ويمررها الواشون أن أحبا •

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفيتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ؛ ولم يستثن في ذلك . فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفترجة . وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يتعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققا للخبر عنه . واللام في قوله : «لِشَيْءٍ» بمنزلة في ، أو كأنه قال لأفعلن شيء .

الثانية — قال ابن عطية : وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليقين ، والآية لبست في الإيمان وإلما هي في سنة الاستثناء في غير اليقين . وقوله : «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ، أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ؛ فليس «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» من القول الذي نهى عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطية وآرتضاه هو قول الكسائي والفراء والأخفش . قال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة : «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» استثناء من قوله : «وَلَا تَقُولَنَّ» . قال : وهذا قول حكاه الطبري ورد عليه ، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى . وقد تقدم القول في الاستثناء في اليقين وحكمه في «المائدة»<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان — واختلف في الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله : ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ . قال محمد الكوفي المفسر : إنها بالفاظها مما أمر أن يقولها كل

من لم يستثن ، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص . وقيل : هو قوله : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » الذي كان نسيه عند يمينه . حُكي عن ابن عباس أنه إن نسي الاستثناء ثم ذَكَرَ ولو بعد سنة لم يحنت إن كان حالفاً . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالسة في قوله تعالى : « وَأَذْكُرْ بِكَ إِذَا نَسِيتَ » قال : يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام في مجلس الذكر . ابن عباس : سنتين ؛ ذكره الغزوي<sup>(۱)</sup> قال : فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلص عن الإثم . فاما الاستثناء المفيد حكماً فلا يصح إلا متصلاً . السدي : أى كل صلاة نسيها إذا ذكرها . وقيل : استثن باسمه لئلا تنسى . وقيل : أذكره متى ما نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئاً فاذكره يذكركم . وقيل : أذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك ؛ فذلك حقيقة الذكر . وهذه الآية مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي استفتاح كلام على الأصح ، وليست من الاستثناء في اليمين بشئ ، وهي بعد تعم جميع أمته ؛ لأنه حكم يتردد في الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعالى : وَلَكُونُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم . وفي قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبري : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار عليهم إلى مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نياماً ، وأن مابعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقله على هذا « لَبِثُوا » الأول يريد في نوم الكهف ، و « لَبِثُوا » الثاني يريد بعد الإغثار إلى مدة مجد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لما قال : « وَازْدَادُوا تِسْعًا » لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم بضع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله تعالى برد العلم إليه في التسع ، فهي على هذا مبهمه . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى

(۱) في رواية : المنير . (۲) في : أى صل صلاة نسيها إذا ذكرتها .

(۳) في ج : بعد الانتشار .

يسير وقد بقيت من الحوارين بقية . وقيل : غير هذا على ما يأتي . قال القشيري : لا يفهم من التسع تسع ليل وتسع ساعات لسبق ذكر السنين ؛ كما تقول : عندى مائة درهم وخمسة ؛ والمفهوم منه خمس دراهم . وقال أبو علي : « وَأَزْدَادُوا تِسْعًا » أى ازدادوا لبث تسع ؛ فخذف . وقال الضحاك : لما نزلت : « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ » قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام ؛ فأنزل الله عز وجل : « سِنِينَ » . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام ؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع ؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين . ونحوه ذكر الغزنوي . أى باختلاف سني الشمس والقمر ؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلاث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين . وقرأ الجمهور « ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ » بتنوين مائة ونصب سنين ، على التقديم والتأخير ؛ أى سنين ثلثمائة تقدم الصفة على الموصوف ، فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل : هى التفسير والتميز . و « سِنِينَ » في موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين ، وترك التنوين ؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد . قال أبو علي : هذه الأعداد التي تضاف إلى المشهور إلى الأحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع . وفي مصحف عبد الله « ثلثمائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تِسْعًا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة : التقدير لبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَنْشِئْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ( قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ) قيل : بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم ، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا ؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغييرهم بالليلى ؛ على ما تقدم . وقيل : بما لبثوا في الكهف ، وهى المسدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة وتقصانا . أى لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك ، ( لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) . (١) في جوى : نسق . (٢) في جوى : الأثم . ولعل هذا أرجح لأن الأثم لا تستعمل إلا الشمسية .

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَاتَّبِعْ ﴾ أى ما أبصره واسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أَبْصِرْ بِهِ » أى بَوْحِيهِ وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم واسمعههم ما قال الله فيهم . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى لم يكن لأصحاب الكهف ولّى يتولى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير فى « لهم » على معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما هؤلاء المختلفين فى مدة لئهم ولّى دون الله يتولى تدبير أمرهم ؛ فكيف يكونون أعلم منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشِيرُكُمْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والمجدرى « ولا تشرك » بالياء من فوق وإسكان الكاف على جهة النهي صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله : « ولا تشرك » عطفًا على قوله : « أَبْصِرْ بِهِ وَاتَّبِعْ » . وقرأ مجاهد « يشرك » بالياء من تحت والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مسئلة - اختلف فى أصحاب الكهف هل ماتوا وقُتوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مرّ بالشام فى بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم قُتوا وعُدِموا منذ مدة طويلة ؛ فسمعه راهبٌ فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم . وروى فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليجتج عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فأنهم لم ينجوا بعد » . ذكره ابن عطية .

قلت : ويكتوب فى التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، وأنه يمر بالروحاء حاجًا أو مُعْتَمِرًا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حواريه أصحاب الكهف والرقيم ، فيموتون مُجْاجًا فأنهم لم ينجوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكلمة فى كتاب « التذكرة » . فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا الى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة .



قوله تعالى : **وَأَنْتَل مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا** ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَأَنْتَل مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبرى : لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصبه والمخالفين لكتابه . ﴿ **وَلَن تَجِدَ** ﴾ أنت ﴿ **مِن دُونِهِ** ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته . ﴿ **مُلْتَحَدًا** ﴾ أى ملجأ . وقيل : موثلا . وأصله الميل ؛ ومن لحأت إليه فقد ملت إليه . قال القشيري أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فأتته إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس . قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : « **أَوْ أَطَلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا** » فقال : لا أنتهى حتى أعلم عليهم ، وبعث قوما لذلك ؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبى أيضا وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه إياهم ، فقال : إنك إن تراهم فى دار الدنيا ولكن أبعت إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : أبسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع على ابن أبى طالب ، ثم أدع الريح الرضاء المسخرة لسلطان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصّبص بذنبه وأومأ إليهم برأسه أن أدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فردّ الله على الفتية أرواحهم فقاموا بإجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ فقالوا لهم : معشر الفتية ، إن النبى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما أبلغتم ؛ وقبلوا

دينه واسلموا ، ثم قالوا : اقرئوا هذا رسول الله منا السلام ، واخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي . فيقال : إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، ثم ردتهم الريح فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” كيف وجدتموهم ؟ ” فأخبروه الخبر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” اللهم لا تنفك بيني وبين أصحابي وأصحابي وأغفر لمن أحبني وأحب أهل بيتي وخاصتي وأصحابي “ . وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ، فأخبر الله تعالى المسيح بنحبرهم ثم بعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة ؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح : فالله أعلم أي ذلك كان .

قوله تعالى : **وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تَطْغَ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝**

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ هذا مثل قوله : « وَلَا تَطْغُرْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » في سورة « الأنعام » وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبيدة بن حصن والأفرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سامان وأبذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : « وَأَوَّلُ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . وَأَصْبِرْ

فَنَسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ — حتى بلغ — إِنَّا نَعْتَدُكَ لِلْغَالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُفُهَا . يتهتد بهم النار . فقام النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال : « الحمد لله الذي لم يُخَيِّتْنِي حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المتحيا ومعكم الممات » . ( يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ) أى طاعته . وقرا نصريين عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » وحجبتهم أنها في السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكنهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . روى عن الحسن « ولا تعد عبيك عنهم » أى لا تتجاوز عينك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزيارتها ؛ حكاه الزبيدي . وقيل : لا تحتقرهم عينك ؛ كما يقال فلان تَبَوُّ عنه العين ؛ أى مستحقرا .

( يُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى تزين مجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك ؛ ولم يُرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، ولكن الله نهاه عن أن يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَا يُحِيطَنَّ عَمَلُكَ » . (٣) وإن كان الله أعاده من الشرك . و « تريد » فعل مضارع في موضع الحال ؛ أى لا تعد عيناك مریدا ؛ كقول امرئ القيس :

فَقَدْتُ لَهُ لَا تَبِيكَ عَيْنُكَ إِنَّمَا \* نَحَاوَلُ مُلُكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعَاذِرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عبيك عنهم ؛ لأن « تعد » متعد بنفسه . قيل له : والذي وردت به التلاوة من رفع العينين يشول إلى معنى النصب فيها ، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم ، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تنصرف عبيك عنهم ؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو في الحقيقة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى :

(١) كذا في الأصول أراد : قرا هؤلاء وفي الأنعام « الغدوة » . (٢) في كتاب روح المعاني : « وقرا الحسن (ولا تعد عيناك) بضم الناء وسكون العين وكسر الهمزة الخفيفة ، من أعداءه ، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعشى أنهم قرءوا (ولا تعد عيناك) بضم الناء وفتح العين وتشديد الهمزة المكسورة ، من أعداءه بعده ، ونصب العينين أيضا . . . (٣) راجع ج ١٥ ص ٢٧٦ .

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ » فاستند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم .  
 ويزيدك وضوحا قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .  
 قوله تعالى : ( وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ) روى جوير عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » قال : نزلت في أمية بن خلف الجُمَحِيّ ، وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » يعنى من ختمنا على قلبه عن التوحيد . ( وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ) يعنى الشرك . ( وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ) قيل : هو من التفريط الذى هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحد ، وكان القوم قالوا : نحن أشرف مضر إن أسامنا أسلم الناس ؛ وكان هذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل : « فُرُطًا » أى قدما فى الشر ؛ من قولهم : فرط منه أمر أى سبق .  
 وقيل : معنى « أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ » وجدناه غافلا ؛ كما تقول : لقيت فلانا فاحمدته ؛ أى وجدته محمدا . وقال عمرو بن معد يكرب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فما أبجّلناكم ، وقالناكم فما أجبنناكم ؛ وهاجبنناكم فما ألجمناكم ؛ أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مفتحمين .  
 وقيل : نزلت ، « وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » فى عبيدة بن حصن الفزاري ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثوري . والله أعلم .

قوله تعالى : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ قَدْ شَاءَ فَلَئِمُّونَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٦٩﴾  
 قوله تعالى : ( وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ قَدْ شَاءَ فَلَئِمُّونَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ) « الحق » رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره فى قوله :

«مِنْ رَبِّكُمْ» . ومعنى الآية : قل يا مجده هؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! من ربكم الحق قاله التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال ، يهدي من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلى من ذلك شيء ، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويجرمه من يشاء وإن كان قويا غنيا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد . أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ( إِنَّا أَعْتَدْنَا ) أي أعددنا . ( لِلظَّالِمِينَ ) أي للكافرين الجاحدين . ( نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهَا ) قال الجوهري : السُّرَادِقُ واحد السُّرَادِقَاتِ التي تمتد فوق صحن الدار . وكل بيت من كُرْسُفٍ فهو سُرَادِق . قال رؤبه :  
(١)

يَا حَكَمَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ \* سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودُ

يقال : بيت مُسَرَّدَق . وقال سلامة بن جندل يذكر أبروز وقوله النعمان بن المنذر تحت أرجل القيلة :

هو المُدْخِلُ النِّعَانَ يَتَنَا سَمَاؤُهُ \* صُدُورُ الْقِيُولِ بَعْدَ بَيْتِ مُسَرَّدَقٍ

وقال ابن الأعرابي : « سُرَادِقُهَا » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبي : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالخطيرة . الفُتَيْي : السُرَادِقُ المُجْمَزَةُ التي تكون حول القساطر . وقاله ابن عَرَبٍ . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة « والمراسلات » حيث يقول : « أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » وقوله : « وَيُظِلُّ مِنْ تَحْتِهِ » قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يعلى بن أمية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البحر هو جهنم — ثم تلا — « نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » —

(١) الكرسف : القطن . (٢) كذا في الأصل واللسان ، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحرمازي ، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنفرى . مدح الراجز أحد بني المنذر بن الجارود البدي ، وحكم هذا أحد ولادة البصرة لشمام بن عبد الملك . وصحى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكنتهم أمواهم : فشه بالليل الذي يجرد ما مر به . (٣) يفتح الوار وكسرهما ، ملك من ملوك القرص . (٤) راجع ج ١٩ ص ١٦٠ . (٥) راجع ج ١٧ ص ٢١٢ .





الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دُرْدَى الزيت . والمهل أيضا الفج والصديد . وفي حديث أبي بكر : أَدْفَنُونِي فِي ثَوْبِي هَذَيْنِ فَإِنَّمَا لِلْمَهْلِ وَالزَّابِ . و﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعاً ، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ابن عباس : منزلاً . عطاء : وقيل : مهاداً . وقال الفتي : مجلساً . والمعنى متقارب ، وأصله من المتكأ ، يقال منه : أرتفتت أى أنكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وأرتفتت ألا فتى \* يسوق بالقوم غزالات الضحا<sup>(١)</sup>

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه لا يأتيه نوم . قال أبو ذؤيب الهذلي :  
نام الخليلي وثَّ الليل مُرتَفَقًا \* كأن عيني فيها الصاب مذبوح<sup>(٢)</sup>  
الصاب : عصارة شجر مرّ .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَعِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآرِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٢﴾

لما ذكر ما أعد للكافرن من الهوان ذكر أيضا ما للمؤمنين من الثواب . وفي الكلام إضماراً ، أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً ، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط . و﴿ عَمَلًا ﴾ نصب على التمييز ، وإن شئت بلإيقاع « أحسن » عليه . وقيل :

(١) غزاة الضحا وغزالاته : بعد ما تنبسط الشمس وتضحى . وقيل : هو أول الضحا إلى مد النهار الأكبر حتى يضي من النهار نحو من تحسه . (٢) رواية الديوان : « مشتجراً » والمشتجر : الذى قد شجر نفسه ووضع يده تحت شجره على حنك أو على فوه . والشجر : ما بين الخمين . ومذبح : مشقوق .

« إِنَّا لَا نَضِيعُ آجَرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » كلام معترض ، والخبر قوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ و « جَنَّاتُ عَدْنٍ » سُرَّةُ الجنة ، أى وسطها وسائر الجنات مُحَدِّقَةٌ بها . وذَكَرْتُ بلفظ الجمع لسمعتها ؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيل : العدن الإقامة ، يقال : عدن بالمكان إذا أقام به . وعدنت البلد توطنته . وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تهرج منه ؛ ومنه « جَنَّاتُ عَدْنٍ » أى جنات إقامة . ومنه سُمي المعدن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقبضون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كل شئ معدنه . والعادن : الناقة المقيمة في المراعى . وعدنٌ بَدءٌ ، قاله الجوهري . (يَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) تقدم في غير موضع . (يُحْمَلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ) وهو جمع سوار . قال سعيد بن جبير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من ورق ، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هذا منصوب في القرآن ، قال هنا : « مِنْ ذَهَبٍ » وقال في الحج وفاطر « مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » وفي الإنسان « مِنْ فِضَّةٍ » . وقال أبو هريرة : سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحليّة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » خرجه مسلم . وحكى الفراء : « يحملون » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ؛ يقال : حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلى . وحلى الشئ بمعنى تحلى ؛ ذكره النحاس . والَسَّوَار سوار المرأة : والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساور . وقرئ : « فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسَافَةٌ مِنْ ذَهَبٍ » وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى : « يُحْمَلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ » قاله الجوهري . وقال عزير : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار وسوار ، وهو الذى يلبس في الذراع من ذهب ، فإن كان من فضة فهو قُلب وجمعه قَلَبَة ؛ فإن كان من قرن أو عاج فهي مَسَكَة وجمعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قطرب في واحد الأساور إسوار ، وقُطِرَب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

(۱) راجع به ۱ ص ۲۳۹ . (۲) راجع به ۱۲ ص ۲۸ . (۳) راجع به ۱۴ ص ۱۰۰ .

(۴) راجع به ۱۹ ص ۱۴۱ . (۵) راجع به ۱۶ ص ۱۰۰ .

قلت : قد جاء في الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار . وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .  
 قوله تعالى : ( وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ) السندس : الرقيق الخفيف ، واحده سندسة ؛ قاله الكسائي . والإستبرق : ما ثخن منه — عن عكرمة — وهو الحرير .  
 قال الشاعر :

تراهن بلبس المشاعر مرة \* وإستبرق الديباج طورا لباسها

فالإستبرق الديباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القتي : فارسي مغرب . الجوهري : وتصغيره أُبْرِيق . وقيل : هو استفعل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكور لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبّدد النظر ويؤلم ، والسواد يّدم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أخلق يُخلق أم نسج ينسج ؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : "م" تضحكون من جاهل يسأل عالما ؟ ؟ بغلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة ؟" فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال : "لا بل تشقق عنها ثمر الجنة" قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درة مجوفة في وسطها شجرة تنبت الحُلل يأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حلة منظمة بالدر والمرجان . ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقايقه . وقد ذكرنا إسناده في كتاب التذكرة . وذكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وليّ الله منك ، أنا إلى جسده وأنت لا تلي . ويقول الآخر : أنا أكرم على وليّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

(١) الرقيق أى من الديباج .

قوله تعالى: ﴿مُتَكِبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ «الْأَرَائِكِ» جمع أريكة، وهى السرر فى المجال. <sup>(١)</sup> وقيل: الفرش فى المجال؛ قاله الزجاج. ابن عباس: هى الأسرة من ذهب، وهى مكللة بالذر والياقوت عليها المجال، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة وما بين عدن إلى الحابية. وأصل متكبين مُتَوَكِّبِينَ، وكذلك اتكأ أصله أوتكأ، وأصل التَّسْكَاةُ وَكَاةٌ، ومنه التَّوَكُّلُ للتحامل على الشيء، فقلبت السواو ناء وادغمت. ورجل وَكَاةٌ كثير الاتكاء. ﴿يَنُمُّ الْقَوَابُ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعنى الجنات، عكس «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا». وقد تقدم. ولو كان «نِعْمَتْ» لجاز لأنه آمم للجنة. وعلى هذا «وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا». وروى البراء ابن عازب أن أعرابيا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العُضْبَاءُ فقال: إني رجل مسلم فأخبرنى عن هذه الآية «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» الآية؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فأعلم قومك إن هذه الآية نزلت فيهم» ذكره الماوردي، وأسنده النحاس فى كتاب معانى القرآن، قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن على بن سهل قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا يحيى بن الضريس عن زهير بن معاوية عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال: قام أعرابي ... فذكره. وأسنده السبكي فى كتاب الأعلام. وقد رويناه جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله.

قوله تعالى: وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ تَاتَا أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَغْظِلْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْلَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٤﴾

(١) المجال، جمع الجبل (بفتح الجيم) كالكفة، وموضع يزين بالتياب والسور والأسرة للعروس.



قوله تعالى : ﴿ وَأَصْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستتكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متصل بقوله : « وَأَصْرِبْ نَفْسَكَ » . واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سامة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوج أم سامة قبل النبي صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران في سورة « الصافات » في قوله : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ <sup>(١)</sup> » ، وَرِثَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِينَارٍ ، فَاَنْفَقَ أَحَدُهُمَا مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ شَيْئًا فَقَالَ مَا قَالَ ... ؛ ذكره الثعلبي والقشيري . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مثل لجمع من آمن بالله وجميع من كفر . وقيل : هو مثل لعبيدة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ في قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تملixa . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة « الصافات » . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخبير منهما تملixa ، والآخر قرطوش ، وأنها كانا شريكين ثم اختلفا المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فاشتري المؤمن منهما عبيدا بألف واعتقهم ، وبالألف الثانية ثيابا فبكسا العراة ، وبالألف الثالثة طعاما فاطعم الجوع ، وبني أيضا مساجد ، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بهالة نساء ذوات يسار ، واشتري دواب وبقرا فاستنتجها فنمت له نساء مفرطاً ، وأتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى ؛ وأدركت أوّل الحاجة ، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يتخذهما فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصح بي ، فجاء فلم يكده يصل إليه من غلظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن فاستمكت المال نصفين ! فما صنعت بما لك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أشك

(٢) في جوى : ينجار .

(١) راجع ج ١٥ ص ٨١ ف١ بد .

لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفياً، وما جزائك عندى على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أنى كَسَبْتُ وسفَهْتُ أنت، انرج عني. ثم كان من قصة هذا الفنى ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بحجره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسبان. وقد ذكر الثعالبي هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لها ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورياء من أبيهما وكانا أخوين فأقسماهما، فأشترى أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلانا قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني أشتريت منك أرضاً بالجنة ألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلانا بنى داراً بألف دينار وإني أشتريت منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدق [بألف دينار]، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم اشترى خداماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتريت منك خداماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: أهلك صاحبي ينالني معروفه فأناؤه فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئاً! ثم قال له: أنت تعبد إله الميأ، وأنا لا أعبد إلا صنماً؛ فقال صاحبه: والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه. فقال: سِرْ بنا نصطد السمك، فن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له: يا أحمى! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يبعدها ثواباً لمحسن أو عقاباً للكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فأبتلاهما الله، فخلص الكافر يرمى شبكته ويسمى بأسم صخه، فتطلع مندفة سمكا. وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومزلة ونفراً، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزمك حقاً. قال: فضجَّ الملك الموكَّل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الحنان فيريه منازل المؤمنين فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزتك لا يضره ما ناله من

الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا ؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال : وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا . ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده ، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون ، فقال : «إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَتُنْكَلِ لِمَنْ الْمُصْصِدِينَ<sup>(١)</sup>» الآية ؛ فنادى مناد : يا أهل الجنة ! هل أنتم مطَّاعون فأُطَّلِعَ إلى جهنم فَرَأَاهُ في سواء الجحيم ؛ فترلت : « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا » .

بين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة ، وبين حالهما في الآخرة في سورة « الصافات » في قوله : «إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَتُنْكَلِ لِمَنْ الْمُصْصِدِينَ — إلى قوله — لِيَمِثِلَ هَذَا قَلِيعَمَلِ الْعَامِلُونَ » . قال ابن عطية : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تَنَيسَ كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيَّره الآخر ، وجرت بينهما المحاورة ففرقها الله تعالى في ليلة ، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مثل ضرب به الله تعالى لهذه الأمة : وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزد في الدنيا وترغب في الآخرة . وجعله زجرا وإنذارا ؛ ذكره المسوردي . وسياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنُحْلٍ ﴾ أي أطفناهما من جوانبهما بنخل . والحفاف الجانب ، وجمعه أحنفة ؛ ويقال : حفَّ القوم بفلان يحفُّون حَفًّا ، أي طافوا به ؛ ومنه « حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ<sup>(٢)</sup> » . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴾ أي جعلنا حول الأعناب النخل ، ووسط الأعناب الزرع . ﴿ يَكَلِّمُ الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أي كل واحدة من الجنتين ﴿ أَتَتْ أَكْثَلَهَا ﴾ تاما ، ولذلك لم يقل آتتا . واختلف في لفظ : « كَلَّمَا وَكَلَّا » هل هو مفرد أو منى ؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد ؛ لأن كَلَّا وكَلَّمَا في توكيد الاثنين نظير « كُلٌّ » في المجموع ، وهو اسم مفرد غير منى ؛ فإذا ولي إنما ظاهرا كان في الرنع والنصب والحفض على حالة واحدة ، تقول : رأيت كَلَّا الرجلين وجاءني كَلَّا الرجلين وصررت بكَلَّا الرجلين ؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب ، تقول :

(١) راجع ج ١٥ ص ٨١ فما بعد . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد . (٣) كَلَّا في الأصول والصالح الجوهري وقد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فإذا زلَّه اسم ظاهر ... » .

رأيت كليهما مررت بكليهما، كما تقول عليهما. وقال القراء: هو مني، وهو مأخوذ من كل  
تخففت اللام وزيدت الألف للتنبيه. وكذلك كلنا للثوث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم  
بواحد، ولو تكلم به ل قيل: كل وكلت وكلان وكلتان. واحتج بقول الشاعر:  
في كلت رجلها سلامي واحدة \* كلتاها مقرونه بزائده

أراد في إحدى رجلها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مني  
لوجب أن تكون ألفه في النصب والجرية مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كلا» مخالف  
لمعنى «كل»، لأن «كلا» للإحاطة و«كلا» يدل على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فأنما  
حذف الألف للضرورة وقدر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت  
أنه اسم مفرد تميمي، إلا أنه وُضع ليدل على التنبيه، كما أن قولهم «نحن» اسم مفرد يدل  
على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير:

كَلَّا يَوْمَئِذٍ أَمَامَةَ يَوْمٍ صَدِّ \* وإن لم تأتيا إلا لِمَا

فأخبر عن «كلا» بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله: «أت» ولو كان مني لقال آتئنا، ويوما.  
واختلف أيضا في ألف «كلتا»؛ فقال سيبويه: ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام  
الفعل وهي واو والأصل كلوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علم التأنيث، والألف في «كلتا»  
قد تصيرياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيداً للتأنيث.  
وقال أبو عمر الجرمي: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فَعَتْلُ، ولو كان الأمر  
على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كَلْتَوِي، فلما قالوا كَلَوِي وأسقطوا التاء دل على أنهم أجروها  
بجري التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أخوي، ذكره الجوهري. قال أبو جعفر النحاس:  
وأجاز التجويدون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن  
المعنى المختار كلتاها آتتا. وأجاز الفراء: كلتا الجنتين آتى أكله، قال: لأن المعنى كل

(١) السلامي كجاري: عظام الأماح في اليد والقدم. (٢) كذا في الأصول واللسان مادة «كلا».

وفي ديوانه المطبوع: «يوم صدق» والبيت من قصيدة مطلعها:  
ألاحي المنازل والحبسا وسكنا طلال فيها ما أفاها

(٣) في ج: الجنتان كلتاها.

الجنة . قال : وفي قراءة عبدالله « كل الجنة آتى أكله » . والمعنى على هذا عند الفراء : كل شيء من الجنة آتى أكله . والأكل ( بضم الهمزة ) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أكل ، ومنه قوله تعالى : « أَكُلْهَا دَائِمٌ » (١) وقد تقدم . ( وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ) أى لم تنقص . قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ) أى أجرينا وشققنا وسط الجنة نهر . ( وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ) قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبي إسحاق « ثمر » بفتح التاء والميم ، وكذلك قوله : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » جمع ثمرة . قال الجوهرى : الثرة واحدة الثمر والثمرات ، وجمع الثمر ثمرات ، مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمر ثمرٌ ، مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثمار ، مثل أعناق وعنق . والتمر أيضا المال المثمر ، يخفف ويثقل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثمر » بضم التاء وإسكان الميم ، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمهما في الحرفين . قال ابن عباس : ذهب فضة وأموال . وقد مضى في « الأنعام » نحو هذا مبيّناً . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال [ أخبرنا ] (٢) هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحدا يقرأ « وكان له ثمر » لقطعت لسانه ، فقلت للأعمش : أناخذ بذلك ؟ فقال : لا ! ولا نعمة عين . (٣) فكان يقرأ : « ثمر » ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار ، ثم جمع ثمار على ثمر ، وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم ، لأن قوله : « كَلَّمْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا » يدل على أن له ثمارا .

قوله تعالى : ( فَقَالَ لِيَصَاحِبِهِ هُوَ يُحَاوِرُهُ ) أى يراجعه في الكلام ويحاوره . والمحاوره المجاورة ، والتحاوُر التجاوب . ويقال : كلمته فإحار إلى جوابا ، وما رجع إلى حوارة ولا حويرة ولا محورة ولا حوارا ، أى مارد جوابا . ( أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ) النفر : الرهط وهو مادون العشرة . وأراد هاهنا الإتياع والخدم والولد ، حسبما تقدم بيانه .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ . (٢) راجع ج ٧ ص ٤٩ . (٣) من جوفى : حدثنا .

(٤) في هذه الكلمة اثنا عشرة لغة : نعم عين ونعمة ونعام ونعم ( بفتحهم ) ونعمى ونعماي ونعام ونعم ونعمة ( بضمهم ) ونعمة ونعام ( بكسرها ) . وتنصب الكل بإضمار الفعل ؛ أى أنزل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .



قوله تعالى : وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ أَلْسَاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ( وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ) قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يطيف به فيها ويريه إياها . ( وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ) أى يكفره ، وهو جملة في موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . ( قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ) أنكر فناء الدار . ( وَمَا أَظُنُّ أَلْسَاعَةَ قَائِمَةً ) أى لا احسب البعث كائناً . ( وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي ) أى وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيمطيني أفضل منه لكرامتي عليه ؛ وهو معنى قوله : ( لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ) وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر . وفي مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد ، والتنبيه أولى ؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعالى : قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ( قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ) يهوذا أو تلميذا ؛ على الخلاف في اسمه . ( أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ) وعظه وبين له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سَوَّاهُ رَجُلًا » أى جعلك معتدل القامة والخلق ، صحيح الأعضاء ذكراً . ( لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ) كذا قرأه أبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية . وروى عن الكسائي « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى ، فاضرب أسمها فيها . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ،

تقديره : لكن الله هو ربى أنا ، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى التونين فى الأخرى وحذفت ألف «أنا» فى الوصل وأثبتت فى الوقف . وقال النحاس : مذهب الكسائى والقراء والمأزني أن الأصل لكن أنا فالقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكنا وهى ألف أنا لبيان الحركة . وقال أبو عبيد : الأصل لكن أنا ، فحذفت الألف فالتقت نونان بفاء بالتشديد لذلك ، وأنشدنا الكسائى :

هَـنَـكَ مِنْ عَيْسِيَّةٍ لَوَسِيَّةٍ \* عَلَى هَنَوَاتٍ كَاذِبٍ مِنْ يَقُولِهَا

أراد : لله إنك [لوسية<sup>(١)</sup>] ، فأسقط إحدى اللامين من « لله » وحذف الألف من إنك . وقال آخر بفاء به على الأصل :

وَرَمَيْتَنِ بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مَذْـبُ \* وَتَقْلِيذِنِي لَكِنْ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي<sup>(٢)</sup>

أى لكن أنا . وقال أبو حاتم : ورووا من عاصم « لكنا هو الله ربى » وزعم أن هذا لحن ، يعنى إثبات الألف فى الإدراج . قال الزجاج : إثبات الألف فى « لكنا هو الله ربى » فى الإدراج جيد ؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا . قال : وفى قراءة أبيّ « لكن أنا هو الله ربى » . وقرأ ابن عامر والمسيلى<sup>(٣)</sup> عن نافع ورؤيس عن يعقوب « لكنا » فى حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف . وقال الشاعر :

أَنَا سَيْفُ الْعَشِيرَةِ فَأَعْرِفُونِي \* حَمِيدًا قَدْ تَذَرَيْتُ السَّامَا

وقال الأعشى :

فَكَيْفَ أَنَا وَأَتَّحَالُ الْفَوَاقِ \* بَعْدَ الْمَشِيبِ كَفَى ذَاكَ عَارَا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف . (هُوَ اللَّهُ رَبِّي) « هُوَ » ضمير القصص والشأن والأمر ؛ كقوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقوله : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . (وَلَا تُشْرِكُ<sup>(٤)</sup>)

(١) من جوى . (٢) فى جوى : ورميتنى بالطرف أى أنت مذهب . وتقليدنى لكن إياه لا أقول .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد . وهذه النسبة إلى مسيلة (كدينية) بلدة بالنظر الحجازى .

(٤) راجع ج ١١ ص ٣٤٠ . (٥) راجع ج ٢٠ ص ٢٤٤ .

رَبِّي أَحَدًا) دَلَّ مفهومه على أن الأَخَ الأَحْرَكَانَ مشركاً بالله تعالى يعبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه ، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا ديناه قدر عليه ؛ وهو الذى آتانى الفقر . ويحتمل أنه أراد بحودك البعث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه ، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى ، ومن عجيزه سبحانه وتعالى شبهه بخلقه ؛ فهو إشراك .

قوله تعالى : وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنُّنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ) فيه مسانان : الأولى - قوله تعالى : ( وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ) أى بالقلب ، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر ورد عليه ، إذ قال : « مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا » و « مَا » فى موضع رفع ، تقديره : هذه الجنة هى ما شاء الله . وقال الزجاج والقرءاء : الأمر ما شاء الله ، أو هو ما شاء الله ؛ أى الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر ، أى ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون . « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » أى ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك ، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانية - قال أشهب قال مالك : ينبغى لكل من دخل منزله أن يقول هذا . وقال ابن وهب : قال لى حَفْصُ بْنُ مَيْسَرَةَ : رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى هريرة : « ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة - أو قال كثر من كنوز الجنة » قلت : بلى يا رسول الله ، قال « لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم » أخرجه مسلم .

في صحيحه من حديث أبي موسى . وفيه : فقال ” يا أبا موسى أو يا عبدالله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة — في رواية على كنز من كنوز الجنة — “ قلت : ما هي يا رسول الله ؟ قال : ” لا حول ولا قوة إلا بالله “ . وعنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة “ قلت : بلى ؛ فقال ” لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم “ . وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الملك هُديت ، وإذا قال ما شاء الله قال الملك كُفيت ، وإذا قال لا قوة إلا بالله قال الملك وُقيت . أخرجه الترمذی من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قال — يعني إذا خرج من بيته — باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفيت وُقيت وتحتى عنه الشيطان “ — هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . أخرجه أبو داود أيضا وزاد فيه — فقال له : ” هُديت وكُفيت وُقيت “ . وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال باسم الله قال هُديت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال وُقيت وإذا قال توكلت على الله قال كُفيت قال فيأتيه قريانه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدي وُقي وكُفي “ . وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث : سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : ” تحتاج الجنة والنار فقالت هذه — يعني الجنة — يدخلني الضعفاء “ من الضعيف ؟ قال : الذي يرى نفسه من الحول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من رأى شيئا فأعجبته فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين “ . وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رضى به . وروى أن من قال أربعا آمين من أربع : من قال هذه آمين من العين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل آمين من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمري إلى الله آمن مكر الناس ، ومن قال : « لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » آمين من العَم .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴾ « إِن » شرط « تَرَىٰ » مجزوم به ، والجواب « قَعَمَىٰ رَبِّي » و « أَنَا » فاصلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون في موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرا عيسى بن عمر : « إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ » بالرفع ، يعمل « أَنَا » مبتدأ و « أَقْلَمَ » خبره ، والجملة في موضع المفعول الثاني ، والمفعول الأول النون والياء ، إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها ، وإثباتها جيد بالغ وهو الأصل لأنها الإسم على الحقيقة . و ﴿ قَعَمَىٰ ﴾ بمعنى لعل ، أى فعمل ربى . ﴿ أَن يُوْبِّيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ أى فى الآخرة . وقيل : فى الدنيا . ﴿ وَرُبِّلَ عَلَيْهَا ﴾ أى على جنتك . ﴿ حُسْبَانًا ﴾ أى مراعى من السماء ، واحدها حُسْبَانَةٌ ، قاله الأخفش والفُتَيْي وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابى : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوسادة ، والحسبانة الصَّاعِقَةُ . وقال الجوهري : والحسبان . ( بالضم ) : العذاب . وقال أبو زياد الكلابي : أصاب الأرض حسيان أى جراد . والحسيان أيضا الحساب ، قال الله تعالى : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ » . <sup>(١)</sup> وقد فسر الحُسْبَانُ هنا بهذا . قال الزجاج : الحسيان من الحساب ؛ أى يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما اكتسبت يداك ؛ فهو من باب حذف المضاف . والحسيان أيضا : سهام قصار يرمى بها فى طلائق واحد ، وكان من رمى الأكرسة . والمرامى من السماء عذاب . ﴿ فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ يعنى أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا ينبت عليها قدم ، وهى أَضْرَ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض ، و « زَلَقًا » تأكيد لوصف الصعيد ؛ أى ترل عنها الأقدام للاستها . يقال : مكان زَلَقٍ ( بالتحريك ) أى دَحْض ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زَلَقْتُ رجله تَزْلُقُ زَلَقًا ، وأزلقتها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رؤبة :

• كَأَنهَا حَقْبَاءُ بَلَقَاءُ الزَّلَقِ •

والمَزَلَقَةُ والمَزَلَقَةُ : الموضع الذى لا ينبت عليه قدم . وكذلك الزَّلَاقَةُ . والزَّلَقُ الحَلَقُ ، زَلَقَ رأسه يَزْلُقُهُ زَلَقًا حلقة ، قاله الجوهري . والزَّلَقُ المحلوق ، كالنَّقْضِ والنَّقْضِ . وليس المراد



أنها نصير منزلة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا خلق لا يبقى عليه شعر ،  
 قاله القشيري . ( أَوْ يُصْبِحَ مَآوَهَا غَوْرًا ) أى غائرا ذاهبا ، فتكون أعدم أرض للساء بعد  
 أن كانت أوجد أرض للساء . والغور مصدر وضع موضع الاسم ، كما يقال : رجلٌ صَوَّمٌ  
 وَفِطْرٌ وَعَدْلٌ وَرِضًا وَفَضْلٌ وَزُورٌ ونساء نوحٌ ؛ ويستوى فيه المذكر والمؤنث والثنية والجمع .  
 قال عمرو بن كلثوم :

نَظَلَّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيْهِ \* مَقْلَدَةً أَعْتَبَهَا صُفُوفًا

آخر :

هيريق من دموعهما سحبا \* ضُباع وجاوبى نوحا قياما  
 أى نائحات . وقيل : أو يصبح مآوها ذا غور ، فحذف المضاف ؛ مثل « وَأَسَالِ الْقَرْيَةَ »  
 ذكره النحاس . وقال الكسائي : ماء غور . وقد غار الماء يَغُورُ غَوْرًا وَغُورًا ، أى سفل  
 فى الأرض ، ويجوز الهمز لانضمام الواو . وغارت عينه تَغُورُ غَوْرًا وَغُورًا ، دخلت فى الرأس .  
 وغارت تغارغة فيه . وقال :

\* أَغَارَتْ عَيْنُهُ إِذْ لَمْ تَغَارَا \*

وغارت الشمس تغور غيارا ، أى غربت . قال أبو ذؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها \* وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

( فَان تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ) أى ان تستطيع رد الماء الغائر ، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فان  
 تستطيع طلب غيره بدلا منه . وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا آتَفَقَ فِيهَا  
 وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ لَيَلَيْسَنِي لَهُ أَشْرِكٌ بِرَبِّي أَحَدًا (٢٢)

قوله تعالى : ( وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ ) اسم ما لم يسم فاعله مضمَر ، وهو المصدر . ويجوز أن  
 يكون المنفوض فى موضع رفع . ومعنى « أَحِيطَ بِثَمَرِهِ » أى أَهْلِكَ مَالَهُ كُلَّهُ . وهذا أول  
 ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . ( فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ ) أى فأصبح الكافر يضرب إحدى

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فابعد .

يديه على الأخرى ندما ؛ لأن هذا يصدر من النادم . وقيل : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ؛ وهذا لأن الملك قد عبّر عنه باليد ، من قولهم : في يده مال ، أى فى ملكه مال . ودلّ قوله : « فَأَصْبَحَ » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله : « قَطَافٌ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » ويقال : أنفقت فى هذه الدار كذا وأنفقت عليها . ( وَجَى خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ) أى خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خَوِيَ النجوم تخوى خياً أَعْلَتْ ، وذلك إذا سقطت ولم تُمطر فى نَوْتِهَا . وأخوت مثله . وخَوَتْ الدار خَوَاءً أَقْوَتْ ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِأَظْغَمُوا » ويقال : ساقطة ؛ كما يقال : فهى خاوية على عروشها أى ساقطة على سقوفها ؛ بجمع عليه بين هلاك الترو والأصل ، وهذا من أعظم الجوائح ، مقابلة على بغيه . ( وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ) أى باليتنى عرفت نعم الله على ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : وَلَوْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ

مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) « فِئَةٌ » اسم « تَكُنْ » و « لَهُ » الخبر . « يَنْصُرُونَهُ » فى موضع الصفة ، أى فئة ناصرة . ويجوز أن يكون . « يَنْصُرُونَهُ » الخبر . والوجه الأول عند سبويه أولى لأنه قد تقدم « لَهُ » . وأبو العباس يخالفه ، ويحتاج بقول الله عز وجل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سبويه الآخر . و « يَنْصُرُونَهُ » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أى فرقة وجماعة يلتجئ إليهم . ( وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ) أى ممتنعاً ؛ قاله قتادة . وقيل : مسترداً بدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة فى « آل عمران » . والهاء عوض من الياء التى نقصت

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢١٦ فـ ٢٠٤ .

(٤) راجع ج ٤ ص ٢٤ .

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٢٨ فـ ٢٠٤ .

(٣) راجع ج ٢٠ ص ٣٤٤ فـ ٢٠٤ .

من وسطه ، أصله في مثل فيع ، لأنه من فاء ، ويجمع على فنون وفئات ، مثل شيات وليدات ومئات . أى لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله ، وضل عنه من افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعالى : هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف في العامل في قوله « هُنَالِكَ » وهو ظرف ؛ فقيل : العامل فيه . « وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ » ولا كان هنالك ؛ أى ما نُصِر ولا انتصر هنالك ، أى لما أصابه من العذاب . وقيل : تم الكلام عند قوله : « مُتَيْصِّرًا » . والعامل في قوله : « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ » ، وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحق هنالك ، أى في القيامة . وقرأ أبو عمرو والكسائي : « الْحَقُّ » بالرفع معنا للولاية . وقرأ أهل المدينة وحمة « الْحَقُّ » بالخفض معنا لله عز وجل ، والتقدير : لله ذى الحق . قال الزجاج : ويجوز « الْحَقُّ » بالنصب على المصدر والتوكيد ؛ كما تقول : هذا لك حقاً . وقرأ الأعمش وحمة والكسائي « الْوَلَايَةُ » بكسر الواو ، الباقيون بفتحها ، وهما بمعنى واحد كالرَّضَاعَةُ وَالرَّضَاعَةُ . وقيل : الولاية بالفتح من الموالاتة ؛ كقوله : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا » . « ذَلِكَ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِمَرْئِي الَّذِينَ آمَنُوا » . وبالكسر بمعنى السلطان والقدرة والإمارة ؛ كقوله : « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » (٢) أى له الملك والحكم يومئذ ، أى لا يرد أمره إلى أحد ؛ والملك فى كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتوقعات يوم القيامة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرهما للخلوق . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى الله خير ثواباً فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثم غير يُرجى منه ، ولكنه أراد في ظن الجاهل ، أى هو خير من يُرجى . ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمة ويحيى « عُقْبًا » ساكنة القاف ، الباقيون بضمها ، وهما معنى واحد ؛ أى هو خير عاقبة لمن رجا وآمن به . يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعقبه ، أى آخره .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٨٢ فابعد . (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٣٤ |

(٣) راجع ج ١٩ ص ٢٤٧ .

قوله تعالى : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألك طرد فقراء المؤمنين مَثَلُ الحياة الدنيا ، أى شبهها . (كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ) أى بالماء . (نَبَاتُ الْأَرْضِ) حتى استوى . وقيل : إن النبات اختلط ببعضه ببعض حين نزل عليه الماء ؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر . وقد تقدم هذا المعنى فى « يونس » مئيناً . وقالت الحكماء : إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع ، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء لا يبق ويذهب كذلك الدنيا تفتى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يتخلل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنها وأفتها ، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً مُنْتَبِهاً ، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً ، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر . وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يا رسول الله ، إنى أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال : ” ذَرِ الدُّنْيَا وَخُذْ مِنْهَا كَالْمَاءِ الرَّائِدِ فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنْهَا يَكْفَى وَالكَثِيرُ مِنْهَا يُطْغَى ” . وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم : ” قد أنفع من أسلم ورُزق كفافاً وقنع الله بما آتاه ” . (فَأَصْبَحَ) أى النبات (هَشِيمًا) أى متكرماً من اليبس متفتتاً ، يعنى بانقطاع الماء عنه ، لحذف ذلك إيجازاً للدلالة الكلام عليه . والهشيم : كسر الشيء اليابس . والهشيم من النبات اليابس المتكسر ، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء . ومنه قولهم : ما فلان إلا هَشِيمَةٌ كَرَمٌ ؛ إذا كان ستمها . ورجل هَشِيمٌ : ضعيف البدن . وتهتم عليه فلان إذا تعطفوا واهتموا

ما في ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَمَّ التَّريْدُ ؛ ومنه سَمِيَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ واسمه عمرو ، وفيه يقول عبد الله بن الزُّبَيْرِ :

عَمَرُوا الْعَلَا هَمَّ التَّريْدَ لِقَوْمِهِ \* وَرَجُلٌ مَكَّةَ مُسْتَبُونَ عَجَافُ

وكان سبب ذلك أن قريشاً أصابتهم سِنُونُ ذَهَبٍ بِالْأَمْوَالِ نَفْرَجَ هَاشِمٌ إِلَى الشَّامِ فَأَمَرَ بِخَبْزِ كَثِيرٍ نَفْخِيزِهِ ، فحمله في الغُرَارِ عَلَى الْإِبِلِ حَتَّى وَافَى مَكَّةَ ، وَهَشَمَ ذَلِكَ الْحَبْزُ ، بِمَعْنَى كَسَرِهِ وَتَرَدُّدِهِ ، وَنَحَرَ تِلْكَ الْإِبِلَ ، ثُمَّ أَمَرَ الطَّهَاهُ فَطَبَخُوا ، ثُمَّ كَفَا الْقُدُورَ عَلَى الْحَفَانِ فَأَشْبَعَ أَهْلَ مَكَّةَ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْحَبَاءِ بَعْدَ السَّنَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ ؛ فَسَمِيَ بِذَلِكَ هَاشِمًا . (تَذْرُوهُ الرِّيحُ) أَي تَفْرِقُهُ ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ . أَبْنُ قَتِيْبَةٍ : تَسْفَهُ . ابْنُ كَيْسَانَ : تَذْهَبُ بِهِ وَتَجِيءُ . ابْنُ عَبَّاسٍ : تَذِيرُهُ ؛ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ . وَقَرَأَ طُلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ : «تَذْرِيهِ الرِّيحُ» . قَالَ الْكِسَائِيُّ : وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ «تَذْرِيهِ» . يَقَالُ : ذَرَّتْهُ الرِّيحُ تَذْرُوهُ ذَرًّا وَ[تَذْرِيهِ] ذَرِيًّا وَأَذْرَتْهُ تَذْرِيهِ إِذْ رَأَتْ إِذَا طَارَتْ بِهِ . وَحَكِي الْفَرَاءُ : أَذْرَيْتَ الرَّجُلَ عَنْ فَرْسِهِ أَي قَلْبَتِهِ . وَأَنْشَدَ سَيَبُويه وَالْفَرَاءُ :

فَقُلْتُ لَهُ صَوَّبٌ وَلَا تَجْهَدْنَهُ \* فَيُذْرِكُ مِنْ أُخْرَى الْقَطَاةِ فَرَلَقِي

قوله تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) مِنَ الْإِنْسَاءِ وَالْإِفْنَاءِ وَالْإِحْيَاءِ ، سَبَّحَانَهُ !

قوله تعالى : أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وَيُجَوِّزُ «زِينَةُ» وَهُوَ خَيْرُ الْإِبْتَدَاءِ فِي التَّنْثِيَةِ وَالْإِفْرَادِ . وَإِنَّمَا كَانَ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِأَنَّ فِي الْمَالِ جَمَالَ وَنُفْعًا ، وَفِي الْبَنِينَ قُوَّةً وَدَفْعًا ، فَصَارَا زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لَكِنْ مَعَهُ قَرِينَةُ الصِّفَةِ لِلَّالِ

(١) فِي ج : سَنَاتٌ . (٢) فِي كِتَابِ سَيَبُويه : «فَيَذْكُ» وَهِيَ رِوَايَةُ أُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ . وَقَدْ نَسَبَ سَيَبُويه إِلَى عَمْرِو بْنِ عِمَارٍ الطَّائِي . وَمَعْنَى صَوَّبٌ : خَذَ الْقَصْدَ فِي السَّرِّ وَارْتَفَقَ بِالْفَرَسِ وَلَا تَجْهَدُ . وَأُخْرَى الْقَطَاةُ : آخَرُهَا وَالْقَطَاةُ : مَقْعِدُ الرِّدْفِ . (أَي مَوْخِرُ الظَّهْرِ حَيْثُ يَكُونُ رِدْفُ الرَّابِكِ) يَقُولُ هَذَا لِقَلَامِهِ وَقَدْ حَمَلَهُ عَلَى فَرْسِهِ لِيَصِيدَ لَهُ . (رَاجِعِ الشُّنْمَرِيَّ عَلَى كِتَابِ سَيَبُويه)



والبين ؛ لأن المعنى : المال والبنون زينة هذه الحياة المخذلة فلا تقيموها نفوسكم . وهو ردٌّ على عيينة بن حصن وأمثاله لما افتخروا بالثنى والشرف ، فأخبر تعالى أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، كالحشيم حين ذرته الريح ؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيَّ ذاهب ، ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك ، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لغيرك . ويمكن في هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » .

قوله تعالى : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » أى ما ياتى به سلمان وصهيب وفقراء المساكين من الطاعات . « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَّابًا » أى أفضل . « وَخَيْرٌ أَمَلًا » أى أفضل أملا من ذى المال والبين دون عمل صالح ، وليس في زينة الدنيا خير ، ولكنه نخرج نخرج قوله : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا » . وقيل : خير في التحقيق مما يظنه الجهال أنه خير في ظنهم .

واختلف العلماء في « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » ؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة وعمر بن شريك : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة . وقال ابن زيد ورجحه الطبري . وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا . وقال على رضى الله عنه : الحُرث حُرثان فحُرث الدنيا المال والبنون ؛ وحُرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور : هى الكلمات الماثورة فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . نرجه مالك في موطنه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النسائي عن أبى سعيد الخدري أن رسول الله

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢١ فابعد .

(١) راجع ج ١٨ ص ١٤٠ فابعد .

صلى الله عليه وسلم قال : " استكنوا من الباقيات الصالحات " قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : [ المسئلة . قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال : ] " التكبير والتبجيل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله " . صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله . وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْنًا فخرطه حتى سقط ورقه وقال : " إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتت خطاياهم كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فلنهن من كنوز الجنة وصفنا الكلام وهن الباقيات الصالحات " . ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فلنهن معنى يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " . وأخرجه الترمذى من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضرها بعصاة فتناثر الورق فقال : " إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة " . قال : هذا حديث غريب ، ولا تعرف للأعمش سمعا من أنس ، إلا أنه قد رآه ونظر إليه . وخرج الترمذى أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال يا إلهي أفرأيت أمك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " قال : حديث حسن غريب ، أخرجه الماوردي بمعناه . وفيه — فقلت : وما غراس الجنة ؟ قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله " . وخرج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يفرس غرسا فقال : " يا أبا هريرة ما الذى تفرس ؟ " قلت غراسا . قال " ألا أدلك على غراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يفرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة " . وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمات ؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع ؛ قاله الحسن . وقال عبيد ابن عمير : هن البنات ؛ يدل عليه أوائل الآية ؛ قال الله تعالى : « الْمَسَالُ وَالْمَبْنُونِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ثم قال : « وَالْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ » يعنى البنات الصالحات هن عند الله لا باهن خير ثوابا ،

وخبر أملا في الآخرة لمن أحسن اليقين ؛ يدل عليه ما روتنه عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على امرأة مسكينة ... الحديث ، وقد ذكرناه في سورة النحل في قوله : « يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ » الآية <sup>(١)</sup> . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد رأيت رجلا من امتي أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربِّ إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحمه الله بهن » . وقال قتادة في قوله تعالى : « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا » قال : أبدلها منه ابنة فتزوجها نبي فولدت له اثني عشر غلاما كلهم أنبياء .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قال بعض التحويين : التقدير والباقيات الصالحات خبر عند ربك يوم نسير الجبال . قال النحاس : وهذا غلط من أجل الواو . وقبل : والمعنى وآذ كر يوم نسير الجبال ، أى نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض ، ونسيرها كما نسير السحاب ، كما قال في آية أخرى . « وَهِيَ تَمُورُ السَّحَابِ » . ثم تكسر فتعود إلى الأرض ، كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » . وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ » بناء مضمومة وفتح الياء . و « الجبال » رفعا على الفعل المجهول . وقرأ ابن محيىن ومجاهد « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ » بفتح التاء مخففا من سار . « الجبال » رفعا . دليل قراءة أبي عمرو « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » . ودليل قراءة ابن محيىن « وَتُسَيِّرُ الْجِبَالَ سُيْرًا » . واختار أبو عبيد القراءة الأولى « نسير » بالنون لقوله : « وَحَشَرْنَاهُمْ » . ومعنى « بَارِزَةً » ظاهرة ، وليس عليها ما يستترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ؛ أى قد أجتثت ثمارها وقلعت جبالها ، وهدم بنيانها ؛ فهى بارزة ظاهرة . وعلى هذا القول أهل التفسير . وقيل : « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ؛ كما قال « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا »

(١) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٣ فابعد . (٣) راجع ج ١٣ ص ...

(٤) راجع ج ١٧ ص ١٩٤ فابعد . (٥) راجع ج ١٩ ص ٢٢٥ فابعد .

وَتَخَلَّتْ<sup>(١)</sup> » وقال : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا<sup>(٢)</sup> » وهذا قول عطاء . ( وَحَشَرْنَاَهُمْ ) أى إلى الموقف . ( فَلَمْ نَقَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) أى لم ترك ؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عنترة :  
غَادَرْتُهُ مُتَمَقِّرًا أَوْصَالُهُ \* وَالْقَوْمُ بَيْنَ مُجَرَّجٍ وَبُجْدَلٍ

أى تركته . والمغادرة الترك ؛ ومنه القدر ؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمي الغدير من الماء غدير لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غداثر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا برّهم وفاجرهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : وَعِصُّوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ<sup>(٣)</sup> بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : ( وَعِصُّوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ) « صَفًّا » نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة ، كل أمة وزمرة صفًّا ؛ لا أنهم صف واحد . وقيل : جميعا ؛ كقوله : « ثُمَّ أَنتُوا صَفًّا<sup>(٥)</sup> » أى جميعا . وقيل : قياما . وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أخصروا جنتكم ويسروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفًا على أطراف أنا مل أقدامهم للحساب » .

قلت : هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية ، ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه في كتاب التذكرة ، ومنه نقلناه والحمد لله .

( لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ) أى يقال لهم : لقد جئتمونا حفاة عراة ، لا مال معكم ولا ولدا . وقيل : فرادى ؛ دليله قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ<sup>(٦)</sup> » . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . ( بَلْ زَعَمْتُمْ ) هذا خطاب لمنكرى

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٦٧ ف ١٥ . (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٤٧ .

(٣) راجع ج ١١ ص ٢١٥ ف ١٥ . (٤) راجع ج ٧ ص ٤٢ .

البعث ؛ أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” يحشر الناس يوم القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا “ قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : ” يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض “ . « غُرْلًا » أى غير مخنوقين . وقد تقدم فى « الأنعام »<sup>(١)</sup> بيانه .

قوله تعالى : وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِمْ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمَ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ( وَوَضَعَ الْكِتَابَ ) « الكتاب » اسم جنس ، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أيدي العباد ؛ قاله مقاتل . الثانى — أنه وضع الحساب ؛ قاله التكمي . فعبر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر ؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شك نعم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكعب : ويحك يا كعب ! حدثنا من حديث الآخرة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفِعَ اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتشر حول العرش ، وذلك قوله تعالى : « وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » قال الأسدى : الصغيرة مادنون الشرك ، والكبيرة الشرك ، إلا أحصاها — قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسنته بإيديات للناس وهو يقرأ سيئاته ليجلا يقول كانت لى حسنات فلم تذكر فأحب الله أن يريه عمله كله حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر



ذلك كله أنه مغفور وأنت من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول : « هَأُوْمُ أَفْرُهُوَا كِتَابِيَهٗ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ »<sup>(١)</sup> ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يلف فيجعل من وراء ظهره ويلوى عنقه ؛ فذلك قوله : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »<sup>(٢)</sup> فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته ليجلا يقول أفأنا ب على السيئات . وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلناه ! حَيُّوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الصَّغَاثِ قبل الجائر . قال ابن عباس : الصغيرة التيسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعنى ما كان من ذلك في معصية الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبي . وحكى المسوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك . قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية ، فإن الضحك من المعصية رضا بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم . أو يحتمل الضحك فيما ذكر المسوردي على التيسم ، وقد قال تعالى : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا »<sup>(٣)</sup> . وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللعم كالمسيس والقيل ، والكبيرة الواقعة والزنى . وقد مضى في « النساء » بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظاهرا ، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى « أَحْصَاهَا »<sup>(٤)</sup> عدها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعا . ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . ﴿ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يأخذ أحدا بمجرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمل ؛ قاله الضحاك . وقيل : لا ينقص طاعنا من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ<sup>(٥)</sup> أَفَتَسَخَّذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٦﴾

(٢) راجع ج ١٩ ص ٢٧٠ .

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٦٨ فابعد .

(٤) راجع ج ٥ ص ١٥٨ .

(٣) راجع ج ١٣ ص ١٧٥ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تقدم في « البقرة » هذا مستوفى . قال أبو جعفر النحاس : وفي هذه الآية . قال ، يقال : ما معنى . « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ففي هذا قولان : أحدهما — وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى ، فكان سبب الفسق أمرُ ربه ؛ كما نقول : أطعمته عن جوع . والقول الآخر — وهو مذهب محمد بن قُطُوب أن المعنى : فسق عن رد أمر ربه . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ وقف عز وجل الكفرة بل جهة التوبيخ بقوله : اتَّخَذُونَهُ يابنِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، أى أعداء ، فهو اسم جنس . ﴿ يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ أى يتَّسَّ عبادَةَ الشَّيْطَانِ بَدَلًا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ . أو يتَّسَّ إبليس بدلًا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبي : سألني رجل فقال هل لإبليس زوجة ؟ فقلت : إن ذلك عُرْسٌ لم أشهده ، ثم ذكرت قوله : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ » فقلت : أنه لا تكوث ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات ؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له في نخذه اليمنى ذكرًا وفى اليسرى فرجًا ، فهو ينكح هذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانًا وشيطانة ، فهو يخرج وهو بطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم فى بنى آدَمَ فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية ، وذريته أعوانه من الشياطين . قال القشيري أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن إبليس أتباعا وذرية ، وأنهم يورسون إلى بنى آدَمَ وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية فى كيفية التوالد منهم وحدثت الذرية عن إبليس ، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت فى هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبى بكر البرقاني أنه نرج فى كتابه مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن

أَوَّلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفزع . وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه ، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذرية» ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين ، الذين يأتون بالمتكر ويحملون على الباطل . وذكر الطبري وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين ، وكان يسمّهم زَلَنُور صاحب الأسواق ، يضع رايته في كل سوق بين السماء والأرض ، يجعل تلك الراية على حانوت أول من يفتح وآخر من يغلق . وتبر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والحرب والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار ، يأتي بها فيلقمها في أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع وما لم يحسن موضعه ، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : وإني ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلم ، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه . وأخصمتهم ، ثم أذكر فأقول : داسم داسم ! أعوذ بالله منه ! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد : والأبيض ، وهو الذي يوسوس للأتباء . وصخر وهو الذي اختلس خاتم سليمان عليه السلام . والولطان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومرة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنَى . والحفاف يكون بالصحارى يُضِلُّ الناس ويتهبهم . ومنهم الغيلان . وحكي أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفي في كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الحفاف هو صاحب الشراب ، ولقوس صاحب التحريش ، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الذارقي : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى ، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرّ منذ عشرين سنة ، فيحدث به في العلانية . قال ابن عطية : وهذا وما جانه مما لم يأت به سند صحيح ، وقد طوّل النقاش في هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة ، ولم يتر في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خُتْرَب . وذكر الترمذي أن للوضوء شيطانا يسمى الولطان .

قلت : أما ما ذكر من التعيين في الأسماء فصحيح ، وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولادا من صلبه ، كما قال مجاهد وغيره .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتنفزون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث . وفي مسند البزار عن سلمان الفارسي قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رأيه " . وفي مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى الأشعري قال : إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مساماً ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته ، قال : يوشك أن يترّوج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عقى ، قال : يوشك أن يبر . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شرب ، قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى ، قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل ، قال : أنت أنت ! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يحمي أحدهم فيقول فعأت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يحمي أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال فيلزمه ويقول نعم أنت " . وقد تقدّم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطى بشفر الإسكندرية يقول : إن شيطانا يقال له البيضاوى يتمثل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحك منهم الجوع وأضر بأدمعتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

(١) ف ج : المواطين .

حققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش



تم الجزء العاشر من تفسير القرطبي  
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادى عشر، وأوله قوله تعالى  
« ما أنشدهم خلق السموات والأرض »

---



